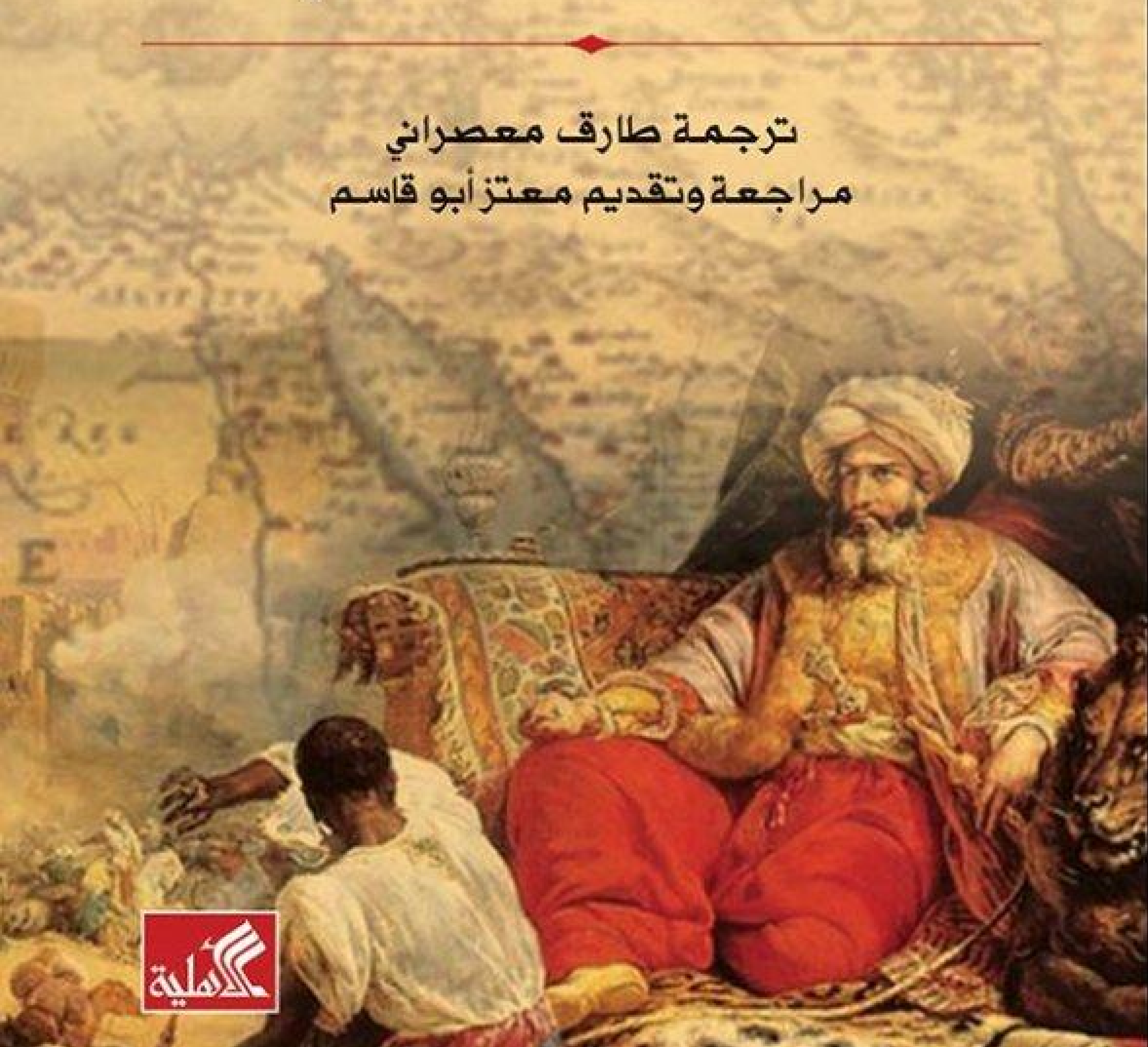
قسطنطين بازيلي

سورية وفلسطين
تحت الحكم العثماني

ترجمة طارق معصراني

مراجعة وتقديم معتز أبو قاسم



قسطنطين بازيلي

سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني

دار التقدم · موسكو

ترجمة طارق معصرانى

Базили К. М.

СИРИЯ И ПАЛЕСТИНА
ПОД ОСМАНСКИМ ВЛАДЫЧЕСТВОМ

На арабском языке

طبع فى الاتحاد السوفييتى

Б $\frac{0503030000—747}{014(01)—88}$ 183—89

ISBN 5-01-001352-5

الى القارئ العربى

يشغل مؤلّف بازيلى «سورية وفلسطين» حيزا خاصا بين العديد من الكتب التى الفها الممثلون والمندوبون القنصليون والرحالة والكتّاب عن سوريــة ولبنان وفلسطين فى النصف الاول من القرن التاسع عشر وفى اواسطه . فهو قبل كل شيء اول مؤلف واسع بما فيه الكفاية عن تاريخ المنطقة الحديـث خطه قلم مؤلف من المدرسة الاوربية استخدم المدونات العربية واقوال الكثير من شهود العيان والمساهمين فى الاحداث . ويتضمن الكتاب ، الى جانب وصف الاحداث المفصل والصادق ، محاولات لادراك فحوى العملية التاريخية فى مرحلة انعطافها . وكان المؤلف نفسه شاهدا على الاحداث الدرامية لاربعينات القرن التاسع عشر وحتى مساهما فيها ، تلك الاحداث التى خلفت اثرا عميقا فى حياة لبنان الاجتماعية – السياسية فى فترة القرن والنصف الاخيرة . وتحليل هذه الاحداث عميق الى درجة ان الكتاب لم يفقد اهميته الى الآن .

وللكتاب اهمية ايضا من وجهة نظر دراسة الاقطار العربية فى روسيا . وكان فريدا بالنسبة الى زمنه ، ولكى نفهم كيف كان يمكن ان يظهر مؤلـف كهذا فى روسيا ينبغى التوجه الى بعض وقائع سيرة بازيلى التى اثرت فـى تكوين نظرته وحدت به الى ان يعكف على دراسة تاريخ سورية .

ولد قسطنطين ميخايلوفيتش بازيلى فى ٣ شباط (فبراير) عام ١٨٠٩ فى القسطنطينية فى اسرة يونانية غنية . كان جده مالكا عقاريا كبيرا ، وبسبب مساهمته فى نضال الالبانيين ضد السلطات التركية عام ١٧٧٢ حكم عليـه بالاعدام غيابيا وجرد من املاكه . وكان ابوه ، ميخائيـل بازيــلى ، المتزوج بابنة صيرفى يونانى ثرى ، على صلة بالقوميين اليونانيين . فى عام ١٨٢١ ، حينما بدأت الانتفاضة اليونانية واجتاح التنكيل القاسى سكان الامبراطوريـة اليونانيين ، حكم عليه بالاعدام ايضا . وتسنى له الفرار من استنبــول بمساعدة المبعوث الروسى الكونت ستروغانوف . وساعد ستروغانوف اسرة بازيلى على الانتقال سرا الى اوديسا . يبدو انه ينبغى البحث فى هذه الاحداث التى اكتنفت طفولة مؤلف كتاب «سورية وفلسطين» عن مصادر تعاطفه مـع النضال الشعبى المناهض للاتراك وموقفه الانتقادى من الادارة التقليديـة للدولة العثمانية .

تلقى بازيلى تحصيلا عميقا فى العلوم الانسانية ، وذلك اول الامر فى مدرسة العلوم العالية فى مدينة نيجين الاوكرانية التى قبل فى قسمها الداخلى عام ١٨٢٢ ، ومن ثم فى ليسيه ريشيليه فى اوديسا التى اصبحت فيما بعد جامعة نوفوروسيا .

فى تلك السنوات كان الشباب فى روسيا يبلغون الرجولة فى سن مبكرة . وهذا ما كان يساعد عليه فى المدرسة مربون رائعون يستطيع الدارسون بفضلهم الاطلاع على مؤلّفات روسّو ومونتيسكيو وفولتر وكانط ، مما يمهد لتوسيع مداركهم العقلية . وساعد بدرجة لا تقل فى ذلك على التطور الفكرى القوام الرائع للدارسين الذين خرج منهم فيما بعد كتّاب وفنانون وعلماء مشهورون . وفى المدرسة عقدت اواصر الصداقة بين بازيلى والكاتب الروسى العظيم غوغول . فى تلك السنوات تكشف عند بازيلى ، الى جانب الميول الادبية ، اهتمام حى بالتاريخ .

فى عام ١٨٣٠ ، بعد التخرج فى الليسيه ، قام بازيلى بجولة فى تركيا واليونان . ان بازيلى ، وقد رفض اقتراح رئيس الجمهورية اليونانية كابوديستريا البقاء للعمل فى اليونان ، التحق بوظيفة حكومية فى روسيا ، حيث عمل ترجمانا عند الاميرال ريكورد الذى كان يقود فصيلة من الاسطول الروسى فى البحر الابيض المتوسط . وفى عام ١٨٣٣ ، اذ كان بازيلى يرافق ريكورد ، زار القسطنطينية ، وفى اواخر السنة نفسها عين فى الخدمة الفعلية فى القسم الاسيوى لوزارة الخارجية . عاد بازيلى الى بطرسبورغ وربط كل حياته اللاحقة بروسيا . وقد قال : «منحنى مصير الشرق ومصيرى الشخصى وطنا جديدا ، هو روسيا» .

فى بطرسبورغ اصبح بازيلى فى وسط اصدقاء المدرسة ، وغدا مساهما فى حلقة غوغول الادبية . ان الجو الادبى للمحيطين ببازيلى حفزه على التوجه الى الاعمال الادبية . وظهرت كتبه الاولى : «الارخبيل واليونان فى عامى ١٨٣٠ و١٨٣١» (سان بطرسبورغ ، ١٨٣٤ ، الجزءان ١-٢) و«مقالات من القسطنطينية» (سان بطرسبورغ ، ١٨٣٥ ، الجزءان ١-٢) و«البوسفور ومقالات جديدة من القسطنطينية» (سان بطرسبورغ ، ١٨٣٦ ، الجزءان ١-٢) التى يصف فيها جولته فى اليونان والارخبيل واقامته فى سميرنة (ازمير) واستنبول ، معيرا الكثير من الاهتمام لتاريخ سكانها وثقافتهم ومعيشتهم . كانت طفولته التى امضاها فى القسطنطينية تمكنه من ملاحظة خصائص الحياة السياسية للامبراطورية ومعيشتها الخفية عن اعين الرحالة الاوربيين .

فى اواسط ثلاثينات القرن التاسع عشر كتاب بازيلى للمطبوعات الدورية ، كما كتب مقالات من اجل «القاموس الموسوعى» لبلوشار و«القاموس الموسوعى العسكرى» . لقد نظم العمل لاجل الموسوعتين تفكيره وخلق لديه الاهتمام بنقل الواقع بدقة .

في عام ١٨٣٨ انقطعت حياة بازيلي في بطرسبورغ ، فقد عينته وزارة الخارجية في ٢٤ كانون الاول (ديسمبر) في منصب قنصل روسيا في يافا . ان مغادرة روسيا ، وقد غيرت مادة اهتماماته العلمية والادبية ، لم تقطع صلاته الابداعية باوساط بطرسبورغ . وبقي بازيلي كالسابق يكتب كثيرا ويدون مؤلفه الرئيسي ، كتاب «سورية وفلسطين» .

قبل التوجه الى النظر في الكتاب ينبغي قول بضع كلمات عن النشاط القنصلي لبازيلي . يرتبط باسم بازيلي تنظيم القنصلية الروسية في بيروت بالشكل الذي وجدت فيه على امتداد نصف قرن .

عند تعيين بازيلي في سورية كان قد مضى على وجود النشاط القنصلي الروسي هناك قرابة العقدين . ان اول مركز قنصلي في القرن التاسع عشر اقيم في يافا عام ١٨٢٠ ، وكان يمر عبر هذه المدينة الى القدس الحجاج الاوربيون ، ومن بينهم الروس الذين كانت حماية مصالحهم المهمة الاساسية للقنصلية . وفي ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت توجد وكالات قنصلية لروسيا في حلب واللاذقية وبيروت وصيدا . ولم يكن الوكلاء القنصليون ، الذين كانوا باغلبهم من التجار المحليين والتجار الاوربيين المقيمين في سورية ، يتلقون اجرا . كان هذا العمل يوفر لهم تقديرا معينا وفوائد مرتبطة بالامتيازات التجارية والسياسية التي كانت تشمل الرعايا الروس . وكانوا يؤدون واجباتهم على نحو رديء . في ايلول (سبتمبر) عام ١٨٣٩ شكا القنصل العام في الاسكندرية الكونت ميديم الى السفير الروسي في القسطنطينية ان الوكلاء الذين يمارسون النشاط التجاري يخافون الاضرار بعلاقاتهم بالموظفين الاتراك ولذلك يدافعون على نحو سيئ عن مصالح الروس . وكانوا كذلك يعلمون القنصل العام على نحو غير مرض بوضع سورية السياسي الداخلي .

بيد ان النزاع الدولي الحاد عامي ١٨٣٩–١٨٤٠ ، الذي كانت مسألة سورية تشغل مركز الصدارة فيه ، كان يشهد على اهتمام الدول الاوربية المتعاظم بهذا الجزء من الامبراطورية العثمانية . فقد جرى منذ القرن الثامن عشر صراع بين انكلترا وفرنسا من اجل السيطرة على السوق السورية . وفي عشرينات وثلاثينات القرن التاسع عشر تدفق الى سورية سيل من البضائع الانكليزية والفرنسية المنتجة في المعامل . وظهرت في انكلترا منذ النصف الاول من القرن التاسع عشر خطط لاستخدام اراضي سورية من اجل اقامة طريق مائي او خط حديدي الى الخليج العربي . ونشط ايضا تغلغل انكلترا وفرنسا السياسي في سورية . وكانت الدولتان تملكان في البلاد شبكة متشعبة من القناصل والمندوبين والوكلاء القنصليين الذين يتمتعون بتجربة كبيرة في الخدمة . وكان القناصل يتدخلون في الشؤون الداخلية للولاية واستطاعت كل من الدولتين حتى عام ١٨٤٠ ان تقيم في سورية سندا سياسيا

لها : فرنسا وسط الاقطاعيين ورجال الدين الموارنة ، وانكلترا وسط الدروز .

لم يغب النشاط المتعاظم للدول الاوربية الغربية عن انظار روسيا ، واقلق الاوساط الحكومية الروسية ، لان ازدياد نفوذ اية دولة فى اى جزء من الامبراطورية العثمانية كان يعقد المسألة الشرقية ، احدى المسائل الاساسية فى السياسة الخارجية للقيصر نيقولاى الاول . ومع ان الاهتمام الاساسى للحكومة القيصرية كان منصبا على تركيا الاوربية والمضائق ، فان معاهدة اونكيار اسكيليسى فتحت آفاق التدخل فى شؤون تركيا الاسيوية ايضا .

من المعروف ان روسيا كانت تطمع فى فرض حمايتها على السكان الارثوذكس فى الامبراطورية العثمانية ، كما كانت فرنسا تطمع فى فرض حمايتها على الكاثوليك . ونتيجة لتشديد الدعاية الكاثوليكية والاونية والبروتستانتية والنشاط السياسى للعملاء الفرنسيين والاميركيين والانكليز فى سورية بدأ عدد الارثوذكس بالتقلص هناك . وهذا ما اقلق الحكومة الروسية ايضا . وليس مصادفة ان تشغل الارشادات فى صدد مسائل مصالح الدين والكنيسة الشرقية حيزا مركزيا فى التعليمات التى وجهت الى بازيلى عند تعيينه فى منصبه . كانت رحلة بورفيرى اوسبينسكى الى فلسطين فى عام ١٨٤٣ وتأسيس اول بعثة دينية لروسيا فى القدس عام ١٨٤٧ تحت اشرافه ناجمين عن السعى الى تنظيم مجابهة السياسة الدينية الفرنسية والانكليزية .

وهكذا ، واجهت ممثل روسيا فى سورية مهمات جديدة تتجاوز بعيدا نطاق صلاحيات القنصل فى يافا .

فى آب (اغسطس) عام ١٨٣٩ تلقى بازيلى وهو فى استنبول تعليمات من السفير الروسى بوتينيف وتوجه الى الاسكندرية ليقدم نفسه الى القنصل العام ميديم الذى كان يخضع له فى ذلك الحين القناصل والوكلاء الروس المقيمون فى سورية . ان بازيلى ، وقد اطلع على تنظيم العمل القنصلى فى سورية ، اقترح على ميديم نقل المركز القنصلى من يافا الى بيروت التى كانت قد ترسخت فيها حتى ذلك الحين قنصليات الدول الاوربية ، وكذلك نشر دائرة اختصاص قنصلية بيروت الى سورية باسرها ، وهذا من شأنه ان يرفع مرتبة القنصل الروسى فى قوام السلك القنصلى فى بيروت . اقرت المراجع العليا هذه الاقتراحات ولكن مع الحد من المناطق التابعة ، الا انه نفذت خطة بازيلى كاملة فى عام ١٨٤٣ وحولت قنصلية بيروت الى قنصلية عامة ، واصبح بازيلى قنصلا عاما .

كان نشاط بازيلى فى سورية بصفته قنصلا فى غاية التنوع - من المساهمة فى مناقشة واعداد صفة لبنان الادارية الى تسوية المشاحنات بين

السكان الارثوذكس . يلقي بازيلي بعض الاضواء على دائرة واجباته في مقدمة كتابه .

تتبع بازيلي باهتمام الاستياء الذي عم الجماهير الشعبية في سورية في اربعينات القرن التاسع عشر . قال في تقريره الى القسطنطينية في آب (اغسطس) عام ١٨٤١ : «لا يزال من المستحيل تقدير طابع الثورة المعنوية التي اجتاحت البلاد بقوة ، وقد انهارت مؤسساتها البطريركية انقاضا . . . بيد انه لا توجد بعد في البلاد مؤثرات قوية او مبادئ واضحة من شأنها ان تحل مكان المؤسسات القديمة» . يشير هذا التقدير الى مبدئية بازيلي عند النظر في العمليات التي جرت في وعي الشعب اللبناني الذي هب لتوه الى النضال ضد النير الاقطاعي .

بعد شهرين اهتز لبنان بالصدامات الدرزية — المارونية . وكما هو معروف ، استغلت الدول الكبرى هذا النزاع للتدخل في شؤون سورية ، وقد تحول الى مسألة من مسائل السياسة الكبيرة ، وانهمك به الباب العالي والدول الكبرى . ونوقشت المسألة الدرزية — المارونية بنشاط في الصحافة والمطبوعات الاوربية الغربية . واعد الدبلوماسيون مشاريع لتحويل البناء الاداري للبنان .

واذ عارض بازيلي «الآراء المزيفة والمتحيزة السائدة في اوربا» بوجهة نظره ازاء التناحر الدرزي — الماروني ، كتب يقول : «لم تكن العداوة الدينية بين القبيلتين سببا للحرب ، بل نتيجة لها» . وبعد اسبوعين من بدء الصدامات كتب بازيلي الى السفير في القسطنطينية : «ان الهزات العنيفة في السنة الماضية وسوء تصرف السلطات التركية ، بل ربما غدرها ، ودسائس العملاء الفرنسيين وسط الموارنة وكهنتهم المتعصبين والتفوق الذي منحه الباب العالي لرئيس هؤلاء الكهنة والمبالغ التي ارسلتها فرنسا والنمسا على شكل تبرعات خيرية وعجز وعناد امير الجبال وامل الدروز في دعم انكلترا هي التي ادت الى الحرب الاهلية» . ومع تطور الاحداث كان يتبلور عند بازيلي تصور اوضح لاسباب الصدامات الدرزية — المارونية . وفي صيف عام ١٨٤٥ صاغ في احد التقارير فكرته بوضوح تام : «ان الصراع بين الطوائف والاقطاعيين الذي اسبغ عليه اختلاف الاجناس والاديان في المناطق المختلطة طابع حرب اهلية قد شمل كل سكان لبنان» . وقد استرشد بهذه التصورات من حيث الجوهر ، اذ وضع خطته لتسوية الوضع في لبنان التي قدمها في كانون الثاني (يناير) عام ١٨٤٢ الى السرعسكر مصطفى باشا ردا على طلبه (طلب السرعسكر السري .

ان «نزع سلاح الجماهير والغاء سلطة الشيوخ والامراء غير الشرعية» كانا ، في رأي بازيلي ، وسيلة يعول عليها من اجل «تهدئة البلاد» . كان يفترض انه ينبغي ان يجد السكان عند الحكومة التركية الدعم والحماية «من

ابتزازات الشيوخ» وكان يعتبر ان من الممكن وضع مسلم غير لبناني رئيسا للبنان وتشكيل مجالس لديه من ممثلي كل الطوائف . ونصت الخطة على تقييد سلطة المقاطعجية والسماح لهم بجباية الضريبة «على اساس ثابت» دون عسف او جور . واخيرا ، طرح بازيلي هذه الموضوعة : «لا يمكن بيع ملكية الفلاح الا لفلاح ، وملكية الشيخ او الامير الا لشيخ او امير ، وملكية الدير او الكنيسة الا لدير او كنيسة» . على هذا النحو ، اقترح بازيلي خطة تنص على الحد من عسف الاقطاعيين واقامة نظام للادارة اكثر مركزية ودرء اطراد تجريد الفلاحين من الارض . وقد وقف قنصل بريطانيا ، خلافا للقنصل الروسى ، الى جانب الحصانة الكاملة لامتيازات الاقطاعيين اللبنانيين .

ان اقتراحات بازيلي حول الحد من سلطة الشيوخ لم تكن ايضا تتفق ومصالح الاتراك . وكانت من نتيجة تقديم هذا المشروع شكوى القنصلين الانكليزى والفرنسى الى سفيريهما فى القسطنطينية التى اتهما فيها بازيلي بدعم مصطفى باشا خلافا لمصالح المسيحيين . وتلقى بازيلي توبيخا من السفير الروسى بسبب تصرفاته المستقلة .

فى عام ١٨٤٤ ، حين بدأ النزاع الدرزى – المارونى يحتدم من جديد ، قدم بازيلي الى السفير الروسى فى القسطنطينية مشروعا جديدا نسقه هذه المرة مع زميليه الفرنسى والانكليزى . وكان المبدأ الاساسى لهذا المشروع اقتراح الاستعاضة عن سلطة المقاطعجية بسلطة تمثيلية وتسليم القائم مقام وظائف المقاطعجية فى جبى الضرائب وما شابه ذلك . واذ عرض اضافة الى المشروع آراءه الخاصة ، كتب ان من المستحسن ألا يكون على رأس لبنان قائم مقامان ، مما يزيد فقط من التناحر الدروزى – المارونى ، بل حاكم ذو سلطة كاملة قادر على مقارعة انفصاليـة الاقطاعيين . وهكذا سبق بازيلي الاحكام الاساسية لصفة لبنان التنظيمية لعام ١٨٦١ : الغاء سلطة المقاطعجية ، تصفية القائم مقاميتين الدروزية والمارونية ، تعيين متصرف واحد تشكل لديه مجالس تدير تحصيل الضرائب .

ننوه بان بازيلي مدين بتغلغله فى كنه القضية الدرزية – المارونية لا لاتجاه آرائه العام بصدد العمليات التاريخية الجارية فى الامبراطورية العثمانية وحسب ، بل ولتعمقه فى دراسة تاريخ البلاد . واسفرت الدراسة المثابرة للمنطقة و«قبائلها» (استخدم بازيلي مصطلحي «القبائل» و«الاجناس» وما شابه ذلك بمعنى لم يكن قد نال بعد مضمونه العلمى المحدد ، والمقصود فى هذه الحالة مختلف فئات السكان الاثنية) عن كتابة مؤلّفين غنيي المضمون للغاية ، وهما «ملاحظات حول التجارة الخارجية لسورية» و«تجربة الاحصاء الدينى فى سورية ولبنان» . وانجز بازيلي كتاب «سورية وفلسطين» فى اواسط عام ١٨٤٧ . وفى ربيع السنة التالية بذل محاولة فاشلة لاصداره . ويفسر الشاعر الروسى فيازيمسكى هذا الاخفاق بظرف شكلى ، وهو ان

مؤلّفه ، بصفته شخصية رسمية ، لم ينل موافقة وزارة الخارجية على اصدار كتاب يمس القضايا السياسية الخارجية . ومن المميز ان الرقابة لم تسمح باصدار الكتاب الا فى عام ١٨٦١ ، اى بعد ثمانى سنوات من مغادرة بازيلى لسورية . ويجدر بالذكر ان هذا جرى بعد نشر بيان القيصر حول تحرير الفلاحين من تبعية القنانة . وهذا ما يعطى المسوغات للتفكير فى ان اسبابا ذات صفة فكرية ايضا عرقلت اصداره . وقد صدر كتاب «سورية وفلسطين» لاول مرة فى اوديسا عام ١٨٦٢ ، وفيما بعد اعيد طبعه مرارا .

حين نشر هذا الكتاب كان بازيلى قد ترك الخدمة الدبلوماسية ، وكان يعيش فى اوديسا ، وكانت عنده اراض فى جنوب روسيا ، وكان عضوا فى بنك خيرسون العقارى ونائبا لرئيس جمعية الزراعة فى جنوب روسيا وما شابه ذلك . كان ذلك مرحلة جديدة فى نشاطه ، ولم يعاود العمل العلمى بعد ذلك .

توفى بازيلى فى ١٠ شباط (فبراير) عام ١٨٨٤ .

كتب بازيلى فى المقدمة : «اذا ادرج كتابى فى طائفة المواد التى تفيد دراستها عند البحث فى مسألة مصير الشرق ، فانى اعتبر ان جهدى لم يذهب هدرا» . وهكذا ، فقد بذل هذا الجهد ليجلب فائدة عملية فى حل المسألة الشرقية . فكيف كان يتصور بازيلى حل مسألة مصير الشرق ؟

انه صاحب الكلمات المهمة التالية : «بالنسبة الى آسيا مضت منذ امد بعيد تلك الازمنة ، حينما كانت العبقرية الاوربية تقرر مصير هذه القارة الشاسعة بجيش من ٣٠ الف نفر وبثلاث معارك . فى الشعوب الاسيوية يكمن جنين وعبقرية مصيرها المقبل» . ولما كان نصيرا للمبدأ النظرى ، الذى يعتبر التاريخ بناء عليه عملية تطور تخضع لسنن معينة ، فقد رأى هذا التطور الطبيعى لشعوب الامبراطورية فى تدمير «مجتمعها الاقطاعى» وفى ظهور مجتمع جديد «بلدى» (قائم على نظام الادارة الذاتية والتمثيل) . يقول فى خاتمة كتابه : «. . . استعرضنا احداث سورية فى القرون الثلاثة الاخيرة وبحثنا بدقة فى بداية وتطور المجتمع الاقطاعى للقبائل الجبلية . . . ورأينا كذلك البوادر الاولى للاتجاه البلدى للجماهير الشعبية وتأثير التحولات الحكومية للامبراطورية العثمانية فى هذا الاتجاه الخاضع ايضا فى كل مكان لقوانين التطور الطبيعى للمجتمعات المدنية . ورأينا صراع هذين المبدئين والانتصارات الاخيرة تقريبا للقانون الاقطاعى فى المجتمع اللبنانى الذى يسبق فى المدنية القبائل الاخرى فى الاسرة العربية الكبيرة» . وبتعبير آخر ، كان يفترض ان «الانظمة الاقطاعية» فى لبنان – البلد الذى كان يسبق الاقطار العربية الاخرى فى تطوره الاجتماعى – تعيش ايامها الاخيرة وان تطور وانتصار «الاتجاه البلدى» هو قانون لتطور المجتمعات المدنية . (طبيعى انه لم يكن يقصد بالانظمة «الاقطاعية» و«البلدية» سوى الانظمة الحقوقية –

السياسية . ولكن قيام «الاتجاه البلدى» كان يعنى ، فى رأى بازيلى ، توطد نظام سياسى فى اطار المجتمع الاقطاعى ينهض بالشعب الى المساهمة فى الادارة ويساعد ، حسب تعابيرنا الحالية ، على تفكك الاقطاعية .)

وهكذا ، بدأ تدمير النظام «الاقطاعى» فى البلدان التى يضطهدها الاتراك ، ولكن مع هذه العملية تتقوض اسس السيطرة التركية على شعوب الامبراطورية : «. . . ان الحكومة العثمانية نفسها مع كل جهودها لعرقلة تطور الاقوام قد حكم عليها بناء على الاتجاه السياسى الذى اقر منذ عام ١٨٣٩ ان تساعد على تطورها التقدمى» . هكذا يوصل بازيلى القارئ الى الاستنتاج القائل بالانتصار المقبل الذى ستحرزه «القبائل التابعة» على غرار ما انجزه اليونانيون الذين «فتح لهم التطور الداخلى عهدا جديدا من الاستقلال» . لا بد من التنويه بفراسة بازيلى المدهشة ، فقد استنتج حتمية تفكك الامبراطورية العثمانية وانتصار الشعوب المضطهدة قبل عدة عقود من نشوء الحركة الوطنية العربية .

وبالمناسبة لم ينخدع بازيلى على غرار الكثير من معاصريه بالصبغة الوطنية المزيفة لادعاءات محمد علي تأسيس دولة عربية ، لان هذه الدولة لم تتأسس نتيجة لتطور داخلى يفتح للشعب «عهدا جديدا» . ان موقف بازيلى السلبى من محمد علي ، مع كل تأييده للكثير من مستحدثات الحاكم المصرى ، مرده الى ادراك التنافر بين تحولات محمد علي والامكانات الاجتماعية — السياسية والاقتصادية لمصر وكراهية الهدف الرئيسى للحاكم المصرى ، اى اثرائه الشخصى واثراء اسرته والمقربين اليه ، وكذلك ، على ما يبدو ، موقف الحكومة الروسية من محمد علي .

كان بازيلى نصيرا للتحولات الداخلية فى الامبراطورية العثمانية الموجهة نحو مركزة ادارة الدولة وازالة عسف وطغيان الحكام المحليين . وكان معجبا بالسلطان محمود الذى اجرى هذه التحولات . بيد ان بازيلى لم يقدر مغزى خطى شريف غولخانة ولم يتقبله ، حيث اعتبره وثيقة تسبغ صفة القانون على عسف الزعماء الاتراك البيروقراطيين . يصعب القول ما اذا كانت قد تغلبت فى موقفه هذا من التنظيمات ميوله الملكية او ان نظرته هذه كانت ناجمة عن موقف الحكومة الروسية اياه ؛ واجمالا خلفت مهمات سياسة روسيا فى تركيا بعض الاثر على تغطية مؤلف «سورية وفلسطين» للاحداث الداخلية فى الامبراطورية ، ولكن هذا ينطبق بدرجة اكبر على تقييماته للقضايا السياسية الخارجية .

لم يكن بازيلى عالما مؤرخا ، ولذا من العبث ان نبحث فى آرائه عن مفاهيم تاريخية متسقة ومبتكرة . ولما كان انسانا واسع الثقافة ، فقد اقتبس التصورات الفلسفية — التاريخية التى كانت منتشرة فى العلم فى ذلك الوقت ، بيد انه لم يقتبسها على الدوام بصورة منطقية ، وكان احيانا يجمع على

نحو اصطفائى بين مختلـــف الاتجاهات التاريخيـــة . (اعتقـد ان المؤرخين الفرنسيين فى فترة عودة الملكية ، ولا سيما فرانسوا غيزو ، مارسوا اقوى تأثير فى بازيلى .)

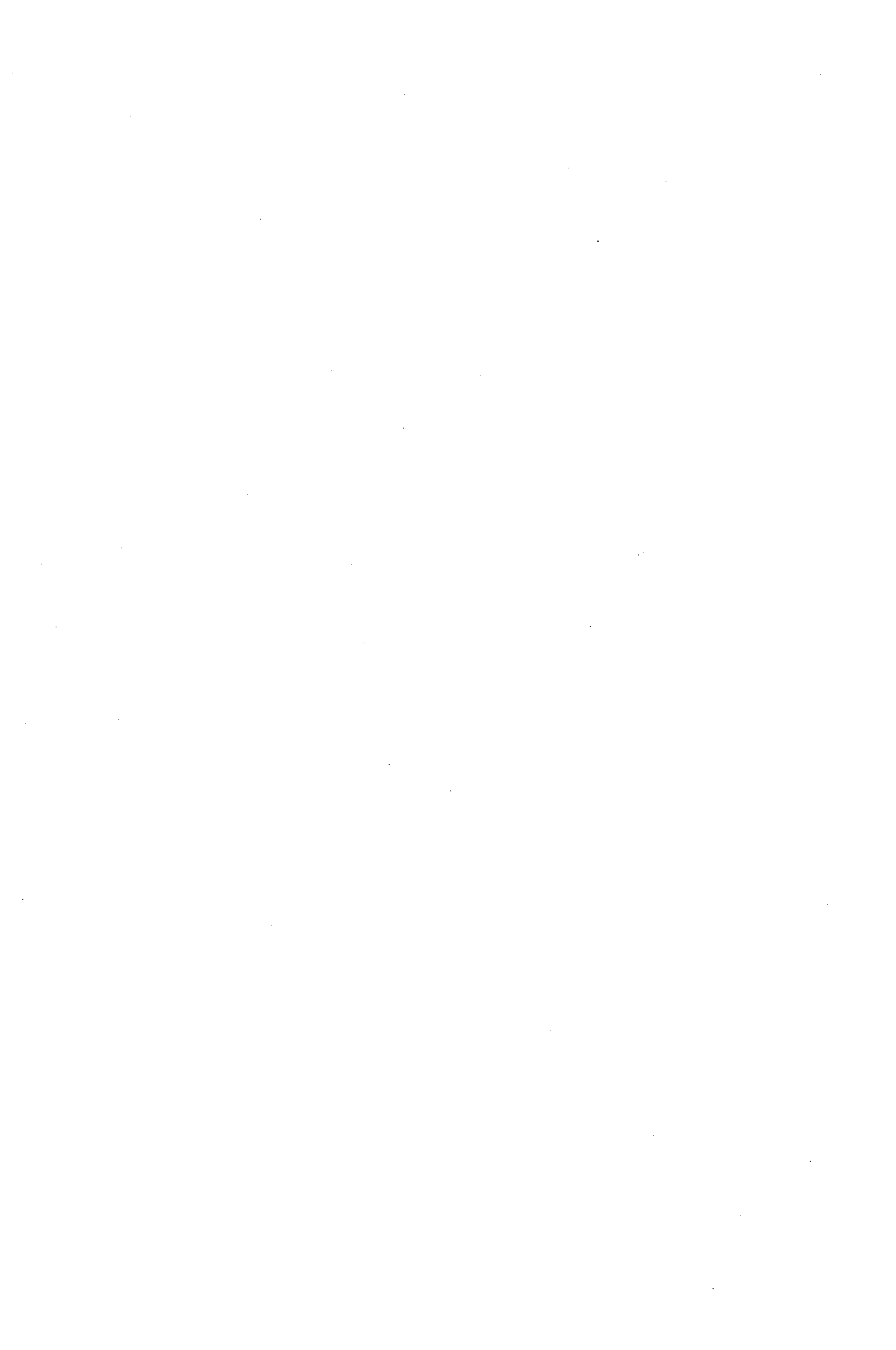
ان كتاب بازيلى الذى الف منذ قرن ونصف تقريبا يحتوى طبعا على الكثير من الاحكام والتصورات التى مضى زمنها الآن . وكان منهج تحليله التاريخى ينطوى حتى بالنسبة الى زمنه على شىء من السطحية . ينعدم فى المؤلـــف الجهاز العلمى اما الاستنتاجات والارقام فليست معللة دائما بما فيه الكفاية ، والاحداث غير مؤرخة غالبا .

وقيمة كتاب بازيلى لا تنحصر ، آخر الامر ، فى تفكيره فى المواضيـــع التاريخية العامة ، ولا حتى فى آرائه حول تاريخ الامبراطورية العثمانية ، مع انه اعرب فى هذا الصدد عن جملة من الملاحظات العميقة ، ولكن فى المادة الفعلية الغنية ، وفى التحليل الملموس للاحداث التى كان شاهدا لها ، واخيرا فى كونه استطاع ان يبعث جو العصر على نحو رائع . وهذا ما ادركه معاصروه جيدا . ان غوغول ، الذى اطلع على الكتاب فى عام ١٨٤٨ ابان رحلتـه الى القدس ، كتب الى الشاعر جوكوفسكى : «كتب بازيلى شيئا مدهشـا بعنوان «سورية وفلسطين» ، سيظهر لاوربا الشرق بشكله الحقيقى ، وهو ينطوى على معارف لا نهاية لعمقها ويثير اهتماما شديدا . انا لا اعرف اى كتاب آخـــر يجعل القارىء يعرف جوهر المنطقة على هذا النحو» .

د . ايرينا سميلانسكايا



سورية وفلسطين
تحت
الحكم التركى
من الناحيتين التاريخية والسياسية



الّف هذا الكتاب في عامي ١٨٤٦ و١٨٤٧ في دير مار الياس الشوير * على قمم جبال لبنان ، حيث امضيت صيف سورية القائظ على مقربة من الثلوج الازلية لسلسلة جبال صنيّن .

لقد عشت في سورية وفلسطين خمس عشرة سنة ، من عام ١٨٣٩ الى عام ١٨٥٣ ، وكانت افضل ايام حياتي . وخلف نشاطي المرتبط بالوظيفة ذكريات في نفسي تبعث على العزاء . ان اقامتي في بيروت ولبنان والقدس ، شأن رحلاتي الى دمشق وجبال لبنان الشرقية والمناطق الداخلية ، كانت مناسبة للتخفيف من كربة المسيحيين وخوض النضال ضد السلطات المستبدة ، وضد التعصب الاسلامي وتذليل العسف والطغيان الاقطاعيين . واسعدني الحظ مرارا ان اصلح بين القبائل المتخاصمة وانقذ القرى والمدن . واعتبر من حقي التنويه بهذا ، لان خدمات مبعوث الدولة العظمى في الشرق ينبغي ألا تعزى الى شخصه ، بل الى المنصب الذي يحمله . وهذا المنصب مقترن ، والحق يقال ، بالعمل المضني والحرمانات من كل الانواع والاخطار . ولكن الكادح الغريب لا يكتئب اذا كان اداؤه الواجب لحكومة ائتمنته على شرف الاسم الروسي وسط قبائل معذبة تشخص بابصار الامل والثقة الى دولة عظمى تعتنق دينها ، يوفر له الفرصة لأن يدخر لشيخوخته احتياطيا من الذكريات النبيلة .

كنت في بعض الاحيان اعمل وحيدا ، باسم الحكومة الروسية . وكنت في احيان اكثر اعمل سوية مع زملائي ، ومبعوثي الدول الغربية . وسط الدماء المراقة في سورية ، في ظل فوضى اكثر ادارة يمكن ان توجد في العالم بأسره تجردا من الاخلاق ، عمل معي بحمية رفيقاي على امتداد قرابة عشر سنوات على التوالي — القنصل العام البريطاني العقيد روزيه (الجنرال السير هيوغ روزيه القائد العام في الهند حاليا) والقنصل العام الفرنسي السيد بورّيه (السفير

---

* دير مار الياس الشوير — دير ارثوذكسي صغير للقديس الياس في بلدة الشوير . — **المحرر** .

لدى البلاط الاثينى حاليا) - حينما كان ينبغى انقاذ المسيحيين من العسف والاضطهاد ، على الرغم من التنافس الدائم بين انكلترا وفرنسا فى هذا الجزء المعذب من الشرق العثمانى .

اننى على اهبة اصدار كتابى فى وقت ابكر بكثير مما كنت افترض . وقد حذفت منه كل نبذة عن نشاطى الشخصى ، واحتفظ لنفسى بالانطباعات والذكريات العزيزة على قلبى ، واقدم الى الجمهور ثمرة دراسة تاريخية وعملية منزهة لمنطقة يثير مصيرها مجددا عطف الشعوب المسيحية . لا ادخل فى كتابى اية تعديلات او اضافات اخرى . وقد مضى على تأليفه اكثر من ثلاث عشرة سنة ، وتغير موقفنا من تركيا ورأينا فيها . ولكن من المستبعد ان يوجد ما يوجب تغيير المحاكمات القديمة لمراقب غير متحيز عن الشرق وقبائله وحكومته ، وعن مغزى الاصلاحات السياسية التى انجزت فيه . اقول هذا لكى لا يتهمنى قرائى بالسعى الى تصوير انطباعاتى الجديدة على انها قديمة ، والوقائع على انها حدس وتخمين . وقد قرأ الكثيرون مخطوطتى منذ عام ١٨٤٨ . قرأها الامير بيوتر فيازيمسكى * الذى اعتبر من حقى ان اركن الى شهادته نظرا لسمعته الادبية .

اوديسا

تشرين الثانى (نوفمبر) عام ١٨٦١

---

* بيوتر فيازيمسكى - شاعر وناقد ادبى روسى قام فى عام ١٨٥٠ برحلة الى الشرق وصفها فى «مفكرات قديمة» .

مقدمة المؤلف للطبعة الاولى

فى غضون اسبوعين من حزيران (يونيو) عام ١٨٣٩ توفى السلطان محمود وابيد جيشه فى نصيبين ، على تخوم سورية ، وانتقل كل الاسطول العثمانى نتيجة خيانة ارتكبت الى يد متمرد من اتباعه . واصبحت الامبراطورية على حافة الاندثار . وقبل ذلك بمدة تقرب من اثنتى عشرة سنة كانت ثلاث دول عظمى قد ارست الاساس للتدخل فى شؤون الشرق بمعاهدة لندن عام ١٨٢٧ * وبمعركة نافارين . ومنذ ذلك الحين كشف العملاق العثمانى عن سمات الدمار الزاحف . وفى عام ١٨٣٣ لم ينقذ عاصمة السلاطين من الغزو المصرى الا حماية روسيا . وفى فترة الاستراحة التى اعقبت ذلك تابع محمود باصرار قضية التحولات ، حيث استأصل ، من جهة ، اوهام شعبه ، وعزز ، من الجهة الاخرى ، الحكم المطلق وحصر السلطة فى يد الدولة بعد ان اختلسها الباشوات والطغاة الصغار الاقطاعيون . لقد قُمعت تمردات باشوات سقودرة وبغداد البعيدين ** ، واصر باشا مصر وحده على العصيان وصار يحلم بالاستقلال على مسمع من اوربا والاسلام . واعد محمود المنتقم ضربة حاسمة خفية عن اوربا ومن اجل حقوقه الروحية كرئيس للاسلام . . . وحل وقت غاب فيه محمود عن الوجود ، وتلاشت قواته واسطوله . واعتلى خليفته البالغ سبع عشرة سنة ، وهو من المعتزلين فى القصر ، عرشا تكتفه دسائس الاعيان . واستغلت

---

* كانت معاهدة لندن ، التى وقعتها فى ٦ تموز (يوليو) عام ١٨٢٧ روسيا وانكلترا وفرنسا ، تعبر عن نية هذه الدول خوض محادثات مع تركيا بهدف التوصل الى صلح بين اليونان المنتفضة والحكومة التركية على اساس منح اليونان حكما ذاتيا فى اطار الامبراطورية العثمانية . وفى عام ١٨٣٠ وقعت هذه الدول بالحاح من روسيا بروتوكول لندن الذى يعترف باليونان دولة مستقلة . — **المحرر** .

** **سقودرة** — الاسم القديم للمدينة الالبانية شقودر (سكوتارى بالتركية) ، المدينة الرئيسية لولاية تركية تحمل الاسم نفسه ؛ صارت منذ عام ١٧٦٠ مركزا لدولة شبه مستقلة يحكمها باشوات سلالة بشتلى الالبانية الاصل الذين صفّى استقلالهم فى عام ١٨٣١ . وفى بغداد كان يحكم كذلك منذ مستهل القرن الثامن عشر الى عام ١٨٣٠ باشوات مستقلون فعليا عن الحكومة التركية . — **المحرر** .

الاوليغاركية الحكومية افتقار الحاكم الشاب الى التجربة فارادت ان تحرر نفسها بقانون غولخانة الدستورى المزيف من عسف السلاطين وتحرف الدولة عن الطريق الذى رسمه محمود لانجاز مأثرة الاصلاح العظيمة بجعل الحكومة التركية تعتنق المسيحية .

فى خلال اثنتى عشرة سنة برزت فى الشرق ازمة داخلية ثالثة * . ولدرء الانقلابات الوشيكة والحرب الاوربية تدخلت الدول الكبرى فى شؤون الشرق مجددا . واستمرت اكثر من سنة المحادثات الصعبة التى كانت سورية مادتها الرئيسية . وفى خريف عام ١٨٤٠ بدأت العمليات الحربية فى هذه المنطقة بمساهمة اربع دول كبرى نتيجة لرفض فرنسا المساهمة فى القضية المشتركة .

ان اية من المسائل السياسية ، التى ظهرت بعد مؤتمر فيينا ، لم تكن تنطوى على مثل هذه الاهمية . ويبدو ان الامر كان يتلخص فى مَنْ يحكم سورية : هل السلطان مباشرة ام تابعه . ولكن هذه المسألة ادت الى قطيعة بين فرنسا والحكومات التى وقعت اتفاقية التدخل فى شؤون الشرق . كانت اوربا فى انتظار الانفجار العام . وتردد صدى الطلقات القلق من ضفاف الفرات وشعاب جبال لبنان الى ضفاف الراين وفى قلب المانيا المتقدة . واستدعى ما يربو على المليون شخص الى القوات لحمل السلاح فى الدول التى كان يهددها خطر الحرب . سُلحت الاساطيل وانفقت الملايين والملايين من الاموال ؛ واحيطت عاصمة فرنسا بتحصينات جبارة . . . بهذا الثمن مُنحت الحكومة التركية الحق فى ان ترسل باشواتها وموظفى دوائر استنبول الى سورية وان تدمر فى هذه المنطقة السيئة الطالع بدون اية فائدة لمصالح الدولة التركية كل البوادر الطيبة للحكم المصرى ، دون ان يستثنى من ذلك حتى تسامحه الدينى الفعلى .

وعلى اى حال فان المعاصرين مدينون بالامتنان لرجالات الدولة فى ذلك العصر الذين افلحوا فى صيانة اسرة الشعوب المسيحية من الحرب ، لا بل من الفتنة اذا انطلقنا من مادتها ، من المسألة التى لم تكن تكمن فى تحرير مهد ديانتهم من نير الكفار ، بل فى النزاع على من يملك سورية – عبد المجيد أو محمد علي .

ستبين النتائج ما اذا كانت اوربا قد ادركت مدى ما سيكلف الوضع الحالى فى شبه جزيرتها الشرقى وفى افضل سواحل البحر الابيض المتوسط هدوءها وتطورها المدنى . ان ايا من اشد المتفائلين لن يستطيع ان يؤكد

---

* يقصد بازيلى الاحداث بين عامى ١٨٢٧ و١٨٤٠ : القضية اليونانية (١٨٢٧) والازمة المصرية الاولى (١٨٣٢–١٨٣٣) والازمة المصرية الثانية (١٨٣٩–١٨٤٠) . – المحرر .

لنا انه بعد ثلاث ازمات شرقية معاصرة لجيلنا الحالى لن تنشب كذلك ازمة رابعة قريبا .

اعترف باننى ، وقد اقمت فى سورية منذ عام ١٨٣٩ وتعقبت بعينى كل احداث معركة نصيبين ودرست المنطقة وقبائلها بامعان ، لم استطع ان ادرك على الفور ما جرى امام ناظرى الى ان استعرضت الاحداث السابقة والوقائع التاريخية . ورغم ان الحكايات القديمة لا تمت ، كما يبدو ، بصلة مباشرة لما يجرى او جرى فى الشرق فى ظل الاتجاه السياسى الحالى للامبراطورية العثمانية ، الا انها تفسر الكثير من الظواهر الغامضة ، وربما تنطوى على حل المسألة الكبرى للقضايا الشرقية التى تحير حتى اعمق الساسة تفكيرا .

انوه بان هذه البلاد تبعث على الفضول سواء من حيث ذكرياتها القديمة او من حيث مصيرها فى احدث الازمنة ، انها المهد المقدس لليهودية والمسيحية والاسلام ، البلاد التى اخمدت المآثر الفروسية فيها عاصفة القرون الوسطى فى اوربا ، والتى تشخص اليها انظار الغرب مجددا بنيات سياسية وتجارية احيانا ، وبشعور دينى احيانا اخرى ، وبطوباوية فى اغلب الاحيان ، اذ لم تكن اوربا قبل عام ١٨٤٠ تعرف عن سورية الا القليل . وحتى الآن ، بعد كل ما كتب وما قيل عن هذه المنطقة ، يصعب تكوين انطباع صحيح لها .

ان المعلومات السطحية والمعطيات الكاذبة تقود الناس الى استنتاجات مزيفة ، والاستنتاجات المزيفة فى المهمات السياسية تضلل الرأى العام وتقود الحكومات الى هدر قاتل لدماء الشعب وامواله . واول واجب للمراقب النزيه فى محاكماته لامور كهذه هو ألا يحرر نفسه من اوهام عصره وتربيته فحسب ، بل حتى من التعاطف الشعبى وان ينظر الى الحقائق ببرودة اعصاب كما ينظر عالم الرياضيات الى الارقام . لا اتعهد بتجرد محاكماتى المطلق وبصدق نظرتى . ولكنى اثق تماما بصدق حديثى فى عرض الحقائق التاريخية والمعاصرة التى يستطيع القارئ ان يستخلص منها محاكماته الخاصة .

منذ بداية اقامتى فى سورية بحثت فى الكتب عن مراجع لدراسة المنطقة . قرأت مؤلفات سترابون وبوليبيوس وفلافيوس * ووجدت فيها معلومات اصدق مما فى المؤلفات المعاصرة . فى ذلك الحين كان الجميع

---

* سترابون (نحو عام ٦٣ ق . م . — عام ٢٠ ب . م .) — مؤرخ وجغرافى يونانى قديم . مؤلفه الرئيسى — «الجغرافيا» فى ١٧ كتابا .

بوليبيوس (نحو عام ٢٠١ — نحو عام ١٢٠ ق . م .) — مؤرخ يونانى قديم . مؤلفه الرئيسى «التاريخ العالمى» (فى ٤٠ كتابا لم يبق منها بصورة كاملة الا الكتب الخمسة الاولى) .

يوسف فلافيوس (نحو عام ٣٧ — نحو عام ٩٥) — مؤرخ وقائد عسكرى عبرى . — **المحرر** .

يقرأون كتاب رحلة لامارتين فى ربوع الشرق * . ان الشهرة الادبية لمؤلف «التأملات الشاعرية» و«الالحان الروحية» انعكست فى كتابه هذا ايضا . وقد ذكرنى هذا الكتاب عهدا آخر من حياتى ، اوائل شبابى ، حينما كنت فى غاية السعادة لتعرفى الشخصى بالشاعر العظيم . وهل كان بين اناس جيلى من لا يعرف مقاطعه الشعرية المتسقة غيبا ؟ كان ذلك ، كما اذكر ، فى عام ١٨٣١ او ١٨٣٢ ، حينما كنت اخدم فى اسطول الاميرال ريكورد . وقد استضفنا الشاعر فى مكلأ نافيلى ، فاصغيت مسحورا الى بيانه العذب وحديثه الشاعرى . ولكنى ، اذ تصفحت كتابه فى سورية ، ادهشتنى السذاجة البالغة للشاعر الذى لا يصف المنطقة ، بل الاحاسيس التى كانت نفسه تميل اليها مسبقا ، حينما لم يكن يرى الشرق بام عينه ، بل بالهامه الخاص . وانطلاقا من كل ما سمعت عن لامارتين فى سورية والقسطنطينية ، اشاطر تماما رأى الكثيرين من مواطنيه الاذكياء الذين يعتبرون كتابه عن الشرق برهانا على ظاهرة سيكولوجية طريفة ، وهى تأثير الارادة والمخيلة فى الشعور . ان لامارتين لا يخدع قارئه ؛ فقد رأى كل ما وصفه ، ولكنه رأى كل هذا فى عالم مثالى رافقه الى الشرق . لا بل ان كتابه اغرق اوربا بالهراء . حتى وصفه التصويرى الذى يشغل اكثر من نصف كتابه مزوق ورتيب ، ومن المستبعد ان يساوى عدة اسكيزات فى كتاب «Itineraire» لشاتوبريان ** .

فى عام ١٨٣٩ اصدرت الحكومة الانكليزية وثائق احصائية للبرلمان وضعها الدكتور بورينغ *** . وقد ادرجت فيها معلومات اساسية عن الجيش المصرى وعن التجارة ، ولكن لم يكن عند بورينغ متسع من الوقت ليعرف شيئا عن المنطقة ذاتها وعن قبائلها . وقد برزت مسألة حياة هذه القبائل ،

---

* Alphonse de Lamartine, Voyage en Orient. Souvenirs, impressions, pensées et paysages pendant un voyage en Orient (1832-1833), Paris, 1835. — اعطى الكثيرون من الادباء الروس تقويما سلبيا لمؤلف لامارتين هذا . كتب بيوتر فيازيمسكى يقول : «تكفى لتعريف وتقويم لامارتين ملاحظة واحدة : لا احد من الرحالة فى ربوع الشرق يأخذ كتابه معه» . — **المحرر** .

** F. A. de Chateaubriand, Itinéraire de Paris à Jérusalem et de Jérusalem à Paris en allant par Gréce et revenant par l'Egypte, la Barbarie et l'Espagne, t. 1-3, Paris, 1811. زار شاتوبريان فلسطين فى النصف الاول من تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٠٦ . — **المحرر** .

*** John Bowring, Report on the commercial statistics of Syria, presented to both houses of Parliament, 1838, London, 1840. اقام بورينغ فى سورية فى النصف الثانى من ثلاثينات القرن التاسع عشر . — **المحرر** .

ولكن القبائل فى حسابات السياسة الانكليزية تضطلع بدور لا تحسد عليه ، دور المستهلكين ، وتصنّف وفق محصلات الانتاج فى معامل مانشستر .

تستحق الذكر من الناحية الآثارية رحلة روبنسون وسميث * ، وبالمناسبة فان هذين السيدين العالمين فى طرائق التدريس كان في وسعهما ، على ما يبدو ، ان يستخدما علمهما على نحو افضل من دحض الحكايات عن المنطقة بسفسطات تاريخية .

اما فى خصوص رحلات السياح المصورين وغيرهم ممن تطغى عليهم شاعرية الريشة ، الذين يعدّون فى البلاد فى الفترة الفاصلة بين قدوم باخرتين ، فمن المستبعد ان تستحق الذكر .

ومن ادب الرحلات القديمة لا بد من ذكر الكتاب الرائع للعالم الدانمركى نيبور ** . ثمة بين التأملات الفيزيولوجية التى تشكل المادة الرئيسية لرحلته الشاقة معلومات طريفة واساسية عن قبائل العالم العربى .

واروع ما صدر فى اوربا عن هذه المنطقة كتاب فولني «Voyage en Egypte et en Syrie» الذى الف فى الثمانينات [من القرن الثامن عشر] *** . كان فولنى ، المراقب الصادق وذو النظرة الثاقبة ، اول من تغلغل بين كل من اتى قبله ومن اتى بعده فى الحياة السياسية للقبائل السورية وفى آثار الحكم التركى فى حياتها الخاصة والاجتماعية . ومع ما فى هذا الكتاب ، للاسف ، من فتور بسبب انعدام اى شعور دينى فيه ومن تجاوب مفرط مع شكوك عصره ، فانه يرسم لوحة صادقة لسورية فى ذلك الزمن . ان مقتطفاته التاريخية عن حملات علي بيك ، وعن مغامرات ونيات ضاهر العمر يمكن اعتبارها بمثابة توقع للاحداث المعاصرة لنا .

فى لحظة وصولى الى سورية **** . كانت الظروف السياسية تسبغ اهمية جديدة على حديث فولنى . فى حملة عام ١٨٤٠ وفى خلال العمليات الحربية للاسطول الانكليزى الذى كنت فيه لدى الاستيلاء على بيروت ***** ، ومن ثم

---

* Edward Robinson and Eli Smith, Biblical Researches in Palestine, Mount Sinai and Arabia Petraea in 1838, vol. 7-3, London, 1841. — المحرر .

** Carsten Niebuhr, Reisebeschreibung nach Arabien und anderen umliegenden Ländern, vol. I-II. Copenhagen, 1774, 1778. زار نيبور سورية وفلسطين وشبه جزيرة العرب فى ستينات القرن الثامن عشر . — المحرر .

*** Constantine Françoise Volney, Voyage en Égypte et en Syrie pendant les années 1783, 1784 et 1785, vol. I-II, Paris, 1787. — المحرر .

**** وصل بازيلى الى سورية فى مستهل آب (اغسطس) عام ١٨٣٩ ، وقام بجولة فى البلاد ، وفى ٢ كانون الاول (ديسمبر) استقر فى بيروت . — المحرر .

***** فى ١٠ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٠ بدأت العمليات الحربية للاسطول وقوات الانزال الانكليزية-النمساوية-التركية ضد جيش محمد علي فى سورية (راجع

فى الحرب الداخلية بين القبائل اللبنانية عام ١٨٤١ وفى تمرد الدروز عام ١٨٤٢ ، وفى الفتن الجديدة عام ١٨٤٥ ، عكفت على دراسة الاسفار العربية القديمة وجمعت بحرص الحكايات المحلية عن حملات المماليك المصريين على سورية ، وعن عمليات اسطول جشمة عند هذه السواحل ، وعن استيلاء الروس على بيروت ، وعن اعمال الجزّار المريع ، وعن الاعدامات والخيانات وقتل الاخوة التى اقام عليها آل شهاب عظمتهم فى لبنان التى انهارت فى خلال وجودى عام ١٨٤١ .

اننى ، اذ شرعت فى رواية الاحداث التى شهدتها ، رأيت من الضرورى ان اعرض مقدما الاحداث التى بدت لى انها تنطوى على اكثر اهمية من الناحية التاريخية ولا تخلو من الفائدة للباحث فى الوضع الحالى للمنطقة وقبائلها . وليصبح حديثى مكتملا ادرجت فى الفصل الثانى نبذة عن الاحداث التى كان فولنى قد وصفها . وكانت اهم عون لى بعد الحكايات المحلية مدونات بسترس العربية التى ترجمها لى حفيد المؤلف الذى يعمل فى قنصليتنا العامة .

إذا أدرِج كتابى فى عداد المواد ذات الفائدة عند البحث فى مسألة مصير الشرق لا يكون جهدى قد ذهب هدرا .

اننى ، اذ اقتصرت على وصف حياة القبائل السورية واستعراض الحكومة التى تخضع لها هذه القبائل ، تجنّبت بحرص وصف المنطقة بصورة زاهية تتجلى فيها الطبيعة الجنوبية فى ابهى القها ، حيث منظر الجبال والشطآن والافق الذى يتراءى خلف حصن من حصون الاقطاعيين او دير او اطلال او صف من الابل او مضارب للبدو يسحر المصور وينتقل بفكر الرحالة الى عصور غابت فى طيات الماضى البعيد . ان ذكريات الماضى ، التى تعقبتنى فى كل جولاتى فى ربوع الشرق ، وحتى شعور التبجيل الذى افعم نفسى لدى زيارة المقدسات الفلسطينية قد ابعدتها عن كتابى بحرص .

فى الثلاثينات اصدرت انطباعات شبابى المرتبطة باقامتى فى اليونان والقسطنطينية * . ومهما كان الارتياح الذى حظيت به كتبى ، فان تجربة الحياة والوظيفة والتعلم والرحلات اقنعتنى بانه لا يحق لاى كاتب فى عالم الادب ان

الفصلين ١٤ و١٥ من هذا الكتاب) . ان بازيلى ، اذ خشى قذف بيروت من البحر ، انتقل الى سفينة انكليزية . وفى ايلول (سبمتبر) عام ١٨٤٠ ذهب الى جزيرة قبرص .

تم الاستيلاء على بيروت فى ٩ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٤٠ ، حينما قد كان بازيلى فى قبرص (راجع ارشيف السياسة العسكرية لروسيا ، محفوظات «السفارة فى القسطنطينية» ، الاضبارة ٧٠١ ، الاوراق ٦٩ — ٧٩) . — **المحرر** .

* المقصود اقامة بازيلى ضمن اسطول الاميرال ريكورد فى القسطنطينية واليونان اعوام ١٨٣٠—١٨٣٣ . — **المحرر** .

يعرض على العالم بصمات انطباعاته الخاصة . فى ظل اسباب الراحة المتوفرة حاليا للقيام بجولة فى ارجاء الشرق نترك لكل واحد ان يلحظ جمال الطبيعة بام عينه ويدركها بشعوره الخاص ، اما ذكرى الزمن الغابر فستنبعث من تلقاء ذاتها وسط البلد الذى نعرفه من خلال الانطباعات الاولى لتربيتنا الروحية التى لا يتوقف صوت الكنيسة عن ابلاغنا بها . لقد جذبت المقدسات الفلسطينية الكثير من مواطنينا من مختلف المناصب والشرائح ، من وجهاء العاصمة الى سكان كياختا النائية ، الى نسّاك دير سولوفيتسكى الواقع فى اقصى الشمال . ان المسافر التقى ، اذ يحمل الانجيل فى يده ويستمع الى الشروح الشفوية التى يلقيها الدليل – الراهب من القدس ، لا يحتاج الى اى مرشد آخر واى مصدر آخر للالهام باستثناء شعوره الخاص .

دير مار الياس
فى جبل لبنان

آب (اغسطس) عام ١٨٤٧

الفصل الاول

عناصر المجتمع السياسى العربـــى فى سورية . — النظام الاقطاعى فى الشرق . — الامراء والشيوخ . — العائلات الحاكمة . — حزبا اليمنيين والقيسيين . — الغزو التركى . — نظام التزام الادارة والمالية . — حملة الاتراك الاولى على لبنان . — عائلتا المَعْنيين والشهابيين . — مغامرات فخرالدين . — ممتلكاته ونفوذه ونياته . — توزيع الباشالِكات . — اخلاف فخرالدين . — صراع العنصر العربـى ضد العنصر التركى .

ان سيطرة الشعوب الغربية واليونانيين والرومان على امتداد عشرة قرون لم تخلف اثرا يذكر فى الحياة الخلقية والمدنية لسورية . والفتح العربى فى النصف الثانى من القرن السابع اسبغ بسرعة على المنطقة البناء الداخـــلى والاخلاق السياسية التى لا تزال باقية فيها الى الآن رغم ما اعقب ذلك مـــن غزوات وفتوحات . وليدخل العرب عنصرهم الشعبى بنجاح كانوا ، حسب قول الاسفار المسيحية فى سورية ، يقطعون ألسنة الامهات فى الأُسر ، حتى لا يشب الجيل الجديد تحت تأثير اصوات اللغة اليونانية التى كانت سائدة فـــى المدن حتى ذلك الحين . ان الغزو المقترن بالوعظ الدينى هو غزو لا يعرف الرحمة فى كل زمان ومكان . وقد استخدم الاتراك فى القـــرن الخامس عشر الاساليب نفسها فى ارجاء آسيا الصغرى . فهنا وهناك لم يصمــــد العنصر الهلّينى الذى كان يعتبره الفاتحون امتن سند للدين ، واستؤصلت اللغـــة اليونانية تماما ، اما المسيحية فصمدت .

ادخل الفتح العربى فى سورية النظام الاقطاعى الذى لا يزال قائمـــا الى الآن . ان زعماء القبائل التى خرجت من شبه الجزيرة تحت رايتى ابى بكـــر وعمر بن الخطاب للدعوة الى القرآن اسسوا فى سورية عدة امارات تدفـــع

الاتاوة الى الخلفاء ، ولكنها تتمتع بحق الحكم الداخلى وفق العادات المحلية ، وهو حكم لا يخضع الا لقانون الخلافة الدينى . وهذا الامتياز يطابق فى بنية الدولة الاسيوية الحق البلدى الذى كان يمنح قديما للشعوب الخاضعة لروما . وبالمناسبة ، طبق فى سورية ايضا شيء من المركزية بواسطة القانون الدينى الذى اعده المسلمون فى تلك الفترة الاولى بالذات من تطور تنظيمهم المدنى ، حينما اخضعوا ذلك البلد المثقف الذى يعمل بالتشريع الرومانى والذى اشتهر فى ذلك العهد بمدارس الحقوق * . ولكن مركزية الدولة هذه لم تكن ذات مطامع ادارية ، ولم تخل بالحقوق والعادات المحلية ، ولم تمس الحياة الداخلية للقبائل . وكانت الطبيعة الجبلية تلائم حتى التجزئة الاقطاعية للمجتمعات . فعلى امتداد عشرة قرون من سيطرة السلوقيين والرومان والبيزنطيين لم تستطع الحضارة الهلّينية ولا التشريع الرومانى تخفيف تنوع طابع القبائل القاطنة فى سورية . هذا العنصر الثنائى الخارجى تغلب فى المدن التى كان سكانها يونانيين بالاصل او اصبحوا يونانيين بحكم تطور التنظيم المدنى فيهم . وحافظت القبائل الريفية ، سواء فى الجبال او السهول ، على مظهرها الشعبى ولغاتها وعاداتها وتشتتها الموروث .

يمكن القول ان الفتح العربى انعش العنصر الشعبى العربى ، الذى عاش فى هذه البلاد منذ اقدم العصور ، واسبغ عليه المزيد من الوحدة . انتشر الدين الجديد بسرعة ، وما لبثت اللغة التى كانت واسطة الدعوة اليه ان ازاحت من الاستعمال لا اللغة اليونانية فحسب ، بل واللغات الكلدانية والسريانية والعبرية وسط المجتمعات الصغيرة التى بقيت مخلصة لشريعتها . والا يستحيل تفسير التشابه المدهش الذى لا يزال جليا الى الآن بين الاخلاق الاجتماعية والعائلية فى المنطقة وتلك التى اتى الكتاب المقدس على وصفها .

ان الادارة الابوية الاصلية لرحل شبه جزيرة العرب شكلت هنا اساس القانون الاقطاعى الذى ادخله الفاتحون . ومن تطور الاساس الابوى مع اقترانه بالقانون الاقطاعى المطبق بالضرورة على الحضر تكون تحت تأثير النجاحات السريعة للخلافة فى التنظيم المدنى مجتمع سورية السياسى الحالى ، ولهذا توطد فيها القانون الاقطاعى المقتصر على تبادل الحماية والخدمات . وكان هذا القانون حليفا للاستبداد الحكومى الذى ساعد عليه باستمرار حتى عهد التحولات التى اقرها محمود الثانى فى الامبراطورية العثمانية .

فى خلال الحملات الصليبية انجزت الشعوب الغربية تربيتها الاقطاعية فى سورية ، وهنا اكتسى القانون الاقطاعى الغربى انظمة تشريعية لاول مرة . ولكن القانون الذى ادخله العرب فى سورية ، اذ بقى امينا على اساسه القديم ، اكتسب عطف الشعوب والحكومات دون ان ينتهك الحرية الشخصية

* فى عهد يوستينيانوس كانت مدرسة بيروت اشهر مدرسة للحقوق فى الامبراطورية الرومانية .

او حق الملكية ، فى حين حوُلت الجماهير الشعبية فى الغرب بالتدريـج الى عبيد وجُعلت الارض ملكا للاسياد . لم تمس الصراعات الداخلية للخلافة ولا غزوات السلجوقيين والمغول والصليبيين والمماليــك والعثمانيين الاساس السياسى الذى ادخله الخلفاء الاوائل . ومما له دلائلــه بشكل خاص ان العائلات العربية نفسها ، التى مُنحت حق الحكم منذ البداية ، حافظت عـلى اقطاعاتها المستقلة ، ولم يحاول احد من الغزاة باستثناء الصليبيين الذين لم يصمدوا طويلا ، بالمناسبة ، ان يستعيض عن هذه العائلات بابناء جلدته .

وهكذا فان العنصر الشعبى العربى ، وان كان قد حُرم من هويتــه السياسية مع الخلافة ، احتفظ مع ذلك الى ايامنا بعنصره المدنى واعيانــه ومظهره الخاص الذى تلقاه فى اواخر القرن السابع .

يعزو الاعيان السوريون ، من شيوخ وامراء ، اصلهم الى اقدم الازمنة . والآن ، كما فى ازمنة التوراة ، يحافظ فى تلك المنطقة على شجرة النسـب بقدسية . وثمة عائلات تصل بانسابها الى زمن محمد .

عندما استولى ابو عبيدة ، قائد عمر بن الخطاب ، على دمشق ، استشهد ابان الجهاد ، حسب تعبير المسلمين ، الامير الحارث من قبيلــة مخزوم الحجازية ، قريب محمد من زوجته التى تنتمى الى قبيلة قريش الحاكمة . وقد اقتطعت لابن الشهيد بامر من الخليفة عمر بن الخطاب منطقــة حوران السورية الغنية . وحكمها اخلافه قرابة خمسة قرون فى عهد العباسيين وفى زمن الصليبيين . وقد اخذوا كنية شهاب من اسم مدينتهم الرئيسية شهبا . وفى سنة ٥٦٨ هـ(١١٧٢/١١٧٣م) ارغمت المجاعة التى اجتاحــت حوران الشهابيين على ان يغزوا مع قبيلتهم وقواتهم التى تضم ١٥ الف شخص منطقة وادى التيم المجاورة (جبال لبنان الشرقية) ، حيث كان يسيطر محارب صليبى تطلق عليــه الاسفار العربيــة اســم كونتورا ، ولعلــه كونـت صور (comte de Tyr) . حطم الشهابيون الصليبيين ، ومكافأة لهم على تقديم ٥٠٠ من رؤوس الاعداء الى السلطان نور الدين ، اقتطعت لهم جبال لبنان الشرقية . وهناك اقاموا عاصمتهم الجميلة حاصبيا على منحدر الجبال الجنوبى وبنوا قصرا فاخرا لا يزال جزء صغير منه باقيا الى الآن * ، وهو يمثل افضــل نموذج للعمارة العربية فى سورية باسرها .

فى ذلك الحين كان يحكم القبائل اللبنانية ووادى بعلبك (كيلى-سوريــة قديما) امراء عائلات تنوخ وجمال الدين وعلم الدين ** ومعن التى يرجـع

* المقصود اطلال قصر الشهابيين التى لا تزال باقية الى الوقــت الحاضر . — **المحرر** .

** بناء على شجرة النسب الواردة فى كتاب المؤرخ اللبنانى طنوس الشديــاق كانت العائلتان الاقطاعيتان جمال الدين وعلم الدين فرعين من سلالة امراء تنــوخ . طنوس الشدياق . كتاب اخبار الإعيان فى جبل لبنان ، بيروت ، ١٨٥٩ . — **المحرر** .

نسبها الى قبائل عربية قديمة فى اليمن والحجاز . قبل ذلك بامد قصير قام اتباع دين جديد اوجده تهتك الخلافة المصرية باللجوء الى جبال لبنان بعد طردهم من مصر وشكلوا قبيلة الدروز المستقلة مع المنشقين الآخرين عن الاسلام الذين فروا من ما بين النهرين . وقد ظهرت هذه القبيلة منذ بداية وجودها منقسمة الى حزبين — اليمنيين والقيسيين * .

اينما انتشرت القبائل العربية فى فترة ازدهار حياتها السياسية ، من المحيط الاطلسى الى نهر هندوس ، كانت تحرص فى كل مكان ، وكأنها تصون تقليدا مأثورا لوطنها القديم ، على العداوة بين حزبى اليمنيين والقيسيين الموروثة عن التنافس الأزلى بين سكان اليمن والحجاز فى شبه جزيرة العرب . كانت عائلات تنوخ وجمال الدين وعَلَم الدين يمنية . وكان امراء معن يُعتبرون رؤساء حزب القيسيين المعادى . وقد سروا بقدوم حلفاء جدد الى جبال لبنان الشرقية المجاورة ، لان الشهابيين حجازيو الاصل وينتمون الى حزب القيسيين . واكتشف المعنيون فى شجرة نسبهم صلات قربى قديمة بين عائلتهم واسلاف الشهابيين فى شبه جزيرة العرب . تجددت صلات القربى بين العائلتين ، وعززت هذه الصلات تحالفهم السياسى الذى استمر قرابة ستة قرون بلا انقطاع فى خضم صراع الحزبين الشعبيين ، ثم جعلت من الشرعى ان يرث الشهابيون المعنيين بعد انقراض عائلة المعنيين [فى اواخر القرن السابع عشر] .

فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر ساهموا معا مساهمة فعالة فى الصراع ضد الصليبيين ، وتابعوا بعد انجاز طردهم التام تشكيل الكونفيدراليات مع الامراء الحاكمين الآخرين وخوض الحروب الصغيرة وبسط نفوذهم على المناطق الاخرى من سورية التى كانت تعترف حينذاك بسلطة السلاطين المصريين عليها . وفى غزوتى المغول ، فى عهد هولاكو العنيف ، خلف جنكيز خان ، وفى عهد تيمور لنك ** ، بحث الشهابيون ، الذين اخضع

---

* انقسام المجموعات الاقطاعية الى يمنيين وقيسيين يعود الى فترة العلاقات العشائرية-القبلية ، حينما كانت الاتحادات القبلية تتبادل العداوة . وفى القرن السابع عشر اتخذت هذه العداوة طابع صراع على السلطة وممتلكات الاراضى بين مجموعتين اقطاعيتين ، وكانت السلطات التركية تدعم وتسعر هذا الصراع . — **المحرر** .

** هولاكو — حفيد جنكيز خان ؛ بيد ان جبال لبنان الشرقية غزتها قوات احد اخلاف هولاكو . وقد جرى هذا الغزو فى عام ١٢٨٧ ، وحينذاك ابادت القوات المغولية التى اقتحمت سهل البقاع ، كل سكان جبال لبنان الشرقية .

فى عام ١٤٠٠ ، حينما دخلت قوات تيمور سورية ، هرب كل سكان جبال لبنان الشرقية الى لبنان ، ولكن قوات الغزاة لم تمر فى هذه المنطقة . للمزيد من التفاصيل فى هذا الخصوص ، راجع طنوس الشدياق . كتاب اخبار الاعيان فى جبل لبنان . — **المحرر** .

ودمر الغزاة المتوحشون امارتهم فى جبال لبنان الشرقية الواقعة على مقربة من دمشق ، عن ملجأ فى جبل لبنان ، فى منطقة الشوف المنيعة التى صمد فيها الامراء المعنيون .

وعند استيلاء الاتراك على سورية (فى عام ١٥١٦) وبعد تحطيم السلطان سليم لامراء حلب والجيش المصرى ، انتقل امراء جنوب لبنان وجبال لبنان الشرقية ، الذين اشتهر من بينهم بشكل خاص فخر الدين المعنى ، منشئ عظمة الدروز ، الى جانب المنتصر وساعدوه باسلحتهم ، فثبتهم فى اقطاعاتهم الموروثة * . وقد بقى حكام [اطراف] لبنان الشمالية ، امراء عائلتى تنوخ وجمال الدين ، مخلصين للحكم المصرى بسبب تنافسهم الدائم مع جيرانهم ، ولذا اضطروا من اجل انقاذ انفسهم الى الفرار من الغزو التركى . ثم خضعت كسروان والمتن لفخر الدين ، وفى جبيل وبعلبك قويت وحظيت باعتراف الحكومة الجديدة اسرتان حاكمتان — شيوخ بنى حمادى وامراء حرفوش ، وكلتاهما متوالية من وراء الفرات .

صار الباشوات الاتراك يحكمون سورية . ولكن يمكن القول انه لم يقع تحت الحكم التركى المباشر سوى القليل من المدن السورية وضواحيها . وبقيت بقية البلاد ، ولا سيما المناطق الجبلية ، تحت حكم امرائها وشيوخها المتوارثين الذين كانوا كالسابق يعقدون الكونفيدراليات فيما بينهم ، ويقومون بالحملات مع قواتهم ، ويخوضون الحروب ضد بعضهم البعض ، دون ان يسألوا الباشوات وحتى بوشاية من الباشوات ، ويتمردون احيانا ، ويجرى اقرار حقوقهم احيانا اخرى من ديوان القسطنطينية مباشرة رغم الباشوات ودرءا لتمرد الباشوات .

كان النظام المالى يلائم تماما هذا الاساس السياسى . كان الباشا يتعهد بان يدفع الى الباب العالى مبلغا معينا من الاتاوة المفروضة على الباشالك (الباشالِق) الخاضع له ، وبالمقابل تقدم اليه بصورة كاملة دخول منطَقته التى ينفق منها على قصره وجيشه . وكل ناحية تابعة له كان يفرض عليها بدروها مبلغ يتفق وموارد هذه الناحية او مدى نفوذ الباشا على سكانها وعلى اعيانها . كانت الاتاوة التى يقدمها الباشالِكْ الى الباب العالى تبقى ثابتة ،

---

* بناء على وثيقة محفوظة فى الارشيف الوطنى فى باريس ، فان معركة مرج دابق (عام ١٥١٦) «حضرها الامير فخر الدين المعنى والامير منصور الشهابى وجمال الدين اليمنى من عائلة تنوخ الذين قدموا لمساعدة الغزالى ، حاكم دمشق فى عهد السلطان الغورى (سلطان المماليك قانصوه الغورى . — المحرر) . حين دخل السلطان المنتصر دمشق ، مثل امامه الامير فخر الدين برفقة الغزالى . وقد ادهشت بلاغته سليما الذى كرمه ومنحه شرف الاولوية على كل امراء سورية وكلفه بحل خلافاتهم» . (Adel Ismail, Histoire du liban du XVII-e siécle á nos jours, t. I, Paris, 1955, p. 4). — المحرر .

ولكن المبالغ التى يجبيها الباشوات من المناطق كانت تتغير طبقا للظروف ، ولدرجة جبروت الباشوات او لاهوائهم . كان عملهم المباشر الذى لا يقيده اى قانون يقوم مقام كل القرارات المعقدة للغاية حول الاتاوات والجبايات .

كانت الاتاوة تجبى من الشعب سنويا على شكل غرامة حربية . ولم يكن الباشا يحرص الا على ان يكون لدى الاشخاص او العائلات الذين يديرون النواحى وراثيا على اساس الحق الاقطاعى ما يكفى من النفوذ المحلى والموارد المادية لدفع الاتاوة كما ينبغى ، وكان الى جانب ذلك يحرص بانتباه على ألا يؤدى هذا النفوذ وهذه الموارد الى رفض دفع الاتاوة الى الباشا ، والى حرب سافرة ضده . وهو نظام بسيط يقوم على قانونى التوازن والمقاومة . وعلى هذا النحو تماما كان الباشا يرهق بالضرائب المناطق التابعة له بدرجة ما تستطيع تقديمه دون ان تشق عصا الطاعة . وكان الحاكم المحلى بدوره يجبى من الشعب باسم الباشا بالدرجة نفسها . وكان تقديم الشكاوى على هؤلاء الحكام الى الباشوات ، اوفى على الباشوات الى الباب العالى امرا غير مجد تقريبا وخطرا جدا في بلد وضعت فيه حياة المواطن تحت رحمة السلطة المحلية تماما . ان المحكمة الوحيدة والمرافعة الوحيدة بين المحكومين والحاكمين كانت تتلخص فى السلاح وفى التمرد اللذين كانا يقرران مصير هؤلاء او اولئك .

كان الباب العالى بدوره يتقيد بهذه القاعدة تجاه باشواته ، فكان يعزل البعض لضعف ادارتهم ، حينما لا يكونون قادرين على دفع المبلغ المفروض كما ينبغى ، ويعزل البعض الآخر لانهم تمكنوا من اكتساب نفوذ كبير للغاية ، ولا سيما فى الباشالكات النائية ، وصاروا يهددون بالتمرد ، وكان عليه احيانا ان يخوض حربا سافرة ضدهم او يتعرض لعصيان صريح يرتدى ، حتى وان وصل الى درجة التمرد ، اشكال خضوع عبودى على اى حال ، وفق العادة السارية فى الشرق منذ القدم . وكان احيانا يسلح احد الاتباع الخطرين ضد آخر ، واعدا كلا منهما بميراث خصمه ، للقضاء على الاثنين فى وقت واحد .

هذه الملاحظات لا بد منها لتفسير الاحداث التى كانت سورية مسرحا لها ولا تزال والتى تمارس تأثيرها فى الوضع الحالى للمنطقة .

نتيجة لهذه الادارة السياسية والمالية صارت القبائل تُقدّم التزاما ، بالمعنى الحرفى للكلمة ، الى الباشوات والامراء والشيوخ . وكانت الحقوق السياسية الممنوحة للباشوات والامراء والشيوخ بمثابة تكملة وضمان لحق الابتزاز المالى * . وكان التحلل التام للعائلات الحاكمة هو النتيجة الحتمية لهذا النظام . وقد دخلت المكائد وقتل الاخوة فى العائلات الارستقراطية

---

* المقصود الحصانة الادارية والقضائية التى كان يتمتع بها الاقطاعيون السوريون فى ممتلكاتهم . — **المحرر** .

الاخلاق الاجتماعية ، وهى تملأ الاسفار السورية ؛ وتجرى امثلة كهذه فـى ايامنا ايضا ولا تثير دهشة احد . وقد خدم نظام الادارة هذا عـلى امتداد ثلاثة قرون ونصف تدعيم الحق الاقطاعى والعنصر الشعبى العربى اللذيـن تعمل الحكومة التركية جاهدة ضدهما الآن .

ما لبث امراء لبنان ان اثاروا غضب الباب العالى * . فكلف باشـا مصر بمعاقبة الجبليين المتمردين . استولى جيشه على الجبال بلا جهد ، لان امراء جمال الدين واخلاف حكام تنوخ السابقين ، الامناء على العداوة المتوارثة التى يكنها حزب اليمنيين لاعقاب فخر الدين الذين كانوا يؤيدون مـع الشهابيين حزب القيسيين ، انضموا الى الاتراك للاطاحة بخصومهم . بعد ابتعاد الاتراك ، الذين اخذوا من الجبليين غرامة واملوا عليهم المزيد من الخضوع للباشوات ، لم يتوانَ المعنيون عن استعادة نفوذهم السابق ، ولا سيما فى عهد فخر الدين الثانى ** ، حفيد فخر الدين الذى اتينا على ذكره . وقد لقى الامير المقدام

---

* فى عام ١٥٨٤ هوجمت ونهبت فى جون عكار ، شمال طرابلس ، قافلـة تركية تحمل اتاوة مصر الى القسطنطينية (بعد هزيمة الاسطول التركى فى المعركـة قرب مدينة ليبانتو باليونان فى عام ١٥٧١ صارت هذه الاتاوة تنقـل عبر الطرق البرية) . وقد اتُّهم الدروز بعملية النهب هذه ، واستخدم الباب العالى هذه الحادثة بمثابة ذريعة للتنكيل بسكان لبنان وبالامير قُرْقْماس بن فخر الدين المعنـى الذى كان يمارس سياسة مستقلة . — **المحرر** .

** ولد الامير فخر الدين الثانى فى عام ١٥٧٢ ، وفى عـام ١٥٩٠ باشر ادارة اقطاعية المعنيين الوراثية — منطقة الشوف . وتسنى له منذ العقدين الاولين من حكمه ان يخضع لسلطته اراضى تمتد من نهر الكلب الى جبال الكرمل ، ضاما الى ممتلكاته شمال فلسطين ومدينتى صيدا وبيروت الساحليتين . وفى عام ١٦٠٨ عقد فخر الدين الثانى معاهدة تجارية مع دوق توسكانا الاكبر فرديناند الاول . ويفترض الباحثون ان المعاهدة كانت تتضمن بنودا سياسية سرية موجهة ضد الحكومة التركية . واذ استعد الامير للصراع المسلح ضد الاتراك ، اسس جيشا نظاميا وحصن القلاع الواقعة عـلى حدود ممتلكاته . واقتصرت تبعية لبنان لحكومة السلطان فى غضون تلك السنوات على دفع اتاوة صغيرة فقط . اقلقت الساسة الداخلية والخارجية المستقلة لفخر الدين الثانى الحكومة التركية ، فوقف احمد حافظ باشا الدمشقى فى صيف عام ١٦١٣ ضد امير لبنان بامر السلطان . وهب كل سكان البلاد ضد الاتراك . ولكن رجحت كفة السلطات التركية . وفى ١٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٦١٣ غادر فخر الدين لبنان . واجتاحت لبنان القوات التركية . وقد دخل عام ١٦١٣ تاريخ لبنان باعتباره «سنة حافظ» .

فى عام ١٦١٨ تلقى فخر الدين الثانى اذنا بالرجوع الى لبنان . كانت الفترة من عام ١٦١٨ الى عام ١٦٣٢ زمن ازدهار لامارة لبنان . وقد اعار فخر الدين اهتمامه لتنمية التجارة والزراعة ، ولتوسيع مجال الصلات السياسية الخارجية . راجع : احمد الخالدى . لبنان فى عهد الامير فخر الدين الثانى (طبعة اسد رستـم وفؤاد افرام البستانى) ، بيروت ، ١٩٣٦ ؛ Paolo Carali (Bulus Qara'li) Fakhr ad-Din II principe del libano, t. I-II, Roma, 1936; Adel Ismail, Histoire du Liban du XVII-e siécle á nos jours, t. I. — **المحرر** .

بسبب غاراته على المناطق المجاورة العقاب من حافظ باشا الدمشقي الذى شرع مع اربعة عشر باشا آخر فى حملة عليه ، بامر من الباب العالى ، واجتاح لبنان بمساعدة من خصومه * . ولاتقاء غضب الباشا توجه الامير فى رحلة الى ايطاليا وكلف اخاه الاصغر الامير يونس بالادارة . ولتهدئة الباشوات ارسل هذا الوالى اليهم امه ومعها هدايا قيمة ونصف مليون قرش (كان القرش يساوى حينذاك روبلنا الفضى) . ورغم ان امراء جبال لبنان الشرقية كانوا انفسهم يتمتعون دائما بحماية المعنيين ويجلؤون اليهم لحمايتهم من مؤامرات الاتراك احيانا ، ولمصالحتهم مع اقربائهم احيانا اخرى ، فانهم لم يساهموا اية مساهمة فى مصيبة المعنيين المزدوجة هذه ، حيث كانوا مشغولين بامر واحد ، وهو قيام الاخ بالدس على اخيه عند الباشوات ، وكان كل جهدهم منصبا على ارضاء الحكام المتقلبين .

بهذه الدسائس تسنى لاحد الاخوة الشهابيين ، الامير احمد ، تعبئة حافظ باشا ضد شقيقه الامير علي الذى كان يحكم جبال لبنان الشرقية . ادت النقمة المشتركة الى تحالف علي ويونس . وقد حطم الاميران المتحالفان الاتراك اول الامر ، الا انهم انتقموا فيما بعد بتدمير دير القمر ، عاصمة المعنيين ** ، وحاصبيا ، عاصمة الشهابيين ، مع العديد من المدن الاخرى الواقعة فى جبل لبنان وجبال لبنان الشرقية . وحينذاك لجأ الاميران المغضوب عليهما الى بانياس ، عند منابع نهر الاردن . ما ان غادر الاتراك لبنان ، وما ان تمكن الاميران من الرجوع على عجل الى موطنهما حتى نشبت فى الجبال فتنة دامية بين حزبى اليمنيين والقيسيين القديمين . تقاتلا سنة كاملة بعنف وحشى . وسلّم الامير يونس المنهك الحكم لابن اخيه ، الابن الشاب لفخر الدين . وما لبث فيما بعد ان عُزل حافظ باشا الدمشقى ، جلاد لبنان ، فعاد فخر الدين عندئذ من رحلته .

لقد امضى قرابة خمس سنوات فى ايطاليا ، حيث اثار ظهور الامير الحاكم لقبيلة الدروز ، التى كانت لا تزال مجهولة ، فضول اوربا . واعد له البلاط الفلورنسى استقبالا حافلا . وشاعت فى الغرب حكاية تزعم ان الدروز هم اعقاب للصليبيين تاهوا فى جبال لبنان . واعتبر اسم الدروز نفسه مشتقا من اسم كونت يدعى Dreux . ولعل فخر الدين نفسه كان يؤكد هذه الاسطورة التى جعلته محط الانظار والاهتمام الشديد فى الغرب .

---

* فى عام ١٦١٣ . — **المحرر** .

** حتى عام ١٦١٣ كانت بعَقْلين مركزا لممتلكات المعنيين ، وقد انشأ المعنيون هذه البلدة فى عام ١١٢٠ . وفى عام ١٦١٣ نقل الامير يونس مقره الى دير القمر بامر من فخر الدين الذى كان فى ايطاليا (طنوس الشدياق ، كتاب اخبار الاعيان فى جبل لبنان ، ص ٢٦٠) . — **المحرر** .

بعد عودة الامير من اوربا لم يتوانَ عن تنظيم شؤونه الحكومية مجددا واسباغ الق جديد على عائلته وقبيلته . والمصائب التى حلت بلبنان فى غيبته زادت من ثقة الشعب بالامير . انه اروع عهد للدروز . فالبلاد باسرها — من [مناطق] لبنان الشمالية ، ومن مرتفعات جبّة بشرّى وعكّار ، ومن اعالى نهر العاصى عبر شاطئ البحر الى الكرمل ، مع وادى بعلبك الخصيب ، ومع مدن البترون (فوتريس عند اليونانيين القدماء) وجبيل (بيبلوس قديما) وبيروت وصيدا وصور (بيريت وصيدون وتير) وعكا ، والى الشرق ، الى اعالى نهر الاردن ، والى صفد وطبرية (تيبيريادا) — كل هذه البلاد الغنية والجميلة ، بقبائلها المحاربة ، اعترفت بسلطته . كان امراء جبال لبنان الشرقية يسعون الى ان يكونوا تحت حمايته ، وكان الباشوات الاتراك يهابونه ويتجنبون ازعاجه .

فى ذلك الوقت كانت سورية منقسمة الى ثلاثة باشالكات : ١) باشالك حلب الذى يضم امارتى الصليبيين الرها وانطاكية ، وساحل اسكندرون ، الذى تختبئ بقربه قرية السويدية الفقيرة المجهولة عند مصب نهر العاصى ، وكأنها شاهدة على قبر سلوقيا المشهورة قديما ؛ ٢) باشالك طرابلس ، على امتداد الساحل من اللاذقية (لاوديقية قديما) الى حدود امارة لبنان ؛ ٣) باشالك دمشق وكانت تخضع له كل البلدان الجنوبية الشرقية الممتدة الى الفرات والى برزخ السويس . وكانت فلسطين ، الداخلة فى قوام باشالك دمشق ، تشكل سنجقا خاصا تحت ادارة باشا ببنجقين . وفيما بعد دخلت منطقتها الساحلية فى قوام باشالك صيدا ، الذى انشئ فى العقد اللاحق من المناطق الساحلية الممتدة من صيدا الى الحدود المصرية ، اما مدينة القدس ، باعتبارها احدى المدن المقدسة الاربع عند الاسلام ، فبقيت تحت ادارة باشا دمشق .

لم تتكمن الحكومة التركية الا فى الجزء الشمالى من سورية ، باشالك حلب ، من ادخال عاداتها ونظامها العسكرى ، الانكشارية ، والسباهية والتيماريوتية الاقطاعيين * الذين حلوا مكان الامراء العرب . ولم يتسن للاتراك فى بقية سورية التغلب على العنصر المحلى . كانت تسكن جبل قلبية قبائل النصيرية الفقيرة والمسالمة التى لا تهتم الدولة بها الى الآن الا من ناحية واحدة ، وهو كيفية جبى الاتاوة منها سنويا . والمناطق الواقعة عند [اطراف] لبنان الشمالية كان يديرها وراثيا امراء سيفا المسلمون ، اما

---

* السباهية — اصحاب الاقطاعات العسكرية الكبيرة الملزمون بان يظهروا فى القوات بامر من السلطان مع فرسانهم المسلحين الذين يتوقف عددهم على دخل الاقطاعة **التيماريوتية** — اصحاب الاقطاعات العسكرية الصغيرة ، التيمارات . — **المحرر** .

منطقتا جبيل وبعلبك فكان يديرهما شيوخ حمادى وامراء حرفوش المتاولة . وكانت هذه القبائل والاسر الحاكمة على حد سواء تعترف من تلقاء نفسها بسلطة فخر الدين عليها وتطلب منه الحماية من دسائس وابتزاز وعسف الباشوات الاتراك .

تجمعت قبيلة الموارنة فى كسروان الجبلية تحت الادارة الابوية لابناء ملتها من شيوخ عائلتى الخازن وحبيش . وكان يسكن المتن الجميلة عرب ارثوذكس ودروز تحت ادارة شيوخ ابى اللمع القدماء والاقوياء الذين يرجع اصلهم الى الدروز . وكانت كلتا هاتين الناحيتين ضمن الممتلكات المباشرة لامير لبنان ، ولكنهما احتفظتا بامتيازاتهما الاقطاعية . اما جنوب لبنان الممتد من بيروت الى صيدا ، المعروف باسم مشترك هو الشوف ، والذى كان يوجد شيوخ محليون فى مختلف نواحيه ، فقد اعتبر بمثابة اقطاعة موروثة للامراء مع مدينتى بيروت وصيدا . ان قبائل المتاولة ، التى كانت تشغل ضواحى صيدا وبلدة صور ، شأنها شأن قبائل الحضّر المختلطة بالبدو فى اعالى نهر الاردن وشرقى الاردن ، وفى جبل عجلون وحوران ، لم يكن عندها شيوخ اقوياء من السكان الاصليين ، فكانت تخضع بطيبة خاطر لامير ذى مراس وتجد فيه سندا يحميها من المضايقات التى كان يرهق الباشوات سورية بها ، وحكما فى الخلافات التى تنشب بينها . وكان الامير يجبى الاتاوة ويجمع القوات من كل هذه القبائل التابعة له او الموجودة تحت حمايته ، تاركا لكل منها ، بالمناسبة ، المجال لان يحكمها شيوخها وامراؤها المتوارثون . وبهذا تدعم وتطور اكثر واكثر فى كل الاتجاهات نظام المنطقة الاقطاعى الذى تأصل بشكل خاص فى عهد فخر الدين .

حسّن فخر الدين عاصمته بيروت وبنى الابراج والحصون ، وحصن الميناء لحماية التجارة من السفن المالطية واقتنى اسطولا صغيرا . ولا تزال اطلال قصر فخر الدين ذى الحدائق والحمامات وحديقة الوحوش تشهد الى الآن على عظمة الامير الذى استعاض فى ايطاليا عن العادات الابوية البسيطة لمنطقته بابهة بلاط ميديتشى . ولكن افضل اثر خلفه فخر الدين فى بيروت هو حرش الشوح الخلاب الذى غرسه لحماية الحدائق والمشاتل من هجوم رمال البحر . ويستمر فى سورية الى الآن هذا الصراع العنيد بين المزارع والصحراء المعبر عنه مجازيا لدى المصريين واليونانيين القدماء بالحرب بين اوزيريس وتيفون . فى مصر الدؤوبة تغلب اوزيريس بمساعدة اله النيل على تيفون المعادى وطرده الى اثيوبيا واشاع الخصب فى التربة التى خلّصها من غزواته القاتلة . ولكن فى سورية ، فى ظل تناقص السكان وتقلب المنطقة السياسى واهمال الحكومة تنتصر غزوات تيفون المدمرة فى كل سنة ، وتضيّق الخناق اكثر واكثر على هذه الرحاب التى باركتها الطبيعة ، والتى تمتد تحت وشاح محاصيلها الفاخر بين صحراء مزدوجة من الرمال والبحر . انَ جفاف

الصحراء الشاسعة يأكل بالتدريج التربة الخصبة من الجانب الشرقى لسورية ، اما من جهة الساحل فيجمع البحر كتلا متحركة من الرمال التى ربما كانت الرياح تنقلها من الصحراء الليبية الى البحر ، فتقذفها الامواج الى سورية * .

فى جبال لبنان الشرقية ، تابع الشهابيون الفتن العائلية ، حسب العادة الموروثة فى عشيرتهم . فى عهد فخر الدين اخذوا ، بفضل تأثيره فى كل المناطق المجاورة ، يتوجهون بشكواتهم اليه ، لا الى باشا دمشق الذى لم يكن يتوانى ، حسب القاعدة الاساسية للسياسة العثمانية ، عن القضاء على الاخ بواسطة اخيه واضعاف حزبيهما معا . وقد قسم فخر الدين لمصالحة قريبيه جبال لبنان الشرقية بينهما الى جزئين : اعطى احد الاخوين حاصبيا ، او جبال لبنان الشرقية السفلى (وادى التيم التحتانى) والاخر راشيا ، او جبال لبنان الشرقية العليا (وادى التيم الفوقانى) . ولا يزال هذا التقسيم قائما الى الآن بين فرعى الشهابيين ؛ ولكن المكائد العائلية وقتل الاخوة لا تزال مستمرة الى الآن فى كل من هذين الفرعين .

فى ظل السلام الشامل والادارة الحكيمة نمت بسرعة رفاهية القبائل التابعة لفخر الدين ، وقوى نفوذه وانتشر فى كل سورية . كانت له علاقات ودية بالقبائل المحاربة فى نابلس وجبال اليهودية ، وبرحّل البادية ، وبدروز جبال حلب ، وبالنصرية . وكان فى وسعه بسهولة ، كممثل للعنصر الاقطاعى المحلى ، ان يصبح رئيسا لفيدرالية القبائل المحاربة فى سورية ويطيح بالحكم

---

* هذه الظاهرة تدهش الانظار فى صور وبيروت بشكل خاص ، من المعروف ان صور ، تير قديما ، كانت جزيرة فى يوم من الايام . وقد ربطها اسكندر المقدونى باليابسة بواسطة سد ليستطيع غزوها . وقطع هذا السد مجرى المياه على طول الشاطىء ، ومن تراكم الرمال الذى جرى على هذا النحو نشأ مع الزمن مكان السد الضيق برزخ عريض تتزايد فيه رمال البحر بوضوح عند هبوب الرياح الجنوبية الغربية المتواصلة ، وقد اصبح اعلى من سور القلعة الحالى ، وحتى ان الرمال تتسرب عبره الى المدينة احيانا . وعندئذ يجتمع السكان ومعهم المجارف والسلال ليحموا المدينة من هذا الغزو الرهيب الذى خلفه الفاتح المقدونى للمدينة التى حلت نقمته عليها .

وفى بيروت تسبب تضاريس الساحل ، الذى يكوّن رأسا يدخل مسافة بعيدة فى البحر ، هذه الظاهرة . وقد غطت الرمال الآن كل الشريط الجنوبى لهذا الرأس على مسافة شاسعة ودفنت عميقا العديد من الحدائق والمزارع وحتى بيوتا من طابقين لا يزال الشيوخ يتذكرون موقعها . وفى خلال اقامتى فى بيروت على امتداد ثمانى سنوات تحركت هذه الرمال الى الامام مسافة عشرة قامات ونيف وسط اغنى المزارع . لا شىء يعبر عن التغافل الفطرى للاسيوى والحكومات الاسيوية اكثر من هذا الاستهتار المطلق الذى ينظر به كل فرد الى الخطر المحدق دون ان يتخذ اية اجراءات لحماية عقاراته . ان الباشوات الاتراك ، الذين تقع بيروت حاليا تحت ادارتهم المباشرة بعد ان انتزعها الباب العالى من الجبليين ، لا يفكرون اطلاقا فى درء المصيبة ، فى حين ان الوسيلة الوحيدة هى غرس احراش الشوح على غرار الجبلى العبقرى فخر الدين .

العثمانى الذى طعم به سليم بسرعة شديدة شجرة العنصر الشعبى العربى التى كانت لا تزال مفعمة بالقوة فى ذلك العهد ، وان كانت قد سحقتها عبقرية الفاتح الذى اطلق عليه فى الاسفار العثمانية لقب الرهيب (الياؤوز) .

اخذت شؤون سورية تثير تخوفات معينة لدى الباب العالى . وألب والى دمشق بدسائسه المألوفة (فى سنة ۱۰۳۳ هـ /١٦٢٣-١٦٢٤م) امراء حرفوش وسيفا على فخر الدين وزحف بجيشه . وقد هزم شر هزيمة ووقع فى الاسر . قابل الامير اسيره بتكريم شديد ، وتمكن من ان يعقد معه صلحا مؤاتيا ، بل وتمكن من ان يكتسب صداقته . ولكن بعد خمس سنوات قرر الباب العالى خلع تابعه الجبار . فى عهد السلطان مراد دخل الوزير الاعظم خليل باشا بجيشه سورية عبر حلب ، وظهر القبودان باشا جعفر باسطوله عند السواحل . وانتقل بعض اتباع فخر الدين الى الاتراك . وقد احرز ابنه الامير عي انتصارات عقيمة وقتل فى المعركة ، وفر الآخرون ، اما الامير نفسه فحاصره الاتراك فى قصره المنيع على صخور جبال لبنان . وارغمه الجوع على البحث عن ملجأ آخر . فاختبأ مع اسرته فى كهف معلق فوق مهاوى جزّين الجبلية .

طارد احمد كوجوك باشا الامير التعيس فى شعاب جبل لبنان كما يطارد وحشا واكتشف آثاره ، واذ رأى ان لا سبيل الى تخطى فتحة الكهف ، حفره من الاعلى وبهذا اسر الامير وساقه الى الوزير الاعظم . فارسل الى القسطنطينية على الفور * . وقد وقع بعض ابنائه فى اسر الاتراك ، وقتل البعض الآخر . وعين الاتراك حينئذ حاكما على لبنان الامير على علم الدين من حزب اليمنيين على امل ان هذا سيقوض تماما نفوذ القيسيين المتركز فى عائلة المعنيين . ولكن ما كاد الجيش التركى يبتعد حتى طرد بدون بذل جهد يذكر الامير ملحم المعنى ، ابن اخى فخر الدين ، الذى افلت من الاسر التركى ، على علم الدين من الجبال مستعينا بانصاره . وقد كلف هذا فخر الدين وكل افراد اسرته الذين نقلوا الى القسطنطينية حياتهم . فى البداية استقبلوا هناك استقبالا حسنا واعفى عنهم ، ولكن ما ان وردت اخبار الاضطرابات الجديدة فى لبنان حتى اعدموا ** باستثناء الامير حسين الصغير السّن الذى انقذ بالتماس من الوزير .

فيما بعد وجد الباب العالى من الافضل الاعتراف بالامير ملحم حاكما على لبنان . لقد حقق الباب العالى اهدافه : وجه الى عائلة المعنيين ضربة قاصمة لم تصح منها بعد ذلك ابدا وترك لخلفه من النفوذ ما يكفى لادارة المنطقة

---

* فى شباط (فبراير) عام ١٦٣٥ .

** اعدم فخر الدين الثانى فى ١٣ نيسان (ابريل) عام ١٦٣٥ . — **المحرر** .

والصراع ضد الاتباع الآخرين ، وحتى ضد الباشوات ، ولكن دون ان يتمتع بتفوق حاسم عليهم .

في عهد ملحم وفي عهد ولديه احمد وقرقماس ، اللذين حكما لبنان معا ، لم تتوقف ابدا الفتن والحزازات بين حزبي القيسيين واليمنيين سواء هناك ، او في جبال لبنان الشرقية . وكان باشوات دمشق يبيعون حمايتهم لهؤلاء واولئك بالتناوب ويزيدون الاتاوة السنوية . وحتى انهم تمكنوا فيما بعد من ان يطردوا تماما من لبنان وجبال لبنان الشرقية كلتا العائلتين الحاكمتين للمعنيين والشهابيين الذين احتموا قرابة عشر سنوات في كهوف كسروان او هاموا على وجوههم في جبال باشالك حلب .

انتصر اليمنيون . وفي خلال هذه الاضطرابات انتزع الباب العالي مدن صيدا وصور وبيروت من امارة لبنان ، واصبحت صيدا مقرا لباشا جديد عينه الباب العالي على المناطق الساحلية لمراقبة لبنان عن كثب * . وعزز حينذاك عدد من وزراء عائلة كوبرولو الشهيرين السلطة الحكومية في كل الامبراطورية ** . وكان احمد باشا الدمشقي ينتمي الى هذه العائلة ، وقد عمل في سورية بنجاح لتوطيد الحكم التركي . ولكن الفتن لم تتوقف في لبنان . ولاحق الاتراك آل فخر الدين بعناد . وتسنى لباشا صيدا ان يوقع الامير قرقماس في شباكه ويقتله غدرا *** . وافلت اخوه احمد وهو جريح واختبأ في كسروان قرابة السنتين . ولم يستطع خصومه رغم كل الحماية التي قدمها اليهم الباشوات اكتساب حب القبائل اللبنانية ولا الاحتفاظ بالسلطة . انتفض القيسيون كتلة واحدة واستدعوا اميرهم . والتقت قوات عديدة للحزبين المتخاصمين في سهل بيروت **** . ان المعركة الدامية ، التي هزم فيها اليمنيون وفقدوا قادتهم ، منحت الامير احمد امارة لبنان رغم دسائس الباشوات . وكان لانتصاره صداه في جبال لبنان الشرقية ايضا ، التي ما لبث الشهابيون ان عادوا اليها .

مع كل هذه المصائب التي قوضت بالتدريج الصرح الذي بناه فخر الدين ، تجدر الاشارة الى متانة العناصر المحلية التي قام عليها . لقد وجد سندا امينا للغاية في البنية الاقطاعية للمنطقة ، فما ان تهدأ العاصفة ويستريح الامير من الملاحقات حتى تخضع القبائل المجاورة لنفوذه بطيبة

---

* انشيء باشالك صيدا في عام ١٦٦٠ . — **المحرر** .

** شغل ممثلو عائلة كوبرولو منصب الوزير (الصدر) الاعظم في النصف الثاني من القرن السابع عشر . وقد نفذوا جملة من الاجراءات الموجهة نحو تدعيم جهاز الدولة والجيش ، ونحو ضبط الضرائب ، وكافحوا انفصالية الباشوات . — **المحرر** .

*** في عام ١٦٦٢ . — **المحرر** .

**** تقاتل القيسيون واليمنيون مرتين في تلك السنوات : في عام ١٦٦٤ وفي عام ١٦٦٧ ، وقد جرت معركة بيروت في عام ١٦٦٧ . — **المحرر** .

خاطر . تذكر الاسفار اللبنانية ان حكام بعلبك ، امراء حرفوش ، قدموا في سنة ١٠٩١ هـ/١٦٨٠م/ الى دير القمر لمقاضاة الشهابيين لدى الامير احمد ووافقوا بقرار منه على دفع الاتاوة الى الشهابيين .

بعد عدة سنوات رغب باشا طرابلس في معاقبة المتاولة في جبيل ، فكلف امير لبنان بمحاربتهم . كان الاتراك ، شأنهم الآن ، يجدون في الحزازات الشعبية والعائلية الملازمة للحكم الاقطاعي اضمن وسيلة لكبح البعض بالآخر . لقد نكلوا بالدروز مرارا بواسطة المتاولة ، وآن اوان تسليح الدروز ضد المتاولة . ولكن فكرة الاتحاد الكونفيدرالي للقبائل السورية من اجل مجابهة المكائد التركية على غرار فخر الدين جعلت امير لبنان يرفض اقتراح الباشا الذي حطم المتاولة جيشه * . وهذا ما عزاه الباشا الى مكائد الامير في تقاريره الى الباب العالي وتسبب مجددا في نقمة الديوان على المعنيين . فر الامير ثانية ، فعين الباشوات احد امراء اسرة علم الدين اميرا على جبل لبنان . ما ان غادر الجيش التركي الجبال حتى طرد القيسيون الحزب المعادي واستدعوا اميرهم ** ، والتمس باشا صيدا العفو عنه من الباب العالي .

وهكذا ، كان النفوذ التركي يتزعزع في سورية من حين الى آخر وسط كل المحاولات لبعث العنصر المحلي . وكان التفتت الاقطاعي للقبائل السورية وكراهيتها المتبادلة سند الاتراك الوحيد . كانت الحكومة تحتاج الى سكان اصليين قادرين على لجم العادات الفوضوية في سورية ، ولم تكن تستطيع ان تحلم بحكم المنطقة مباشرة . وكان الوالي الحاذق للسلطان يحول هؤلاء الناس الى اداة لسياسته ويعاقبهم ويعفو عنهم بصورة كيفية . ما ان يظهر عبقري قادر سواء على لجم الاهواء الشعبية او على الصمود في وجه اعمال العسف والدسائس التركية ، حتى كانت سورية تتطلع بوضوح الى الاطاحة بالحكم التركي . ولكن هل كانت سورية قادرة على ان تحكم نفسها بنفسها ، وهل كانت تستطيع ان تستغني عن الاتراك او ، بالاحرى ، عن الحكام الاجانب ؟ ان مصير فخر الدين في القرن السابع عشر ، ومصير ضاهر العمر في القرن الثامن عشر يجعلاننا نشك في هذا . في خلال كل هذه الازمات على امتداد ثلاثة قرون من ذلك الحكم الذي اتسم بنضال رخو خاضه في غضون تلك القرون العنصر العربي الهرم ضد العنصر التركي الذي انهكه قبل الاوان تدفق لا يتناسب وقواه الحيوية ، يستحيل عدم رؤية وهن وتفكك العنصر الشعبي العربي تدريجيا في سورية والنجاحات المستمرة للنظام التركي في

---

* في عام ١٦٩٣ . — **المحرر** .

** عام ١٦٩٤ . — **المحرر** .

قهر العناصر الشعبية ، النظام الذى يشكل عربون السلطة الوحيد فى هذه الفوضى السياسية المسماة بالامبراطورية التركية .

هذه الظاهرة تمتد الى ايامنا . وبالوسائل نفسها يتطلع الاتراك الآن ايضا الى احراز النجاح السياسى فى سورية ، وفى المناطق التى تقيم فيها القبائل السلافية والالبانية واليونانية . وابتداء من القرن السابع عشر اصبحت علاقاتها باوربا ومثال البندقية والنمسا دافعا الى تطوير وتدقيق القواعد الجذرية التى تسترشد بها تركيا منذ القدم فى علاقاتها بالشعوب التابعة لها . ومع وهن الامبراطورية يغدو هذا النظام شرطا اشد ضرورة وحتمية لوجودها ، ويتخذ فى كل مرة مظهرا خارجيا حسب ما تقتضيه ظروف العصر . ويشكل وصف حياة سورية افضل دليل لادراك مغزى الاصلاحات المعاصرة لنا والجارية فى الامبراطورية العثمانية .

الفصل الثانى

عهد الشهابيين فى لبنان . – الاميران بشير وحيدر . – باشا لبنان . – معركة عين داره وآثارها . – نشوء حزبى اليزبكيين والجنبلاطيين . – الامراء ملحم ومنصور واحمد . – الدسائس العائلية . – الاميريوسف . – بدء نفوذ الموارنة . – الوهابيون فى شبه جزيرة العرب والمماليك فى مصر . – تأسيس عكا . – كونفيدرالية القبائل . – سياسة الديوان . – العمليات الحربية . – حملة المماليك الاولى . – خيانة البيكين . –ظهور الاسطول الروسى . – استيلاء الروس على بيروت مرتين . – احمد الجزار . – موت علي بيك . – المحادثات مع الباب العالى . – حملة المماليك الثانية . – موت ضاهر . – مصير عائلته . – مآرب ضاهر . – نجاحات الجبروت التركى فى سورية .

بموت الامير احمد ، فى سنة ١١٠٩ هـ /١٦٩٧ م/ ، انقطعت سلالة المعنيين . لقد مات ابن احمد وهو لا يزال على قيد الحياة ، اما ابنته فكانت متزوجة بابن امير حاصبيا من عائلة الشهابيين . عقد الدروز ، شيوخ سبع مناطق فى الشوف يتمتعون منذ القدم بالحق فى انتخاب الامير الحاكم ، اجتماعا فى دير القمر وانتخبوا امير راشيا بشيرا ، ابن اخت آخر معنى ، اميرا على لبنان . من الزواج الذى سبقت الاشارة اليه ، كان ثمة ايضا بين شهابيى جبال لبنان الشرقية حفيد احمد المعنى ، وهو الامير حيدر البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة الذى كانت الوراثة من حقه وفق القربى المباشرة ، ولكن الوراثة السياسية فى القبائل الاسيوية كيفت الى الابد للقوانين المدنية

المتعلقة بوراثة الممتلكات . وكان ينتخب الاجدر والاكفأ * . ووجه الشيوخ وفدا عنهم الى راشيا يطلب من الامير بشير ان يحكم لبنان . وهكذا ، ورث الشهابيون المعنيين وحملوا معهم الى لبنان العادات القديمة لاسرتهم ، وهي الفتن العائلية ،وقتل الاخوة ، وبذر الشقاق فى اتباعهم لتقوية سلطتهم ، والنمائم والتزلف الى الباشوات ، وزيادة الاتاوة ، والمساومات والمزايدات للاطاحة بخصومهم . ان هذا الذى ضمن نجاحات كبيرة للجبروت التركى فى سورية ، قد جلب به الشهابيون بانفسهم المصير الذى حل بذريتهم في زمننا .

عندما وصل خبر وفاة الامير احمد الى باشا صيدا ارسل رجاله الى دير القمر لجرد ممتلكاته ووافق على اختيار الشيوخ شريطة ان يتعهد الخلف بدفع ديون السلف بكفالتهم . ان الباب العالى ، الذى اعلم بانتهاء عائلة المعنيين المتمردة ، امر الامير حيدر ، حفيد آخر الامراء ، بان يكون الخلف ، ونظرا لصغر سنه اعترف ببشير وصيا وحاكما . هذا الامر يعزى الى التماس من الامير حسين اياه ، ابن فخر الدين ، الذى قبض عليه الاتراك فى طفولته واعفى عنه بالتماس من الصدر الاعظم ولم تطله النقمة التى حلت بعائلته كلها ، فبقى فى خدمة السلطان فى القسطنطينية . والى الآن تعيش ذريته حياة مغمورة هناك .

لقد رأينا جهود المعنيين الدائمة لاقامة كونفيدرالية للقبائل الجبلية فى سورية للجم الباشوات . ما ان دخل اول شهابى لبنان ، حتى قام ارضاء للباشوات بحملة مدمرة على قبائل المتاولة التى تشغل منحدرات جبال لبنان الجنوبية وصور وبلاد صفد ، وقبض على الشيوخ وسلمهم الى ارسلان باشا الذى كافأه بان عهد اليه بادارة جبل صفد والنواحى المتاخمة لممتلكاته ** . عين الامير حاكما على صفد ابن اخيه الشاب منصورا تحت اشراف شيخ ضليع من السكان المحليين ، وهو عمر ابن ابى زيدان *** ، ابو ضاهر

---

* لم تكن وراثة العرش فى الامبراطورية العثمانية من حق ابن السلطان الحاكم ، بل من حق اكبر من فى ذرية العثمانيين ، ولهذا يسبق الاخ الابن ، والعم ابن الاخ . الى هذا القانون يجب ان تعزى حوادث قتل الاخوة التى تحفل بها اخبار القصر . وبالمناسبة ، فان قانون الدولة عند الاتراك يخضع لقاعدة الشرق الجذرية فى صدد كفاءة الخلف وقدراته الشخصية . اوضح البيان الذى اصدره الباب العالى للسفراء الاوربيين ، بعد موت السلطان محمود حول ارتقاء عبد المجيد للعرش ان السلطان ارتقى عرش ابيه بحق الارث والجدارة . فى القانون الدينى ، الذى يقوم عليه الفقه الاسلامى ، لا بد ان تتوفر فى الخليفة ، علاوة على حق الارث الشرعي ، خمسة شروط ، وهى : ان يكون مسلما ، حرا ابنه ، رجلا ، عاقلا بالغا .

** فى عام ١٧٠٠ . — **المحرر** .

*** فى عام ١٧٠٦ ، بعد وفاة الامير منصور عين الامير بشير الاول عمر بن ابى زيدان حاكما على منطقة صفد . — **المحرر** .

الشهير الذى سنتحدث عنه لاحقا ثم استغل الامير الشقاق بين قبلان باشا الطرابلسى ومتاولة جبيل والبترون ليضع هاتين الناحيتين ايضا تحت امرته . وهكذا تيسر لاول الشهابيين بتملقه للباشوات ان يوسع ممتلكاته الى تلك الحدود تقريبا التى وصل اليها فخر الدين بنفوذه لدى القبائل نفسها . ولن نلبث ان نرى العواقب الوخيمة لسياسة الشهابيين التى لم تكن تنزع الا الى المزيد من تدخل الباشوات فى شؤون لبنان الداخلية .

حكم الامير بشير عشر سنوات ولم يفكر فى تسليم الحكم الى الوريث الشرعى . فى احد الايام زار ، وهو فى طريقه الى صفد ، اقرباءه فى حاصبيا وحضر وليمة معهم ، وعند وصوله الى المكان المقصود توفى فجأة من السم الذى دسه له فى الوليمة العائلية ابن اخيه حيدر الذى بلغ الثانية والعشرين من العمر وكان يعانى الوحشة فى جبال لبنان الشرقية . وبعد ارسال عمه هرع الى دير القمر ، فاستقبله الشيوخ استقبالا حسنا وباشر الحكم * .

فى عهد هذا الامير انفصلت صفد والمناطق الجنوبية عن امارة لبنان . وكان باشا صيدا قد عين ضاهرا بن عمر حاكما على صفد ** ، واذ حافظ ضاهر على العلاقات الودية بامير لبنان ، بدأ ينشر نفوذه الى القبائل المجاورة . وكان الصراع الاخير بين حزبى اليمنيين والقيسيين فى لبنان ابرز حدث فى ذلك الزمن . لقد تمرد احد اتباع الامير ، وهو الشيخ محمود ابو هرموش من حزب اليمنيين ، واقنع باشا صيدا ذا التفكير الضعيف بان يطبق الحكم التركى المباشر فى جبال لبنان . احاط الباشا الباب العالى علما بذلك ، اما الباب العالى الذى لا معلومات عنده عن مناطق وقبائل الباشالكات البعيدة غير قوائم الضرائب فصدق الباشا وعين الشيخ محمودا باشا ببنجقين على جبال لبنان *** . وفر الامير الى كسروان . لم يكن الباشا الجديد يثق بالشيوخ ، فاستدعى ذرية امراء علم الدين من دمشق **** . وكان شيوخ كسروان الموارنة من عائلتى الخازن وحبيش يتبادلون العداوة حينذاك ، شأنهم الآن . وقد اختبأ الامير حيدر فى غزير عند آل حبيش ، فقدم آل الخازن وشاية فى هذا الخصوص الى الباشا الذى اجتاح جيشه هذه المدينة ، واضطر الامير الى الاختباء سنة كاملة فى شعاب جبل صنين المغطى بالثلج ، فى كهف منيع يسميه الشعب بكهف ملاك الموت .

انتصر باشا لبنان ، واخذ يبيد الشيوخ بعد ان تزوج فتاة من بيت علم الدين . وحينما نضجت النقمة واصبحت شاملة ، استدعى الشيوخ الامير

---

* فى عام ١٧٠٧ . — **المحرر** .

** قرابة عام ١٧٠٧ . — **المحرر** .

*** فى عام ١٧١٠ . — **المحرر** .

**** بقى امراء اسرة علم الدين فى دمشق منذ عام ١٦٩٤ ، حينما هزمهم الامير احمد ومجموعة القيسيين الاقطاعية . — **المحرر** .

حيدرا من كهف ملاك الموت واستقبلوه فى المتن بقوات ضخمة من القيسيين . استدعى محمود باشا يمنييه ودخل المتن . وهرع كل من باشا صيدا وباشا دمشق لنصب مخيم له ، الاول فى سهل بيروت ، والثانى فى قب الياس على المنحدر الشرقى لجبال لبنان المشرف على وادى بعلبك (البقاع) لمراقبة الازمة التى تهدد لبنان . وبالمناسبة ، لم يساهما مباشرة فى صراع الحزبين ، وكان همهما التحريض على الفتن ودعم هذا الجانب احيانا وذاك احيانا اخرى ، دون التسليم ابدا بالمصالحة المخلصة بينهما او بالابادة التامة للمهزومين .

احتل باشا لبنان مرتفعات عين داره وانتظر الى ان يدخل الباشوان الآخران شعاب الجبال المجاورة لكى يضرب العدو من كل الجهات ويبيده تماما . ولكن سبقه الامير حيدر الذى هاجم موقع الباشا ليلا وهزمه * . وقد قتل ثلاثة امراء من بيت علم الدين فى هذه المعركة الدامية ، ووقع فى الاسر الامراء الاربعة الباقون ومحمود باشا نفسه . قطع المنتصر رؤوس الامراء الاسرى وبهذا قضى على آل علم الدين ، آخر امراء اليمنيين . وقطع لسان الباشا واصابعه ، لان العادة المحلية لا تسمح بحال من الاحوال باعدام الشيوخ اللبنانيين ، كما كان شأن محمود باشا . ولم يلبث الباشوان التركيان ، اللذان كانا مجرد متفرجين على الحرب ، ان اعترفا فيما بعد بالمنتصر حاكما على لبنان .

قضت معركة عين داره على حزب اليمنيين فى لبنان . ووطد الشهابيون اقدامهم ، واخذوا يحلمون بمركزة السلطة وسط اوليغاركية الشيوخ وصاروا يحدون من القوانين الاقطاعية . وبالمناسبة ، كان لانتصار الحزب الذى يترأسونه مضايقاته بالنسبة الى الامراء الذين كانوا يقتبسون بحمية قواعد السياسة التركية فى جبال لبنان . لقد شعروا بضرورة شق انصارهم لكى يقووا نفوذهم على غرار الباشوات ، حيث يعفون عن هؤلاء تارة واولئك تارة اخرى . هنا تكمن بداية الحزبين الموجودين الى الآن بين الدروز فى لبنان — اليزبكيين والجنبلاطيين ، اللذين تمكن اخلاف الامير حيدر فى ظل الصراع الدائم بينهما ، رغم فتنهم العائلية وخنوعهم للباشوات ، من ان يطبقوا بالتدريج حكما استبداديا بين القبائل الجبلية .

كافأ الامير حيدر انصاره بالتكريم ومنح الاراضى . فقد اقتطع ناحية جزّين الغنية للشيخ قبلان القاضى الذين اختبأ معه فى كهف ملاك الموت ، ولما لم يكن له وريث بعد موته سلمت كل اراضيه بامر من الامير الى اسرة جنبلاط العريقة التى يعود نسبها الى الاكراد الايوبيين ، والتى اصبحت فيما بعد اضمن سند للشهابيين فى جبل لبنان . وانتزع من امراء آل ارسلان نصف اراضيهم الموروثة عقابا لهم على مناصرتهم لمحمود باشا ، فشكلت

---

* جرت معركة عين داره فى عام ١٧١١ . — المحرر .

اقطاعة خاصة لشيوخ تلحوق الذين لا يزالون الى الآن اتباعا للارسلانيين . كان شيوخ آل ابى اللمع يحكمون ناحية المتن برتبة مقدّم . وقد جعلهم الامير حيدر امراء متوارثين والحق بممتلكاتهم ناحية القاطع الجميلة المتاخمة لكسروان وصاهرهم ، الامر الذى لم يكن يستطيع فعله قبل ان يصبحوا امراء . وننوه هنا بان الاعيان اللبنانيين ، شأن كل القبائل العربية ، يراعون بصرامة قاعدة مصاهرة من هم انداد لهم فقط . الامير لا يزوج ابنته لشيخ ابدا ، ولا يوجد مثال على زواج شيخ بفتاة من فئة وضيعة . واذا صعب العثور على زوجة بين الانداد ، يطلب هؤلاء الارستقراطيون لانفسهم جارية من القسطنطينية او من القاهرة ويتزوجونها زواجا شرعيا (لا تسمح الاخلاق الجبلية بالحظايا) ، وبهذا يصونون عشيرتهم من نسابة مهينة . وتراعى حتى بين الناس البسطاء قاعدة زواج الرجل بامرأة من جيله وعشيرته ، الامر الذى نجد آثاره فى العادات التى يتحدث عنها الكتاب المقدس . وبالمناسبة ، يمكننا ان نجد تقاربا طريفا آخر فى مصير الاسر اللبنانية الحاكمة . وكما ان امراء المعنيين صاهروا الشهابيين فى القرن الحادى عشر لاعتبارات سياسية وبهذا فتحوا للشهابيين الطريق الى امتلاك لبنان ، كذلك فان الشهابيين ، وقد صاهروا آل ابى اللمع ، حل مكانهم قائم مقام لبنان الحالى ، وهو امير من آل ابى اللمع .

ليقدم الامير المزيد من المجاملة الى ارستقراطيى لبنان وليخفى مآربه المفعمة بحب السلطة ، ادخل عادة تسمية الشيوخ فى وثائقه باعز الاشقاء ، الامر الذى يراعى بصرامة الى الآن . لا يوجد فى العالم شعب اكثر حساسية من العرب فى الرسميات ، فالشيخ اللبنانى الذى يفخر ، وهو يرتدى الاسمال ويسكن كوخا دخنانا ، بعراقة اصله يغفر الخيانة والظلم ، ولكنه لا يغفر ابدا ما يسميه باهانة شرفه ، عندما يغفل فى الحديث او المراسلة ولو لقب واحد من الالقاب التى تليق بمقامه .

فى سنة ١١٤٤ هـ(١٧٣١ م) سلم الاير حيدر ، وقد نظم ادارة لبنان الداخلية ، السلطة لابنه ملحم ، وتوفى بعد سنة . كان اول ما يشغل بال الامير الشاب معاقبة شيوخ المتاولة المجاورين الذين صبغوا ، بعد وفاة ابيه ، ذيول خيلهم باللون الاحمر علامة الفرح . ثم كان مرارا ، على اثر ابيه ، اداة للسياسة التركية ضد جيرانه . وقد كافأه سعد الدين باشا العظم على هذه الخدمات بمدينة بيروت * التى انتزعها الباشوات من الامراء منذ زمن النقمة على فخز الدين .

لم يتمتع احد من قبل بين امراء لبنان الحاكمين بمثل هذه الحظوة لدى

* فى عام ١٧٤٩ . — **المحرر** .

الباشوات . كان الشهابيون ، الضيوف على جبل لبنان والمحرومون من عطف الشعب ، يبحثون دوما عن سند عند الباشوات الاتراك ، وبهذا كانوا يلقون الذعر بين القبائل الخاضعة لهم . وقد تكشف شعور الشعب ازاء ملحم بمناسبة المرض الذى اصابه نتيجة شوك صبّار دخل يده . وانتشرت شائعة بان حياة الامير فى غاية الخطر ، فاخذ اللبنانيون يقيمون الولائم . وهذا ما اخاف الامير ، فتخلى ، على غرار والده ، عن الحكم لشقيقيه منصور واحمد * ، وانتقل مع اسرته الى بيروت . وقد ندم فيما بعد ودبر كل ما يمكن من الدسائس للاطاحة باخويه . وبالمناسبة ، فانه ، وقد اقتنع بان لا امل له فى استلام مقاليد الحكم مجددا ، استدعى ابن اخيه الامير قاسما ، وتآمر معه وارسله الى القسطنطينية بوصفه احد الجديرين بتولى الحكم وحمله وشاية على اخويه .

توفى الامير ملحم وسط هذه المكائد ، ولكن بذرة الشقاق التى زرعها فى عائلته اعطت ثمارها . فى خلال الطاعون الرهيب الذى اجتاح جبال لبنان وسورية باسرها عدة سنوات على التوالى ، كان الشهابيون يتحاربون احيانا ويشى بعضهم ببعض عند باشا صيدا وباشا دمشق احيانا اخرى . واخيرا ، تمكن الشيخ عبد السلام عماد ، رئيس اليزبكيين ، من مصالحتهم . وتزوج الامير قاسم بابنة الامير منصور ، وانجب هذا الزواج الامير بشيرا المشهور فى ايامنا * * .

ما ان تخلص الاميران الحاكمان من الطامع فى الحكم حتى اخذا يتحاربان فيما بينهما . اتخذ الجنبلاطيون جانب منصور ، ووقف اليزبكيون الى جانب احمد ، وقد تغلب الاولون ، اذ اطاح منصور باخيه وتفرد بالحكم . كان هذا فى سنة ١١٧٧ هـ (١٧٦٣/١٧٦٤ م) . تكاثر الشهابيون فى لبنان ، ولم تكن خلافاتهم العائلية تترك لسكان هذه الجبال التعساء مجالا للراحة . واظهر الامير يوسف بن ملحم البالغ من العمر اثنى عشر عاما مواهب نادرة كانت قد تطورت بنجاح تحت اشراف مربيه ووليه سعد الخورى ، المارونى الاصل . هنا ، كما فى بقية سورية ، اصبح المسيحيون بالتدريج اناسا موثوقا بهم لدى الامراء والباشوات ، وتسربوا فى شؤونهم البيتية وفى الحكم . قبل ذلك الوقت لم يكن للموارنة اى شأن سياسى فى جبل لبنان ، وكانوا فى تبعية للدروز . ولم تكن اوربا تعرفهم الا من خلال شيوخهم الفقراء الذين كانوا يتوجهون الى اوربا من حين الى آخر يحملون لقب امير لبنان الطنان لجمع الصدقات . يشكل سعد الخورى ، مربى الامير يوسف ، عصرا فى سجل اسفار الموارنة . لقد منح قبيلته تطورا جديدا كانت نتيجته اعتناق

* فى عام ١٧٥٤ . — المحرر .
* * ولد الامير بشير فى عام ١٧٦٨ . المحرر .

الشهابيين ، اخلاف محمد ، للمسيحية مع الزمن ، والتفوق السياسى على قبلية الدروز الذى اكتسبه الموارنة بعد ذلك .

اتخذ الامير يوسف جانب احمد فى الفتنة بين العمين . وبعد الاطاحة باحمد ، صادر الامير منصور كل اراضى ابن اخيه . وهذا الشاب الذى حلت عليه النقمة تمكن بمساعدة وليه من تشكيل حزبه فى جبل لبنان واكتسب صداقة الجنبلاطيين . ولكن ميل باشا صيدا المغرض الى منصور لم يمكّن منافسه من خوض الصراع معه بشكل سافر . وتوجه الامير يوسف بمطالب وهدايا الى باشا دمشق عثمان صادق ، فعينه باشا طرابلس بالتماس منه حاكما على ناحية جبيل ، التى كانت كالسابق تابعة لذلك الباشا ، رغم انها كانت باستمرار تقريبا تحت ادارة امير لبنان الذى يدفع لقاء هذه الناحية اتاوة التزامها الى خزينة طرابلس .

فى جبيل كان جمهور السكان الاساسى من المسيحيين ، اما شيوخ بنى حمادة المتاولة فقد جلبوا لانفسهم بالمضايقات والشغب كراهية الشعب منذ القدم . وقد كبحهم الامير يوسف ، وبهذا ضمن لنفسه دخلا جيدا واكتسب ولاء المسيحيين سواء فى منطقته او فى لبنان باسره . واظهر الشيخ على جنبلاط ، الذى كان اتباعه مسيحيين باغلبهم ، ميلا شديدا اليه . واذ احس الامير منصور بالعاصفة فى تعاطف الشعب مع ابن اخيه وفى علاقاته بالجنبلاطيين ، حرض اليزبكيين على الجنبلاطيين . ولكى يستطيع الشيخ على الصمود فى وجه الهجمة حرض بدوره على الامير الحاكم شقيقه الصغير يونس واحتل معه دير القمر * ، واستمرت الفتن قرابة السنة الى ان اصلح الشيوخ بين الامراء . وفى ذلك الوقت كان شهابيو حاصبيا كذلك فى صراع بين الاخ واخيه .

نتوقف موقتا عن حديثنا الرتيب لننتقل الى الاحداث التى كانت سورية مسرحا لها حينذاك فى عهد ضاهر العمر الشهير ، شيخ الجليل ، وفى عهد علي بيك المصرى اللذين فكرا فى مصير جديد لهذا الجزء من الشرق فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر . ولكن ينبغى مسبقا ان نلقى نظرة خاطفة على شبه جزيرة العرب ومصر ، فمنذ ذلك الحين ارتبط مصير سورية بالاحداث التى جرت فى هاتين المنطقتين المجاورتين .

اجتاحت طائفة الوهابيين شبه جزيرة العرب حينذاك . ففى النصف الاول من القرن الثامن عشر ظهر هناك معلم الشريعة محمد بن عبد الوهاب الذى باشر اصلاحا فى الاسلام . وقد رفض ، على غرار مصلحى الغرب الدينيين ، الحكايات والمسلمات عن الخليفة كنائب للنبى ، واعتبر النبى نفسه مجرد معلم للشريعة بوحى من العلى . واقتصرت التعاليم الجديدة على الربوبية

---

* فى عام ١٧٦٤ . — المحرر .

الصرف ، منكرة كل الشعائر باستثناء الصلاة ، وكل القوانين باستثناء تلك التى تنهى عن المنكر والقانون الاسلامى الذى يأمر بالمعروف . الهب المصلح مخيلة القبائل العربية المستعدة دوما ، كما فى زمن محمد ، للدعوة الى تعاليمها بالسيف . ولكن المصلح ، شأن سابقيه الالمان ، لم يكن ذا جرأة عسكرية . وقد فكر الامير ابن سعود الطموح فى ان يقود الطائفة الجديدة على اعقاب المصلح العظيم للشرق * . اجتاحت الحرب شبه جزيرة العرب باسره ؛ وساهمت قبائل الرحل ، مثل امراء اليمن وامام مسقط وشريف مكة ، فى هذا الصراع ، البعض من اجل التعاليم الجديدة ، والبعض من اجل التعاليم القديمة ، وبقى شبه جزيرة العرب قرنا كاملا مضرجا بالدم ومتأججا باللهيب ، شأن المانيا فى القرن السادس عشر . وقد دنّس المصلحون المتوحشون ونهبوا مقدسات المسلمين فى مكة والمدينة ، ومشهدى ولدى علي فى كربلاء ، وهما من مقدسات الفرس ** .

---

* محمد بن سعود ، حكم فى اعوام ١٧٤٧–١٧٦٥ ، امير امارة نجد ومركزها الدرعية ، اعترف بتعاليم محمد بن عبد الوهاب (١٧٠٣–١٧٨٧) وجعل الوهابية دين الامارة الرسمى الذى خاض تحت رايته الحروب لضم اراضى شبه جزيرة العرب الى ممتلكاته . **المحرر** .

** هذه قائمة بما نهبه الوهابيون فى ضريح الحسين وحده فى كربلاء . كان ذلك فى نيسان (ابريل) عام ١٨٠١ ، ونحن لا نتبع هنا الترتيب الزمنى ؛ فمن المعروف ان فتن الوهابيين ما زالت مستمرة الى ايامنا هذه تقريبا .

عشر حول القبر على عشرين سيفا مرصعا بالاحجار الكريمة .

درّة بحجم بيضة الحمام .

العديد من المزهريات والقناديل ومختلف الآنية من الفضة والذهب .

رقائق ذهبية كانت تصفح بها الجدران .

الكثير من السجاد الرائع الثمين .

خمسمئة صفيحة نحاسية مذهبة اعدت لتلبيس القبة . بضائع هندية وفارسية لا عد لها فى الدكاكين . (كان ذلك فى يوم عيد الاضحى حينما يتوارد الى سوق كربلاء حشد غفير من الناس) .

اربعة آلاف شال كشميرى .

الفى سيف .

الفين وخمسمئة بندقية .

الكثير من الاماء الزنجيات والحبشيات .

قرابة ٦ آلاف دوبلون اسبانى (بقيمة ٢١ روبلا فضة) .

٧٥٠ الفا من ليرات هولندا والبندقية .

١٦٠ الف ليرة تركية (بقيمة ٥ روبلات فضة) .

٦٠ الف تومان فارسي (بقيمة ٣ روبلات مضة) .

٢٥٠ الف طالير .

٤ آلاف روبية (بقيمة روبلين) .

واغلق الطريق المؤدى الى مكة فى وجه قوافل الحجاج المسلمين . امـا الباشوات الاتراك ، الذين كانوا فى بعض مناطق شبه الجزيرة يحرسـون السلطة الاسمية لخلفاء استنبول ، فهربوا او طردوا . ترددت اصداء فتن شبه الجزيرة المتعصب وسط القبائل الرحل فى بادية الشام والصحـراء المصرية . كان البدو يشتمون سواء الباشوات او سلطة السلطان . وفـى عام ١٧٥٧م (سنة ١١٧٠ هـ) هاجم البدو قافلة من ٦٠ الف حاج مسلم فـى الطريق المؤدى من دمشق الى مكة . واصبح المحمل ، هذا الكسـاء المقدس الذى يرسله الخليفة للكعبة سنويا ، فريسة للبدو مع ثروات لا تحصى . ومن المعروف ان القافلة وسيلة للتبادل التجارى بين سورية وشبه جزيرة العرب . مات بعض الحجاج من حراب البدو ، والبعض الآخر من الجوع والعطش فى الصحراء . وكانت والدة السلطان نفسها ، ام عثمان الثالث ، مع القافلـة وماتت من الذعر * . وكادت هذه الحادثة ان تثير تمردا فى القسطنطينية فى عهد السلطان مصطفى الثالث . وخلقت فى القبائل السورية والعربية انطباعا غير مؤات بالمرة بالنسبة للحكومة التركية ، واضعفت فكرة الجبروت المطلق للسلاطين الذى سخر منه بلا عقاب فرسان الصحراء والقبائل الشرسة فـى الحجاز واليمن .

كان المماليك يضجون ويعربدون فى مصر ، اغنى مناطق الخلافة ، البلاد الكلاسيكية للفراعنة والبطالسة التى تعرض على العالم منذ عدة قرون منظرا غريبا لخمسة او ستة ملايين من اخلاف المصريين القدماء (الاقباط) والعرب الفاتحين وقد خضعوا لجمع من الارقاء الذين يجلبهم التجار سنويا من القفقاس ويبيعونهم فى اسواق القسطنطينية ودمشق والقاهرة .

الكثير من الياقوت والزمرد واللآلئ ومختلف المجوهرات .

استمر النهب ثمانى ساعات فقط ، ويؤكدون ان العرب ، وقد قتلوا فـى غمار الفوضى الحارس الذى يعرف المخابئ فى المشهد ، لم يتمكنوا من اكتشاف تلـك المخابئ التى تحتفظ بكنوز كثيرة اخرى .

* عزيت هذه الحادثـة الى دسائس القصر . فقـد عزل قيزلار آغا ، رئيس الطواشية ، اسعد باشا الدمشقى الموهوب (من آل العظم) ليسلم منصبه الى احـد محبوبيه . ولم يكن البدو يحترمون هذا المحبوب . وتروى الى الآن فى سورية حكاية عن الثروات التى نهبها البدو بهذه المناسبة . وهى حكاية مبتكر : وجد البـدو ضمن غنيمتهم الكثير من اللؤ لؤ الذى ظنوه لجهلهم رزا . طبخوا منه منسفا ، ولكن كان يستحيل مضغه ؛ فتوجه البدو بحيرة الى تجار دمشق الذين كانـوا يرتادون عادة مضارب البدو لاعمال تجارية . اقترح التجار اعطاءهم عوضا عن هذا الرز الذى لا فائدة منه رزا آخر يمكن طبخه طعاما شهيا ، وعند عودتهم الى دمشق تقاسموا الغنيمـة فيما بينهم . ان المدونات العربية التى تورد هذه الحادثة مع العديد من الحكايـات المبالغ فيها تضيف ان اعقاب هؤلاء التجار صاروا يسمون فى دمشق منذ ذلك الحين بالجمانيين .

أرسى الخلفاء الفاطميون اساس قوات المماليك لحراســة قصرهم فى القاهرة . ان الصراع الداخلى فى الاسلام ، الذى انقسم فى ذلـك الحين الى خلافتين على ضفاف دجلة والنيل ، ارغم الحكام المصريين على البحث عن حرس وسط القبائل الشجاعة فى القفقاس الذى كان ينقل منه الرق الى مختلـف القصور الآسيوية منذ القدم . واخيرا ، حل مكان اعقاب صلاح الدين والايوبيين الضعفاء فى العرش المصرى المماليك الذين قتلوا آخر الخلفــاء الايوبيين (الملك الاشرف موسى) .

حكمت سلالة المماليك الشركسية فى سورية ومصر الى حين الفتـــح العثمانى . وحينما خان امراء سورية واحدا اثر الآخر سلطانهم قانصــــوه الغورى * فى حملة السلطان سليم الاول بقى المماليك وحدهم مخلصين له وقتلـــوا معــه فى وادى مـــــرج دابـــق ، قــرب حلب (١٥١٦) ، حيث تقرر مصير هذين البلدين . وحينما كان الفاتح ينجز اخضاع سورية ، انتخب المماليك فى القاهرة من بينهم خلفا للسلطان القتيل ، وهــو طومان باى ، واستعدوا للدفاع ، معزين نجاحات العثمانيين لا الى شجاعتهم ، بل الى تأثير المدفعية التى كانوا يسمونها ، على غرار آخر فرسان الغرب ، بســـلاح الضعفاء .

اجترح المماليك آيات من الشجاعة فى المعارك عند الحدود المصرية وفى غزة وقرب القاهرة . ولكن خيانة اثنين من البكوات سلمت مصر الى الاتراك . وقد قتل ٢٥ الف مملوك قرب القاهرة ** ، واباد السلطان سليم الاول بضعة آلاف غيرهم ابان الاستيلاء على المدينة ، وعندما لم يعد ثمة اى امل فـــى النجاة من السيف العثمانى — قاتل الباقون طويلا مع سلطانهم التعيس *** الذى اختتم الحكم الشركسى على ضفاف النيل بمرثاة مؤثرة كتبت على حجــر الاهرام الخالد فى معمعان الصراع الضارى **** .

* قانصوه الغورى ، سلطان المماليك (١٥٠٠—١٥١٦) ، قتل فى معركة مـع قوات السلطان سليم الاول التركيــة عنــد مرج دابق فــى ٢٤ آب (اغسطس) عام ١٥١٦ . وقد انتقل عاملاه : خائر بيك حاكم حلب والغزالى بيك حاكم دمشـــق الى جانب السلطان سليم الاول . وانتقل الى جانب الاتراك ايضا فخر الديــن المعنـــى الاول . — **المحرر** .

** جرت المعركة قرب القاهرة فى ٢٢ كانون الثانى (يناير) عام ١٥١٧ . — **المحرر** .

*** شنق الاتراك السلطان طومان باى فــى نيسان (ابريل) عــام ١٥١٧ . — **المحرر** .

**** تشكل الحادثة التالية من حرب السلطان سليم الاول فى مصر ، والتى نقتبسها من التاريخ العثمانى لهامر ، لوحة حية لاخلاق المماليك والفروسية الشرقية . فــى معركة القاهرة اقسم السلطان طومان باى مع المملوكين علم بيه وكرد بيه على قتــل السلطان سليم . وشقوا طريقهم الى المكان الذى ترفرف فيه الراية العثمانية . ووقــع ضحيتهم الوزير الاعظم سنان باشا الذى ظنوه السلطان . بعد الاستيلاء على القاهـــرة

وعين اثنان من البكوات ، وهما اللذان سلما مصر لسليم بخيانتهما ، حاكمين للمنطقتين المستولى عليهما : الغزالى بيك فى سورية ، وخائر بيك فى مصر . كانت سورية موطنا للامراء المحليين بخصوماتهم العائلية ، وللقبائل الجبلية ذات النزعة الحربية باعيانها الجامحين الذين اصبحوا بطيبة خاطر اداة للسياسة التركية فى المنطقة المستولى عليها .

بالنسبة الى مصر ، التى تسكنها قبيلة من المزارعين ولم يكن فيها اعيان محليون آخرون غير شيوخ القاهرة العاكفين بالوراثة على تفسير القرآن ودقائق الشريعة الاسلامية ، كان ينبغى ان يجمع من الخارج جيش واعيان من اجل حكم المنطقة حكما استبداديا . وما لبث المماليك فى عهد الحكومة الجديدة ان اصبحوا من جديد اصحاب مصر الحقيقيين ، فحدّوا من سلطة الباشوات فى تولّى قيادة قلعة القاهرة التى ارسل السلاطين لحاميتها سبعة افواج من الانشكارية . والفرق الوحيد هو ان سيف المماليك لم يكن يقبض على مصر تحت سلطة رق ينتخب من وسطهم ، كما كان الامر سابقا ، بل فى ظل وال للسلطان لم يكن عنده اى نفوذ فى هذا الباشالك البعيد غير اثارة الخصومة بين المماليك وتسليح بعضهم ضد البعض .

حافظ المماليك تحت الحكم التركى على كيانهم القديم . كان عددهم يتراوح بين ١٠ آلاف و٢٥ الفا . وكانوا تحت قيادة اربعة وعشرين بيكا كل منهم يدير منطقة (سنجقا) حسب القانون الاقطاعى ، وله ميليشيا تحت

وبعد ان قتل المنتصر الضارى الاسرى المماليك ، مثل كرد بيه طوعا امام السلطان سليم بعد ان تلقى منه وعدا بالعفو . استقبله السلطان محاطا بكل عظمته . قال له سليم : «ايها الفارس الشهير ، ما الذى حل الآن بجرأتك ؟» . اجاب المملوك : «انها معى» . فسأل السلطان بغضب : «كيف جرؤ على التطاول على حياته ؟» . اخذ كرد بيه يتحدث عن صواب عمله ويمجد جرأة المماليك . وقال ان مغربيا فى عهد السلطان الاشرف جلب من البندقية الى مصر لاول مرة اسلحة نارية ، وان السلطان والبكوات على حد سواء رفضوا بازدراء هذا الاختراع الذى لا يليق بالاتباع الشجعان لنبى لم يوصى شعبه الا بالقوس والسيف ، وان المغربى تنبأ حينذاك بفناء المملكة المصرية بفعل القنابل والرصاص ، وها قد تحققت نبوءته ، لانها مشيئة القدر ، ولان لكل بداية نهاية ، ولحياة الممالك حدود . استاء السلطان ، الذى افسدته السعادة ، من فلسفة المملوك . قال كرد بيه : «لم امثل امامك اسيرا ، ولا اخاف غضبك ، ها هو المصحف الذى ارسلته اليّ عربونا لوعدك» . ثم صب سخطه على خائر بيك الذى كان هناك واخذ ينصح السلطان باعدام هذا الخائن حتى لا يذهب معه الى الجحيم . صرخ السلطان وقد نفد صبره : «اردت ان اعفو عنك واجعلك من بكواتى ، ولكن من يمثل امام السلطان بلا خوف لا يستحق الرأفة» . اجاب كرد بيه المقدام : «لا قدر الله ان اكون من أعوانك» . استدعى السلطان فى سورة من الحنق الجلادين . تحت سيوفهم قال المملوك لخائر بيك : «يا خائن ، قدّم رأسي الدامى الى زوجتك ، فلتجاز بخيانة فى حريمك» .

امرته . ويشغل المقام الاول فى الميليشيا المماليك ذوو الدم الشركسى الصافى الذين يقتنيهم البكوات عن طريق الشراء . وبموت كل بيك تنتخب الميليشيا التابعة له ، او بيته حسب التعبير المستخدم هناك ، خلفا له لا من اولاده ، بل من وسطه ، اى من الارقاء الذين تم اقتناؤهم عن طريق الشراء . وتجدر الاشارة الى ان المماليك لم يخلفوا ذرية فى مصر ولا فى سورية . لقد تدفق فيض حياة القبائل القفقاسية على ضفاف النيل عدة قرون على التوالى بمآثر بطولية وفروسية ، ولكن هذا الغصن الغض من الجبال الشمالية لم يكن يمكن ، حسب قوانين الطبيعة ، غرسه فى مناخ افريقيا اللاهب . ان اطفال المماليك سواء من المصريات او من الاماء الحبشيات او من بنات جلدتهم الشركسيات ، الذين يولدون على ضفاف النيل ، كانوا يموتون على الدوام تقريبا * . وهى الظاهرة الوحيدة فى العالم لخمسة ملايين على الاقل من المحاربين الشباب والاصحاء الذين عاشوا فى البلد نفسه على امتداد ثمانية قرون ، ثم تبددوا كالظل ، دون ان يخلفوا ذرية . الى هذا الظرف ينبغى ان يعزى ولا شك نظام المماليك السياسى نفسه والحقوق العائلية التى كان يمنحها البكوات لارقائهم .

فى ظل هذه الادارة لمصر لم تكن الفتن تتوقف ابدا . ان انتصارات الروس فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر على نهر بوغ ، وعلى نهر الدنيستر ، ووراء نهر الدانوب وظهور اسطول جشمة فى الارخبيل هزت الامبراطورية العثمانية من الاساس وكادت ان تكون ذريعة لانتزاع مصر وسورية وشبه جزيرة العرب نهائيا من حكم السلاطين وبعث السلالة الشركسية المستقلة على ضفاف النيل . وعلي بيك ، الذى تخلص بالقوة او الغدر من منافسيه الذين تمكنوا من زج الباشا فى القلعة ووضعه فيها تحت الحراسة ، كان حينذاك رئيسا لاقوى بيت من بيوت المماليك ، ويحمل لقب الامير او قائد القوات ، وعمدة القاهرة شيخ البلاد . ورؤوس البكوات المعادين ، التى ارسلها علي بيك بموافقة حمزة باشا الى استنبول مع تقرير عن خيانتهم وشغبهم ، جلبت له عطف الديوان سنة ١١٨٠ هـ) (١٧٦٦/١٧٦٧ م) .

ان علي بيك ، وقد قوى فى مصر وضاعف عدد مماليكه الخاصين الذين عهد اليهم بكل مناصب الادارة والعدد الاكبر من السناجق ، لم يلبث ان كشف عن مآربه الواسعة . بسبب خلاف مع شريف مكة ، التى كان يقود اليها

---

* فى سورية توجد عائلة بكوات واحدة يعود نسبها الى المماليك ، وذلك فى نابلس الجبلية التى يمكن لمناخها ان يناسب اطفال القفقاس . وقد رأيت ابان جولتى فى مصر اثنين او ثلاثة من المماليك المسنين الذين افلتوا من المذبحة التى دبرتها ميليشيا محمد علي باشا لهم جميعا . وحينما سألت عما حل باولاد المماليك ، اوضح لي السكان الاصليون ان اطفالهم كانوا يموتون فى المهد دائما .

سابقا قافلة الحجاج المصريين بصفته امير الحج ، جهز مملوكه محمدا بيكا ابا الذهب بجيش الى شبه جزيرة العرب واطاح بالشريف وعين شريفا آخر مكانه . ثم طرد الباشا الذى ارسله الباب العالى الى مصر ، وعين ضباطه لدى الانكشارية الذين كانوا يشكلون حامية القلعة ، واخذ يصك عملة تحمل اسمه واستولى على كل حقوق السلطة العليا باستثناء ذكر اسمه في المساجد * . منذ زمن الحملة على شبه حزيرة العرب ، احتلت حاميته جدة الواقعة على البحر الاحمر ، واعترفت بسلطته بلاد اليمن باسرها . وكان يبحث عن مناسبة فقط للتدخل فى شؤون سورية ليخضع هذه المنطقة التى كانت تعتبر فى كل الازمنة مخفرا اماميا لحكام مصر . وفى ظل القلاقل الداخلية فى المنطقة ما لبثت هذه المناسبة ان حلت .

قويت بالتدريج فى الجليل مواقع الشيخ ضاهر العمر ، من بيت ابى زيدان الشريف . بعد وفاة ابى ضاهر ، الذى عينه امراء لبنان شيخا على صفد ، كما سبق ونوهنا ، كان فى السنوات الاولى من القرن [الثامن عشر] فى السن التى يدرك فيها اولاد العرب خفايا القرآن ويتعلمون الفروسية ، كان عليه ان يحمى ارث ابيه من دسائس اعمامه ومكائد الباشوات . ان ضاهرا ، وقد تلقى دروس الخبرة الاولى فى هذه السن المبكرة ، خاض المعركة سجالا ضد الخصوم الداخليين والخارجيين ، وصمد فى وجه الحصار العنيد الذى ضربه باشا دمشق على قصره فى صفد ، وقتل منافسيه الواحد اثر الآخر ، واكتسب ثقة القبائل المجاورة ، وعقد معها التحالفات واعد بصبر على امتداد اربعين او خمسين سنة عناصر الميدان السياسى العاصف الذى ظهر فيه فى النصف الثانى من القرن الثامن عشر انسانا مسنا ، الا انه محتفظ بنشاط فتوته الفروسى وتجربته الطويلة ، ومتقن فن الحكم .

فى حوالى عام ١٧٥٠ استولى ضاهر العمر على عكا . عكا ، آخر قلاع الصليبيين الذين انهوا حكمهم فى سورية خارج اسوارها مجللين بالخزى ، والتى دمرها السلطان المصرى خليل من الاساس فى عام ١٢٩١ ، كانت فى ذلك الحين قرية عربية فقيرة بدون تحصينات ، وبدون ميناء . هذا السهل الغنى ، الذى يطوقه خليج واسع يمتد من الرأس الابيض (رأس الناقورة) ** الى الكرمل ، عبارة عن قفر مستنقعى ، لان القروى تعلّم تحت حكم المماليك والباشوات ان يختبئ فى الجبال ويعثر هناك بصعوبة على امتار طفيفة من الارض الخصبة وسط الصخور المنيعة التى تحميه من البدو الجشعين ومن جامعى الاتاوات الذين لا يقلون عنهم جشعا . بالنسبة الى الشيخ ضاهر العمر كانت هذه القرية الصغيرة ، التى تخلى له عنها باشا صيدا لقاء مبلغ من

---

* فى عام ١٧٦٨ . — **المحرر** .

** يرتكب بازيلى خطأ هنا : الرأس الابيض ورأس الناقورة رأسان مختلفان ؛ يقع الرأس الابيض الى الشمال بعض الشىء من رأس الناقورة . — **المحرر** .

النقود ، ذات فائدة مزدوجة – كنقطة عسكرية على الساحل السورى وكوسيلة اتصال بالبحر لممارسة التجارة البحرية . ان صلات ضاهر الشخصية بقبائل بدو شرق الاردن وفرت الامن للمنطقة ؛ ولما كان قد التزم ، وفق النظام التركى ، بكل الدخول الحكومية للمناطق التى يشغلها ، لم يعد فى وسع اى كان ان ينهب السكان باسم الباشوات بحجة جمع الاتاوة .

عكف ضاهر بنجاح على التنظيم المدنى للمنطقة . وجذبت السكينة والعدل المزارعين . فحتى من قبرص ، التى كان يعيث فيها كور باشا فسادا ، انتقل الى عكا اليونانيون الذين اقاموا بساتين ومزارع تغطى سهل عكا الى الآن . ازدهرت الزراعة فى هذه الارض المعطاء ، وترعرعت على اثرها التجارة التى وجدت فى عكا ملجأ جاهزا . كان ضاهر يتسم بالتسامح الدينى ، وقد اشتبه فى علاقاته السرية بالسفن المالطية التى زعم انها كانت تعرج على عكا عمدا لتصرف هناك غنائمها . من المؤكد ان بدوا نهبوا قافلة فى عام ١٧٥٧ قد باعوا غنيمتهم الاثمة فى عكا بحرّية ، والباب العالى نفسه استرجع من النهابين بوساطة ضاهر المحمل الذى سرقوه . تضاعفت دخول الشيخ ضاهر فوفرت له طويلا امكان شراء عطف باشا صيدا او تسامحه على الاقل ، مما جعله يتغاضى عن اجراءاته . وفى غضون ذلك حصّن ضاهر مدينته بقلعة وخندق وابراج سواء من جهة البحر ، او من جهة الساحل . وهكذا اعد حينذاك حصن سوف ينقذ سورية من غزو الفرنسيين .

ان بحبوحة ضاهر المتعاظمة والذهب الذى كان يرسل الى عاصمة الامبراطورية العثمانية فى وقته وفرا له الامكان لان يتخلص من وصاية الباشوات المملة ويصبح تابعا مباشرا للباب العالى الذى ثبت له نواحى عكا وصفد وطبرية وكل الجليل . بيد ان القبائل الجامحة للمتاولة ، الذين كانوا يحتلون صور و/اطراف/ جبل لبنان الجنوبية ، لم تكن تستطيع التعايش مع الباشوات ، ولا مع جيرانها اللبنانيين . وكان يقودهم حينذاك الشيخ القوى ناصيف نصّار الذى كان يستطيع ان يرسل الى الميدان عدة آلاف من الفرسان الممتازين ، وكان يملك اراضى غنية والعديد من الحصون . واقام ضاهر تحالفا وثيقا مع المتاولة واتفق مع الباشا على ان يدفع الاتاوة عوضا عنهم . وهكذا اتسعت دائرة اعماله . وكان يسعى على اثر فخر الدين الى هدف عظيم ، الى اقامة كونفيدرالية عامة للقبائل العربية . وكانت صلاته بقبائل الصحراء المتاخمة لممتلكاته تستطيع على نحو متزايد ان تساعد على اقامة دولة مستقلة .

خمن الباب العالى بغريزته هذه النيات الجريئة . لقد علمته التجربة ان يبدى فى حالات كهذه مظهر العطف الى ان يحين العقاب المقرر الذى ينال عاجلا او آجلا بالطرق الخفية للسياسة الشرقية كل الاتباع المتمردين . هذا مع العلم ان الازمنة كانت عسيرة فى استنبول ، حيث يتمرد الانكشارية

احيانا ، وحيث ينبغي خوض الصراع ضد الجار الشمالى احيانا اخرى . اعطى الباب العالى ضاهرا ، شأن الاتباع الآخرين ، وقتا لتطوير رخاء البلاد التى يديرها والتخفيف من وطأة اضطهاد الباشوات على القبائل وبناء القلاع وجمع الثروات التى يجب ان ترد فى حينها الى خزينة السلطان ، كما تصب فى البحر مياه النيل بعد الفيضان الذى يشيع الخصوبة فى التربة .

كان الباب العالى يرقب بصبر ، اما عملاؤه فكانوا يعملون فى الظلام . وكان ابناء الشيخ ضاهر ذوى خلق جامح ، وقد ملوا من الاذعان لابيهم . كانوا يتعاركون فيما بينهم احيانا ، ويتمردون على ابيهم احيانا اخرى وينتظرون موته بفارغ الصبر ليقتسموا سلطته وثروته . فى هذه الظروف كان يعيش ضاهر ، حينما عين عثمان باشا على دمشق مع صلاحيات تشمل كل جنوب سورية ، وعهد الى ولديه بباشالكى صيدا وطرابلس . هذا الامر اقلق الشيخ ضاهرا ، وفى الوقع كان عثمان باشا قد كلف بقتله . واذ تأكد الشيخ من ذلك عبر عيونه التى بثها سواء فى العاصمة او فى مقار الباشوات ، هرع الى مصالحة ابنائه وجهز على الفور اكبرهم عليا ، المعروف بمآثره ، والذى كان قبل يوم فقط يتبادل اطلاق النار مع جيش ابيه الشيخ . شن علي بخمسمئة فارس هجوما مفاجئا على معسكر عثمان باشا قرب نابلس . ولم يتمكن الباشا نفسه الا بصعوبة من الافلات من الفرسان العرب الذين تمتعوا بالغنيمة .

هكذا بدأت اعمال العداوة بين شيخ الجليل والاتراك . كانت القبائل اللبنانية ، التى عانت كل المصائب الممكنة من تدخل الباشوات فى شؤونها الداخلية ، تتعاطف مع الشيخ ضاهر المقدام وكانت مستعدة للتعامل معه . وكان هذا كافيا لان تفلت كل سورية حينذاك من الحكم التركى ؛ ولكن حزازات الشهابيين العائلية اعطت مصير هذه القبائل اتجاها آخر : كانت للامير منصور ، حاكم لبنان ، علاقات ودية بضاهر ، اما الامير يوسف ، الذى كان يستعد منذ زمن بعيد للاطاحة بعمه فاخذ جانب الباشوات بشكل سافر ، ولهذا فان الامير الحاكم ، الذى وجد نفسه محاطا بالشبكة التى نصبها ابن اخيه الشاب منذ زمن بعيد ، رأى انه قد قضى عليه بالبقاء مكتوف اليدين . ولم يبق امام ضاهر الا ان يقع ضحية لثأر الباشوات او ان يتابع الحرب . كان فى حاجة الى حلفاء . وفى سورية لم يكن ثمة سبيل الى حياد القبائل فى الصراع بين الباشوات والاتباع . ولم يكن ضاهر يهاب جيش عثمان باشا ، ولكنه كان يعرف ان الجبليين اذا لم يكونوا معه فلن يلبثوا ان يقفوا ضده .

كان يستحيل فى ظل العلاقات المتبادلة بين اميرى لبنان انتظار المساعدة منهما . ولكن كانت فلسطين كلها والجزء الجنوبى من باشالك دمشق كله قد اضنتهما مضايقات الباشوات . ان ضاهرا ، وقد ادرك هذا ، توجه حينذاك الى علي بيك المصرى الذى كان يعرف مخططاته الواسعة النطاق ، ودعاه الى

سورية مع وعد باخضاع كل هذه المنطقة له . قبل علي بيك هذا الاقتراح بطيبة خاطر ووجه الى ضاهر على الفور مماليكه تحت قيادة اسماعيل بيك بجيش قوامه عشرة آلاف نفر احتل غزة والرملة فى فلسطين . كان عثمان باشا فى ذلك الحين يجبى الاتاوات فى فلسطين ، واذ علم بحملة المصريين تراجع الى دمشق ، حيث اخذ يستعد لمسيرته المألوفة الى مكة مع قافلة الحجاج ، تاركا باشالكه تحت رحمة القدر . ارسل ضاهر ابنه عليا لاستقبال المماليك وقادهم بمهابة الى عكا ، مستوليا على كل النقاط الساحلية . ومن هناك انطلق بعشرين الف نفر من الجيش الحليف لملاقاة عثمان باشا واجتاز نهر الاردن .

ان ضمير المماليك الاسلامى لم يسمح لهم بمهاجمة الباشا وقت تأديته مهمته الدينية كقائد للقافلة وامير للحج . ارسلوا اليه تحديا ، مقترحين عليه ان يخرج بجيشه وحده ويجرب حظه ، ولكن عثمان باشا لم يقبل التحدى ، واجاب انه يقود الحجاج الى مكة ومن يجرؤ على مهاجمته سيكون مسؤولا امام الخليفة وامام الله . رفض اسماعيل بيل حينذاك كل عمل لاحق ، وحتى انه لم يوافق على اقتراح ضاهر احتلال دمشق . وكان حسده للشيخ وابنائه السبب الحقيقى لرفضه . ومما زاد من كدره وهو تحت قيادتهم كون المماليك المصريين اعتادوا منذ الصغر على احتقار العرب واعتبارهم قطيعا من العبيد . اشتكى ضاهر الى علي بيك . وفى بداية السنة التالية ارسل علي بيك الى سورية فيلقا قوامه ٤٠ الف نفر بقيادة محمد بيك ابى الذهب المخلص له . وانضم اليه فيلق اسماعيل بيك وضاهر المكون من ٢٠ الف مقاتل ، وانطلق هذا الجيش كله الى دمشق . استقبل الباشا ، الذى عاد من مكة قبل ذلك بامد قصير ، وابناه اللذان يديران باشالكى صيدا وطرابلس ، جيش المتحالفين قرب دمشق مباشرة . وقد حطموا عن بكرة ابيهم واستسلمت عاصمة سورية للمنتصرين * . واعلن الامان للشعب باسم علي بيك . واتهم عثمان باشا بالكفر بسبب تضييقاته على الشعب وسبب سلوكه فى مكة ، ولم يشر الى السلطان وسلطته بكلمة واحدة . وارسل منصور ، امير لبنان ، هدايا الى محمد بيك واعترف بسلطته عليه بطيبة خاطر .

وهكذا خضعت فلسطين وجنوب سورية كله بلا جهد للمصريين حينذاك ، شأنهما فى زمننا . لقد عمل ضاهر العمر بسلاحه بشكل سافر فى مصلحة الفاتح ، وذلك تماما شأن الامير بشير الذى عمل بالخيانة فى مصلحة ابراهيم باشا ، كما سنرى لاحقا . والفرق هو ان مأثرة علي بيك كانت متزعزعة جدا ، وذلك لانه لم يكن عنده ، شأن محمد علي ، ابن يستطيع ان يعهد اليه بقواته . لقد تمكن اسماعيل بيك تلقين محمد بيك كراهيته للشيخ

---

* وقعت هذه الاحداث فى عام ١٧٧١ . — المحرر .

المسن ، ولأولاده بشكل خاص . والسبب الرئيسى لهذه النقمة والعداوة هو ان الشيوخ ، بالبساطة الابوية لعاداتهم العربية ، لـــم يتقيدوا بسلوك المصريين الخانع وكانوا يجلسون ببساطة على الديوان فى حضرة البيكـّين دون ان يتربعوا ، ويدخنون نراجيلهم دون انتظار ايعاز بذلك . وعندئذ اخـذ البيكان يكفران فى ان «خوض الحرب على الخليفة هو مروق فـى الاسلام ، بالاضافة الى ان غضب السلطان سينال المتمردين عاجلا او آجلا . صحيح ان السلطان كان مشغولا حينذاك بالحرب ضد الروس * ، ولكن ما ان تنتهـى هذه الحرب حتى يعاقب علي بيك لا محالة ، ولا سيما انه متهم بعلاقاتـه بروسيا» . فى صدد النراجيك وسلوك الشيوخ الخالى من التكلف كانت هذه الافكار تقلق ضمير القائدين المصريين على نحو متزايد . فى مثل هذا المزاج ادركهما صرّة امينى الذى قدم مـــن استنبول حينذاك وهـو موظـــف لدى السلطان ، يحمل كل عام هبات الخليفة الى مكة . اقنع الافندى الداهيـــة البيكين بالتراجع الى مصر مع قواتهما فورا ووعد بان يتوسط لهمـــا لدى الديوان . وبهذا تحقق هدف مزدوج : تخلصـــت سوريـــة من الضيـــوف الخطرين ، وطوقت الخيانة علي بيك فى مصر نفسها .

فى احدى الليالى انسحب جيش المماليك المنتصر سرا من دمشق مما اثار دهشة الجميع ، وانطلق الى مصر لا يلوى على شيء . واذ رأى ضاهر انهيار كل مخططاته بسبب خيانة البيكين ، انسحب ايضا الى ممتلكاته بأسى . وكان باشا دمشق وقت استيلاء المصريين على عاصمته قد انسحب الى حمص واخذ يجمع جيشا هناك . وكان الامير يوسف مستعدا للانضمام اليه مع ميليشيـا جبيل . فطالما ان العم اتخذ جانب ضاهر والمصريين ، فلا بد لابن الاخ حسب اصول سياسة الشهابيين ان يتسلح فى مصلحة الباشا . عزا عثمان باشـــا انسحاب البيكين الى الخوف الذى احدثته فيهما اخبار استعداداته ، فعاد الى مدينته بمهابة المنتصر ، وجامل الامير الشاب لحميته .

عندئذ رأى الامير منصور ، الذى عول على ضاهر والمصريين ، انه لـم يكن فى الوسع الاحتفاظ بالسلطة مع وجود منافس كابن اخيـــه . وعرض بنفسه منصبه على يوسف . رفض يوسف اول الامر ليعرف على نحو افضل شعور وميل العقول فى جبل لبنان . واخيرا قـُبل اقتراح منصور عبر وساطة الاقرباء فى حاصبيا وبموافقة الشيوخ العامة ، وتلقى يوسف من حاميـه ، باشا دمشق ، حلة ترمز الى تعيينه حاكما على لبنان . ذهب منصور بعـد تنحّيه الى بيروت ، وبقى طويلا يحوك الدسائس سرا ضد ابن اخيه الى ان تمكن الشيوخ ، الذين كانوا يعانون مشاحنات امرائهم بصورة متزايدة ، من المصالحة بينهما وتزويج الامير يوسف بابنة منصور .

---

* المقصود الحرب الروسية-التركية اعوام ١٧٦٨-١٧٧٤ . — **المحرر** .

ذهل علي بيك ، الذى اعتبر سورية غنيمته ، من عودة مملوكيه . اخذ البيكان تبريرا لهربهما يفتريان على ضاهر زاعمين ان الشيخ نصب لهما الشباك للقضاء عليهما مع جيشهما . وجه ضاهر ابنه الاصغر عثمان الى علي بيك ليشرح الامر واتهم البيكين بالخيانة وعرض رأس ابنه عربونا على اخلاصه . رأى محمد بيك ان الصاعقة تتجمع لتنقض على رأسه ، فتمكن بالكرم والملاطفة من ان يربط اليه المماليك والجيش ، وعندئذ رمى القناع وترك عليا بيكا وذهب الى مصر العليا ، الى الصعيد . لم يكن علي بيك يخمن ان الخيانة تحيط به من كل جانب ، فارسل ضده قائده الثانى اسماعيل بيكا على رأس جيش .

اتحد الخائنان معا فى مصر العليا واخذا ينحدران الى القاهرة . لم يبق امام علي بيك سوى الفرار مع مماليكه المخلصين له والبحث عن ملجأ عند حليفه السورى ضاهر * الذى استقبله بترحاب وبقى مخلصا له فى المصيبة ايضا ومستعدا ليجرب حظه مرة اخرى .

وما لبث الحظ ان ساعد الشيخ المسن بعد فرار المصريين . فقد انقض انقضاض الصاعقة على معسكر عثمان الواقع عند بحيرة الحولة ، خلف جبال لبنان الشرقية ، فبعثر اكراده واغرقهم فى المستنقعات واستولى على مدافعه وكل حاجياته . وافلت الباشا نفسه بصعوبة عابرا البحيرة سباحة على اكتاف زنجيين . هذا الخبر اثار هلع باشا صيدا درويش بن عثمان . وقد استعد المتاولة فى الجوار لمهاجمته فى صيدا . ترك درويش باشا مدينته وبحث عن ملجأ فى الجبال عند الامير يوسف ، فارسل الامير من عنده لرعاية الحامية فى صيدا الشيخ عليا جنبلاط مع ميليشيا العقّال ** .

فى فى تلك السنوات هزم اسطولنا تركيا فى البحر الابيض المتوسط *** .

---

* فى نيسان (ابريل) عام ١٧٧٢ . — **المحرر** .

** يشكل العقّال طبقة خاصة من الشيوخ المطلعين على اسرار ديانة الدروز . وجمهور هذه القبيلة لا يهتم ابدا بالدين الذى يعتبر من اختصاص العقال على وجه الحصر .

*** يقصد بازيلى احداث الحرب الروسية-التركية اعوام ١٧٦٨-١٧٧٤ ، حينما ارسلت الامبراطورة يكاترينا الثانية الاسطول الروسى تحت قيادة الكونت أليكسى اورلوف من بحر البلطيق الى البحر الابيض المتوسط للقيام بالعمليات الحربية ضد الاسطول التركى ولدعم حركة اليونانيين والسلافيين المناهضة لتركيا . بعد هزيمة الاسطول التركى فى معركة جشمة بتاريخ ٢٦ حزيران (يونيو) عام ١٧٧٠ ، سيطر الاسطول الروسى تماما على الجزء الشرقى من البحر الابيض المتوسط . كانت القاعدة الاساسية للاسطول الروسى تقع فى ميناء أوزا فى جزيرة فاروس ، ومن هناك حاصرت السفن الروسية ممتلكات تركيا الواقعة فى البحر الابيض المتوسط وقضت على فلول الاسطول التركى . — **المحرر** .

وقد دعا علي بيك وضاهر السفن الروسيـــة الى الشاطـــئ السورى * ، متحدثين عما جرى هناك . وكان الشاطئ السورى يستطيع ان يوفر للاسطول الروسى ، علاوة على العمليات الحربية ، امكانات كبرى للتزود بالمؤونـة . ظهرت السفن الروسية اول الامر قرب حيفا ، عند سفح الكرمل ، مقابل عكا ، ثم اخذت تدعم عمليات جيش علي بيك وضاهر ** . وقد تكون عندهما جيش من ١٠ آلاف نفر ، بينهم ٧٠٠ نفر من خيرة المماليك و١٠٠٠ شخص مـن المشاة الافارقة ، مغاربة علي بيك ، والقوة الباقية كانت من فرسان ضاهر الصفديين ومتاولة الشيخ الحليف ناصيف نصّار . وسلح عثمان باشـــا ، حسب تكتيك الاتراك المألوف ، الدروز ضد المتاولة . وبايعاز منه شـن الامير يوسف مع ٢٠ الف جبلى حملة جائحة على بلاد المتاولة ، فاحرق القرى وخرّب المزارع . وعبثا حاول الشيخ السمح علي بن ضاهر اقناع امير لبنان بالتخلى عن الاتراك وعرض عليه شرف تولىّ قيادة كونفيدرالية الجبليين ، ليتخلص الجميع من مكائد الباشوات . ولما كان انصار عمه منصور يرغبون فـى القضاء على يوسف ، فقد حرضوه على متابعة العمليات الحربيـة لجعله مكروها من الشعب اكثر واكثر ، ودعوا فى الوقت نفسه المتاولة الى مهاجمة الامير . وفى الواقع هاجم خمسمئة من المتاولة الحانقين قوات الامير فـى النبطية ، قرب صيدا . ان الدروز ، الذين قاموا بهذه الحملة لصالح الباشا عن غير رغبة ، لم يصمدوا ابدا . وتفرقوا فى اتجاه جبالهم ، فلاحقهم المتاولة طويلا واراقوا الكثير من الدماء . وعاد الامير الى دير القمر مجللا بالخزى . الف وخمسمئة ارملة ، «كاسراب من الغربان» ، حسب تعبير المدونـــات العربية ، ملأن الجو على ذرى جبل لبنان بالعويل واللعنات . اما العقّال الذين كانوا يحتلون صيدا ، فتراجعوا بذعر اذ علموا بهزيمة الامير ، وعلى اثـر

---

* يعطى لوزينيان ، المقرب الى علي بيك ، وصفا مفصلا للمحادثات التى جرت بين علي بيك والكونت اورلوف آمر الاسطول الروسى .

من المرجح ان علي بيك بعث فى مستهل عام ١٧٧١ برسالة الى اورلوف عبـر هاكوب الارمنى اعرب فيها عن الرغبة فى عقد تحالف مع امبراطورة روسيا لخوض صراع مشترك ضد السلطان . واقترح على اورلوف ، من جانبه ، مساعدتـــه بالمؤن والنقود . واجاب اورلوف انه مستعد لتقديم المساعدة لعلي بيك وانه سيبعـــث برسالته الى الامبراطورة .

لعل عليا بيكا بعث برسالة مع هاكوب الارمنى الى اورلوف فـى مستهل عـام ١٧٧٢ بعد ان فر من مصر الى فلسطين . وفى هذه الرسالة يتوجه بطلب المساعدة . واخيرا ، فى ايار (مايو) وتشرين الاول (اكتوبر) بعث على بيك مجددا برسله الى اورلوف يطلب منه المساعدة . — **المحرر** .

** يعود دعم الاسطول الروسى لعمليات ضاهر الحربية الى عامى ١٧٧٢–١٧٧٣ . — **المحرر** .

ذلك استولى ضاهر على عاصمة الباشالك هذه * ، وعين متسلما عليها احد ضباطه ، وهو الافريقي الشجاع د°نغيزلى .

لم يعرف الباب العالى اين المفر ، فقد اتسم حكم السلطان مصطفى الثالث كله بالمصائب ، حيث تمرد الانكشارية فى العاصمة واخترقت الحربة الروسية الحصون الشمالية للامبراطورية العثمانية ، وغرقت الاساطيل ، وانتفضت اليونان ، ولم تعد مصر وشبه جزيرة العرب ونصف سورية تعترف بسلطة الديوان .

توفى عثمان ، باشا دمشق ، وحل مكانه عثمان باشا آخر يحمل لقب سرعسكر كل منطقة جزيرة العرب وتكليفا باحلال السلام فى سورية مهما كلف الامر سواء بالسلاح او بالمفاوضات مع ضاهر . ولكن لا بد ، لخوض المفاوضات ، من الاستيلاء على صيدا قبل كل شيء . كلف السرعسكر الامير يوسف بهذا ، وسلمه جيشه ومدفعيته المخصصة للميدان والحصار . وقد حاصر الاتراك والجبليون صيدا ** ، ولكن ضاهرا وحلفاءه هرعوا اليها . كان جيش الحصار قد اصطف فى نسق قتالى على طول الساحل ، من الناحية الشمالية للمدينة . وقاتل الجانبان بعناد كبير ، وحتى بشيء من التكتيك . اربكت المدفعية التركية المتاولة اول الامر ، ولكن المماليك انقضوا عليها بسيوفهم الملتوية ، وصدوا المدافع . وهرعت ايضا فرقاطة روسية مع قوارب المدفعية ، واكتسحت جيش الباشا بقذف من البحر . فر الدروز لا يلوون على شيء ، ثم احتلوا الشعاب والممرات الجبلية واخذوا ينهبون فصائل حلفائهم من المشاة والخيالة الاتراك الذين لم يصلوا الى دمشق الا بشق النفس .

فى صباح اليوم التالى ظهر الاسطول الروسى امام بيروت ، ولمعاقبة الامير قذف المدينة التى كانت تعود للشهابيين حينذاك . وقام الروس بانزال ولم ينسحبوا الا بعد اخذ غرامة من الامير الذى ذهب الى قرية الحدث الواقعة عند سفح الجبل ، على بعد قرابة خمسة كيلومترات عن بيروت ، ومن هناك خاض المحادثات مع الاسطول *** .

---

* جرت هذه الاحداث فى خريف عام ١٧٧١ . – **المحرر** .

** فى ربيع عام ١٧٧٢ . – **المحرر** .

*** ارسلت السفن الروسية اول مرة الى الشواطئ السورية تحت قيادة الفريق ريزو فى نيسان – حزيران (ابريل – يونيو) عام ١٧٧٢ تلبية لطلب علي بيك تقديم المساعدة .

كانت عمارة ريزو تتكون من عشر قطع ؛ وقد وصلت فى ١٨ ايار (مايو) عام ١٧٧٢ الى دمياط . ولكن عليا بيكا كان فى ذلك الوقت قد هرب الى سورية . عندئذ اعطى ريزو امرا بالاقلاع الى شواطئها . وقرب حيفا قابله رسول علي بيك الذى طلب من ريزو تقديم المساعدة من البحر الى صيدا التى تحاصرها قوات الاتراك والامير يوسف المتحالفة . وفى ٢٧ ايار (مايو) قابلت السفن الروسية قبل الوصول الى صيدا

كانت تحت سلطة ضاهر كل المدن الساحلية فى سورية الى الجنوب من صيدا . وقد اظهرت عملية الاسطول الروسى الناجحة فى بيروت لباشا دمشق كل اهمية هذه النقطة التى يجعل فقدانها اتصال باشنالك دمشق بالبحر صعبا للغاية . ولينتقم الامير يوسف من عمه منصور الذى عاش بعد تنازله فى بيروت وكأنما فى اقطاعته ، ولم يتوقف رغم صلحه مع ابن اخيه عن مساعدة ضاهر والمتاولة سرا ، اقترح على الباشا ان يرسل حامية الى هناك عن رأسها قومندان يعول عليه لحماية المدينة من الروس . ارسل الباشا الى بيروت احمد بيها الجزّار مع ثلاثمئة من خيرة المغاربة .

سنتحدث هنا ببضع كلمات عن هذا الانسان الذى ظهر شهابا داميا فى افق سورية واشتهر فى اوربا بالدفاع عن عكا ضد نابليون . ان بعض ملامح سيرة امثاله من الناس تعكس عصرهم والاخلاق السياسية لتركيا افضل من الاحداث نفسها التى تفلت دقائقها المميزة من السرد التاريخى . ان الجزار ، شأن علي باشا التيبيليني * فيما بعد ، وشأن محمد علي المصرى فى زمننا ، يشكلون تجسيدا لعهودهم ولشعبهم ، ونماذج اخيرة لتلك الطبقة من الناس الذين اشادوا يوما عظمة القبيلة العثمانية ثم اعدوا العدة لتدهورها . مثل هذه الطباع لم تعد تظهر فى ظل اتجاه الاخلاق الحالى فى تركيا . فهل جف ماء حياة الشجرة الجبارة التى نموا عليها بذلك الشكل الرهيب او ان تلك المصادفات التى تكشفوا فى وسطها لم تعد تقع فى زمننا ؟

فرقاطة تركية ، فاجبرتها على الفرار . ثم توجهت السفن الروسية الى صيدا ، وقد كلفت بان «تطرد من تحت القلعة احدى عشرة سفينة تركية راسية هناك عليها قوات انزال ومدفعية ، ثم تقذف المعسكر التركى» .

ارغمت السفن الروسية القطع التركية على مغادرة المرفأ وقذفت المعسكر التركى الذى هاجمته فى الوقت نفسه قوات ضاهر من البر . وبالنتيجة تراجع الاتراك بخسائر كبيرة .

بعد هذه العملية توجهت العمارة الروسية الى بيروت لتباغت هناك القطع التركية المنسحبة من صيدا . وقد استقبلت فى بيروت بنيران قوية من القلعة . وفى ٦ حزيران (يونيو) اقتربت من بيروت فصيلة ريزو كلها . وفى ٧ حزيران (يونيو) بدأ قذف بيروت . بعد الطلقات الاولى من القلعة جاء رسول للمفاوضة . طلب ريزو الغرامة السنوية التى تدفعها المدينة الى السلطان . ولما لم يأت الجواب ، استمر الحصار . وفى ١٢ حزيران (يونيو) استسلمت القلعة . ووافق الامير يوسف ، الذى كان يعمل مع الاتراك ، على دفع الغرامة . وفى ١٧ تموز (يوليو) اقلعت الفصيلة الروسية ووصلت الى أوزا فى ١٩ تموز (يوليو) عام ١٧٧٢ (التواريخ وفق التقويم القديم) . — **المحرر** .

* علي باشا التيبيليني (التيبيديلينلى) ، (١٧٤١-١٨٢٢) — اقطاعى كبير ، حاكم يانينا وابيروس وجزء من فيسّاليا منذ عام ١٧٨٨ . فى عام ١٨٢٠ انتفض على السلطان التركى ، معتمدا على مساعدة اليونانيين ، ولكنه منى بالهزيمة . — **المحرر** .

احمد الجزّار من مواليد البوسنة ، وحينما كان فى السادسة عشرة من العمر اغتصب خطيبته ، فهرب من انتقام اقربائها الى القسطنطينية ، ولما لم يكن يعرف ماذا يفعل بنفسه ، باع ذاته للتجار الذين يتجارون بالارقاء القفقاسيين . وهكذا اصبح مملوكا لاحد البكوات المصريين . وقد قتل البدو سيده . فجمع احمد عصابة من المتهورين امثاله واخذ يقتل كل من يقع تحت يده من البدو . فى احد الايام جر بخدعة الى كمين اكثر من سبعين شخصا بينهم عدة شيوخ وذبحهم عن بكرة ابيهم . وكان يهتف كلما قتل واحدا : «ضحية اخرى لقاء دم سيدى عبد الله بيه» . هذه المآثر كانت تلائم تماما ذوق المماليك وجلبت لاحمد الشاب شهرة كبيرة فى مصر ولقب الجزّار . وقدم الى علي بيك ، الذى كان فى ذلك الحين قد استولى عن السلطة العليا فى مصر ، رؤوس اربعة من شيوخ البدو الذين يمقتهم . قبل علي بيك هذا المقدام فى خدمته وصار يتخلص بخنجره من خصومه ، وبشكل خاص من اصدقائه الخطرين وخدمه المؤتمنين الذين يمكن لطموحهم ان يلحق الضرر به . ومكافأة له على هذه الخدمات منحه لقب بيك . وكان علي بيك متحالفا مع صالح بيك الذى ساعده على ان يبيد خصومه ويصبح حاكما على مصر . ولكن حان وقت التخلص من هذا الحليف ايضا . وكلف علي بيك الجزار بهذا العمل الحساس . فتملص من الاقتراح ، قائلا انه عند اقامته فى مصر العليا تآخى مع صالح بيك * ولهذا لا يستطيع الآن ان يؤذيه .واذ خشي علي بيك الخيانة ، اخذ يمدح الجزار على اخلاصه لشعور الصداقة ويؤكد له انه لم يقدم هذا الاقتراح الا ليمتحنه . لم يصدقه الجزار تماما ، ورأى من الضرورى تحذير صالح بيك . تمكن علي بيك فى اليوم التالى من اقناع صالح بيك بانه اراد فعلا ان يمتحن بهذا الاقتراح اخلاص مولاه فقط ، وعلم فى غضون ذلك ان الجزار لم يكتم الامر عن صالح بيك . وهكذا تقرر مصيرهما .

تطوع محمد بيك ابو الدهب ، الذى سبق وتحدثنا عنه ، للتخلص من الاثنين دفعة واحدة . دعاهما الى نزهة على الجانب الآخر من النيل ، فى صحراء الاهرام . وهناك اثار شجارا مع صالح بيك الذى لم يشتبه فى شيء ولم يأخذ مماليكه معه . قتل صالح بيك . رأى الجزار كل شيء من بعيد ، ولكن حينما وصل ، كان قد فات الاوان لانقاذ اخيه . لم يجرؤ ابو الدهب عن مهاجمة الجزار وسلاحه معه . استقبله بود وجلسا على بساط ودخنا غليونا . اخذ ابو الدهب يتحدث عن الخلاف الذى كان سببا للقتل ، واستل سيفه ليمسح الدم ، واخذ يمدح فولاذه واراد مقارنته بسيف الجزار ، لكى يجرده من

---

* عادة التآخى هذه موجودة عند اليونانيين والالبان والصربيين كما عند الشركس وغيرهم من القبائل الشرقية . ويؤدى المسيحيون فى غضون ذلك بعض الطقوس الكنسية . اما المسلمون فيتبادلون القمصان والسيوف . هذه القربى المفتعلة مقدسة شأن قربى الدم . وكان المماليك المحرومون من الاقرباء يعوضون بها من يتمهم .

سلاحه على هذا النحو . اجاب الجزار ببرودة اعصاب انه اعطى عهدا على ألا يستل سيفه من قرابه بدون ان يقطع رأس احد ما ، ثم نهض وامتطى جواده وانطلق الى القاهرة . ومن هناك ابحر الى القسطنطينية متنكرا بزى مغربى ، لينجو من علي بيك .

فى القسطنطينية شعر الجزار بالملل ، ولما لم ير امكانا ليشق لنفسه طريقا وسط حشد الباحثين فى العاصمة ويفتح مجالا آخر يلائم ذوقه ، اتجه الى دمشق . فى تلك الازمنة كانت سورية بعد مصر ، ارض الميعاد للناس من هذا الطبع . الحقه باشا دمشق بخدمته بطيبة خاطر . وفى المعركة قرب صيدا تميز الجزار بعنفوانه واكتسب سمعة جديدة . وحينما بدأ الحديث عن حماية بيروت من الاسطول الروسى ، وقع الاختيار على الجزار ، ومما زاد من سرور الامير يوسف انه توفرت له فى السابق الفرصة لان يصادقه ويقربه فى دير القمر * . حينما كان الجزار فى ضيافة الامير يوسف ، بل وفى خدمته بشكل من الاشكال ، عرض محمد بيك ابو الدهب على الامير ١٠٠ الف طالير مقابل رأسه ، ولكن الامير لم يوافق على الغدر بضيفه . وسنرى لاحقا كيف كافأ الجزار حاميه .

ما ان احتل الجزار بيروت حتى اخذ يحصن المدينة بسور ويجدد القلاع التى الحق الروس اضرارا بها . وفرض لهذا الغرض غرامة على السكان وهدم قصور الامراء لكى يستخدم موادها للتحصينات . وقد منع الجبليين من الظهور فى المدينة ، واخذ مغاربته يشنون الغزوات على كل الانحاء المجاورة ويذبحون الجبليين وينهبونهم بلا رحمة . وصار الاشرار والافاقون يأتون الى الجزار من كل صوب ، فكانت عصابته تتكاثر يوما اثر يوم ، واصبحت خطرة على لبنان . فهم الامير خطأه ، ولكن بعد فوات الاوان . ولم تلق شكواته الى الباشا اذنا صاغية ، لان الجزار اقترح من جانبه ان تبقى بيروت تحت حكم الباشا مباشرة .

ارغمت خيانة الجزار الامير على مصالحة ضاهر . وكان الدروز يتمنون ذلك منذ امد بعيد ، لان مشاحنات الامراء العائلية كانت تشكل ذريعة للحروب مع الجيران وللمزيد من تدخل الباشوات فى شؤون لبنان . التقى الامير الشيخ قرب صور فى رأس العين ، عند البئر الارتوازية الطبيعية التى يسميها كل الرحالة لسبب مجهول بنبع سليمان . وهناك عقدا تحالفا دفاعيا ضد الباشا ومعاهدة خاصة توجها بمقتضاها الى الاميرال الروسى بطلب تحرير بيروت من الجزار . كان ذلك فى عام ١٧٧٢ ** . وظهرت مجددا فصيلة من الاسطول

---

* فى عام ١٧٧٠ . — **المحرر** .

** لم يدفع الامير يوسف اتاوة الى خزينة الباب العالى منذ عام ١٧٧٢ حتى سقوط سلطة الشيخ ضاهر فى عام ١٧٧٥ . — **المحرر** .

الروسي تحت قيادة القبطان كوجوخوف في مكلا بيروت * ، وحينما كانت الميليشيتان المتحدتان للمتاولة والدروز تطوقات المدينة من جانب البر ، قذفتها الفرقاطات والمراكب الصغيرة من البحر . استمر الحصار اربعة اشهر . ودافع الجزار مع عصابته عنها دفاع المستميت . وقد دمرت بطاريات السواحل ، واستولت فصيلة الانزال الروسية على الحصون ، ولكن لم تكن هناك وسيلة لاحتلال المدينة بالانقضاض . كانت كل الابنية الداخلية قائمة على قناطر متينة للغاية من حيث خاصية الحجر نفسها ، وحتى الشوارع المتعرجة والضيقة مغطاة بقناطر كانت الحامية تختبئ تحتها آمنة من القذائف والقنابل . وقد احدثت شقوق ، ولكن الميليشيا المحلية لم توافق بشكل من الاشكال على القيام بالانقضاض حتى على اثر فصيلة الانزال الروسية ، وكان من المستحيل التفكير في الانقضاض بالانزال وحده . واخيرا اضطر المحاصرون الى اكل الجيف والكلاب . واستسلم الجزار . واستقل سفينة روسية نقلته الى ضاهر في صيدا . لم يكن الجزار يثق بامير لبنان ، ولكن كانت عنده ثقة كاملة بشيخ الجليل . ولن نلبث ان نلتقي الجزار من جديد . . .

احرزت فصيلة الاسطول الروسي غنائم كبيرة عند الشواطئ السورية ، ولكن لما كانت قد تخلت ، حسب اتفاقية مسبقة مع حلفائها السوريين ، عن غنيمة بيروت ، باستثناء الغنائم الحربية ، فقد دفع الجبليون الى الفصيلة نقودا بقيمة ٣٠٠ الف قرش . وحتى ان يوسف امير لبنان طلب الجنسية الروسية مع كل شعبه ، ولكن ، طبعا ، شريطة ان تحرر روسيا لبنان من الاتراك ** . ومهما كان الامر ، فقد مارس ضابط روسي القيادة في بيروت على

---

* في ربيع عام ١٧٧٣ . — **المحرر** .

** كان تاريخ العمليات الحربية للاسطول الروسي عند شواطىء سورية في عام ١٧٧٣ كما يلي . استمرت الهدنة بين تركيا وروسيا من ٢٠ تموز (يوليو) عام ١٧٧٢ الى ٩ آذار (مارس) عام ١٧٧٣ . وفي نيسان (ابريل) عام ١٧٧٣ سافر اليكسي اورلوف القائد العام للاسطول الروسي الى ليفورنو وانتقلت قيادة الاسطول الى الاميرال سبيريدوف . وحينما توجه علي بيك مجددا في ربيع عام ١٧٧٣ الى القائد العام للعمارة الروسية بطلب المساعدة ، اعطى الاميرال سبيريدوف امرا للنقيب البحري كوجوخوف بالتوجه الى الشواطئ المصرية والسورية لمساعدة علي بيك وحلفائه . وفي الوقت نفسه ارسل البريميير-ماجور الكونت فوينوفيتش الى سورية في ١٢ حزيران (يونيو) قام باستقبال فوينوفيتش في صور ملازم الحرس باومغارتين المقيم في سورية منذ عام ١٧٧٢ ، والذي خاض بعد موت علي بيك المحادثات مع ضاهر باسم اورلوف وعقد معه اتفاقيات صداقة مع روسيا العظمى» . توجه الشيخ ضاهر الى فوينوفيتش عبر احمد د"نغيزلي بطلب مساعدة الدروز على تحرير بيروت من الجزار . فارسل فوينوفيتش مركبين مع سفن ضاهر العربية لمحاصرة بيروت . في ١٥ حزيران (يونيو) وصلت الى عكا عمارة القبطان كوجوخوف . وفي ٢٣

امتداد العمليات الحربية وخلف بعده ذكره حميدة . وتطلق الحكاية الشعبية على هذا الضابط اسم ستيبان * .

هرع ضاهر وعلي بيك الى فلسطين ** التى اعترفت قبائلها بسلطة الشيخ عليها . وهناك اخذا ، بعد ان ضمنا لنفسيهما تحالفا مع الدروز فى المؤخرة ، يستعدان للقيام بحملة على مصر . وفى يافا ونابلس اثارت مساعى باشا دمشق اضطرابات فى الشعب . وتمردت يافا . طوق علي بيك المدينة بفرسانه ، بدون مشاة ، وبدون مدفعية حصار . بقى المماليك ثمانية اشهر تحت اسوارها . وفى ربيع عام ١٧٧٣ استسلمت يافا . ومن هناك اخذ علي بيك يخوض محادثات مع البكوات المصريين ويهددهم بحملة مع حلفائه السوريين . واذ خشى محمد بيك انتقامه ورأى ان عنده الكثير من الانصار بين

حزيران (يونيو) اتحدت العمارتان الروسيتان فى صيدا . وبعد يومين وصلت العمارة الى بيروت ، ووقعت معاهدة للقيام بالاعمال المشتركة بين قيادتها من جهة ، وبين د"نغيزلى ، مبعوث ضاهر ، والامير يوسف من الجهة الاخرى . اعترف الشيوخ والامراء الدروز والشيخ ضاهر بالحماية الروسية وتعهدوا بمحاربة تركيا طالما كانت روسيا فى حالة حرب معها .

فى ١٩ تموز (يوليو) وصلت المراكب الى بيروت وبدأت بقدفها لصرف الانتباه عن الانزال .

كان الانزال الروسى مكونا من ٧٨٧ شخص من الفصائل النظامية (من مدفعيى البحرية بصورة رئيسية) تحت قيادة ملازم الحرس باومغارتين والوحدات غير النظامية (من الالبانيين واليونانيين والسلافيين) تحت قيادة الرائد دوسى والملازم فوينوفيتش . وعلى الرغم من ان المدفعية الروسية دمرت سور القلعة فى عدة مواقع ، رفضت قوات الامير يوسف الاقدام على اقتحام المدينة . ولم يمكن تفوق قوى العدو الوحدات الروسية من تنفيذ الهجوم . وقُرر انتظار امدادات ضاهر من عكا واعادة فصائل الانزال الى السفن . وتابع الامير يوسف محاصرة العدو فى الجبال .

فى ١٨ و٢٤ آب (اغسطس) تم من جديد انزال روسى حاصر المدينة من اليابسة . فى ذلك الوقت هزم ضاهر بالاشتراك مع الدروز باشا حلب الذى ارسل لمساعدة بيروت ، واستعد لتطويق المدينة .

فى ٢٢ ايلول (سبتمبر) وافق الجزار على مغادرة بيروت والذهاب الى صيدا على متن سفينة روسية . وفى ٢٩ ايلول (سبتمبر) وُقع الشرطان التاليان لتسليم بيروت : تنتقل المدينة الى يد الامير يوسف وتوضع حامية الجزار تحت تصرف ضاهر .

دخلت القوات الروسية المدينة ، وفى اليوم التالى سلمتها للدروز .

بقيت القطع الروسية عند شواطئ سورية حتى كانون الثانى (يناير) عام ١٧٧٤ ، وفى بداية شباط (فبراير) عادت الى قاعدتها فى جزيرة فاروس (التواريخ وفق التقويم القديم) . — المحرر .

* لعله باومغارتين الذى اعطاه الاميرال صلاحيات لتنظيم الامور مع الجبليين .

** هنا يخل بازيلي بالتتابع الزمنى فى عرض الاحداث ، فقد سبقت العمليات الحربية فى فلسطين ورحيل علي بيك الى مصر حصار بيروت . — **المحرر** .

المماليك والبكوات ، اتفق مع الآخرين على ان يكتب له رسائل خضوع يقترح عليه فيها العودة وحكم مصر من جديد . انطلت الحيلة على علي بيك ، ولم يذعن الى ضاهر الذى نصحه بالتريث ومضاعفة قواه وانتظار المساعدة التى وعد بها الاسطول الروسى ، فسلك طريق العودة بفصيلة صغيـرة فقط . استقبله البكوات مع محمد بيك ابى الدهب على الحدود فى العريش وقدموا له كل آيات التبجيل . ولكن على الطريق عبر صحراء السويس اثار رجال محمد بيك شجارا مع مماليك علي بيك واعملوا فيهم السيوف دون انصياع لاوامـر سيدهم ، وصرعوا الجميع . اما علي بيك ، الذى لم يشك فى الخيانة ، فقـد اندفع لتهدئة جماعته وجُرح وسط هذه البلبلة . من البكوات من تصنّـع الاسى ، ومنهم من حزن بالفعل ، ولكنهم قبّلوا جميعا يدى حاكمهم وضيفهم . بعد الوصول الى القاهرة احاطوه بعنايتهم وفى غضون ذلك تسمـم الجرح . وهكذا انتهت حياة علي بيك العاصفة * . بكاه شيخ الجليل باخلاص ، حيث فقد فيه حليفا كان يرى فى ضاهر المسن وابنائه الشجعان ، كما تشير كل الدلائل ، مجرد اداة لبسط نفوذه فى العالم العربى ولمخططاته المقبلة .

بعد وفاة السلطان مصطفى الثالث ، اوعز خلفه السلطان عبد الحميد ، الذى استنفد كل جهوده لانهاء الحرب مع روسيا ، الى باشواته فى سورية بعقد صلح مع الشيخ الجبار مهما كلف الامر . وبدأت المفاوضات . اعطـى الباب العالى الشيخ الحكم الوراثى لكل فلسطين ، باستثناء مدينة القدس التى ينبغى لها بما تحويه من مقدسات ان تبقى تحت ادارة باشا دمشق ، شأن كل باشالك صيدا ، اى فينيقيا القديمة . ولكن الى جانب ذلك وضع الباب العالى ضاهرا ، وكأنما احتراما لمعاهدة رأس العين التى سبقت الاشارة اليها ، تحت اشراف وادارة امير لبنان .

هذا الامر الاخير كان مدروسا على نحو ممتاز بمثابة عربون لشقاق مقبـل بين التابعين وضمانة لتأثير الباب العالى فى الاثنين معا . وصدر عن الديوان فرمان بالعفو ووعد بتقديم كل التسهيلات على ان يبقى الشيخ هادئا ويدفع اتاوة معتدلة جدا . كان ضاهر فى حدود التسعين من العمر ، وكان لا يزال نشيطا من الناحية البدنية ويمتطى الجياد بجرأة ، ولكنه كان قد اصيـب بالوهن من الناحية المعنوية . وقد اثرته اقتراحات الباب العالى . ولكـن ابناءه ، الذين اصبحوا انفسهم فى سن متقدمة ، رأوا فيها مجرد فخ ونصحوا اباهم بمتابعة الحرب .

تسلل الارتياب ، رفيق الشيخوخة ، الى طبع ضاهر . لم يكن يصغى الا الى خازنه المسيحى ابراهيم الصباغ الذى كان يدير كل شؤونـه ويكدس الملايين لنفسه ولسيده ويحتكر كل التجارة ويثقل كاهل الشعب بالضرائب

---

* فى نيسان (ابريل) عام ١٧٧٣ . **المحرر** .

المفرطة ، مستغلا سلطة الشيخ . طالت المحادثات مع الباب العالى ، وفى غضون ذلك تحرك باشا دمشق بجيشه لمعاقبة الجبليين على اعمال نهب قام بها اخو الامير يوسف فى وادى بعلبك ، واستعد لاقتحام شعاب لبنان . ولكن داهمه علي بن ضاهر عند قب الياس ، على المنحدر الشرقى لجبل لبنان ، وهزمه شر هزيمة * . ولم تتوقف الفتن فى جبل لبنان . فقد جذب اشقاء الامير الى جانبهم شيوخ اليزبكيين المستائين وتمردوا معهم . وفى جبال لبنان الشرقية لم يتوقف كذلك اقتتال الاخوة بين الشهابيين ، فكانوا يحتكمون الى الامير يوسف احيانا ، والى الشيخ ضاهر احيانا اخرى . ان فتن الجبليين هذه والخلافات بين ضاهر وابنائه جعلت الباب العالى يأمل فى اعطاء القضية السورية منحى آخر .

فى عام ١٧٧٥ ** دخل محمد بيك المصرى سورية بجيش قوامه ٦٠ الف نفر ، معلنا باسم السلطان خيانة ضاهر واستعداده لاعدامه . كان الشيخ بعد موت علي بيك يخشى دوما وقوع هجوم من الحدود المصرية . وقد حصّن يافا قدر الامكان باعتبارها القلعة الامامية من تلك الجهة . بعد حصار يافا مدة شهرين استولى عليها المماليك ونهبوها . غادر الشيخ عكا الى صيدا على امل تلقي المساعدة من الدروز والمتاولة . ولكن امير لبنان كان يفكر فى نجاته فقط ورفض حتى مقابلة ضاهر . ان السكان فى الجليل وفى نابلس ، الذين اضنتهم فى السنوات الاخيرة ابتزازات ابراهيم الصباغ واستبداد اولاد ضاهر ، الذين كانوا قبل ذلك قد خاضوا لتوهم الحرب على ابيهم ونهبوا الفلاحين ، لم يظهروا اى ميل للذود عن شيخهم . اختبأ ضاهر ، الذى خذله الجميع ، فى جبال صفد مع كنوزه ، وعند اقتراب المصريين انتقل من هناك الى حلفائه البدو فى حوران .

خضع كل شيء لمحمد بيك بعد استيلائه على عكا . ومثل امامه شيوخ المتاولة بالهدايا والولاء . وارسل اليه الامير يوسف ايات الخضوع وطلب منه الامان . وفى غضون ذلك امعن الفاتح فى قوته . ودفع سكان يافا دماءهم ثمن مقاومتهم له . ولحسن الحظ لم يستمر لخياله طويلا . فقد انقذ مرض مفاجيء حل به المنطقة من الشرير المسعور *** . ويقال ان رؤيا مروعة اضنته قبل موته . ويعزو الشعب ، من مسيحيين ومسلمين ، عذابه الى الاشباح المنتقمة للرهبان الذين قتلهم ابان تدمير دير فى جبل الكرمل .

يبقى امرا مجهولا ما اذا كان البيك المصرى . قد قام بحملته هذه بمحض ارادته او كان مخولا من الباب العالى لمعاقبة ضاهر . ولكن من المعروف ان

---

* كان هذا ، حسب معطيات الشدياق ، فى عام ١٧٧٣ . **المحرر** .

** فى اذار (مارس) عام ١٧٧٥ . **المحرر** .

*** مات ابو الذهب فى حزيران (يونيو) عام ١٧٧٥ . **المحرر** .

البيك كان يحلم بان يخضع ايضا دمشق وحلب ثم يعرض الباب العالى الذى يحسن بنجاح دائم التخلص من عدو بواسطة اخر . ومهما كان الامر ، فان موظف الباب العالى ، الذى نوهنا به ، كان لا يزال عند ضاهر وتابع معه المحادثات فى فترة ظهور محمد بيك قرب عكا .

اخذ المماليك بعد موت سيدهم جثته واندفعوا الى مصر لا يلوون على شيء ، تاركين غنيمتهم الثمينة فى الطريق . استراحت القبائل السورية ، ورجع ضاهر الى عكا .

فى السنة التالية * ارسل الباب العالى القبودان باشا حسن ليدبر الامور مع ضاهر نهائيا . طلب القبودان باشا ضرائب متأخرة عن ست سنوات . اخذ ضاهر يتشاور مع ابنائه ومع الشيوخ : هل يدفع الاتاوة او يبدأ الحرب . قيل له فى المجلس : «ومن يضمن ان يتركونا بسلام حينما ندفع كل شيء ؟ من الواضح ان الباب العالى يريد قتلنا ، انه يعمل بلا شرف ولا ضمير . كان رسوله لا يزال معنا هنا يفسر لنا الفرمانات المكتوبة بالتركية ، حينما قدم المماليك بامر من الاتراك ، كما هو واضح . كلا ، فليحفظ الله ابناء شبه جزيرة العرب من كل هذه الوعود والملاطفات التركية ، ومن الفرمانات ، ومن الامان الذى يقدمونه . اذا لم نصمد هنا امام الاسطول ، فالافضل ان نعود الى جبال صفد ، وليتفضل الباشوات الى هناك» . قال الشيخ ضاهر بدوره : «مهما كنت مسنا ، فانا احب التفكير فى المستقبل ايضا . اليوم يومنا ، والغد لمن ، هذا ما لا يعلمه احد . الافضل ان ندفع ما يطلبونه منا ونصون رؤوسنا ، طالما يسمح لنا القدر بهذا» .

ايد المغربى دنغيزلى ، الذى يقود الحامية ، هذا الرأى . وقال : «لن نصمد طويلا ، ولا سبيل الى انهاض الشعب لان من ينتفض على الباديشاه سيعاقب فى الدنيا وفى الاخرة . سيف السلطان طويل وسيدركنا فى الجبال ايضا . اتعهد بان اسوي الامر مع القبودان باشا بمئة الف طالير» . ولكن ابراهيم الصباغ ، وزير المالية ، بخل بفتح صناديقه . قال : «لا نقود عندنا ، ابلغ الباشا بانه ليس عند الشيخ سوى النار والسيف البتار» . وعلى هذا تفرقوا . خان دنغيزلى الشيخ ، فقد امر مدفعييه من المغاربة بربط المدافع فى ابراج الساحل وابلغ القابودان باشا بهذا . فتح الاسطول نيرانه على المدينة . واذ رأى ضاهر خيانة المغاربة ، استعد لمغادرة المدينة ، ولكنه تباطأ لانقاذ زوجته المحبوبة . وعندئذ اطلق عليه احد المغاربة من البطارية رصاصة اخترقت صدره ** .

هكذا انتهت حياة هذا الشيخ البالغ من العمر ٩٠ سنة ، الذى لم ينقصه

---

* فى عام ١٧٧٥ . — **المحرر** .

** فى آب (اغسطس) عام ١٧٧٥ . — **المحرر** .

سوى الزملاء المخلصين ليؤسس فى القرن الثامن عشر مملكة عربية جديدة فى الشرق . سُلم رأسه للباشا الذى ارسل هذه الغنيمة الدامية الى استنبول . يؤكدون انه عُثر فى صناديق الشيخ على مبلغ يصل الى ٤٠ مليون قرش (قرابة ٤٠ مليون روبل فضة حسب السعر حينذاك) بالاضافة الى شتى انواع المجوهرات . ان خنجرا كان قد تلقاه هدية من علي بيك ، قدر لوحده بمئتى الف قرش . فر خازن كل هذه الكنوز من عكا ، ولكنه سُلم الى الباشا الذى عذبه طويلا ليعرف ما اذا كانت توجد كنوز خفية اخرى ، واخيرا شنقه على عارضة صارية ليخفى عن الباب العالى الكمية الحقيقية للثروات المذكورة فى الخزينة . واستقبل الخائن د° نغيزلى ببشاشة ، ولكنه مالبث ان سمم ايضا بفنجان قهوة للاعتبارات نفسها .

لجأ ابناء ضاهر الى المتاولة . وقد اعلن حسن باشا العفو عنهم ودعاهم اليه مع وعد بان يضعهم مكان ابيهم . واتوا ، باستثناء علي المقدام الذى لم يكن يثق بالاتراك . ولكن حينما اخذ الباشا يلومهم غاضبا بوجه عابس لم يستطع اصغرهم سعيد الا ان يعرب عن شكواته غدر الباشوات . وقد اعدم على الفور وارسل الآخران الى القسطنطينية ، وفيما بعد عين احدهما باشا على جدة ، والاخر باشا على موره .

من بين كل اولاد ضاهر لم يبق فى سورية سوى علي ، واستمر عدة سنوات دون ان يفقد الامل فى ان يعيد الى بيته وقبيلته القهما السابق . ان مظهره ، كانسان محارب ، وخلقه النبيل الفروسى وشجاعته المجربة وما يتسم به من بلاغة فائقة تقدرها كل القبائل العربية عاليا ، اكسبته الكثير من الحلفاء فى فلسطين وبلاد شرق الاردن . وفى غضون ذلك جعل جور الجزار ، الذى سنتحدث عنه لاحقا ، القرويين يحنون الى الشيخ المسن ويبدون العطف لعلي ، الذى تابع الحرب بنشاط ، رغم انه فقد ابنيه فيها . اقترح علي على امير لبنان استئناف المعاهدات القديمة والتحالف وطرد الجزار . ولكن الامير يوسف كان فى ذلك الوقت مشغولا بحرب داخلية ضد اخوته . والامر نفسه كان يجرى بين شهابيى جبال لبنان الشرقية . ان الشيخ علي ، وقد بقى وحيدا بلا حلفاء ، حرض جبليى نابلس على التمرد . واتفق باشا عكا مع باشا دمشق على قتله عن طريق الخيانة . اثار احد ضباط الباشا خلافا مع رفاقه واحدث ضجيجا واطلق العيارات اليوم بطوله ، واضطر الى ان يهرب لينجو من سيده ، وبحث عن ملجأ فى الجبال مع حاشيته عند ابن ضاهر . وكان هذا مسرحية ، اذ ان الشيخ لم يغامره اى شك ، فاستقبل الضيوف الذين تحينوا الفرصة وانقضوا على الشيخ الحسن الطوية باشارة متفق عليها وقتلوه وتمكنوا من الفرار .

بموت علي غادرت المسرح السياسى فى سورية عائلة ابى زيدان التى كانت بعد المعنيين ممثلة ونصيرة للعنصر العربى . ومنذ ذلك الحين لجأ

العرب الى شرق الاردن ، الى البادية ، بين البدو الذين يتنكرون للحكم التركى ، محتفظين الى ايامنا بحكايات عن الحرية التى ورثتها قبيلة اسماعيل ، ابن الجارية . ومنذ ذلك الوقت ازداد توطد الحكم التركى فى سورية ، رغم الوهن العام الذى اصاب الامبراطورية العثمانية . ان الصراع اليومى وسفك الدماء ، الذين لا تزال تحفل بهما المدونات السورية يمكن اعتبارهما قضية خاصة بين الباشوات والقبائل ونتيجة طبيعية للكيانات الاقطاعية للقبائل الجبلية اكثر مما هما انتفاضات للعنصر العربى ضد العسف العثمانى . والدراسة المتمعنة للاحداث التى جرت فى سورية منذ ذلك الحين والى ايامنا تشكل ردا على كل النظريات الباطلة فى صدد الانبعاث الوهمى والباطل للقبيلة العربية على يد محمد علي المصرى او عشيرته وعن احتمال تشكيل دولة عربية من سورية ومصر .

ان جمهور الشعب فى هاتين المنطقتين يحتفظ ، والحق يقال ، بتقاليده واخلاقه ولغته ، وبكل عاداته الشعبية تقريبا ، ومما يجعل هذا يزيد تضليل الرحالة كون الاتراك يعيشون فى الواقع ضيوفا هناك ، وهم انفسهم محرومون من الصلات بالسكان المحليين . ولكن ينبغى ان نلاحظ بدرجة لا تقل عن ذلك ان الحياة السياسية غريبة عن جمهور الشعب فى القبائل العربية ، شأن كل قبائل آسيا ، وقوتها متركزة فى الاعيان على وجه الحصر . وفى هذا الخصوص نجد انه لم يبق فى مصر منذ أمد بعيد مجرد ظل للاعيان العرب ، لانه يستحيل اطلاق اسم الاعيان على الشيوخ العاكفين على تفسير القرآن فى مساجد القاهرة . لقد تمكن محمد علي من الاستعاضة عن المماليك الغرباء الذين لا عقب لهم ولا نسل بعشيرته واجبته ، اما العرب فقد اغلق فى وجوههم كل من المجالين المدنى والعسكرى غلقا محكما . وحافظت سورية على شيوخها وامرائها ، ولكن تجردهم من الخلق وعجزهم ومصائبهم جعلت هؤلاء الاعيان الاقطاعيين مجرد قرحة بالنسبة للشعب واداة فى ايدى اعتى الباشوات .

ان الجهود العبقرية لفخر الدين ومخططات ضاهر الجريئة – هذين الشهابين فى حياة سورية – لم تؤد الا الى رد فعل سياسى معين . بعد كل من هذين الممثلين للعنصر العربى اشتد النفوذ التركى اكثر واكثر ، ويمكن القول انه مع كل فظائع الباشوات وجنونهم كان الباب العالى يوطد نفوذه معنويا وماديا ، وهكذا ، ففى زمننا ، بعد الحكم المصرى الذى ربى القبائل السورية واعدها للاشكال الجديدة للحكم التركى ، استطاع الباب العالى ان يطبق نظام المركزية فى سورية بسهولة اكثر مما فى المناطق الاخرى ، التى يغلب فيها العنصر العثمانى .

الفصل الثالث

الجزار باشا ومكائده وقواته . — الفتن بين الاميريوسف واخويه . — قتل الاخوين . — حملة الجزار على المتاولة . — مصير هذه القبيلة . — مغامرات غرامية في حريم الجزار وتمردات المماليك . — تنازل امير لبنان . — انتخاب الاميربشير . — اتاوة لبنان . — انتفاضة الجبليين . — اعدام الامير يوسف . — فرار بشير . — انتقام الجزار . — آل ابى نكد . — ترسخ سلطة الامير . — حملة الفرنسيين . — بيان السلطان . — شعور الشعب . — استيلاء الفرنسيين على يافا . — حصار عكا . — المتاولة فى معسكر بونابرت . — اصطفاف العقول فى لبنان . — اضطرار الجبليين للبقاء مكتوفى الايدى . — معركة طابور . — الانطباع الذى احيته حملة الفرنسيين . — مخططات لم تتحقق عزيت الى بونابرت . — التباين بين مصر وسورية .

نعود الى حديثنا الذى سيكون الجزار المعروف للقارئ بطله امدا طويلا . بعد استيلاء الروس على بيروت استسلم الجزار لضاهر وبقى فى عكا بمثابة ضيف . وما لبث ، وقد اضناه الظمأ الى السلطة والمغامرات ، ان فر الى القسطنطينية . وهناك توصل بطرق مجهولة الى نيل لقب باشا فى قره هيسار . ومن هناك ، ما لبث الباب العالى بعد نجاح حملة القبودان باشا ضد ضاهر ان عين الجزار فى منصب باشا على صيدا * وعهد اليه بادارة لبنان والمتاولة وكل البلاد التى كانت تحت سلطة الشيخ .

* فى عام ١٧٧٦ . — **المحرر .**

اثار ظهور الجزار ذعر امير لبنان . كان الجزار ، والحق يقال ، مدينا له بحياته وكان مطوقا بفضله ، ولكن واجب الامتنان لا يشكل عند الاتراك الا ذريعة لتشديد محصلة الانتقام السرى . مثل الامير يوسف امام القبودان باشا ، حاملا الهدايا ، وتباهى بمقارعته الطويلة للمتمرد ضاهر الذى نال عقابه ، وصمت عن تحالفه معه ، وتمكن من ان ينال حظوة عند الباشا وحتى ان يتلقى وعدا بحمايته من ملاحقات الجزار المحتملة . وبدعوة من الامير زاره القبودان باشا فى الجبال ، فى دير القمر . ان امراء لبنان يحبون حظ التباهى امام ضيوفهم القادمين من العاصمة بالممرات الجبلية التى يجتازها الرحالة بخوف للوصول الى مستوطناتهم ، وكأنه يسير الى اعشاش النسور . من شأن هذه الدروب ان تكون عند اى شعب آخر حصنا منيعا ضد العدو الخارجى . ولكن الاتراك ادركوا منذ امد طويل ان صخور لبنان وشعابه هى فى متناول جيشهم على الدوام نتيجة لخلافات الامراء العائلية . وقد تكون عند البحار حسن باشا ، بالمناسبة ، رأى جيد جدا عن جبروت الامير ، واغدق عليه الكثير من التبجيل ، ومكافأة له على جهوده ازاء الباب العالمى انعم عليه باعفائه من الاتاوات لعدة سنين .

بعد اقلاع الاسطول ، ارسل الجزار باشا ، الذى لم تذهب سدى زيارته للامير ومعرفته جيدا بكل المكائد اللبنانية ، يطلب الاتاوات بالاضافة الى هدية قيمة له . وفى الوقت نفسه طرد الشهابيين من بيروت وصادر بيوتهم وكل ممتلكاتهم فى هذه العاصمة القديمة لآل فخر الدين * التى اصبحت منذ ذلك الحين ولا تزال الى الآن تحت حكم الباشوات مباشرة . لم تنقذ الجبليين من الضرائب المفرطة التسهيلات التى منحها القبودان باشا ولا ايعازاته المتكررة الى الجزار فى مصلحة الامير . وكان الامير المضطر الى ان يدفع الى الجزار ليحوز عطفه يجبى بالعنف مبالغ طائلة من الشعب . تذمر الشعب من اميره ، اما المنافسون فاستعدوا لانتهاز اول فرصة للاطاحة به . وهكذا حقق الجزار هدفا مزدوجا : نهب الجبليين وبث بينهم الفرقة والمشاحنات التى كانت اضمن كفالة سواء لتقوية سلطة الباشا فى لبنان او لمضاعفة الضرائب .

ولما لم يكن الجزار يركن الى العرب ، فقد ملأ باشالكه بقوات من الافاقين والقتلة الذين استطاع جمعهم من كل ارجاء تركيا . ان البوسنيين والالبانيين والمغاربة وزمر الدالاتية ** الحرة المميزة قد تدفقوا تحت رايته من كل مكان وعاثوا فى الارض فسادا . هذه الزمر ، التى لا تزال تشبه كثيرا

---

* فى عام ١٧٧٦ . — **المحرر** .

** فصائل الدالاتية هى فيالق خاصة من الفرسان كانت تخدم فى حامية الاقليم . وكانت هذه الفصائل تشكل من السكان المحليين باغلبها وتخضع لحكام الاقليم ولا تتلقى اجرة الا زمن الحرب . — **المحرر** .

في الشرق القوات المبرقشة لمعسكر فالنشتاين ، انضمت اليها فيما بعد فلول اللاوندية * ، ميليشيا الاسطول الجامحة التي كان قيام السلطان عبد الحميد بالقضاء عليها في القرن الثامن عشر مقدمة للتحولات العظيمة التي ينجزها ابنه محمود في ايامنا .

فضل الجزار عكا على مدينة صيدا ، التي كانت عاصمة الباشالك منذ القدم ، لان موقع عكا على الرأس بين البحر والحقول المنبسطة الشاسعة كان يوفر افضليات كبيرة للتحصينات . وهكذا ، فان القلعة التي اقامها آخر مدافع عن العنصر العربي في سورية تحولت الى وكر قبض منه اعتى الباشوات الاتراك على هذه البلاد بمخالبه ومزق فريسته بلا رحمة مدة تنوف على الثلاثين سنة .

ارسل الجزار في السنة الثانية من حكمه ٤٠٠ شخص من شقيانه الى دير القمر بحجة جبى ١٠٠ الف قرش غرامة من الامير لان الجبليين اشتبكوا مع جيشه قرب صيدا . ومن هناك نهبوا ودنسوا بلا عقاب على امتداد عدة اشهر على التوالي كل الشوف والمتن وكسروان ، امنع مناطق لبنان . واذ رأى أتامان هذه الميليشيا ، الكردي مصطفى آغا مدى سهولة قهر العرب واقتدى بمثال سيده الباشا ، نوى ان يطيح بالجزار نفسه ويجلس مكانه . في مثل هذه الايدي كان في ذلك الحين مصير القبائل الخاضعة للباب العالي . كان في وسع مصطفى هذا ان يصبح بسهولة حاكما على سورية ، ولم يكن الباب العالي ليتوانى عن الاعتراف به واليا له شريطة ان يدفع المبلغ المفروض على الباشالك . ولكن الجزار الذي علم بالخيانة في الوقت المناسب ، استطاع ان يستميل اليه جيش الكردي مصطفى الذي هرب الى اكراده .

كان في وسع الامير ، ولا شك ان يحرر المنطقة قبل ذلك من هذا الضيف ، ولكن في هذا الوقت حرّض شقيقاه الامير سعد الدين والامير افندى الشيوخ المستائين واستعدا للاطاحة به هو نفسه ، ولكي يقضي الامير الداهية على اخويه قضاء مبرما ويجعلهما مكروهين من الشعب ، تخلى طوعا عن السلطة لصالح الدعيين . كان عليهما ان ينالا ايضا موافقة الجزار ، وكان لا بد لهذا من زيادة الاتاوات . ذهب يوسف الى الموارنة في كسروان . وما ان استلم اخواه الحكم حتى نشب تمرد بمساعي يوسف الذي نال الامارة مرة ثانية على هذا النحو ، ولم يكن ذلك ، بالمناسبة ، بدون زيادة الاتاوة للجزار في ظل هذه التغيرات .

لاشباع الباشا اخذ العقل المبتكر لسعد الخوري ، وزير يوسف ، يفكر

---

* اللاوندية — مشاة وحدات تحرس السفن وتخضع للقبودان باشا — آمر الاسطول التركي . — **المحرر** .

فى استحداث نظام مالى جديد للبنان . هناك ، كما فى كل البلدان الاسيوية الاخرى ، لم يكونوا يعرفون قديما الا الضريبة المباشرة التى تدفع عن مزارع التوت والزيتون ، المنتوجين الوحيدين فى لبنان ، وحتى ضريبة النفس والخراج لم تكن يجبى من اللبنانيين المسيحيين ، لانهم لم يغزوا بسيوف السلاطين ، بل خضعوا مع الاحتفاظ بحقوقهم . فرض الامير اول الامر دية على شرانق دود القز ، ثم ضريبة على النفس ، ثم ضريبة على الماشية وعلى المطاحن الخ .

لم تمض ثلاث سنوات حتى اوحى تذمر الشعب من هذه البدع لشقيقى الامير بفكرة الاطاحة به . انكشفت المؤامرة ، وتمكن الامير من القبض على واحد من اخويه ، فقطع رأسه بيده وفى قصره بحضور الشيوخ والشعب ، لكى لا يدنس دم الشهابيين النبيل بيد الجلاد . قبل ذلك بامبى قصير جرى شيء من هذا القبيل فى جبال لبنان الشرقية لدى جيل الشهابيين هناك ، فقد قطع الامير الحاكم محمد رأس احد اخويه وسمل عينى الآخر ليتخلص من منافسيه .

استمرت الفتن فى جبل لبنان . ولم يتمكن الامير الا بشق النفس ان يشترى حماية الباشا بمبالغ طائلة ويبقى بالدسائس على الصراع بين حزبى اليزبكيين والجنبلاطيين لاضعاف هؤلاء واولئك . ورمى الجزار من جانبه بنجاح بذرة جديدة للخلاف بين امراء لبنان وامراء جبال لبنان الشرقية على امتلاك ناحية مرجعيون . فقد اقتطع الجزار هذه الناحية لامير جبال لبنان الشرقية وبعد ذلك بامد قصير عهد الى الامير يوسف بطرد اقربائه من هناك وجعل اقطاعتهم ملكا له . استغل هذه الفتن اخو الامير ليعقد حلفا مع عمه فى حاصبيا وينال حماية الجزار ، وولى يوسف الادبار . حل مكانه اخوه بالتعاون مع عمه ، ولكن حينما رأى الجزار انهما غير قادرين على دفع الاتاوة التى وعدا بها ، اخذ يلاطف الامير الفار من جديد (رغم ان اخاه وعد بدفع ٥٠٠ الف قرش لقاء رأسه) وارسله مع جيشه الى الجبال .

تعهد يوسف بدفع مليون قرش الى الجزار . واخذ يبتز كل انصار اخيه ، الذى فقأ عينيه تحسبا لكل طارىء ، اما عمه اسماعيل فزج به فى السجن وما لبث ان قتله بالسم تجنبا للفتنة . وكُلف مغاربة الجزار بتمزيق الشيوخ الذين ساهموا فى الدسائس على يوسف . تشير المدونات العربية المعاصرة الى ان هؤلاء الافارقة كانوا يجوّعون اولئك التعساء ، ثم يقطعون اجزاء من اجسامهم ويشوونها ويقدمونها اليهم ليأكلوها .

صانت قبائل المتاولة الجبلية بين صيدا وعكا نفسها من الجزار حتى ذلك الحين ، وقد حكمها بهدوء تام شيوخها الذين كانوا يدفعون الاتاوة عنها الى الجزار . وكان الجزار يرغب منذ زمن بعيد فى الانتقام منها بسبب تحالفها مع ضاهر . فى عام ١٧٨٥ ، وبعد ان زاد الجزار جيشه الى ١٥ الفا من الافاقين الجدد الذين كانت شهرته تجذبهم الى سورية من كل مكان ، شن

حملة على بلاد المتاولة . دافعت هذه القبائل عن نفسها بشجاعة تحت قيادة شيخها ناصيف نصّار ، زميل ضاهر . وقد سقط هذا المحارب المسنّ في المعركة ، اما زمر الجزار فاخترقت الجبال واستولت على الحصون وبقيت قرابة السنتين تعذب السكان التعساء . ان شيوخ المتاولة الذين استضافوا في اوقات مختلفة الشهابيين المنقوم عليهم ذهبوا يبحثون عن الحماية لدى الامير يوسف . وكان يوسف حينذاك في قطيعة مع الجزار ، وفيما بعد ، حينما عقد صلحا مع الباشا ، سلّموا اليه غدرا بطلب منه . هذا الانتهاك لحقوق الضيافة المقدسة احدث في عقول الناس انطباعا اشد سوءا من ذاك الذي احدثه قتل اخويه اللذين ضرج يديه بدمائهما .

كانت قبيلة اخرى للمتاولة تشغل وادي بعلبك . وكان يحكمها امراء حرفوش . وعلى غرار الشهابيين ، لم يكن آل حرفوش يتوقفون عن ملاحقة الاخ لاخيه والاحتكام الى باشوات دمشق احيانا ، والى الشهابيين احيانا داعين الى بلادهم هؤلاء مرة واولئك مرة اخرى . واخيرا ، في عام ١٧٨٦ ، طرد درويش باشا الدمشقي الامراء من هناك وعين واليا من قبله . لقد سبق وذكرنا ان الامير يوسف ، حينما كان حاكما على جبيل ، اضعف متاولة حمادة الذين كانوا يحكمون تلك المنطقة . على هذا النحو تدهورت كل قبيلة المتاولة في سورية منذ ذلك الوقت ، ورغم ان اخلاف امراء حرفوش ما زالوا الى الآن يبرزون من حين الى آخر حكاما لبعلبك ، فان هذا يجري باسم الباشوات فقط ، اما الحقوق الاقطاعية وما يرافقها من نفوذ فانهم فقدوها منذ امد بعيد . هكذا تغادر القبائل والاسر مسرح سورية السياسي واحدة اثر اخرى ، تاركة مكانها للتأثير المباشر للسلطة الحكومية التي ترث اكثر التقاليد تجردا من الاخلاق .

كعربون على المليون قرش التي ينبغي ان يدفعها الامير يوسف الى الجزار ، ترك في عكا مربيه سعدا الخوري الذي كان حتى ذلك الحين روح سياسته باسرها . وبوفاة هذه الرهينة بقي الامير مدينا للجزار بمبلغ ٣٠٠ الف قرش . اخذ ابن سعد الخوري ، الذي ورث نفوذ ابيه لدى الامير ، يبرهن ان من الاجدى بكثير خوض حرب ضد الجزار مدة ثلاث سنوات بهذه الثلاثمئة الف قرش .

وفي الواقع كان الجزار حينذاك في ظروف عسيرة . ان اهتماماته السياسية حرفت انتباهه كثيرا عن الشؤون البيتية ، واستغل المماليك هذا الامر ليقوموا بمغامرات غرامية وسط حريمه . علم الجزار بذلك ، فاندفع الى حريمه بحنق واعمل السيف في الخصيان والجواري وحتى في زوجاته الحبالى ، ثم استعد للانتقام من المماليك ، ولكن المماليك هربوا . وكان السلطان قد انعم بلقب باشا على مملوكين للجزار ، وهما سليمان وسليم ، بالتماس من الجزار نفسه ، وكانا يعملان واليين له في النواحي . وقد لجأ

اليهما المماليك واعلنوهما قائدين لهم وتمردوا وحاصروا الباشا فى عكا . ولم يبق معه سوى ٥٠٠ او ٦٠٠ شخص من الحامية . لجأ الباشا الى الحيلة : أُلبس العاملون والسكان زى الجنود فى ليلة واحدة ، ثم وزعوا على مسافات فى الابراج مع العديد من التماثيل الخشبية . فى الصباح استولى الرعب على المحاصِرين اعتقدوا ان الباشا دعا بالسحر فصائل من الشياطين ، فولوا الادبار .

فى ذلك الحين تمرد الامير ، وحينما هدأ كل شىء فقد الامير اى امل فى رحمة الباشا ، ولا سيما ان شوكة حزب الجنبلاطيين المعادى له اخذت تقوى فى جبل لبنان ، وهو نفسه كان محاطا بالخيانة . قرر الامير التخلى عن الحكم ودعا الشيوخ الى انتخاب خلف له . وقع الاختيار على الامير الشاب بشير ابن اخى يوسف الذى كان يتسم بالمراس والشجاعة والمواهب المبكرة . اقر الجزار الاختيار بان خلع على بشير الشاب الحلة التقليدية ، ودعاه لزيارته واعطاه فصيلة من الالبانيين والمغاربة وامره بان يطرد يوسف من الجبال تماما او يقبض عليه ويسلمه الى عكا * .

كان بشير قد وعد ابان انتخابه عمه المنقوم عليه بكل حماية ممكنة ، ولكنه ما لبث ان اقتنع بان سلطته الشخصية لن تتوطد طالما بقى الامير يوسف فى الجبال . وفى الواقع ، ليست هى المرة الاولى التى يتنازل فيها عن الحكم ، وهو يستطيع فى ظل الاضطرابات المتواصلة فى لبنان ان يتحين الوقت ليتصرف مع ابن اخيه كما تصرف مع شقيقيه سابقا . ونشبت فورا حرب شرسه بين العم وابن اخيه . فر يوسف المهزوم الى حوران . واذ كان يتحرق شوقا الى الانتقام ويعرف طبع الجزار ، مثل رغم النقمة عليه امام الباشا فى عكا وقد لف رقبته بعقدة اشعارا بانه مستعد لان يُشنق . وبدون اية مقدمات عرض على الجزار ٦٠٠ الف قرش اتاوة سنوية عن لبنان اذا عُين حاكما من جديد . قبل ذلك بعشرين سنة لم تكن الاتاوة المفروضة على امارة لبنان تتجاوز مبلغ ١٥٠ الف قرش . لقد رأينا كيف ان الشهابيين كانوا ، وهم يتعقبون بعضهم البعض ، يزيدون الاتاوة بدفعات مفرطة للغاية . وبدا اقتراح يوسف للجزار مغريا . هذا مع العلم انه كان من الاجدى له ان يكون تحت يده مرشّح جاهز عربونا على طاعة الحاكم الجديد .

علم الامير بشير بالمساومات التى كانت تجرى فى عكا ، فهرع بنفسه الى هناك للمزايدة وعرض على الباشا للسنة الاولى ضعف ما عرضه يوسف ، ولكن شريطة ان يُشنق هذه المرة كل من العم ومستشاره غندور . وافق الجزار . وشُنق الامير يوسف وغندور ** .

---

* فى عام ١٧٨٨ . — **المحرر** .

** فى عام ١٧٩٠ . — **المحرر** .

هكذا انتهت سيرة يوسف ، قاتل اخويه الذى ادخل الباشوات اكثر من كل سابقيه فى شؤون لبنان الداخلية وساعد اكثر من الجميع على افساد شعبه سياسيا . ان الفتن لم تتوقف ابدا تحت حكمه ، وكان يعتبر اضمن نابض لحكمه الخلافات التى بثها بدهاء هو ووزيراه سعد وغندور والتى لا تزال قائمة بين شيوخ لبنان الى الآن . مر بشير تحت جثة عمه المشنوق ليحافظ على غراره وبوسائله وشروره ذاتها على سلطته الى ايامنا وليخلف للبنان بعد طرده فترة طويلة من الصراع واراقة الدماء .

اثارت قسوة الامير الشاب تمردا عاما فى جبل لبنان منذ السنة الثانية من حكمه (فى عام ١٧٩٠) . لم يبق احد معه باستثناء حرس الجزار الشخصيين الذين قرنهم بالامير لمساعدته على جبى المبلغ الذى وعد به . وحينما استعد الجزار للذهاب الى مكة ، مع القافلة ، وكان فى ذلك الحين قد ولى على باشالك دمشق ومنح لقب امير الحج ، استدعى حراسه الشخصيين ، فهرب الامير من الجبال الى الاتراك فى صيدا . انتخب الشيوخ مكانه اميرين من اقربائه ، وهما حيدر وقعدان .

بعد عودة الباشا من مكة ساعد الامير بشيرا بقواته . استمرت الحرب قرابة السنتين ، ولكن الجبليين وقفوا صفا واحدا ، وبقى لبنان منيعا فى وجه الامير وقوات الجزار . بيد ان الجزار انتقم فيما بعد من الجبليين بلا رحمة . فى عام ١٧٩٣ وقع قحط فى سورية باسرها ، فهرعت السفن تحمل الحبوب الى بيروت ، ولكن الباشا منع تصدير الحبوب الى الجبال ، فحصدت المجاعة قرى كاملة هناك . حينذاك صفى الجزار مع الجبليين حساب الاتاوات المتأخرة ، واراد لاستعادة سلطته ان يعين محبوبه حاكما من جديد ، بيد انه نزل عند رغبة الجبليين الذين ارعبتهم قسوة قلب الامير بشير فى فترة حكمه القصيرة . ولتهدئة الشعب البائس الذى عانى المجاعة وباع كل خيراته لدفع الاتاوات والغرامات ، امر بشيرا بمغادرة الجبال . ذهب الامير الى قبائل النصيرية شمالى لبنان . ولكن من هناك ايضا تمكن بشير من ان يجذب الى جانبه شيوخ الجنبلاطيين ويشعل حربا داخلية جديدة فى لبنان ، الى ان مل الجزار اخيرا من كون الدخول التى يقدمها لبنان لا ترد الى خزينته كما ينبغى ، فعين بشيرا عاهلا من جديد (فى عام ١٧٩٥) وترك له امر التخلص من منافسيه بنفسه .

تغلب الامير فى هذا الصراع بمساعدة الجزار ، فى حين كان باشا دمشق وباشا طرابلس يحميان الحزب المضاد . بالاعدامات واعمال القتل رسخ الامير حكمه في الجبال اخيرا ، وبالمصادرات والغرامات اضعف الشيوخ واشبع الجزار النهم . فى تلك الحقبة حلت النقمة على عائلة ابى نكد الدرزية . وقد قتل كل افرادها باستثناء طفلين صغيرين خبأتهما امهما فى دمشق وهذه العائلة اشتهرت بموبقاتها منذ القدم ، وحينما نرى فيما بعد مسلسلا جديدا من

الاهوال ، التى ترمز فى زمننا الى عودة شيخى ابى نكد اللذين افلتا فى سنوات طفولتهما من سكين الامير ، نبدأ رغما عنا نؤمن ، على غرار سكان هذه الجبال ، بان الميول الفطرية الى الخير او الشر تنتقل مع الدم من جيل الى جيل .

صرفت اهتمامات من نوع آخر انتباه الجزار عن الشؤون اللبنانية . بعد استيلاء بونابرت السريع على مصر ، قام بحملته العجيبة على سورية (فى عام ١٧٩٩) * . وقد دعا خطّى شريف السلطانى كل المؤمنين الى حماية مهد الاسلام القديم من غزوة الكفار . واعلن هذا البيان للشعب ان الفرنسيين ، الذين تبرأوا من كل عقيدة وانتهكوا كل ما هو مقدس فى الدين وفى مراسيم الدولة فى وطنهم ، انطلقوا لمحاربة الاسلام ليبيدوا كل المؤمنين باستثناء النساء والاطفال ، وليدنسوا النساء والاطفال بالكفر . واعلن كذلك تحالف الباب العالى وانكترا ضد العدو المشترك .

كان يمكن توقع ان تهتز قبائل سورية المحاربة لدعوتها المهيبة الى الشعور الشعبى والدينى وتتطوع حشودا ، كما حدث فى ازمنة الحملات الصليبية التى لا تزال ذكراها حية هنا . ولكن لنتذكر ان الشعب فى مصر اضناه نير المماليك المريع ، وان كل شبه جزيرة العرب وكل الصحراء الكبرى كان يغليان بحرب الوهابيين ، اما فى سورية فكان الباشوات الاتراك منذ قرابة القرن يعيثون الفساد وينهبون سكان السهول بالاكراه وينهكون الجبليين بالفتن . كل هذا جعل الشعب غير مبال بنداء الباديشاه . وفى غضون ذلك رد بونابرت على اللعنات التى صبها خليفة الشرق على امته بتسامح دينى ذكى فى مصر . ولكى يغسل عنه اية لطخة من الذكريات الصليبية ويقنع المسلمين بانه لا يضمن اية نيات معادية لدينهم ، تظاهر فى القاهرة باعتناق الاسلام ومارس شعائر الاسلام . خابت توقعات الباب العالى ولم تغد الحرب ضد الفرنسيين حربا شعبية ، فكان على الباب العالى وباشواته تحمل كل عبئها .

فكيف استعد ولاة السلطان هؤلاء للدفاع ؟ كان الجزار بمساعيه وذهبه فى العاصمة قد ولى باشالك دمشق مرتين ** ، وقبل غزوة الفرنسيين بامد قصير طردته انتفاضة شعبية من دمشق ، فلم يتوقف فى تلك اللحظة العصيبة عن مخاصمة وحتى محاربة باشا دمشق ، حيث كان يدعو القبائل الخاضعة له الى التمرد احيانا ، وينهب منطقتى دمشق وطرابلس احيانا

---

* بدأت حملة بونابرت على سورية فى شباط (فبراير) عام ١٧٩٩ (تم الاستيلاء على العريش فى ٢٠ شباط (فبراير) . — **المحرر** .

** فى المرة الاولى عين الجزار باشا على دمشق فى عام ١٧٨٠ ، وفى المرة الثانية فى عام ١٧٩٠ . — **المحرر** .

اخرى ، ويستولى احيانا ثالثة على جبال الواقعة تحت حكم باشا دمشق ولا يسمح له بجبى الاتاوة من هناك . وفى غضون ذلك كان يتباهى عند الباب العالى بانه الوحيد الذى فى وسعه ان يطرد الفرنسيين من مصر ، وطلب مسبقا مكافأته بباشالك دمشق . وعلى اى حال كانت استعداداته للحرب تتلخص فى انه حصن يافا وسلح سكانها بالاكراد وشكل هناك جيشا رديئا قوامه مع الحامية قرابة عشرة آلاف فرد وانجز التحصينات التى بدأها ضاهر فى عكا ورممها بشكل من الاشكال ودعا الى هذه المدينة بوسنييه والبانييه واكراده ومغاربته المتهورين الذين كانت زمرهم تجتاح الباشالك دوريا واجل موقتا مطاردة الامير بشير الذى اشترى مكانه ابناء الامير المشنوق يوسف .

ان يافا ، التى كانت تقف امامها الغزوات المألوفة القادمة من مصر عدة اسابيع او اشهر ، ثم الاستيلاء عليها بالانقضاض فى اليوم الثالث من ظهور الجيش الفرنسى عند اسوارها * اما قبائل جبال فلسطين ونابلس المحاربة ، التى كان فى وسعها ان تقاتل الفرنسيين فى الميدان او تقلق اجنحتهم على الاقل ، فبقيت تنظر غير مبالية الى غزوهم على امتداد الشاطىء حتى عكا . ولم يستول بونابرت على القدس لانه لم يبحث فى سورية الا عن المواقع العسكرية . وكانت القدس تشكل ضررا من هذه الناحية ، اذ يمكن فى حالة انتفاضة الجبليين قطع طريق العودة الى مصر بسهولة .

حوصرت عكا . وساعد الكومّودور الانكليزى سيدنى سميث ** الجزار من البحر وارسل مدفعييه الى القلعة لاعانة المدفعيين الرديئين لدى الجزار الذى كان يقذف الفرنسيين بعناد من منشآته المحاصرة خلف الاسوار ولا يريد سماع حتى مجرد ذكر للمفاوضات . وكانت القبائل المجاورة تنظر بفضول بارد الى الحرب او حتى انها كانت تتعاطف مع الفرنسيين ، ان لم يكن حبا بهم ، فنكاية بالجزار . وحتى ان متاولة صفد ، الذين عانوا فظائع الطاغية اكثر من الجميع ، اتوا الى معسكر الفرنسيين تحت قيادة الشيخ صالح ، احد احفاد ضاهر ، الذى كان مشهورا بموهبته الشعرية ، اكثر مما هو مشهور ببسالته الحربية . والشيوخ الآخرون ، الاكثر موهبة ، لم ينجوا من ملاحقات الجزار . ان القبائل السورية لا تستطيع بطبيعتها التحرك بدون الشيوخ ،

---

* فى اذار (مارس) عام ١٧٩٩ . — **المحرر** .

** وليم سيدنى سميث (١٧٦٤-١٨٤٠) — اميرال انكليزى . بدأ الخدمة فى الاسطول عام ١٧٧٧ ، وفى عام ١٧٩٠ ، حينما كان يخدم فى السويد ، ساهم فى الحرب الروسية-السويدية ، اشترك منذ عام ١٧٩٣ فى العمليات الحربية التى خاضها الاسطول الانكليزى ضد فرنسا ، ومنذ عام ١٧٩٨ خدم تحت امرة الاميرال نلسون وارسل فى عام ١٧٩٩ الى مدينة عكا لتنظيم الدفاع عنها . فى كانون الثانى (يناير) عام ١٨٠٠ ساهم فى عقد الهدنة فى العريش . — **المحرر** .

ولهذا فان قبائل المتاولة ، مع كل استعدادها للانضمام الى اى كان للتخلص من طاغيتها ، كانت اشبه بالمشلولة ولم تستطع تقديم عون يذكر للفرنسيين .

استدعى الجزار الجبليين اللبنانيين مع الامير بشير ، ولكن الامير تماهل فى الذهاب اليه ، واجاب ان عنده فى الجبال فوضى مطلقة ، — وكان هذا صحيحا جزئيا ، — وان دسائس ابنى الامير يوسف لا تترك له سبيلا للهدوء ، وان الشعب لا يدفع الاتاوة ولا يريد ان يسمع اى حديث عن الحملة . ووجه بونابرت من جانبه نداءات بليغة الى الجبليين والى الامير بشير يدعوهم الى الانضمام اليه مع وعد بتحرير سورية من طاغيتها . وحمل القائد الشاب سيباستيانى * بندقية اهداها الجنرال بونابرت للامير واجرى معه محادثات فاشلة . لم يقدم الامير على اتخاذ اى اجراء وكان ينتظر نتيجة حصار عكا ليعرض فيما بعد خدماته على المنتصر . وقد لام بونابرت فى احدى رسائله الامير على ابطائه فى الجواب . هذه الرسالة وقعت فى يد الجزار وجعلته يمدح الامير على اخلاصه ، ولكن الجبليين لم يجرؤوا على تقديم المساعدة للمحاصرين . وفى غضون ذلك ، كان المماليك الفارون من مصر قد انطلقوا فى وادى البقاع مع حشد جمعه باشا دمشق على عجل لمهاجمة المحاصرين . وهو نفسه ذلك الفيلق ، ان صح تسمية جمع كهذا فيلقا ، الذى حطمه الفرنسيون فى وادى ازدريلون الواقع بالقرب من جبل طابور الذى سميت هذه المعركة باسمه فى التقرير الشاعرى لبونابرت ** .

كان امير لبنان يزود الاتراك بالمؤونة ، وفى الوقت نفسه يرسل النبيذ اللبنانى الى الفرنسيين فى المعسكر . وبالمناسبة ، لا يجوز اتهام الامير بشير بالرياء والتردد . صحيح ان نفوذه تدعم منذ ان اباد افراد عائلة ابى نكد وعقد تحالفا وثيقا مع الجنبلاطيين فى شخص الشيخ المرهوب بشير ، رئيس عائلة الجنبلاطيين . ولكن روح الاحزاب ، روح الشقاق والعداوة العائلية

---

* اصبح مارشالا فيما بعد .

فرنسوا باستيين دى سيباستيانى (١٧٧٢–١٨٥١) — دبلوماسى وشخصية عسكرية ورجل دولة فرنسى . اضطلع بدور ملحوظ فى تنفيذ سياسة نابليون الشرقية : ذهب بمهمة خاصة الى استنبول فى عام ١٨٠١ ، والى سورية ومصر فى عام ١٨٠٢ ، وكان سفيرا فى تركيا اعوام ١٨٠٦–١٨٠٨ ، وساعد على جر تركيا الى خوض الحرب ضد روسيا فى اعوام (١٨٠٦–١٨١٢) ، اصبح فى عهد لويس فيليب وزيرا للخارجية . — **المحرر** .

** وقعت المعركة فى ١٦ نيسان (ابريل) عام ١٧٩٩ . وقد تحدث بونابرت عن هذه المعركة فى تقاريره الى القيادة («Correspondance de Napoléon I-er, publiée par ordre de l'Empereur Napoléon III», t. V, Paris, 1860, pp. 542-543).

والخيانة والانانية قد تمكنت فى خلال قرن واحد من حكم الشهابيين من ضرب جذور عميقة فى صميم القبائل اللبنانية بحيث انها فقدت اى تأثير سياسى فى مصير سورية . وانهكت حياتها فى المكائد والفتن . ان سياسة الباشوات ، الذين ساعدوا على هذا الاتجاه للقبائل اللبنانية ، قد بررتها التجربة حيث حكمت على القبائل الجبلية ان تبقى مكتوفة الايدى حينما كان مصير سورية يتوقف عليها . وفى الواقع ، لو ان القبائل اللبنانية استطاعت ، على غرار المتاولة ، ان تعمل بروح واحدة لصالح الفرنسيين فى فترة حصار عكا لاستولى بونابرت فى غضون عدة اسابيع على كل المنطقة حتى حلب ولما انطوى الدفاع العنيد عن عكا على نتيجة حاسمة .

لم يكن للشعور الدينى اى شأن على الاطلاق فى احداث سورية حينذاك . كان الموارنة ، الكاثوليك الغيورون ، يتعاطفون مع فرنسا منذ القدم ، ولكن فى ذلك العهد كان رجال الدين الموارنة ورجال الدين القادمون من روما الى جبل لبنان قد تمكنوا فى الوقت المناسب من تصوير جيش بونابرت بابشع الالوان ، وكانوا يعلمون الاولاد القراءة والكتابة العربيتين عن طريق النصوص المترجمة للتفسيرات التى وضعها مبشرو روما للثورة الفرنسية . وعلى الرغم من ان الموارنة كانوا يشكلون اغلبية لا نظير لها بين السكان الجبليين ، لم تكن لهم بعد اية اهمية سياسية فى ظل الكيان الاقطاعى للبنان ، بل كانوا تحت حكم الشيوخ والامراء الدروز والمسلمين . كان الدروز يكرهون الفرنسيين وكانوا مستعدين فى حالة استيلائهم على عكا لان ينسحبوا الى ابناء ملتهم فى منطقة حوران الجبلية وحرّة اللجاة * .

ورغم ان الامير بشير كان لا يزال يؤمن بالاسلام فى ذلك الوقت ، فقد كان مستعدا لعقد حلف حتى مع عبدة النار ومع اليزيديين ، عبدة الشيطان ، لمجرد التخلص من الجزار ، ولكنه كان يدرك جيدا انه ما ان يعلن وقوفه الى جانب الفرنسيين حتى يثير ابناء يوسف الشعب ضده على الفور وحتى تنشب فى لبنان حرب داخلية جديدة تكون الاطاحة بالامير واعدامه اولى نتائجها فى ظل نفوذ باشا دمشق وباشا طرابلس الجارين .

بعد حصار عكا سبعين يوما بلا جدوى * * تراجع بونابرت الى مصر يرافقه الطاعون ، ولم يخلف لسورية سوى ذكريات شاعرية عن ظهوره العجيب ، عن تلك الصفوف المنتظمة من الجنود التى كانت تنطلق بوقار الى المعركة على قرع الطبول ، وكأنها جدران متحركة تحميها الحراب ، عن تلك التطورات

---

* سوف يجرى الحديث عن اللجاة بمزيد من التفصيل فى الفصل الثامن من هذا الكتاب .

* * استمر الحصار من ١٨ اذار (مارس) الى ٢٠ ايار (مارس) عام ١٧٩٩ . — **المحرر** .

الرائعة للتكتيك العسكرى الذى لم يعهد له نظير فى آسيا او المنسى منذ ازمنة الكتيبة المقدونية والكتائب الرومانية ، عن تلك الحصون الحية المسماة بالكاريه التى تنتظر بلا حراك الهجمات المسعورة للفرسان الاسيويين فى حقل اجرد قرب عكا وفى الجليل ، عن انضباط الجنود الذى لا يدركه الاسيوى المعتاد على رؤية حشد من النهابين الحقيقيين فى قواته ، واكثر من كل شيء عن ان تموينات الاطعمة التى يأتى بها السكان الى المعسكر كانت تُشترى نقدا ، الامر الذى لم يُسمع بمثله فى آسيا .

وفى الواقع كانت الانطباعة التى احدثتها فى هذه الجهة من الشرق افضليات القوات الاوربية على القوات الاسيوية الثمرة الوحيدة للحملة على سورية . لقد افلحت روسيا فى ان تقنع جيرانها بهذه الحقيقة فى ما وراء القفقاس ونهر الدانوب . وعمل الانكليز فى هذا الخصوص على ضفاف هندوس ، امـــا الفرنسيون فاختاروا مصر وسورية مجالا لهم ، ولكن لامد قصير . واشتهرت عكا فى اوربا من حيث دفاعها عن نفسها بانها قلعة منيعة ، رغم انه لا يكاد يمكن تسميتها بالقلعة فى تلك الفترة . وحتى الآن ، بعد الاعمال الجبارة لعبد الله باشا وابراهيم لن تستطيع الصمود فى وجه حصار حقيقى . ولم يستطع بونابرت الاستيلاء عليها ، اولا ، لعدم امتلاكه مدفعية حصار ، ولان الاسطول الانكليزى ، وهذا هو الامر الرئيسى حماها من البحر .

اعتاد الاوربيون على التفكير فى ان فشل بونابرت امام عكا انقذ تركيـا وكل آسيا من الغزاة الغربيين . واخذوا يعزون الى بونابرت مشاريع عملاقة لتحويل الشرق ، ولحملة على الهند على اثر البطل المقدونى ، وللدعوة الى دين جديد بين البدو . نحن لا نصدق ان عقل نابليون الراجح يمكن ان تداعبه احلام كهذه * .

---

* افتراض بازيلى انه لم تكن عند نابليون خطط للاستيلاء على الهند لا يقوم على اساس . من المعروف ان بونابرت فى عام ١٧٩٧ ، اذ اقترح على حكومـــة المديرين احتلال مصر ، اعتبر ان من اهداف الحملة امكان استخدام مصر للقيـــام بعمليات ضد الهند لتوجيه ضربة ماحقة الى انكلترا على هذا النحو . كتب بونابرت فى رسالة الى القيادة : «للقضاء على انكلترا كما ينبغى ، يجب الاستيلاء على مصر» .

وفى السنوات اللاحقة عاد نابليون عدة مرات مجددا الى خطط الاستيلاء عـــلى الهند .

وفى عام ١٨٠٠ اقترح على بافل الاول مشروع حملة برية مشتركة على الهند . واوقف موت بافل الاول كل الاستعدادات . وفى عام ١٨٠٤ فكر بونابرت فى توجيه جيش قوامه ثلاثين الف مقاتل الى الهند عن طريق البحر . وارسل نابليون الى فارس بعثة على رأسها الياور العام غادران لجمع المعلومات عن الطرق المؤدية الى الهند وعن حالة الجيش الفارسى وعن امكان استخدامه فى الحملة المقبلة .

بعد لقاء تيلسيت وعقد الصلح مع روسيا اقترح نابليون على اليكساندر الاول فى

بالنسبة الى آسيا انقضت منذ عهد بعيد تلك الازمنة حينما كانت العبقرية الاوربية تقرر بجيش من ثلاثين الف مقاتل وبثلاث معارك مصير هذه القارة الشاسعة . ان الشعوب الاسيوية تضم فى ذاتها جنين وعبقرية مصيرها المقبل . وشعاع العلم ، الذى تدفق يوما من الشرق الى الغرب وينعكس الآن من الغرب الى الشرق ، قادر على توجيه التطور المدنى للشرق المتجدد ؛ ولكن محاولات الفتوحات التوسعية ، محاولات الانقلابات السياسية المفاجئة من المستبعد مع كل القها الظاهرى ان تساعد على نجاح العلم والروح المدنية ، ذلك النجاح البطىء ، والراسخ مع ذلك ، تحت راية مينرفا الحكيمة لا تحت راية مارس العنيف .

اما فى خصوص التحويل الدينى للعالم العربى وجعل المليون من البدو مليونا من الفاتحين بكلمة نبى جديد وعلى اثر محمد ، فان هذا حتى اذا كان ممكنا فى ظل الوضع الحالى لقبائل الرحل العربية واكراد تركيا وفارس ، فلن يتسنى لعبقرى اجنبى القيام بانقلاب كهذا . ولن يكتسب الدخيل الاجنبى العطف فى اية مضارب للبدو ، فاللغة والبلاغة تضطلعان فيها بدور اهم بما لا يقاس مما فى مجالس ومجلات اوربا الغربية ، وهذان العاملان العظيمان لمصير الشعب فى الشرق لن يكونا فى متناول اية عبقرية غذاها الغرب . ان نابليون ، والحق يقال ، عوضا عن ان يدحض النيات التى عزيت اليه ، حاول ان يسبغ عليها وزنا اكبر ، ولكن من السهل تفسير هذا برغبته فى ان يبقى الانكليز فى قلق على ممتلكاتهم الهندية وان يحيط ذاته فى الوقت نفسه بشىء عجيب فى اعين شعبه ويلهب مخيّلة الغرب بشرارة استمدها بمهارة من الشرق ، من بلاد الخيال الكلاسيكية .

يمكن ، وهذا هو الاصح ، عزو الحملة على سورية نفسها الى هذه الاعتبارات ، والى التأثير الذى يمكن ان تحدثه فى الغرب النشرات الشاعرية عن جبل طابور اكثر مما يمكن عزوها الى امل بونابرت فى الاستيلاء على سورية . وما كان لسهولة اخضاع مصر ان تضلله فى الموقف من سورية . كان يكفى فى مصر تحطيم وتشتيت المماليك الدخلاء الذين يمقتهم الشعب حتى يصبح القابض على زمام القاهرة والنيل الصالح للملاحة ، بحر النيل ، حسب تعبير العرب ، المالك المطلق لهذه البلاد الغنية التى تطوقها الصحراء

رسالة بتاريخ ٢ شباط (فبراير) عام ١٨٠٨ خطة لاخضاع الهند بفيلق روسي-فرنسي .

بيد ان حملة نابليون على سورية فى عام ١٧٩٩ لم تكن مرتبطة مباشرة بخطط اجراء الحملة على الهند وكانت ناجمة عن اعتبارات عدم السماح بوصول القوات التركية الى حدود مصر لدرء اشتداد نضال المصريين التحررى ضد فرنسا ، وعن السعى الى ضرب الجيش التركى فى سورية باستخدام دعم الاقطاعيين السوريين فى غضون ذلك . — **المحرر** .

من الجانبين ، والتى تتاخم فى الجنوب ممالك لم يعد يأتى منها الغزاة منذ امد بعيد ، بل القوافل المحملة بالعاج والرمل الذهبى والراتينج والعنبر والرقيق . تقتصر الحماية من البحر على دمياط والرشيد وابى قير والاسكندرية وما تبقى من الساحل منيع وحصين .

ولكن سورية المرتبط مصيرها بمصير مصر منذ القدم تتباين وجارتها تباينا مدهشا . هنا يمكن القول ان الطبيعة نفسها وتركيب التربة تعارضان فى اقترانهما الدائم بالميول الطبيعية وبكيان القبائل السياسى ، كل سيطرة راسخة . كانت سورية دوما فريسة طيّعة لاول فاتح يأتيها من الشمال او الجنوب ، من وراء الفرات او من البحر . لقد رأينا ان المماليك وحدهم حاولوا وقف الحملة المظفرة لسليم الذى خضعت له القبائل المحلية بلا مبالاة . ورأينا النجاح الذى حالف قوات علي بيك ثم محمد بيك ، اذ قاما بحملتيهما دون ان يلقيا اية مقاومة فى اى مكان من جانب القبائل السورية المحاربة . هكذا ايضا كان شأن حملة الفرنسيين . ليست القبائل السورية هى ما اوقف اطّراد نجاحهم ، بل اسوار عكا والباشا التركى ، وبالمناسبة اذا كانت عكا قد انقذت سورية ، فلعل بونابرت نفسه مدين لها ايضا بمصيره فى الغرب ، حيث انه ذاق الاخفاق هناك فتمكن من التراجع الى مصر فى الوقت المناسب .

الى اين كانت ستقود الغازى حملته لو استمرت ؟ لم يكن يكفى للاستيلاء على سورية كسب معركتين او ثلاث . كان فى وسع نجم البطل الشاب ان يخلف وراءه اثرا باهرا من الانتصارات فى هذه البلاد التى داستها اقدام الغزاة من كل العصور ، ولكن كلما كان الغازى فى كل العصور ينال هذه الغنيمة الزائفة بسهولة اشد كان الحفاظ عليها اصعب ، اما الحصول منها على عناصر قوى جديدة من اجل القيام باجراءات لاحقة فهذا ما لم يتسنّ لاحد على الاطلاق . لم يبق المماليك المصريون والسلاطين الاتراك سورية تحت سلطتهم الا لان هؤلاء واولئك لم يطلبوا منها الطاعة واكتفوا باتاوة معتدلة ، وقلما اهتموا بترسيخ سلطتهم فى هذه المنطقة ونظروا الى تمرداتها باناة وتغاضوا عن فتن قبائلها ، وحتى انهم اعتادوا على انتفاضات ولاتهم الذين اصيبوا بعدوى روح القبائل السورية .

الفصل الرابع

غضب الجزار . – علاقات الامير بشير بالانكليز . – حملة الوزير الاعظم . – فتن جديدة فى لبنان . – فرار الامير . – الحالة السياسية فى سورية . – مشروع الباب العالى . – عودة الامير . – صلح الجبليين والحرب على الجزار . – موته وذكراه . – الاجراءات التى اتخذها الباب العالى للاستيلاء على عكا . – الحرب بين الباشوات . – المشاحنات بين مبعوثى الباب العالى على كنوز الجزار . – صيرفى يهودى يسلم عكا لسليمان باشا . – اشتداد قوة اميرلبنان . – الاعدامات . – شؤون باشالك دمشق . – تطاولات البدو . – كنج يوسف . حملة الامير على دمشق . ابونبوت فى فلسطين . – بدء ارتقاء الامير بشير . – اعتناق الشهابيين المسيحية . – اعتبارات سياسية ودينية . – رأى اوربا فى الامير بشير .

انتصر الجزار . وحلت نقمة مروعة بالمتاولة الذين عولوا على الفرنسيين ، وذهب شيوخهم يبحثون عن ملجأ فى لبنان ، ولكن الامير بشير اعلن ان سيف انتقام الجزار مسلط عليه ايضا . وفى الواقع ، عين الباشا ابنى الامير يوسف حاكمين على لبنان وكلفهما بمعاقبة الامير بشير على موت ابيهما المهين . وكان الجزار يسعى بهذا الى هدف مزدوج : الانتقام من الامير بشير على وقوفه موقف المتفرج فى حصار عكا وتقوية نفوذه فى لبنان لاحقا بزيادة الرسوم والضرائب ، لانه يستطيع دائما ان يسلح احد الاخوين ضد الآخر ويتابع معهما اللعبة القاسية نفسها التى ملأت فى عهد ابيهما خزانته بما نهبه من الجبليين .

فى غضون ذلك سمع الكومّودور سيدنى سميث ، منقذ عكا ، بامير

لبنان ، وبقدراته ، وباسباب وقوفه مكتوف اليدين فى حصار عكا ، وادرك ان القبائل اللبنانية يمكن ان تشكل افضل سند لسورية ضد غزوة فرنسية ثانية . وقد زار الامير فى الجبال ، فى عين عنوب (على بعد ٤ ساعات عن بيروت) * ، وبادله الهدايا حسب العادة الشرقية وعهد اليه بابن اخيه الجريح ليسترد صحته فى الجبال . ان الكومّودور ، وقد علم بخشيته من الجزار ، هرع الى عكا ليتوسط له عند الباشا . ولكن الجزار رفض باباء اى التماس وسخر من حجج الكومّودور واعلن ان الامير بشيرا خائن . وشكا الكومّودور المستاء الباشا الجاحد الى سفارته . وفى غضون ذلك انحدر الوزير الاعظم الحاج يوسف ضياء باشا الى سورية بجيش قوامه ١٠٠ الف مقاتل . وسلم الباب العالى اليه رسائل الكومّودور الانكليزى ، اما الامير بشير فقدم اليه من جانبه شكوى على الجزار ، متحدثا عن اخلاصه ومقدما كمية كبيرة من المؤونة للجيش اشعارا بغيرته .

ان الوزير ، وقد اجل النظر فى القضية حتى طرد الفرنسيين من مصر ، خلع على امير لبنان حلة رائعة ، وانعم عليه ، بناء على الصلاحيات التى ولاه اياها السلطان لتنظيم شؤون سورية ، بلقب الامير الحاكم بالوراثة لجبل لبنان (جبل الدروز **) ولبنان الشرقى (وادى التيم) وبعلبك ووادى البقاع (كيلي-سورية) وناحية جبيل وبلاد المتاولة (بلاد بشارة) : هذا مع العلم انه ثبت له كل حقوق المعنيين القديمة ووضعه فى تبعية مباشرة للباب العالى ، بحيث يقتصر الباشوات على اخذ اتاوة معينة عن الارض عن النواحى المكلف بها ، ولا يتدخلون فى شؤونه على الاطلاق .

هذه المنح الجليلة بقيت كلمة جوفاء فى سلوك الوزير الاعظم . كان الوزير ضيفا فى سورية ، اما الجزار فكان سيدا فى عكا . لم يأخذ الامير بشير هذا فى الحسبان ، فبعث الى ضياء باشا الاتاوة السنوية عن لبنان والكثير من الجياد الاصيلة كهدية وقرابة ١٠ آلاف مكيال من القمح للجيش . نظر الجزار الى كل هذا من خلال اسوار عكا ببرودة اعصاب ، ولم يقدم هدايا ولا مؤونة ولا اتاوات الى الوزير ، بل انتظر الى ان غادر الضيف القادم من العاصمة مع جيشه سورية . كان الوزير لا يزال فى غزة يستعد للحملة على مصر حينما ارسل الجزار ابنى الامير يوسف مع جيشه الى الجبال ، مبقيا عنده اخاهما الاصغر كرهينة *** .

---

* فى حزيران (يونيو) عام ١٧٩٩ . — **المحرر** .

** فى القرن السابع عشر كان جبل لبنان يسمى بجبل الدروز حسب الانتماء الدينى لجمهور السكان الاساسى .

*** هذا الابن الاصغر ليوسف ، الامير سليم ، الذى اعماه فيما بعد ابن عمه الامير بشير فى خلال النقمة التى حلت على كل ذرية يوسف ، توفى عام ١٨٤٥ فى لبنان . وهو الذى ابلغنى بالكثير من تفاصيل هذا الحديث .

استقبلت القبائل اللبنانية الاميرين الجديدين بسرور على امل التخلص من الابتزاز الذى اثقل به الامير بشير كاهلها لينال خطوة عند الوزير الاعظم . هرع باشا دمشق وباشا طرابلس بامر من ضياء باشا الى ارسال جيش لمساعدة الامير واعطيا تعليمات صارمة للجبليين بألا يشقوا عصا الطاعة . ولكن كل هذا ، شأن النداء الذى وجهه الامير الى الجبليين يناشدهم فيه طرد جحافل الجزار ، بقى بلا اثر . ان الشقاق الذى بثه الجزار مقدما بين امراء جبال لبنان الشرقية فتح له من كل الجهات منفذا سهلا الى لبنان . ان انعدام الاخلاق الموروث لدى امراء جبال لبنان الشرقية لم يتوقف عن اثارة منطقتى حاصبيا وراشيا لصالح الجزار . هناك كان قتل الاخوة امرا مألوفا بين الشهابيين الى درجة ان امهات الامراء كن يلزمن اولادهن بان يقسموا ألا يقيموا فى مكان واحد ابدا ، اولا ، حتى لا ينصاعوا لاغراء قتل الاخوة ، وثانيا ، حتى لا يقتلوا معا فى حالة هجوم الاقرباء ، بل يبقى من يثأر لهم .

فر الامير بشير الى جبيل مع ٥٠٠ نفر من دروز الشيخ بشير جنبلاط . وطارده ابنا عمه .وقد فرضا غرامة على الشعب ، وقاما بجباية الاتاوات مرة ثانية ، اما القوات التى قدمها اليهما الباشا فحرقت القرى ونهبتها . ندم الجبليون على خيانة اميرهم ، ولكن بعد فوات الاوان . هام الامير على وجهه فى المناطق الشمالية ، متنقلا من مكان الى مكان فى الدروب الخفية الى ان تلقى ، اخيرا ، دعوة من الكومّودور سيدنى سميث للتوجه عبر البحر الى الوزير الاعظم فى غزة على متن سفينة ارسلت له خصيصا الى طرابلس . عهد الامير بشير باسرته الى شيوخ بنى رعد المسلمين المخلصين له ، الذين كانوا يحكمون نواحى الضنّية والحصن وصافيتا ووضع انصاره القلائل تحت حماية باشا دمشق ، ثم استقل السفينة الانكليزية فى كانون الاول (ديسمبر) * ، فساقته عاصفة الى سواحل البربر وبعد ثلاثة ايام من الابحار وصل الى العريش على الحدود المصرية .

استقبله الوزير بلطف وعرض عليه جيشا من عشرة آلاف نفر ليستولى على لبنان رغم ارادة الجزار . رفض الامير هذا الاقتراح لمعرفته ان من المستحيل عليه البقاء فى الجبال بمساعدة ١٠ آلاف نهاب ، واكتفى بوعد الوزير بان يخلص لبنان وسورية بأسرها من الجزار الفظيع بعد الانتهاء من قضايا مصر . فى ذلك الوقت كان الجزار يأخذ الغرامات من المدن والقرى ويجبى الاتاوات من [سكان] جبال نابلس التابعة لباشا دمشق ويحاصر قلعة سانور التى احتمى بها شيوخ نابلس ويثير امراء جبال لبنان الشرقية على باشا دمشق الذى كان على خلاف معه ويحرض مسلمى طرابلس على التمرد ، ممهدا على هذا النحو الطرق فى هذا الباشالك لافاق آخر ، وهو مصطفى بربر

---

* عام ١٧٩٩ . — **المحرر** .

الذى افلح على اعقاب الجزار وبالوسائل نفسها فى حيازة باشالك طرابلس فيما بعد وارغام الباب العالى على تحمل تطاولاته بصبر واناة . منظر غريب : كانت سورية بأسرها فى اضطراب وفوضى مديدين ، وفى كل سنة كان يظهر فيها افاقون جدد يستولون على السلطة ، وكانوا خلف ستار من التظاهر بالطاعة للباشوات والباب العالي مستقلين من حيث الجوهر . كانت القبائل اللبنانية وحدها ، وسط صخورها المنيعة وفى ظل نظامها الاقطاعى ، تصبح على نحو متزايد سنة اثر اخرى ألعوبة فى ايدى الباشوات نتيجة حزازات امرائها العائلية .

دشنت حملة يوسف ضياء باشا فى مصر بالاخفاقات . ولكى يضعف الجزار نفوذ الباب العالى فى سورية اكثر واكثر ويصبح الحاكم المطلق الجبروت ، تمكن من رشوة القبودان باشا والكثير من وجهاء العاصمة ليقاوموا سرا اى نجاح يحرزه الوزير الاعظم ؛ وفى غضون ذلك كان فى كل مكان يلاحظ فيه مواد جاهزة قابلة للاشتعال فى موقد التمردات السورية الواسع النطاق ، يطلق الشرارة ويؤجج اللهب باندفاع . وبعد انتهاء الحملة على مصر لم يجرؤ الوزير على مهاجمة الجزار المستعد للصمود فى وجه حصار آخر ، واكتفى بان انتزع منه الجزء الجنوبى من باشالكه ، سنجق غزّة ، وعين فى منصب الباشا هناك احد السكان المحليين ، وهو محمد ابو مرق . واذ رأى الباب العالى من جانبه ان نفوذه ضعف فى سورية ، لم يجرؤ على المساس بالجزار ، المصدر الرئيسى للشر ، وفكر فى تعزيز سلطته بزيادة عدد الباشوات . وعُين باشا فى كل من حماة وحمص ، على تخوم البادية الكبرى . وقد طردهما من هناك الشيخ دِ°نش ، احد الشيوخ المحليين . وكذلك لم يستطع يوسف باشا ، من عائلة العظم الشهيرة ، ان يتسلم باشالك طرابلس الذى انعم به عليه .

كانت قافلة الحجاج المسلمين تتعرض فى كل سنة لاذى البدو الذين كانوا يستغلون الفتن الدينية فى شبه جزيرة العرب ليعيثوا بدورهم فسادا فى بادية الشام . من جهة ، لم يكن الباب العالى يضن بالجهود والحيل والتبرعات من كل الانواع ليضمن للمؤمنين اداء فريضتهم المقدسة ، ومن الجهة الاخرى ، كان الجزار يلاحق بدسائسه باشا دمشق الذى عهد اليه بهذا الامر الهام ، فكان فى كل اخفاق له ومع تذمر المؤمنين المتعاظم فى كل ارجاء الامبراطورية يستأنف اقتراحاته الطافحة بالاخلاص والورع والمدعمة بالهدايا الى الوزراء ، ويتعهد بفتح طريق مكة للمؤمنين شريطة ضم باشالك دمشق الى ممتلكاته .

اخذ الديوان يبحث فى اتخاذ اجراءات حاسمة من اجل التنظيم الحكومى لسورية ، من اجل لجم الباشوات والاتباع المحليين ، ولتخفيف الوطأة عن الشعوب والهامها الثقة بالحكومة . وقُرر تعيين الوزير الاعظم يوسف ضياء

باشا آمرا مفوضا لكل البلاد ، من جبال طوروس الى الخليج العربى والبحر الاحمر ، وتسليمه كل مقاليد الحكم فى اثنى عشر باشالكا مع ابقاء جزء كبير من الجيش عنده .

وهكذا ، ادرك الباب العالى بعد تجربة قرنين تقريبا ضرورة الاستيلاء ثانية على مناطق خضعت للسلطان سليم بلا نزاع تقريبا . ان قضايا اوربا والحرب مع روسيا التى اندلعت فيما بعد حالت دون تنفيذ هذا الاجراء العظيم للدولة . ولكن ما هى ضمانة الباب العالى لان يؤمن ذلك ان لم يكن نجاح المأثرة المدنية للوزير الاعظم ، فعلى الاقل اخلاص واليه بعد احراز النجاح ؟ وهل ثمة منذ قيام الامبراطورية التركية باشا من الباشوات لم يتمرد اذا كانت وسائله تمكنه من القيام بهذا دون عقاب ؟

تجول الامير بشير طويلا على متن سفينة من الاسطول الانكليزى . انه ، وقد اقتنع ، اخيرا ، بان وعود الوزير الاعظم والتماس الانكليز وفرمانات السلطان لن تعيد اليه الامارة المفقودة ، قرر تجربة حظه مرة اخرى بواسطة انفعالات الناس وسخط الجبليين العام على منافسيه . نزل بشير فى طرابلس ، واستقر فى مناطق [اطراف] جبل لبنان الشمالية التابعة لباشا دمشق ، واخذ يتتبع مجرى الامور فى الجبال ويحرك النوابض المعروفة له . كان ابنا يوسف ، الامير سعد الدين والامير حسين ، عاكفين تحت قيادة وزيرهما باز ، المارونى ، على النهب المنتظم للجبليين لدفع المبالغ التى وعدا الجزار بها . اخذا يجبيان الاتاوات شهريا ، وصارا يجهزان فى كل مرة حملات مدمرة بالقوات التى قدمها الباشا عونا للاميرين . ومع ذلك بقى الكثير من الاتاوات المتأخرة مما اثار غضب الباشا . نال الامير بشير وقتا ليذكر الجبليين بشخصه ، من جهة ، وليقدم التماسه الى الباشا ، من الجهة الاخرى . واذ ادرك الباشا ان الاميرين اللذين عينهما لن يصمدا طويلا فى وجه مساعى منافسهما ، اخذ يطلب متوعدا دفع الاتاوات المتأخرة على الفور .

ان التضييقات الجديدة ، التى اضطر الاميران الى اللجوء اليها ، جعلت صبر الجبليين ينفد . وصاروا يطالبون بالحاكم السابق علانية . توجه وفد من الشعب الى بشير يطلب منه قبول الحكم من جديد مع وعد مشفوع بالقسم بألا يعترف الجبليون باى سيد آخر عليهم وبانهم مستعدون للذود عن الامير ضد كل الملاحقات من قبل الجزار .

استقبل الجبليون ، الذين تعبوا من الفتن والابتزازات ، الامير بحماسة * . واسبغ شعور الشعب على مسيرته الى الشوف مظهر موكب مهيب . وهناك كان منافسوه قد تمكنوا من الاستيلاء على دير القمر بألفى نفر من ألبانيى الجزار . اخذ الشيوخ ينضمون الى الامير بشير الواحد اثر الآخر .

---

* فى عام ۱۸۰۰ . — **المحرر** .

واذ خشى جُرجُس باز ، الذى كان يحكم باسم ابنى يوسف ، ان يحاصَر فى الجبال ، سلم الامير دير القمر وهبط مع ألبانييه الى سهل بيروت ، وهناك قوى جيشه الى ٦ آلاف من مختلف الاوباش ، وتابع الحرب ضد الامير سنتين آخريين ، فكان يحرق القرى على سفوح جبل لبنان ، وجعل الامير يلجأ عدة مرات الى آخر ما فى جعبته ، اذ انه لم يلق عند الجبليين ما وعدوه به من دعم ، فكان غالبا ما يقاتل وحده مع خدمه لكى لا يترك لزمر الجزار منفذا الى الجبال . ولما فقد جرجس باز الامل فى ان يعيد الى ربيبيه ميراث ابيهما ، دخل مجددا فى مفاوضات مع بشير على اساس ان تقتطع ناحية جبيل لابنى يوسف .

كان طرفا الاتفاق يعرفان جيدا ان الجزار لن يغفر لهما اذا تصالحا . ولتخدير يقظة الجزار ابلغه باز بانه حطم الامير بشيرا تماما ، وان الجبليين يطلبون الرحمة ، وانه دخل الجبال مع فصيلة صغيرة ، وان الامير المنقوم عليه سيرسسل الى عكا مكبلا بـالاصفاد . ومع هذا الخبر سرح الميليشيا الالبانية وعقد على الفور حلفا دفاعيا مع الامير بشير . هكذا انتهت الفتن التى استمرت امدا طويلا بين الامير بشير وابنى عمه ، ولكنه لم يقدّر بعد للجبليين ان يستريحوا .

غضب الجزار لانه كان يعرف ان لبنان منيع فى وجهه طالما عاشت قبائله فى وئام ، واستمر ثلاث سنوات يزرع الشقاق فى جبل لبنان ، مقدما حمايته للاميرين سليمان وعباس ، قريبى بشير ومنافسيه . ذاد جمهور السكان عن اميره فى هذه المرة ، الى ان رأى الباشا انه لم يرد الى خزينته بهذه التصرفات اى قرش من اتاوة لبنان ، فوافق ، اخيرا ، بالتماس من صيرفيه اليهودى حاييم على الاعتراف ببشير اميرا على لبنان شريطة ان يدفع ٤٠٠ الف قرش عن السنوات السابقة ونصف مليون قرش اتاوة سنوية (عام ١٨٠٣) .

قبل وفاة الجزار بسنة تمكن من ان ينال من الباب العالى باشالك دمشق ، متكفلا بامن القافلة * . عهد بالقافلة الى سليمان باشا ، وهو نفسه الذى تعرض قبل ذلك بعدة سنوات للنقمة بسبب المغامرة الغرامية بين جوارى الجزار والمماليك ، وبعد ان تنقل بضع سنوات فى مضارب البدو ، تمكن مجددا من نيل رأفة الجزار وقيادة قواته فى مختلف الحملات . وقد انتقم من سكان دمشق ، الذين شكوه الى الباب العالى او اغلقوا بوابات مدينتهم فى وجهه فى اول وثانى مرة من حكمه ، بغرامات طائلة وجمع تعويضات من كل المنطقة بوسيلة بسيطة للغاية : طلب من كل متسلم ومدير ناحية او قطاع مبلغا معينا فى امد محدد ، تاركا له الخيار اما ان يدفع من

---

* فى عام ١٨٠٣ . — **المحرر** .

جيبه او يجبيها من السكان بالشكل الذى يهواه . كان يصعب الحصول على نقد من البدو الذين يرعون قطعانهم فى اراضى الباشالك . انتزع الجزار منهم دفعة واحدة ١٠٠ الف رأس من الخيل والابل والبقر وارغم سكان المدن بالاكراه على شراء هذه الماشية ، واقترح على اصحابها ان يفتدوها بالتراضى مع مقتنيها .

كان باشالك عكا يعرف منذ امد بعيد النظام المالى لباشاه . لقد حصر الباشا كل التجارة فى يديه . كانت التجارة قديما تتمتع بحرية كاملة فى تركيا ، ولكن فى القرن [الثامن عشر] اخذت الحكومة العثمانية والباشوات فى المناطق يفرضون احتكارا على بعض المنتجات . وقد وفر الشيخ ضاهر العمر من الاحتكار الموارد لمخططاته الكبرى . وطبق الجزار بمساعدة صيرفيه حاييم ، الذى قطع يوما انفه واذنه على سبيل المزاح ، نظام سلفه لا على كل المنتجات فحسب ، بل حتى على كل شؤون الادارة . وهكذا فقد سلم ، مثلا ، كل دواوين المشورة للملتزمين ، تاركا لهم ان يعينوا هناك الاعضاء والامناء الذين كانوا يشترون وظائفهم باسعار محددة . وحتى الحق المريع فى جبى الغرامات من المدن مرة او مرتين فى السنة كان يمنح عن طريق الالتزام . كان الملتزم يختار على هواه السكان والتجار او اولادهم ويعذبهم الى ان يدفع كل واحد المبلغ المطلوب منه . ولا تزال بيروت تتذكر كيف ان اسرا كاملة قذفت بنفسها فى البحر لتتخلص من معذبيها . . . لا يرى الا من يعرف الاتراك فى المناطق العثمانية ، لا فى العاصمة ، ان من خطل الكلام الخوض فى محاكمات هذه التفاصيل التى تبدو مبالغا فيها . انها توضح على افضل نحو الوضع المعنوى والمادى الحالى فى سورية .

لا احد هنا يلعن ذكرى احمد الجزار . لقد علق فى ذاكرة الشعب مجد جبروته وثرواته وقانونه العنيد والجرىء . ان فظائعه نفسها وتسلياته الدامية وعقوباته التى طالت مناطق بأسرها قد ادهشت مخيلة الاسيويين بشدة . وان الدهشة والخوف ، اللذين غرسهما الجزار ، صانا ذكراه من لوم الشعب . الاسيوى يميل منذ القدم الى القوة فى يد اى كان . وهو يرى فى قسوة حاكمه قضاء القدر المحتوم الذى لم يتعود التذمر منه . ان المسجد الجميل الذى بناه الجزار فى عكا مع الخان ذى الفسقية الرائعة يجعلان المؤمنين يتوجهون الى الله بطلب الرحمة على عبده احمد الواقع ضريحه فى الجوار .

توفى الجزار فى نيسان (ابريل) عام ١٨٠٤ . لقد رأينا كيف ان عبقرية الهارب والافاق البوسنى احمد مكنته من ان يصبح الباشا الجزار الشهير . اذا كان الجزار يشكل تعبيرا عن كيان المنطقة السياسى حينذاك ، فان الظروف التى اعقبت وفاته تساعد على التقدير الاصح لموقف الباب العالى نفسه من هذه المنطقة ودرجة تأثيره فى مصير سورية .

قبل ذلك باثنتى عشرة سنة ، وكان الباب العالى قد تأكد انه يستحيل

بالقوة السافرة التخلص من هذا التابع ، كلف خليلا باشا ، الذى عُزل عن باشالك طرابلس بحجة النقمة عليه ، بان يقتله غدرا . ولكن الجزار لم يبث عيونه فى العاصمة ويغدق الذهب على اعضاء المجلس الاعلى عبثا . انه ، وقد علم بالامر فى الوقت المناسب ، قتل خليلا باشا بالسم واستولى على كل ممتلكاته . ومنذ ذلك الحين اضطر الباب العالى الى ان يقنع بتأكيدات خليل باشا عن الولاء والاخلاص للعرش مع استهتاره السافر بكل الفرمانات الصادرة عنه ، وان يقنع بذلك المبلغ من الاتاوة الذى كان يروق للباشا المتقلب ان يدفعه الى خزينة السلطان . ما ان وصل الى العاصمة خبر مرض الجزار حتى امر ابراهيم باشا الحلبى بان يستعد سرا للاستيلاء على باشالك عكا فور موت الجزار وحجز كل كنوزه للخزينة . وزُود ابراهيم بالفرمانات الضرورية ، ولكنه تأخر . عندما اسلم الجزار الروح ، كتم رئيس اركانه موت سيده يومين او ثلاثة ، اذ خاف انتقام القوات التى كانت تكرهه ، واستدعى من السجن المدعو اسماعيل باشا ، الذى كان فى خدمة الجزار سابقا وتعرض لنقمته ، وعينه باشا وكأنما بوصية من الجزار .

نجحت المؤامرة . ما كاد الحاكم الجديد يتحرر من الاصفاد حتى اعترف به الجيش والمماليك الذين كانوا يضطلعون فى كل باشالك حينذاك بدور انكشارية استنبول وخصيان القصر . وانعم عليهم اسماعيل مكافأة على خدمتهم بسبعمئة كيس (حتى ٣ ملايين روبل فضة) واصدر ، غير مبال بما سيقولونه فى العاصمة ، اوامر باسمه الى كل المناطق التى كانت خاضعة لسلفه .

رد الامير بشير الداهية على الباشا الجديد بانه مستعد للاعتراف بسلطته ما ان يُبرز فرمان السلطان ؛ وفى غضون ذلك علم بان باشا حلب قد دخل دمشق بامر من الباب العالى واستعد للهجوم على المغتصب ، فارسل هدايا الى هذا وذاك وساوم هذا وذاك بانتظار ما سينتهى عليه كل ذلك .

بعد ان عاد سليمان باشا قائد جيش الجزار من مكة ، انضم الى ابراهيم . قبع اسماعيل فى عكا واستعد للدفاع . هرع كذلك الاسطول من العاصمة تحت قيادة القبودان باشا ، وهرع ايضا مبعوث مرسل خصيصا لحجز خزينة الجزار . وحوصرت عكا . كان يجب على القبودان باشا ان يدعم الحصار من البحر . وبالمناسبة ، كان كل من ممثلى الباب العالى يتصرف على هواه ، واضعا نصب عينيه مصلحته الخاصة قبل كل شيء . وبدل ان يهاجم القبودان باشا المتمرد من البحر ، دخل فى مفاوضات معه ، وحمل الاسطول جزءا من كنوز الجزار للسلطان ولنفسه ، واعدا بان يلتمس لاسماعيل العفو وتثبيته فى الباشالك .

واذ رأى ابراهيم وسليمان كل هذا ، رفعا الحصار العقيم ، اما مبعوث الباب العالى راغب افندى ، الذى حقد على القبودان باشا لاخذه رشاوى كانت من حق المبعوث وتخاصم وابراهيم ، عرض شروطه على سليمان لكى يوصل

اليه ارث الجزار . توجه راغب افندى على عجل الى العاصمة وعاد من هناك يحمل فرمانا باسم مرشحه . فى غضون ذلك انطلق المغتصب ، الذى شجعته وعود القبودان باشا ، فى حملة مع جيشه لاخضاع باشالكه وجمع الاتاوة . انتظره سليمان فى الناصرة ، وكان قد تمكن من ان يجذب الى جانبه قبائل المتاولة وجبليى نابلس . وتلقى امير لبنان ايعازا من الباب العالى بتقديم المساعدة لسليمان . قاتل المغتصب اسماعيل مع زمرته بشجاعة ، ولكنه ُهزم وسُلم الى المنتصِر بخيانة حرسه ، وارسِل الى القسطنطينية ، حيث عُلق رأسه عند بوابة السراى .

بيد ان الطريق الى عكا لم يفتح بعد امام سليمان . قبعت قوات اسماعيل المنهزمة فى القلعة وطالبت بدفع اجور خدماتها تحت رايات المتمرد . دبر اليهودى حاييم ، صيرفى الجزار ، الامر بوساطته واستقبل الباشا فى القلعة وكفله فى دفع المبالغ المطلوبة . وهكذا انتقل من باشا الى آخر عبر يدى اليهودى المجدوع مصير مناطق شاسعة تحت صولجان السلاطين المتداعى .

خلف الجزار كنوزا لا تحصى . لقد ارسل الى العاصمة اكثر من ١٠ ملايين روبل فضة ، وذلك دون الحديث عما نهب فى خلال كل هذه الاضطرابات وعما وزع على القوات وعما ناله خلفه سليمان باشا والمبعوث راغب افندى الذى قدم من العاصمة الى الوليمة العامرة . لم يكن فى وسع الباب العالى من حيث الجوهر ان يتذمر من تمرد باشواته . فبعد كل متمرد كانت ثمار ما نهبه تصل دوريا الى خزينة السلطان بعد ان تتخم اولا الوجهاء ومبعوثى الديوان المفوضين . وكلما كان التمرد اطول وانأى عن العقاب كان ما يرد من المحصول اغنى واوفر . اما فى خصوص تذمر الشعب فلم يكن بوسعه ان يصل الى مسمع السلطان ، ولا سيما من المناطق البعيدة ، وحتى اذا حتى وصل فان اعدام النهاب حسب المفاهيم الاساسية للعدالة التركية يكفى لارضاء المنهوبين ، اما الاموال فهى ملك للخزينة .

حينما اخذ سليمان باشا وراغب افندى والصيرفى حاييم ، الذى كان الوزير الاول فى عهد الجزار على اساس ان الصيرفى يجب ان يضطلع بالدور الاول والرئيسى فى حكم يشكل الابتزاز صفته الاولى والرئيسية ، يتفقدون معا حسابات الجزار ، وجدوا سندات ووصولات من شتى حكام لبنان او الطامعين فى حكمه بمبلغ طائل مقداره ٤٠ الف كيس ، اى ما يتراوح حسب السعر الجديد للقرش بين ١٥ و١٨ مليون روبل فضة . واخذوا يطالبون الامير بشير بهذا المبلغ . ورد الامير ان الجزار ، اذ كان يتلقى النقود لقاء السندات ، لم يكن ابدا يعيد السندات نفسها وان كل هذه المبالغ تقريبا ُسددت منذ امد بعيد . واخيرا ، بعد مفاوضات طويلة قدم ١٥٠ الف روبل فضة علاوة على الضريبة العادية ، فثُبت فى امارته على الرغم من دسائس الاقرباء .

تحت حكم سليمان باشا استراح الشعب قليلا من المحن القاسية التي عاناها زمن الجزار . وابدى الباشا الجديد عطفا دائما لامير لبنان الذى استغل هذا الامر جيدا لترسيخ حكمه بالقمع التدريجى للاتباع الذين اعتادوا فى عهد سابقيه على التصرف كما يحلو لهم . ولم يعد ابنا عمه يوسف يوحيان اليه باية خشية ، اذ كانا يحكمان جبيل بهدوء تحت امرة باشا طرابلس ، اما مرشدهما جُرجُس باز ، المخلص للمعاهدة التى انهت آخر حرب داخلية ، فاصبح حليفا متحمسا لبشير وقدم اليه عدة سنوات على التوالى ، ولا سيما فى فترات تعاقب الباشوات ، خدمات جليلة بعقله وسيفه . وقد شغل اخوه الاصغر مكانه لدى اميرى جبيل .

ان نفوذ البازَين وتعلّق ابناء ملتهما الموارنة بهما اقلقا الامير الذى لم يكن يفكر الا فى السلطة المطلقة . ولكى يقضى نهائيا على حليفه ووزيره الاول منحه السلطة الكاملة فى تنفيذ مختلف الاجراءات التى تهدف الى انشاء نظام افضل ، ولكن لا بد لها ان تثير سخط الشيوخ ، وصار ينشر فى وسطه بمهارة شائعات تزعم ان كل هذه الاجراءات هى من ابتكار جرجس باز واخيه . وحينما نضج سخط الشيوخ ، كلف الامير اخاه حسن باعداد مؤامرة مع اعداء البازَين ، وفى الوقت الذى استولى فيه حسن مع المتآمرين على جبيل وعزلوا ابنى يوسف وقتلوا الباز الاصغر ، خنق الامير الاخ الاكبر فى السجن ثم عمى ، حسب عادة الشهابيين ، ابنى عمه بالحديد المحمى وقطع لسانيهما . حينذاك اشتد نفوذ الامير و«اطبقت شهرته الآفاق» ، حسب تعبير العرب . ودخلت ناحية جبيل مجددا فى قوام امارة لبنان . وعُين الامير قاسم بن بشير حاكما هناك بمصادقة مصطفى بربر الذى كان يملك باشالك طرابلس حينذاك .

فى دمشق كان الباب العالى يبدل باشا بآخر لعجزهم عن قيادة القافلة الى مكة . فى كل سنة كانت تحل بالقافلة مصائب جديدة . ان الوهابيين ، الذين كان جيشهم يضم فى ذلك الحين حتى ٣٠٠ الف فارس تحت امرة سعود ذى المراس وابنائه ، استولوا على مكة وعزلوا شريفها الذى يعود نسبه الى محمد ، والذى كان يدير بتكليف من الخليفة المدينتين المقدستين فى شبه جزيرة العرب ، ولم يعترفوا بسلطة السلطان وكانوا يدعون الى طائفتهم المتزمتة ، ووصلت غاراتهم الى المناطق الشرقية من سورية . وكان باشوات دمشق يشترون من هؤلاء المنشقين السماح بزيارة مكة بمبالغ طائلة ، متعرضين فى غضون ذلك لا اكثر الشروط اذلالا . وهكذا ، مثلا ، طالب الوهابيون ، ولهم مسوغاتهم فى ذلك ، بألا تضم القوافل اى صبيان واى مرد اجمالا . وغالبا ما كانت القوافل تهلك فى الصحراء لاستحالة صيانة المؤونة من الفرسان الجشعين . وعوضا عن القوافل التى كانت فى النصف الاول من القرن الماضى تضم من ٧٠ الفا الى ١٠٠ الف شخص وتنعش سورية وشبه

جزيرة العرب بتجارة المقايضة ، نجد الآن ما لا يتجاوز ١٥٠ شخصا او ٢٠٠ شخص سيطر عليهم الايمان الاعمى بالقدر المحتوم يسلكون ذلك الطريق الحافل بالاخطار . وازداد التذمر فى ارجاء الامبراطورية بأسرها .

لم يكن الباب العالى يعرف كيف يتخلص من المصيبة ، فعين باشا على دمشق كَنْج يوسف الدالىباشي البسيط ، قائد المئة فارس الذى برز فى خدمته عند باشوات دمشق بمآثره ضد الوهابيين . لم يقمع كنج يوسف الوهابيين ، ولكنه قدم خدمة كبرى بابادة حزب انكشارية دمشق المشاغب وقهر قبيلتى النصيرية والاسماعيليين اللتين تمكن من ان يفرض عليهما الاتاوة بعد ان الغى استقلالهما الهمجى ودمر حصونهما . كانت تمردات الباشوات وفتنهم فى كل ذلك الوقت شرا مألوفا بالنسبة الى سورية . ان مصطفى بربر ، الذى عين مصادفة قومندانا لقلعة طرابلس ، سيطر على كل المنطقة وصار يأخذ الاتاوة من الشعب على نحو تعسفى ولم يعترف باى سلطان عليه . ذهب اليه باشا دمشق بجيش جرار وحاصر القلعة وارغم مصطفى على الفرار الى باشا عكا . وقد قلق الباب العالى بدوره من القوة المتعاظمة للغاية لباشا دمشق الذى كان فى اساليبه شيء من طبيعة الجزار . ولاختبار اخلاصه ، امر بالانطلاق مع جيشه وخزينته الى الحرب ضد روسيا * . ورد الباشا ان عليه قبل كل شئ ان يحمى مناطقه من الوهابيين . عندئذ كلف سليمان ، الذى كان الباب العالى يعول تماما على اخلاصه وطبيعته الهادئة ، بقتل جاره والاستيلاء على باشالكه . استدعى سليمان الامير بشيرا . حاصر الامير دمشق بخمسة عشر الف جبلى وطلب من السكان تسليم الباشا المنقوم عليه والا استدعى من لبنان ٥٠ الف جبلى واباح لهم المدينة لينهبوها . لم يصمد كنج يوسف طويلا : انه ، اذ خشى قواته التى احست بقرب سقوطه فاخذت تنهب امواله ، حمل خزينته وفر الى انطاكية ، ومن هناك ابحر الى مصر . استقبله محمد علي بود ، ولكنه توفى فجأة مخلفا للباشا المصرى ثرواته (عام ١٨١٥) .

استولى سليمان باشا على باشالك دمشق وعين مصطفى بربر فى طرابلس مجددا . وكان الجزء الساحلى من فلسطين يشغله قبل ذلك بعدة سنوات محمد بيه ابو نبوت ** الجامح ، احد الطغاة الصغار الذين كانت تركيا تحفل بهم . لقد حصن يافا ذات الموقع الحربى الممتاز وبنى كورنيشا ببطاريات على مستوى الماء وخلف فى هذه المدينة الكثير من الذكريات

---

* المقصود الحرب الروسية-التركية اعوام ١٨٠٦-١٨١٢ التى انتهت بمعاهدة الصلح فى بخارست . — **المحرر** .

** لقب بهذا نبوت كان يحمله دائما ليرعب الجميع ، وليعذب به المذنبين ويقتلهم .

المروعة وبركتين جميلتين . ارسل اليه سليمان باشا قبل وفاته بامد قصير جيشا باذن من الباب العالى وارغمه على الفرار الى مصر (عام ١٨١٩) . التمس له محمد علي المصرى عفو السلطان وباشالك سالونيك . ومنذ ذلك الحين دخل ساحل فلسطين بأسره فى قوام باشالك عكا .

كان سليمان ينعم على الامير بشير باستمرار ، مقدما له آيات التبجيل وضم الى امارته وادى كيلي-سورية الخصيب المسمى حاليا بوادى البقاع ، الذى يزود لبنان بالحبوب . هذا المكسب ساعد اكثر من اى شيء آخر على علو شأن الامير واسرته ، وكان مصدرا لاثرائه .

فى ذلك الوقت حينما ذهب بشير اليتيم البالغ من العمر اثنتى عشرة سنة يبحث عن عمل عند عمه ، الامير الحاكم يوسف ، كانت كل ثروته تتكون من مهر اسحم لا تزال سلالته تصان بعناية فى مزرعة الامير ، ومن سيف وحزمة امتعة منزلية ، وكان يقيم فى بيت متواضع فى قرية بيت الدين ، قرب دير القمر . والآن ، وقد اصبح حاكم الجبال وسحق منافسيه وقوى نفوذه اكثر من كل سابقيه ، حول ملجأ فتوته المتواضع الى قصر فخم ذى برك من الرخام واعمدة رشيقة بكل ما فى العمارة العربية من روعة وطرافة . وجر اليه مياه الجداول الجبلية من مسافة تربو على عشرين كيلومترا * . فى ذلك المناخ تبعث المياه الحياة والخصب فى الرمال وفى الصخور ، فغطت الروابى المجاورة بالبساتين والمزارع . وامتلأت اسطبلاته بمئات الافراس من اكثر اجناس البادية السورية والحجاز اصالة ، وكان ما يربو على الف من خيرة الفرسان ، حرس الامير الذين يشكلون حامية القصر ، مستعدين لينطلقوا من اول كلمة الى كل الجهات لتنفيذ اوامر السلطة المركزية التى حلت شيئا فشيئا فى عهد هذا الامير الموهوب مكان استبداد الاتباع الاقطاعى وخففت الوطأة عن كاهل الفلاحين . انها لم تقم على المساعدة الجامحة من الشيوخ ، بل على امتنان الشعب . ان الرخاء المتعاظم فى لبنان وعدل سليمان باشا ، الذى فرض ضريبة معتدلة ، دائمة مكان النهب الذى كان يمارسه الجزار مكنا الامير من ان يجمع ، دون ان يضيق على الشعب ، مبالغ كبيرة قامت عليها ابهة قصره وتجلى فى كل مكان ترفه ، هذا النابض الجبار للنفوذ السياسى فى العالم الاسيوى بأسره . ومن الجهة الاخرى انتزع الامير الاقطاعات من الاتباع المذنبين وانعم بها على ابنائه .

يجب ان نعزو الى هذا العهد المزدهر اعتناق عائلة الشهابيين الحاكمة

---

* شغل الفلاحون اللبنانيون بالسخرة فى تمديد انبوب الماء وبناء القصر . استمر تمديد انبوب الماء اربع سنوات (١٨٠٨-١٨١٢) ، وبناء القصر قرابة عشرين سنة (من عام ١٨١٠) . فى الوقت الحاضر يصان قصر بشير الثانى فى بيت الدين كاثر تاريخى . — **المحرر** .

للمسيحية . يصعب القول بثقة ما اذا كان هذا الاعتناق نتيجة قناعة او لاعتبارات سياسية . وفى الواقع فان عائلة الامراء المسلمين التائهة وسط المسيحيين والدروز اللبنانيين والمضطرة غالبا الى مصارعة الباشوات دون ان يكون لها سند وسط الفوضى الازلية غير العناصر المحلية لم تكن لتستطيع ان تبقى طويلا مخلصة لعقيدة الاباء . والحكايات العائلية عن صلة القربى بالنبى العربى لم تكن ضمانة كافية لامانة الذرية البعيدة على الشريعة الاسلامية . كان لبنان مأهولا بالدروز والمسيحيين فقط ، وكان لا بد لاحدى هاتين القبيلتين ان تضم الى كيانها عاجلا او آجلا العائلة الحاكمة التى ابتعدت عن المسجد وعن معلمى الشريعة المسلمين . ان الدروز يصابون بالتدهور تدريجيا منذ زمن فخر الدين ، اما دينهم نفسه ، الخليط العجيب من شتى المسلمات ، والذى اوجده جنون خليفة مصرى ، الدين الخالى من فكرة اساسية ومن الشعور ، والذى لا يعرف الرموز المتألقة للوثنية ولا التقاليد والآمال المبجلة لليهودية ولا المسرات النقية للمسيحية ولا انفعالات الاسلام الجبارة ، فقد حكم عليه ان يخوض فقط صراعا عاجزا ضد نجاحات العقل ، فى حين ان السر المغلق الذى احاط نفسه به لن يحميه من القانون الحتمى الذى انحنت له ايزيس الحكيمة .

كان الموارنة اقدم مسيحيى لبنان واكثرهم عددا . ولوجود اعيان اقطاعيين من دينهم فى كسروان ، كانوا يمثلون عناصر هامة للتطور السياسى . هذا مع العلم ان رجال دين عمليين وموهوبين من روما قد حلوا بينهم منذ امد بعيد وعلّموا الشباب ووجهوا عقول الشعب ، غارسين فى هذا البلد تأثير السلطة الدينية الذى تطور فى الغرب . كان البناء الداخلى لهذه القبيلة يقوم منذ القدم على عنصر يجمع بين الثيوقراطية والاقطاعية . لقد رأينا ان الحكم كله كان فى عهد الامير يوسف فى ايدى المارونيين سعد الخورى وابنه غندور ، واكتسب الاخوان باز المارونيان النفوذ نفسه . وبالمناسبة ، لم يكن فى وسع اعتناق الامراء اللبنانيين للمسيحية ان يكون مهيبا ولا شاملا . واذ كان يقوم على التسامح الدينى ، الامتياز الجذرى للقبيلة الجبلية ، وعلى فتور ايمان الشهابيين بعقيدة اجدادهم ، كان بدرجة لا تقل عن ذلك ملزما بان يحيط نفسه بالكتمان فى دولة يعاقب فيها على التخلى عن الدين السائد بالموت * .

---

* هذا القانون يشمل ايضا المرتدين ، اى المسيحيين الذين اعتنقوا الاسلام ثم ارادوا العودة الى الكنيسة فيما بعد . وقد لُطف هذا القانون فى عام ١٨٤٤ بالتماس من ممثلى الدول العظمى فى القسطنطينية . ووعد الباب العالى بعدم اعدام المرتدين ، ولكنه ، بالمناسبة لم يتعهد بالسماح بهذه العودة الى المسيحية بلا عائق . ان حرية المعتقد بالمعنى المباشر لهذه الكلمة ، لا بالمعنى الذى يفهمه لسوء الحظ المبشرون الغربيون فى تركيا هى الشرط الاول لارتباط المرء ارتباطا مخلصا بعقيدته . ولكن

يقال ان احد الشهابيين ، وهو الامير علي ، كان فى عهد الامير يوسف اول من اعتنق المسيحية سرا . ويفسر رجال الدين الموارنة هذا على غرار رواية اسفارنا حول اعتناق الامير الروسى فلاديمير للمسيحية بعد مجادلات لاهوتية مع اليهود والمسلمين والمسيحيين . ولكن قال لى احفاد الامير علي انفسهم ان اعتناق جدهم للمسيحية كان بسبب زوجته الدرزية التى كانت تهيم حبا بزوجها وتغار عليه وتخاف ان يملها ويتزج نساء اخريات غيرها ، الامر الذى يحق للمسلم ، وقد اعتنقت بقناعتها العقيدة التى تضمن قدسية الحقوق الزوجية ، وتمكنت بمساعدة البطريرك المارونى الموهوب من جعل زوجها يعتنق فيما بعد هذا الدين ايضا .

ومما يجعل هذه الرواية اقرب الى الصحة كون اى من الشهابيين لم يلق نظرة الى التاريخ العالمى لينهل منه الفكرة القائمة على القوانين العظيمة التى تدار بها المجتمعات البشرية ، والتى جرت بموجبها فى كل البلدان وكل العصور المأثرة المقدسة لاعتناق الملوك والشعوب للمسيحية والتفكير عن الخطيئة الاولى للمرأة ، وهو ما منحته العناية الالهية للنساء اللواتى اكتسبن فى هذا الدين تلك الافضليات الرفيعة التى كانت حقوق نصف الجنس البشرى بدونها سواء فى اليونان المتنورة او روما الحسنة التنظيم او جمهورية افلاطون المثالية قلما تختلف عن الاذلال الفظ الذى تنتهك به فى الشرق الى الآن .

كان الامير بشير اول امير حاكم فى لبنان يعتنق المسيحية ضمنا . وقد اقتدى به كل اقربائه فى جبل لبنان تقريبا . وبالمناسبة ، بقى حتى سقوطه يخفى دينه ، وحتى فى عهد الحكم المصرى الذى امتاز بتسامح دينى سديد فى سورية كان يراعى الطقوس الظاهرية للاسلام ويؤدى الصلاة فى المساجد حينما يزور الباشوات ، وكان يقسم بمحمد امام المسلمين ، وحتى فى قصره الواقع فى بيت الدين الذى يحيط به المسيحيون كان يحرص على ان يصوم رمضان ، فيرفض حتى شرب كأس من الماء فى حر الصيف وتدخين الغليون الذى لا يكاد يفارق شفتيه فى الاوقات الاخرى . كان فى قصره مصلى جميل يؤدى فيه قس كاثوليكى القداس يوميا ، ولكن كان ذلك يجرى بذريعة لائقة ، وهى ان زوجته شركسية اعتنقت المسيحية .

يعتبر السيد لامارتين ، الذى زار الامير فى عام ١٨٣٢ ، دينه لغزا ويؤكد انه لم تكن عنده اية قناعة داخلية ، وكان درزيا مع الدروز ، ومسيحيا مع المسيحيين ، ومسلما مع المسلمين . هنا ، كما فى امور كثيرة اخرى ،

من المستبعد فى تركيا ان يصبح هذا التلطيف للقانون فى مصلحة المسيحية مع الزمن . ففى هذا البلد ، الذى يقترن فيه التخلى عن الدين بافضليات كبرى ، يمكن للارتداد بلا عقاب ان يضعف الشعور الدينى بين الجماهير .

اخطأ السيد لامارتين الذى لم يتغلغل فى وضع الامير واهمل الظروف السياسية التى اوحت الى الامير باخفاء دينه . لقد كان مسيحيا عن قناعة وبرهن على هذا بانه على امتداد ١٥ سنة من مرض زوجته الاولى امتنع عن الزواج ثانية وعن الجوارى اللواتى كان يربيهن بروح الشريعة المسيحية ليكنّ زوجات لابنائه واحفاده . وبعد موت زوجته تزوج نفسه باحدى هؤلاء الجوارى . وكان يراعى شعائر الأسلام الخارجية بالضرورة ، ولكنه لم يتظاهر هو ولا اسلافه بانهم دروز ، كما يفترض السيد لامارتين . اما فى خصوص الاعدامات والخيانات واعمال القسوة التى وطد بها سلطته ، والتى لاتتفق تماما وروح المسيحية ، فمن المعروف مدى تسامح رجال الدين الكاثوليك فى هذا الصدد ، ولا سيما اذا كان الامر يتعلق باجراءات سياسية ، ومدى سهولة شراء العفو عن اية ذنوب وطلب صكوك الغفران من روما . على هذا النحو ، كان فى وسع الامير بناء على مفاهيم الايمان المحلية ان يكون كاثوليكيا مخلصا ومتحمسا وان يبقى فى الوقت نفسه امينا على الدرب الدامى الذى سلكته اسرته بعنف منذ القدم * . وبالمناسبة ، اذا كان تعميد اطفال الشهابيين فى البيت يمكن ان يجرى سرا ، فان طقوس الدفن كانت تنطوى على صعوبات كبيرة . كانوا عادة يدعون الى البيت اول الامر رجال الدين الكاثوليك لتأدية كل الطقوس المسيحية للميت ، ثم يظهر الائمة لغسل الميت على الطريقة الاسلامية ، وهم الذين كانوا يحملون الجثة الى المقبرة . ومن الجهة الاخرى ، لتجنب الاحاديث بين الناس عن ديانة افراد اسرة الامير ، منعهم بصرامة من الظهور فى المدن التابعة للباشوات . وبهذا تجنب الامير الحذر الصاعقة المسلطة على ذرية محمد التى تخون الاسلام . وسنرى لاحقا كيف انقضت هذه الصاعقة على رأس خلفه بسبب اعترافه الصريح بالمسيحية .

على اثر الشهابيين قام كذلك اقرباؤهم امراء ابى اللمع الدروز ، حكام منطقة المتن الغنية ، المجاورة لكسروان المارونية والتى تقطن فيها اغلبية مسيحية ، باعتناق الدين المسيحى واختاروا مذهبه المارونى . وبالمناسبة ،

---

* يحتوى عددان من المجلة الباريسية «Revue d'Orient» (تشرين الثانى/نوفمبر وكانون الاول/ديسمبر عام ١٨٤٥) على سيرة للامير بشير خطها قلم عاطفى — متعصب . انها لمضحكة محاولات المؤلف تبرئة بطله من النفاق الدينى . ففى حين يتذكر الجميع فى سورية حياة واعمال الامير الشهير ، يزعم المؤلف ان الامير اضطر مصادفة فى يوم من الايام الى اتباع سليمان باشا الى المسجد ، وهناك صان نفسه من التجربة بالتعاويذ والصلوات المسيحية . اما فى خصوص الافعال غير المسيحية ، مثل قتل عمه واعماء اشقائه الخ . فان كل هذا يحاط بالصمت او يعزى الى الدروز . وكأن المسيحيين هناك غير قادرين على ارتكاب شرور كهذه ، وكأنه يمكن للامير بشير ، مؤسس السلطة المطلقة فى جبل لبنان ، ان يكون العوبة فى ايدى الشيوخ المحيطين به .

فان هؤلاء الامراء جميعا ، من الشهابيين وآل ابى اللمع ، الذين ولدوا مسيحيين او تعمدوا منذ ٢٠ او ٤٠ سنة ، لا يزالون يحتفظون الى الآن بالكثير مما فى دينيهم السابقين . عند التعميد يطلق عليهم اسم مسيحى ، مثل يوسف وسليمان وغير ذلك ، ولكنهم لا يستخدمون هذه الاسماء ، بل يحملون اسماء غير مسيحية ، بالمرّة ، مثل محمد واحمد ومراد وعلى وحيدر الخ . مع العلم انهم لدى الزواج لايطلبون اذن البابا ، كما ينبغى للكاثوليك الآخرين ، بل يتزوجون على هواهم ، كما فى دينيهم السابقين ، وذلك باقرب قريباتهم ، ما عدا الدرجتين الاولين ، لانهم لا يستطيعون ، حسب مفاهيمهم للنبالة ، البحث عن زوجات خارج عشيرتهم ، باستثناء الجوارى * . ان الكنيسة فى روما ، اذ تحتفل بمكتسبها الثمين وتعلل نفسها بالفوائد المقبلة لمقاصدها السياسية والدينية فى هذه البقعة من الشرق ، تجيز بفطنة كل هذه التصرفات الكيفية وتقنع بكون معتنقى الدين الجدد من الامراء قد تخلوا عن تعدد الزوجات وعن حرية الطلاق . يقال ان بعض الامراء ابدوا رغبتهم فى اعتناق المسيحية الارثوذكسية ، ولكن صرامة قواعد الكنيسة اليونانية والتقيد الراسخ بالقوانين المسكونية حول الزواج كانا العقبة الوحيدة .

كان اعتناق الامراء للمسيحية ينطوى بالنسبة الى سورية على آثار سياسية هامة كان لا يزال يصعب تعيين حدودها . ان قبيلة الموارنة التى كانت حتى ذلك الحين فى اذلال مطلق لم تنل فى ظل ارستقراطيتها الجديدة تفوقا سياسيا على كل القبائل الاخرى فى سورية باستثناء المسلمين فحسب ، بل جذبت اليها ايضا مساهمة الغرب المزعجة واصبحت قريبة الى اوربا بعواطفها . وصار الرأى العام فى اوربا يعين للموارنة استقلالا يبدو محيرا جدا لكل من يراقب القبائل الشرقية بتجرد . ومهما كان الامر ، فقد دشن اعتناق الامراء للمسيحية عهدا جديدا فى حياة الموارنة السياسية . ومع اعتناق الامراء للمسيحية كانت دائرة عمل رجال الدين الكاثوليك فى لبنان تتسع كثيرا ووسائل نشاطهم تتعدد وتقوى ، ولكن اخذت تطل فى ظل هذا الانعطاف السياسى سمات الصراع الذى غمر لبنان فى ايامنا باللهيب والدم مرتين ،

---

* سبق ولاحظنا الصرامة التى يحافظ بها الاعيان اللبنانيون على اصالتهم (حسب تعبير العرب ومفاهيمهم) ، مبتعدين عن مصاهرة الناس ذوى المرتبة الادنى . وحتى الاسماء موزعة بين الاعيان والطبقة الدنيا . ان الامير او الشيخ لا يطلقان على ابنهما ابدا اسم جرجى او حنا او خبيب او بطرس او غيرها من الاسماء الشائعة بين الناس . وتطلق على الاعيان اسماء خليل ومنصور وبشير ويوسف ويونس وقيس وحيدر وملحم وغيرها من الاسماء الموجودة بين الناس ايضا . وبالمناسبة ، نشير هنا فى صدد الاسماء الى ان مسيحيى سورية من كل الطوائف يحملون اسماء اعتدنا على اعتبارها اسلامية ، وهى غير موجودة فى التقاويم ، مثل عبدالله وسليم واسد وامين وغيرها .

ولم يكن تحت رايتي حزبين ارستقراطيين متعارضين ، بل كان صراعا شعبيا بين قبائل من مختلف المعتقدات الدينية .

من الناحية الدينية لا يزال اعتناق الامراء للمسيحية غير راسخ الى الآن رغم غيرة المتعمدين الجدد ، وغيرة زوجاتهم واولادهم بشكل خاص ، او ، بالاحرى ، رغم نفاقهم . فبعد عزل الامير بشير وبعد ابعاده واسرته الى القسطنطينية وآسيا الصغرى ، اصبح كل اولاده واحفاده تقريبا ، حتى اولئك الذين ولدوا فى احضان المسيحية ، مسلمين من جديد فى عامى ١٨٤٥ و١٨٤٦ .

تابع شهابيو جبال لبنان الشرقية علاقاتهم بفرع عائلتهم فى لبنان رغم تخليه عن الاسلام ، وبقوا يعترفون بتفوق امير لبنان عليهم وحتى بحمايته لهم ، ولم يتوقفوا ، وهم الامناء على تقاليدهم العائلية ، عن تلطيخ ايديهم فى خضم الدسائس العائلية بدماء الاشقاء تارة والآباء تارة اخرى . وفى جبل لبنان نفسه قتل احد المتعمدين الجدد من الشهابيين ، وهو الامير حسن ، اباه وعمه ، وسمل الامير بشير نفسه عيون بعض اقربائه .

على امتداد ١٥ سنة من حكم سليمان باشا وطد الامير سلطته فى جبل لبنان ووفر الى جانب ذلك السلام والاطمئنان للقبائل الجبلية . ان الشعب الذى يعزو عادة مصائبه ورخاءه على حد سواء الى اقرب مسببيها ، اعتاد ان يرى فى الامير منقذا له من الآلام الطويلة التى عاناها فى العهد السابق ، اما نفوذ الامير ، والتكريم الذى احاطه به الباشا ، والثروات التى كدسها فى فترة سلام دامت امدا طويلا بشكل غير مألوف ، وتلك النقمة الرهيبة التى كانت تحل بكلمة منه على اسر بكاملها لاتباعه الاقوياء ، ومظهره الرصين الصارم وفطنته السريعة كانت كلها توحى الى الشعب بارفع فكرة عن عبقرية الامير بشير . والذكرى الحية لهذه الانطباعات خلقت فى ايامنا قناعة باستحالة توطيد الحكم فى جبل لبنان بدون الامير المسن بشير . ولقيت هذه القناعة انصارا اقوياء فى اوربا نفسها . لقد فات المطنبين فى مدح الامير هذا الظرف : لابد ، مع الاقرار بقدراته الادارية ، من ملاحظة ان فترتى حكمه السلميتين — من عام ١٨٠٤ الى عام ١٨١٩ ومن عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٠ — اقترنتا بعهد سليمان باشا فى عكا وبالحكم المصرى .

لقد رأينا مدى الاضطرابات التى اتسم بها حكم الامير بشير فى جبل لبنان فى عهد الجزار ، والامر نفسه يتكرر فى عهد خلف سليمان باشا . وبالتالى ، يحق لنا ان نعتبر الباشوات مسؤولين ، اكثر من الامير ، عن الخير والشر اللذين حلا بجبال لبنان على يد الامير اللبنانى فى مختلف فترات حكمه الذى استمر ٥٠ سنة .

الفصل الخامس

الصيرفى اليهودى يسلم عبد الله باشالك عكا . — طبع الباشا الشاب . — اعدام الصيرفى . — اضطرابات فى جبل لبنان . اعتداء عبد الله على باشالك دمشق وعلى القدس . — ابتزاز دير القبر المقدس . — كفارات من الحجاج . — حملتان على عكا . — فرار امير لبنان . — وساطة محمد على . — نقمة الجنبلاطيين والارسلانيين فى جبل لبنان . — حملة عبدالله على نابلس . — الشمبانيا والطلاق . — الحالة الداخلية للامبراطورية العثمانية بعد الحرب ضد روسيا ومأثرة محمود المدنية ومصيره وشعوره ازاء باشا مصر . — مآرب محمد على تجاه سورية . — خلافه مع عبد الله . — حملة ابراهيم . — حسابات الباب العالى العثمانى . — حصار عكا . — نجاحات المصريين فى سورية . — التسامح الدينى . — قضايا كنيسة القيامة . — حملة الاتراك الاولى على المصريين . — بيان السلطان . — استيلاء ابراهيم على عكا . — الصفة المميزة للتمرد الشرقى .

بلغ سليمان باشا من العمر عتيا . لقد اتاه الباشالك وكأنما ورثة عن سلفه وسيده الجزار باشا . هذا المثال بعث في مقربيه آمالا طموحة . وعلى غرار الاتباع الكبار للباب العالى ، كان يحيط بسليمان مماليكه الذين يختار منهم احبته واعيانه . وكما فعل الجزار ، التمس من الباب العالى لقب باشا بينجقين لمملوكه المحبوب علي الذى كان رئيس اركانه . وقد مات على هذا ، مخلفا لابنه عبدالله بيه ود سليمان . حينما اقتربت منية سليمان ، شكل عبدالله الشاب حزبا بين المماليك لكى يحكم الباشالك ، ولتحقيق هذا الهدف على نحو مضمون عقد حلفا مع الصيرفى حاييم ، الذى ورثه سليمان

باشا عن الجزار بعين واحدة واذن مقطوعة وانف مجدوع ، وبهذا المظهر تابع ادارة الشؤون المالية بموهبة نادرة ، بدون اضطهاد او ابتزاز قسرى ، متكيفا مع ميول سيده الجديد وقانعا باحتكار المنتجات الذى اغنى خزينة الباشا وجيب اليهودى المقتصد على حد سواء . فى حالة تعيين مبعوثين لحجز خزينة سليمان لم يكن عليه ان يدفع للضيوف القادمين من العاصمة اذنه وعينه الباقيتين ، وانما ما هو اسوأ ، اى كنوزه . ولهذا اخذ يساعد الطامع الشاب بحمية دون ان يدرى بالمصير الذى اعده له هذا الطامع . شغل اليهودى النوابض التى يعرفها فى العاصمة ، وبعد بضعة اشهر من موت سليمان * ما لبث ان اتى من القسطنطينية تعيين عبدالله بيه باشا على عكا بثلاثة بناجق .

فى ذلك العهد كان نصف الباشالكات من نصيب المغتصبين المتهورين ، والنصف الآخر اشتراه فى العاصمة صيارفة من الارمن واليهود فى مصلحة الراغبين الذين كانوا بدورهم يتعهدون بان يدفعوا للصيارفة من عرق السكان ودمهم . وبفضل تحولات النظامين الحكومى والمالى ، وربما بفضل تعب القبيلة التركية ، تلاشت فى تركيا تلك الطبقة الجريئة من الافاقين الذين كانوا يستطيعون قديما احتلال المناطق بقوة السيف ، ولكن الوسيلة الاخرى ، المالية ، حافظت مع ذلك على جبروتها ، رغم تبدل شكلها .

كان عبدالله الشاب ، فى انتظار فرمان السلطان الذى وعده به حاييم ، يمضى الليل والنهار بالصلاة والتمارين الروحية مع الدراويش ليعوض فى اعين الشعب المؤمن باساليب التظاهر بالتقوى من النقص فى السن واللحية والمقام الذى يليق بمطامعه . وحينما حقق هدفه ، ما لبث خلق هذا المحظوظ ان تكشف . هذا الشاب النحيل والشاحب ، ذو الخيال المتوقد والاعصاب النزقة والبصر الحاد والصوت الابح والوجه الاسمر المجدور والطبع المندفع الذى ينعكس فيه اصله المزدوج ، من اب شركسى رقيق وام عربية ، لم يقتد فى الحكم بسليمان الذى احسن اليه ، بل بالجزار الفظيع . كان عبدالله مدينا بباشلك سليمان وكنوزه للصيرفى حاييم الذى لم يفطن مع كل حذاقته وخبرته الى ان خدمات كهذه تقترن فى تركيا بخطر كبير . بقى عبدالله باشا سنتين او ثلاث يسترشد بمواهب صيرفيه لتكديس الدخول لا من المنتجات فحسب ، بل حتى من بيعها قسرا باسعار معينة ، ثم غضب عليه لان اقرباءه يعملون عند باشا دمشق الذى يمقته ، فامر بخنق اليهودى الشيخ ونقل ملايينه الى خزينته .

كان عبدالله باشا فى عهد سليمان على صلة ودية بامير لبنان ، وكان يبادله الهدايا حسب العادة العربية . وحينما طلب الامير تثبيته من الباشا

---

* مات سليمان باشا فى عام ١٨١٨ . — المحرر .

الجديد ، امر بتقديم مبلغ كبير هدية علاوة على الاتاوة العادية . انطلق الامير فى حملة لجمع غرامات من الجبليين ليقتسمها مع الباشا . وقد تمردت المناطق المسيحية الشمالية : كسروان وجبيل وجبة بشرى . وهاجم الوف القرويين المسلحين الامير * فى معسكره الواقع قرب جبيل ، وتحطمت الميليشيا التابعة له ، وبقى معه ما لايتجاوز ٣٠٠ شخص من الخدم ، وسقط اغلبهم ضحية لسخط الشعب . دافع الامير بشير عن نفسه بضراوة ، ولو لم ينجده الشيخ بشير جنبلاط ، حليفه القديم والحميم ، بثلاثة آلاف نفر من دروزه لقضى عليه بالموت لا محالة . وتحطم القرويون عن بكرة ابيهم . اندفع الامير مع الشيخ بسرعة الى مرتفعات لبنان الشمالية التى كان يشتبه فى طاعة سكانها دائما ، واخمدا التمرد بسيل من الدماء واعدما كل من كان نفوذه او ثرواته تثير الشبهه ؛ ولم يرحما حتى رجال الدين وعادا مظفرين غانمين الى دير القمر . هذه الحملة ، التى رمزت الى ايام عبدالله الاولى فى جبل لبنان ، اثارت التذمر لدى الجبليين ورسخت سلطة الامير بشير .

لم يستطع عبدالله البقاء هادئا . كان باشالك يشغل افضل واغنى جزء من سورية . ومع ان الباب العالى ابقى دمشق امدا قصيرا لسليمان باشا مكافأة له على الاطاحة بالمتمرد كنج يوسف ، فان باشالك طرابلس ، الممتد شمالا الى خليج اسكندرون ، وفلسطين حتى الحدود المصرية ، اى باختصار كل الساحل الذى تتركز فيه زراعة سورية وصناعتها ، مع جبال نابلس والجليل ، قد ضمت منذ ذلك الحين الى ممتلكات باشا عكا .

كان عبدالله يطمع فى دمشق والقدس ، التى ابقيت تحت ادارة باشا دمشق احتراما لمسجد عمر ، احد المقدسات الاسلامية ، ولكن لم يكن مسجد عمر هو الذى يغرى عبدالله ، بل المقدسات المسيحية التى كانت منجم ذهب بالنسبة الى الباشوات الاتراك . فقد جبى باشا دمشق من دير يونانى واحد

---

* جرت هذه الاحداث فى عام ١٨٢٠ . وكانت اول انتفاضة فلاحية مناهضة للاقطاعية فى سورية فى القرن التاسع عشر تتحدث عنها المصادر التاريخية . ولا يصف بازيلى سوى المرحلة الختامية من الانتفاضة . وقد سبقتها الاحداث التالية . بعد ان طالب عبدالله باشا بدفع مبالغ جديدة ، مرفقا ذلك بارسال فصائل مسلحة الى سفوح جبال لبنان ، وجه الامير بشير جباة الضرائب الى شمال لبنان . رفض فلاحو مقطع المتن وكسروان دفع اية ضرائب اضافية . وجوبه جباة الضرائب بمقاومة مسلحة .

ولما لم يلق الامير بشير دعما من جانب عبدالله باشا وعدد من الاقطاعيين المعادين له اضطر الى مغادرة لبنان . وكذلك لم يستطع قريبا بشير اللذان عينا محله جمع الاتاوات التى ينبغى دفعها الى عبد الله . عندئذ اعاد الباشا الامير بشير . فى هذه المرة اتحدت حول الامير بشير كل الجماعات الاقطاعية فى لبنان التى ارعبتها الحركة . وانطلق الامير بشير بنفسه فى حملة لجمع الغرامات من شمال لبنان والاحداث اللاحقة يعرضها بازيلى . **المحرر** .

الف كيس (قرابة ١٢٠ الف روبل فضة فى السنة لقاء حق امتلاك الاماكن المقدسة) .

فى عام ١٨٠٨ احترقت كنيسة القيامة القديمة ، جددها رجال الدين من تبرعات الشعب . ومنذ ذلك الحين ازداد عدد الحجاج ، فصار الباشوات يجبون من الحجاج ، علاوة على الضرائب من الدير ، ما يسمى بالكفارة . هذه الكفارة ، او الضريبة على الاشخاص والممتلكات لدى عبور اماكن معينة ، وضعت فى تركيا اول الامر بحجة حماية المسافرين والتجار فى الاماكن الخطرة . وكان يجبى كذلك على شكل كفارة مبلغ صغير من الحجاج ، بامر من الفاتح صلاح الدين ، لدى دخولهم الكنيسة . كانت الكفارة تزداد فى كل سنة ، وكان ينبغى دفع مبالغ معينة عند انزال الحجاج من السفينة فى يافا ، وعند المرور فى الرملة ، وفى شعب جبال اليهودية ، وحينما يذهبون الى الكنيسة للصلاة ، وعند التوجه الى الاردن وغير ذلك . فى ذلك الحين كان فى وسع عبدالله الذى يحسب لكل شىء حسابه ان يتنبأ نتيجة للحرب الشعبية اليونانية * بان كنوز هذه الكنيسة فى القدس لن تنقذها من جشع الباشوات وثيقة الخليفة عمر بن الخطاب المكتوبة بخط يده ، والتى تقوم عليها كل الامتيازات الاساسية للاديرة ، ولا تسهيلات السلطان ، ولا الخطى شريف . ومنح باشا دمشق ، علاوة على امتلاك القدس ، من قيادة الحجاج الى مكة سنويا . كان هذا خطرا جدا فى عهد الوهابيين ، ولكن قبل ذلك بعدة سنوات قضت يد محمد على المصرى الجبارة على الوهابيين ومهدت للحجاج الطريق الى مكة .

---

* المقصود الانتفاضة الوطنية-التحررية للشعب اليونانى ضد النير التركى التى بدأت بتحرك فصيلة الوطنيين اليونانيين بقيادة الامير ايبسيلانتيس من جنوب روسيا الى اليونان عبر فلاشيا ، وبالانتفاضة فى موره .

لم تكن حكومة السلطان قادرة على قمع الانتفاضة بقواها ، فطلبت المساعدة من باشا مصر محمد على مع وعد بمكافأته بسورية وكريت . فى عامى ١٨٢٤-١٨٢٧ تسنى للقوات والاسطول المصرية تحت قيادة ابراهيم بن محمد على تحطيم قرى المنتفضين الاساسية . واذ خشيت انكلترا وفرنسا ازدياد نفوذ روسيا التى ساندت المنتفضين فى عام ١٨٢٦ ، اتخذت معها جملة من الخطوات الدبلوماسية (بروتوكول بطرسبورغ بين انكلترا وروسيا فى عام ١٨٢٦ والاتفاقية الانكليزية - الفرنسية - الروسية بتاريخ ٦ تموز/يوليو عام ١٨٢٧ فى لندن طالبا تركيا بمنح الحكم الذاتى لليونان) . وفى تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٢٧ حطمت عمارة انكليزية-فرنسية-روسية فى خليج نافارين الاسطول المصرى-التركى واضطر ابراهيم الى مغادرة اليونان . وفى عام ١٨٢٨ اعلنت روسيا الحرب على تركيا التى انتهت بهزيمة كاملة للجيش التركى وبعقد معاهدة الصلح فى ادرنة (أدريانوبوليس) عام ١٨٢٩ ، وبناء عليها اعترف لليونان بحقها فى الحكم الذاتى . ولم تعد ملزمة ازاء تركيا الا بدفع ١,٥ مليون قرش فى السنة للسلطان ؛ وفى عام ١٨٣٠ اعلنت اليونان مستقلة بناء على بروتوكول لندن . - **المحرر** .

لكل هذه الاعتبارات كان عبدالله يبحث عن مجرد ذريعة للخلاف مع جاره الدمشقى لكى يستولى على منطقته . لقد تمكن درويش باشا ، الذى عينه الباب العالى على دمشق فى ذلك الوقت والذى كان وزيرا اعظم فى عهد محمود ، من ان يتغلغل فى نظام السلطان الذى اراد ان يكبح قبل كل شىء تعصب شعبه من اجل نجاح التحولات التى كان ينوى القيام بها . كان درويش باشا ، المولود فى موره ، يعرف بتجربته ان اعمال الاضطهاد التى تتعرض لها القبائل التابعة تشكل مصدرا لاشد الشرور بالنسبة الى الامبراطورية ، حيث تثير روح الشغب فى القبيلة الحاكمة . كان يحب المسيحيين ويقدم اليهم كل حماية ممكنة ويحيط سيرافيم بطريرك انطاكية المسن بالاحترام والعطف .

حينما وصل الى دمشق نبأ انتفاضة اليونانيين ، كان الغوغاء المتعصبون فى هذه المدينة مستعدين لكل الفظائع ضد السكان المسيحيين الهلعين ، واقترح القاضى والمفتى واعضاء المجلس الآخرون على الباشا استغلال الظروف لشنق البطريرك ، اقتداء بالعاصمة * ، واخذ غرامة من المسيحيين .

رفض درويش باشا هذا الاقتراح وصد الغوغاء بصرامة سديدة . وقد استاء الغوغاء والاشخاص الموقرون على حد سواء . وكان عبدالله باشا من جهته متعصبا الى درجة السعار ، فطرد المسيحيين وسجن الاساقفة والقساوسة فى كل مدن باشالكه وطلب غرامات مفرطة اضطر المسيحيون لدفعها حتى الى تحويل الفضة الكنسية الى سبائك . وقرب عكا ، فى الكرمل ، كان يقع ديران قديمان ، يونانى ولاتينى . وقد نهبهما عبد الله ودمرهما بحجة ان المسيحيين ينوون تحويلهما الى قلعتين * * .

بهذه الاجراءات اغتنت خزينة عبدالله ، اما شهرته فجذبت اليه غوغاء دمشق . عندئذ ابرز فرمانا مزيفا بمنحه باشالك دمشق ، وامر امير لبنان بالانطلاق الى دمشق على امل اثارة السكان ضد الباشا . انحدر الامير من الجبال مع ميليشيا من ١٠ آلاف مسيحى ودرزى وهاجم هذه المدينة التى لها قدسيتها

* فى ربيع عام ١٨٢١ حينما وصل خبر انتفاضة اليكسندر ايبسيلانتيس ، اتهمت السلطات التركية السكان ورجال الدين الارثوذكس فى القسطنطينية بالتعاطف مع الحركة التحررية اليونانية . وقد شنقت السلطات التركية بطريرك القسطنطينية واثارت مذابح بين المسيحيين . — **المحرر** .

* * لا يستبعد ان اتهام المسيحيين السوريين بنية تحويل الديرين الى قلعتين واستخدامهما فى النضال ضد الاتراك كان له ما يبرره . فى خلال الانتفاضة اليونانية تعرض تجار مسيحيون متنفذون من دمشق للتنكيل بسبب صلاتهم بالمنتفضين اليونانيين ، وفى عام ١٨٢٦ وجهت تهم مماثلة الى مسيحيى بيروت بعد ان اقتربت ثلاث عشرة سفينة يونانية من بيروت وقامت بانزال لاثارة انتفاضة بين سكان المدينة . يمكن افتراض ان الانتفاضة المناهضة للاتراك التى نشبت فى بيت لحم عام ١٨٢٣ ثم انتقلت الى القدس قد ظهرت تحت تأثير الحرب التحررية فى اليونان . — **المحرر** .

عند المسلمين على امل احراز نجاح سهل * . ولم تكـــن توجد قوات هناك ، لان درويش باشا ، اذ اشتبه بان عبدالله نفسه سينقض عليه من عكا ، احتل الحدود بجيشه . فاجأه هجوم الامير ، وكان السكان يميلون الى تولية عبدالله . احتمى درويش باشا مع حريمه وعدد من الالبانيين فى قلعة دمشق الرديئة الواقعة وسط الاسواق؛ والبيديستانات * * ، وهدد بان يدمر بالمدافع هذا الحى الغنى اذا لم يذد السكان عن مدينتهم . هذا التهديد الحاسم ارغم السكان على حماية مدينتهم من الجبليين .. وفى غضون ذلك وصل الجيش . هرب الامير ، تاركا حتى امتعته والقدور التى وضع فيها طعاما مسموما .

اثار خبر تصرفات عبدالله سخط السلطان الذى كان يقمع فى ذلك الحين تمرد على باشا اليانينى ، والذى كانت تقلقه انتفاضة اليونانيين على نهـــر الدانوب وفى موره . كان السلطان محمود يحب عبدالله لموهبته الشعرية . ولقصائده العربية الرقيقة التى كان التابع الشاب يتملق بها شغف اميـــــر المؤمنين بالشعر ، ولموهبة اخرى تتمتع فى الشرق بالتقدير الرفيع نفسه ، لخطه الجميل الذى قدم عبدالله نموذجا منه ، نسخة من القرآن بخط يده ، الى السلطان ، افضل خطاط فى امبراطوريته . كان يصعب على السلطان ان يصدق نبأ تمرد الباشا الشاعر والخطاط ، ربيب ومحبوب سليمان الوقور . وكلف درويش باشا الدمشقى مع باشا حلب وباشا اضنة بمعاقبة الشـــاب الوقح . بقى عبدالله داخل اسواره المنيعة فى وجـــه ميليشيات الباشوات ومدفعيتهم الرديئة عدة اشهر على التوالى يسخر منهم ويتزود من البحر بكـــل ما يحتاج اليه . ولكنه خشى ظهور اسطول السلطـــان ، ولهذا دخـــل فـــى مفاوضات مع الباب العالى وطلب العفو ووعد بدفع كل مصاريف الحملة التـــى جهزت ضده .

لم يكن فى وسع الباب العالى ان يكون صارما جدا فى قضية مألوفة كتمرد تابع بعيد . انسحب الجيش المحاصر ورفعت النقمة عن الباشا المذنب ، ولكن لم تمض سنة حتى اخذ عبدالله يشق عصا الطاعة من جديـــد ، اذ رأى ان الحرب ضد اليونانيين تلتهم كل جهود الديوان . بعـــث الى العاصمـــة الاتاوة السنوية عن الباشالك وارسل اضافة اليها قطاع طرق يعملون فى خدمته ، فهاجموا رجاله انفسهم ، الذين يحملون الخزينة ، وقتلوهم واعادوا الى الباشا اكياسه المليئة بالذهب . اخذ عبدالله ، وكأنه لم يساهم فى شىء ، يشكو باشا دمشق ، مؤكدا ان قطاع الطرق الذين نهبوا الخزينة كانوا من منطقته ، ولكن انكشفت الخدعة ، فجهز الباب العالى حملة ثانية الى عكا .

---

* فى عام ١٨٢١ . — **المحرر** .

* * البيديستان — بناية حجرية فى السوق تقع فيها دكاكين ومشاغل الصاغـــة وصناع الاسلحة وغيرهم من الحرفيين . — **المحرر** .

قام درويش باشا الدمشقى مع ستة باشوات آخرين وجيش قوامه ٥٠ الف نفر بمحاصرة وكر عبدالله المنيع مرة اخرى . فى ذلك الحين اتصل المتمرد بالقراصنة اليونانيين وارسل نصف مليون قرش الى اليونان ليرسلوا اليه من هناك جنودا وذخيرة حربية ، ولم يعد يخشى ظهور اسطول السلطان الذى ارعبته الخراقات اليونانية . طال الحصار بلا جدوى . وكان الباب العالى يخشى اكثر ما يخشى ان يسلم الباشا الغادر قلعته لليونانيين .

فى هذه الظروف الحرجة عرض محمد على المصرى وساطته . ان محمد على ، وقد وطد حكمه فى مصر واستخرج من باطن ارض هذه البلاد الغنية عناصر لم يعهد لها نظير من قبل للقوة والمشاريع الجبارة ، كان فى ذلك الوقت ينظر بشره ، على غرار سلفه على بيك ، الى سورية وينتظر مجرد فرصة ليضع يده على هذه الفريسة السهلة المنال التى انهكتها فتن الباشوات . طلب فى البداية من الباب العالى باشالك دمشق ، متعهدا باخضاع باشا عكا وكل المغتصبين الجوامح الذين كانوا يظهرون على التوالى فى سورية . ولكن الباب العالى ، الذى اعترف كارها بمحمد على باشا على مصر ، فضل التعامل مع مغتصبين صغار على التعامل مع تابع شع نجمه شهابا رهيبا فوق النيل .

حينما جوبهت مطامع محمد علي بالرفض ، اقتصر على الالتماس لجاره المنقوم عليه . كان يعرف جيدا الخلق المتقلب لعبدالله . لم يكن يستطيع ان يحلم بحاكم افضل لسورية من اجل انجاز مخططاته المقبلة . فى ذلك الحين فر الى مصر امير لبنان الذى حلت عليه النقمة مع عبدالله * . واستقبل استقبالا حسنا من محمد علي الذى استطاع ان يقدر مواهبه ونفوذه فى الجبال ويتنبأ بانه مع الزمن يستطيع بعقله ، كما يستطيع عبدالله بجنونه ، المساعدة على تنفيذ مخططاته فى سورية .

نال باشا عكا وامير لبنان عفو الباب العالى بالتماس من محمد علي ، وبهذا انتهت حملة الباب العالى العقيمة الثانية على عكا . وحتى ان محمدا عليا عرض خزينته على باشا عكا لدفع المبالغ التى طلبها الباب العالى ، مخفيا نياته خلف قناع الغيرة على الباب العالى والعطف على جاره . كان طبع عبدالله المتغطرس والمتهاون كفيلا بألا يرد هذا الدين ، وهذا ما اراده باشا مصر لكى ينتهز فى الوقت المناسب حجة مشروعه للتدخل فى شؤون سورية . ورجع الامير من مصر يرافقه الشعور بالاخلاص لمحمد علي والاعجاب بعبقريته والتقدير الرفيع لجبروته . لعلهما اتفقا حينذاك على عقد المؤامرة التى نضجت على امتداد عشر سنوات وساعدت عليها الظروف .

كانت ثمة قاعدة فى النظام السياسي للامير ، وهى ان يوجه بعد كل ازمة ضربة جديدة الى اعدائه ليركز السلطة فى يديه بالتدريج ، وكان كل الذين

---

* فى تموز (يوليو) عام ١٨٢٢ . — **المحرر** .

لهم نفوذ فى الجبال اعداءه وفق قوانين مركزيته الاستبدادية . لقد رأينا كيف قتل غدرا بمساعدة الجنبلاطيين جرجس بازا الذى قدم اليه خدمات كبيرة . والآن حل دور الشيخ بشير جنبلاط الذى يمكن القول ان الامير مدين له بكل شيء .

لقد تمكن اسلاف الامير منذ زمن بعيد شق الدروز الى حزبى اليزبكيين والجنبلاطيين ليسهل لجم هؤلاء واولئك فى خضم صراعهما المتبادل . وبالتحالف مع الشيخ بشير ، رئيس الجنبلاطيين ، اباد الامير آل ابى نكد والعماديين من حزب اليزبكيين ، ثم مد يد المساعدة الى اعداء الشيخ القوى لمعاقبته بلا رحمة . وكانت الحجة لاعلان القطيعة ان الشيخ بشيرا ، بعد هرب الامير الى مصر ، اذ رغب بدافع من شعوره الوطنى فى حماية الجبال من التدخل المباشر للباشوات وجنودهم ودرء الخلافات والفتن بين الطامعين فى الامارة ، دعم بكل نفوذه احد اقرباء الامير بشير ، واسمه عباس ، والتمس تعيينه ، مقدما ابنه الى الاتراك رهينة . بعد عودة الامير خضع له الجميع بطيبة خاطر . وكان من حق الشيخ ان ينتظر الامتنان من حليفه لان السلام لم ينتهك فى الجبال بسبب نفوذه ، ولكن هذا النفوذ الذى استطاع ان يعين بسهولة حاكما جديدا فى غيابه ، لم يكن مما يسر الامير بشير . فرض على الشيخ غرامة طائلة (١٥٠٠ كيس) ثم اخذ يهين كبرياءه ، محيطا نفسه باليزبكيين . واذ خمن الشيخ النيات السوداء للامير الحاقد ، ابتعد الى حلفائه المسلمين فى عكار . رفع حزبه واقطاعاته الشاسعة والسكان المسيحيون المرتبطون بعائلته منذ القدم راية التمرد ودعوه اليهم للاطاحة بالامير الجاحد .

سلح الامير من جهته اليزبكيين واستدعى جيش عبدالله الى الجبال وحطم الجنبلاطيين وحول قصرهم الرائع فى المختارة الى كومة من الانقاض . فر الشيخ بشير الى ابناء قبيلته الدروز فى حوران . فى الطريق ادركه رجال باشا دمشق واخذوه الى دمشق خدعة . ومن هناك نقل الى عكا ، الى عبدالله الذى اشفق عليه واراد مصالحته مع الامير . ولكن محمدا عليا المصرى بالتماس من الامير طلب باصرار اعدامه . وخنق الشيخ فى السجن . وقد نفى اولاده ، وانعم باقطاعات الجنبلاطيين الشاسعة على ابناء الامير ، وصودرت ممتلكاتهم . وكذلك ، شاطرتهم قسمتهم عائلة امراء ارسلان ، انصار الجنبلاطيين . ومزق جلادو الامير بشير ام الامراء ، التى اكتسبت بذكائها نفوذا فى الجبال لا يتفق والحقوق الاجتماعية للمرأة فى آسيا ، وفر ابناؤها ، وبقوا عشرين سنة فى المنفى .

فى ايامنا عاد كل هؤلاء الطريدين من الارسلانيين والجنبلاطيين والعماديين والنكديين الى لبنان عقب سقوط الامير بشير لينتقموا من خلفه وكل عائلة الشهابيين على جريمة الاضطهادات التى عانوها وليشعلوا فى كل المنطقة حربا بدت من بعيد لاوربا مؤامرة من الدروز والمسلمين ضد دين المسيحيين او

نزاعا بين المسيحيين والدروز على السيطرة السياسية فى جبل لبنان .
فى خلال النقمة على الجنبلاطيين والارسلانيين اعمى الامير كذلك بعض اقربائه وقطع السنتهم حسب العادة العائلية القديمة لاسرة الشهابيين ، حينما يظهر فى العائلة اناس ذوو مواهب وكبرياء . بعد هذه الازمة حكم الامير جبل لبنان بلا عائق وتزلف لتقلبات الباشوات ، ولكن دون خوف من الانتفاضة الشعبية او المنافسين .

انتزع باشالك طرابلس من عبدالله بعد اعتدائه الوقح على دمشق . وعلى غرار عكا ، انتقلت قلعة طرابلس فى ذلك الوقت من يد مغتصب الى آخر ، وانتقلت معها المنطقة باسرها . بعد مصطفى بربر اصبحت هذه القلعة من نصيب على بيه العكارى ، تابع عبدالله . وبالتماس من درويش باشا الدمشقى احاط الديوان هذا المغتصب بالعناية والتكريم وعينه باشا على آسيا الصغرى وعندئذ فقط تخلى عن ممتلكاته لوالى الباب العالى . لم يكن باشا دمشق وباشا طرابلس منذ القدم يدفعان اتاوة الى السلطان ، بل كان يفرض عليهما فقط ان يرافق الاول القافلة الى مكة وان يقدم الثانى الزاد الى الحجاج فى طريق عودتهم . اما عكا فيمكن القول انها كانت فى تمرد مستمر منذ زمن ضاهر .

وهكذا ، فان كل هذه المنطقة منذ لحظة استيلاء سليم عليها فى زمن ازدهار الامبراطورية العثمانية وحتى ايامنا ، حيث استؤنف هذا الاستيلاء فى خلال وهن تركيا وفى خلال احرج الظروف ، كل هذه المنطقة الرائعة ، التى اغدقت عليها الطبيعة خيراتها بسخاء ، بساحلها الرحب ، بموقعها المؤاتى للتجارة ، بسكانها النشاطى ، بصناعتها العريقة ، لم تقدم يوما الى السلاطين دخولا ولا جيوشا ، بل كانت بالاحرى عبئا عليهم باضطراباتها الدائمة وبنظام ادارتها الفاسد .

بعث الهدوء الملل فى نفس عبدالله . واذ كان يخاف اثارة خلافات جديدة مع الباشوات الآخرين ، استغل الحق الممنوح لكل باشا فى ان يخوض الحرب ضد السكان الموضوعين تحت امرته . كان عند النابلسيين فى جبالهم حصن سانور القوى الذى صمد فى وجه الجزار حينما اعدم الجبليين ، والذى حاصره سليمان باشا بلا جدوى . ارسل عبدالله الى هناك جيشا يربو تعداده على ٢٠ الف نفر وطوق سانور من كل الجهات وارغم الحامية على الاستسلام نتيجة للجوع * . وقد تغنى بهذه المأثرة فى اشعار عربية ووضع نفسه الى جانب اعظم القادة العسكريين فى العصور القديمة والحديثة .

فى ذلك الوقت شكل محمد على جيوشه النظامية . ان عبدالله ، الذى لم يكن يعتبر نفسه اقل شأنا من جاره العبقرى ، فكر ايضا فى تشكيل جيش

* فى عام ١٨٢٩ . — **المحرر** .

نظامی . انتشرت حينذاك فی الشرق موضة السير علی ايقاع الطبول ، فجذبت الی بلد المغامرات الكلاسيكی الضباط المتقاعدين فـی الدول الغربية او الفارين لذنوب سياسية بعد الحمی الثورية التی اجتاحت شبه جزيرة البيرينة وشبه جزيرة الابينين فی العشرينات . ومن بينهم ضابط خدم فی سردينيا ، وهو السيد بوزيو الذی ساهم تحت راية نابليون فی الحملة علی روسيـا ، والذی حطت به الاقدار فی عكا حينذاك . وضعه الباشا فی خدمته بصفـة طبيب (كانت البرنيطة علی الرأس تعتبر فی الشرق حينذاك بمثابة دبلـوم طبی) ، واذ عرف بحملاته ومغامراته عرض عليه تشكيل كتيبة نظامية مـن مماليكه .

ان اصلاح النظام العسكری فی مصر والقسطنطينية قد مارسه باصرار مصلحان تمكنا من اسباغ مظهر جديد علی الصرح السياسی للشرق . وفی عكا كان تسلية للباشا المدلل الذی كان يراقب من ديوانـه تطور المماليـك بابتسامة ، كما يراقب رقصات الجواری بين حريمه . وبالمناسبة ، لما كان السيد بوزيو طبيبا للباشا علاوة علی مواهبه العسكرية ، فقد اسعده الحظ بان يشفی الباشا بالشمبانيا من الورع المنافق ومن نوبات التعصب ، بعـد ان كان فی السنوات الاولی من حكمه يرفض حتی تدخين الغليون ويمضی نهاره وليله مع الدراويش .

فی الوقت الذی كان فيه عبدالله يشرب الشمبانيا بشغف وينظـر الی تفقد الجنود ، كان امير المؤمنين قد استنفد كل جهوده فی الحرب ضـد روسيا * . حلقت نسور الشمال من اوربا ومن آسيا الی العاصمة التركية ولكن لم تسمع سورية ولا مصر دعوة السلطان الی حماية الاسلام المنهك . تذرع باشا مصر للوقوف مكتوف اليدين بالحملة علی موره التی قام بها بامر من الباب العالی ، وبفقدان اسطوله الذی احرق فی نافارين بسبب عنـاد الاميرال التركی . وتذرع باشوات سورية بضرورة ابقاء قبائل هذه المنطقة المشاغبة فی حالة امتثال ، وكان علی الباب العالی ان يقنع بتأكيداتهم الفارغة حول اخلاصهم .

بعد عقد صلح ادرنة وجه السلطان محمود كل نشاطه نحو انجاز تحولاته بالتطبيق التدريجی للسطة الشرعية فی الولايات وبلجـم الاتباع المشاغبين الواحد اثر الآخر . كان يمكن التنبؤ بانه لن يلبث ان يستعيض عن باشوات الزمن القديم ذوی الصلاحيات المطلقة ، كما كان شأن حاكمی مصر وعكا ، بباشوات مخولين بسلطة محافظين محدودة . كان فساد الجيوش غير النظامية يشير قبل كل شیء الی ضرورة تغيير نظام الامبراطورية العسكری الوخيـم ؛

---

* المقصود الحرب الروسية-التركية فی عامی ١٨٢٨-١٨٢٩ التی انتهـت بمعاهدة الصلح فی ادرنة . — **المحرر** .

وما ان وطد النجاح سلطة السلطان في العاصمة وفي الحكومة ووفر له عناصر عمل طيعة حتى كان على هذه العناصر ان تستخدم للاستيلاء لا على بلدان جديدة او بعيدة ، بل على امبراطوريته نفسها التي اغتصبها الباشوات .

في هذا الخصوص يستحق محمود تماما لقب الفاتح الرنان الذي اتخذه لنفسه . ولا شك في ان الانتصارات التي احرزها على تعصب شعبه وعلى شغب هؤلاء الطغاة الذين مزقوا باسمه سكان المناطق ، محولين تلك الاقاليم التي باركتها الطبيعة الى قفر ومستنزفين في تمرداتهم وفي تهتكهم القوى الحيوية للامبراطورية ، كانت ارسخ وانبل من الفتوحات التي انجزها اسلافه بسرعة ، والتي لم تكن تتفق والقوة الاساسية للدولة التي جعلوها تمتد على نحو فاسد في ثلاث قارات . ان القدر نفسه دل السلطان على الطريق القويم لنشاطه وعلى رسالته السامية ؛ لقد كان سيئ الطالع دائما في الصراع ضد الاعداء الخارجيين والشعوب الخاضعة له التي فتح لها التطور الداخلي عصرا جديدا من الاصالة ، ولكن في ظل اخفاق جهوده ضد اليونانيين والصربيين ، وفي ظل صلح بخارست الشديد الوطأة ، حينما استطاعت روسيا في الصراع ضد اوربا باسرها ان تعقد الصلح بمهابة مع السلطان ، وتحت هزيم رعد نافارين ، وفي ظل اقتحام الجيوش الروسية لقلب الامبراطورية ، لم يتوقف محمود عن الانتصار على الاتباع وعلى شغب شعبه ، متطلعا دوما الى المأثرة العظيمة للسلطة المطلقة .

ان عبدالله باشا ، اذ قلد سلطانه على نحو غريب في تشكيل الجيش النظامي ، لم يدرك ابدا اهمية تحولات النظام الحكومي الجذرية التي يطبقها السلطان ولم يخطر على باله المصير الذي ينتظره وينتظر امثاله . ولكن باشا مصر لم يستطع ان ينظر بهدوء الى نظام محمود المتطور بالتدريج . وهل كان في وسع قاهر المماليك والانكليز والوهابيين ، فاتح سنار وكردفان والنوبة ودارفور ان يتعود فكرة الهبوط من علياء اللقب الرفيع للحاكم المطلق الصلاحية الى مصف وال بسيط للسلطان عندما يأتي دوره في عملية القضاء على اتباع الامبراطورية الاقوياء . الواحد اثر الآخر ؟ ان السلطان ، اذ سار بثبات على هدى فكرته العظيمة ، لم يمس باشا مصر بعد . لقد بذلت سابقا ، والحق يقال ، محاولات فاشلة ضده ؛ ولكن محمدا عليا كان في ذلك الحين يتمتع بعطف كبير ، وكان يداري على اساس القانون الجذري للسياسة الشرقية : «دار عدوك الى ان تحل لحظة قتله» . لقد انعم على محمد على بكاندي [كريت] مكافأة له على حملة موره . واصبح ابنه ابراهيم منذ ابادة الوهابيين باشا على جدة وحامي المدينتين المقدستين مكة والمدينة . ولكن كاندي وشبه جزيرة العرب كانا عبئا فخريا اكثر مما كانا ممتلكات ذات نفع . لقد سبق ونوهنا بمآرب محمد على في سورية . وآن الاوان اما لتنفيذ الخطط الموضوعة منذ امد بعيد والتي تتوقف عليها العظمة المقبلة لحاكم

مصر وتوطد الافضليات التى اكتسبها ، وامل انتظار ان تصل تدابير السلطان فى كل ارجاء الامبراطورية الى مصر من الحدود السورية .

كانت الظروف مواتية . فقد سادت الفوضى فى دمشق * ، اذ ان سليم ، باشا دمشق الجديد ، امر حال تسلم منصبه بجرد الدكاكين والمعامل لفرض اتاوة خفيفة على المدينة . تمردت الطبقة العاملة . كان عند الباشا جيش من الفى شخص تقريبا ، وعوضا عن ان يدخل الحلبة ويستدعى الجيوش من المناطق المجاورة ويخضع الغوغاء ، احتمى بالقلعة ولم يحسب حسابا لعدم توفر المؤونة الضرورية هناك . حرق الغوغاء القصر وحاصروا الباشا . واذ خشى سكان دمشق الموقرون النقمة الشعبية العامة او الفوضى ، انضموا الى الغوغاء وسيروا اعمالهم . كتبوا الى عبدالله يطلبون مشورته . ان باشا عكا ، المستعد دوما لتأجيج لهيب التمرد حوله ، اجابهم بايجاز انه يجب التخلص من الباشا قبل كل شيء . اراد سليم الدخول فى مفاوضات ، ولكنه لم يلق اذنا صاغية . وبعد ستة اسابيع من الحبس فى القلعة قام بهجمة متأخرة . وقد مزقه الغوغاء الحانقون ومزقوا كل حاشيته وكل اسرته وجروا اشلاء جسده من حى الى حى .

هكذا كانت الحالة فى باشالك دمشق . لم يستطع جبليو نابلس ان يغفروا لعبد الله تهديم حصنهم سانور وكان امير لبنان قد تعب من نزوات عبدالله ، وكان ينتظر الحماية من باشا مصر . وكان الشيوخ الفلسطينيون مستعدين دوما للانتفاضة تلبية لدعوة اى كان . وفى حلب كان حزب الانكشارية ، الذى قمعه جلال الدين باشا ، يتقد شوقا الى الانتقام . وكان المسيحيون فى كل سورية ، من القدس الى حلب ، قد اضنتهم الاضطهادات والابتزازات والاساءات الموجهة الى كل المعتقدات الدينية بسبب الحرب اليونانية ، اما التسامح الدينى ، الذى امر به محمود بعد صلح ادرنة فلم يكن قد تمكن بعد من التغلغل فى هذه المنطقة البعيدة التى تعمها الفوضى .

كان محمد علي يراقب باهتمام الدمار التدريجى للسلطة الشرعية فى سورية ، ولكن مآربه الطموحة كانت اوسع وارسخ من التدابير الجريئة للباشوات الذين غالبا ما كانوا يرفعون راية التمرد فى تركيا . لم يعتمد فى الصراع ، الذى بدا له شرطا ضروريا لوجوده السياسى ، على قواه المادية وحدها ، بل كان يهتم برأى الشعب ويقى نفسه من ملامة الاسلام فى التمرد على حاكمه المدنى والروحى . كان فى حاجة الى ذريعة قانونية للخلاف ، وبجار مثل عبدالله لم يكن من الصعب ايجاد ذريعة كهذه .

---

* فى شباط (فبراير) عام ١٨٣١ بعد اعلان فرمان السلطان بجبى ضريبة باهظة نشبت انتفاضة فى دمشق ، حيث رفض السكان دفع الضريبة . وكان يشكل نواة المنتفضين سكان الميدان ، الضاحية التى يسكنها الفقراء . — **المحرر** .

منذ ان فرض الاستبداد الحكومي والعسكري لمحمد علي في مصر ارغام الفلاحين المنتظم على الزراعة او الخدمة العسكرية مكان استبداد المماليك الفوضوى ، اخذ الكثير من اسر القرويين يهرب الى سورية تخلصا من الاشغال والجندية . توجه محمد علي الى عبدالله بطلب تسليم الفارين ودفع المبلغ الذى استدانه لتهدئة غضب السلطان بعد تمرده مرتين . رفض عبدالله بغطرسة المطالب المشروعة لمحمد علي ، اما فى خصوص تسليم النازحين المصريين فتذرع بالحرية الممنوحة للمسلمين فى التنقل من منطقة الى اخرى . واقترح على محمد علي ان يتقدم بشكواه الى محكمة عاهلهما المشترك . كان محمد علي يعرف ان عبدالله لم يكن يمتثل للسلطان الا حينما يوافق ذلك مآربه ونزواته ، ومع ذلك اشتكى الى القسطنطينية . وجاءه الرد ان «الفلاحين العرب اتباع للسلطان ، وليسوا عبيدا للباشوات ، وهم احرار فى التنقل من مكان الى آخر» . هذه القاعدة لا جدال فيها ، ولكن هل تتفق والمرسوم الذى يفرض على كل منطقة بالجملة ، كما يقال ، مبلغا دائما من الضريبة ، لا وفق النسبة المتغيرة لقواها المنتجة ؟

فى خلال هذه المحادثات اعد محمد علي بنشاط خارق حملة برية وبحرية على سورية . وانتشرت بين الشعب شائعة تزعم ان هذا كان بعلم الباب العالى وموافقته . فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٣١ * عبرت صحراء السويس قوة خيالة نظامية مشكلة على نحو ممتاز تضم ٩ آلاف فارس ، وبطاريتان لمدفعية الميدان ، والف بدوى . كانت هذه الحملة تحت قيادة كوجوك ابراهيم باشا ابن اخى محمد علي . وابحر الى الشاطىء السورى اسطول من ٧ فرقاطات و٣٣ من المراكب الحربية الاخرى ووسائل النقل وقوة انزال من ٧ آلاف شخص ومدفعية حصار . وكان فيه ابراهيم باشا ، القائد العام للجيش ، وكانت الاركان مكونة من ضباط اختبروا فى حملتى شبه جزيرة العرب وموره .

استقبلت فلسطين المصريين كمنقذين . فتحت لهم غزة ويافا ابوابهما ، وفرت حاميات باشا عكا او دخلت فى خدمة المصريين . واجتازت الحملة البرية بدون اية مقاومة كل المسافة حتى حيفا ، المدينة الواقعة عند سفح الكرمل ، مقابل عكا التى لا يفصلها عنها سوى عرض خليج صغير . هناك التقت الحملة البرية الاسطول واستقبلت جيش الانزال . والى هذه النقطة نفسها ارسلت من مصر وسائل النقل المحملة بالمؤونة والذخيرة للحصار ، لان كل مقاومة عبدالله سوف تتركز فى عكا ، حسب توقعات محمد علي الصائبة . فى يافا نزل ابراهيم باشا الى الساحل ، وفى طريقه الى حيفا اكدت

---

* فى ١٤ تشرين الثانى (نوفمبر) غادرت القوات المصرية القاهرة . — **المحرر** .

له القبائل الجبلية فى اليهودية ونابلس طاعتها واستعدادها للقتال تحت راياته . فى اواسط تشرين الثانى (نوفمبر) وصل جيش الحصار الى عكا ، وبعد عدة ايام ، حينما هبت ريح مواتية ، اطلق الاسطول النار على لمدينة .

قرر عبدالله باشا ابداء اعند مقاومة . ان فشل الفرنسيين عند عكا بعث فيه النشاط . وعلاوة على ذلك ، منذ اكثر من ٣٠ سنة لم يتوقف الجزار ولا سليمان ولا هو نفسه عن تحصين عكا بابراج جديدة ومدفعية ضخمة (حتى ٤٠٠ مدفع) وحصون وخندق وقلعة ، وعن بناء خزانات الماء والمستودعات والثكن فيها . لقد كان هذا الحصن فى ايدى الباشوات عربونا لطاعة المناطق ولنيل حظوة الباب العالى الاضطرارية وللافلات من العقاب عند التمرد . كانت الحامية مكونة من ثلاثة آلاف من خيرة الالبانيين والدالاتية والمماليك والاكراد الذين يشكلون الحرس الشخصى للباشا . اما فى خصوص الجيش النظامى ، فكان مجرد تسلية لعبدالله ، وقد تخلى فى هذه الظروف عن كل تسلية .

ان اخطاء المصريين الاولى فى مستهل اعمال الحصار وانعدام الخبرة لدى الجيش فى قضية الحصار الجديدة عليه وامطار الشتاء الغزيرة وهجمات الالبانيين الجرية اطالت امد هذا الحصار اكثر مما كان يتوقع ابراهيم . استدعى امير لبنان الى معسكره واراد ان يستغل الشعور الذى ابدته القبائل السورية لكى ينشر حكمه بسرعة اكبر الى كل المنطقة ويتخذ اجراءات الحذر ، قبل ان تأتى المساعدة من الحكومة التركية الى الحصن المحاصر .

فور ظهور المصريين فى سورية لجأ عبدالله الى الباب العالى يطلب العون . ان الامير بشير ، الذى كان يراقب الاحداث من علياء جباله ليكيف اعماله لها ، علم بتوجيه عبدالله رسولا الى العاصمة . وحينما تلقى دعوة ابراهيم ، تباطأ فى الجواب بانتظار الاخبار من استنبول . قبض اناس ارسلهم الامير على الرسول قرب بيروت فى طريق عودته الى عكا ، وقرئت الرسائل . لم يرد الباب العالى بشىء على طلبات عبدالله ، وحتى ان وكيله فى العاصمة كتب انه لا يجوز توقع مساعدة عاجلة نظرا لعدم تمتعه بحظوة لدى الديوان . هذا الخبر ارغم الامير على اخذ جانب المصريين ، وكان ابراهيم قد اقسم برأس ابيه فى رسالة متوعدة ان يجتاح كل امارته اذا لم يظهر فى المعسكر بدون ابطاء . وعزز ابراهيم تهديداته بالعمل ، فارسل قوات الى المدن الساحلية صور وصيدا وبيروت وطرابلس . خضع الجميع بطيبة خاطر للقائد العسكرى الذى ذاع صيته فى كل سورية باعماله الحازمة وجيشه النشيط وانضباطه وحركاته السريعة واحاديثه اللطيفة والمنصفة الى السكان . كانت ترد الى المعسكر من مصر مساعدات من مختلف الانواع .

وهرع عباس باشا ، حفيد محمد علي الشاب ، بفصيلة قوية من الخيالة النظاميين والبدو ، قوزاق الشرق . ان خضوع القبائل الجبلية فى فلسطين وفر لابراهيم فرصة مناسبة للاستيلاء على القدس بالحامية . كانت اديرة القدس ، التى اعتادت على النهب السنوى المنتظم من قبل باشوات دمشق والقضاة وكل افندية القدس ، تخشى ان يبيح المصريون المدينة للنهب ويدنسوا المقدسات . وقد غمرتهم حماسة عارمة حينما اذيع فور دخول الحامية المصرية المدينة الامر التالى الذى وجهه ابراهيم الى المنلا (القاضى الاعلى) وشيخ مسجد عمر والمفتى والنائب وكل السلطات :

«فى القدس معابد واديرة واماكن للحج تأتى اليها من ابعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية . وكانت ترهق هؤلاء الحجاج الى الآن ضرائب ضخمة فى اداء نذورهم وفرائض دينهم . ورغبة منا فى استئصال هذا العسف ، نأمر كل فتسلمى ايالة صيدا * وسنجقى القدس ونابلس بالغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء . يقيم فى اديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الانجيل واداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم . والعدل يقتضى ان تعفى من كل الضرائب التى فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفى . ولهذا نأمر بان تلغى الى الابد كل الضرائب التى تجبى من اديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة فى القدس من يونانيين وفرنجة وارمن واقباط وغيرهم ، وكذلك الضرائب القديمة والجديدة التى يدفعها الشعب اليهودى . ومهما كانت الذريعة او التسمية التى تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية او الى خزينة الباشوات او فى مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وما شابه ذلك ، فانها جميعا ممنوعة منعا باتا . وتلغى على حد سواء الكفارة التى تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح او عند التوجه الى نهر الشريعة (الاردن) . وعليكم ، ما ان نقرأ هذا البيورلدى (الامر) ، ان تسارعوا الى تنفيذه كلمة كلمة وتوقفوا فورا جباية كل الضرائب المذكورة اعلاه وغيرها من الضرائب القائمة على العادة وكل مطلب من اديرة القدس ومعابدها العائدة الى مختلف الشعوب ** المسيحية واليهودية ، شأن الكفارات ، كامر مناف للقانون . بعد اعلان هذا الامر سيعاقب بصرامة كل من يطلب اقل اتاوة من المعابد والاديرة المذكورة

---

* باشاليك عكا يحمل بالاسلوب الرسمى اسم العاصمة السابقة صيدا . ان بيروت هى الآن مقر اقامة الباشا ، ولكن كل المنطقة تسمى كالسابق بايالة صيدا . وننوه بان ابراهيم جعل اوامره الحكومية حتى الاستيلاء على عكا تقتصر على منطقة نفوذ عبدالله ، محاولا بحرص ان يصور للشعب حربه بمثابة قضية بينه وبين عبدالله ويبعد مظهر الانتاضة ضد سلطة السلطان .

** بالاسلوب التركى الرسمى يقصد بالشعوب عادة الاديان .

والحجاج ؛ ولتنفيذه اصدرنا هـذا البيورلدى عن ديوان (مجلس) قيادتنا العليا» .

ان كلمات كهذه على شفتى باشا مسلم ، على شفتى فاتح جرىء ما ان استولى على سورية حتى اخذ يحلم باستئصال الفساد الازلى ، كانت تشكل عصرا جديدا بالنسبة الى المسيحيين فى الشرق . وفى الواقع كان الاوان قد آن لتخليص المسيحية من الضرائب والاهانات المشينة التى كان الباشوات والشيوخ الجبليون والقضاة المسلمون وحتى سواد الناس المؤمنون بالقدس يضطهدون بها على هواهم وبدون علم الحكومة رجال الدين فى القدس .

لقد سبق ونوهنا بان المبلغ السنوى العادى الذى كان يدفعه الدير اليونانى الى باشا دمشق يبلغ الف كيس * ، بالاضافة الى انه كان ينفق ايضا حتى ٥٠٠ كيس على حاشية الباشا وعلى الهدايا ، وعلى المؤونة حينما كان الباشا نفسه يأتى الى القدس . وكان يقدم الى منلا القدس عند قدومه قرابة ٢٠٠ كيس ، ومن النادر الا يجد المنلا فى الفترة السنوية العادية من اقامته فى القدس مناسبة ليأخذ ايضا ما يعادل هذا المبلغ او ضعفه . والامر نفسه ينطبق على كتبته واعضاء المحكمة ، وعلى متسلم القدس وحاشيته . وكان ينبغى اهداء مختلف الاسر الاسلامية قرابة ٥٠٠ كيس فى السنة ، لمجرد انهم لم يضيقوا على الدير الارثوذكسى . الى هذه الدفعات الدائمة وشبه القانونية ، لان الفساد الطويل الامد اكتسب قوة القانون ، يمكن ان نعزو ايضا مبلغ الكفارات الذى كان يصل الى ٥٠٠ قرش عن كل حاج . بقيت ايضا مادة هامة تعتبر اكثر المواد تدميرا ، وهى «الجريمة» او الغرامات التى يفرضها الباشا والمنلا والمتسلم فى مصلحتهم بصورة تعسفية فى كل فرصة مواتية : اذا تعارك حاجان وحدثت نتيجة لهذا قلاقل بين ملتين ، اذا نقلوا القرميد فى مبنى الدير لتصليح السقف من الدلف ، اذا صلحوا نافذة حطمتها الريح ، فان على الدير ان يدفع قرابة ١٠ آلاف او ٥٠ الفا او ١٠٠ ألف قرش على اساس ان تصليح المعابد فى الامبراطورية العثمانية يخضع لدائرة معينة ولموافقة المحاكم المحلية .

واحيانا بدون اى سبب ، لمجرد ذريعة تزعم ان الباشا يشتبه فى ان لرجال الدين اليونانيين علاقة سرية بيونانيى موره ، او بمناسبة خبر عن حرق الادريوتيين للاسطول التركى ، او عن اعمال اضطهاد المسيحيين فى العاصمة ، فيطلب الباشا ٥٠٠ كيس او الف كيس ويعطى اساقفة دير القبر المقدس مهلة عدة ايام او عدة ساعات لتقديم المبلغ والا شنقوا . ليس مما يدعو الى

---

* من عام ١٨٢٠ الى عام ١٨٣٠ انخفض سعر العملة التركية كثيرا نتيجة تلف المعدن . فى ذلك الوقت كان كل ١٠٠٠ كيس ، اى ٥٠٠ الف قرش ، يعادل قرابة ١٠٠ الف روبل فضة .

الدهشة فى ظروف كهذه ان الدير اليونانى حول الى سبائك قرابة الفى بود * من فضته و٤٠ بودا من الذهب ، بما فى ذلك مصابيح وآنية كان قد اهداها الاباطرة اليونانيون ، واصبح علاوة على ذلك مدينا بثلاثين الف كيس . وفى عهد الغزو المصرى وصلت مصائبه الى حدها الاقصى . صار الدير يقترض بفوائد بنسبة ٢٥ و٣٠ فى المئة سنويا ، ولكن لم يعد احد يعطيه نقودا . وطالب الدائنون — من مسلمين وارمن ويهود — ببيع ابنية الدير وحتى اماكن العبادة المقدسة .

فى ازمنة المحن القاسية هذه ، حينما كان الاساقفة وكل رجال الدين فى القدس يعانون الاهانة ويرتدون الاسمال ويقتاتون بالخبز والزيتون على مدار السنة حتى لا ينطفىء البخور والقنديل فى الهياكل المقدسة ، حتى لا تنتقل المقدسات التى عهد اليهم بحراستها الى ايدى الغرباء ، ليس فى الوسع الا الانحناء اجلالا للجرأة المقدسة التى نهلها شيوخ مختارون من معين وحى لا ينضب ، عند مهد عقيدتنا ، جرأة لا تقارن الا بمآثر شهداء عهود المسيحية الاولى .

بقى ابراهيم باشا على كلمته : لم يكن البيورلدى الذى اصدره كلمة جوفاء كما كانت اوامر الباب العالى بالنسبة الى القبائل السورية ، بل كانت عهدا مهيبا وصادقا على التسامح بقى مخلصا له فى كل فترة الحكم المصرى فى سورية . ولم تخضع لارادته الراسخة دون اعتراض السلطات القضائية والتنفيذية فى القدس فحسب ، بل ان شيوخ جبال اليهودية انفسهم ، الذين لم تلجمهم الى الآن اية سلطة والذين كان حجاج الديار المقدسة يشكلون بالنسبة اليهم مصدرا كبيرا للدخل ، اضطروا الى تقديم الحماية المجانية اليهم حتى لا يدفعوا رؤوسهم ثمنا لتعكير امنهم وسلامتهم . واعلن ابراهيم باشا فيما بعد ليلجم الجشعين من العرب ان اليد التى تأخذ نقودا من الحجاج فى جبال اليهودية سوف تقطع . وصار العرب يتقيدون بالمعنى الحرفى للامر ، حيث يرغمون الحجاج على رمى النقود الى الارض ثم يتناولونها من الارض بعد ابتعادهم ، لا مباشرة . وحينما ابلغ ابراهيم بهذا ، لم يتوان عن تفسير ارادته للعرب بمعناها المباشر ، فقطع يد اثنين او ثلاثة ، فلم يعد احد يجرو على انتهاك قانونه .

تسكن شعب جبال اليهودية على الطريق من يافا الى القدس منذ القدم قبيلة شيوخ آل ابى غوش الذين كانوا بذريعة لائقة ، وهى حماية هذه الاماكن الخطرة من اللصوص ، ينهبون بانفسهم الحجاج ، مبتزين منهم الكفارات والهدايا . وقد عين ابراهيم باشا راتبا للشيخ عوضا عن هذا الدخل ، ومنذ ذلك الحين لم يعد ابو غوش مصدر هول للحجاج ، بل صار

* البود وحده وزن روسية تعادل ١٦،٣٨ كيلوغرام . — **المترجم** .

حاميا لهم . مثل هذه التدابير السديدة فتحت للحجاج الطريق الى فلسطين ، ففى السنتين الثانية والثالثة من الحكم المصرى بلغ عدد اليونانيين والارمن الذين توجهوا من كل المناطق التركية الى القدس ١٠ آلاف شخص . وقد اغتنت بهم يافا والسكان الجبليون ، الذين كانوا يعملون مرافقين ، وسكان القدس التى كان الحجاج يمضون الشتاء فيها ، والاديرة . ومع الزمن اقتنع سكان فلسطين انفسهم بان جذب عدد كبير من الضيوف المؤمنين من خلال التسامح والامن اجدى من النهب الكامل لخمسين من التعساء الذين كانوا يقدمون فى السنوات السابقة على تلك الرحلة المحفوفة بالمخاطر .

كان تسامح ابراهيم الدينى قائما من كل الجوانب على حساب سياسى صحيح : فمن جهة ، كان الامر الذى اصدره من المعسكر الواقع قرب عكا ضمانة حب مسبق له وتعلق ثمين به من جانب السكان المسيحيين الكثيرين فى جبال لبنان الذين اراد ان يكتسب فيهم دعامة امينة لمآربه الطموحة ؛ ومن الجهة الاخرى ، علمت التجربة ابراهيم فى مصر وشبه جزيرة العرب ان قمع التعصب الدينى ، الذى حاول خطأ الباشوات الاتراك ، على شاكلة عبدالله ، ان يقيموا عليه نفوذهم ، هو اول شرط لخضوع المسلمين للسلطة الشرعية ولنجاح تحولات النظامين الحكومى والعسكرى .

ان مقارنة عهد الحكم المصرى مقارنة مجردة بالحكومات السابقة فى سورية وحتى بعهد اقرار نظام السلطان فى عام ١٨٤٠ تدعم هذه الحقيقة التى لم يقتنع بها ولاة الباب العالى الى الآن . ومن هذه الناحية يكاد تسامح ابراهيم الدينى ان يكون اهم وارسخ اجراء لتحولاته المدنية واساسا لنفوذه لدى القبائل المسلمة فى سورية .

يشكل الشعور الدينى منذ القدم نابضا للسلطة الحكومية فى الشرق . وفى سورية ، فى هذه التربة الكلاسيكية للوحى والعقيدة والهرطقة والتعصب التى خلفت فيها اثارها التى لا تمحى وتقاليدها ، ينبغى للسلطة الحكومية ، اكثر مما فى اى مكان آخر ولا شك ، ان تتغلغل فى مغزى الاتجاه الدينى وتسترشد به . وفى ظل الحكم الاسلامى تشكل اغلبية السكان المسلمة المطلقة كفالة كافية لتفوقه السياسى ، اما احلام الغرب ببعث مملكة اليهودية فى فلسطين رغم التنبؤات الرهيبة ، او المملكة المسيحية المستقلة رغم عناصر المنطقة ورغم تجربة الصليبيين الدامية على امتداد قرنين ، فلا تكشف الا عن جهل مطبق باحصائيات هذه المنطقة التى يكتبون ويتحدثون عنها الكثير منذ خمسة عشر عاما .

استطاع ابراهيم باشا ، بالتفكير السليم للانسان الشرقى ، ان يدرك ان الحكومة لا تستطيع ان تتوقع من المسيحيين السوريين غير التعاطف والمساعدة على لجم القبائل الاسلامية التى نهلت من جموح تعصبها جرأة مكثفة

على مقارعة السلطة الشرعية . وبرهنت التجربة تماما على صواب حسابات ابراهيم .

لنعد الى عكا المحاصرة . لاستطرادنا عذره ، وهو ان الحصار استمر الشتاء كله بلا جدوى . كان عبدالله يرد على كل الاقتراحات حول التلسيم ، حتى بعد فتح الثغرة ، انه ينوى عند الضرورة القصوى تفجير الحصن ، ولكنه لن يسلمه . وفى غضون ذلك ، ظهر امير لبنان فى المعسكر ، فحجز عربونا لاعمال الجبليين الذين انضمت فصيلتهم تحت قيادة ابنه الامير خليل الى الجيش المصرى . وكان محمد على يبعث الى المعسكر بالرسول تلو الرسول مع اوامر لابنه بالاستيلاء على الحصن مهما كلف الامر ، لانه يستطيع وفى يده مفاتيح عكا ان يملى قانونه على ديوان القسطنطينية . وكان الديوان ، الامين على القاعدة القديمة للسياسة التركية : «قتل العدو بالعدو» ينظر من جهته بارتياح خفى اول الامر الى الاشتباك بين باشا مصر وعبدالله . كان يستطيع ان يعول على ان يحنى كلاهما او احدهما على الاقل ، بعد ان ينهك كل منهما الآخر ، رأسه المتشامخ امام قانون استنبول .

ولكنه امل خادع . حينما وصلت الى العاصمة الاخبار عن حصار عكا العنيد ، عن العطف الذى ابدته القبائل السورية لابراهيم ، عن الاجراءات الحكومية التى تجلى بها ابراهيم فاتحا يحرص على ترسيخ مأثرته ، لا ضيفا عابرا ، اخذ الباب العالى يفكر . وصار يبدى الدهشة والتبرم فقط ، دون ان يغير اساليبه الفاترة . وارسل ناصيف افندى مبعوثا الى محمدا عليا يوصى بوقف هذه «الاعمال غير اللائقة» (العبارة المألوفة لاسلوب الاتراك المكتبى) ، والتوجه الى الباب العالى بالشكاوى على الجار . تعهد الباب العالى بان يأمر عبدالله بعدم التدخل فى شؤون مصر لاحقا ، واوصى المفتى محمدا عليا باسم الدين بان يترك سورية بسلام لضمان امن مسيرة القافلة الى مكة .

لكى يؤجل محمد على الحديث مع مبعوث الباب العالى ، ابقاه شهرا كاملا فى الحجر الصحى ، منتظرا من ساعة الى اخرى انباء عن الاستيلاء على عكا ، وفى غضون ذلك ارسل الى سورية على الابل كتائب كاملة تعويضا من الخسائر التى الحقتها الكوليرا بالجيش ، وزاد جيشه فى سورية الى ٤٠ الف نفر ، ورد على رسالتى الباب العالى والمفتى بطلب مفعم بالولاء يلتمس فيه التنازل له عن باشالكى عكا ودمشق ، معددا ما قدمه من خدمات باخضاع مصر وابادة الوهابيين وتنظيم شؤون المقدسات الاسلامية فى شبه جزيرة العرب وحملة موره وتقديم الاتاوة فى حينها ، مع كل التضحيات النابعة من وطنيته .

عندئذ فقط قرر الباب العالى العمل ، اذ ان تباطؤه الاعتيادى كان يوفر الوقت لابراهيم وكأنما عن قصد لكى يستولى على عكا . قلد محمدا باشا ، المعين حديثا فى حلب ، لقب سرعسكر (قائد) العرب مع امر بجمع القوات ، اما باشوات ومتسلمو قيصرية وقونية ومرعش وسيواس وغيرها من مناطق

آسيا الصغرى فامروا بان يسرعوا مع قواتهم للانضمام اليه . ولم يكن هناك فى الحملة اى جيش نظامى ، اذ كان الباب العالى يأمل فى تشتيت افواج ابراهيم بحشود عادية من افاقى النظام العسكرى القديم . فى منتصف رجب (مستهل كانون الاول/ديسمبر) * ، فى فترة انطلاق القافلة من القسطنطينية الى مكة ، بدأ الحجاج المؤمنون سفرهم وهم على ثقة بان جيش السلطان سيمهد لهم الطريق . وعين باشا على دمشق وآخر على طرابلس لاتخاذ الاجراءات المعهود بها الى هذين المنصبين فى صدد مسيرة القافلة وطريق عودتها . ولكن لم يقيض للحجاج المؤمنين تأدية فريضتهم المقدسة فى تلك السنة . ان دمشق تشكل نقطة انطلاق تجرى فيها كل التحضيرات لمرور القافلة عبر البادية السورية وصحراء شبه جزيرة العرب . لقد استقبل علي باشا ، خلف سليم ، فى دمشق بخضوع متجهم . لقد استقبل لانه قدم الى هناك بلا جيش ، وبحاشية صغيرة . اجل الباب العالى القصاص الذى حكم به على السكان المذنبين ، والسكان من جهتهم رأوا فى الباشا رهينة لكى لايعاقبوا على التمرد . فى ظل هذه العلاقة المتبادلة بين والى الباب العالى والمدينة المتعصبة ، وفى ظل انطباع العمليات الحربية التى كانت تغلى سورية بها ، انتظر الحجاج عدة اسابيع عبثا ، ثم قفلوا عائدين من المدينة المسجاة بعتبة مكة .

سارت ميليشيات آسيا الصغرى الرديئة الى حلب ، وزادت باساءاتها من سخط السكان الذين كانوا ينتظرون ابراهيم كمنقذ . كانت طرابلس قد احتلتها حامية مصرية تحت قيادة مصطفى بربر اياه ، الذى طرده عبدالله قبل ذلك بعدة سنوات ، ولكنه عاد الآن الى سورية مع المصريين واخذ يخدم محمد علي بحمية . حطم باشا طرابلس الحامية المصرية ، وكان يستعد للاستيلاء على المدينة حينما انطلق ابراهيم نفسه مسرعا من ضواحى عكا ، وارغم بمجرد الرعب الذى يحدثه اسمه فصيلة السلطان مع الباشا على ترك المدفعية والارتال والفرار الى حماة التى اتاها الجيش من حلب .

لم يفقد الباب العالى الامل فى اقناع التابع المصرى بالخضوع ، وقد طالت المحادثات وحل الربيع . ودافعت عكا عن نفسها بيأس ، وحينما اقترح على عبدالله الاستسلام هبط بنفسه الى الثغرة واعلن بسخرية لرسل ابراهيم انه فى صحة جيدة بفضل الله ، وان الحصن جيد ايضا رغم تمزق ردائه الخارجى ، وإنه لم يمض على الحصار سوى خمسة اشهر ، فى حين انالمدينة مزودة بالمؤونة والماء والذخيرة لخمس سنوات ، وانه مستعد بعد انقضاء هذه المدة لخوض محادثات عن الاستسلام او الصلح . اذا تذكرنا انه كان على عبدالله ان يحترس ، علاوة على مخاطر الحصار ، من خيانة الاشقياء

* من عام ١٨٣١ . — **المحرر** .

المتهورين ، الذين كانوا يشكلون حاميته ، وانه رأى بام عينه مثال علي باشا اليانينى الذى باع حراسه الشخصيون رأسه ونهبوا خزينته ، وان كل السكان كانوا الى جانب ابراهيم ، وانه لم يعد ينتظر من الباب العالى العون ولا حتى العفو ، فلا بد من الاعتراف بان نزوات هذا الانسان لم تكن تعوزها الجرأة .

فى ربيع عام ١٨٣٢ ايقظ غضب محمود الباب العالى من غفوته . استدعى الى العاصمة الآغا-باشا السابق حسين ، الذى اشتهر بالقضاء على الانكشارية وباخلاصه المتعصب لسلطانه . وكان قد قبع عدة سنوات مغضوبا عليه بمساعى منافسه خسرو ، محبوب محمود ، الذى كان يدير وزارة الحربية برتبة سرعسكر . لاطف محمود الآغا-باشا * المسنّ والمخلص ، وانعم عليه بلقب جديد ، وهو السردار اكرم ، الذى يقابل فى آسيا لقب الفيلدمارشال ، ومحضه سلطة غير محدودة ، واذ عدد فى خطى شريف بليغ ذنوب محمد علي وابراهيم ، صب عليهما اللعنة باجماع فقهاء اعلى المراتب الدينية وباسم سلطة الخليفة لقاء خيانتهما للعاهل الشرعى ، واقطع فيلدمارشاله المناطق المعهود بها اليهما ، مصر والجليل وكاندى ، مع تكليفه بالاستيلاء على هذه المناطق ، وبتطهير سورية قبل كل شيء .

لم يكن لنداء السلطان هذا تأثير يذكر الا فى تلك المناطق من سورية التى وقفت مدة من الزمن تحت الحكم المصرى . فقد اكتشفت مؤامرتان فى طرابلس ولبنان ، ولكنهما قمعتا بصلابة ابراهيم الذى هرع الى دير القمر من ضواحى عكا ودعم سلطة الامير بنفى خصومه . ولكن كلمة السلطان لم تلق صدى لدى الشعب فى حلب ولا فى دمشق . هنا تتكشف ظاهرة غريبة ومؤسفة تبقى مميزة حتى سقوط الحكم المصرى فى سورية : كلما وقع المزيد من السكان تحت سلطة المغتصب حنوا بمزيد من اللهفة والاخلاص الى العاهل الشرعى ، فى حين انهم فى مناطق آسيا الصغرى ، تحت حكم ولاة السلطان ، يفتحون احضانهم لمصر وينتظرون منها المنقذين .

هل نعزو هذا الى تقلب الانسان المتبرم دوما من قسمته ، او الى الخلل التركى فى الاناضول وقسوة ابراهيم فى سورية ، او نعزوه ، وهذا هو الارجح ، الى العمل الاولى الشاق هنا وهناك لعهد التحولات المنقذة من حيث نتائجها ، والحتمية حينما يطفح كيل فساد النظام القديم ، فى حين انها لا تتكيف للعنصر الشعبى المحلى الا بالجهد ، وهى دوما مقيتة للاسيوى ؟

غادر القسطنطينية الى سورية فيلق من ٥٠ الف نفر ، بما فى ذلك قوة نظامية وحرس يضم ٣٠ الف مقاتل و١٦٠ مدفعا ، ووصل مع الفيلدمارشال

---

* **آغا-باشا** هو اللقب الذى كان يطلق فى الرتب العسكرية القديمة للامبراطورية التركية على القائد العام لفيلق الانكشارية .

الى سلسلة جبال طوروس فى ايار (مايو) ، وابحر اسطول من الدردنيل تحت قيادة خليل باشا ليدعم العمليات الحربية من البحر . وحشد جيش غير نظامى من ١٠ آلاف نفر تحت قيادة عثمان باشا الحلبى عند حمص على بعد مسيرة اربعة ايام عن دمشق . وكان ابراهيم باشا قد استولى منذ نيسان (ابريل) على بعلبك ، الموقع الحربى الهام ، عند ملتقى الطريقين المؤديين من طرابلس ودمشق الى حمص ، فاخذ يراقب الجيش التركى وغطى جناح القيادة العامة للقوة المحاصرة . بعد اتخاذ هذه الاجراءات الاحتياطية ، قام فى ١٦ ايار (مايو) * بمحاولة ثالثة لدخول القلعة المحصارة. كان عبدالله لا يزال مستمرا بالدفاع ، ولكن اعمال الحفر ومدفعية الحصار على امتداد سبعة اشهر حولت الابراج الى اكوام من الانقاض . ارغم ابراهيم والسيف بيده مصريه على المرور فى الثغرة ، حيث جلس الالبانيون بين الحجارة واخذوا يطلقون النار باحكام . تراجع المصريون بفعل قذائف البنادق القاتلة ، فتشجعت الحامية وقامت بهجمة اخرى . ولكن ابراهيم اندفع بنفسه الى النيران ، واعمل السيف بلا هوادة فى جنوده الذين اندفعوا من الثغرة ، الى ان قادهم بجهود مستميتة الى داخل القلعة . خرج السكان الموقرون يطلبون الرحمة من المنتصر . ان عبدالله ، الذى ارسل اليه ابراهيم باشا منديلا بيض علامة الامان ، مثل امامه فى منتصف الليل ، فاستقبل بلطف ، وردا على سؤال المنتصر عن السبب الذى جعله يريق دماء المسلمين بعناد عقيم ، اجاب متنهدا : «وهل كنت اعلم ان والدى السلطان خذلنى ، فى حين لم يتوقف والدك المبجل عن ارسال الجيش اليك ؟» . انه لعتاب غريب يوجهه الى السلطان باشا تمرد عليه مرتين !

وردا على سؤال ابراهيم عن الخزينة التى تعود الى المنتصر ، اجاب الباشا الاسير ان كل كنوزه وزعت على الحامية . ولكن يفترض ان الجيش المصرى عثر على الكثير من الغنائم فى عكا ، رغم ان النهب لم يستمر سوى ليلة واحدة ** . قتل فى هذا الحصار ٤ آلاف مصرى ، وبعد الاستيلاء على القلعة مات فيها ايضا ما يربو على الالفين من الحمى وآثار الحصار .

ارسل عبدالله باشا الى مصر بحرا . وكاد محمد علي ان يمرض من الفرح عندما وصله خبر الاستيلاء على عكا . واستقبل باحترام اسيره الذى كان تخاذله فى المصيبة يضاهى جرأته السابقة وراء جدران القلعة . وقد انتقل فيما بعد الى القسطنطينية ، حيث يعيش الى الآن مغمورا ويتقاضى معاشا من السلطان .

---

* من عام ١٨٣٢ . — **المحرر** .

** تمكن الشامى ذو الاصل الاوربى كاتافاغو فى تلك الليلة وفى فترة اليومين او الثلاثة التالية ان يجنى مبلغا طائلا ، اذ اشترى لقاء ثمن بخس الدوبلونات والعملات الاخرى التى لم يكن يعرفها الجندى المصرى ، وكان يظنها فيشا او لعبا .

هرع ابراهيم باشا من عكا الى دمشق . اجتاز الاردن بين بحيرة الحولة وبحيرة الجليل عبر جسر يعقوب * . هنا يشكل نهر الاردن الحدود بين باشاليكى عكا ودمشق : الاول اخضع تماما ، اما الثانى فكان ينتظر المنتصر . فقد علي باشا الدمشقى كل امل فى ان يرغم السكان على الدفاع ضد المتمرد ، الذى لعنه الخليفة ، وان يسلح باسم الدين ، كما أمر جيشا قوامه ٣٠ الف نفر من سكان مدينة الاسلام المباركة .

منذ قرنين والحكومة العثمانية تلجأ غالبا وبلا تمييز الى هذه النداءات وتغذى باستهتار النزعات التعصبية فى الشعب ، بحيث ان هذا النابض الذى قامت عليه يوما عظمة القبيلة العثمانية لم يعد ، مع انه لا يزال يحتفظ بمرونته الجبارة ، يذعن للاتجاه الذى اسبغته عليه يد الزعيم الروحى والسياسى للاسلام . وضع علي باشا ، لحفظ ماء الوجه فقط ، عدة فصائل صغيرة ضد المصريين تراجعت حال ظهورهم ، وفى غضون ذلك تقهقر نفسه الى حمص ، ودخل ابراهيم المدينة ولقى استقبالا حافلا لدى السكان الذين كانت تخيم عليهم عاصفة غضب السلطان ** . قاتل ابراهيم الباشوات ، واحتل القلاع ، واقام سلطات جديدة ، ولكنه لم يسمح لاحد بالشك فى اخلاصه الشديد للعاهل الشرعى . هذا النوع الخاص من التمرد معروف منذ القدم وممكن فى الشرق فقط . لا يتمرد الباشوات على السلطان الذى تبقى حقوقه الروحية والسياسية بلا مساس بصفته خليفة للرسول ، ولكن على الحكومة التى عينها السلطان ، وحيث ان هذين القطبين غالبا ما يكونان متجاورين ومتماثلين ، فان الاستبداد الشرقى يلتقى فى هذه الناحية مع راديكالية الغرب . ابان صلاة الجمعة عند المسلمين التي تختتم بدعاء الامام فى المسجد للسلطان بالصحة وطول العمر ، توجه الامام الى ابراهيم بسؤال عمن يجب ان يدعو له . استاء ابراهيم لان هناك من يشكك فى اخلاصه للسلطان وينظر اليه كمغتصب ، فامر بان توضع رجلاه فى الفلق ويضرب على الملأ . بعد هذا الاستعراض المهيب لاخلاص ابراهيم للسلطان ، هرع الى تحطيم جيشه فى حمص وبيلان .

---

* سمى هذا الجسر القائم على نهر الاردن باسم بانيه العربي يعقوب . ان بعض الرحالة ، الذين يصطدمون بروايات الكتاب المقدس فى كل مكان ، اعتقدوا ان يعقوب بن اسحاق اجتاز نهر الاردن فى هذا المكان هربا من غضب اخيه عيسو .

** استولت القوات المصرية على دمشق فى ١٣ حزيران (يوليو) عام ١٩٣٢ . — **المحرر .**

الفصل السادس

كسل الباب العالى المتعمد وحساباته . — الاسباب الاساسية لوهن الامبراطورية العثمانية . — وصول السردار اكرم الى سوريـــة . — معركتـــان قرب حمص وفى بيلان . — بقاء الاسطول بلا عمـل . — حملة المصريين على آسيـــا الصغرى . — شعور الشعب . — تدخل روسيا فى شؤون الشرق . — موقف الدول الاخرى . — معركة قرب قونية . — وصول الاسطول والجيش الروسيين الى البوسفـــور . — المحادثات . — ادعاءات وهفوات الحكومة الفرنسية . — معاهدة كوتاهية . — شعور السلطان ازاء المسلمين فى فترة التسامح الدينـــى . — معاهدة اونكيـار اسكيليسى وفكرتها الاساسية .

حينما هبط السردار اكرم من مرتفعات سلسلة جبال طوروس الى الساحل السورى كان خبر الاستيلاء على عكا اول خبر تلقاه فى الطريق . يمكن التفكير فى ان الكسل التركى فى خضم الاحداث الحرجة مكن المصريين من الاستيلاء على القلعة التى كانت تعتبر حصنا لسوريـــة بعـد ان حاصرها ثلاث مرات نابليون والباشوات الاتراك فى عهد الجزار وفى عهد عبدالله . ولكن هذا لم يكن كسلا ، بل امرا مدروسا . كان الباب العالى يرغب فى سقوط عكا . انه ، وهو الذى علمته التجربة الطويلة وكان مخلصا لتقاليده ، فضل الطـــرق الملتوية على الاجراءات المباشرة والحاسمة . كان يدرك ان انتصار الجزار على الفرنسيين خلف اسوار عكا قد ادى فقط الى اطالة امد التمرد الدائم لباشوات عكا ما يربو على ثلاثين سنة . ولا شـك فى انـــه كان من شأن عبدالله ان يستقبل السردار اكرم حسين كما استقبل الجزار تماما الوزير الاعظم يوسف ضياء باشا . لان الباب العالى يرى فى ابراهيم اداة لمعاقبة عبداللـــه . لقد

اخطأ فقط فى حساب وسائل هذه الاداة وفى حساب عواقب استيلائها على عكا . لم يؤد سقوط القلعة الشهيرة الا الى تدعيم سلطة ابراهيم على القبائل السورية وبعث الروح القتالية فى المجندين الجدد الذين كانوا يشكلون اغلبية الجيش المصرى .

هكذا بدأت فى عام ١٨٣٢ دراما شرقية جديدة اقلقت خاتمتها كل اوربا فى عام ١٨٤٠ . هل يحق للدول التى نوت المساهمة العملية فى الحل ان تلوم الاتراك على انهم سمحوا عمدا بالاستيلاء على عكا ؟ لقد نوهنا بان حسابات الديون كانت خاطئة ، ولكنها كانت نتيجة منطقية للاسس السياسية التى تقوم عليها الامبراطورية العثمانية .

ان الصلاحية التى اعطيت لولاة السلطان فى المناطق ، عوضا عن ان تشكل أسمنتا حيا لضم الانقاض الرائعة التى شيدت بها سيوف محمد وسليم وسليمان هذا الصرح الجبار ، كانت عاملا لم يساعد على توطيد وحدة الدولة ، بل على قيام كونفيدرالية مشوشة لطغاة مسلحين . هؤلاء الولاة كانوا يعترفون بلا تحفظ بسلطة حاكمهم كزعيم روحى للامبراطورية ، ولكن لم يكونوا يخضعون لحكومته الا حينما يتفق هذا ومصالحهم او تنعدم عندهم الوسائل لشن الحرب عليها . بعد النجاح فى تحويل النظام العسكرى باشر محمود باصرار وايمان بطالعه مأثرة اشد صعوبة . لم يكن عليه الآن ان يناضل ضد اوهام شعبه ، ولا ضد شغب الانكشارية ، بل ضد المبدأ السياسى الذى شكل بالضرورة فى خلال اكثر من اربعة قرون اساس سلطة السلطان ، اى ضد الصلاحية المعطاة لولاته فى المناطق .

ان مصير قبيلة رعاة قزوين الرحل التى ظهرت فى تاريخ الشرق وسط الاضطراب الذى احدثته هجمه ملايين المغول كشعب اختاره اله الحرب ، هو مصير يدهش مخيلة المراقب . وان مآثرها الحربية فى الفترة التى كانت فيها هذه القبيلة الصغيرة تبنى عظمتها السياسية جديرة بافضل صفحات تاريخ روما القديمة . ولكن روما استطاعت مجاملة الشعوب المقهورة فمنحتها قانونها المدنى وامتيازاتها البلدية ، واقتبست من المهزومين فى الوقت نفسه العلم والدين ، وبهذا تقاربت معهم .

وبفقد الشعوب المقهورة لاصالتها السياسية اعتادت بالتالى ألا ترى فى روما سوطا يهوى على العالم ، بل مركزا لوجودها السياسى ومصدرا لنظامها المدنى . لقد تبنت روما القبائل المقهورة وربطتها الى مصيرها باواصر النظام المدنى . وحتى حينما كانت الامبراطورية تقع تحت طغيان عسكرى ، لم تكن المناطق تنفصل عنها من تلقاء ذاتها . ولم تشكل فظائع البرتيوريين ولا فتن الاباطرة مناسبة للتمردات . لم تنهر الامبراطورية بفعل انتفاضات حكام الولايات او الشعوب ، بل نتيجة هجوم الملايين من الاعداء الخارجيين . ان الفاتحين العثمانيين ، وقد وضعوا الايمان بمحمد شرطا اكيدا للحق المدنى ،

اقاموا حدا يستحيل تجاوزه بين المنتصرين والمنهزمين . بعد الاستيلاء على القسطنطينية اصيبوا على الفور بعدوى كل عيوب الترهل السياسى ، ولكنهم رفضوا بكبرياء الفاتحين القانون المدنى وعلم الارادة الغريب عن غريزتهم الموروثة . وصار السلاطين فى الفترة الاولى من حكمهم فى القسطنطينية يتكنون بالقاب القياصرة الرومان ، ولكنهم لم يتبعوا ابدا السبيل الذى سلكه القياصرة على امتداد اربعة عشر قرنا ، والنظام الذى وجدت الامبراطورية بفضله ، بعد ان اصابها الوهن فى الصراع ضد الاعداء الخارجيين ، سندا فى تعاطف الشعوب التابعة .

بقى السلاطين وقبيلتهم الحاكمة ضيوفا وسط القبائل المقهورة وسيفا مسلطا عليها ، ونظرا لقلة نفر هذه القبيلة استخدموا لحكمهم النظام الاقطاعى المريح والقاتل فى الوقت نفسه ، رغم خلو قبيلتهم من النبلاء ، العنصر الاساسى للسلطة الاقطاعية ، فى النظام السياسى لمجتمعهم المدنى . وخلف البريق الخارجى للاستبداد الحكومى سادت الفوضى المطلقة فى كل ارجاء الامبراطورية ، فى حين ان القانون ، قانون الدولة او القانون الخاص ، لم يستطع ان يجد سندا له غير القوة المادية . افاق جزىء نصب نفسه حاكما مطلقا على المنطقة ، خنق الشعب ، ولكن انتزع منه عناصر الجبروت التى ذاد بها عن حقه ضد السلاطين الذين اصبح باسمهم كل اغتصاب للسلطة وكل الفظائع امرا مشروعا . حتى فى ذلك الحين ، حينما كانت اوربا الغربية تؤمن بخضوع الباشوات الاعمى واستعدادهم ليشنقوا ما ان يتلقوا فرمانا وحبلا من السلطان ، كان السلاطين يرون انه قد كتب عليهم فى ازهى عهود الجبروت التركى ان يستأنفوا دوريا الاستيلاء على الارث الذى خلفه الاجداد لهم .

يسهل ادراك مغزى الاصلاح الحكومى الذى باشره محمود . لقد قوى سلطة السلاطين . ولكن هل ينقذ الدولة ؟ يرى فيه انصار تركيا انعطافا ينقذ من العلة الداخلية . ولكن هذه الازمات السياسية المتعاقبة التى ترافقه الى الآن تتخذ على نحو متزايد طابع علة مميتة لا ينقذ منها جهد سلطة السلطان ، ولا الانتصار على الانكشارية والباشوات ، ولا الامتيازات الممنوحة للقبائل التابعة ، ولا تعاطف العالم الخارجى .

من المستبعد ان يمكن اعتبار هذه الخواطر فى مكانها قبل بدء العمليات الحربية لا بين تابعين هذه المرة ، بل بين تابع منتصر وحاكمه الشرعى .

اقام السردار اكرم مقر قيادته على الشاطىء المضطرب لخليج اسكندرون واخذ ينتظر الاسطول وحمولات التموين . بعد ستة اسابيع من الانتظار العقيم ارغمه الطقس الردىء لهذا الشاطىء على الانتقال الى انطاكية . ومن هناك ارسل الفريق محمدا باشا ، المشهور بمعرفته للتكتيك الاوربى ، مع جيش نظامى قوامه ١٠ آلاف نفر ، ومع ١٠ مدافع الى مدينة حماة وامره بتسلم

قيادة الباشوات المرابطين فصيلة امامية فى حمص ، وبالتحصن فى اولى هاتين المدينتين .

فى تلك الفترة كان قد تفكك الانضباط التركى القديم ، الذى يجيز للقائد ان يضرب جنرالاته على اعقابهم ، فى حين لم يكن الانضباط الجديد قد استقر بشكل جيد . لم يستمع محمد باشا ، المفعم بالغرور ، الى التعليمات الحذرة للسردار اكرم ، ودون ان يعلم شيئا عن تحركات المصريين او يخامره الشك فى ان ابراهيم قد غادر دمشق ، اندفع الى حمص مع فصيلته وامر باحتلال هذا الموقع ليجنى بمزيد من السرعة غار النصر على المتمرد .

فى غضون ذلك تحرك ابراهيم الى الشمال بمحاذاة نهر العاصى الذى يطلق عليه العرب هذه التسمية لانه يجرى من الجنوب الى الشمال خلافا لكل انهار جنوب آسيا التى تجرى من الشمال الى الجنوب . وابراهيم نفسه سار الى الغزو من الجنوب الى الشمال خلافا لمسيرة الغزاة المعهودة من الشمال الى الجنوب . على مسيرة يومين من دمشق ، فى القصير ، انضمت اليه الفرقة التى كانت زمن الحصار ترابط دورية امامية فى طرابلس وبعلبك . فى ٢٦ حزيران (يونيو) ، قبل غروب الشمس بساعتين ، اقترب الجيش المصرى فجأة من حمص بنسق قتالى . كان الاتراك يستريحون فى الضواحى من جهد الطريق ، بدون خيم وبدون مؤونة ، اما الباشوات فكانوا يدخنون نراجيلهم على ضفة العاصى .

هكذا كان اللقاء الاول بين القوات المصرية وقوات السلطان . كان هناك من الجانبين حتى ١٠ آلاف شخص من الجيش النظامى والعدد نفسه من الجيش غير النظامى . لم تستطع الافواج التركية ان تصمد طويلا امام ضغط المشاة المصريين . ولم يستطع محمد باشا نفسه بجرأته المستميتة ان يعوض من هفوته . فى الليل حُسم الامر ، وفى الصباح استولى ابراهيم على حمص . فقد الاتراك نصف مدفعيتهم والفى قتيل وثلاثة آلاف اسير .

هذا الانتصار السهل اكمل الانطباع الذى احدثه الاستيلاء على عكا فى القبائل السورية ، وضمن لابراهيم خضوع المنطقة . عانت فلول الفرقة التركية فى هربها من انصارها غير النظاميين اكثر مما عانته من المنتصرين . ان النظاميين ، الذين يطلق عليهم باسلوب الشرق البليغ اسم المنصورين ، تعرضوا فى هذا الفرار العام للسخرية والنهب من جانب فرسان الباشى بوزوق ، غير النظاميين . كانوا ينزعون البزات والقماط التى تجلب لهم الشتائم والاهانات . هل كان يمكن توقع نتائج اوخم من تلك التى احدثها اول ظهور فى سورية لمحبوب محمود هذا ، ثمرة الجهود الدؤوبة على امتداد عشرات السنين ، والذى كان محط الآمال المعقودة على مصير الامبراطورية المقبل ؟ عدى حشد الفارين من الذعر كل الفصائل الموزعة على الطريق لضمان الاتصالات بمقر القيادة . وهدد هذا السيل بتحطيم مقر القيادة ايضا . ولوقفه انطلق

الفيلدمارشال بنفسه الى جسر الحديد * على العاصى ، وهناك اعمل سيفه بالهاربين . هرع الى اجراء بعض التغييرات فى جيشه وتحرك الى حلب ليغلق هذه المدينة فى وجه ابراهيم ، ولكنه سرعان ما اقتنع بموقف سكان حلب المعادى .

كانت حلب ، شأن دمشق ، تشتهر بشغبها . وينقسم سكانها المتعصبون الى حزبين — الينشارية والاميرية ** الذين كانت عداوتهم المتبادلة تشكل السند الوحيد للنفوذ الحكومى . وفى خضم الفوضى الشاملة الازلية اتخذت حلب بالتدريج مظهر جمهورية فوضوية . فى تلك الفترة كان الحزبان كلاهما ، سواء اخلاف محمد المسمون بالاميرية او اخلاف الانكشارية الذين شكلوا فى عهد الفتوحات ولم يخدموا الحكومة فى يوم من الايام ، متذمرين على حد سواء من اصلاحات استنبول ويتهمان سلطانهما بالمروق .

حينما استولى ابراهيم على دمشق ، مثل امامه وفد من سكان حلب يطلب تحرير مدينتهم من الباشوات . ان الفيلدمارشال العثمانى ، وقد علم بميل المدينة ، تخلى خشية التمرد عن الدفاع عن حلب وهرع الى احتلال ممرات سلسلة طوروس الجبلية ، بوابة سورية القديمة ، لكى يغلق آسيا الصغرى فى وجه هجوم المصريين . وكانت الحمى قد اجتاحت جيشه فى اسكندرون فاضعفته كثيرا . وعلى اثر الحمى ظهرت الكوليرا . ان الجندى التركى لا يكتئب من الامراض الجماعية ، ولكن الهزيمة قرب حمص جردته من النشاط الذى لا يستطيع الجيش التركى بدونه احراز النصر سواء اكان يرتدى العمامة او يحمل القماطر .

وللمحافظة على الاتصال بالبحر ، احتل حسين باشا مرتفعات بيلان الواقعة بين بحيرة انطاكية وخليج اسكندرون . وفى غضون ذلك كان ابراهيم يتحرك الى حلب ، فيلقى فى كل مكان استقبالا حافلا ويعين سلطات جديدة ويأخذ ما يلقاه فى طريقه من وسائل نقل الجيش التركى . بعد ثلاثة اسابيع من معركة حمص هاجم شِعب بيلان . قاتلت قواته هناك ببسالة وكلها ثقة بقائدها وبالنصر . ان تعاطف السكان ، الذين اضنتهم اساءات الجيش التركى بعد معركة حمص ، بعث نشاطا جديدا فى المصريين . وكانت مناورات ابراهيم

---

* سمى هكذا لانه كانت توجد فى السابق بوابة حديدية على كل من الجهتين لاخذ الكفّارات من العابرين .

** كان هذا التقسيم يشمل زعماء حلب الاقطاعيين المسلمين . ولم تكن هاتان المجموعتان تختلفان من حيث المنشأ فحسب ، بل ومن حيث مصادر الدخل . كتب بازيلى عام ١٨٥٠ فى تقرير الى السفير : «كان الاميرية معادين للمسيحيين على الدوام ، وكان الينشارية يحمون هؤلاء الاخرين وكانوا معنيين معهم بالتجارة والصناعة ، فى حين كانت مصلحة خصومهم المادية تتركز فى استثمار الزراعة وملكية الارض والاوقاف والالتزامات والسباهيلكات» . — **المحرر** .

مكيفة جيدا لظروف المنطقة . كان المصريون يكنسون الاتراك بفصائل صغيرة على التوالى من المرتفعات التى يشغلونها ، فى حين كانت المدفعية تطهر الشعاب امامهم . تكاد معركة بيلان ان تكون افضل مأثرة ستراتيجية لابراهيم * .

منذ ذلك الحين اخذ الاتراك يفرون بلا توقف عبر بقية مناطق سلاسل طوروس ، واختتم السردار اكرم الاخطاء القاتلة لحملته على سورية بكونه بعد تسليم العدو بوابة سورية فى بيلان اضاع رشده الى درجة انه لم يهتم بحماية بوابة قيليقيا فى غولق بوغاز . فى هذا الشعب الذى يمتد مسافة عشرة كيلومترات ونيف على ممرات يكاد يستحيل اجتازها ، وسط الصخور والمهاوى الرهيبة ، كانت تكفى كتيبة واحدة ومدفعان لسد الطريق الى آسيا الصغرى تماما . وزع الفيلدمارشال هنا وهناك فصائل رديئة غير نظامية تحت قيادة المدعو صادق باشا ، اما هو فانسحب على عجل مع فلول جيشه المحطم الى داخل آسيا الصغرى ، على الطريق المؤدى الى قونية . (ايكونيوم قديما) .

كان الاكراد والتركمان ، الذين يتنقلون فى قرمانيا ، سوطا يجلد المهزومين وادلاء لابراهيم . ان خبر خروجه من أضنة ، حيث كادت طليعة الجيش المصرى ان تأسر السردار اكرم نفسه ، طهرت امامه على الفور شعب غولق بوغاز الذى اندفعت منه الحملة المصرية الى قلب الامبراطورية .

وننوه ايضا بان الجيش المصرى عثر فى اسكندرون على كميات ضخمة من المؤونة التى كانت ، مع كل تباطؤ الجيش التركى فى مسيرته من العاصمة الى سورية ، قد وصلت لتوها عن طريق البحر قبيل فراره مباشرة . اقترح حينذاك على الفيلدمارشال ان يرمى بكل هذه المؤونة فى البحر لكى لا يستولى عليها ابراهيم ، اذ لا يستطيع ابراهيم تعقبه بدون مؤونة . ولكن حسين ببدلته نصف الاوربية بقى امينا على الروح الابوية لآسيا . اجاب : «ان اتلاف النعم السخية التى يشبع بها الله جوع مخلوقاته اثم شديد ، يكفى اننا نخوض حربا على المؤمنين ، ولا لزوم لاماتتهم جوعا» .

ان السلطان ، الذى كان اجداده يصمون بالخيانة مصائب او اخطاء قادتهم العسكريين ، استقبل بلا غضب المسؤولين عن الفواجع فى سورية ، حسينا ومحمدا . حينما كان السكان ينحازون الى المتمرد بطيبة خاطر ، كفر اخلاص الجيش والباشوات ، الذين قاتلوا من اجل عاهلهم ببسالة ، عن كل اخطائهم . وبالمناسبة ، ادرك محمود ان عبقرية الآغا-باشا قد استنفدت فى سيول دماء الانكشارية ، وان اخلاص القائد العسكرى لعاهله وصرامته القاسية تجاه المتمردين لا يغنيان عن مواهبه . ومنذ ذلك الحين يحكم حسين باشاليك ودّين ويجمع ملايين النقود من التجارة والاحتكار .

---

* جرت معركة بيلان فى ٢٩ تموز (يوليو) عام ١٨٣٢ . — **المحرر** .

لم يساهم الاسطول تحت قيادة خليل باشا فى اية عمليات حربية . بعد معركة بيلان قابل الاسطول المصرى فى بحر قبرص . وطاف كل من الاميرالين على مراى الآخر عدة اسابيع على التوالى ، وكأنهما اتفقا على تجنب المعركة . ثم دخل خليل باشا خليج مرمريس ، عند ساحل كاريا ، مقابل رودس . اخذ الاسطول المصرى يحاصره هناك ، الى ان قذفت عاصفة بالمصريين الى كاندى ، الى خليج سودة ، حيث امضوا الشتاء هناك . عندئذ ابحر خليل باشا عائدا الى العاصمة * . وقد جُرد الاميرالان من رتبتهما وحلت عليهما النقمة . اتهم

---

* فى تلك السنوات كنت اخدم فى عمارة الاميرال ريكورد فى البحر الابيض المتوسط . وكانت القضايا السورية قد لفتت اهتمام الوزارات . ورأت روسيا ضرورة تدخلها . فى اواخر ايلول (سبتمبر) زرت والاميرال سودة وكاندى حيث رأيت القوات المصرية النظامية لاول مرة . وكان قد عهد بكاندى الى باشا مصر مكافأة له على اجتياح بيلوبونيز ، وتعويضا من خسارته الاسطول فى نافارين . كان من المرعب النظر الى حالة كاندى حينذاك . فى خلال مرورنا بالقرى الجميلة فى الجزيرة السيئة الطالع لم نر اى مخلوق كان . لقد منح مؤتمر لندن السلطان كاندى التى قاتل سكانها المسيحيون بعنف الاتراك على امتداد الحرب اليونانية كلها . وفى خلال الحرب فر الاتراك الى آسيا الصغرى او احتموا فى ثلاث قلاع صمدت حاميتها امام هجمة السكان المسيحيين . وبعد انتهاء الحرب ، حينما حُكم على اليونان ان تسحب جيشها من كاندى وتسلم الجزيرة للاتراك ، فر السكان المسيحيون الى اليونان . وفى القرى التى لم تحرق ، بقيت البيوت فى تلك الفترة (بعد قرابة سنتين من هرب سكانها) من غير ان تنهب ، لانه لم يكن هناك من ينهبها .

ابحرنا من كاندى للبحث عن الاسطول . عند جزيرة رودس قابلنا الاسطول المصرى المكون من ١٣ قطعة بينها ٣ بوارج و٥ فرقاطات . كانت الفرقاطات مدهونة بحيث تبدو سفنا من طابقين ، واضيف الى السفن ذات الثمانين مدفعا شريط ابيض ثالث للزخرفة . عثرنا على الاسطول التركى فى خليج مرمريس الذى يكاد يكون افضل ميناء فى البحر الابيض المتوسط من حيث الامان والاتساع ، ومن حيث سهولة الدفاع عن مدخليه . كان الاسطول التركى مكونا من ٣٢ قطعة بينها اثنتا عشر بارجة . وكان علم وبيرق الاميرال الكبير يرفرفان على سفينة المحمودية المجهزة بمئة واثنين وثلاثين مدفعا . اغلق خليل باشا مدخل الخليج بالسلاسل خشية الهجوم ، مع انه كان يقود اسطولا اقوى من الاسطول المصرى من حيث عدد المدافع وعياراتها . وقد دعانا بلطفه المعهود الى حرش دلب رائع على ساحل الخليج واكد لاميرالنا انه ينتظر فقط امر السلطان لابادة الاسطول المصرى . ولكن كانت عنده اسباب وجيهة لتجنب المعركة : لم تكن طواقمه مكونة من البحارة ، بل من مختلف الرعاع ، ولم تكن عند الضباط اية خبرة فى الشؤون البحرية (اما النظرية فهى ابعد ما تكون عن الاتراك) ، ولم يكن فى وسع كل ملاطفات السلطان ان تلهم القبودان باشا العبقرية البحرية . وخليل ابن القفقاس ، مصدر الباشوات ، كان فى طفولته رقيقا عند مواطنه خسرو الذى عينه ضابطا فى الجيش النظامى ، محتفظا فى الوقت نفسه بما له من حقوق عليه . وفى حملة موره احبه ابراهيم باشا للباقته وقوته الجسدية . وفى حملتى عامى ١٨٢٨ و١٨٢٩ على روسيا اوصلته شجاعته وحماية خسرو الى لقب الباشا . واذ

خليل بالعطف على الباشا المصرى لانه صان اسطول السلطان من الابادة ونصح بعقد صلح مع محمد علي . وغضب ابراهيم ، من جانبه ، على الاميرال المصرى لانه لم يهاجم الاسطول التركى . كان يحق للاميرالين ان ينتظرا محادثات بين الباب العالى ومصر بعد معركة بيلان عوضا عن الاستمرار باراقة الدماء بلا مغزى .

ولكن فى تلك الفترة اصيب محمد علي بالدوار من النجاحات التى فاقت كل توقعاته . واكد ابراهيم للباشا المسن فى تقاريره انه لن يهاب بعد معركتى حمص وبيلان مقابلة جيش تركى قوامه ١٠٠ الف نفر . اما محمود فقد اعتاد على الصراع ضد الاتباع ، وانتابه الغضب ، لا الكآبة ، بعد الهزيمة المزدوجة التى عُزيت بحق الى اخطاء الجنرالات . لم يلتمس محمد علي السلام ، فى حين ان اى شروع [فى محادثات] الصلح من جانب العاهل الشرعى كان من شأنها ان تقترن بالذل .

قُمع تمردا البوسنة والبانيا ، ومن المعروف ان محمد علي اجج مسبقا لهيب التمردات فى تركيا الاوربية ليصرف انتباه الباب العالى عن سورية . على امتداد سنتين كاملتين انشغلت افضل الافواج النظامية تحت امرة الوزير الاعظم محمد رشيد ، افضل قائد تركى ، بالحرب فى الرومَلّى ضد قبائلها المشاغبة * . وقد استدعى السلطان جيشه من هناك . وعلاوة على عشرين كتيبة وعشرين سرية انجز تشكيلها فى هذه المحنة القاسية ، كانت القبائل التى اخضعت تسير بطيبة خاطر تحت راية الوزير الاعظم الذى استطاع بجرأته وذكائه ان يلهمها الثقة به . وانتقل الى آسيا ٣٠ الفا من الالبانيين والبوسنيين تحت امرة بهواتهم الشجعان . واعتمد الوزير الاعظم فى الغالب على ابناء الرومَلّى هؤلاء ، الذين ربتهم الحرب فى وطنهم الحافل بالفوضى ،

رغب الباشا بعد عقد الصلح فى ان يرى اوربا نموذجا للاتراك المتجددين ، عينه سفيرا فى بطرسبورغ ، حيث حاز فى الواقع اعجاب البلاط والمجتمع الروسيين ، محاولا اقتباس لهجة واساليب المواطن الاوربى . وحينما عاد الى استنبول بعد انقضاء ستة اشهر من اقامته فى روسيا ، كان السلطان فى غاية الاعجاب به نظرا لعدم تكلفه واساليبه العسكرية النبيلة واحاديثه عن الجيش الروسى ، وعن عظمة البلاط الروسى . ان يد ابنة السلطان محمود ورتبة الجنرال اميرال (القبودان باشا) رفعتا الرقيق القفقاسى الى اعلى درجات التقدير والعظمة لدى البلاط العثمانى . وبعد الاصلاح ايضا ، يعهد السلاطين باسطولهم ، شأنهم فى السابق ، الى محبوب لم يخدم فى البحر على الاطلاق .

كان الاسطول المصرى تحت قيادة عثمان نور الدين باشا ، الذى تلقى مسبقا تحصيله العلمى فى اوربا وكان عنده عدة ضباط فرنسيين جيدين .

* يجرى الحديث عن الانتفاضتين اللتين نشبتا عام ١٨٣١ فى البانيا تحت قيادة مصطفى باشا وفى البوسنة برئاسة حسين . — **المحرر** .

لمعاقبة فلاحى النيل المنضوين الى كتائب نظامية والذين يحتقرهم الاتراك دائما .

تواردت فلول جيش حسين المحطم ثانية الى قونية التى انطلق اليها الجيش الرومَلّى بانتظام لملاقاة ابراهيم . وحث السلطان نفســـه بنشاط خارق الاستعداد للحملة ، وغذى غيرة ضباطه بالهدايا والحديث اللطيف ، واجرى الاستعراضات وكان يهتم بالجندى شخصيا ، وفى انتظار الوزير الاعظم شكل رئيس اركانه امين رؤوف باشا جيشا فى قونية وقد امر بتجنب المعركـــة وبالانسحاب اذا اقتضت الضرورة .

وفى غضون ذلك جمع محمد علي قسرا المجندين لجيشه فى سورية وزود ابراهيم من البحر بالمدفعية وبكل ما يلزم لمواصلة الحملة فى عز الشتاء . بقى ابراهيم قرابة الشهرين فى باشاليك أضنة . وتمكن من ان يجذب الى جانبه الخيالة غير النظاميين من السكان الاصليين . لقد نوهنا بان الطريــق المؤدى الى آسيا الصغرى كان مفتوحــا امام ابراهيم وبعث الى هناك عملاءه وكلفهم بان يعززوا فى القبائل المتخلفة فى تلك المنطقة روح التذمر مـــن اصلاحات السلطان الحكومية وتصوير المنتصر على الوهابيين اداة لله من اجل انقاذ الاسلام .

فى تشرين الاول (اكتوبر) اجتاز ابراهيم مع الجيش شعــب طوروس ، متجها الى قونية ، وفى الطريق خضع له السكان بطيبة خاطر . ان الانضباط الصارم للجيش المصرى وعدل ابراهيم ازاء السكان الذين ارهقتهــم فوضى الجيش التركى اكسباه سمعة حميدة فى كل آسيا الصغرى وضمنا له تعاطف الشعب .

كان محمود قبل ذلك بامد قصير قد لجم الروح المشاغبة والعســـــف الاقطاعى لدريبهوات آسيا الصغرى ، ولكن محاولات الاصلاح الاولى مرهقة للشعب دائما . بامر من الحكومة انتقلت سلطــة الدريبهوات المتوارثين الى ايدى موظفين مجردين من الاخلاق . قويت السلطة الحكومية ، ولكن الشعب اسف بدرجة لا تقل عن ذلك على مضطهديه السابقين ، وانتشر التذمر مـــن الاصلاح اكثر واكثر ، واخذ الناس فى كل مكان ينتظرون ابراهيم كمنقذ .

عشية وصول ابراهيم الى قونية انسحب من هناك امين رؤوف باشا الذى كان مقره الرئيسى فى آق جائير . لم يتوان الوزير الاعظم عـــن تولى قيادة الجيش الذى كان يضم ٥٥ الف نفر فى حوزتهم ٩٠ مدفعا ، وكان من كـــل الجوانب افضل بما لا يقاس من الجيش الذى هلك عبثا فى سورية . وكان هناك احتياطى من خيرة المقاتلين قوامه ٢٠ الف نفر ، بما فى ذلــك حرس السلطان ، يرابط فى معسكر على الساحل الآسيوى على مقربة من العاصمة ، او يشكل الحامية فى العاصمة نفسها .

وهكذا ، عهد بمصير الامبراطورية لجيش الوزير الاعظم . وفى حالـــة

هزيمته لم يكن فى وسع الاحتياطى بأفراده العشرين الفا ان ينقذ القسطنطينية . لقد رأينا الشعور الذى ابدته قبائل آسيا الصغرى . وكانت روح الانكشارية تكمن فى العاصمة نفسها وتتجلى احيانا على شكل حريق ، حسب العادة القديمة . ان كل الصرامة البوليسية لخسرو باشا ، الذى كان يتمتع بصلاحياته كحاكم عسكرى عام وكمحبوب لذلك العهد ، لم توقف نمائم المقاهى . كان محمود يدرك جيدا انه اذا حالف الحظ فى ميدان المعركة ابراهيم للمرة الثالثة ، فبوسعه ان ينطلق الى القسطنطينية بلا عائق ، ومن شأن اقترابه منها ان يثير انتفاضة فى العاصمة نفسها .

وهكذا ، تحول صراع التابع المحظوظ ضد عاهله الشرعى الى مسألة سياسية هامة حول وجود الامبراطورية نفسها تحت حكم سلالتها المالكة . لم يكن محمد على وابراهيم من عداد الباشوات الذين يطيحون بالسلطان من عرشه ليركعوا امام شقيقه وولى عهده ، كما حصل بالفعل فى عام ١٨٠٨ ، حينما قام مصطفى بيرقدار بتنصيب محمود نفسه . كان فى وسع الدول الاوروبية حينذاك ان تنتظر بهدوء حل الازمة الداخلية فى تركيا ، ولكن الازمة الشرقية فى الظروف الحالية اكتسبت مقاييس مسألة سياسية هامة بالنسبة لاوروبا نفسها ، لانها ستسفر ، كما هو واضح ، عن تغير السلالة الحاكمة وجملة من العواقب التى من شأنها ان تشعل حربا فى اوروبا .

ان موقع روسيا الجغرافى ، ورغبة حكومتنا فى ضمان السلام الداخلى فى الدولة المجاورة لنا والسلطة الشرعية من اجل التنمية الصناعية لكل ساحل البحر الاسود الذى اوجدت له جهود عواهلنا الجبارة السابقة مصيرا جديدا ، واخيرا علاقاتنا نفسها بتركيا بعد عقد صلح ادرنة ورغبتنا فى جعل هذا الصلح ، الذى اشتريناه بالانتصارات ، يتوطد على ارسخ اسس من تعاطف الحكومة والشعب التركيين مع جارهما الشمالى الجبار وثقتهما به ، قد فرضت جميعها على روسيا درء المصائب التى كانت السحابة التى انعقدت فى الجنوب ، فى وسط آسيا الصغرى ، تتوعد بها الشرق واوروبا نفسها .

فى غضون السنوات الثلاث الاولى بعد عقد صلح أدرنة اعطى نظام روسيا السياسى الشرقى ثماره . والحكومة العثمانية ، التى خبرت قوة سلاح روسيا ، وثقت ، اخيرا ، بصرامة واستقامة الكلمة الروسية وبالاتجاه الواقى للبلاط الروسى . ان اليونان التى انبعثت لتوها ، والتذمرة من الحدود التى رُسمت لها ، وكذلك القبائل المسيحية الواقعة تحت الحكم التركى قد نظرت بحزن عميق الى اتجاه روسيا الواقى ازاء الامبراطورية العثمانية . ولكن هل كان فى وسعها حقا ان تتوقع تحسن قسمتها نتيجة سقوط السلالة المالكة ؟ حتى ولو انهارت الامبراطورية العثمانية ، فهل فى وسع القبائل المسيحية ان تحصل على الوجود المستقل بدون مساعدة اوروبا ، فى حين ان تدخل اوروبا المسلح بتلك المقاييس التى اعربت عنها بعض الدول العظمى من شأنه فقط ان يهدد

بتعميق شرور الشرق المتألم الذى كان آنذاك يحتاج الى الراحة اكثر ما يكون .

ان السلطان محمود ، اذ عهد بمصيره الى مصادفات معركة واحدة ، توجه فى الوقت نفسه الى روسيا ، طالبا منها الحماية اذا خسر ايضا هذا الاشتباك الحاسم الاخير . بعد استيلاء ابراهيم على عكا ، حينما اتخذ تمرد محمد علي منعطفا خطيرا ، اشارت الحكومة الروسية مسبقا على الدول الاخرى بضرورة كبح المنتصر . كان يكفى حينذاك ظهور الاسطولين الانكليزى والفرنسى عند شواطىء سورية او مصر واطلاق تهديد واحد للجم مخططاته .

ولكن الدول الغربية نظرت حينذاك بلا مبالاة الى احداث الشرق . وفيما بعد ، خيمت السحب على العاصمة وحينما دخلت البوسفور فرقاطة البحر الاسود ، شتاندارت ، التى استقلها الجنرال مورافيوف * حاملا ردا رائعا من العاهل الامبراطور على طلب السلطان واقتراحا بتقديم دعم معنوى ومادى من روسيا ، عادت الدول الغربية الى رشدها واخذت تنظر بحسد الى ما تقدمه روسيا من حماية منزهة . ان فرنسا خاصة ، التى كانت قبل امد قريب تحاول برعونة وفشل تسليح تركيا ضد روسيا بمناسبة الحرب فى بولندا ، اخذت تطالب الآن بالحاح ، مستخدمة التملق احيانا والوعيد احيانا اخرى ، بان يعهد بتدبير الامر الى وساطتها على وجه الحصر . وتسامحها السافر مع باشا مصر لم يوح للسلطان بكبير ثقة بالدولة التى كانت على اى حال تتبجح فى القسطنطينية بانها الحليفة القديمة للباب العالى العثمانى . وقبل ذلك بامد قصير نعت وزير خارجيتها تركيا بالجثة فى خطاب القاه على الملأ فى مجلس النواب ، لانها لم تذعن الى ارشادات السفير الفرنسى وتشن الحرب على روسيا فى عام ١٨٣١ .

كان ابراهيم فى غضون ذلك ينتظر الوزير الاعظم فى قوينة والى الشمال من المدينة ، على الطريق العام المؤدى الى القسطنطينية ، كان يدرب قواته بمناورات يومية على اراضى ميدان المعركة الذى اختاره . وفى ٩ كانون الاول (ديسمبر) خسر رشيد محمد هذه المعركة الحاسمة قرب قونية . كان النصر فى يديه ، فقد طوق الجيش المصرى بمناورات ناجحة وعزله عن المدينة ، واصبح وضع ابراهيم حرجا ، ولا سيما ان قواته غير النظامية كانت مستعدة للانتقال الى الاتراك . ولكن فى ذلك الوقت غطى ضباب كثيف ميدان المعركة ، واندفع الوزير الاعظم وسط فصيلة مصرية لم يستطع تمييزها ، فوقع فى الاسر . سأله الجنرال المصرى الذى سُلم اليه : «من انت ؟» . اجاب رشيد

---

* مورافيوف نيقولاى نيقولايفيتش (١٧٩٤–١٨٦٦) – دبلوماسى وشخصية عسكرية . ذهب فى عام ١٨١٩ الى بخارى وخوى لدراسة الطرق واقامة العلاقات الدبلوماسية بالخانيتين ، وساهم فى الحرب الروسية – الفارسية اعوام ١٨٢٦–١٨٢٨ وفى الحرب الروسية – التركية عامى ١٨٢٨–١٨٢٩ ؛ قاد فى عام ١٨٣٣ الفصيلة الروسية التى ارسلت الى السلطان لمساعدته ضد محمد علي – **المحرر** .

محمد باشا : «ضابط» . سأله المصرى : «ألست الوزير الاعظم ؟» . قال الأسير باكتئاب : «قبل عدة دقائق كنت الوزير الاعظم» . سارع المصريون الى تقديم آيات الاحترام له ؛ وانتشر الخبر بين المتقاتلين ؛ لم تكن عند الاتراك اركان عامة ، وكانت كل الاوامر ، شأن خطة المعركة ، فى يدى القائد العام ، وبفقده اختلط الحابل بالنابل ، ولم تعترف الميليشيات الرومَلّية ، التى كانت قوة الجيش التركى تقوم عليها فى الغالب ، بسلطة الباشوات الآخرين عليها ؛ واذ علم بأسره بكواتها الذين كانوا يخدمونه شخصيا ، توقفوا عن اطلاق النار واخذوا ينسحبون من ميدان المعركة . وهكذا لاذ الجيش التركى بالفرار ، بعد ان افلت من يده الانتصار الاكيد .

لقد اعتادت الشعوب الشرقية على ان ترى فى المنتصر شخصا اختاره القدر ، واختاره الله . ان النصر ، الذى احرزه ابراهيم فى قلب الامبراطورية على رئيس حكومتها الذى وقع فى اسره ، وعلى الجيش الذى كان فيه نظام تركيا العسكرى قديمه وجديده يتمثل فى نخبة من القوات النظامية وغير النظامية ، قد اثار بعمق مخيلة قبائل آسيا الصغرى . واخذت تقدم آيات الخضوع للمنتصر الواحدة اثر الاخرى . وهذه الازمة وقعت تحت اسوار قونية ، المهد المقدس لعظمة السلاطين الاوائل الذى انطلقت منه قبيلة عثمان الفتية فى يوم من الايام ، مفعمة بالحياة والقوة ، الى مأثرتها الجبارة على هدى نجم انتصاراتها المتألق .

منذ ان تلقى السلطان اول خبر عن هزيمة جيشه الاخير توجه الى وزيرنا المفوض بوتينيف * بطلب الجيش والاسطول المساعدين اللذين وعد بهما لتغطية عاصمته المهددة . وفى الوقت نفسه ارسل خليل باشا ، الذى اشتهر بانه نصير لمحمد علي ، الى مصر لفتح المفاوضات . وبناء على رغبة السلطان هرع الجنرال مورافيوف كذلك الى مصر ليبدد بصلابة وصدق الكلام الروسى الضباب الذى ادخله نجاح السلاح فى عقل محمد علي ، وليعزز اقتراحات الباب العالى الذى تخلى له عن كل سورية الجنوبية . وكذلك ارسل من بعثتنا عقيد الاركان العامة ديوغاميل ** الى معسكر ابراهيم باشا لينصحه بالتوقف وانتظار نتيجة المفاوضات السلمية بين الباب العالى وابيه .

---

* بوتينيف ابوليناري بيتروفيتش (١٧٨٧-١٨٦٦) - دبلوماسى بدأ العمل فى وزارة الخارجية فى عام ١٨٠٤ . عين فى عام ١٨١٦ سكرتيرا للسفارة الروسية فى القسطنطينية ، حيث بقى حتى عام ١٨٢١ ؛ ساهم فى الحرب الروسية - التركية عامى ١٨٢٨-١٨٢٩ بمثابة مدير لمكتب نيسيلرودى المتنقل . بعد عقد معاهدة الصلح فى ادرنة عين قائما باعمال السفارة ، واصبح منذ عام ١٨٣٠ سفيرا فى القسطنطينية . وشغل من عام ١٨٤٣ الى عام ١٨٥٦ منصب وزير مفوض فى روما . فى عام ١٨٥٦ عين بوتينيف عضوا فى مجلس الدولة وارسل مجددا وزيرا مفوضا الى القسطنطينية ، حيث بقى حتى عام ١٨٥٨ . - **المحرر** .

** ديوغاميل الكسندر اوسيبوفيتش (١٨٠١-١٨٨٠) ، شخصية عسكرية

واذ اصرت السفارة الفرنسية ، من جانبها ، على طلبها بانهاء كل هذه القضية عن طريق وساطتها ، تكفلت للباب العالى بألا يتقدم ابراهيم ، وطلبت باصرار وعن طريق التهديد الا تستدعى القوات الروسية المساعدة الى القسطنطينية . وكان الباب العالى يعرف ان القنصل العام الفرنسى فى الاسكندرية السيد ميمو لم يتوقف فى الوقت نفسه عن تشجيع محمد علي باسم حكومته .

فى غضون هذا الاضطراب الدبلوماسى ، ورغم التأكيدات المتعجرفة للقائم بالاعمال الفرنسى لدى الباب العالى العثمانى ، تحرك ابراهيم من قونية . فهل اراد باقترابه من العاصمة ان يثير هناك تمردا ويطيح بالسلطان ، او اراد ان يعزز مطامع ابيه فقط ويرغم الباب العالى على الموافقة على كل ما يأمره به . — هذا ما لا نعرفه . وبحجة انه لم يجد فى قونية مؤونة لجيشه ، سار الى القسطنطينية مباشرة ، ولكنه لم يغير المجاملات التى تعبر عن شعوره المخلص ازاء السلطان ، واوغل فى هذه الكوميديا الاسيوية الى درجة انه وضع نفسه وكل جيشه تحت القيادة الاسمية لاسيره ، الوزير الاعظم ، رئيس الحكومة ؛ وبأسمه كانت تُكتب كل التقارير ، ومنه طلب الاذن بالذهاب الى بورسة القريبة من بحر مرمرة . وكان يرد بايجاز على كل نصائح المبعوث الروسى وعلى الحاح السفير الفرنسى ان واجبه هو ان يطيع اباه الذى امره من مصر بالسير قدما .

وفى خلال ذلك ما ان تلقى محمد علي خبر الانتصار حتى استعد مع اسطوله للذهاب الى القسطنطينية مباشرة والظهور هناك من البحر فى وقت واحد مع ابنه الذى كان يسير الى الامام ويلقى الاستقبال الحافل فى كل مكان من آسيا الصغرى .

وصل الجنرال مورافيوف الى مصر قبل خليل باشا بعدة ايام وتمكن من تهدئة الشيخ الجامح واستمالته الى المفاوضات ، معلنا له انه سيجد فى القسطنطينية القوات البحرية والبرية لروسيا . وبالفعل دخلت البوسفور فى ٨ شباط (فبراير) عام ١٨٣٣ الفصيلة الاولى من اسطول البحر الاسود المكونة

ورجل دولة . فى عام ١٨٢٧ عين سكرتيرا ثانيا للقسم العسكرى للسفارة الروسية فى القسطنطينية ، وساهم فى الحرب الروسية — التركية عامى ١٨٢٨—١٨٢٩ . وفى عام ١٨٣٢ بُعث بمثابة مفوض عن وزير الحربية الى الجنرال مورافيوف وارسل الى القسطنطينية ، ومن هناك توجه فى ٥ كانون الثانى (يناير) عام ١٨٣٣ الى قونية يحمل تكليفا بان يقترح على ابراهيم باشا وقف تقدم القوات المصرية . واصبح فى عام ١٨٣٣ قنصلا عاما فى الاسكندرية ، حيث نهج بنشاط السياسة الروسية فى بلاط محمد علي ، وقد بقى هناك حتى عام ١٨٣٧ . ومن عام ١٨٣٧ الى عام ١٨٤١ عمل سفيرا فى طهران ، وفى عام ١٨٤٣ ارسل بمهمة خاصة الى مولدافيا وفلاشيا . وبعد ذلك لم يعد عمله مرتبطا بشؤون الشرق . — **المحرر** .

من اربع سفن واربع فرقاطات وحراقتين تحت قيادة اللواء البحرى كومانى . هذا الخبر اوقف ابراهيم فى كوتاهية على بعد قرابة ٢٥٠ كيلومترا عن البوسفور .

وصل الى القسطنطينية السفير الفرنسى الجديد الاميرال روسين ، وبدأ يهدد بقطع العلاقات بالباب العالى اذا لم يتخلّ عن العون الخارجى ، وتعهد باسم حكومته ان يرغم ابرهيم على التراجع الى شعب طوروس ومحمد علي على القبول بالشروط التى اقترحها خليل باشا . كان هذا الطلب غريبا : كان ينبغى لارضاء السفير سحب الاسطول الروسى الذى دعاه السلطان ، وتفضيل الالتماس الدبلوماسى على التدخل المسلح حينما كان يجب انقاذ الامبراطورية من فناء اكيد وحينما كان التمرد على اهبة الانفجار فى العاصمة اذا فكر ابراهيم فى جعل مقدمة جيشه تسلك الطريق الى القسطنطينية . وبالمناسبة ، لم يستمع ابراهيم ولا ابوه الى تعليمات السفير الواثقة . وفى خلال آذار (مارس) ونيسان (ابريل) دخلت البوسفور فصيلتان اخريان من سفن اسطول البحر الاسود تحمل جيش انزال قوامه ١٢ الف نفر رابط فى معسكر على الساحل الاسيوى للبوسفور فى وادى اونكيار اسكيليسى ، مقابل السفارة الفرنسية .

استلم الجنرال مورافيوف ، الذى رجع من مصر بعد بدء المفاوضات بين محمد علي وخليل باشا ، قيادة جيش الانزال ، اما نائب الاميرال لازاريف فاستلم قيادة الاسطول . وفى ايار (مايو) فقط وصل الجنرال-اديوتانت الكونت اورلوف بصلاحيات سفير فوق العادة وقائد عام للقوات البحرية والبرية .

فى كل مرة تجرى بين السكان المسلمين فى تركيا ، المستأثرين بالحياة السياسية على وجه الحصر ، اضطرابات لسبب من الاسباب ، تنصب الصاعقة عادة على المسيحيين العزّل والحرفيين ، فى ذلك الحين كان الغوغاء المؤمنون سواء فى الروملّى او فى آسيا الصغرى مفعمين بالحقد التعصبى على المسيحيين بعد الحرب اليونانية . وكانوا بدرجة لا تقل عن ذلك ناقمين على سلطانهم نفسه بسبب التجديدات الحكومية وبسبب جهوده لكبح العادات الفوضوية التى عدّى الانشكارية كل الامبراطورية منها . وتأجج باسم ابراهيم لهيب الانفعالات الشعبية وكانوا فى الكثير من المناطق ينتظرون الساعة تلو الساعة اشارة لابادة المسيحيين . لقد انهارت السلطة الحكومية من تلقاء ذاتها ، ووصلت الحالة المعنوية فى الاقليم الى درجة انه فى سميرنة (ازمير) ، مثلا ، ثانى مدن الامبراطورية ظهر من مكان ما افاق اسمه محمد آغا استطاع باسم ابراهيم ، دون ان تكون معه ، بالمناسبة ، اية وثيقة خطية واى جندى ، ان يدبر فى غضون يومين مؤامرة مع بعض السكان الاصليين المسلمين ويعزل فى اليوم الثالث المتسلم بدون اية طلقة ويستولى على

السلطة . وخضعت له المدينة بسكانها المئة والخمسين الفا بطيبة خاطر ، واحتج القناصل الاوربيون وحدهم الى ان اختفى الافاق بعد ان نهب ما استطاع نهبه .

من الواضح ان الاجراءات الحاسمة التى اتخذتها روسيا فى تلك الظروف لم تنقذ السلطان وسلالته فحسب من الاعتداءات الطموحة للباشا المصرى ، بل انقذت ايضا كل السكان المسيحيين فى العاصمة وآسيا الصغرى والروملّى من عنف الغوغاء المؤمنين . والى جانب ذلك وضــــع حد لخلافات المسلمين العائلية ، وبدون الظهور السريع للقوات الروسية فى القسطنطينية كان من شأنها حتى ان تتخذ مقاييس مسائل لا يمكن حلها الا بحرب شاملة .

طالت المفاوضات بين الباب العالى ومحمد على . ان الباشا المصرى ، وقد اضطر الى التخلى عن اطماعه فى القسطنطينية نفسها ، حيث كان يحلــم ان ينصب سلالته على العرش العثمانى ويسبغ حياة جديدة على الدولة المتداعية ، طمح الى ان يضع تحت حكمه على الاقل اكثر ما يمكن من المناطق والنواحى . وقرر الباب العالى ان يتخلى له عن سورية كلها . وفى الواقع كانت مصالحه الخاصة تقتضى هذه التضحية . كان ينبغى انجاز وتوطيد ما اتخذ من تحولات حكومية فى المناطق التى كان السلاطين ينهلون منها عناصر جبروتهم وجيشهم وخزينتهم : اما سورية فكانت ، كما رأينا ، عبئا دائما على الباب العالى حتـى فى ذلك الزمن حينما لم يكن السلاطين وحكوماتهم يهتمون ابــدا بالشؤون الداخلية للباشالكات . فى غضون هذه الازمة ، وبعد العطف الذى ابدتــه القبائل السورية تجاه ابراهيم ، كان من شأن هذه المنطقة ان تشكل تحت حكم الباشوات اداة يثير بها محمد علي الاضطرابات فى الامبراطورية حينمــا يشاء .

علاوة على سورية طالب الباشا بأورفا وبعض النواحــى الاخرى على الفرات ، شمالى حلب ، وحرص باشد ما يكون من الاصرار على باشالك أضنة بحجة انه بحاجة الى اخشاب هذه المنطقة من اجل بناء الاسطول . اما فــى الواقع فان امتلاك باشالك أضنة بدا له افضل ضمانة لسورية لانه يشكــل ببوابته المزدوجة مفتاحا لهذه المنطقة من جهة آسيا الصغرى . واخيرا ، قرر الباب العالى مضطرا الى التخلى عن سورية ان يسلم تابعه مفاتيح هذه المنطقة كذلك ، رغم انه كان يعرف ان هذه المفاتيح نفسها هى التى كانت تفتــح الطريق من سورية الى داخل آسيا الصغرى . وقعت المعاهدة فى كوتاهية ، فى مقر قيادة المصريين ، بتاريخ ١٣ ذى القعدة (٢٧ آذار – مارس) * .

---

* هذا التاريخ غير صحيح . فقد وقعت معاهدة كوتاهية فى ٤ ايار (مايو) عام ١٨٣٣ .

يبدو ان بازيلي يشوه الحقائق عمدا ، وذلك لكى يبيض صفحة السياسة الروسية ،

في ١ نيسان (ابريل) عام ١٨٣٣ ظهر من جديد في توجيهات السلطان التي يثبت او يعزل بموجبها ولاته سنويا ، اسما محمد علي وابراهيم اللذان حذفا قبل ذلك بسنة . وقد الحقت الآن بممتلكاتهما السابقة - مصر وكاندي وجدة - باشالكات صيدا (عكا) ودمشق وطرابلس وحلب وسنجقا غـزة ونابلس . وانعم فيما بعد على ابراهيم بباشالك أضنة بمثابة مُحصِّلك ، اي يحق له ان يجمع فيه الاتاوات لحساب الحكومة .

عندئذ فقط اخذ ابراهيم يتراجع مع جيشه الى وراء سلسلة جبال طوروس . وفي اواخر حزيران (يونيو) وصل الى القسطنطينية خبر انتقال مؤخرة جيشه الى داخل حدود الممتلكات المتنازل له عنها . وقبل ١ تموز (يوليو) غادر اسطولنا وجيشنا عاصمة الامبراطورية العثمانية التي انقذاها .

قاد السلطان محمود شخصيا غير مرة مناورات معسكر اونكيار اسكيليسي وتفقد افواجنا وابدى اعجابه بمظهرها النشيط وانضباطها وجمال نسقها . لقد كان الانطباع الذي احدثته في السلطان وفي الحكومة ، وفي الجيش والشعب العثمانيين الاقامة القصيرة الامد للجيش والاسطول الروسيين في القسطنطينية بمثابة تأكيد مهيب لحسن نية البلاط الروسي ازاء الدولة

باسباغ طابع شرعي على تدخل روسيا في الشؤون التركية . اما في الواقع ، فقد جرت الاحداث على النحو التالي :

ان السلطان ، وقد مني بالهزيمة في الصراع مع محمد علي ، توجه بطلب المساعدة الى انكلترا وفرنسا . بيد ان طلبه هذا لم يسفر عن نتيجة .

روسيا وحدها ، التي لم تكن ترغب في سقوط الحكومة التركية الضعيفة وحلول سلطة محمد علي القوية مكانها ، تدخلت بنشاط في النزاع التركي ـ المصري . وارسل الى القسطنطينية الفريق مورافيوف . وكانت الغاية من ارساله ابلاغ الباب العالي بان الحكومة الروسية مستعدة لتقديم المساعدة الى تركيا عند اول طلب منها وارغام محمد علي على وقف العمليات الحربية .

بيد ان الحكومة التركية رفضت قبول مساعدة روسيا ، ولكن احتفظت لنفسها بحق الاستفادة منها فيما بعد . ارسل الباب العالي خليلا باشا الى الاسكندرية لمفاوضة محمد علي . في غضون ذلك غادر جيش ابراهيم في ٢٠ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٣٣ قونية وتحرك وجهة بورسة . وفي ٢ شباط (فبراير) وصل الى كوتاهية ، وهناك ادركه امر محمد علي بالتوقف (كان ذلك نتيجة لذهاب مورافيوف الى الاسكندرية) . ان الباب العالي ، وقد علم بتحرك جيش ابراهيم ، طلب من المبعوث الفرنسي تقديم المساعدة مجددا ، واذ لم يتلق منه ضمانات اكيدة لوقف هجوم المصريين ، توجه في ٢ شباط (فبراير) عام ١٨٣٣ الى السفير الروسي بوتينيف بطلب ارسال عمارة من البحر الاسود وفيلق مشاة من ٢٥-٣٠ الف شخص .

اثار ظهور العمارة الروسية في البوسفور قلقا شديدا وسط الدبلوماسيين الاوربيين . وتحت ضغط مبعوثي فرنسا وانكلترا قبلت حكومة السلطان بالشروط التي املاها محمد علي : وضعت تحت حكم محمد علي سورية كلها مع باشالك اضنة . ـ **المحرر** .

المجاورة بعد عقد صلح أدرنة . وبدأ عهد جديد بالنسبة الى ملايين المسيحيين الشرقيين من حيث شعور الامتنان لدى عاهلهم تجاه دولة تعتنق دينهم . وفى الواقع كانت فترة السنوات الست عام ١٨٣٣ الى وفاة محمود فترة تسامح دينى عملى ابدته الحكومة التركية .

لم تصدر فى تلك الفترة اية مواثيق خطية عن التسامح الدينى ، عن المساواة بين ابناء كل الاديان ، ولم تعط اية وعود مهيبة للقبائل الخاضعة ؛ ولم تتبجح الحكومة العثمانية بمبادىء خيرية جديدة ولم تدر الرماد فى عينى اوربا السريعة التصديق بتلك الاساليب التى رمزت الى الحكم التالى مستقبلا والتى سوف نتحدث عنها فيما بعد . ولكن الارادة الشخصية الصلبة والصادقة لمحمود ذى الحكم المطلق ادخلت فى الحكومة مبادىء جديدة للتسامح الدينى ولجمت بصرامة تعصب الشعب المؤمن . ادرك العقل الراجح للمصلح ان القبيلة الحاكمة قد انجزت المأثرة التى كتبها القدر عليها ، وان القرآن الذى اقامت على اساسه الامبراطورية العثمانية ، لا يستطيع ان يسبغ حياة جديدة على مملكة اصابها الانحلال . لم يكتئب محمود بل اعتمد على القبائل المسيحية الواقعة تحت سلطته .

فى خضم المحن المرّة لذلك العهد ، حينما انفصلت عن العاهل الشرعى باول دعوة من المتمرد قبائل آسيا الصغرى الواحدة تلو الاخرى ، بعد ان انقذها محمود من طغيان الدريبهوات ، وحينما كان سكان العاصمة المسلمون ، الذين انقذهم من اساءات الانكشارية الوقحة ، مستعدين للخيانة ، فى ذلك العهد مقت محمود شعبه المؤمن اكثر مما فى عهد مكافحته للانكشارية والدريبهوات . وليس ثمة اى شك فى انه ادرك جيدا نتائج تلك الامتيازات التى منحها للمسيحيين بارادته المستبدة دون استشارة علماء الدين الذين يمقتهم وبدون اية شكليات وعبارات تشريعية . لقد تنبأ بان المساواة التى خطط لها بين المسيحيين والمسلمين تحطم من الاساس صرح اسلافه الاجتماعى والسياسى ، وبأن السكان المسيحيين فى الشطر الاوربى من تركيا يتفوقون بعددهم على المسلمين ويتفوقون اكثر برجاحة تفكيرهم ونشاطهم وستكون لهم الغلبة على كل درجات السلم الحكومى من مجلس القرية الى مجلس الدولة ما ان يمنحون المساواة السياسية ، وبان المسلمين لن يخضعوا لنظام الامور الجديد الذى لا يلائم تعصبهم وكبرياءهم الموروثة كاخلاف للفاتحين ، وبانهم سيتمردون على الحكومة ، وبانه سيسهل على الحكومة سحقهم فى تركيا الاوربية بقواتها المسيحية وبان تركيا الاسيوية ، حيث الغلبة للعنصر الاسلامى ، ستفلت من سلطة السلطان ، وسيكون على السلطان ان يختار احد امرين : اما ان يعتنق نفسه المسيحية ويبعث العرش البيزنطى على اساس راسخ من التحالف الدينى مع رعاياه ويستولى على آسيا الصغرى بسلاحه المسيحى ، واما ان ينتقل الى آسيا

ويبعث بتعصب شعبها المملكة الاسلامية على اساس مبادئها الاصلية . ولا شك فى ان تفكير محمود العملى تنبأ بكل هذا ولم يخش اشد عواقب خطته المرسومة . انه يؤمن بالقرآن ، كما لا يؤمن به اى من المسلمين المتنورين ، وكان يكن اشد الاحتقار للاتراك * .

---

* يتجلى شعور محمود ازاء الاتراك فى هاتين الحادثتين من ذلك العهد : حينما كان يجرى تنظيم قصر ضولمة باختشه ، اراد السلطان ان يعين هناك خيرة جنائنييه . صف فى نسق واحد كل جنائنييه (وعددهم قرابة ٣٠٠) وتنفقدهم ودعا على حدة قرابة عشرين شخصا من احسنهم مظهرا . وحينما رغب السلطان فى معرفة اسمائهم اتضح انهم جميعا مسيحيون . قال السلطان بصوت مرتفع : هذا ما خمنته . ثم التفت الى حاشيته واضاف قائلا : انظروا الى الآخرين ، انهم مسوخ بمعنى الكلمة الاصلى ؛ اراهن على انه لا يوجد بينهم اى يونانى ، انهم تركوشاكية . هذه التسمية تطلق للتمييز على الاتراك ذوى الاصل الآسيوى الصرف بدون اية شائبة من دم يونانى او سلافى او ألبانى .

بعد مدة من الوقت كان السلطان جالسا فى قصر يلدز كيوسك . رأى من بعيد على الجياد وزيرنا المفوض بوتينيف مع عقيلته برفقة خادم . امر السلطان ياوره عزّت بيه بان يعرف من هو السيد القادم . واخبره عزّت بيه . سأله السلطان : «هل تعرف ما معنى الوزير المفوض الروسى ؟» . — «كلا ، ايها العاهل» — «ساشرح لك : انه رجل دولة من البلد الذى عاقبنى مرارا وعاقب اسلافى على فظائع الانكشارية والباشوات الذين كانوا يخنقون الرعية العزلاء بكل شجاعة ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود امام كتيبة روسية . انظروا الى مبعوث هذه الدولة ، الشخص الذى محض كل ثقة عاهله ، يتجول على جواد مع عقيلته ومع خادم واحد ، فى حين ان ايا من آخر خدمى ، شراب أميني مثلا ، يجر وراءه فى الشوارع ذيلا من عشرة خدم . لا نفع فيكم ، اسف والله» .

قد يبدو لبعض القراء ان من الغريب ان يستطيع محمود انجاز الاصلاح بجعل الحكومة والبلاط يعتنقان الدين المسيحى . لن ابرهن على ان الاصلاح الذى سار عليه محمود كان لا بد وان يؤدى الى اعتناق السلطان نفسه للمسيحية . تقوم قناعتى على الواقع بغض النظر عن اية استنتاجات منطقية . لقد ابلغنى شخص مقرب جدا الى السلطان محمود فى عام ١٨٤٥ بتفاصيل هامة للغاية وصادقة تماما مفادها ان السلطان شعر منذ عام ١٨٣٠ انه سيحل وقت يعتنق فيه دين اغلبية اتباعه . وحتى انه تلقى حينذاك ايماءات ودية من الخارج فى هذا الخصوص . والوقت لم يحن بعد للتحدث بهذه التفاصيل .

يلمح بازيلى الى التصريح الذى ادلى به القيصر الروسى نيقولاى الاول عام ١٨٣٠ فى حفل استقبال خليل باشا الذى ارسله محمود الثانى الى بطرسبورغ لتبادل الوثائق المصادق عليها . طلب نيقولاى الاول ابلاغ محمود الثانى نصيحة ودية بترك الاسلام واعتناق الارثوذكسية . لعل الشائعات حول نية محمود الثانى اعتناق المسيحية ، التى انطلت على بازيلى ، قد نشرها الباب العالى فى اوائل الثلاثينات لاغراض سياسية معينة . — المحرر .

اما فى خصوص عدم ايمان محمود وكل المسلمين المتنورين ، فاعتقد ان هذا ليس بالامر الجديد بالنسبة الى قرائى الذين يعرفون الشرق . وليس الجيل الحالى من

لنعد الى حديثنا . ان محمد علي ، الذى اضطر الى القناعة بنصيب التابع وبتوسيع حدود المناطق المقتطعة له ، احتفظ مع ذلـــك بسلسلة جبال طوروس لتكون عربونا له وتهديدا باعتداءات جديدة للامبراطورية التـي هزها ، بيد ان السلطان عقد من جانبه معاهدة اونكيار اسكيليسى مع روسيا لضمان امنه . تعهدت روسيا بالدفاع عن الامبراطورية العثمانية معنويـــا ومادیا فی حالة وقوع هجمات جديدة . يجب ان تقوم المعاهدات على التبادل ، والا فان الدولة التى تنال حق الدفاع تصبح دولة حامية . ولم تكن روسيـا تستطيع ان تتوقع من تركيا مساعدة مادية ولا معنوية . ولهذا وضع بند سرى خاص ان تركيا تعفى من التزام كهذا ازاء روسيا ، وتعهدت مقابل الدفاع الذى وعدت به ان تغلق فقط الدردنيل فى وجه السفن الحربية لكل الامم .

هذه المعاهدة اسبغت لاول مرة شكلا دبلوماسيا على قاعدة كانت موجودة دوما ثم دخلت بعد ذلك فى القانون الاوربى الدولى بموافقة كل الدول الكبرى فى عام ١٨٤١ ، حينما انتهى امد مفعول معاهدة اونكيار اسكيليسى . وهكذا ، حلت اوربا مسألة القانون بناء على الاساس الذى ارسته روسيـا . الا ان الرأى العام فى فرنسا وانكلترا رفع عقيرته ضد طلب روسيا اغلاق المضيق فى وجه الاساطيل الحربية مع انه لم يكن مفتوحا لها فى يوم من الايام . واحتجت الدولتان الغربيتان . ولم تكن المعاهدة ولا الاحتجاجات تنطوى على اية نتائج عملية . وبقيت القضية امرا مجردا بجوهرها .

لقد غابت عن انظار الرأى العام فى اوربا حقائق تاريخية توضح تمامـا الاتجاه نفسه الذى سارت عليه الحكومة الروسية فى المعاهدة الجديدة مـع الباب العالى . فى عهد الاباطرة اليونانيين كانت الجمهوريات البحرية فى ايطاليا تمارس تجارة نشيطة فى البحر الاسود . وبعـــد استيـلاء الاتراك عـــلى القسطنطينية اغلقوا هذا البحر فى وجه التجارة الاوربية . وبقى اكثر مـــن ثلاثة قرون ملكا خاصا لتركيا . واقتصرت الملاحة البحرية التجارية تحـــت العلم التركى على نقل حمولات المواد الغذائية التى كانت تنتزع بالعنف وبلا مقابل من امارات الدانوب لاطعام العاصمة ، وعلى نقل حمولات العبيد والجوارى القفقاسيين . ولم يستطع اى علم اوربى ان يظهر فى هذا البحر الذى كانـت سفن اليونان القديمة تمخر عبابه بحرية قبل ميلاد المسيح بالف سنــــة ونيف .

وحينما استولت روسيا على الساحل الشمالى للبحر الاسود ، ارغمـــت تركيا بموجب معاهدة كوجوك قَيْنَرجى على التخلى عن احتكارها الجشع وفتحت

الاتراك المثقفين وحدهم لا يؤمنون بشيء مما يجعلهم نهبا للمادية الفظة ، بل حتى قبل ذلك الاختمار ، الذى يرافق كل اصلاح ، كان دين المسلمين المثقفين يقتصر على الربوبية . — **المحرر** .

للتجارة العالمية مجالا لنشاط جديد . واذ كانت تحرص على امن سواحلها غير المحصنة وتحمى باسطولها تجارة كل الشعوب فى هذا البحر الداخلى ، لم تكن ولا شك تستطيع ان تقنع بتلك الضمانة ، وهى ان السلاطين لم يكونوا بناء على العرف يسمحون بدخول الاساطيل الحربية الى البحر الاسود ، ولهذا حولت هذا العرف الى التزام للسلاطين على اساس نظرية سياسة سليمة . ولكن هل كان فى وسعها من حيث الجوهر ان تعول على معاهدة وقعتها الحكومة التركية فى قضية تخص امنها ؟ هل كانت تستطيع ان تعول على متانة هذه المعاهدة فى حين تنظر اوربا الغربية بحسد الى التفوق الشرعى لنفوذ روسيا فى الشرق ، ذلك النفوذ الوقائى البحت ؟ ان التفوق الدورى لنفوذ هذه الدولة العظمى احيانا وتلك احيانا اخرى هو النتيجة الطبيعية للوهن الذى دب فى اوصال الامبراطورية العثمانية . وبعد عقد صلح أدرنة ، ولا سيما فى العهد الذى نتحدث عنه ، اصبح التفوق بالضرورة من نصيب روسيا ، ولكن ليس بصورة دائمة ولا شك ، وحتى ليس لامد طويل مهما كانت مقاييس المساعدات المقدمة ، ومهما اتسمت اجراءاتها بالاعتدال . ولهذا اقتصرت معاهدة اونكيار اسكيليسى على فترة ثمانى سنوات ، وفى الوقت نفسه باشرت روسيا تقوية وسائل دفاعها المادية فى البحر الاسود .

الفصل السابع

عرض لنتائج معاهدة كوتاهية . — تأثير الاصلاحات فى سورية وآسيا الصغرى . — حملة الاتراك على كردستان . — شعور الشعب على جانبى سلسلة جبال طوروس . — خيبة امل العرب . — رأى خادع حول بعث الشعب العربى . — مآرب وهتافات محمد علي . — نظام سورية الحكومى الجديد . — اصلاح النظام المالى . — ضريبة النفس . — دخول ونفقات الباشا المصرى فى سورية . — الكرنتينات والبوليس والبريد .

صرفتنا عن سورية تلك الاحداث الجبارة التى كان من نتيجتها حكم الباشا المصرى لهذا البلد على امتداد سبع سنوات . ان ابراهيم باشا ، اذ خرج فى حينه من الاناضول ، ضمن لنفسه فائدة لا تقدر بثمن ، وهى ان سكان هذه المنطقة لم يروا فيه سوى محرر من تضييقات السلطات المحلية ومنتقم للشعب المؤمن من بدع السلطان ، ولكنهم لم يتمكنوا من الاطلاع بالقدر الكافى على اساليب الحكم المصرى ، ولم يتمكنوا حتى من ان يدركوا ان كل قوة ابراهيم باشا كانت تقوم على نظام من الاصلاحات الاكثر حدة والاشد وطأة على الشعب والاكثر مقتا بالنسبة لاوهام الاسلام التعصبية من اصلاحات محمود . وفى الواقع كان هدف السلطان تخفيف الاعباء عن القبائل التى يفتتها استبداد الاتباع المجزأ والاستعاضة عن الفظائع الاقطاعية للبهوات الحاكمين بالوراثة او الباشوات ذوى الصلاحية المطلقة ببناء منتظم لسلطة واحدة فى كل ارجاء الامبراطورية . ولم يكن الباشا المصرى يسعى الا الى انتزاع اكثر الموارد الممكنة من القبائل الواقعة تحت سلطته بغية انجاز اكثر المآرب طموحا ، مقيما حساباته السياسية على تطوير جبروته المادى ، لا على حب الشعب .

ان سورية ، التى استسلمت لابراهيم بطيبة خاطـــر ، حكم عليها ان تكفّر بتجربة قاسية عن ذنب انفصالها عن العاهل الشرعى . فى هذه المنطقة المخالفة تماما لمصر سواء من حيث التكوين الجغرافى ، او من حيث التقاليد ، او من حيث روح السكان ، اخذ محمد علي يطبق بالعنف نظاميه الحكومى والمالى المصريين . قمع الميول الفوضوية الازلية للقبائل السورية ووزع بالقسطاط عبء الضرائب التى كانت حتى ذلك الحين موضوعة تحت رحمـــة الباشوات والحكام المحليين . ولكن كان عليه فى الوقت نفسه لضمان سلطتـه ان يستبدل الجيش النظامى بالقوات المشاغبة التى كانت تضم حتى ذلك الوقت كل القوة العسكرية فى المنطقة وان يخضع لخدمة الصف والتجنيد القبائل التى اعتادت على الغارات غير المقيدة للقوات القديمة .

لقد كلف محمد علي ابنه ، فاتح سورية ، باجراء هذه الاصلاحات الهامة . ولكن بقدر ما كان الاستيلاء على المنطقة سهلا بقدر ما كانت شديدة فيما بعد وطأة النظام الادارى الداخلى للمنطقة المستولى عليها سواء بالنسبة الى الفاتح او بالنسبة الى البلاد . عند اولى محاولات ابراهيم للاصلاحات ، اخذت القبائل السورية تحن الى حكم الباشوات الاتراك السابق ، والى حياتها الطليقة ، وهكذا تجلى بمزيد من الوضوح على جانبى سلسلة جبال طوروس شعور الشعب الذى سبق ونوهنا به . ان قبائل آسيا الصغرى ، وقد اثقلت اصلاحات السلطان كاهلها ، شخصت بابصارها الى سورية وابراهيم باشا ، مفترضة ان التقاليد المحبوبة للماضى الفوضوى قد اختبأت على الجانب الآخر من الجبال . وكانت قبائل سورية بدورها تلعن القدر وتنتفض على المغتصب وتتذكر الحقـوق المقدسة للعاهل الشرعى .

فى غضون ذلك لم يستطع محمد علي ولا السلطان محمود ان يستحسنـا فى قرارة نفسيهما مجرى الامور فى عام ١٩٣٣ . الاول لم ينل الكثير بالنسبة الى طموحه ولم يفقد الامل فى ان يتحين الفرصة فى اول حرب اوربية لانجاز مخططاته . اما السلطان محمود ، الذى كانت تطغى عليه الفكرة التى ملأت كل حكمه ، فكرة القضاء على اتباعه الاقوياء ، لم يستطع ان يرى بدون حـزن شديد ان مأثرته لم تنجز ، وانه عوضا عن اخضاع مصر اضطر الى التخلى عن سورية ، وكأنه قسم امبراطوريته بعد كل الجهود الكبيرة التى بذلها لاقرار الحكم الواحد فيها . فى ظل هذا التوجه للعقول فى القسطنطينية وفى ظل ذلك الاتجاه للشعور والرغبات فى جمهور السكان عـلى طرفى سلسلـــة جبـــال طوروس ، كان من الطبيعى ان تصبح سورية بمثابة مخفر امامى للسلطـان ضد محمد علي ، وان يكتسب محمد علي فى تعلق سكان آسيا الصغرى بـــه اداة قوية ضد مآرب محمود .

ان قاهر الروملّـى ، رشيد محمد ، الذى خانه الحظ بقسوة قرب قونية ، عهد اليه فيما بعد بالاناضول مع تكليفه بان يطبق فى هذه المنطقة البنـــاء

المدنى الجديد والنظام العسكرى الجديد . ولكن التعصب الدينى والعادات القديمة الفظة . . . وضعت هناك حاجزا كبيرا امام مأثرة الاصلاح ، شأن الحاجز الذى وضعه منذ عدة سنوات امام عبقرية محمود ووزيره الاعظم تعصب الشعب وحيوية الطبع واستقلال الروح لدى القبائل الروملّية التى ينعكس بحيوية سواء فى طبعها او ملامحها العنصر المزدوج لاصليها الهلّينى والسلافى .

فى ربيع عام ١٨٣٤ اقيم مقر قيادة رئيسى للوزير الاعظم فى سيواس ، شمالى سلسلة جبال طوروس ، واتخذ نظام حكومى جديد لمناطق آسيا الصغرى . وكان تطبيق التجنيد ، الذى زاد من ضجر السكان ، الشرط الاول للنجاح . واذ استغل محمد علي رأى قبائل آسيا الصغرى فيه ، صار يبدى مقاومة بكل السبل . وبدسائسه تمرد العديد من الاكراد الرحل فى سلاسل الجبال الداخلية لآسيا الصغرى وعلى طول الحدود الفارسية . وقام رشيد محمد بحملة شاقة على هذه البلاد المتوحشة ، حملة اتمها بعد موته حافظ باشا * . اذا كانت الحكومة التركية لم تساهم من جهتها فى الانتفاضات المتواصلة للقبائل السورية ضد السلطة المصرية ، فلا شك فى ان الشعب دعى باسم السلطان الى حمل السلاح ضد الباشا الذى كان الشعب يعتبر باستمرار من عام ١٨٣٣ الى عام ١٨٤٠ موقفه من الباب العالى عدائيا ، رغم ارتدائه اشكال الخضوع . انطلاقا من كل هذه السمات يمكن تخمين ان تدبير الامور فى عام ١٨٣٣ كان اجراء موقتا فرضته ظروف الامبراطورية حينذاك ، ولم يكن فى وسعه ان يعدو تدبيرا سياسيا راسخا .

وفى غضون ذلك لم يعد الرأى العام فى اوربا ، ولا سيما فى فرنسا ، يرى فى محمد علي باشا تركياً ، بل ممثلا للعالم العربى وباعثا على الوجود السياسى للقبائل العربية . لقد قامت على هذه الفرضية نظريات جذابة جدا . ان ثلاث مناطق شاسعة من الامبراطورية التركية تسكنها القبائل العربية وتتكلم باللغة العربية اصبحت سوية تحت حكم شخص قدير وذى مراس بعد اضطرابات طويلة عانتها فى النزاعات الدامية بين الباشوات والامراء فى سورية ، وفى غلواء منشقى شبه جزيرة العرب ، وفى تهتك المماليك المصريين . واستغل الحاكم الجديد سواء حقوقه الاستبدادية او تعب القبائل وسخطها المشروع على الطغاة الذين مثلوا امام قضائه الصارم ، او الثروات التى لم يعهد لها نظير من قبل والكامنة فى باطن الارض التى وطئها المماليك

---

* قامت القوات التركية بحملة تنكيلية ضد الاكراد فى عام ١٨٣٣ تحت قيادة رشيد باشا (منذ عام ١٨٣٦ قادها حافظ باشا) . واذ استخدم الاكراد بنجاح اساليب الانصار لخوض الحرب ، الحقوا بالقوات التركية خسارة كبيرة . ولم يتسن للحكومة التركية الا فى عام ١٨٤٧ ان تحطم الحركة التحررية الكردية موقتا . — **المحرر .**

بلا اكتراث . لقد شكل جيشا وانشأ اسطولا وجلب تكتيك الغرب وصناعته الى ضفاف النيل وكدس الملايين واقام سلطة حكومية اغتصبها قبله الالوف من صغار المستبدين .

بيد ان كل اجراءات نظامه الحكومي وكل اتجاه مواهبه كشفت فيه ، شأن الحرب نفسها ضد السلطان ، عن باشا تركي ، لا عن نصير للشعب العربي . انه غريب عن العرب ويكن لهم ما يكنه التركي القديم من ازدراء راسخ لقبيلتهم ، وتنتابه كل شكوك الضيف المسلح وسط شعب معاد له . لقد ساق بعسف لم يعهد له مثيل كل فلاحي مصر الفارعين الى خدمة الصف . وبعد استنفاد مصر جهز حملة لجمع المجندين في سنّار ، التي اوصل فيها ابنه الاكبر اسماعيل باشا في عام ١٨٢١ الزنوج المساكين بقساوته الى حالة اليأس ووقع ضحية تمردهم . ثم اسر محمد علي بغارات على النوبة والحبشة ما استطاع من الارقاء السود الذين بقعت بهم جبهة الجيش المصري . وارسل الى الاسطول سكان ضفاف النيل وانتزع الاطفال في سن العاشرة من العائلات بلا شفقة للعمل في الترسانة والمصانع . على هذا النحو شكل جيشا جرارا واسطولا جميلا لا يتفقان ابدا والموارد الاعتيادية للمنطقة التي يحكمها بصورة مطلقة .

في هذا رأى المتفائلون دعوة نبيلة الى المجد العسكري للقبيلة العربية التي حرمت منذ عهد بعيد من ارث الانتصارات . ولكن غاب عن انظار المدّاحين الغربيين ذلك الواقع بالذات الذي يمكن به تحديد درجة المساهمة المسموح بها للقبيلة العربية في اكتساب المجد العسكري وفي العمل العسكري : لا يستطيع العرب في الجيش المصري الوصول الا الى رتبة ملازم ، ولانها في متناولهم يحتقرها الاتراك الذين يتمتعون وحدهم بالترفيع الى كل الرتب العليا في الجيش والاسطول على حد سواء . لقد رأينا كيف قاتل العرب بشجاعة تحت رايات ابراهيم واندفعوا الى الثغرة في عكا واستولوا بحرابهم على مرتفعات بيلان ، ولكن كانت تسير وراء كل فصيلة في هذه المعارك جميعا المدافع الملقمة بقذائف الشظايا ، وقد اعادت قذائف الشظايا الى النسق غير مرة العرب الفارين من نيران العدو . هذا مع العلم ان القوات المصرية النظامية تلقت تدريبها الاول في الحملة على موره ، في بلد اجتاحه لهيب حرب شعبية ودينية ، ضد عدو لم يرحم اي مسلم . هكذا علمت غريزة حفظ الذات الجندي المصري تقدير كل فوائد خدمة الصف والانضباط . تعبر كلمات محمد علي على افضل نحو عن موقفه من القبيلة العربية : حينما تقدم ابراهيم بالتماس لان يرفع الى رتبة اعلى عدة ملازمين من العرب الذين برزوا في الحملة على سورية ، اجابه الباشا المسن : «تذكر ، يا بني ، اننا (الاتراك) لا نبلغ حتى عشرة آلاف نفر وسط هؤلاء الملايين من العرب» .

وفي الواقع ، حل بالنسبة الى القبيلة العربية مكان استبداد ١٠ آلاف

مملوك ١٠ آلاف عثمانى جلبهم مصير محمد علي من موطنه الى مصر . وجرت ظاهرة هامة : فى الوقت الذى نفد فيه بالنسبة الى مصر معين الدم القفقاسى ، حينما قمعت نجاحات السلاح الروسى هذه التجارة المشينة بارقاء القفقاس الذين تشكلت منهم على امتداد عدة قرون القبيلة الحاكمة فى مصر ، اباد محمد علي آخر المماليك واحل روملّييه مكان فصيلتهم الجريئة . واذا كان شغب المماليك والفوضى ، التى عانت منها مصر تحت حكم بكواتها الاربعة والعشرين ، قد حل مكانهما حكم الباشوات المنظم وسلطتهم الواحدة ، فان القبيلة العربية دفعت فيما بعد ثمن هذا الخير سيولا من الدم والعرق فى الخدمة العسكرية واعمال الميدان التى خضعت لها بصورة مطلقة من اجل عظمة حاكمها . بهذه الاداة القوية والطيعة حول محمد علي مصر الى مصدر للثروة والمجد له ولاسرته وانصاره .

اقتصرت الاصلاحات بالنسبة الى الشعب على حلول النهب الصارم والمنتظم عن طريق الاحتكارات والضرائب مكان نهب المماليك المتهتك ؛ والحملات والمعارك البعيدة ، التى تدفق فيها الدم العربى سيولا ، مكان فتن المماليك الدامية التى عاناها الشعب ، وان لم يساهم فيها مساهمة فعالة ، وفترة العمل القسرى ، العبودى مكان الفنطزيات المتقلبة التى يركن اليها سكان ضفاف النيل بولع كبير . اذا كان محمد علي قد بقى على امتداد خمس واربعين سنة من حكمه للقبائل العربية امينا على اصله التركى وغريبا عن السكان الاصليين واخلاقهم ولغتهم ولا يسمح لهم بالمثول امام شخصه ، فان القبائل العربية ايضا لم تتبنّ يوما ضيفها الحاكم بعواطفها ، ولم تره الا كما كان دوما بالنسبة اليها ، باشا تركياً ، لا اداة لبعث الشعب العربى ، كما يعلنه الرأى العام فى الغرب .

يشير الرحالة والكتّاب ، الذين ينشرون هذا الرأى ، الى الجيش والاسطول والترسانة والمعامل ، وكأنه يمكن بعث هوية القبيلة المستعبدة بالجيش والاسطول والترسانة والمعامل . حينما وقعت سورية وشبه جزيرة العرب تحت سلطة الباشا المصرى بفعل مصادفات الانقلابات المألوفة فى الشرق ، رأى الرحالة والكتّاب الغربيون هذه المكتسبات وكأنها ميراث شرعى فرضه القدر ، واعتبروا محمدا عليا قائدا مختارا لمأثرة عظيمة ومؤسسا مقبلا لمملكة عربية جديدة . لقد غاب انتماؤه القومى عن انظارهم ، ورأوا فى الكراهية الموروثة التى تكنها القبائل العربية للاتراك عربونا لانفصال هذه القبائل عن الامبراطورية التركية .

ان العرب لا يتعاطفون ابدا مع الفاتحين الذين حولوا مهد عظمة الاسلام — الخلافة القديمة بتقاليدها المقدسة — الى اقليم تابع لامبراطوريتهم المحاربة . لكى نقدر بشكل اصح الاهمية السياسية لهذا القوم العربى ، الذى اطنبوا فى الحديث عنه هذه السنوات ، ينبغى ان نتذكر ان القبيلة العربية ، اقدم

قبائل العالم ومن اكثرها نفرا ، لم تستطع يوما ان تشكل شعبا واحدا ودولة واحدة . وفى عهدها الباهر لم يستطع الا كلمة القرآن المتّقدة ان ترص فى كتلة واحدة القبائل المشتتة منذ القدم بحكم تكوين اراضى شبه جزيرة العرب نفسه ، هذا الارخبيل من الواحات فى بحر من الرمال الذى تمخره كالاساطيل قوافل الرعاة والمحاربين . ومن فتور التعصب ضعفت ايضا اواصر الاتحاد الروحى والمدنى لهذه القبائل ، ويكاد عداؤها المتبادل فى زمننا ان يكون اقوى من كراهيتها المشتركة للاتراك . ومهما كان الامر ، فان هذه النزاعات الموروثة المحلية بين قبيلة واخرى ، بين سكان الحجاز وسكان اليمن ، بين السوريين والمصريين ، بين رحل شرقى الاردن وقرويى الساحل السورى ، بين الجبليين اللبنانيين وجبليى نابلس ، هذه الضغائن التى غذّاها فى سورية فى اغلب الحالات حكم الامراء الاقطاعى واختلاف الاديان تشكل ، كما هو واضح ، عربونا للسيطرة التركية على كل هذه القبائل ، ولنفوذ الباشوات الاتراك سواء اكانوا خدما للباب العالى ام اتباعا متمردين مسلحين ، شأن باشا مصر . ان مآثر فخر الدين وضاهر العمر ، شأن الاضطرابات الدينية — السياسية القريبة العهد للقبائل العربية تحت تأثير تعاليم عبد الوهاب ، كانت ، فى رأينا ، المحاولات الوحيدة من اجل البعث السياسى للعنصر العربى على امتداد سبعة قرون منذ ايام السلجوقيين الى الآن . ولكن هذه المحاولات نفسها لم تؤد ، كما رأينا ، الا الى تقوية النفوذ التركى . ومن المحتمل جدا ان القبائل العربية قد حكم عليها ان تبقى امدا طويلا ايضا تحت الوصاية التركية .

ادرك محمد علي وضعه جيدا ورأى مدى تداعى اسس الجبروت الغريب عن الشعب ، الشرط الوحيد المضمون لكل سلطة . وبعد ادراكه لضعفه لم يعد يتطاول على اسس دولة مستقلة من القبائل العربية الواقعة تحت سلطته مع كل الالق الخارجى للجيش والاسطول والفتوحات والتجارة والصناعة ، مع كل نوازع طموحه ، مع كل نغمات مراسه الشديد . كان فى وسعه عام ١٨٣٣ ، لو تُركت الامبراطورية العثمانية لمصيرها حينذاك ، ان يثير الاضطراب فى كل تركيا ويطيح بالسطان وينصب سلالة جديدة على العرش العثمانى ، ولكن طالما ان السلطة الشرعة كانت قائمة فى العاصمة ، فان مركز الحياة المدنية للقبيلة العثمانية لم يسمح للتابع المنتصِر الذى قفل عائدا من طوروس الى العالم العربى بان يمزق تلك الاواصر الضعيفة للجنسية التى لعب بها على هواه امام العالم الخارجى والتى قام عليها وحدها نفوذه السياسى تجاه القبائل العربية .

ان كل من تتبع عن كثب الاساليب الدبلوماسية لمحمد علي فى كل محادثاته سواء مع الباب العالى او مع الدول الاوربية ، اقتنع بان كل دعواته فى صدد الاستقلال ، وكل تقديراته المضخمة لقواته العسكرية ، وكل

تهديداته بحرب جديدة ضد السلطان ، ومنها تهديدات موجهة الى العالم الاوربى ، كانت جميعا تسعى الى هدف واحد ، الى انتزاع حقوق الوراثة لاسرته . اما فى خصوص الاقتراح الغريب الذى تقدم به عام ١٨٣٤ الى النمسا وانكلترا وفرنسا ، وهو الشروع بحجة ضمان امن وسلامة الامبراطورية العثمانية فى فصل المناطق العربية عنها ، ثم اعلان الحرب على روسيا ، فان الباشا الداهية ، الذى خدعته اقاويل الصحافة الغربية التى كان لا يزال يصدقها فى تلك الفترة ، اعتقد ان وزارات الدول الكبرى تشاطر الصحافيين اهواءهم وانها على استعداد للوقوف صفا واحدا ضد روسيا لالغاء معاهدة اونكيار اسكيليسى . كان الباشا فى هذه الحالة يعلل نفسه بالامل فى ان ينجز وسط ضجيج الحرب الاوربية النتائج المحتملة للمعركة قرب قونية ، التى درأها جيشنا واسطولنا ، ويثير الاضطراب فى الامبراطورية العثمانية ويغتصب العرش . وجلب على نفسه ردودا صارمة او ساخرة من الوزارات ، حتى من تلك التى كانت تتغاضى عنه على اى حال . ولم يعد بعد ذلك الى محاولته هذه .

لننظر الى النظام الحكومى الذى اقامه الباشا المصرى فى سورية فى فترة حكمه على امتداد سبع سنوات .

حُصرت كل الادارة المدنية للباشالكات السورية الاربعة – حلب ودمشق وطرابلس وصيدا – مع باشالك اضنة فى يدى شريف باشا الذى منح سلطة حاكم مدنى محدودة ، والذى كان مقره فى دمشق . وكان المتسلمون فى كل مدينة وناحية تحت رئاسته مباشرة ، الا ان تعيينهم وتبديلهم كانا يتوقفان على محمد علي او ابراهيم باشا ، الذى قُلد باسم ابيه ابان اقامته فى سورية صلاحيات حاكم عام عسكرى – ومدنى ، ولكنه لم يتخذ اية اجراءات هامة دون استشارة ابيه الا عند الضرورة القصوى . وفى حلب وعكا كان المتسلمون يحملون نظرا لاهمية هاتين المدينتين لقب مدراء ويشرفون على الكثير من النواحى المجاورة . وفى بيروت ، كان المتسلم ، بحكم الاهمية التجارية لهذه المدينة وموقعها المتوسط ، هو قبطان الاسطول الذى يشرف على شؤون الملاحة والموانىء على امتداد الساحل السورى كله . وكان شيوخ او مخاتير القرى فى تبعية مباشرة للمتسلمين كل هذا كان ينحو نحو تركيز وتوحيد السلطة الحكومية . وقد بقى الجيش فى حالة طوارئ ، وكانت العلاقات بين السلطات العسكرية والمدنية تقوم على قواعد النظام العسكرى الاوربى . ولم يكن الشرطة والدرك يطلبون مساعدة القيادة العسكرية الا في حالة الاخلال بالنظام العام . وانشئت فى كل مدينة مجالس من اكثر المواطنين وقارا – مسلمين ومسيحيين – تحت رئاسة المتسلم الذى كان ملزما بان يعرض على اجتماعهم كل القضايا الهامة فى صدد الادارة ، ولم يكن نفسه يستطيع ان يصدر حتى اتفه الاوامر فى الشؤون الاقتصادية بدون علم ومساعدة مجلس

المدينة . وبالتدريج منحت هذه المجالس السلطة القضائية فى القضايا المتنازع عليها ، ولا سيما القضايا التجارية . اما فى خصوص المحاكم القائمة على تشريع المسلمين الدينى فلا تزال الى الآن فى كل ارجاء الامبراطورية العثمانية منيعة فى وجه اية اصلاحات كانت . وفى ظل الادارة المصرية كانت سلطة السلطان تعين سنويا كبيرَىْ قضاة دمشق والقدس ، وكان يتوقف عليهما تعيين القضاة والنواب فى دائرتهما القضائيتين الذين يدفعون فى غضون ذلك مبلغا معينا الى القاضيين . كانت السلطة الحكومية تحل عادة القضايا الجنائية بعد محاكمة تمهيدية فى المحكمة الدينية او فى مجلس المدينة وفق الاتجاه الذى تعطيه السلطة الحكومية لها ، ثم تقدم للمصادقة الى الحاكم المدنى او ابراهيم باشا او محمد علي نفسه حسب اهمية القضية . وبالنسبة الى النظر فى الجرائم السياسية والمعاقبة عليها احتفظ ابراهيم باشا لنفسه بالسلطة المطلقة للباشوات السابقين ، فكان اقتداء بهم يعدم بشكل تعسفى ، بلا محاكمة ولا تحقيق ، الناس المتهمين او المشتبه بتمردهم او المعادين للحكم المصرى .

ان الجانب الاقتصادى ، الذى لم يكن له فى عهد الباشوات السابقين اى نظام ، بل كان يخضع لاهوائهم وتقلباتهم ودرجة نفوذهم ، نال فى ظل الادارة الجديدة كيانا راسخا وصحيحا . فقد عين فى دمشق الى جانب الحاكم المدنى مدير خاص للادارة المالية ، وهو الاونيات حنا بحرى الذى يحمل لقب بيه ، والمولود فى حمص ، والذى كان يعمل عند محمد علي منذ امد بعيد . وقد احضر معه من مصر محاسبين اقباطا يملكون بالوراثة موهبة خاصة فى الاعمال الحسابية . وعين فى كل من مجالس المدن كاتب لتسجيل دخول الادارة ونفقاتها . وعلى هذا النحو ادرجت فى نظام واحد كل الضرائب وكل الواردات الاميرية التى كانت تعود الى السلطات المحلية فى السابق . ومن الجهة الاخرى ، فان كل الوظائف ، التى كان يجرى التعيين لها سابقا من قبل الباشا ليس فقط بدون راتب ، بل لقاء مبلغ معين مع الحق فى استخدام الدخول التى تستأثر بها كل وظيفة ، او ، على الاصح ، مع الحق فى نهب الشعب بالقسر او الربا ، قد حددت لها مراتب ومنع الربا والهدايا واصبحت الضرائب نفسها منظمة وواضحة . فى عهد الادارة السابقة كانت الدخول تتكون (١) من الميرة او اتاوة الارض ؛ (٢) من ضريبة النفس على المسيحيين واليهود (الخراج) ؛ (٣) من بنود الالتزام التى يمكن ان ندرج فيها الكثير من الحقول الاميرية ، وكذلك جمارك التجارتين الداخلية والخارجية والرسوم على الحرف ؛ (٤) من الاحتكارات المفروضة هنا ، كما فى تركيا باسرها ، على بعض المواد الغذائية او بعض فروع التجارة حسبما يراه الباشوات ؛ (٥) وبشكل رئيسى ، من الضرائب والغرامات التعسفية التى يجبيها الباشا ، حسب الظروف ، من الاشخاص او الشرائح او المدن او النواحى .

هذه المادة الاخيرة ، التى اغنت الباشوات فى الغالب ، الغاها محمد علي تماما واستعاض عنها باتاوة نفس على الافراد التى يخضع لها على قدم المساواة الناس من كل الاديان والشرائح ، باستثناء رجال الدين والمستخدمين . ولهذا الامر الجديد الهام اجرى فى كل انحاء سورية احصاء للسكان الذكور ممن تتراوح اعمارهم ما بين ١٦ و٦٠ سنة وفرضت ضريبة تعادل ٥ روبلات فضة من الشخص وسطيا . ثم كلفت مجتمعات المدن والارياف تحت طائلة المسؤولية المشتركة بان تدفع المبلغ بكامله وفق ما يقتضيه عدد السكان على ان توزّع الحصص بينهم وفق موارد كل شخص . فكان اغنى الناس يدفعون ٥٠٠ قرش ، وافقرهم ١٥ قرشا عن كل فرد .

هذه الضريبة طعنت بعمق الانفة الدينية للمسلمين الذين جبيت منهم لاول مرة اتاوة نفس على قدم المساواة مع الرعايا . ولكنهم اصبحوا فى مأمن من الابتزازات التعسفية ، ومن كان يضطر تبعا لمزاج الباشوات المتقلب ان يفدى رأسه بمئات الالوف ، لم يعد ملزما باى حال من الاحوال فى ظل الحكم الجديد ان يدفع اكثر من ٥٠٠ قرش (قرابة ٣٠ روبلا فضة) . ولكن الآسيوى ، الذى اعتاد منذ القدم على الاوامر الاستبدادية للسلطة الحكومية ، كان يستطيع فى جبريته ان يعزو الى القدر الاهواء المدمرة للباشوات السابقين ويخضع لهم باذعان ؛ وكان يعتبر من المهين له قرارا يشمل بانتظام كل الطبقات حسب موارد كل فرد ويقوم على الحقيقة السرمدية للمساواة فى الحقوق بين المواطنين من كل الاديان امام القانون . ومن الجهة الاخرى ، فان ابتزازات الباشوات التعسفية كانت عادة من نصيب الاغنياء ، وقلما تنال الشرائح الدنيا ؛ اما الضريبة الجديدة فشملت كل الشرائح ، وبهذا عوضا عن الخوف الذى كان فى ظل النظام القديم يلاحق الاغنياء دوما ، تغلغل السخط فى الجماهير فى ظل الضريبة الجديدة .

ومهما كان الامر ، فان وقف الابتزازات والغرامات كان له مفعول جيد بحيث ان الاغنياء ، الذين كانوا فى السابق يخفون ثروتهم بحرص ويعيشون حياة معدمة لكى لا يثيروا انتباه الباشوات ، صاروا يشغّلون رؤوس اموالهم وانهمكوا فى المضاربات التجارية واسبغوا حياة جديدة على الصناعة . يجب على الاغلب ان تعزى الى هذا الظرف ، وكذلك الى إمن المواصلات ، النجاحات التجارية فى سورية تحت الحكم المصرى .

حينما وقعت سورية تحت سلطة محمد علي ، كانت صناعة هذه المنطقة ، التى ازدهرت عدة قرون على التوالى وكانت تزود اوربا بالاقمشة الحريرية الوافرة وحتى بالخيش الخشن * . قد انهكت كثيرا بفعل الشرور السياسية

* كانت حمولات الخيش الخشن تصدر من سورية الى فرنسا ، ومن هناك ترسل الى المستعمرات لتصنع منها قمصان للزنوج .

وتلقت ضربة جديدة اخرى نتيجة قيام المصنوعات الآلية والبخارية لاوربا الغربية باقتحام اسواق الشرق تدريجا . ومن الجهة الاخرى ، فان الزراعة ، التى لم تجد حماية وامنا فى السهول الخصبة ، اعتادت على البحث عن ملجأ فى الجبال . ضعفت القوى المنتجة فى المنطقة وتناقص عدد السكان بشكل ملحوظ . نظرا لكل هذه الظروف لم يطبق محمد علي فى سورية نظامه المصرى لاحتكار كل المواد الغذائية ، بل منح التجارة تسهيلات كاملة واستعاض عن اوامر الحظر التى كانت تفرضها السلطة السابقة بضرائب معتدلة .

الغيت بانتظام بعض بنود الالتزام ، ودخلت الجمارك فى ادارة الخزينة مباشرة . ان اتاوة الميرة على الارض واتاوة النفس من المسيحيين — الخراج ، القائمتين على القوانين الاصلية للامبراطورية ، بقيتا بشكلهما السابق مع فرق واحد ، وهو انهما صارتا تردان الى الخزينة ، لا الى الحكام المحليين .

كان ابراهيم باشا يتمتع ، الى جانب مواهبه العسكرية ، بقدرات كبيرة فى مجال الاقتصاد ، ويحب ان يكرس اوقات فراغه لاعمال من هذا القبيل ، وان يشغّل رؤوس امواله فى المضاربات التجارية والصناعية . وهو لم يجن ثروته الطائلة عن طريق النهب ، ولا عن طريق الاستئثار بملك الآخرين . اوحى منظر حقول انطاكية المقفرة الى ابراهيم بفكرة اقامة عزبة كبيرة هناك تشكل نموذجا للزراعة وتربية الماشية بالنسبة الى القبائل السورية وتجذب الى اعمال الحقول التركمان اشباه الرحل الذين يسوقون ماشيتهم الى هناك من سلسلة جبال طوروس . وحتى ان بعض جماعات البدو الرحل ، التى اغرتها التسهيلات ، اخذت تقطن بمحاذاة الارض الخصبة لسورية المأهولة ، على تخوم بواديها . ومنح الذين يزرعون حقولا جديدة اعفاء عن اتاوة الارض لمدة تسع سنين . واخذ الجبليون ينحدرون من لبنان ، من ناحيتى عكّار والضنية الصخريتين ويستوطنون فى السهول الخصبة والمقفرة فى الوقت نفسه . وزرع قرابة ١٥ الف فدان * من الارض بمحاذاة البادية بين دمشق وحلب . وفى حوران ، حيث يعطى القمح عادة اربعين ضعفا ، والذرة مئتى ضعف ، لم يكن يزرع حتى ذلك الحين سوى الفى فدان من الارض . وفى غضون سنتين من الحكم المصرى صار يزرع هناك قرابة ٧ آلاف فدان ** . وحينما اجتاح

* لا ينبغى الخلط بين الفدانين السورى والمصرى : الفدان ، وحدة القياس الدائمة فى مصر ، يعادل اكثر من ثلث هكتار بقليل . وفى سورية يتغير الفدان وفق نوع التربة وكمية المزروعات . يتطلب الفدان الواحد زراعة قرابة ٨٠ بودا من القمح ، ويستطيع عامل واحد مع ثورين ان يفلح هذا الفدان فى غضون ٤٢ يوما . ومن هذا الحساب يتضح ان الزراعة كسبت فى باشالك دمشق وحده قرابة ٧٠٠ الف يوم عمل .

** كل نجاحات الزراعة هذه انهارت مع سقوط الحكم المصرى فى سورية . ويزرع الآن فى حوران ما لا يتجاوز الفى فدان . وكان يوجد فى عزبة ابراهيم فى

الجراد الحقول الواقعة بين حلب وحماة ، دهش السكان ، الذين لم يعتادوا الا على نهب الباشوات السابقين وعلى الاعمال التعسفية للجنود ، اذ رأوا ابراهيم يتقدم بحملة ضد الجراد مع اربعة افواج من المشاة . وامضى الفيلدمارشال الربيع كله فى هذه الحملة الناجعة وعين للقرويين والجنود مكافأة على كـل مكيال من الجراد المقتول ، وبهذا انقذ محصول القرويين ودخول الحكومة .

ولتأمين الجياد لخيالته لجأ الى وسيلة اقتصادية للغاية تقوم على اخلاق وعادات القبائل العربية . ان الفرس الحبلى الاصيلة لا تكون عند العرب فى كل الاحوال تقريبا ملكا لشخص واحد ، بل لشخصين او ثلاثة او عشرة ، واحيانا لمجموعة كاملة من الرحّل . وعلى هذا اساس يمكن لقاء مبلـغ صغير شراء الحصة المقترنة بما يسمى حق اللجام ، واستخدامها بصورة كاملة شريطـة اقتسام الدخل الذى يعطيه النسل مع الشركاء كل حسب حصته .

يبدو هذا النظام فى غاية التعقيد للوهلة الاولى ، ولكنه يتضمن مجموعة كاملة من القواعد المفصلة والدقيقة القائمة على العرف والتى لها قوة القانون فى كل العالم العربى . وهو يحل مكان التأمين المتبادل عـلى الممتلكات لدى القبائل المحرومة من ملكية الارض ويقى البدوى من الافلاس فى حالة هلاك الفرس الغالية التى تشكل الثروة الرئيسية عند الرحّل . وعوضا عن ان يقيم ابراهيم مزارع لتربية الخيل يشتريها بسعر غال ، كان يقتنى من القرويين او يأخذ مقابل الضرائب المستحقة انصاف بضعة آلاف من الافراس التى تبقى عند اصحابها السابقين ، وينال من النسل سنويا عددا كبيرا من الامهـــار لخيالته مقابل مبلغ معتدل جدا .

فى ظل هذا البناء للنظامين الحكومى والاقتصادى كانت دخول سوريـة تشكل قرابة ٧٠ مليون قرش (٤ ملايين روبل فضة) . وكان ما لا يتجاوز ربع هذا المبلغ ينفق على الادارة المدنية . ولكن مصاريف الجيش الضخـــم والاضطرابات السياسية فى المنطقة والخطر من جانب السلطان وبناء الحصون والثكن كانت تلتهم كل الدخل الباقى ، بل وكان يقتضى الامر سنويا ٣٠ الى ٤٠ مليون قرش آخر من خزينة محمد علي المصرية لتغطية النفقات التـــى يفرضها عليه امتلاكه لسورية .

ينبغى ان يعزى تأسيس الكرنتينات والبريد الى عداد اهم المستحدثات المدنية للحكم المصرى فى سورية .

تعتبر مصر منذ القدم موطنا للطاعون ووكـرا دائما لـــه . ان احدث

انطاكية ما يربو على ١٢ الف رأس من البقر والابل ، وقد نهبت جميعهـــا فى عام ١٨٤٠ . ولم يعد ثمة بين حلب ودمشق اى اثر للمستوطنات التى انشئت برعايـــة ابراهيم . وفى باشالك دمشق وحده اقفرت ٧٠ قرية ، وحرمت الخزينة من قرابـة نصف مليون روبل من اتاوة الارض وحدها .

الاستقصاءات العلمية لا تمكننا من الاعراب عن اى رأى ايجابـــى فى هذا الامر . وتعود الى محمد علي اول فكرة لنظام الحجر الصحى فى الشرق . لقـد جرت كل الاصلاحات فى الشرق من خلال صراع دؤوب بين الحكم الاستبدادى واوهام الشعب السياسية منها والدينية . ان محمد علي ، الذى اباد مسبقـا المماليك ، انكشارية مصر ، استطاع ان يعمل هناك بحزم اشد بما لا يقاس من حزم السلطان الذى كان حكمه المطلق يجد غالبا العراقيل عوضا عن الدعم فى الحقوق الممنوحة له بصفته زعيم الاسلام الروحى امام المراتب الدينية فى الامبراطورية . وفى حين كان محمد علي فى باشالكه النائى يطبق على هواه وكما يريد اجرأ المستحدثات ، كان السلطان ملزما بان يبرر بالتفاصيـــل الفقهية ويعلل كل عمل وكل اجراء يتوقف عليهما مصير الامبراطورية والسلالة المالكة فى خضم الازمات السياسية . كان من شأن محاولة واحـدة لاحداث المحاجر الصحية فى عهد اصلاحات محمود الاولى ان تثير تمردا عاما فـــى الامبراطورية او ان تجر على السلطان فى الاقل اللوم لابتعاده عـــن قوانين الاسلام الاساسية ، وان تلطخ كل مآثره المدنية بوصمة المروق كان عـلى الحكومة ان تهتم بانطباعات شعبها اكثر من اهتمامها باقاويل العالم الخارجى . فى وسع اوربا ان تلوم السلطان وشعبه على العمى المتأصل الذى يحكم عـلى الشرق بان يجتاحه وباء الطاعون باستمرار . ولكن نسى العلماء هناك الصيحات اللاهوتية التى انطلقت من كلية باريس وجامعة السوربون ضد التلقيـــح بالجدرى الطبيعى حينما نصحت الليدى مونتيغيو العالم الغربى باستخدام هذا الاكتشاف العظيم الذى تعرفه الشعوب الشرقية منذ القدم . ولم يكن هذا قبل النصف الاول من القرن الثامن عشر الذى اتسم بالعلم والمراس . وحينمـــا وفر اكتشاف جديد للبشرية فيما بعد وسيلة انسب للوقايـة من الجدرى ، تطلب الامر ان تبذل الحكومات جهودا كثيرة لنشر التلقيح بجدرى البقر !

كان الحجر الصحى فى سورية باغلبه اجراء بوليسيا لفصل هذه المنطقة عن بقية تركيا . فبحجة الاجراءات الوقائية للحجر الصحى لم تكن البضائــع والركاب يستطيعون التغلغل فى سورية الا تحت اشراف السلطات المحلية حتى وان كانت بقية تركيا خالية من الوباء او كان الوباء يسرح ويمرح فـــى سورية نفسها . وكان اطباء محمد علي الاوربيون يبررون هذا الاجراء بفرضية مختلقة مفادها ان العدوى المحلية تزداد قوة بشائـــب من عدوى خارجيـة ، ويؤكدون ان الطاعون لم يكن ، حسب زعمهم ، ينتشر من مصر وسورية الى الشمال ، بل كان ، على العكس ، وباء مستوطنا فى القسطنطينية وأرضروم ، ومن هناك يأتى الى الجنوب . وكانت السلطات المحلية ، كلما اقتضـــت الظروف ذلك ، توقف بحجة خطر الطاعون المواصلات مع تركيا ، حيث كانت صاعقة غضب السلطان على محمد علي تشجع القبائل السورية فى انتفاضاتهم المتلاحقة .

ينبغى ولا شك عزو تأسيس البريد فى سورية الى نظام الدفاع العسكرى عن المنطقة والمركزة الداخلية للسلطة الحكومية . وفر الحكم المصرى امن المواصلات للاشخاص والتجارة ، بحيث ان التجار والمسافرين ، الذين كان عليهم فى السابق ان ينتظروا قافلة يعول عليها او يأخذوا معهم حرسا للانتقال من مدينة الى اخرى ، اصبحوا يستطيعون الآن التنقل بحرية فى كل ارجاء سورية . وعلى غرار الحكومة اسس التجار ايضا بريدهم من حلب الى القدس . لم يكن بريد الحكومة يستخدم الا للاتصال المتبادل بين ذوى المناصب المدنية والعسكرية العليا ، ولم يكن يقبل الرسائل الخاصة . كانت سرعة نقل الاخبار وصدقها شرطا ضروريا ليقظة الحكومة فى بلد يعيش فيه الجيش حالة طوارئ باستمرار لقمع التمردات او لجنى المحصول او لجمع المجندين . وكان هذا البريد منظما على نحو ممتاز سواء فى الاتجاهات الداخلية كلها او عبر صحراء السويس للاتصال بمصر . كان السعاة ينطلقون فى سورية من محطة الى اخرى على احصنة اصيلة ، وينتقلون فى الصحراء على ابل مدربة على العدو فى غاية السرعة ، وهى التى يسميها العرب بالهجان * .

منذ بعض الوقت اسست الحكومة التركية فى سورية ، كما فى كل ارجاء الامبراطورية بريدا منتظما للحكومة والاشخاص ، عوضا عن التتر اى السعاة سابقا الذين كانوا يرسلون فى الحالات الطارئة لنقل اوامر الباب العالى او تقارير الباشوات .

---

* لا يستطيع اى حصان ان يسبق هذه الابل فى العدو الى مسافات طويلة . الحصان يسبق الهجان فى الكيلومترات العشرين الاولى ، ثم يتخلف عنه حتما ، ولا سيما اذا اخذ يغدو رمحا منذ البداية . ينطلق الهجان بعد الكيلومترات الخمسة عشر او العشرين الاولى باقصى سرعته ، ويستطيع ان يجرى بسرعة كاملة اكثر من ٨٠ كيلومترا . ان الهجان المروض جيدا يقدر بسعر عال جدا . يُفترض خطأ فى اوربا ان الهجان تشكل جنسا خاصا ، اذ انها الابل نفسها ، ولكنها تنتقى عادة من الابل الصغيرة الحجم والمعافاة والنحيفة قدر الامكان .

الفصل الثامن

التجنيد فى سورية – تمردا اليهودية والسامرة . – مصادرة الاسلحة – تمردات الدروز والحرب فى اللجاة . – مآثر شبلى العريان . – اخضاع الدروز . – تأثير التجنيد الاجبارى . – الامتيازات الممنوحة للمسيحيين . – الآثار الحسنة والضارة للتسامح الدينى . – حرية تفكير ابراهيم المغرية . – تقوية الجيش المصرى فى سورية . – تحصين عكا وغولق بوغاز . – الوهم التاريخى فى عكا .

ان الاصلاحات ، التى كانت تميل بوضوح الى تنظيم المنطقة المدنى والى جلب الفوائد لسكانها والمنافع للحكومة ، لم يكن فى الوسع انجازها فى هذه البلاد التى تعمها الفوضى بدون اجراءات قسرية . وقد اثارت منذ السنة الاولى من الحكم المصرى تذمر الشعب الذى يفضل حتى الفساد الذى خبرته البلاد على اية مستحدثات كانت . وفى غضون ذلك ، فرضت الحكومة ، المضطرة الى ابقاء جيش جرار فى سورية ، التجنيد الاجبارى على سكانها المسلمين . فى ظل هذه المستحدثات المقيتة بالنسبة الى الآسيويه ، لجأت القبائل نفسها ، التى هللت لرايات ابراهيم ، الى السلاح فور ظهورها . ونشب تمرد فى جبال اليهودية . وضُربت كتيبتان مصريتان بالحجارة فى الشعاب . وحاصر الفلاحون الساخطون ابراهيم نفسه فى القدس . وقد اقلق خبر هذا الامر محمد على الذى هرع الى يافا باسطول وقوات انزال لنجدة ابنه .

واخيرا ، قُمع التمرد بالقوة والغدر وحلت فترة الاعدامات بلا هوادة . وتكرر الامر نفسه فى السامرة ، فى جبال نابلس * . وقد نُزع سلاح كل

* نشبت انتفاضة شملت كل فلسطين فى ربيع عام ١٨٣٤ بعد اعلان السلطات المصرية قرارا يقضى بجمع الاسلحة والمجندين هناك . وقد اباد المنتفضون الحاميتين

هذه القبائل الجبلية بعد مقاومة مستميتة ، ثم قدمت بامر من المنتصر بضعة آلاف من المجندين الذين كانوا يرسلون عادة الى مصر عوضا عن المجندين الذين يرسلون من هناك الى الجيش السورى . وبهذا كان يتم تلافـى الفرار هنا وهناك ، ولكن اصبح هذا الاجراء نتيجة لذلـك اشد مقتا لدى السكان السوريين الذين يكنون الحب لوطنهم ، ذلك الحب الملازم لكل القبائـل الجبلية .

فى عام ۱۸۳۳ ، فى محاولة التجنيد الاولى ، اخذ قرابة الفى دروزى بالقوة او الخداع وصودر الكثير من الاسلحة عربونا لدفعة مجندين جديدة . وكان دروز حوران قد اعفوا مدة خمس سنوات من هذه الخدمة نظرا لقلة عددهـم وللاهمال فى بلدهم الرائع الذى يمكن له ان يكون هرى سورية وقبائـل البادية الرحل فى حالة زراعته كما ينبغى . وحتى ان الاسلحة لـم تصادر منهم ، فبدون اسلحة يصبحون تحت رحمة جيرانهم البدو الجشعين .

فى عام ۱۸۳۷ انقضت فترة الاعفاء . وطلبت الحكومة من دروز حوران ۷۲ مجندا . واستدعى شيخهم الطاعن فى السن عنتش الى دمشق . وعبثـا التمس باسم شعبه تمديد الاعفاء . وسعيا وراء منافع زهيدة اقنع الاونيات بحرى بيه ، الذى تحدثنا عن نفوذه ، الباشا بان يبقى حازما ، فى حيـن اهانت حاشية الباشا عنتش المسن بوقاحة . نوى الشيخ ان يثأر مـن المصريين ويجعلهم يدفعون غاليا لقاء الاهانة التى الحقوها بلحيته . اعلـن استعداده لمساعدة الحكومة على جمع المجندين ، ولكنه طلب لهذا الغرض اكبر فصيلة عسكرية ممكنة . وارسل معه الى حوران اربعمئة من الخيالة غير النظاميين ، واستقبلوا هناك بالحفاوة والترحاب ، وفى اول ليلة ذبحـوا جميعا . لم ينج الا رئيس الفصيلة الذى سمع وهو نائم انين المشرفين على الموت ، فتمكن من الفرار عبر النافذة وابلاغ دمشق بما جرى . ثم صار دروز حوران يرحلون الى منطقة اللجاة المنيعة .

فى مروج حوران ، فى سهل فسيح تكتنفه سلسلة جبال لبنان الشرقية والاطراف الشمالية لجبل عجلون ، الواقع فى شرق الاردن ، وجبل حوران ، يوجد مرتفع منبسط ذو انحدار شاقولى من كل الجهات ، وله شكل مضلـع غير منتظم يبلغ طول محيطه قرابة كيلومتر ونصف ، وكأنه سور قلعـة يعلو قرابة عشر قامات وينغرس فى الارض بشكل عمودى . وتوجد فى بعض

المصريتين فى نابلس والخليل ، وحاصروا الوحدات المصرية فى القدس . ولم يرفـع الحصار عن القدس الا بعد الوعد بالغاء التجنيد الاجبارى . بيد ان الحكومة المصرية لم تف بوعدها .

وفى عام ۱۸۳٤ جرت انتفاضات ضد الحكم المصرى فى مناطق لبنان الشماليـة الشرقية بين المتاولة وفى منطقة جبال النصيرية . — **المحرر** .

الاماكن شقوق يمكن التسلل منها الى داخل الحلقة المفرغة . وتبدو على حجر البازلت ، الذى يشكل كل هذه الكتلة ، آثار حديثة لمنشئه البركانى ، وكأن مفعول النار الجوفية التى اوجدتها لم تخمد الا مؤخرا . وعندما بردت الكتلة تصدعت فى كل الاتجاهات مكونة اخاديد وشقوقا لا تحصى ، تتقاطع فيما بينها وتشكل ما يشبه شوارع مدينة المانية قديمة بين اشباه المعينات والمنحرفات والتكوينات الشاقولية الصخرية مما لا يرد على خيال ولا يخطر على بال .

من الواضح ان هذه المتاهة من الصخور والشعاب ، من الممرات الخفية تحت الارض والكهوف الصعبة المنال ، هذه الاطلال الجبارة للبركان المنطفئ ، التى يغطيها بشح فى بعض الاماكن تراب يعلوه النبات وينمو عليها ما سمحت به يد الاهمال والنسيان ، كانت قديما ، فى سورية المزدهرة ، ملجأ منشودا تأوى اليه احيانا قبيلة حرة نجت من حكم السلوقيين والرومان ، واحيانا من عصابات من قطاع الطرق تجد فيها ، شأنها الآن ، وكرا منيعا يقيها من الملاحقات الدائمة . ولهذه المتاهة منظومتها القديمة للدفاع الداخلى . وعلى الهامات المسطحة للصخور ، التى تحجب الافق من كل مكان ، بنيت على اتجاه الشقوق الطولانية صفوف من الابراج ارتفاعها خمس او ست قامات لها شكل مخاريط ناقصة يمكن من شرفاتها مراقبة ما يجرى على امتداد الممرات الداخلية وايصال الاخبار فورا بالاشارات الى ارجاء المنطقة باسرها . وشيدت فى بعض الاماكن تحصينات بمحاذاة الخنادق والشقوق نفسها يبلغ طولها عدة كيلومترات . لا يوجد ماء فى كل هذه الارجاء ، باستثناء نبع واحد تحت صخرة آغير فى الجانب الجنوبى من المنطقة ، وعلى طول الجانب الشرقى ، غير بعيد عن الحاجز البازلتى ، يتدفق فى اشهر الشتاء الماطرة سيل وادى اللو ، الذى يملأ فى تلك الفترة البرك المنحوتة بعناية خلف حاجز الصخور .

هذه الناحية تسمى اللجاة ، وهى خالية من السكان ، وخالية حتى من الحيوانات فى كهوفها ، باستثناء ضب يزحف على بازلتها المتوهج او نسر يبنى عشا على صخرة بعيدة المنال ليحمل الطعام من بعيد الى افراخه ، لان اللجاة البازلتية منطقة ميتة شأن البحر الميت بمحلوله الاسفلتى الثقيل — كلاهما رافض لكل حياة ، ولعلهما خلقا فى عصر واحد ، وفى عمر واحد من الكون وبفعل العوامل نفسها . الا انه تعرج على اللجاة احيانا جماعات صغيرة من البدو الرحل ترعى المعزى فى العشب البرى الذى يمنحه مطر الشتاء بشح لسفوح الصخور والكهوف الداخلية . احيانا يختبىء هنا دروز حوران المجاورة من انتقام عدو ، او من ملاحقات الحكومة بسبب النهب او التمردات او الامتناع عن دفع الاتاوة .

الى هنا صار يأتى الدروز بعد قتل الفرسان المصريين فى حوران . كان الشيخ عنتش اول من رفع راية التمرد وانضم اليه شيخان آخران ناقمان على الحكم المصرى ، هما يحيى حمدان والشيخ الشاب شبلى العريان من قبيلة

دروز جبال لبنان الشرقية .
ارسل شريف باشا الدمشقى فى بداية الامر فوجين من المشاة لقمع التمرد . ولما لم يلق الجيش العدو فى اى مكان ، دخل الشعب . ولم يكن هناك اى امكان للتقيد باجراءات الحذر فى حركة الارتال . كان فى وسع العدو ان يسير بمحاذاتهم على بعد ثلاثين قامة مسافة كيلومترات عديدة ، دون ان ينم عنه ما يشير الى وجوده . احيانا كان يظهر دروزى على حافة صخرة شديدة الانحدار او على هامة برج ينظر الى عمق الشعب وما يلبث ان يختفى . وحينما اوغل المصريون على هذا النحو فى اعماق الشعاب المتعرجة ، اخذ الدروز المختبئون خلف المرتفعات المجاورة يرمون كتل الحجارة على الضيوف المتهورين وفتحوا عليهم نيرانهم القاتلة من وراء التحصينات .
نجا قرابة ٤٠ شخصا من اصل ٤ آلاف مصرى وابلغوا دمشق بابادة الفصيلة عن بكرة ابيها . انطلق ابراهيم نفسه فى حملة مع فيلق من ٢٠ الف نفر . كانت هذه الحرب اشد الحروب التى عرفتها هذه المنطقة عنفا واراقة للدماء . لم يكن عدد الدروز الذين استقروا فى اللجاة من حوران وجبال لبنان الشرقية ولبنان ليتجاوز ٢٥٠٠ شخص ، ولكن القبائل المجاورة توفزت كلها ، ولم يجعلها تبدى طاعة يشك فى امرها سوى وجود الجيش الذى وصل عدده بالتدريج الى ٣٥ الفا . وتسلل ابراهيم نفسه بغتة فى الشعاب مرتين فى اتجاهين مختلفين مع رتلين قويين . وقد ابيد احد رتليه تماما . وبعض الجنود ، الذين اغمى عليهم من الجراح ، بقوا على الصخور دون ان يمسهم احد للاعتقاد بانهم قتلى . ومنهم علم ابراهيم كيف عذب الدروز الاسرى ومزقوا اربا اربا احد الجنرالات المصريين ، وهو اسماعيل باشا الذى قبض عليه حيا فى خلال ابادة الفصيلة .
طال امد الحرب . وبامر من محمد علي هرع مصطفى باشا ، حاكم كاندى ، الى سورية لنجدة ابراهيم مع فوجى مشاة و٣ آلاف ألبانى . ان الالبانيين ، الذين تربوا فى حرب الانصار فى الروملّى ، كانوا وحدهم القادرين على مقارعة الدروز ، ولكنهم لم يستطيعوا التغلب عليهم داخل اللجاة . قرر ابراهيم محاصرة المنطقة من كل الجهات واماتة المتمردين جوعا . وهذا ما لم يتسنّ له . كانت فصائل خفيفة من الدروز المرتدين بزات المصريين الذين قتلوهم تسير بنسق وتخدع الجيش رغم كل يقظته وتستولى على مؤونته . وعندئذ لجأ ابراهيم الى وسيلة اخرى : فى احدى حملاته داخل المنطقة الخطرة ردم بالحجارة وبتفجيرات البارود النبع الوحيد لماء الحياة فى كل المنطقة ، ثم تقدم تحت ستار المدفية القوية الى ضفة البرك وملأها بجثث الناس والخيل . كان ذلك فى فصل الصيف الحار (عام ١٨٣٨) . انتن الماء الذى ملأ البرك منذ الشتاء ، ولكن الدروز ، الذين كانوا يردون على النيران من الضفة المقابلة ، تابعوا اطفاء ظمئهم ولم يهتموا بطعم الماء . ووجد ابراهيم وسيلة

لتسميم الماء ، فالقى فيه عدة اباريق من اشد سم زئبقى وهو كلوريد الزئبق .

استولى الرعب على الدروز حينما رأوا الموت المفاجئ للذين كانوا لا يزالون يشربون الماء من البرك . ارغم العطش الدروز على مغادرة اللجاة . اندفع شبلى العريان المقدام مع الف درزى الى موطنه فى جبال لبنان الشرقية ، وتابع حرب الانصار عند سفوح جبل الشيخ . لقد حطِم واجبِر على الاختباء فى اللجاة من جديد . ان المآثر الفروسية لهذا الشيخ على امتداد الحرب بأسرها وجرأته وسرعة حركاته جعلته بعبعا للمصريين الذين عزوا اليه اعمالا خارقة . واصيب ابراهيم نفسه بالدهشة . ليبدد ابراهيم الشائعات الخرافية التى كان يتناقلها عنه الجيش الوجل ، وليلهم الشيخ الثقة به فى الوقت نفسه ، منع بأمر اصدره الى الجيش قتل العدو الشجاع ووعد بمكافأة كبرى لمن يسلمه حيا .

بهذا حقق ابراهيم هدفه . كان الدروز قد اصيبوا بالاعياء . وفى احد الايام ظهر الشيخ الذى حظى بالعطف فى المعسكر المصرى بنفسه ، ومثل امام ابراهيم دون ان يعرفه احد او يلحظه احد ومن غير اية شروط ، مطالبا بالمكافأة التى وُعد بها من يسلمه . اغدق عليه ابراهيم بسخاء وقبله فى خدمته ، لا فى الجيش النظامى الذى كان يلقى الذعر فى الدروز ، بل رئيسا لمجموعة الفرسان غير النظاميين .

وبهذا انتهت اراقة الدماء . وخضع الدروز ، ولكن ابراهيم ، الذى عرف من تجربته مدى خطر الاجراءات القاسية ضد الجبليين ، قنع بعدد قليل من المجندين بمثابة عربون على طاعة هذه القبيلة . استمرت الحرب فى حوران ثمانية اشهر ، وقتل فيها ١٥ الفا من الجيش النظامى وباشا واربعة برتبة لواء * ، وستة عشر من قادة الافواج والكتائب . بمثل هذه التضحيات دُفع ثمن مستحدثات الحكم المصرى فى سورية .

لم يستطع سكان المدن تحاشى ولا تجنب التجنيد الاجبارى . ان مفاهيم المسلمين الدينية عن حصانة الحريم ضمنت ، والحق يقال ، ملاذا امينا وسط الزوجات لكل من كان يتعرض لخطر تجنيده . كان ابراهيم يساير الحريم ، ولكنه لم يكن يساير المساجد . وكان فى بعض الاحيان يسمح للآباء الاغنياء ان يقدموا عوضا عن اولادهم آخرين ممن كانوا يتقدمون الى الجندية لقاء مبلغ كبير . واحيانا كان يعيد الى الاسر التى تبقى بلا معيل احد ابنائها اذا قبض على اخوين او ثلاثة معا ، ولكن لم تكن اية التماسات واية تبرعات نقدية تحظى بالاحترام . وبالمقابل بعث الحكم المصرى بهذا اشد رعب فى الشعب .

---

* كان لقب الباشا يمنح فى الجيش المصرى للضباط من رتبة فريق ، وفى الجيش التركى لكل الجنرالات بدون تمييز .

واعظم كراهية ازاء كل الاصلاحات التى وان كانت مواتية للمنطقة من نواح كثيرة ، الا ان ثمنها كان يدفع فريضة دم مرهقة جدا ومطلقة . هذا بالاضافة الى ان سورية ، هذا الشريط الضيق من الارض المأهولة بين البادية والبحر الذى تقطعه السلاسل الجبلية فى كل الاتجاهات ، مناسبة جدا للهرب ، ولاسيما بالنسبة الى السكان الاصليين الذين يعرفون المعابر والممرات الخفية . ولم يفر المجندون وحدهم ، بل هرب الوف الناس من الجندية مسبقا الى البدو فى الصحراء ، والى ديار بكر والاناضول وجزيرة قبرص . ولكى ترغم الحكومة السكان والمجتمعات على مراقبة بعضهم البعض ادخلت التكافل والتضامن فى نظام الضرائب ، فصارت تحصل اتاوات الفارين وضرائبهم المتأخرة من المجتمع الذى كانوا ينتسبون اليه ، وتفرض ضرائب القرية المهجورة على الناحية باسرها . ان فرار العديد من السكان السوريين ابان الحكم المصرى يظهر كراهية الشعب لهذا الحكم ، ولاسيما ان القبيلة الحضرية العربية مرتبطة بالارض الام اكثر من نظيرتها التركية بما لا يقاس . وفى حين يهبط ساكن الروملّى بقلق من جباله ليبحث باسلاح او بالحرفة عن حظه فى كل ارجاء العالم الذى يعرافه ، قلما نجد سوريا خارج حدود بلاده . حتى فى عاصمة الامبراطورية ، التى يتدفق اليها سنويا حسب العادة القديمة اناس كثيرون من المناطق البعيدة ، لا يوجد سوريون تقريبا باستثناء عدد قليل من التجار الحلبيين .

لقد فر ما يربو على ١٠٠ الف سورى من قسوة الحكم المصرى . وهذا التقلص للسكان كان محسوسا بالنسبة الى الزراعة والصناعة اكثر من التجنيد نفسه بما لا يقاس . ولم يستطع ابراهيم مع كل صرامته ان يجند فى سورية على امتداد خمس سنوات (١٨٣٣-١٨٣٨) اكثر من ٣٥ الف شخص . كان هذا الواجب الالزامى يقع على السكان المسلمين وحدهم الذين يشكلون بمجموعهم قرابة ٩٠٠ الف نسمة من الجنسين . وهكذا فان مجموع ما جنده ابراهيم يبلغ اجمالا نسبة سنوية تعادل ٧ على ٩٠٠ . ومهما كانت هذه النسبة مرهقة للشعب ، ولاسيما حين يفر نصف الذين يهددهم التجنيد بحكم سنهم ، فانها كانت تزداد وطأة بفعل القلق الدائم الذى يعيشه السكان بسبب جهلهم فترة السحب الى الجندية ، وبسبب العنف وانعدام اية قاعدة او نظام للتجنيد . كانت القيادات المحلية ، العسكرية والمدنية ، تتلقى امرا سريا بتقديم عدد معين من المجندين . وكان عليها تحيّن المناسبة واختيار الوسائل لتصيد العدد المطلوب من الناس فى الاسواق او المساجد او فى خلال اعمال الحقول . وفى ايام الجمعة ، حينما يجتمع الناس فى المسجد ، كانت فصائل القوات تطوق المسجد ، ولا تسمح الا للشيوخ والصغار بالخروج وتأخذ كل الناس الصالحين لخدمة الصف .

اعتاد السكان على ان يروا فى كل تحرك للقوات تهديدا بسوق دفعة

جديدة الى الجندية ، فكانت القرى تقفر والاسواق تغلق ويقبع الناس فى انتظار قلق . كان المسلمون يحسدون المسيحيين واليهود على قسمتهم ، اذ ان اعفاءهم من الخدمة تحت رايات المؤمنين قد اصبح ، عوضا عن الاذلال ، ميزة عظيمة بالنسبة اليهم . وقد اهين المسلمون المساكين ، سكان المدن ، فى شعورهم الدينى بحيث اخذ الناس ذوو المقام النبيل يعملون قواسين وخدما وسواسا عند القناصل الاوربيين ، وحتى عند وكلائهم وتراجمهم من اتباع السلطان ، ومن الرعايا المحتقرين ليتجنبوا خدمة الصف استنادا الى المعاهدات التى تضمن حصانة العاملين فى القنصليات .

من هذه الناحية كانت صرامة ابراهيم الشديدة منقذة للمسيحيين . لقد قمعت بصورة متزايدة تعصب المسلمين الفظ الذى غذته الفوضى الازلية فى سورية ، والذى انتقل من جيل الى جيل منذ الخلافات الدامية مع صليبيى الغرب على الارض المقدسة . ادرك ابراهيم مسبقا ان التعصب الدينى للمسلمين السوريين ، اذ يقوم عندهم ، كما عند كل القبائل الآسيوية ، مقام الشعور القومى ، يطور نزعاتهم الفوضوية . لقد رأينا الامر الذى وجهه ابراهيم قرب عكا الى كل سلطات فلسطين لصالح الحجاج والمقدسات المسيحية . وكان هذا الامر برنامجا لسياسة ابراهيم ازاء المسيحيين السوريين ، برنامجا لا يقوم على العدل فحسب ، بل وعلى الفائدة العامة والاعتبارات الاقتصادية . واسبغت التسهيلات التى مُنحت للمسيحيين حياة جديدة على الزراعة والتجارة والصناعة فى فترة الحكم المصرى . قبل ذلك كان السكان المسيحيون العوبة للباشوات الاتراك وتعصبهم وانانيتهم . كانوا يصبون غضبهم على المسيحيين حينما تهيج القبائل الاسلامية . وكانوا يفرضون عليهم الغرامات حينما يحتاجون الى النقود . وكان الباشوات يحاولون بازدرائهم او اضطهادهم نيل حب مسلميهم وثقتهم . الحرص على الاسلام يتجلى دوما فى بغض الاديان الاخرى . لقد استراح السكان المسيحيون ونقهوا بعض الشىء من محنهم الازلية فى فترة الحكم المصرى القصيرة .

انه لامر لم يعهد له نظير فى الامبراطورية العثمانية ان يمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم واديرتهم فى كل مكان ، وحتى لبناء الجديد منها دون ان يشتروا شهادات من المحكمة الاسلامية (اعلاما) بضرورة اعمال التصليح والبناء ، ولا اذنا من السلطات المحلية ، ولا عونا من الاشخاص الذين يتحكمون فى عقول الغوغاء المؤمنين . وفى مقدسات فلسطين العائدة بجملتها الى دينين او ثلاثة ، يتعرض هذا الحق فى اعمال التصليح والبناء الى تقييدات قانونية من القضاء الدينى الاسلامى لضمان الحقوق الممنوحة لكل من الاديان . ولكن حينما كانت هذه الدعاوى بين المسيحيين انفسهم ، النابعة عن تشابك اماكن العبادة ، او عن الترابط ، او عن تعارض الحقوق المبهمة جدا بجوهرها نفسه ، حينما كانت هذه الدعاوى التى لا مفر منها تنال حلا قانونيا

فى المحكمة ، كان كل من الاديان يتابع التمتع بالحق الممنوح له دون شراء اذن من الباشوات لتنفيذ القرار الدينى للمحكمة الاسلامية ، كما كان يجرى سابقا .

ان اذلال المسيحيين القائم على القوانين الخاصة للامبراطورية العثمانية ، يصل حدا لا يمكن معه بحال من الاحوال قبول شهادة المسيحى ضد المسلم ، حتى وان كانت شهادة اسقف او كبير اساقفة مسيحى ضد افاق من اقل المسلمين شأنا . وعلماء الدين من المستشارين القانونيين ، الذين تشكل قراراتهم مرجعا فى القضاء الاسلامى ، وضعوا باستنتاجات منطقية من القرآن ، جملة من الاهانات التى تطال المسيحى فى حياته العائلية الخاصة . اذ يحظر عليه ان يمتطى جوادا او يرتدى ملابس زاهية اللون وغير ذلك . واضافت اهواء السواد المؤمن فى كل مكان اهانات اخرى تحولت الى عادة وصارت لها قوة القانون . ففى طرابلس ، مثلا ، لا يسمح [للمسيحيين] بحمل جثة الميت على الايدى . وعليهم [المسيحيين] ان ينقلوا الجثة على حمار ويتحملوا على الطريق الى المقبرة اهانات السواد المؤمن .

لم يكن يحق لابراهيم ان يمس قانون الامبراطورية الدينى . ولكنه على الاقل خفف العبء عن المسيحيين بتحريم الاهانات التى لا ينص عليها القانون . وامرت السلطات المدنية بان تتجنب قدر الامكان حل القضايا المتنازع عليها بين المسيحيين والمسلمين فى المحكمة الدينية وتراعى العدل ازاء المواطنين بلا تمييز بين الاديان . ان منع ارتداء الملابس الزاهية اللون وامتطاء الجياد ليس ، ولا شك ، مسيئا للشعب قدر قانون الشهادة . ولكن هذا المنع يشكل تعبيرا عن الاساءة الدائمة ووصمة اذلال لشعب باسره ، وهذا ما يغذى غطرسة المسلمين المعهودة . وقد امر ابراهيم المسيحيين بان يرتدوا عمائم بيضاء واية ملابس كانت ويتجولوا على جيادهم فى دمشق نفسها ، فى مدينة الاسلام المباركة هذه ، حيث التدفق السنوى للحجاج الذاهبين الى مكة يسعر التعصب دوريا فى السواد المؤمن ، فى حشد الدراويش العراة والسادة ذوى الثياب الممزقة الذين يعود اصلهم الى النبى محمد ، اولئك الناس الكثيرين والمتنوعين فى اسواق دمشق . رأى الحشد فى هذه البدعة تدنيسا للحقوق الغالية لمدينة دمشق المباركة ، باب الكعبة وبستان الجنة * . ولكن اول درويش قذف فى سورة من الغضب القاذارة واللعنات على رأس مسيحى يرتدى العمامة البيضاء تلقى بامر من ابراهيم مئة جلدة على عقبيه ، فهدأ السواد . ان علماء وفقهاء دمشق ، الذين اهانتهم عمائم المسيحيين البيضاء

---

* الشام الشريف ، باب الكعبة ، بستان الجنة هى النعوت المألوفة لهذه المدينة التى لا تطلق عليها الا فى علم التاريخ والادب الشرقى تسميتها القديمة ، دمشق ، الواردة فى الكتاب المقدس .

بدرجة لا تقل عن سواد الناس ، تجاسروا على سؤال ابراهيم عن كيفية التمييز والحالة هذه بين المؤمن والكافر ، لكى لا يُرتكب اثم عند القاء التحية المباركة [السلام عليكم] التى لا تجوز لكافر حسب الشريعة . بيد ان ابراهيم ، الذى قلما كان يهتم بهذه الدقائق الدينية ، ولكنه كان يعرف تاريخ الاسلام افضل من علماء الدين ، اجاب بصورة قاطعة ان الخلفاء الاوائل ، دعاة الشريعة ، كانوا انفسهم يرتدون عمائم سوداء بسيطة عوضا عن هذه العمارات العجيبة والملونة التى تتزين بها الآن رؤوس مفسرى الشريعة ، وانه تجب معرفة المسلم فى المسجد فقط ، والمسيحى فى الكنيسة ، اما خارج المسجد وخارج الكنيسة فلا فرق بينهما فى نظره .

واضطر علماء الدين والسواد وكل الشرائح على حد سواء الى الإمتثال للارادة الحاذقة لابراهيم الذى زاد تسامحه مع المسيحيين من نقمة المسلمين العامة على التجنيد والضرائب . ومن الجهة الاخرى ، رأى المسلمون يحقد ان الحظوة والسلطة كانتا فى متناول المسيحيين فى الادارة المصرية . صحيح انه كان يوجد سواء فى عهد الجزار ، او فى عهد عبدالله ، او فى عهد الباشوات الآخرين صرافون مفوضون من حكامهم لادارة كل شؤونهم ، ولكن نفوذ هؤلاء الصرافين لم يكن يتجاوز نفوذ عبد يزحف فى التراب امام سيده ويتحمل اقذع الاهانات من اقل خدمه شأنا ولا يعمل الا فى الظلام .

اما الآن فى عهد شريف باشا الدمشقى ، فان الشخصية الاولى [بعده] مسيحى كرم بلقب بيه وصار يدير بصورة مستقلة عن الباشا الشؤون الاقتصادية لكل الباشالكات السورية . ان التنظيم الجديد للشؤون الاقتصادية وتغيير نظام الضرائب والحساب الصارم وجباية الدخول الاميرية قد غدت جميعا مقيتة اكثر واكثر ، وذلك على وجه التحديد لان اداتها مسيحى من الرعية المحتقرة ، ومن اصل سريانى .

ان التسامح الدينى ، هذه الخاصية المثلى والمنزهة للحكم المصرى فى سورية ، اغاظ جمهور السكان المحليين . ولكن ننوه بان تسامح ابراهيم الدينى نفسه عكره الحاد راسخ ، ماجن . فقد كان هو نفسه وشريف باشا ، وعلى اثرهما كل اكابر الاعيان المصريين تقريبا ، يكنون فى اعماق نفوسهم احتقارا شديدا للقبيلة العربية كلها ، وبدوسهم على اوهامها داسوا فى الوقت نفسه قوانين الاسلام الجذرية . كان ابراهيم يعب الشمبانيا علانية فى دمشق وفى كل مدن سورية . هنا ، كما فى القسطنطينية ، حُكم ، كما يبدو ، على كل بواكير الحياة السياسية الجديدة هذه ان تصاب برذاذ رغوة الشمبانيا اللعوب . لقد جمع ابراهيم اضافة الى هذا الولع عيوب الباشوات الاتراك الاخرى ، ولم يكن تهتكه خافيا على الشعب . . . نادرا ما كان يظهر فى المسجد ، ولم يكن فى ساعات الصلاة يقوم بالوضوء الشرعى ، ولم يكن يصوم رمضان ؛ وكان المحيطون به يتباهون بتحررهم الفكرى على نحو

صبيانى ، وكان الجيش خاليا من الائمة ؛ واذ طبق محمد علي النظام العسكرى الفرنسى بلا تبصر ، غاب عن انظاره الفرق بين العناصر والاحاسيس الشعبية للقبائل الفرنسية والعربية . وعوضا عن ان يقتصر الباشا على اللجم الحكيم لتعصب الشعب ، اهان بلا فائدة شعور الشعب الدينى نفسه . وسُمح للكثير من الرحالة الاوربيين بزيارة مسجد عمر فى القدس الذى يعتبر قدس الاسلام الثانى بعد حرم مكة . لا شيء كان فى وسعه ان يثير وساوس اشد لدى سكان القدس المتعصبين . لقد نشج خدم مسجد عمر المسنّون لهذا الانتهاك الذى لم يعهد له نظير من قبل فى العالم الاسلامى ، وفى كل مرة عند زيارة الاجانب للمسجد كان على السلطات المحلية ان تحيط نفسها وضيوفها بفصيلة عسكرية لدرء فورة التعصب فى المشاهدين .

اذا كان محمد علي وابراهيم يقصدان بهذه الاجراءات لجم تعصب المسلمين السوريين ، واذا كانا يأملان فى ان يضعفنا الشعور الدينى فى الشعب ، اساس النفوذ السياسى للسلطان ، ليوطدا بهذا حكمهما ، فمن الواضح ان حساباتهما كانت خاطئة وانهما حققا نتيجة معاكسة تماما . لقد جرا على نفسيهما لعنة الشعب واثارا فى القبائل السورية المزيد من الشعور الدينى المهان والاخلاص للسلطان . فى ظل الجيش الجرار الذى كان يحتل سورية باستمرار ، فى ظل الاعدامات الرهيبة فى نابلس واليهودية وحوران ، فى ظل اليقظة المتوفزة للسلطات المدنية والعسكرية تجلت هذه الميول فى الشعب تذمرا وكآبة فقط ، ولكن هذا ما زاد من كراهية الشعب فى انتظار لحظة الانفجار الشامل . وهكذا فان ابراهيم ، الذى سبقته فى حملته على سورية سمعة المنتصر على طائفة الوهابيين المرتدة وحامى اماكن الاسلام المقدسة من انتهاكات المنشقين ، والذى احيط اسمه ببركات الحجاج على الطريق الذى فتحه من دمشق الى مكة ، شاع صيته بين الشعب فى غضون عدة سنوات من حكمه فى سورية بمثابة كافر ومارق ومتمرد على العاهل الشرعى ورئيس الاسلام الدينى . اصبح الشعور الدينى المهان صدى لانفعالات سياسية تغذيها الفوضى الدائمة . ان القبائل السورية فى شعورها بالاهانة لم تكن تستطيع ان تعلل نفها بطوباويات عن الاصالة العربية التى كان الحالمون الغربيون لا يزالون يؤججونها فى ذلك الحين . فالقبائل لم تقارع يوما باشواتها السابقين بمثل هذا العنف . واذ انهكها الصراع ، شخصت بانظارها الى عاهلها الشرعى ، فقد رأت انه مقضى عليها لا محالة بالوصاية التركية ، فاقتصرت رغباتها على ان تكون هذه الوصاية اكثر تسامحا وتهاونا .

وهذا ما يكفى لتفسير ظاهرة التباين الطريفة التى لاحظناها بين آراء الشعب فى شمال وجنوب سلسلة جبال طوروس وتعاطف قبائل آسيا الصغرى الغريب مع محمد على ، والقبائل السورية مع السلطان فى كل فترة الحكم المصرى فى سورية . وهذا ما يفسر ايضا ظاهرة اخرى اكثر مدعاة للدهشة ،

وهى الانهيار السريع للسلطة المصرية فى عام ١٨٤٠ مع وجود جيش لابراهيم يبلغ تعداده ٧٠ الفا ، وبعد الانتصار قرب نصيبين ، وفى خلال الازمة الداخلية للامبراطورية العثمانية التى كان يبدو انها تنبىء بانتصارات جديدة للباشا المصرى .

منذ السنوات الاولى للاستيلاء على سورية استطاع محمد علي ان يتأكد ان هذا الاستيلاء لا يمكن ترسيخه الا بالقوة المادية . وعوضا عن تعاطف الشعب ، افضل كفالة لتوطيد كل الفتوحات ، لم يجر على نفسه سوى نقمة القبائل المقهورة . واقترن كل جهد يبذله لتطوير النظام العسكرى بتضييقات جديدة ، ولم يبق له الا ان يعمل بالترهيب ، الوسيلة المألوفة للحكام الشرقيين ، وان يحير العقول حينما لم يعد العطف يستطيع فتح مغاليق القلوب . لقد اخضعت سورية بجيش قوامه ٢٠ الفا ، بل ويمكن القول ان مقاومة عبد الله خلف اسوار عكا واخطاء المحاصرين وضرورة تحطيم السحر الذى قيد به مالك حصن عكا عقل الشعب فى سورية وحدها اطالت امد فتح المنطقة واقتضت هذه القوى الكبيرة وذلك الوقت المديد . ولولا عكا لاستطاع ابراهيم ولا شك بجيش قوامه ١٠ آلاف نفر ان يصل مظفرا الى شعاب طوروس حتى قبل ان يتمكن الباب العالى من توجيه جيش اليه . ولكن بعد الانتصارات السهلة ، حينما لم يعد الباب العالى قادرا على الصراع ، وحينما كرس بيان السلطان فى اعين الشعب الحق الذى اكتسب بالسيف ، كان محمد علي ، عوضا عن ان يستدعى قواته من سورية ، وعوضا عن ان يترك ابنه يستريح تحت اكاليل الغار ، مضطرا الى تقوية جيشه فى سورية سنة اثر اخرى وابقاء ابراهيم حارسا يقظا للمنطقة التى اخضعها . دفع ابراهيم جهودا دامية ونشاطا محموما على امتداد ثمانى سنوات باكملها ثمنا للانتصارات السهلة التى احرزها فى حملته الاولى ، اما محمد علي ، فعوضا عن الارباح التى سعى اليها بتوسيع ممتلكاته كان ينفق سنويا جزءا كبيرا من الدخول المصرية ، وذلك فقط لكى لا يفرط بغنيمته المدمرة .

علاوة على الجيش المشغول دائما بقمع التمردات وجمع المجندين ، اضطر محمد علي ليأمن هجوم الاتراك الى تحصين شعاب طوروس . وقد انشئت ابراج فى هذه الشعاب ، وانجز مئتان وخمسون مدفعا من العيار الثقيل الاعمال المدهشة التى حصنت بها الطبيعة نفسها شعبى غولق بوغاز وكافر داغ . كل هذا اقيم بمتانة وسرعة ، واغدقت عليه الملايين ، تحت اشراف مهندسين اوربيين . ومن الجهة الاخرى ، كانت عكا من حيث موقعها ومن حيث المعتقدات الشعبية عنها عربونا لاخضاع القبائل السورية . وكانت اوربا تعتبر هذه القلعة مفتاحا لسورية من البحر . ويبدو ان هذا الرأى يقوم على الوهم التاريخى والمعتقدات الشعبية اكثر مما يقوم على الدراسة الطوبوغرافية للمنطقة .

لا شك فى ان عكا مناسبة جدا للتحصينات ، اذ تقع المدينة على مرتفع عند الشاطىء ، ويمتد حولها حقل اجرد ، فى حين ان كل المدن الاخرى تقريبا الواقعة على الساحل السورى تحصرها المرتفعات المجاورة التى تجعل اقامة التحصينات امرا صعبا . ولكن عكا بموقعها نفسه بين البحر والخليج ، على حافة الرأس ، مكشوفة من جهتين للهجوم من البحر . ويسمح العمق حتى للسفن ذات المئة مدفع بان تقترب بسهولة الى مسافة قريبة جدا ، وهذا الظرف وحده يحكم على القلعة بالسقوط ، لان الاسطول الذى يملك ما يشاء من المدافع ضد نقطة معينة ولا يتعرض الا لتأثير محدود من بطاريات الساحل يستطيع ان يحطمها مهما بلغت من القوة . هذا بالاضافة الى ان الساحل السورى على امتداده كله يسهل الاستيلاء عليه من جهة البحر ، وان صمدت عكا . وفى فلسطين الكثير من النقاط المواتية لانزال الجيش ، وللاتصال بالمناطق الداخلية ؛ وتفتح صور وصيدا الطريق الى قلب سورية ، الى دمشق نفسها ؛ ثم ان بيروت وخليج جونية ، الحصن الساحلى من عهد الرومان ، وجبيل ومدينة طرابلس تعطى منفذا الى لبنان ، وفى الشمال تؤمن اللاذقية واسكندرون والسويدية الاتصال بحلب . ولهذه الاعتبارات يحق لنا ، كما يبدو ، ان نعتبر الاهمية العسكرية لعكا وهما ، ومما هو جدير بالذكر ان هذا الوهم مستمر من القرون الوسطى الى زمننا هذا . لقد اراق الصليبيون افضل دمائهم تحت اسوار هذه المدينة ، وبعد سقوط القدس بقوا فى عكا قرنا كاملا يتفرجون عاجزين على انهيار الممالك ، التى اسسوها ، الواحدة تلو الاخرى . وفى زمننا اشتهرت عكا مجددا بتدابير ضاهر وفشل الجيش الفرنسى ، ثم انتقلت هذه القلعة من باشا الى آخر ، وكأنها عربون لطاعة القبائل السورية .

ان ابراهيم ، الذى قدر عاليا جدا حصار عكا على امتداد سبعة اشهر ، حول لمصلحته وهم الشعب الذى جعل من هذه القلعة النقطة العسكرية الرئيسية لسورية وحصنا للحكم المصرى . وقد انفق ما يقرب من ٥٠ مليون قرش (حتى ٣ ملايين روبل فضة) على تشييد الابراج والحصون ، وعلى بناء الثكن ومخازن البارود والصهاريج وغيرها . ولم تتوقف الاعمال زمن الحكم المصرى كله ؛ وسلحت عكا بمئتين وثلاثين مدفعا . وبالمناسبة ، كان لكل هذه الاعمال عيب اساسى ، وهو انها كُيفت جميعا بدون مخطط عام مع الاعمال القديمة لضاهر والجزار وعبد الله . وكان فى هذه القلعة [كذلك] عنبر رئيسى لمدفعية الميدان ولكل مستلزمات الجيش السورى . لقد برهنت احداث عام ١٨٤٠ مدى خطأ حسابات ابراهيم وابيه وعدم جدوى كل تلك النفقات الباهظة على تحصين عكا وشعاب طوروس .

الفصل التاسع

لجم الحقوق الاقطاعية فى سورية . — ملاحقة الاعيان . — قوة العناصر المحلية . — عظمة الامير بشير ونظام ادارته . — بداية الامتيازات اللبنانية . — العلاقات المتبادلة بين الباشا والامير .

اذا كانت المستحدثات المصرية قد اثارت تذمر السكان ، فقد كانت كراهية الاعيان السوريين اشد ازاء الاتجاه العام للنظام الذى كان يميل الى الحد من امتيازاتهم ولجم اساءاتهم القديمة العهد . ومع انه لم يصدر اى قرار فى هذا الخصوص ، ولكن يمكن اعتبار ان الاصلاحات الرئيسية والاساسية لتنظيم سورية الداخلى تكمن فى لجم الحقوق الاقطاعية التى بقيت بلا مساس وتأصلت فى ظل حكم الباشوات السابقين ، ولكنها لم تعد تلائم بنيان المنطقة الحكومى الجديد والوحدة التى ادخلت فى الادارة . ان توضيح نظام الاتاوات وتقديمها الى الخزينة مباشرة ووجود الجيش المستعد دوما لدعم السلطات المدنية ولابقاء الشعب فى حالة خضوع قد خلصت الحكومة من التأثير الوخيم لهذه الطبقة من الناس التى كان نفوذها الموروث اداة ضرورية فى ايدى الباشوات السابقين . كان الشيوخ والامراء ، الذين يديرون المناطق بالوراثة ، يحتفظون لخدمتهم بزمر من الفرسان لاضطهاد الشعب بناء على مشيئة الباشوات ، او لمقاومة الباشوات فى حال محاولتهم قمع شغب الاتباع . وعندئذ كان يتجلى فى كل بناء السلطة الداخلى التطور الضرورى للعلاقات الاساسية بين الباشوات والباب العالى نفسه ، وكان الشر الجذرى لهذه العلاقات القائمة بين السلطات يتغلغل اكثر واكثر فى الاخلاق السياسية للمنطقة .

كان الباشا يطلب من اتباعه الشروط ذاتها التى يطلبها منه الباب العالى نفسه : دفع الاتاوة المتفق عليها بانتظام وابقاء المنطقة فى حالة خضوع دون البحث فى الوسائل التى انتُزِعت بها الاتاوة وضُمِنت بها طاعة الشعب .

ومن الجهة الاخرى ، كان الباشا يستخدم ازاء اتباعه الوسائل نفسها التي يستخدمها الباب العالى للانفاق على الباشوات وتأمين طاعتهم ولتحصيل دخول الدولة . كان الباب العالى يعاقب الباشا المتمرد بباشا آخر او يعين خلفا له مع تكليفه بمحاربة منافسه والاستيلاء على الباشالك . وكان الباشا بدوره يلجم الاتباع المتمردين الواحد بالآخر ، وغالبا ما كان ، وهذا ما رأينا امثلة كثيرة له في شؤون لبنان وجبال لبنان الشرقية ، يختار من الاسرة نفسها طامعا آخر ويدعمه بنفوذه وجيشه الى ان يتسنى قتل الاخ بالاخ ، والعم بابن الاخ الخ . . وكذلك فان طرق ووسائل الانتقام السرى ، الخنجر والسم ، الملاطفة والخيانة ، كانت هي نفسها بين الباب العالى وولاته ، بين الباشوات واتباعهم .

لننظر مرة اخرى الى وضع سورية في فترة الهجوم المصرى : كان الساحل الفلسطيني قد تحرر لتوه من محمد بيه ابى نبوت ، الذى كان يطمح ، كما يبدو ، الى دور الجزار ، ويحلم بجعل يافا وكرا له . وكانت عائلة شيوخ ابى غوش تشغل شعاب اليهودية . وكان الشيوخ من آل عمرو يملكون الشعاب الجنوبية لجبال فلسطين وقلعة خليل الرحمن (حبرون القديمة) . وكان شيوخ سمحان رؤساء لكونفيدرالية من القبائل الصغيرة التى تقطن الاطراف الشمالية من جبال اليهودية . وظلت نابلس وكل السامرة في تمرد سافر ما ان نسى شيوخها من عائلات الجرار وطوقان وابركوى وعبد الهادى حزازاتهم الداخلية او اجلوا موقتا تصفية ثأرهم العائلى . وفي منخفض الجليل كان ينتقل بدو شرقى الاردن ، مرغمين الزراعة على الانتقال من الوديان الخصبة الى الجبال . وتمرد عبد الله باشا نفسه دون ان يناله العقاب خلف اسوار عكا وخاض حربا ضد جبليى نابلس وحرض بدسائسه سكان دمشق على التمرد . وفي دمشق قتل السكان باشا مدينتهم . وكان لبنان لا يزال في دوامة من فتن الامير بشير مع الجنبلاطيين . وخضع باشالك طرابلس بشكل مشبوه لاخلاف المتمردين مصطفى بربر وعلي بيه . ومن دمشق الى حلب تدفقت على كل اطراف البادية جحافل البدو الهائجة . واعترفت اسكندرون وباياس بالحكم الاستبدادى الوراثى لاسرة كوجوك علي . واتى آغا من الاغوات وحكم انطاقية . وامتنعت قبائل النصيرية عن دفع الاتاوات . وفي جسر الشغور واريحا والمناطق الاخرى من باشالك حلب ، وفي بيلان وشعاب طوروس وفي كل مكان طغى وتجبر البكوات بالوراثة او الافاقون الذين استولوا على السلطة عنوة في يوم من الايام ، ثم صاروا يساومون الباشوات او يحاربوهم .

في غضون بضعة اشهر تمكن الحكم المصرى من قمع هؤلاء الحكام الصغار ، ممثلى الارستقراطية الاقطاعية ، واحدا اثر الآخر واخضاع ممتلكاتهم للنظام الحكومى العام . من الواضح ان ابراهيم باشا كان يطمح الى تحطيم ارستقراطية الشيوخ والامراء في سورية ، كما حطم ابوه اوليغاركية المماليك

فى مصر ، ولكنه ايضا اضطر غير مرة الى التراجع امام قوة عادة القبائل او المناطق ودعم الحقوق الاقطاعية فى ظل التقييدات القانونية ، مقلدا السلطة لاناس منتخبين من الاعيان المحليين . وهكذا ، حكم على عائلات الجرار وطوقان وبركوى القوية بالاعدام والنفى بعد قمع تمرد نابلس ، وعين ابراهيم لحكم جبليى نابلس شيوخ عائلة عبد الهادى الذين كان تنافسهم القديم مع الشيوخ المعزولين يضمن اخلاصهم وولاءهم .

وعلى هذا الاساس نفسه ظهرت عدة عائلات ارستقراطية جديدة فى ظل الحكم المصرى . لم تقلد كل حقوق الارستقراطية السابقة ، ولكن نفوذها قوى بالاعتماد على السلطة المركزية ، فى حين كان على من سبقها ان يخوض الصراع ضدها ويتجنب الملاحقات والخيانة من جانب الباشوات . وهذا الظرف يؤكد استنتاجنا القائل بان التكوين الاقطاعى للقبائل السورية لم يكن نتيجة عابرة للغزو الفوضى ، بل يمكن القول انه كان قانونا اساسيا لتكوين المنطقة الطبيعى وروح سكانها . فى مصر انهار تماما مع المماليك كل نظام اداراتهم المروع القائم على قانون السيف وعلى ضعف السلاطين . وفى سوريا لم يكن فى الوسع استئصال النظام الاقطاعى ، ولكنه كان مضطرا فى ظل حكومة منظمة وقوية الى ان يتخلى عن فظائعه ويصبح سندا للسلطة وسلاحا شرعيا لها .

فى ظل هذا الاتجاه للتنظيم الحكومى فى سورية جرت فى لبنان ظاهرة طريقة للغاية . لقد استعرضنا مختلف فترات الاضطرابات الدائمة التى اصبحت منذ عهد فخر الدين حالة طبيعية للقبائل اللبنانية ، وتتبعنا كذلك النزاعات العائلية التى تملأ تاريخ الشهابيين بأسره وسط الفوضى المستحكمة التى انهكت سورية فى عهد تسلط الباشوات الاتراك . لقد حدث فى زمن الحكم المصرى ، حينما ذمر بحمية الصرح الشامخ القديم ، حينما تخلى الاعيان الاقطاعيون عن نفوذهم للسلطة المركزية ، ان حكم لبنان تابع موهوب وطموح ومحبوب فى الوقت نفسه من الباشا المصرى ومخلص له منذ امد بعيد . ان نفوذه بين الجماهير الشعبية توطد بحكمه الذى استمر اربعين سنة وبقمعه ثلاث مرات للتمردات والفوضى ، اما تأثيره فى الاعيان فضمنه الخوف الشامل بعد اعداماته للمتمردين ونقمته الرهيبة على اقربائه ومنافسيه . وقد جنى ثروات طائلة بمصادرة عقارات كل الشيوخ الذين نقم عليهم . ووضع الكثير من اقطاعاتهم التى الغيت فى اوقات نقمته تحت تصرف الامير وقُدمت مكافآت على الاخلاص والخضوع الى افراد اسرته او الشيوخ الذين رفعهم مكان الذين اعدموا او الذين يعانون فى الغربة .

فى ظل هذه الظروف الداخلية والخارجية اتخذت شؤون لبنان بالضرورة انعطافا مؤاتيا جدا . ان النظام المالى الجديد والاعلام بكل الضرائب وبنود الدخول ازالا الابتزازات التعسفية القديمة التى كان الباشوات يرهقون

الحكام المحليين بها . وقد حددت الاتاوة من القبائل اللبنانية الى جانب ضريبة الفردة ، التى تحدثنا عنها ، بستة آلاف وخمسئة كيس (قرابة ١٩٠ الف روبل فضة) ، والضرائب غير المباشرة وبنود الدخول التى كانت فى بقية سورية تحت الاشراف المباشر للخزينة او كانت تعطى التزاما سُلمت فى لبنان للامير باكملها . وكان الامير يجبى ايضا بالشكل الذى يراه الضريبة المباشرة بدون اى تدخل او مراقبة من جانب الحكومة . وكان ملزما فى بعض الفترات بان يقدم الى الخزينة اتاوة لبنان ، ولكنه كان يستطيع بدوره ان يجبى من الشعب اكثر بكثير ، قدر ما يمكنه نفوذه .

كان مبلغ الضرائب المباشرة وغير المباشرة الى جانب دخول الاقطاعات ، التى اقتناها الامير عن طريق الشراء او الاغتصاب ، يصل الى ٢٥ الف كيس على الاقل . وبعد دفع الاتاوة المخصصة للخزينة كان يبقى للامير ايضا مبلغ طائل للانفاق على قصره وحرسه ولاعمال الاعمار فى بيت الدين ، وعلاوة على ذلك كان الامير ، حسب عادة كل الحكام الاسيويين ، يبقى لنفسه كل سنة شيئا للادخار .

فى عهد الغزو التركى اقتطع وادى البقاع الغنى لسباهية دمشق الملزمين بالانطلاق الى الحملات على نفقتهم الخاصة بطلب من الحكومة . فى ظل الفتن الدائمة فى هذه المنطقة صفيت خدمة السباهية العسكرية من تلقاء ذاتها ، وصار يتمتع بالدخول افندية دمشق الكسالى الذين لم ينطلقوا يوما فى حملة ضد العدو ، بل كانوا مشغولين بالدسائس على باشواتهم . وقد احتل امراء لبنان مرارا وادى البقاع الخصيب فى شرق لبنان وتمتعوا بدخول قراه السبعين . لم يحرص الحكم المصرى على السباهية الذين ، وقد تخلوا عن الخدمة العسكرية ، لم يعودوا يملكون اى حق فى الدخول المقترنة بها ؛ وسمح لامير لبنان بان يحتفظ لنفسه بهذا الامتياز الاقطاعى القديم ويجعل الوادرى المجاور هرى لبنان ويمنح اقرباءه واحباءه عقاراته . ودخلت ناحية جبيل ، التى كانت حتى ذلك الحين تابعة لباشالك طرابلس ، قوام الممتلكات اللبنانية نهائيا .

واذ تمتع الامير بهذه الظروف المواتية ، اخذ بدوره يلجم على غرار الباشا المصرى حقوق اتباعه الاقطاعية ويركز السلطة فى يديه . وصارت الممتلكات اللبنانية تأخذ بالتدريج اشكال امارة مقتطعة ذات حقوق خاصة ، وقد جرى هذا تحت تأثير الظروف نفسها التى قوضت نظام الاقتطاعات فى كل سورية واخضعته لتقييدات قانونية . وحيث ان محمدا عليا كان يعتبر الامير بشير سندا يعول عليه لسلطته فى سورية ، دعمه بنفوذه عوضا عن ان يثير المنافسين ضده ويقوى نفوذه فى الجبال باثارة الشقاق بين الجبليين على غرار الباشوات السابقين ووفق القواعد الاساسية للسياسة الشرقية . كل هذا لا يعزى الى علاقة محمد على الحسنة بالامير ، بقدر ما يعزى الى الظروف السياسية

الخارجية وعلاقات الباشا المصرى بالباب العالى من عام ١٨٣٢ الى عام ١٨٤٠ وعدم رسوخ معاهدة كوتاهية والتمردات المتتالية للقبائل السورية وتطلع السلطان الواضح الى طرد المصريين من سورية عند اول فرصة مناسبة .

على هذا النحو تطورت تلك الافضليات التى ضُمنت فيما بعد للقبائل اللبنانية بمساعدة الدول الخمس الكبرى . ولكن لا شك ابدا فى ان محمدا عليا لو حكم سورية على اساس ارسخ لقيدت حقوق امير لبنان قبل كل شىء ولخضعت القبائل الجبلية لنظام سورية المدنى . ان كل اسلاف الامير بشير منذ الاطاحة بفخر الدين والى حين استيلاء المصريين على المنطقة قد حكموا لبنان بمثابة ولاة للباشوات الاتراك ، وبمشيئتهم كانوا يُعزَلون ويُعدَمون ويساوَمون على الاتاوة عند تعيينهم . وكان لبنان يُحكم على الاساس نفسه الذى كانت تحكم وفقه بقية النواحى الجبلية فى الامبراطورية العثمانية باسرها ، حيث كانت العادات الاقطاعية للقبائل وصعوبة الاتصالات ترغم الباشوات على ان يعهدوا بالادارة الى الاعيان المحليين عوضا عن تعيين حكام من عداد موظفيهم ، وبهذا يضمنون طاعة القبائل ودخول الخزينة . ولم يكن الجبليون اللبنانيون يتمتعون باية امتيازات خاصة من حيث القانون الاساسى شأن امارات الدانوب ، ولا من حيث الوثائق الصادرة عن السلطان شأن جزر الارخبيل .

استغل الامير بشير بمهارة الظروف المواتية له تحت الحكم المصرى ، ولجم الطغاة الصغار من شيوخ وامراء ، وشد الجماهير الشعبية الى استبداده ، وبسط سلطته المباشرة على كل المناطق اللبنانية واكتسب ثروات ومجدا . استقر الامن المطلق فى الجبال ، واتسمت تلك الفترة بالبحبوحة النادرة وبتطور التجارة والصناعة . وبعد نظام الحظر والاحتكار التعسفى اللذين فرضهما الباشوات السابقون ، بعثت الحرية التى منحها الحكم المصرى للتجارة حياة جديدة فى المدن الساحلية . واصبحت صيدا وبيروت وطرابلس اسواقا حرة للجبليين الذين كانوا يقايضون فيها الحرير وزيت الزيتون بالحبوب وبمنتجات الصناعة الاوربية . وازداد الانتاج فى جبل لبنان بمقدار الثلث على الاقل ، وتضاعف استهلاك المنتجات الاجنبية . ورفع التسامح الدينى للسلطات المصرية من شأن قبائل لبنان المسيحية سواء فى اعينها هى او فى رأى القبائل المجاورة . وصارت عائلتا امراء شهاب وابى لمع ، اللتان تحدثنا عن اعتناقهما للمسيحية . تدينان بالمسيحية علانية .

كانت سياسة الامير الماهرة تميل فى كل اعمال الحياة الحكومية والشخصية الى تدعيم سلطته فى جبل لبنان بالتدريج وابقاء اتباعه واقربائه فى طاعة شديدة واخافة الشعب دوما بمشاهد الاعدامات الدورية ، وكانت تميل ، وهذا هو الامر الرئيسى ، الى اسباغ مظهر وشكل على كل الشؤون ينتشر معهما على نحو متزايد ابدا رأى يوحى بانه الوحيد القادر على ابقاء

القبائل اللبنانية فى حالة خضوع ، ويبدو لشعبه فى الوقت نفسه بانه المدافع عنه ضد مضايقات السلطات المصرية . كان يعزو الى مشيئة الباشا كل الاجراءات الصارمة ، وكل تلك الضرائب المباشرة وغير المباشرة التى تضاعفت فى زمنه والهادفة الى اغنائه ايضا ، مصورا نفسه كمنفذ مطيع ، اما فى وسطه فلم يكن يفوّت فرصة ليعلن لجبلييه تذمره باسم شعبه .

اذا كان عطف الباشا على الامير قائما على الحسابات السياسية وحدها ، فان اخلاص الامير لمحمد على كان بالدرجة نفسها ستارا لمآربه الخاصة . ما كان للامير إلا ان يشعر بان الباشا المحب للسلطة لن يتوانى مع تغير الظروف عن تدمير هذا الصرح الذى شيده فى الجبال بحرص شديد وبعلم الباشا رغم النظام العام للبناء السياسى فى سورية . بقى هذان الشيخان ، الباشا والامير ، قرابة ثمانية اعوام على التوالى ، يحتال احدهما على الآخر ؛ كان الاول ينتظر فقط حل المهمة العظيمة المتعلقة بحقوقه فى سورية ليعزل محبوبه ، ولم يكن الثانى يتطلع لا الى ان يوحى الى شعبه بالريبة من الباشا ، حاميه ، وان يشوش الامور ليبقى شخصا ضروريا ويثبت حقوقه وحقوق عائلته فى جبل لبنان على اساس ارسخ .

لقد نضجت خططهما فى وقت واحد ، وصار كل منهما يفهم الآخر جيدا ، ولكنهما استمرا كالسابق يتبادلان الكلمات الودية وتأكيدات الاخلاص . ومع ان ابراهيم باشا كان يخضع لسياسة ابيه خضوعا اعمى فى كل شىء الا انه لم يستطع نظرا لخلقه الحاد ان يتحمل بصبر تلاعب الامير الذى كان يضطهد شعبه عمدا ليوجه النقمة العامة الى الباشا ويصور نفسه شفيعا وحاميا للمظلومين . وفى احد الايام اخذ ابراهيم بسبب تذمر الشعب من الضرائب المفرطة يلوم الامير على جشعه وعلى انه لم ينصح لمشيئة الباشا المسنّ وارهق على هواه كاهل القبائل الخاضعة له بهذه الضرائب . وقد اجابه الامير : «يا معالى الباشا ، انا مرغم على التصرف هكذا من اجل سكينتنا المشتركة ؛ لسكان جبالنا عادات البغال اللبنانية ، وينبغى معاملتها معاملة البغال» . «وكيف ذلك ؟» – سأله ابراهيم . – «ألم تلاحظوا ، يا سعادة افندينا ، ان البغال اللبنانية فى حملاتكم لا تسير بهدوء ، من المبيت الى المبيت ، الا حينما تكون محملة بثمانين باطمانا تماما (١٣ بودا) حسب لعادة المحلية ؟ خفضوا حملها فتهرش كل الطريق وتقذف بحمولتها وترفس وترهق نفسها ضعف تعبها السابق» . كان الجواب فى محله ، فقهقه ابراهيم . ولسوء الحظ ، فان نظرية الامير قد بررتها سواء بحبوحة الجبليين القسرية ، او الازمة التى اعقبتها .

سنشرع الآن فى عرض الظروف السياسية التى احدثت هذا الانقلاب .

الفصل العاشر

الاوضاع فى مستهل عام ١٨٣٩ . — مواقف محمود . — التفاتة الى محادثات السلطان والباشا . — التماس فرنسا الفاشل . — كنة محمد على فى العاصمة . — تغيير الوزارة . — صارم افنـــدى فى مصر . — استعدادات السلطان الحربية . — هتافات محمد على الجديدة بالاستقلال ورد الحكومات الاوربية عليها . — رحلة الباشا الى اعالى النيل . — مذكرتـــه الى القناصل العامين . — اقتراب الجيش العثمانى مـن الحدود السورية . — صراع محمود مع الوزارة . — نصائح محبوبيه . — تحفظ السلطان . — خطـــة واسعة للهجوم على سورية . — غطرسة السرعسكر حافظ باشا .

حل عام ١٨٣٩ متوعدا منذرا بالنسبة الى الحكم المصرى فى سوريـــة . كانت التمردات ، والحق يقال ، قد قمعت ونظام المنطقة المدنى قـد تطور ، وازدهرت التجارة ، واصبحت الاتصالات الداخلية آمنة بحيث ان الماشى كان يسير وحيدا ، بلا حراسة من حلب الى غزة يحمل السندات وحزم النقـــود للتجار ؛ وكانت اوامر محمد على ، وكذلك واليه على دمشق ومتسلمـــــى النواحى تبعث على رهبة اشد مما كانت تبعثه فرمانات السلطـــان فى خلال الفترة الاخيرة من الحكم التركى فى سورية ؛ ورضخت القبائل الجبلية لقانون التجنيد المقيت ، وجردت كل الشرائح من السلاح ، واذا كانت قد بقيت عند احد بندقية او يطقان فقد علاهما الصدأ حتما وخُبئا ككنز فى مكان ما تحـت صخرة او فى شعب خفى فى الجبال او فى باطن الارض ، ولم يكن الشعـب يعبر عن تذمره الا بأنين خافت من اول سورية الى آخرها ، اما المتذمرون المتهورون وكل من يجرؤ ولو فى الظلام على تحريض الشعب على المقاومة او

نشر الشائعات العدائية فكانوا يتعرضون لنقمة لا هوادة فيها . فى دمشق وطرابلس ، فى هاتين المدينتين ، حيث تشابه الطباع واريج الزهور ووفرة المياه كأنما تعزز القربى المعنوية والجسدية بين السكان ، بث ابراهيم الذعر فى النفوس بعقاب دام لمسلمين موقرين بسبب مكائدهم وتذمرهم كان يحتل سورية جيش قوامه قرابة ٤٠ الف نفر . وقد اكمل بناء تحصينات غولق بوغاز وعكا حراس رهيبون لا يسهرون على امن المنطقة الداخلى والخارجى ، بل على امن الحكومة التى كانت تقبض على ضحيتها المنهكة بيدين حديديتين وتراقب بحرص كل تذمر يصدر عنها .

وفى غضون ذلك كانت العاصفة تتجمع فى الشمال . واصغى السكان السوريون الى اصدائها البعيدة بآذان مرهفة لا يكادون يجرؤون على الانصياع للامل البراق فى التحرر من النير الذى كان طوق النجاة من كل الجوانب ، ولكنه كان شديد الوطأة بالنسبة الى البلاد التى تعودت الحياة الطليقة والجامحة .

لقد تحدثنا عن موقف السلطان محمود من الباشا المصرى . ومما جعل الاهانة ، التى الحقت عام ١٨٣٣ بعظمة السلطان فى اعين كل الشعب المؤمن واوربا ، اكثر ايلاما لعزة نفسه كون القدَر ، الذى غالبا ما خانه فى الصراع مع الاعداء الخارجيين ، كان مؤاتيا على الدوام للفكرة العظيمة التى اتسم بها حكم محمود ، وهى اعادة الحكم الفردى فى الامبراطورية التى انهكها بنيانها الاقطاعى رغم شبح الاستبداد الشرقى المخيم عليها ، والتى كانت تنحو ، على ما يبدو ، وجهة التفتت فى اعقاب جارتها الغربية ، الامبراطورية الالمانية .

قدم كل الاتباع المتمردين الواحد اثر الآخر خضوعهم او رؤوسهم المجرمة الى بوابة السراى . واخذ السكان يذوقون بهذه الدرجة او تلك الثمار الاولى للتحولات واستراحوا تحت صولجان العاهل الشرعى من استبداد العصاة العسكرى . ان السلطان نفسه ، الذى تحرر بجهد عملاق من وصاية الانكشارية ومن التدابير الجريئة لولاته فى المناطق ، استطاع ، اخيرا ، ان يحكم ويأمر بصورة مطلقة فى امبراطوريته . وكان يحق له ان يتوقع من اخلافه اللقب المجيد ، لقب باعث العملاق العثمانى لا بمعنى الفاتح ، بل بمعنى اشرف بمعنى المصلح .

ولكن مأثرة محمود العظيمة بقيت ناقصة ، اذ ان محمدا عليا لم يقتصر على متابعة عصيانه بنجاح ، محتفظا بثلاث مناطق شاسعة من مهد الاسلام ، بل كان ، علاوة على ذلك ، يندفع شهابا رهيبا فوق كل الامبراطورية ، وكان مثاله ونجاحاته بمثابة اطالة لامد الماضى المقيت الذى كرس السلطان كل نشاطه لتدميره .

بعد معاهدة كوتاهية تابع محمود بنجاح تشكيل جيشه وعكف على تنظيم مختلف فروع الادارة الداخلية للامبراطورية . والارادة الراسخة نفسها ، التى اتسمت بها البواكير الدامية لمأثرته ، قد تجلت فى كل درب العبقرى الذى

قُدر له ان يدمر كل ما حوله بلا هوادة ويصارع اوهام شعبه والشر الذى تكدس على امتداد قرنين ، قبل ان يبعث من الانقاض الصرح المتناسق الذى فكر فى بنائه . انجزت الاصلاحات الحكومية فى العاصمة جيدا ، اما نجاحات سلاح السلطان فى الروملّى والاناضول فمهدت لـــــه الطريق الى هاتين المنطقتين . واكمل حافظ باشا ، فيلدمارشال الشرق ، قهر الاكراد واخضع للتجنيد الاجبارى القبائل الجبلية التى لم تكن تعترف حتى ذلك الحين باية سلطة . ثم بقى فى الاناضول وعمل جاهدا لتنظيم جيشه بمساعدة الضباط البروسيين فى الاركان العامة الذين استدعاهم الباب العالى لا لقيادة الافواج فى خدمة الصف ، بل الجنرالات الذين لم يطلعوا بعد على علم الستراتيجية الاوروبية .

كان مقر حافظ باشا منذ خريف عام ١٨٣٨ فى ملاطية (ميليتانة قديما) ، وقسوة الشتاء وحدها هى التى ارغمت السرعسكر على ان يؤجل الى الربيع انتقاله الى سامسات (ساموسات قديما) فى اتجاه مجرى الفرات ، منحدرا الى الحدود السورية . كانت ديار بكر واورفا وخربوت ومرعش ، اى كل البلاد الواقعة الى الشمال من باشالك حلب ، تغلى استعدادا للحرب ، كان واضحا ان جيش السلطان ، الذى يفصله عن شمال غرب سورية حارسها الغرانيتى طوروس والشعاب المحصنة ، يستعد لدخول سورية من الجهة الشمالية الشرقية بمحاذاة الفرات . وعلى امتداد الشتاء جرى فى ترسانـــة القسطنطينية اعداد الاسطول بنشاط كبير . وقد عين قبطان الجيش الانكليزى ووكر * بصفة مستشار لدى القبودان باشا لتنظيم هذه الوحدة على امتن نحو .

سنعود الآن بانظارنا الى العلاقات الدبلوماسية بين مصر والقسطنطينية بعد معاهدة كوتاهية . لقد نوهنا بالاقتراح الغريب الذى جرؤ الباشا المصرى على التقدم به الى النمسا وانكلترا وفرنسا فى عام ١٨٣٤ فى صدد الاعتراف باستقلاله والتحالف معه . بعد ان تلقى محمد علي من الحكومات الاوروبيـــة ردودا فيها عبرة لطموحه ، ادرك ، على الرغم من التملق الذليل للمستشارين المحيطين به من اتراك واوربيين ان خططه هذه غير قابلة للتحقيق . وهو لم يفقد على الاقل الامل فى ان تكون لاسرته حقوق وراثية فى المناطق التى كان يحكمها .

واذ كان على محمد علي ان يصارع مضايقات مُلك متزعـزع لا يقوم الا على نجاح السلاح ، وحيث كان يرى انظار محمود الموجهة دوما نحو سورية ، فقد حاول انتهاز اية مناسبة لاجراء محادثات جديدة على امل ان يلتمس الحقوق

---

* ووكر بولدوين (١٨٠٢ــ١٨٧٦) ، اميرال انكليـــــزى . قبل فى الاسطول التركى باذن من الاميرالية الانكليزية فى عام ١٨٣٨ . ورجـــع الى انكلترا فـى عام ١٨٥٤ . **المحرر** .

الوراثية لعائلته ويوطد بهذا وضعه فى عين الشعب الذى تشغلـــه فكرة السلطان وينجز الانتصار الذى احرزه فى كوتاهية . وكان فى كل سنـــة يتذرع بحجج جديدة لكى لا يدفع الاتاوة المتفق عليهـــا والمفروضة على باشالكاته . وعوضا عن الاتاوة ارسل هدايا ثمينة الى عاهله بمناسبة زواج بناته ، وكأنه يسخر من عجزه ، ولجعله يشعر بالمضايقات التى يسببها له الابهام والفوضى فى علاقاتهما المتبادلة . رد السلطان بصرامة على مجاملات تابعه الجريئة وطلب منه دفع الاتاوات عوضا عن الهدايا . وفى غضون ذلك التمست السفارة الفرنسية بحمية من الباب العالى منح محمد علي حقوقـــا وراثية . وقد وافق الباب العالى بطيبة خاطر على التخلى لمحمد علي عن الحكم الوراثى لمصر بصفة وال مطلق الصلاحيـــة يدفع اتاوة معينة ويخضـــع للقوانين الداخلية العامة فى الامبراطورية ولمعاهداتها مع الدول الاخرى ، ولكنه طالب باعادة سورية وشبه جزيرة العرب وكاندى . كان التماس فرنسا يشمل سورية ايضا ، وكان يقوم على ذريعة تقول بان من شأن هذه المنطقة ان تكون فى يدى محمد على اجدى للباب العالى مما اذا كانت تحت ادارته المباشرة . وبدت هذه الحجج مهينـــة لكبرياء السلطان ، شأن الالتمـاس نفسه الذى تقدم به البلد الصديق والذى كانت تقوم عليه ، كما هو واضح ، الاطماع العنيدة للباشا المصرى .

علاوة على هذا النابض الخارجى ، لم تفلت من انظار محمد علي النوابض الداخلية ، الخفية للسياسة التركية القديمة لكى يجذب الى جانبه الاشخاص المحيطين بالسلطان ويؤثر من خلالهم فى تفكيره . وارسل الى القسطنطينية فى عام ١٨٣٦ كنّته زهرة خانم ، ارملة اسماعيل باشا الذى قتل فى سنّار ، الى ابيها عارف بيه ، احد اكبر علماء الدين شأنا . وبحجة ان كنته تريد رؤية ابيها ، كلفها بأن تؤثر فى تفكير الديوان والسراى لمصلحة حميهـــا المسنّ من خلال حريم استنبول ، حيث تملك النساء ، رغم كل اذلالهن ، نفوذا كما فى العواصم الاخرى .

استقبِلت زهرة فى القسطنطينية بالاحترام والحفاوة ، فمددت اقامتها هناك . وفى غضون ذلك احاط محمد علي الملا المعين فـــى مكة بالتقدير والحفاوة عند مروره بالقاهرة وحدثه وقد اغرورقت عيناه بالدموع عما يجلبه الخلاف مع السلطان من عواقب وخيمة على الشعب المؤمن ، واذ كان يعرف صلاته بشتى الاعيان اقنعه بان يدعو الى مصر احمد فوزى باشا ، الآمر العام للحرس ومحبوب ذلك العهد ، للتحدث بالقضايا وليبلغه امرا هاما . وصلت رسالة المنلا الى السلطان . اخلى محمود بطيبة خاطر سبيل محبوبه الذى كان فى تلك المرحلة من ميدان نشاطه الغريب يدعو بحمية الى فكرة الاقتسام الودى مع مصر ويشتهر بمناصرته لمحمد علي .

ولكن جرى فى ذلك الحين احد التغييرات الوزارية المفاجئة المألوفة فى

تركيا . اذ ان بيرتيف باشا الشهير اطاح عن طريق التآمر مع خليل باشا واحمد فوزى باشا بالسرعسكر المسنّ خسرو الذى بقى سنوات طويلة يتمتع بثقة السلطان الكاملة . وانعم على خليل برتبة سرعسكر ، وعلى احمد فوزى برتبة قبودان باشا ، واصبح بيرتيف روح الحكومة الجديدة . ان بيرتيف ، المتدفق عبقرية والمتسم بتعصب مسلم مسنّ والمخلص بغيرة للسلطان والذى يحسن تقدير المواهب على نحو افضل من السلطان محمود ، اقترح بجرأة ان يُرسل الى المحادثات مع شخص داهية شبأن محمد علي انسان عملي ، لا وجيه او محبوب قد تتجاوز صلاحياته احيانا حدود التعليمات الحكومية . اقتنع السلطان ، وعوضا عن القبودان باشا ارسل الى مصر ، مع هدايا للباشا وصورة السلطان ، البايلكجى صارم افندى ، معاون وزير الخارجية .

افتتح الكونفرنس فى القاهرة فى مستهل عام ١٨٣٧ ؛ ان محمد علي ، اذ رأى استعداد السلطان للمحادثات ، لم يتقدم باى اقتراح واعلن انه قانع بقسمته ، ولكنه مستعد على اى حال للاستماع الى اقتراحات الباب العالى . ورأى صارم ، الذى خابت توقعاته ، انه مضطر لتوضيح اقتراحاته عوضا عن الخوض فى ادعاءات الباشا . واقترح قبل كل شيء على محمد علي ان يتوجه بنفسه الى القسطنطينية ويوضح الامور مع الباب العالى والسلطان مباشرة ، او يرسل على الاقل شخصا موثوقا به الى هناك بتفويض منه . تملص الباشا بمهارة من هذا الاقتراح وذاك بحجة ان وجوده ضرورى فى مصر وانه لا يستطيع ان يعهد الى اى كان بالقرار النهائى لقضية يتوقف عليها مصيره ومصير سلالته .

ولكنه فى الواقع كان يعرف بتجربته جيدا موقف السلطان والاعيان منه ، وكانت اقاصيص الانتقام السرى فى استنبول احدث من ان يصدق كلمة السلطان . ومن الجهة الاخرى ، كان من الاجدى له بما لا يقارن خوض المحادثات مع مفوض السلطان فى مصر من ان يتتبع سير الامر من بعيد ويراسل القسطنطينية . ان صارم افندى ، وقد ارغم على توضيح الامور ، اقترح على الباشا الحكم الوراثى لمصر وشبه جزيرة العرب . وردا على هذا عرض عليه محمد علي محصلة الدخول والنفقات المترتبة على ادارة شبه جزيرة العرب ليبرهن مدى الخسارة التى تجلبها له هذه البلاد التى لا يعتبر ادارتها افضلية له ، بل عبئا مرهقا يتحمله من اجل غيرته على العرش والدين .

يبدو ان حجته كانت دامغة ، اذ كان شبه جزيرة العرب حتى ذلك الحين يلتهم فقط الخزينة والقوات المصرية ، ولكن الباشا كان يستطيع مع الزمن ان يجنى منه فوائد تجارية وسياسية لا تقل عن ذلك . واخيرا ، عرض صارم اقتراحه الاخير الذى يتلخص فى ضم كل جنوب سورية وباشالك عكا الشاسع (إيالة صيدا) وباشالك طرابلس الى مصر ، ولكن من غير ان يضع

شرطا حول حكم هذا الجزء من سورية وراثيا او مدى الحياة . ولم يكن محمد علي ، كما هو واضح ، يريد غير معرفة ميل السلطان والباب العالى ، وقد حقق هدفه فى هذا الخصوص . وحينما قال صارم ما عنده ، اخذ الباشا الداهية يبرهن على ان سورية كلها ضرورية له ، واجاب بصورة قاطعة انه لن يتخلى عن شيء الا من حيث ارضاء السلطان بزيادة الاتاوة ، وحتى انه ترك لمشيئة السلطان تماما تحديد مقدار الاتاوة الاضافية .

وبهذا انتهت المحادثات ، وابحر صارم الى القسطنطينية ، اما الباشا ، فرغبة منه فى التأثير فى مخيلة الشعب فى مصر وسورية وفى الرأى العام فى اوربا ، شوش القضية كلها وكأنما نتيجة لسوء التفاهم واعلن بمهابة للقناصل العامين للدول الكبرى ان السلطان عرض عليه حكم سورية بالوراثة .

بعد عودة صارم الى القسطنطينية كتب الباب العالى لمحمد علي رسميا بفحوى الاقتراح الاخير لمبعوثه حول التنازل عن باشالكى عكا وطرابلس ليحكمهما مدى الحياة والحق فى حكم مصر وشبه جزيرة العرب بالوراثة ، وحول استعداد السلطان للمصادقة على هذا الامر . كانت رسالة الوزير الاعظم حافلة بالتعابير اللطيفة . وردا على هذا استأنف محمد علي بالحاح جديد مطامعه فى الحكم الوراثى لكل الباشلكات التى عهد بها اليه ، ورفض اقتراحات الباب العالى ، مفضلا اطالة امد الغموض الذى يكتنف مصيره .

ان محمودا ، الذى خابت توقعاته واقتنع باستحالة الاقتسام السلمى مع تابعه الطموح ، لم يعد يحلم الا بالوسائل الكفيلة بمعاقبته وضاعف جهوده لتنظيم جيش حافظ باشا . وتوقف محمد علي ، من جانبه ، عن دفع الاتاوة ، ورد ببرودة اعصاب على مذكرة القناصل العامين للدول الكبرى فى هذا الصدد ، انه نظرا لاستعدادات الباب العالى الحربية ، فان ارسال النقود الى القسطنطينية يعنى وضع السلاح فى يد العدو ، وانه ، مع بقائه على اى حال مخلصا وخاضعا لعاهله ، لا يستطيع ان يتصرف خلافا لغريزة حفظ الذات .

فى تلك الفترة كانت سورية تغلى بحرب حوران . وبعد قمع كل المتمردين قام محمد علي تغمره السعادة ، وقد فقد اى امل فى موافقة عاهله الطوعية ، بالتوجه ثانية الى الدول الاوربية يعرض عليها حلمه القديم بالاستقلال ، ولكن بشكل جديد هذه المرة ، اى بالشكل الذى تقتضيه ميول الحكومات حينذاك . وفى عام ١٨٣٤ فكر الباشا الذى خدعته اقوال الصحافة فى اشعال الحرب بين الدول الكبرى وتسليح النمسا وانكلترا وفرنسا ضد روسيا وتنفيذ خططه الطموحة فى هذه الفوضى الشاملة . وحينما اقتنع فيما بعد بعبث محاولته ، اخذ يعلل عاهله بمحادثات خبيثة . لقد رأى هذه المرة عزم الدول الكبرى الراسخ على صيانة السلام ودرء اى انفجار فى الشرق . واذ بنى حساباته على هذا ، تخيل انه سيبلغ هدفه عبر التهديد بانتهاك السلام

وسينتزع من الحكومات الاوربية تدبير امور الشرق بالشكل الذى يرضيه . واعلن للقناصل العامين للنمسا وانكلترا وفرنسا وروسيا عزمه الراسخ على اعلان استقلاله ودعمه بقوة السلاح . كان ذلك فى ربيع عام ١٨٣٨ . ونحن نشير الى تواريخ السنوات لان كل واحد منها يطابق نجاحا مسلحا احرزه الباشا فى سورية . فى عام ١٨٣٤ تحدث التابع الطموح عن الاستقلال بعد قمع التمرد فى نابلس . والآن ، ما ان انتهت الحرب الدامية فى حوران حتى تحدث محمد علي عن الاستقلال .

كان رد الحكومات الاوربية فى هذه المرة اكثر صرامة وحدة مما فى عام ١٨٣٤ . هددت النمسا وفرنسا بغضبهما فى حال اقدام الباشا على انتهاك السلام فى الشرق ، واوضحت روسيا وانكلترا بصورة احزم بكثير نيتهما مساعدة السلطان على معاقبته [معاقبة الباشا] . ان الباشا المسنّ لم يفقد على الاقل الامل فى ان يحقق بالتماس الاستقلال المستحيل هدفه الرئيسى ، اى حقوق الحكم الوراثى التى تضمنها الدول الاوروبية او تعترف بها على الاقل . وردا على اعلان الحكومات الاوربية التوعد طرح بصورة وديعة ، ولكن حازمة ، طلبه هذا ، مستندا الى خدماته التى قدمها الى الباب العالى والبلدان التى يديرها والتجارة الاوربية والى البشرية . اما فى خصوص حدود الاقطاعة التى يطالب بتملكها وراثيا ، فكان يتجنب بمهارة خاصة فى تفسيراته امام الدول السؤال الحاسم عما اذا كان يقنع بمصر ، او انه يطالب علاوة على هذا الباشالك بسورية وشبه جزيرة العرب وجزيرة كاندى التى عهد اليه باداراتها .

مع حلول خريف عام ١٨٣٨ اعلن نيته زيارة الوجه القبلى والانتقال من هناك الى سنّار والى مناطق اعالى النيل النائية ، الى ناحية فازوغلو الواقعة تحت خط العرض ١٠ درجة لاكتشاف مناجم الذهب . وقبل سفره ارسل الى القسطنطينية بمثابة دليل على اعتداله وطاعته جزءا من الاتاوة غير المدفوعة بكاملها وابلغ الى جانب ذلك القناصل العامين لروسيا والنمسا وفرنسا وانكلترا بالمذكرة التالية التى تعبر عن قراره النهائى :

لقد ارسلت الى الدول الاربع الكبرى كل البراهين التى تحدد وضعى ورغباتى . وآمل فى ان صاحب الجلالة ن . ن . لن يحرمنى من عطفه وسيكون مع الزمن افضل رأى فىّ ولن يعارض تنفيذ رغباتى ، لان رغباتى تلائم سواء السياسة الاوربية او السكينة المقبلة فى الشرق . لقد بلغت السبعين من العمر ، فليُسمح لى قبل الموت بتدبير مصير اسرتى . التمس منحى الحقوق الوراثية وسأكون راضيا عن هذا تماما اذا حققت هدفى بالالتماس والمحادثات . لا انوى اشعال الحرب ، والبرهان على ذلك سفرى الى سنّار ، ولكنى لن اسمح بتقييد يدىّ لاغدو ضحية ؛ سأموت قبل ان اترك عائلتى وشعبى تحت رحمة القدر . اما اذا لم احقق هذا الهدف بالتماسى ، واذا لم تأخذ الدول الكبرى براهينى فى الاعتبار ، واذا لم تُضمن قسمة مصر المقبلة ، واخيرا ،

اذا تُركت لمصيرى ، فسأختار بنفسى وبالشكل الذى اراه الوسائل لتدبير اموري . وفى هذه الحالة واذا ارغمت على اللجوء الى قوة السلاح ، فسأعلن استقلالى علاوة على الحقوق الوراثية . اعرف اننى لن اصمد ضد الجهود الموحدة للدول الاربع ويمكن ان اقتل ، ولكن هل سيزيد هذا من مجد الدول الكبرى ؟ . . اما اذا ساعدنى قدر الحرب فساترك لها ان تحكم على النتائج .
الاسكندرية ، ٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٣٨ .

لم يعد محمد علي يحلم بمحادثات جديدة مع السلطان ، وعلى الرغم من نبأ الاستعدادات الدؤوبة لجيش آسيا الصغرى وتسليح الاسطول ، انطلق الشيخ النشيط بلا مبالاة الى اعالى النيل ليجتاز طريقا صعبا يربو على اربعة آلاف كيلومتر ذهابا وايابا فى بلاد متوحشة ، عبر الجنادل والصحارى ، فى زورق احيانا وعلى جمل احيانا اخرى ، تحت الشمس اللاهبة ووابل الامطار الاستوائية على امل العثور على الصوف الذهبى . . . فى ذلك الحين كانت دخول مصر تصل الى ٢٥ مليون روبل فضة ، وتحول وادى النيل الى عزبة ؛ وتحول سكانه البالغ عددهم ثلاثة او اربعة ملايين الى عاملين هدر الباشا الطموح دمهم وعرقهم بعنف واندفاع فى شبه جزيرة العرب المتأجج وسورية الجامحة لبناء صرح لا يتفق وموارده المعنوية والمادية ، صرح متداع ، شبح اطلق عليه الرأى العام فى الغرب من بعيد الاسم المدوى ، اسم المملكة العربية ، اسما يوحى المظهر الخارجى لذلك الصرح بانه رهيب وصائب . واذ رأى محمد علي ان من المستحيل ان يغطى بدخول مصر نفقات شبه جزيرة العرب وسورية ، حيث كان جيشاه ينتظران ثمانية وتسعة اشهر على التوالى لتلقى الرواتب المستحقة ، وتكهن بدنو الازمة السياسية وضرورة مضاعفة قواه العسكرية اكثر واكثر ، ذهب يبحث عن الذهب فى باطن جبال القمر .

حينما كان الباشا المسنّ يمضى كل الشتاء فى انجاز مسيرته العجيبة الى كولخيس الافريقية للميثولوجيا المعاصرة ، واصل ابراهيم الاستعدادات الحربية فى سورية . واذ كان يعرف من تجربة الحرب فى حوران كل اخطار الاضطرابات الشعبية فى بلد يستعد فيه التمرد للانقضاض كهيدرا بمئة رأس ، كان فى هذه المرة اكثر لطفا ودماثة مع السكان ، وقنع عوضا عن التجنيد بفصيلة غير نظامية من الدروز تحت امرة شبلى العريان المقدام وغفر للكثير من المدن عجزها فى التجنيد . وفى آذار (مارس) عام ١٨٣٩ عاد محمد علي خلو اليدين من مسيرته الى فازوغلو ليعكف على امور اكثر ايجابية . واخذ كذلك يسلح اسطوله ويرسل المجندين الى الجيش المصرى .

نشطت الاستعدادات الحربية فى القسطنطينية مع حلول الربيع وصارت تبعث على مخاوف حكومات الدول الكبرى التى استنفذت كل جهودها منذ عام ١٨٣٣ لصيانة السلام فى الشرق المضطرب . وتتبعت السفارات باهتمام

الميول الحربية للسلطان ومحبوبيه . كان الباب العالى حتى ذلك الحين يجنح الى السلم ، ولجمت تصوراته مرارا نزوات السلطان الغاضب ، الذى اصبحت كراهيته لتابعه المصرى شغله الشاغل واستغرقت كل تفكيره ، وكل قدرات نفسه المتوقدة . وكان يمكن التخمين انطلاقا من دلائل كثيرة ان السلطان ، رغم التأكيدات السلمية للوزارة ، اصبح يوجه خططه بنفسه الى جانب وزارته وبدون علمها . وكان يتصل بفيلدمارشالاته مباشرة .

كان حافظ باشا ، ابن القفقاس الجرىء والمخلص بحمية لسلطانه الذى احاطه بعطفه ولطفه ، يتحرق شوقا الى انجاز المأثرة العظيمة ، التى كانت تتطلع اليها نفس محمود ، ومعاقبة التابع المتمرد وغسل العار الذى غطى السلاح العثمانى فى عام ١٨٣٣ وتنفيذ وصية سلفه رشيد محمد الذى مات وفى قلبه رغبة فى الانتقام . كان حافظ واثقا بانتصاره ، فقد اجتاز جيشه تدربه العسكرى فى الحملات الشاقة ضد الاكراد ، وبعثت الانتصارات الدائمة النشاط فى نفس الجندى ، ويمكن القول ان تركيا لم تقدم يوما منذ تشكيل القوات النظامية فى الشرق جيشا بمثل هذا التنظيم الحسن من كل الجوانب . اكد حافظ النصر الحتمى للسلطان فى تقاريره السرية والتمس الامر ببدء العمليات الحربية ، متعهدا بطرد المصريين من سورية فى خلال الصيف وحده . هكذا كان شعور وآمال القائد العام للجيش . ومن الجهة الاخرى اصبح الجنرال-اميرال ومحبوب السلطان احمد فوزى باشا ، الذى اشتهر قبل ذلك بعدة سنوات بانه نصير لمحمد علي ولفكرة الاقتسام السلمى معه ، داعية متحمسا للحرب . واذ كان هذا الوجيه ذو النفس الضعيفة الذى اطال وسط اصلاحات محمود امد تقاليد ودروس سياسة السراى يتملق اكثر ميول عاهله تأججا ، لم يكن يحلم الا بتقوية تأثيره فى افكار السلطان وبقتل منافسيه الواحد اثر الآخر . ان بيرتيف الشهير ، الذى استخدمه فى عام ١٨٣٦ اداة لعزل خسرو ، قد عُزل بدوره من الحكومة وطُلب اعدامه من محمود على نحو غادر وسط حفلات السراى التهتكية ؛ ولكن لما لم يكن المحبوبون يستطيعون الاستغناء عن شخص عملى وذى خبرة لقيادة المجلس والحكومة ، فان خسرو المسنّ ، والنشيط مع ذلك ، والذى كان اقدر الاعيان الاتراك واكثرهم مدعاة للثقة ، اكتسب فى تلك الفترة التأثير مجددا فى الباب العالى على الاقل ، ان لم يكن فى تفكير السلطان نفسه . وعلى الرغم من عدائه مدة ثلاثين سنة لمحمد علي ، كان فى ذلك الوقت يدعو الى السلام وابتهل الى عاهله غير مرة بجرأة الخادم المطيع الامين ألا يعهد بمصير الامبراطورية الى الحرب العشواء ، والا يوقف التحولات المدنية المنقذة للدولة ، وان يحسّن التنظيم العسكرى بالتدريج . بهذا كان يمكن ، فى رأى خسرو ، تحقيق الهدف المنشود ، اى اخضاع سورية ومصر ومعاقبة محمد علي ، على نحو افضل من القيام بحملة جديدة يمكن لما تنطوى عليه من

مصادفات ان تكون مهلكة للجيش الذى كلف الكثير من الاعمال والجهود .
كان خسرو يرفض الحرب على نحو متزايد بحجة انها فـى الوقت الحاضر لن تروق للشعب من اقصى الامبراطورية الى اقصاها مهما كانت نتائجهـا ، علاوة على ان الدول الاوربية كانت تنظر بامتعاض الى كل اضطرابات الشرق هذه . كان محمود يقدر ايضا خدمات اكبر باشواته وتفكيره الراجح ، ولكن فى هذا التردد بين نصائح خسرو السلمية والاندفاع بنفاد صبر الى الانتقام المخطط له ، مكن السلطان المحيطين به من الهزء بالشيخ السيىء الطالع ، واذ اكد للحكومة بعد ذلك عزمه الراسخ على صيانة السلام ، راسل من خلال المابائن (ديوان السلطان) القائد العام للجيش وسمح له بالانطلاق من ملاطية الى سميساط الواقعة فى الجنوب ورسم خططا لحملة مقبلة فى حديث سرى مع القبودان باشا الذى يحسد خسرو حتى على مجرد ظل لنفوذه . كان خسرو يترأس المجلس ، وهناك كان يجري البحث فى شتى مجالات الاصلاحات المدنية فى الامبراطورية . وكان المجلس يشاطر رئيسه آراءه ويرغب فى صيانـة السلام اكثر من الحكومة . ولم يشأ محمود ، رغم كل ميوله الاستبدادية ، ان يعمل خلافا لرأى المجلس والحكومة .
وفى غضون ذلك كانت ترد الى وزارة الحربية تقارير القائد العام عـن اقترابه التدريجى الى الحدود السورية بمحاذاة الفرات ، على ضفتى النهر . والمسؤولية عن هذه التحركات ، التى كان السلطان يأمر بها سرا ، اخذها حافظ باشا على عاتقه ، متذرعا احيانا بضرورة البحث عن هواء انقى للجيش الذى عانى الكثير من قسوة الشتاء السابق ومن الامراض الجماعية ، واحيانا بالنقص فى المروج لخيالته . ولم يكن خسرو قد فقد الامل فى درء القطيعة . وقرر الباب العالى باقتراح منه ارسال مبعوث خاص الى المعسكر لتفقـد القوات . وكان فى وسع تقرير نزيه من المبعوث ان يلجم نـزعات محمـود الحربية . ولكن وقع الخيار لحسن حظ السلطان على طيار باشا الذى املى عليه المابائن مسبقا تقريره المقبل عن حالة الجيش . وفى الوقت نفسـه كلف السلطان سرا العقيد عمر بيه * ، المارق النمساوى ، بتفقد فرق الاحتياط فى انقرة وقونية . ووصلت طليعة جيش حافظ باشا الى بيره (بيره جيك) على ضفة الفرات اليسرى ، على بعد قرابة ثلاثين كيلومترا عن الحدود السورية ومسيرة ثلاثة ايام عن حلب . وفى نيسان (ابريل) انتقلت طليعة الجيش الى ما وراء الفرات حينما كان الفيلق الرئيسى يحتشد فى سميساط وجهـزت

* عمر باشا حاليا ، وقد اصبح مشهورا فى اوربا ، لانه كان فى الفترة بيـن سقوط الشهابيين وتطبيق نظام الادارة الحالى فى جبل لبنان حاكما على لبنان وقمـع تمرد الدروز فى عام ١٨٤٢ . وبرز لاحقا فى حملة الروملّى (عام ١٨٤٤) ، وفى عام ١٨٤٧ قمع تمرد الاكراد وبدر خان بيه .

معسكرا محصنا على ضفة النهر اليمنى . وفى مستهل ايار (مايو) وصل الى هناك القائد العام نفسه ونقل فيلقه الى هذه النقطة . هناك تقع ضفتا الفرات ضمن الحدود التركية ، ولكن عبور النهر كان ينطوى على مغزى خطير ، فانهارت آخر آمال انصار السلام . ان مبعوث الباب العالى ، الذى كانت العاصمة تنتظر منه معلومات دقيقة لتقدم على السلام او الحرب ، حث ، ربما بتعليمات سرية من السلطان ، نتائج المهمة المكلف بها .

احتشدت القوات المصرية فى حلب . وهرع الى هناك ابراهيم باشا وسليمان باشا رئيس الاركان واحمد المنكلى باشا وزير حربية محمد علي الواحد اثر الآخر استعدادا للحملة .

اثار خبر اقتراب قوات السلطان سورية باسرها . واخذت الكراهية للحكم المصرى تتجلى فى سواد المسلمين اخلاصا متعصبا للسلطان . كانت دمشق وطرابلس وحلب ونابلس وفلسطين باسرها تنتظر فقط اول خبر عن هجوم جيش السلطان وعن هزيمة ابراهيم لتنتفض الجماهير الشعبية فى مؤخرته . ولكن فى الوقت نفسه كانت التهديدات الدامية تلاحق فى كل مكان السكان المسيحيين الذين كان السواد يستعد ليصب عليهم بواكير غيظه . واعدت من دمشق ، بوتقة النفاق الاسلامى ، شرارة اللهيب الاول ، وكان على سكانها المسيحيين ان يدفعوا سيولا من الدم ثمن ما تمتعوا به على امتداد ثمانى سنوات من تسهيلات التسامح الدينى تحت الحكم المصرى . كان ابراهيم يعرف جيدا امزجة القبائل السورية هذه . واوعز الى امير لبنان بان يرابط مع جبلييه فى جوار دمشق ليبقى سوادها الجامح فى حالة خوف .

فى ١٠ آيار تقدم الجيش العثمانى الى نصيبين * ، على بعد قرابة اثنى عشر كيلومترا عن الحدود السورية ورابط هناك . اصبحت الحرب حتمية ، ولكن كان هذا الجانب وذاك يجتهدان في تجنب الاعمال الهجومية ، لان الدول الاوربية اعلنت لكليهما مكررا رغبتها فى صيانة السلام : اعلنت ذلك لمحمد علي بتهديدات صارمة ، وللسلطان بما ينبغى من لباقة .

اخذت تتكشف هنا خطط محمود التى وضعها بنضج واتقان . كان يعرف الحالة المعنوية السورية جيدا . وكان ظهور رايات السلطان عند الحدود السورية دعوة الى انتفاض السكان الذين اضناهم الحكم المصرى . عند اول انتفاضة شعبية ينال جيش السلطان ذريعة شرعية لدخول المنطقة من اجل احلال السلام والنظر فى شكاوى الشعب وتذمره من والى السلطان ، ولا

---

* نزب قديما التى يتردد ذكرها كثيرا عند الحديث عن حروب الاباطرة اليونانيين ضد الخلفاء العرب . هنا احرز يوحنا السيميسى النصر على الفرس ، ومن هنا نقل رفات القديس يعقوب . ننوه هنا بان السيميسى استولى فى هذه الحملة على سورية فى غضون سبعة اشهر ، بالسرعة المألوفة لكل فاتحى هذه المنطقة ، ولكنه ايضا لم يحتفظ بها امدا طويلا .

يبقى للجيش المصرى ، الذى يضغط عليه من كل الجهات تمرد الشعب وجيش السلطان ، سبيل للتجارة سوى ان يفر الى مصر لا يلوى على شيء قبل ان يقطع عليه التمرد العام طريق العودة . ومن الجهة الاخرى ، كان يمكن لاقتراب رايات السلطان ان تؤثر فى معنويات الجيش المصرى نفسه الذى لا يربطه بنير الانضباط غير الذعر ، والذى يرى فى محمد علي وابنه مغتصبين حالفهما الحظ ، والذى لا يكن اى عطف لهما والذى حكم عليه بان يصنع لنفسه حتى بانتصاراته قيودا اثقل واشد وطأة .

كانت الحالة المعنوية للجيش المصرى معروفة ايضا للسلطان ، شأن مزاج القبائل السورية . ولم يكن ثمة شك فى ان حافظ باشا سيتمكن فى غضون عدة اسابيع من توقفه للمراقبة من ان يجر الى جانبه اكثر من نصف هذا الجيش . لم يكن السلطان والحالة هذه مبادرا الى الحرب ، وكان يتجنب مصادفات المعركة . ويمكن القول بثقة ان جيش حافظ باشا كان فيلق مراقبة وان وجوده كان كافيا لتنفيذ فكرة السلطان . ولكن هل كان فى وسع جيشين يواجه احدهما الآخر ان يبقيا طويلا فى ظروف كهذه ، مقتصرين على المراقبة المتبادلة ؟ جعل حافظ معسكره منيعا من جهة الحدود السورية . وبقى عليه انتظار التأثير المعنوى الاكيد لموقفه ، ولما كان جيش ابراهيم محتشدا فى حلب بحكم الضرورة ، فان اول انفجار للحرب الشعبية فى حوران وجبال نابلس ومناطق جبل لبنان الشمالية ، حيث كانت تغلى النقمة على الحكم المصرى ، اكثر مما فى اى مكان آخر من شأنه ان يشمل كل سورية ويسلمها لسلطة العاهل الشرعى بدون معركة .

ان بعد نظر السلطان محمود ضمن له النجاح مسبقا عند حلول اللحظة المناسبة : كان على باشا البغدادى ، الذى قمع قبل ذلك بامد قريب تمرد سلفة داود . مستعدا ليقتحم سورية مع البدو عبر بادية الفرات . وغادر اينجه محمد باشا الموصلى ما بين النهرين مع ميليشياته ليدعم عمليات الجيش الرئيسى ؛ وقاد الكردى سليمان باشا المرعشى زمر الاكراد المحاربة التى كان سينضم اليها ابناء قبيلتهم من الاكراد الرحل داخل سورية ؛ واخيرا ، قاد الحاج علي باشا وعزت محمد باشا فرقتى احتياط فى قونية وانقره ، الاول للتهديد باقتحام شعب غولق بوغاز ، والثانى لدعم الجيش العامل . اذا اضيف الى هذه الخطة الواسعة النطاق التى اعدها محمود بدقة ظهور الاسطول عند الشواطىء السورية كما كان ذلك مفروضا والانزال فى طرابلس على مقربة من عكار المتمردة ، فان جيش ابراهيم سيسحق بتيار يكتنفه من كل الجهات وسيكون النجاح امرا لا شك فيه .

ما ان عزز حافظ المتسرع معسكره فى نصيبيين ، حتى اخذ يدعو الى التمرد اقرب المناطق السورية المحصورة بين الجيشين واحتل فى اول فرصة ناحية اورول ومدينة عينتاب وراء خط الحدود السورية . وبهذا بدأت

العمليات العدائية قبل اوانها . عندئذ تحركت القبائل الجبلية فـي مناطق طوروس الجنوبية واخذت تنحدر جماعات من كرد داغ وكافر داغ الى اقرب نواحي الممتلكات المصرية . وفي ناحيتي عكار والضنيـة اللبنانيتين هاج الشعب وقتل جباة الاتاوات المصريين وحتى متسلمه .

كانت سورية باسرها مستعدة للانتفاض ، ولكـن اخطاء قائد جيش السلطان وضعت الامبراطورية على حافة الهلاك مرة اخرى . فقد وقعـت اشتباكات صغيرة بين بدو قبيلة هنيدى الذين كانوا فى جيش ابراهيـم وخيالة حافظ غير النظاميين . وطالبه ابراهيم خطيا بتفسيـر هذا ، آخذا عليه انتهاك السلام ونافضا عن نفسه المسؤولية عـن المصائب التى قد تحدث فيما بعد . تذرع حافظ فى رده ، المرصع بزهـور البلاغة الشرقية ، بمصادفات تحركات القوات ، واتهم بدوره فصائل الجيش المصرى بنهـب القرويين ، واذ استند الى تأكيدات ابراهيم الخطية حـول طاعته للسلطان ورغبته فى صيانة السلام ، نصحه بالعمل وفق كلماته وواجبه كمؤمـن ومسلم .

كل ذلك كان صدى للتعابير التفسيرية الدبلوماسية فـي ذلك العهد . اذ كان السلطان ومحمد علي على حد سواء يكتمان بحرص نياتهما عن اوربا ويتهم كل منهما الآخر بانتهاك السلام . فمن كـان منتهكه بالفعل على الرغم من الالتماس الودى او الكلمة الحازمة للدول الكبرى ؟ لقد حاولت الحكومات الاوربية صيانة السلام فى الشرق بكل السبل تجنبا لاضطرابات سياسيـة جديدة يمكن لها عاجلا او آجلا ان تخل بسلام اوربا نفسه ، ولهذا كان فى وسعها ان تكون حازمة ضد البادئ . ولكن من كان البادئ ؟ هل ينبغـي دائما اعتبار من يطلق اول مدفع بادئا بالحرب ؟ هل كان فى وسع السلطان محمود ان يتحمل بلا مبالاة ذل معاهـدة كوتاهية الاضطرارية ، وهل كان محمد على نفسه مخلصا لمعاهدته ؟ اليس هو الـذى طلب مساعدة الدول الاجنبية لنياته فى الاستقلال ؟ هذا وحده يكفى لتبرير الانتقام الذى دبره السلطان ناهيكم عن عدم دفع الاتاوة المتفق عليها ، وعن التغيير الكيفـي لذوى المناصب الدينية العليا فى مكـة والمدينة الذين يدخل امر تعيينهم ضمن الحقوق الثابتة لرئيس الاسلام الدينى ، وكـل سلوك محمد علي ازاء العاهل والدولة كشف فيه تطاولا اجراميا على الحقوق المدنية والدينية للاسرة العثمانية .

لقد لاموا السلطان ووزراءه على نفاقهم امام الحكومات الاوربية ، ولكن هل كان محمود يستطيع ان يعول على حسن نية الحكومات الاوربية او حتـى على اجماعها فى الرأى اذا كانت فرنسا ، التـي تصور نفسها حليفة غيورة للسلطان ، لم تتوقف منذ عام ١٨٣٣ عـن دعم مطامع محمد علي ، وبالتالى الايحاء الى التابع المتعجرف بالمزيد من الوقاحة ؟

هل كان يستطيع [محمود] ان يثق بنصائح دول لكل منها نظرته الخاصة الى شؤون الشرق ، وكل منها يطمح الى ان يستخلص منها اما فوائد جديدة لنفسه او اثقالا تجعل كفة الميزان فى اوربا تميل لمآربه الخاصة ؟ روسيا وحدها هرعت الى مساعدته فى اللحظة الحرجة بمروءة ونزاهة ؛ ولكن اى شعور ابدت منافساتها الغربيات حينذاك ؟ كان من حق محمود ان يرغب فى حل هذه القضية التى يتوقف عليها مصير الامبراطورية والعرش ، القضية الشرقية البحت ، بمحكمة داخلية بين العاهل والتابع ، بدون اى تدخل من الدول الاوربية . وحينما رفض الباشا النهم اقتراحاته المتساهلة ، وحينما صار هذا التابع يزداد فى كل سنة وقاحة وخطرا ، اصبح من الافضل للسلطان ان يلجأ الى السلاح ويتخذ فى عين شعبه موقف الهجوم اللائق بحقوقه الشرعية على ان ينتظر حملة جديدة للجيش المصرى على عاصمته نفسها .

مع كل هذا كانت تجربة الماضى تملى الحذر الشديد فى تنفيذ الخطة الموضوعة . قبل ذلك بسنة ونصف زمن الحرب فى حوران ، حينما اهتز الحكم المصرى بشدة فى سورية باسرها ، كان ظهور جيش السلطان كافيا لانهاء الازمة الرهيبة . ولم تتوقف عناصر النقمة الشعبية نفسها عن تحريك المنطقة ، وكان يجب تركها لتنضج وتدمير الحكم المصرى فى سورية عند وقوع ازمة جديدة . كان ينبغى لحافظ باشا ، عوضا عن ان يدعو الى التمرد قبائل صغيرة يقف الجيش المصرى فى مؤخرتها ، ان يتحين انتفاضة المناطق الداخلية ويهب فى الوقت المتفق عليه برايات العاهل الشرعى بصفته منقذا للشعب المظلوم وقاضيا للباشوات العصاة .

الفصل الحادى عشر

قرار المجلس حول الحرب . — ابحار الاسطول . — جولات السلطان الاخيرة . — مرضه . — شبح الأخ . — موت محمود . — تبوء عبد المجيد العرش . — الامزجة فى العاصمة . — . خسرو وخليل . — البدء بالعمليات العسكرية . — الاوامر التمهيدية لمحمد على . — توجيهات ابراهيم وسليمان . — الضباط البروسيون فى المعسكر العثمانى والائمة فى المجلس العسكرى . — حركة جانبية وهجوم ليلى . — معركة نصيبين . — اسباب اعتدال ابراهيم بعد النصر . — خيانة القبودان باشا .

لنترك الجيشين عند الحدود الشمالية لسورية ولننظر الى ما كان يجرى ذلك الحين فى القسطنطينية والاسكندرية .

وضعت عودة طيار باشا وعمر بيه الى العاصمة حدا لتردد الباب العالى بين رغبة السلطان السرية وتخوفات انصار السلام . حسب تقرير المبعوثين كان الترتيب الممتاز لجيش حافظ والخبرة التى اكتسبها فى حملة كردستان وحماسة الناس للسلطان تضمن كلها نجاحا اكيدا . وفى اواخر ايار (مايو) * ، فى الوقت الذى كان فيه حافظ يحتل نصيبين ، تقرر فى القسطنطينية ، فى اجتماع عام للوزراء واعلى اعيان الاسلام المدنيين والدينيين ، وبحضور الباديشاه سحب سيف التأديب من قراب الصبر الملكى الطويل . واستنادا الى القوانين الاساسية للامبراطورية العثمانية افتى شيخ الاسلام بشرعية هذه الحرب . بيد ان المجلس قرر ، تجنبا للمكالمات المزعجة مع السفارات الاوربية ، عدم نشر هذه الوثيقة التى يمكن الا تعتبر اعلانا للحرب ، بل اجراء بيتيا وعقوبة لوالى الباب العالى على ذنوبه . وابحر الاسطول التركى ، الذى كان راسيا فى المضيق مقابل قصر بيشيك طاش ، وفى خلال اليومين التاليين سار بمهابة الى بحر مرمرة حاملا جيش انزال قوامه

* فى ٧ حزيران (يونيو) عام ١٨٣٩ . — **المحرر** .

٦ آلاف . ولم تبلغ السفارات الاوربية كذلك بأى شيء عن مهمة الاسطول ، الا ان الاقاويل اذاعت قرار الوزارة التركية ، وكانت العاصمة فى انتظار قلق . أمر الاسطول بالبقاء راسيا فى الدردنيل وانجاز التصليحات الداخلية للسفن هناك انتظارا لايعازات لاحقة .

تفقد السلطان شخصيا اسطوله الذى عمل سنوات طويلة على التوالى لتحويله وفق النظام الاوربى والذى عهد به الى محبوب ذلك العهد ، فوزي احمد . وقبيل ابحار الفرقة الثانية تحت امرة القبودان باشـــا زار السلطان محمود برفقة كبار اعيانه باخرة الاميرال «المحمودية» ذات المدافع المئة والاربعين ، والتى اعيد بناؤها قبل ذلك بامد قصير بعظمة وبهاء خارقين . تحادث السلطان سرا مع اميراله قرابة الساعة واعطاه اوامره الاخيرة .

كانت قد ظهرت على السلطان عوارض المرض منذ بعض الوقت . وقد دهش الجميع فى ذلك اليوم لضعفه وشحوب وجهه ونظرته الكابية . ولم يصعد السلم الى سطح الباخرة الا بصعوبة ، وكان يجب دعمه نظرا لمشيته المترنحة ، لا بدافع الادب الشرقى . ولكن بعد حديث محمود مع محبوبه ، الذى خر ساجدا على سطح السفينة امام عاهله وودعه وقد اغرورقت عيناه بالدموع وسط هتافات الطواقم التى اصطفت على طول عوارض الصوارى ، ووسط دوى المدافع من كل الاسطول ، تألق نظره ، وكأنمـــا الامل فى الانتقام العاجل اعاد اليه بريق حياة قدر لها ان تتلاشى بلا عودة .

اننى ، اذ توجهت الى سورية فى تلك الفترة المشهودة ، امضيت عدة اسابيع فى القسطنطينية وتيسر لى ان ارى السلطان محمودا غير مرة . فى يوم احد من مستهل ايار (مايو) ، فى نزهة فى المياه العذبـــة من القرن الذهبى ، حيث ظهر السلطان فى زورق اسود ، غير مخصص للاستعراضات ، برفقة ابنيه وخسرو الشيخ ، كان وجهه مطليا بالحمرة ليخفى عن الشعب مظهره المريض . فى ذلك اليوم تمتع مصلّح الشرق لآخر مرة فى كشك رخامى مكشوف على مرأى العديد من الاوربيين بعرض تركى قديم لرقصة الفتيان . . .

وننوه بان امارات المرض ازدادت وضوحا عند زيارة الاسطول ، على الرغم من ان السلطان تابع طلاء وجهه بالحمرة . لعله نفسه لم يشأ ان يصدق مرضه . لقد وهبته الطبيعة بنية قوية ، هذه الصفة الوراثية لسلالة عثمان ، فلم يكن يعرف المرض تقريبا ، وكان يتحمل جيدا الاعمال المكتبية المضنية التى كان يكرس لها قرابـــة ثمانى ساعات فـــى اليـــوم وتعب الاستعراضات والمناورات والحفلات الليلية التهتكية التى كان يستغرق بعدها عادة فى سبات عميق .

احب المصلح الشمبانيا منذ فترة محاولاته الاولى للتجديد ، ثم اصبح للشمبانيا فى فمه طعم مفرط الحلاوة ، وكأنها من الاشربة التقليديـــة

المستساغة ، وبقى يشرب الروم عدة سنوات على التوالى ، واخيرا ، صار يحتسى كحولا نقيا مقطرا . كان الغموض الذى يكتنف الحياة الشرقية عادة يخفى عن الشعب تهتك السراى وعواقبه . وقد قيل فى الاوساط العليا ان سكر السلطان الدورى كان يحقن عبقريته المتعبة بنشاط جديد . وفى الواقع ، لم يتوقف عن التمعن فى كل دقائق الادارة ، وكان يوجه بارادته المطلقة الشؤون السياسية وتنظيم الامبرطورية العام وعلاقات الباشوات الجديدة بالباب العالى وكيان الوزارات الداخلى وكل فروع الادارة العسكرية ، اى ، باختصار ، كل تلك المستحدثات المحبوبة التى كانت ترمز الى حكمه . وفى الوقت نفسه كان يشرف شخصيا على تربية ابنائه ويشبع ولعه الدائم بالبناء واعادة البناء ، مكرسا الكثير من الوقت والنقود لنزواته المعمارية .

فى السنوات الاخيرة اصبحت قضية سورية شغل محمود الشاغل . وقد ترأس مباشرة مسيرة هذه القضية بنفسه ، الى جانب الوزراء . وكانت كل افكاره منصبة على اخضاع المغتصب المتغطرس وتنفيذ حكم السلطة المطلقة الصارم بآخر الاتباع المتمردين . ما ان شرع محمود فى تنفيذ خطة واسعة ، انفق عليها بحمية آخر جهود عبقريته ، حتى خانته فجأة قوته المنهكة قبل ان يتمكن القدر من خيانته .

مع حلول الربيع اخذت تظهر البوادر الاولى لمرض السلطان . تخلى عن المشروبات القوية ، ولكنه لم يقرر اللجوء الى العقاقير الطبية . كان يرهقه الارق وانعدام الشهية والسعال المتواصل وفقدان الدم بسبب البواسير والتهييج العام فى الجسم . وامضى فى هذه الحالة المضنية نيسان وايار (ابريل ومايو) . وبارادة طاغية اخفى تدهور صحته عن المقربين اليه ، وربما عن ذاته ايضا ، وضاعف نشاطه فى العمل واضنى جسده المنهك بالتمارين المفرطة . ورغم النهك العصبى التام ، حافظ عقله على كل قوته تحت تأثير الفكرة الدائمة حول اعداد الحملة على سورية .

وحينما وصلت كل هذه الامور الى نهايتها ، حينما اعطى الامر للجيش بالانطلاق الى الحملة وغادر الاسطول القسطنطينية ، تحطم النابض الذى كان يحرك كل ذلك النشاط المحموم للقدرات الذهنية والعضلية . فى الثانى من حزيران (يونيو) سقط السلطان طريح الفراش ، وفى اليوم نفسه اعلن كونسلتو اطباء البلاط ، ومن بينهم الدكتور العالم نيير ، الذى استدعى من فيينا قبل ذلك ببعض الوقت ، ان حالته ميؤوس منها .

بناء على اقتراح من الاطباء ، وافق السلطان على الانتقال الى بيته فى الضواحى ، الواقع فى جامليجا على جبل بولغورلو الذى يشتهر بهوائه * .

---

* كان سفيرنا بوتينيف يعيش حينذاك مع اسرته فى قاضى كوي على ضفة البوسفور الآسيوية غير بعيد عن بولغورلو . وفى احدى جولاتى مع السفير على

وكان المرض يشتد يوما اثر يوم . واستؤنفت الكونسلتوات تحت اشراف وزير الصحة الحكيمباشي عبد الله افندى ، الذى كان محبوب محمود امـدا طويلا . ان كل تأثير عبد الله الذكى والماهر فى عقل العاهل المشرف على الموت لم يستطع الا بصعوبة ان يقنعـــه باخضاع ارادته العنيدة لنصائح الاطباء . وحاول البلاط والوزارة ان يخفيا حالة السلطان عن الشعب ؛ ولكن الاقاويل عن مرضه احدثت كآبة عميقة فى العاصمة المهددة دوما بنشوب تمردات للانكشارية من جديد . وكانت كل الوجوه تنم عن القلق . فى تلك اللحظة الحرجة ، قدر المسلمون والمسيحيون على حد سواء مآثر المصلح الذى منح شعبه ، اخيرا ، الامن الداخلى والحكم الانسانى ، مكفرا بالعمل المدنى المرهق عن العقوبات الدامية التى اصابت اليونانيين فى عام ١٨٢١ ، والاتراك فى عام ١٨٢٦ * .

وارسلت السلطانة عصمة ، شقيقة محمود المحبوبة ، طبيبها الانكليزى ميلينجين اليه . وقد ادهش هذا الطبيب الحاشية بنظرته الثاقبة ، حيث شخص مرض السلطان وادرك اعراضه الدفينة وعزاه الى الادمان على المشروبات القوية . وتطلق على هذا المرض فى العلم تسمية رهيبة هى «delirium tremens» وفـــى الواقع ، كانت تتجلى فـــى المريض سمات السكر احيانـــا ، وكان يصفو ذهنه احيانا اخرى ، فيطلب باصرار ان تجلب اليه تقارير الباب العالى ويمارس تسيير الامور مع سكرتيرييه . وفى يوم جمعة شعر بتحسن ورغب فى ان يبدد الكآبة التى احدثها مرضه فى الشعب ، فذهب فى عربة الى مسجد فى سكوتارى رغم نصائح المقربين اليه الذين كانوا يخافون تأثير شمس الظهيرة المحرقة فى السلطان المريض . وهناك وقع مغميا عليه وهو يؤدى الصلاة . ولم يتردد الدكتور ميلينجين ، الذى استدعى مجددا ، فى ان يعلن للاعيان المحيطين بالسلطان ولصهريه خليل باشا وسعيد باشا ان الباديشاه لن يعيش

الجياد برفقة زوجتينا ، مررنا قرب بيت السلطان ، فرأيت محمود لآخر مرة بوجهه الشاحب ، الناحل ، وكان يجلس عند النافذة يمتع نفسه برؤيـــــة المناظر الساحرة الممتدة حول الجبل . ان السلطان ، وقد عرف السفير الذى كان يكن له ميلا خاصـا على الدوام ، ارسل اليه بعض افراد حاشيته يبلغونه السلام ويستعلمون بكياسة شرقية عن صحته وصحة اسرته . لقد ورد فى كتاب «Deux années de l'histoire d'Orient par Mess. Cadalvéne et Barrault» الكثير من التفاصيل الطريفـــــــة والنكات الحادة الممزوجة بنمائم ذلك العهد . والحديث الذى ادرجته هنا عن ايام محمود الاخيرة يشكل تكملة للتفاصيل ، التى عرضتها فى «مقالات من القسطنطينية» ، عن ارتقائه العرش وعن محاولاته الاولى فى مجال التحولات .

* المقصود قيام محمود الثانى فى عام ١٨٢٦ بتصفية سلك الانكشارية فـــى استنبول والولايات بعد تشكيل الجيش النظامى المدرب على الطريقة الاوربية . وكان هذا الاصلاح من العناصر المكونة لسياسة محمود الثانى من اجل اشاعة المركزية . — المحرر .

سوى ايام قلائل ، وان كل جهود الطب لن تستطيع سوى تأجيل اللحظة المقدرة قليلا وتخفيف وطأة آلامه الاخيرة . ولاجل هذا اقترح اعطاءه جرعات قوية من الافيون . لقد لجأ العلم الاوربى الى اكسير الشرق ليقهر فى مصلح الاسلام الاثار المشؤومة للشراب الذى لعنه النبى . وفى الواقع ، احدثت جرعات الافيون الاولى تأثيرا مدهشا . صحا السلطان من غفوته ، وكأنما بعثت فيه الحياة وشعر بانه فى صحة كاملة . شاع الخبر المفرح فى المدينة ، واستمرت الزينة والالعاب النارية ثلاثة ايام على التوالى .

كان قصد البلاط من هذا كسب الوقت والقيام بالترتيبات الضرورية لصيانة الامن فى العاصمة عند حدوث التغير فى الحكم . فى لحظات كهذه كانت الانظار تتجه بشكل عفوى الى خسرو الشيخ الذى كان ذكاؤه وحنكته ونشاطه وتأثيره فى عقول الناس وثقة الشعب به تستطيع درء الهزات التى تهدد العرش . لقد استدعى الى جامليجا باسم ام ولى العهد * ولم يفارق هناك اصهار السلطان . ابقت جرعات الافيون المتزايدة بالتدريج على حياة محمود المحتضر عدة ايام اخرى ، ولكن نشاطه كان يزداد ضعفا فى الصراع ضد المرض . صارت الرؤى تقلق الذهن المعكر للعاهل المعذب . وكان يرى فى سكرة الموت شبح اخيه مصطفى الذى خنق بأمر منه قبل ذلك بثلاثين سنة . . .

واخيرا ، فى صباح ١٩حزيران (يونيو) انطفأت خلسة حياة السلطان وهو غائب عن الوعى فى نزعه الاخير . وقد اتخذ خسرو العملى مسبقا كل الاجراءات الضرورية ليتبوأ العرش عبد المجيد البالغ من العمر ١٧ عاما . عين السلطان الشاب على الفور ، وهو لا يزال يريق الدموع على ابيه المحبوب ، خسرو وزيرا اعظم وخليلا باشا وزيرا للحربية ، عاهدا الى هذين الشخصين بمصيره ومصير الامبرطورية . وتوجه معهما الى قصر السلاطين القديم ، الى توب – كابي ، ليتقبل ايات الولاء من اعلى الوجهاء . وفرضت حراسة مشددة على المدينة . وقبيل حلول مساء اليوم نفسه دفن جثمان المرحوم وسط نشيج لا رياء فيه صادر عن سكان العاصمة باسرهم .

اثارت حداثة سن عبد المجيد تخوفات كبيرة سواء لدى الاعيان او لدى الشعب . ورأى الجميع فى خسرو الذى قلد لقب الوزير الاعظم ، وهو اللقب الذى الغي منذ امد بعيد فى عهد محمود ، وصلاحيات والي السلطان الذى كان لا يزال يجهل فن الادارة ، سندا امينا للحكم الجديد الذى لم يكن فى وسعه اختيار مشرف افضل . ونشرت بمهارة بين الشعب شائعة حول اوامر

---

* لا يحمل لقب السلطانة سوى ام السلطان وشقيقاته وبناته ؛ ولا تتمتع ام ولى العهد قبل اعتلائه العرش باية القاب مميزة . من المعروف انه لم يكن يحق للسلطان ان يتخذ زوجة شرعية .

محمود ونصائحه لابنه قبل الموت بان يعين خسرو وزيرا ويعيد بالجيش الى خليل المجرب والمخلص . لقد استدعى شبح الميت لتدعيم المرسوم الذى دشن به حكم ابنه . وبعد عدة اسابيع ، ابان مراسيم تقليد السيوف ، التى تقوم مقام التتويج عند سلالة الفاتح ، نشرت بين الشعب شائعة تقول بانه وصل الى العاصمة حسين الرهيب ، باشا ودين ، الذى كان اسمه المنقوش فى ذاكرة الشعب باحرف دامية من اعدامات الانكشارية بمثابة بعبع لسواد الناس فى العاصمة . وفى غضون ذلك اخذ يختفى بعض المتذمرين واحدا اثر الآخر بصورة خفيـــة ، اذ كان البوليس السرى يختار ضحايــــاه بلا ضجيج ، وفى الليل يقذف بالمخنوقين فى البحر ، وكانت الشائعات تبالغ فى عدد هذه الضحايا ، مما ضاعف الرعب لدى كل ذوى النيات السيئة . ان عقل خسرو المبتكر وهذا النشاط الذى كان يبدو وكأنه يزداد مع السنين عند الشيخ الاعرج المورد الوجه قد انقذا العاصمـــة والمملكة من مصائب جديدة .

فى ١٦ حزيران (يونيو) ، قبل وفاة محمود بثلاثة ايام ، وجه الباب العالى على عجل بايعاز من خسرو ، رسولين الى السرعسكر حافظ باشا مع امر بوقف العمليات الحربية ، وآخر الى الاميرال فى الدردنيل مع امر بالعودة فورا الى العاصمة مع الاسطول . ولكن كان الاوان قد فات .

بعد استيلاء الجيش التركى على عينتاب طلب ابراهيم من ابيه تعليمات جديدة . كانت عمليات العدو قد بدأت ، ولكن ابراهيم ، اذ كان يعرف ان قضايا الشرق اتخذت منعطفا جديدا بعد التصريحات الحازمة التى وجهت الى محمد علي باسم الدول الكبرى ، لم يستطع التصرف فى عام ١٨٣٩ كما تصرف فى عام ١٨٣٢ . ومن الجهة الاخرى ، لم يبق امامه مخرج غير خوض معركة حاسمة . اشتعلت الارض السورية بالتمرد حوله وخلفه . وكان وضعه يزداد خطرا فى كل يوم ، وكان يمكن لجيشه نفسه ان يصاب بعدوى روح العصيان ويخرج من تحت راياته .

ان محمدا عليا ، وقد امعن فى وضع الجيش وابنه ، فرح لان حافظ باشا اخذ على عاتقه مسؤولية الشروع فى الاعمال العدائية . وفى ٢٨ ايار (مايو) ، فى اليوم نفسه الذى غادر فيه القبودان باشا القسطنطينية برفقة الاسطول ، اوعز محمد علي الى ابنه بان يهاجم الجيش التركى ويستولى بعد تحطيمه على ملاطية وخربوت واورفا وديار بكر دون ان يجتاز غوليق بوغاز وذلك من غير ان يعلم قناصل الدول الكبرى بقراره ، حيث حذا حذو السلطان الذى لم يعلم هو الآخر السفارات بقرارات المجلس حول بدء الحملـــة . اذا كانت الضرورة قد ارغمت الباشا ، من جهة ، على اللجوء الى السلاح لدرء الانتفاضة الشاملة فى سورية وهلاك ابنـه وجيشه ، فان تهديـــد معاهدة اونكيار اسكيليسى والخوف من ظهور القوات الروسية فى القسطنطينية مرة ثانيـة

منعاه من القيام ثانية بحملة على آسيا الصغرى فى اتجاه العاصمـــــة . ان الاستيلاء على مناطق متاخمة لحدود سورية الشمالية الشرقية ما كان له ان ينطوى على عواقب سياسية هامة .

كانت الاتصالات بين الجيش العامل ومصر تجرى فى تلك الفترة الحرجة بسرعة لا تصدق . فى خمسة ايام وصل امر محمد علي من الاسكندرية الى مخيمات ابراهيم عند الحدود التى يعينها نهر ساجور ، احد روافد الفرات . تقدم ابراهيم على الفور بفصائل خفيفة مجتازا خط الحدود التركية ، وتبعه كل الجيش تحت قيادة سليمان باشا . وكانت دوريات الجيش التركى الامامية موجودة فى مزار ، على بعد قرابة عشرة كيلومترات عن نصيبين ، وقد تم هزمها بسهولة ، فاختبأت فى معسكر حافظ المحصن . وفى اليوم التالى اقترب ابراهيم مع سليمان والاركان العامة تحت حراسة فصائل البدو والخيالـــة والمدفعية ، من نصيبين لاستطلاع مواقع العدو . ارسل السرعسكر فصائل الخيالة غير النظاميين والمدفعية ؛ وجرى تبادل قصير باطلاق النار ، وكان الفرسان الاتراك يروحون ويجيؤون فى الميدان بزعيقهم المألوف ، ولكنهم لم يمنعوا المصريين من ان يستطلعوا بالتفصيل موقع المعسكر المحصن . كانت سبع طواب قوية تغطى جبهته .

كان ابراهيم مستعدا لقيادة ارتاله الى الهجـــوم ، ولكن ثناه عن هذه المحاولة المتهورة رئيس الاركان سليمان باشا ، وهو سيف (Séves *) الفرنسى الاصل ، النقيب فى جيش نابليون ، والذى كان محمد علي مدينا له بتشكيل جيشه النظامى ، والذى درس الستراتيجية بنفسه عمليا فى حملتى موره وسورية . وبنصيحة منه تراجع المصريون فى اليوم التالى . عزا الجيش التركى انسحابهم الى الخوف ، ولكن الضباط البروسيين الذين الحقوا بحافظ باشا خمنوا بسهولة نية ابراهيم القيام بحركة جانبية وشن هجومـــــه من المؤخرة . وهكذا ، حرم المعسكر التركى من كل افضليات موقعه الذى اختاره حافظ وحصنه بعناية . حذروا حافظ من ذلك ، مقترحين عليه الانسحاب فورا الى اول معسكر محصن له فى بيريجيك ، على ضفة الفرات ، والاستناد الى النهر بحيث يغطى مؤخرته . ولكن حافظ خشى ان يلام على الهرب امام العدو . واستدعي الى الاجتماع الائمة الذين كانوا يبعثون الشجاعة فى الجيش بهرائهم الملهم . واعلنوا للسرعسكر ان المدونات العثمانية تشهد على ان قوات السلطان «المظفرة» («اسود الاسلام» ، حسب التعبير الدقيق للاسلوب التاريخى التركى) كانت دوما تندفع الى الامام ولم تتملص من المعركة ، وان

---

* اوكتاف جوزيف دي سيف (١٧٨٨ـ١٨٦٠) ـ ضابط فرنسى خدم فـــى مشاة البحرية والخيالة ، فى عام ١٨١٦ التحق بالخدمة فى مصر بصفة مدرب لجيش محمد علي . ـ **المحرر** .

قضيتها عادلة ، وان الله سيمزق المارق المتمرد وما شابه ذلك .

لقد قرر مصير الجيش العثمانى ؛ كانت قوتـــه تكمن فى الامتناع عن العمل ، الامر الرهيب بالنسبة الى ابراهيم فى ظل الغمامة التى انعقدت فى كل مكان على افق سورية . لا ينبغى بحال من الاحوال اختبار القوة المادية ، حينما تصمن الاثار المحتومة للتأثير المعنوى نجاحا باهرا .

اذا كان حافظ مذنبا فى انه ، اذ رأى حركة التفاف الجيش المصرى ، لم ينتقل فورا الى معسكر بيريجيك ، فان هذا تفسره ، فى اقل تقدير ، خشيته من ان تصاب قواته بالوجل ، بالاضافـــة الى انه كان سيفقد الجزء الاكبر من عتاده . الخطأ الاشد من هذا بكثير هو تهاونه طوال يومى مناورة الجيش المعادى حول معسكره المحصن . لقد ابتهل اليه الضباط البروسيون ان يستولى على الشعب والجسر اللذين لا بد وان يمر المصريون عبرهما . لو فعل هذا لاصبح اختيار وقت الهجوم وميدان المعركة متوقفا عليه ، ولكنه عوضا عن ذلك ترك العدو يجرى بهدوء اجرأ مناورة بارتال مستطيلة وعلى مرأى من جيشه اللجب ، عبر اراضى تقطعها اخاديد عميقة وانهار ورواب ، حيث يمكن بسهولة اكتساح جيش العدو الذى انهكته المسيرات الصعبة .

لاستباق الاتراك والاستيلاء على الجسر والشعب ، قام المصريون فى اليوم الاول بمسيرة على بعد قرابة ٥٥ كيلومترا على مرأى من الاتراك . وقبـل غروب الشمس بساعتين تقريبا احتلت المدفعية الخفيفة التركية تلا يبعد عن الطريق مسافة طويله وصارت تطلق النيران من هناك دون ان تحدث اى ضرر . ومع حلول الليل رابض المصريون ، الذين عبروا الشعب ، فى وادى النهر على بعد قرابة سبعــــة كيلومترات عن المعسكر التركى ، فى مكان مكشوف تماما . عندئذ فقط تسللت اربع بطاريات تركيـــة فى الظلام الى مرتفع قريب ، ومن هناك اخذت تطلق النار على المصريين من مدافـــع الهورتز . ساد الهرج والمرج فى الجيش المصرى . لقد توفرت لنا الفرصة لنلاحظ ان المدافع كانت تنطلق ، حسب النظام الستراتيجى لابراهيم ، خلف الارتال فى المعارك وتعيد الفارين الى مواقعهم بقنابل الشظايا . كانت المدفعية وفية ومخلصة .

فى تلك الليلة ، ما ان فتحت البطاريات التركية نيرانها حتى اندفع رجال المدفعية المصريون الى اسلحتهم واخذوا بمبادرتهم ، دون انتظار الامر ، يردون على النار ، وبهذا انقذوا الجيش الذى كان نصفه ينتظر مجرد فرصة للهرب الى العدو . وبحثت كتيبتان بضباطهما عن طرق للفرار الى المعسكر التركى ، ولكن ادركهما البدو واعادوهما الى ابراهيم الذى صدق برغبة زعم الفارين انهم ضلوا الطريق فى الفوضى والظلام . بيد ان بضع مئات من جنود ابراهيم تمكنوا من الفرار الى الاتراك . ويؤكدون ان السرعسكر فكر فى القيام بهجوم عام فى تلك الليلة ، وكان النجاح مضمونا ، ولكن الائمة قالوا له

ان على المحاربين المؤمنين ان ينطلقوا الى المعركة فى ضوء النهار ، لا فى ظلام الليل كاللصوص . وهكذا ، فوت حافظ الهجوم ، فتخلى للعدو عن كل مزايا وضعه واضطر نفسه الى ان يقلب نسقه القتالى رأسا على عقب ويترك فى المؤخرة تلك الطوابى التى كانت تغطى جبهته .

فى اليوم التالى تابع المصريون الاستراحة تحت الشمس ونظفوا بنادقهم . كانت الخيم وقفا على الجنرالات وحدهم فى هذه المحطة اللاهبة ، حيث كانت الحرارة تصل الى ٣٠ درجة فى الظل . وفى كـل ذلك الوقت لم يقدم الى الجيش سوى نصف حصة من البقسماط ، ولا شيء اخر . واخيرا ، فى اليوم الثالث ، فى ١٢ حزيران (يونيو) وزع نصف الحصة الاخيرة واعلن للجنود انه سوف يتم بعد عدة ساعات العثور بوفرة على مختلف الاغذية فى المعسكر التركى . وبعد ذلك توجه الجيش المصرى ، متابعا حركتـه الجانبية ، الى الميدان نفسه الذى اختاره للهجوم على العدو من الخلف .

تمكن الاتراك من نصب عدة طواب رديئة امام جبهتهـم الجديدة . قاد ابراهيم اول الامر ارتاله بشكل عمودى مع الخط التركى على امل ان يخرج الاتراك الى الحقل الاجرد . واذ رأى نيتهم خوض المعركة فى خطوطهم ، اخذ يناور بصورة موازية وامر فجأة باحتلال مرتفع يعلو على الجناح الايسر للجيش المعادى ، حيث تستطيع المدفعية قذف الميدان بأسره . عندئذ فقط ادرك حافظ باشا الاهمية الستراتيجية لهذه النقطة وهرع ليسبق المصريين . وبهذا فتحت المعركة .

منذ ان طبق التكتيك الاوربى فى الشرق لم يلتق يوما فى فى ساحـة الوغى افضل من هذين الجيشين . كانت قوى الطرفين متعادلة : كان جيش السلطان يضم ٥٧ كتيبة (١١ كتيبة حرس و١٧ كتيبة اساسية و٢٩ كتيبة رُدَفاء من الميليشيا النظامية) ، و٥٠ سرية خيالة (١٨ سرية حرس و١٢ سرية اساسية و٢٠ سرية من السباهية والباشى بزق غير النظاميين) ، اى ما يقارب مجموعه ٣٣ الفا من المشاة و٥ الاف من الفرسان ، مع ١٤٠ مدفعا و٣ الاف مدفعى . وكان الجيش المصرى مكونا من ١٤ فوجا للمشاة يضم كل منها ٣ كتائب ، ومن ٣٢ سرية للخيالة النظاميين ، وقرابة ٣ الاف بدوى وباشى بزق ، و٤ افواج مدفعية مع ١٣٠ مدفعا ، اى قرابة ٤٠ الف عنصر .

كان الى جانب الاتراك الكثير من الافضليات المادية والمعنوية . وكان الجندى التركى اقوى بنية وافضل كساء وغذاء ، وكان بطبيعته اشد ميلا الى الحرب بما لا يقاس من المجندين المصريين والسوريين ، واكثر نشاطا وجرأة بما لا يقاس ، وكان بالاضافة الى ذلك مخلصا لراياته ومندفعا بشعور دينى . وكان الجيش التركى قد استراح عدة اسابيع فى المعسكر وتخلص تماما من مشقة السير ومن العلل التى انهكته على امتداد الشتاء والربيع . ان الحملات الناجحة ضد الاكراد اثبتت ، اخيرا ، للجيش التركى افضليات التكتيك الجديد

ورفعت من قدر نفسه فى عينيه . كانت تلهم الجيش التركى النظامى لاول مرة الثقة الجريئة بالنفس التى خلقت فى الماضى ايات من الجرأة فى القوات الانكشارية .

كل هذه الافضليات الهامة كانت تقابلها فى الجيش المصرى مزايا اكبر تكمن فى انضباط الجندى والمناقب الشخصية للقائدين ابراهيم وسليمان . كان نصف النظاميين المصريين وكل المجندين السوريين بلا استثناء لا يربطهم براياتهم سوى الخوف . كانوا يستطيعون تذكر الانتصارات التى تتوجت بها حملة عام ١٨٣٢ ، ولكن ما هو الامتياز الذى تركه للجندى عمله الدامى ؟ لقد حكم عليه ان يصارع سبع سنوات بلا توقف ابناء عشيرته فى سورية وشبه جزيرة العرب ويسمع لعنات مواطنيه . لم يكن الشعور الدينى ولا شرارة الحماسة العسكرية يلهمان هذه الجماهير المستعبدة التى تقيدها اغلال الانضباط بمصير انسان محب للرفعة يكتنفه الخوف والمجد . وكان الجيش المصرى اضعف من الجيش التركى من الناحية الجسدية ايضا ، ولكنه كان الى جانب ذلك اكثر تعودا على الاشغال والحرمانات ، وقد جعلته شمس مناخه الاستوائية اصلب عودا ؛ ففى المعركة قرب نصيبين وصلت الحرارة الى ٣٠ درجة فى الظل .

ان الافضليات نفسها ، التى كان فى وسع الجيش التركى ان يفخر بها ، اصبحت وخيمة بالنسبة اليه : كان يُبدى فيه حرص زائد على مصلحة الجندى المادية . لم يضن محمود مع تطوير نظامه العسكرى باية تضحيات ليوحى الى شعبه بتعاطفه مع خدمة الصف * . وشاع فى الجيش التركى بالتدريج ترف ، ولا سيما فى الطعام واثناء المرابطة فى المخيمات ، لا وجود له فى اية دولة اوربية . صاروا يصونون الجنود ، كالاطفال ، من الشمس والبرد والرطوبة ، ويطعمونهم لحما وخضارا ورزا باستمرار ، ويخافون انهاكهم بالمناورات والتدريبات فى حر الصيف . واثر نظام التدليل اياه فى تربية الجندى المعنوية . ولرفع شأن الخدمة العسكرية ودرء سوء استخدام السلطة ، خففت العقوبات بشكل لا يتفق ابدا مع درجة تعلم الشعب ومع مفاهيم الشعوب الشرقية حول حقوق الرؤساء . كان الضباط حتى رتبة رائد يعاملون الجنود خارج نطاق الخدمة كما لو كانوا مساوين لهم ، فى حين كان هؤلاء الضباط يتزلفون لقادتهم وجنرالاتهم بكل تذلل الاشكال القديمة لاداب السلوك التركية . وكل هذا لان القرارات والعادات الجديدة كان يطبقها كبار القادة الذين وافقوا بطيبة خاطر على جعل الجندى اكثر تأدبا بتقريبه الى الضباط ،

---

* فى فترة بداية تشكيل الجيش النظامى عام ١٨٢٦ كان الجندى يكلف اجمالا ٥٠٠ قرش سنويا ، اى ما يعادل حسب سعر القرش حينذاك قرابة ٤٠ روبلا فضة . وبعد ١٣ سنة صار الجندى يكلف سنويا ٨٠ روبلا فضة .

ولكنهم حرصوا فى غضون ذلك على ان يحتفظوا لانفسهم بالتراث المغرى للتقاليد القديمة * .

فى الجيش المصرى شُدد الانضباط كثيرا فى كل الفترة المضطربة لحكم محمد علي فى سورية . لقد اعتاد الجندى على تحمل كل الاشغال ، وكان واعيا لا يتذمر من الحرمانات ويخضع لرؤسائه خضوعا اعمى . وكان ابراهيم القائد المستبد لجيشه . وكان يتوقف عليه كل مصير الضباط الذين كان يزيد من اخلاصهم الحقيقى الامل فى الترفيع ، وبشكل خاص واقع ان اصحاب كل الرتب ، من المقدم فصاعدا ، كانوا يتقاضون رواتب عالية . واخيرا ، كان ابراهيم يحسن تقدير التفوق الستراتيجى لرئيس اركانه سليمان باشا ويثق بخططه تماما وينفذ تعليماته بدقة فى كل التحركات وفى المعركة نفسها ويتحمل طبعه الحاد بصبر ، رغم كل انفته الاسيوية .

كان فى المعسكر التركى الكثير من الباشوات ، وكان بعضهم يتسم حتى بتربية اوربية ، وكان هناك ايضا ضباط اركان بروسيون ، ولكن حافظ لم يكن يصغى الى الضباط البروسيين ، وكان يرى فى الباشوات الذين تحت امرته ، وثمة مسوغات لهذا ، حسادا لا يرغبون الا فى تدميره .

فى ظل وضع الجيشين هذا وبعد الاخطاء المسبقة للجنرال التركى لم يعد ثمة مجال للشك فى نجاح ابراهيم . ما ان استولت المدفعية على المرتفع فوق الجناح الايسر للجيش التركى حتى وجه كل ضغط جناحه الايمن الى الجناح التركى الايسر ، محنيا وسطه وجناحه الايسر . لقد قرر شن هجوم سريع بالفرسان على مؤخرة الجناح التركى الايسر وتطويقه مرة اخرى داخل طوابيه وعزله عن المعسكر على هذا النحو وانهاء الامر بضربة حاسمة واحدة . وافقه سليمان شريطة ان تشن السرايا الهجوم بالتناوب وبمسافات كبيرة بين السرية والسرية لعدم تعريض كل مجموعة الفرسان ، التى كان لكل نسق منها ١٥ حصانا فى العمق ، لمفعول قذائف المدفعية وقنابل الشظايا التركية . لم يطعه ابراهيم او لم يفهمه . وبغطرسة تركية قاد كل مجموعة فرسانه الى الهجوم . لم تنجح المناورة ، فقد احبطت بعدة رشقات من المدفعية ، وفى الوقت نفسه نفدت الذخيرة فى الجناح الايمن . واخذت كتائب الجناح الايمن الست عشرة تنسحب بلا نظام . ولم تتمكن من وقف الفارين جهود ابراهيم ولا مثال الضباط الذين قتلوا واحد اثر الاخر بنيران العدو . فى تلك اللحظة الحرجة لجأ سليمان باشا ، وهو يلعن ابراهيم ويشتمه بصوت

---

* فى عام ١٨٤٢ ، وكنت عند السرعسكر مصطفى باشا ، خر المارق النمساوى عمر باشا ، الذى رفع لتوه الى رتبة لواء ، ساجدا امام مصطفى وقبّل رجله . وقبل ذلك بامد قصير تغدى مقبّل الارجل هذا عندى مع الكثير من الضباط الانكليز وشغل المكان الاول من حيث الرتبة

مرتفع ، الى الوسيلة المألوفة لابقاء الجنود فى الصفوف : صوب مدفعيته اليهم وارغمهم بقنابل الشظايا على الصمود امام نيران العدو . وفى غضون ذلك وصلت حمولات الذخيرة * . كان يكفى ان يشن حافظ باشا فى الوقت المناسب هجوما سريعا بخيالته او يحرك المشاة للهجوم بحرابهم حتى يجتاح كل جناح المصريين الايمن تماما . ولكنه ترك لهم الفرصة ليتمالكوا انفسهم ويستأنفوا هجوم المدفعية بقنابل الشظايا على مسافة مئتى متر تقريبا . وما لبث الخيالة النظاميون ، الذين انطلقوا فى لحظة فوضى المصريين لمطاردتهم ، ان ولوا الادبار ، اذ جوبهوا بقنابل الشظايا ونيران البنادق ، واحدثوا تشوشا فى الفصائل . عندئذ تحرك الى الامام وسط المصريين وجناحهم الايمن اللذان لم يساهما اية مساهمة فى المعركة حتى ذلك الحين . وبعد نصف ساعة تم اجتياح الجيش التركى عن اخره . اجترح حافظ باشا ايات من الشجاعة ليقوّم اخطاءه . واندفع بنفسه مرارا الى النار ليجر وراءه انساقه المشتتة ، واعمل سيفه فى الهاربين ليعيدهم الى القتال . ولكنه كان قد خسر المعركة .

اصبح فى حوزة المنتصرين كل المعسكر ، وكل العربات ، وكل المدفعية ، و١٠ الاف اسير ، و١٢ الف بندقية ، وجزء من خزينة الجيش ، وحتى شارات السرعسكر الالماسية والتعليمات التى قدمها السلطان عند بدء الحملة . كانت خسارة الطرفين من القتلى والجرحى متساوية تقريبا ، حيث وصل عددهم الى ٧ الاف .

اقام ابراهيم فى المعسكر التركى نفسه واستراح فى خيمة حافظ باشا الرائعة ، وفى اليوم التالى احتل ايضا معسكر بيرجيك المحصن الذى وجد فيه ٤٠ مدفعا من العيار الثقيل . وتبعثرت فلول الجيش التركى فى الجبال القريبة . وانطلق الاكراد الذين جندهم الاتراك الى جبالهم ، اما نظاميو الروملى وآسيا الصغرى فالتمسوا النجاة مع جنرالاتهم لدى فرقتى الاحتياط فى ملاطية وانقرة . هكذا كان مصير هذا الجيش الذى كان عليه ، حسب التأكيدات المهيبة لحافظ المغرور ، ان يتغلغل فى مصر بحملتين . هل نعزو خسارة

---

* هذه الحادثة لا يرد لها ذكر فى كل التقارير عن معركة نصيبين . ان كل التقارير تقوم على رسالة سليمان باشا المنشورة فى المجلات الفرنسية ، ولم يكن فى وسع سليمان باشا ، نظرا لعلاقاته بابراهيم ، ان يعرض امام العالم كله خطأه الفادح ومناورته المتهورة التى كاد ان يخسر بها المعركة . بالاضافة الى ان تفاصيل الفوضى العامة التي سببها انسحاب الفرسان لا تشرف الجنرالات المصريين وتبدى على نحو صارخ مزاج الجيش الذى كان ينبغى اخفاء دخيلته عن انظار اوربا مهما كلف الامر تحقيقا لمآرب محمد علي . حينما نفدت ، مثلا ، الذخيرة لدى المشاة بعد ساعة من المعركة ، وهو امر غريب ، بالمناسبة ، لا يوجد تفسير لعدم اندفاع المشاة الى الهجوم بالحراب غير خوف الجنرالات من انتقالهم الى العدو . يمكن القول بحزم ان كسب معركة نصيبين تم بالمدفعية وحدها .

معركة نصيبين الى الهفوات الستراتيجية للجنرال التركي او الى مصادفات الحرب ؟ ليس عبثا ان الشعوب كانت تسمى الهزيمة بحكم الله . ونحن نرى عن غير وعى فى هزيمة الجيش التركى ارادة الله التى صانت كل السكان المسيحيين فى سورية وفلسطين من مصائب كبرى . لا شك ، كما تشير امزجة القبائل المسلمة فى هذه البلاد ، الامر الذى نوهنا به فى الفصل السابق ، فى ان انتصار الاتراك كان من شأنه ان يغدو ايذانا بفظائع لم يعهد لها نظير للسواد الحانق ، وقبل ان يتمكن جيش حافظ من التغلغل فى داخل سورية ولجم الانفعالات الشعبية يباد المسيحيون فى حلب ودمشق والمدن الاخرى ، وتباح اماكن العبادة فى القدس للنهب .

ان ابراهيم ، وقد عاقب بغرامة كبيرة سكان عينتاب والمناطق الاخرى الذين انحازوا الى الاتراك ، اقام فى مرعش . كان طريق استنبول مفتوحا امامه ، ولكنه لم يتحرك قدما ولم يجدد محاولات عام ١٨٣٢ ، وحتى انه لم يدع قبائل آسيا الصغرى الى التمرد ، وذلك فقط لخوفه من معاهدة اونكيار اسكيليسى . وعكف على قمع التمردات التى نشبت فى مؤخرته ، فى المناطق الشمالية من سورية . وقد برهنت التمردات على ان قوة جيش السلطان تكمن فى الترقب والامتناع عن العمل . لو ان حافظ استطاع التملص من المعركة اسبوعين او ثلاثة ، لاستلم سورية بلا قتال .

وبالمناسبة ، يمكن التذكير هنا بظرف آخر شكل فيما بعد مسوغا لاكثر الاقاويل خلوا من الاساس ولادعاءات فرنسا الزاعمة انه تم بالتماسها درء قيام ابراهيم بحملة ثانية على آسيا الصغرى . فى ايار (مايو) حينما كانت الحكومات الاوربية قلقة من بوادر الازمة التى خيمت على الشرق ، ارسل وزير الخارجية الفرنسى ، رئيس المجلس المارشال سولت مرافقيه السيدين كالييه وفولتس الى الاسكندرية والقسطنطينية ينصحان الباب العالى ومحمدا عليا بتلافى او وقف العمليات العسكرية والركون الى وساطة اوربا على كل حال . وصل النقيب كالييه الى الاسكندرية حينما كان محمد علي قد اصدر امره الى ابراهيم بمهاجمة جيش السلطان . وقد نوهنا بان هذا الامر نفسه ينص بصورة قاطعة على عدم عبور طوروس . بيد ان الباشا الداهية الذى تعود ان يذر الرماد فى عيون الدبلوماسيين بالمبالغة الخيالية بقواه ووسائله ونفوذه ونياته الخارقة التى لا يؤمن بها هو نفسه ، اخفى عن المبعوث الفرنسى هذه المرة مغزى الامر الذى اصدره الى ابراهيم واخذ يتباهى زاعما ان جيشه سيحتل آسيا الصغرى ، التى يدعوه اليها حب الشعب ، وسينطلق بلا توقف الى القسطنطينية مهما كلف الامر . التمس الفرنسى باصرار الاعتدال فى النصر . وكان لكل هذا وقع مسرحى . فقد وافق الممثل الشيخ ، اخيرا ، احتراما منه لكلمة الحكومة الفرنسية على ان يكتب لابنه الا يبدأ العمليات العسكرية (فى حين انه كان قد بعث بالرسول الذى يحمل الامر بالهجوم

الفورى الى المعسكر قبل ١٨ يوما من ذلك ، وكان الباشا الشيخ مقتنعا بان الامر قد انتهى) وان يتوقف فى حالة احراز النصر حينما يصله حامل الرسالة ، مرافق الوزير الفرنسى ، والا يجتاز طوروس فى اية حالة من الحالات . ومن ثم ابقى المبعوث الفرنسى اربعة ايام اخرى فى الاسكندرية بحجة عدم توفر باخرة لنقله الى سورية ، وذلك ليترك لابراهيم وقتا للتحرك قدما بما فيه الكفاية وفق مغزى الامر الاول ، وفى غضون ذلك اعد على مرأى ملتمس السلام اسطوله للمسيرة . ادرك النقيب كالييه ابراهيم فى ١٧ حزيران (يونيو) على الطريق من عينتاب الى مرعش ، على بعد مسيرة ثلاثة ايام عن المدينة الاخيرة . وهناك فى المعسكر تكررت الكوميديا نفسها التى مثلها محمد علي فى الاسكندرية ، اذ ان ابراهيم الذى يطيع اباه دائما وفى كل شيء طاعة عمياء اعلن اولا انه يسير مباشرة الى قونية خلافا لاوامر ابيه ، على حد زعمه ، وهناك يقدر الله ما لا تعلمون . . . واخيرا وافق هو ايضا احتراما لكلمة الحكومة الفرنسية على تنفيذ امر ابيه . ومع ذلك لم يتوقف حيث ادركه المبعوث الفرنسى ، بل تحرك الى مرعش وفق الخطة الاولى للحملة . بيد ان الحكومة الفرنسية لم تتردد فى اعلان ارتياحها لهذا العربون المشبوه فيه للاعتدال والطاعة ، ثم عزت لوساطتها امتناع ابراهيم عن العمل وصورت نفسها نصيرة للسلام فى الشرق ومنقذة للامبراطورية العثمانية من العواقب اللاحقة لمعركة نصيبين * .

من المميز فى هذه الحادثة الدبلوماسية ظرف آخر ، وهو ان الحكومة الفرنسية نصحت حينذاك بمبادرتها الخاصة محمدا عليا بالركون الى وساطة اوربا ، ثم نرى ان فرنسا كررت بمهابة مع الدول الاخرى نصيحتها سواء فى

---

* لا يسعنا الا ان ندهش لكون الكتاب الفرنسيين ، اذ يعرضون بالتفصيل كل ظروف هذه المحادثات وينوهون بالامر الاول الذى وجهه محمد علي الى ابراهيم بعدم عبور طوروس ، يعزون مع ذلك الى وساطة حكومتهم اعتدال المصريين بعد النصر . ان كتاب «Deux années de l'histoire d'orient (1839-1840) par Cadalvéne et Barrault يتسم على نحو خاص بادعاءات الخلق السياسى ، ولهذا كتبت النمائم نفسها ، التى يحفل بها ، باسلوب مزوق . قارنوا فصله الخامس ، التى ادرجت فيه بصورة كاملة رسالة محمد علي الى ابراهيم بتاريخ ٢٨ ايار (مايو) ، بالفصلين الخامس والسادس . وهناك كاتب فرنسى آخر ، وهو Louis Blanc الذى اثار كتابه «Histoire de dix ans» ضجة كبيرة فى اوربا ، وهذا الكاتب مع انه يدين ادانة قاطعة فى كل شيء وباستمرار كل الحكومات المتعاقبة فى فرنسا منذ عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٠ ، فهو مع ذلك ، اذ يستند فى هذه القضية الى صيحات كادالفين وبارو ، يزعم ان ظهور الضابط الفرنسى فى المعسكر المصرى اوقف ابراهيم على الطريق الى القسطنطينية وبهذا درء الحرب الاوربية . بمثل هذا التباهى الطفولى يكتب التاريخ المعاصر فى زمننا اناس يسمون انفسهم شهود عيان ويفسرون بنظرية وحيدة الجانب ومتميز امورا جرت امام اعيننا .

القسطنطينية او فى الاسكندرية ؛ ثم نرى ايضا انها ، اذ تخلت عن الاتجاه العام للوزارات الاخرى ، حينما كان ينبغى الايفاء بالوعد الذى اعطى للامبراطورية العثمانية ، نصحت جاهدة كلا من الباب العالى ومحمد علي بان ينظما الامر فيما بينهما معرضين عن وساطة اوربا . وهكذا فان تناقضات وتقلب الوزارة المهتمة بنفوذ الاحزاب الداخلية فى الدولة وبتحاملات الشعب فى خصوص السياسة الخارجية احدثت ازمة عام ١٨٤٠ واعدت المواد الحارقة التى كادت تشعل اوربا باللهيب بسبب الخلاف بين السلطان التركى والباشا .

لنتحدث عن مغامرات الاسطول التركى . لقد نوهنا بانه صدر منذ ان كان محمود على قيد الحياة امر من الباب العالى بعودة الاسطول الى العاصمة . وكان هذا الاجراء القائم على رغبة خسرو فى درء حرب جديدة مع مصر بالغ الاهمية فى تلك الظروف لسبب عدم وجود قوات كافية فى العاصمة فى حالة وقوع تمردات عند اعتلاء ابن السلطان المحتضر العرش . وبعد موت محمود تلقى فوزى باشا فرمانا من عبد المجيد بتثبيته فى رتبة القبودان باشا وامرا ثانيا من الباب العالى بالعودة فورا مع الاسطول الى العاصمة .

اعقبت الايام ، ولكن الاسطول لم يظهر . انه ، وقد علق الاعلام واعلن بطلقات مدافعه تنصيب البادیشاه الجديد والفرمان الذى يثبته فى قيادة الاسطول ، اخفى عن الاسطول بعناية امرى الحكومة المتكررين بالعودة الى العاصمة ، وفى ٢٢ حزيران (يونيو) غادر الدردنيل مع اسطوله الى البحر . وهناك عند تينيدوس كان يتجول الاسطول الفرنسى تحت قيادة اللواء البحرى لالاند المكلف بدرء الاعمال العدائية بين اسطولى السلطان ومحمد علي . وكانت اضمن وسيلة لتحقيق هذا الهدف مقاومة الاسطول الفرنسى المعنوية لخروج القوات العثمانية الى البحر . قام القبودان باشا ، كاتما فى نفسه ما نواه من خيانة ، باتصالات بالاميرال الفرنسى واجرى معه احاديث سرية طويلة ثم ابحر بحرية الى الاسكندرية ليسلم الاسطول للباشا المتمرد . ونعيد الى الاذهان ان القبودان باشا فوزى كان ايام محمود يحرض جاهدا على الحرب ارضاء لرغبة عاهله العارمة ، لاعبا بمصير الامبراطورية من اجل مآربه المغرضة .

الفصل الثاني عشر

القلق فى العاصمة وانتصار محمد علي . — اقتراحات سلمية للوزير الاعظم . — مطامع الباشا . — تطاوله على حقوق السلطان العليا . — مراسلات لاذاعة . — مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) . — كآبة محمد علي . — الخلافات بين الوزارات . — مباحثات بين الدول الكبرى . — اساطيل فى الدردنيل . — مأمورية جديدة لكنة محمد علي . — تراجع الوزارة الفرنسية عن مذكرة تموز . — نيات تيير . — التحولات الجديدة فى الامبراطورية العثمانية ومغزاها . — الاعتراف السياسى لبيان غولخانة . — الوعود بالتسامح الدينى . خدمة قدمتها الوزارة النمساوية الى روسيا رغما عنها . — محاولات لمحادثات جديدة . — استعدادات عسكرية فى مصر وشكاوى فى القسطنطينية .

فى يوم تنصيب السلطان الشاب ، الذى كان يمكن ان يُخمن فيه منذ ذلك الوقت خلق هادئ وميول سلمية ، اعلن رغبته فى وقف الحرب مع الباشا المصرى . ولم يتوان الباب العالى عن ان يعلن لسفارات الدول الكبرى الاوامر التى وجهت بهذا المعنى الى الفيلدمارشال والقبودان باشا وقرار المجلس بارسال عاكف افندى الى مصر للقيام بمحادثات مع الباشا . وفى اليوم الخامس من العهد الجديد ، حينما كانت العاصمة والحكومة لا تزالان تحت تأثير الخوف الذى يرافق عادة تنصيب السلاطين ، تلقى الباب العالى نبأ سريا بهزيمة الجيش قرب نصيبين . وكان الشك يزداد ساعة اثر اخرى فى اخلاص القبودان باشا الذى تباطأ فى الظهور . فى هذه الظروف هرع خسرو النشيط الى ارسال عاكف فى باخرة خاصة ، واذ ابلغ محمدا عليا بتعيين خسرو وزيرا اعظم ، اعلن له تفضل

السلطان باقتراح منحه مصر بالوراثة . ثم ناشده باسم صداقتهما القديمة وحبهما للاسلام ان يضرب صفحا عن الماضى ويكون مخلصا للعاهل وللدولة .

لما كان الاميرال الفرنسى لم يحل دون مغادرة الاسطول الدردنيل واستسلامه لمحمد علي ، فانه ما لبث على الاقل ان ابلغ القسطنطينية بهذا . وقد صعقت الحكومة لهذه الاخبار التى اصابتها بضربات متلاحقة على اثر موت محمود ، وكأنها تنذر بالانهيار الحتمى للعرش المتداعى . واذ عزا الباب العالى خيانة فوزى احمد الى التخوفات التى كانت تراود هذا المسؤول عن الحرب المشؤومة مع مصر التى اشعلها خلافا لنصائح خسرو ، قرر طمأنته بابداء كل الملاطفات . وفى اليوم نفسه ارسل بباخرة خاصة مستشار الاميرالية مشين افندى يحمل خطى شريف كتب بلهجة عطف الى القبودان باشا بدعوته الى ان يعود الى العاصمة فورا . ادرك مشين الاسطول عند رودس . وهناك كان الخائن ينتظر رد محمد علي الذى ارسلت اليه سفينة تحمل اقتراحات بتسليم الاسطول . اخذ فوزى احمد فرمان السلطان من مبعوث الباب العالى بالمراسم العادية ، واعتقل المبعوث على الفور ليخفى عن الاسطول مغزى اوامر استنبول ، واذاع بدوى مدافعه بيان العفو الصادر عن السلطان ، واعلن عقد الصلح مع مصر وتابع ابحاره الى الساحل الافريقى . لم يكن مطلعا على نية القبودان باشا المجرمة الا عدد ضئيل من اتباعه ، وقد اذعن الاسطول للخائن دون ان يخامره الشك فى شىء .

اطلقت المدافع ثلاثة ايام فى كل ممتلكات محمد علي ابتهاجا بالانتصار فى نصيبين . ودوت المدافع فى سورية لحنا جنائزيا للآمال التى اختلجت فى افئدة قبائل هذه المنطقة من حلب الى غزة حينما اتاها نبأ اقتراب جيش السلطان من الحدود . وتظاهر محمد علي بالحزن وسط بهجته ، وصار يؤكد ان ضرورة تبديد الشائعات المغرضة على مصير جيشه بين القبائل التابعة له هى وحدها التى ارغمته على الاحتفال بنصر كان ثمنه اراقة دم المؤمنين من الطرفين .

وبعد اربعة ايام تلقت الاسكندرية نبأ موت محمود . فقد استأجر احد عملاء محمد علي السريين فى العاصمة سفينة يونانية خفيفة وقت مرض السلطان ، وما ان علم بان السلطان اسلم الروح حتى بعث الى الباشا خبرا بالامر . وصلت السفينة الشراعية الى الاسكندرية بعد سبعة ايام . كان يبدو وكأن رياح البحر الابيض المتوسط نفسها تواطأت مع القدر لخدمة محمد علي فى تلك الفترة . ولم يخجل الباشا الشيخ من اعطاء الربان ٤ الاف طالير مكافأة على هذه البشرى حسب العادة الشرقية وبدأ من جديد باطلاق المدفعية والنيران بحجة الاحتفال باعتلاء عبد المجيد العرش .

وفى اليوم التالى وصل خبر اخر كاد ان يذهب له عقل الشيخ ، فقد جاءت السفينة تحمل اقتراحات القبودان باشا الخائن . وعلى الفور بعث

محمد علي ، الذى هيجه السرور على ما يبدو ، باخرة تحمل دعوة فوزى باشا الى احضار اسطوله الى الاسكندرية . ولم يعد يرى لطموحه حدودا . وخشى المقربون اليه الا يصاب بمرض من الفرح والجهود المفرطة . لقد بقيت الامبراطورية العثمانية بلا جيش ولا اسطول يحكمها سلطان فى السابعة عشرة من العمر . وفى وسع الشيخ المنتصر بقواته البحرية والبرية الجبارة ان يفرض عليها قانونه بسهولة . وحلم بان يستقل اسطول استنبول والاسكندرية الموحد ويبحر الى العاصمة بذريعة حماية العرش والامبراطورية من المصائب التى تهددهما . ولا شك فى انه لو تركت الامبراطورية العثمانية لمصيرها ، ولو ان محمد علي لم يخف روسيا التى كانت لديها بحكم موقعها اسباب خاصة لوقاية الشرق من هزات جديدة ، والتى كانت تتمتع فى الوقت نفسه بوسائل مضمونة وسريعة لقمع التطاولات الطموحة للباشا الشيخ ، لما توانى محمد علي عن الظهور فى العاصمة العاجزة والاطاحة بالحكومة التى صعقتها المصائب المتلاحقة . ان التصريحات التى ادليت اليه ثانية باسم الدول الكبرى وكلمة روسيا الصارمة التى سمعها قبل ذلك بقليل بمناسبة استعداداته لمقارعة السلطان ابقت محمدا عليا فى حدود الخضوع للسلطة الروحية والمدنية المطلقة للامبراطورية العثمانية . كان يأمل على الاقل ان ينفّذ فى غمار الظروف الحرجة للامبراطورية مآربه المفضلة حول الحكم الوراثى لكل البلاد التى احتلها بالسلاح .

وصلت الى محمد علي وهو فى هذا المزاج رسالة الوزير الاعظم التى تعلن منحة السلطان . امر الباشا قبل كل شيء باطلاق نيران المدفعية للمرة الثالثة لكى يعلن على مسمع من القبائل التابعة ان الباشالكات المعهود بها اليه والى ابراهيم قد ثبتت لهما . اما فى خصوص اقتراحات الباب العالى الذى اعلن لمحمد علي ، باصراره المعهود ، كاتما تخوفاته خلف قناع من الهدوء ، الشروط نفسها التى رفضها فى عام ١٨٣٧ ، فهل فى وسع الباشا الآن ان يقنع طوعا بحكم مصر وراثيا ؟

ما ان ظهر الاسطول فى الافق ، حتى اعلن قناصل الدول الكبرى لمحمد علي انه ينبغى ان يعيده الى صاحبه الشرعى فورا حتى لا يعتبر مساهما فى الخيانة الشائنة للقبودان باشا ويفسد بهذا سمعته . ولكن محمدا عليا رد على هذا انه لا ينوى ابدا الاستئثار بالاسطول ، ولكنه يبقيه عربونا للشروط التى سيقدمها الى الباب العالى .

فما هى هذه الشروط ؟ لقد طالب ، علاوة على الحكم الوراثى لسورية ونواحى طوروس وشبه جريرة العرب وكاندى ومصر ، بتغيير الوزير الاعظم . لا شك فى انه كانت عند محمد علي اسباب قديمة ليكره خسرو ، ولكنه كان في ذلك الوقت يعرف جيدا انه حينما كان محمود على قيد الحياة لم يخش خسرو فقدان الحظوة والتمس الصلح مع مصر ، وان اول شيء فعله

بعد تسلم صلاحياته من السلطان الجديد هو توجيه كلمة السلام الى مصر .
كان ذنب خسرو فى نظر محمد علي يكمن فى مواهبه ونفوذه واخلاصه للعرش ، اى ، باختصار ، فى الخدمة التى قدمها الى الحكومة التى كانت على حافة الهلاك بعد موت محمود ، وبعد فقدان الاسطول والجيش .
ان انهيار الحكومة العثمانية فى ظل هذه الازمة من شأنه ، على الارجح ، ان يسوق قسمة باهرة جديدة لهذا المحظوظ المتحدر من الروملى ، الذى شيد جبروته على ضفاف النيل . لم يمكنه اعتراض اوربا من الاطاحة بدولة السلاطين المتداعية ، ولكن هل كانت اوربا ، فى حالة سقوط حكومة السلطان تحت ضربات القدر الجائر ، ستقدم على منع التابع العبقرى بجيشه ذى المئتى الف واسطوله الجبار وبالتعاطف الشعبى معه فى الروملى والاناضول من تأسيس مملكة جديدة على انقاض المارد العثمانى ؟
كانت حماية الشرق من الهزات ، واوربا من الحرب هدف الوزارات الاوربية . فمن كان يستطيع ان يقدم افضل الضمانات لتحقيق هذا الهدف ، ومن كان يملك العناصر الجاهزة من اجل البناء الداخلى للقبائل الشرقية غير ذاك الذى كانت المنطقتان الفوضويتان – مصر وسورية – مدينتين له بالنظام الحكومى ؟ وهذه القسمة الباهرة التى كان الباشا الشيخ يستطيع ان يعلل نفسه بها كان يهدمها ، كالحلم ، شيخ اخر فى الثمانين يفتح البخت على ضفاف البوسفور ويناشد العفريت الذى زار الدولة مع موت السلطان .
اذا كان محمد علي لم يجرؤ على الظهور بنفسه فى البوسفور ضيفا مسلحا ، فانه لم يفقد على الاقل الامل فى فرض قانونه على الدولة والسلطان من بعيد . كان يموه مطالبه بعبارات مألوفة عن الوطنية والاخلاص للعرش ويعد بان يذهب بعد عزل خسرو وتثبيت حقوق الوراثة له الى العاصمة تابعا طائعا فيضع تحت تصرف السلطان الشاب جيشه وتجربته القديمة من اجل ادارة الدولة . وفى الرد الرسمى على رسالة خسرو اقتصر على رفض اقتراح الحكم الوراثى لمصر وتأكيد انه وجه الى ابراهيم امرا بعدم التقدم ، ولكنه فى رسائله الخاصة الى خسرو نفسه ، والى ام السلطان وعمته ، والى شيخ الاسلام والاعيان الآخرين طلب باصرار اقصاء الوزير الاعظم . وارسل فى الوقت نفسه مبعوثيه الى الروملى والاناضول بخطابات الى الباشوات صب فيها حقده على خسرو واتهمه بالخيانة العظمى وعزا اليه كل مصائب الامبراطورية ولا سيما الخلاف بين محمود واخلص خدم الامبراطورية – الخلاف الذى اوجد كل هذه الكوارث . وحتى انه لمح الى التهور الذى كان يسىء الى كل الصفات العظيمة للباديشاه المتوفى ، مؤكدا ان خسرو كان يوحى بكل الشرور الى السلطان ، وهو ينوى الان القضاء على الاسلام . ثم برر خيانة القبودان باشا ، واكد ان الاسطول اعرب بالاجماع عن الرغبة فى الركون الى خادم الامبراطورية الامين محمد علي ، خشية ان يسلم الوزير الاعظم الاسطول الى

الكفار . واخيرا ، دعا كل الباشوات باسم الوطنية والدين الى المساعدة على الاطاحة بالوزير الاعظم .

وهكذا ، فان محمدا عليا الذى اكتسب بعمله على امتداد ثلاثيـن سنة سمعة المبادر الى التحولات الاساسية فى الشرق ، لجأ فى سن الشيخوخة ، وهو على حافة القبر ، الى تقاليد الفوضى القديمة . وعلى غرار الانكشارية ، الذين كانوا يطالبون فى العهود الغابرة بتغيير الوزير والوزراء ، لم يقتصر فى هذه الحالة على الطمع فى الفوائد له ولاسرته ، ولكنه تطاول على حقوق السلطة العليا ، مطالبا بعزل رئيس الحكومة . وفى الوقت نفسه انتهك حقوق السلطان الدينية بوقاحة . فان تعيين حارسى الكعبة وقبر محمد يعود ، حسب القانون المرعى لدى المسلمين ، الى سلطة الخليفة العليا . ولم تجـرؤ السلطات الدنيوية يوما ، حتى فى اكثر الفترات فوضوية فى شبه جزيرة العرب ، على التدخل فى شؤون هذين الحارسين . وبذريعة ان عثمان باشا ، المعين المنصب شيخ الحرم فى مكة ، وشريفا بيها حارس قبر محمد فـى المدينة ، كانت لهما اتصالات سرية ببدو جديدة المعادين له وكانا يعملان بوحى من باشا بغداد ، عزلهما محمد علي من منصبيهما ووضعهمـــا تحت الحراسة وطالب بان يعين السلطان مكانهما طواشيين كما كان يجرى قديما . وفى غضون ذلك اقتربت احدى الفرق التى تحتل شبه جريرة العرب مـــن الخليج العربى ، مهددة البصرة . وبقى ابراهيم مع جيشه فى مرعش خارج نطاق سورية . وازا كان لم يتحرك قدما خشية روسيا ، فقد كان على اى حال عنصر تخويف للعاصمة العاجزة وكان يهدد باثارة آسيا الصغرى .

كان الباب العالى مضطرا الى القناعة بتأكيدات محمد علي الباطلة حول الاعتدال ، والى تحمل كل اهانة . ولم يكن يحلم فى ذلك الوقت الا باسترجاع الاسطول . ودعا خسرو باشا برسائل سرية الباشوات الاربعة ، الذين كانوا فى الاسطول تحت امرة فوزى احمد ، الى القبض على الخائن وارجاع الاسطول الى العاصمة . كان اخلاص الطواقم والضباط وما ابدوه من سخط عندما انكشفت الخيانة بعد الوصول الى الاسكندرية يضمنان النجاح . ولكن رسائل خسرو ، التى وجهت بباخرة بريد فرنسية ، وقعت من خلال القنصل العام الفرنسى فى يد الباشا الشيخ واسفرت عن تهيجه الشديد . وطلب مـــن خسرو نفسه باصرار جديد ان يعتزل الحكم . اعتذر خسرو بدوره قائلا ان هذا لا يتوقف عليه وانه لم يفكر فى سن الشيخوخة الا فى الاستراحة ، ولكن الله شاء ان يرفع من قدره فى الاسلام ، وانه كتب عليه منذ الولادة ان يخدم فى سن الشيخوخة العاهل والوطن بصفة وزير اعظم ، وان من الاثم الاعتراض على ما قدره الله الخ .

هذه المراسلات اللاذعة بين اكبر وجيهين فى الامبراطورية التـركية ، هذه الشتائم والسخريات التى اهانا بها شيخوختهما على مسمع من اوربـــا

والاسلام كانت صفحة كوميدية فى القضية الشرقية وفصلا هزيلا ومضحكا فى الوقت نفسه لتلك الدراما التى مثلت بصورة نشيطة وعابثة على السواحل الشرقية للبحر الابيض المتوسط * .

تحت تأثير المصائب المتلاحقة التى حلت بالامبراطورية العثمانية ، تبادلت وزارات الدول الكبرى التأكيدات حول عزمها الراسخ على ان تصون بجهود مشتركة حرمة الامبراطورية واستقلالها تحت حكم سلالتها الملكية وتساعد على الحل العادل للقضية الشرقية بناء على الرغبة المشتركة فى صيانة السلام فى اوربا . ان هدوء العاصمة عند تبوّؤ خلف محمود العرش بعد

---

* فى ذلك العهد ، وسط اضطرابات الشرق الكبرى ، زرت مصر ورأيت محمدا عليا للمرة الاولى . بعد ان غادرت القسطنطينية ، حينما كان العاهل المعذب يعيش على جرعات الافيون وحدها ، رأيت اسطوله فى الدردنيل . وبعد الدردنيل قابلت الفرقة الفرنسية التابعة للواء البحرى لالاند الذى كان يتجول لمنع السفن التركية من الخروج الى البحر . واذ تابعت الابحار الى مصر على بواخر البريد الفرنسية ، اضطررت لان ابقى فى صير ١٥ يوما للحجز الصحى . وهناك تلقيت خبرين اولا عن موت محمود ، ومن ثم عن معركة نصيبين . وعند وصولى الى مصر كان اول ما ادهش نظرى فى المرسى سفينة «المحمودية» ذات المدافع المئة والاربعين والتى كانت تبدو اكبر حجما على خلفية الافق المنخفض للشواطىء المصرية ، والتى كان يرفرف عليها علم وبيرق القبودان باشا . بقيت طويلا دون ان اصدق عينى ، ولم اعرف الام اعزو ظهور اسطول السلطان امام الاسكندرية ، حينما لم يعد هناك سلطان ولا جيش . هل كان هذا انتصارا اخيرا احرزه محمود قبل الموت ، هل تحطم الاسطول المصرى ؟ فى هذه الحالة يمكن توقع ان يفتح الاسطول النار على المدينة بين ساعة واخرى ، ولكن الزوارق كانت تتحرك بهدوء ، وما لبثت ان رأيت المراكب المصرية بين المراكب التركية . ولم يخطر على بالى ولا على بال احد من رفقائى فكرة خيانة الاميرال التركى . وشرح اللغز مرشد الشاطىء الذى قدم الينا ليقود الباخرة فى طريقها الى خليج الاسكندرية . فى تلك الفترة كان طالع محمد علي قد بلغ الاوج . ولكن يبدو ان الشيخ المحظوظ قد رزح طويلا تحت عبء توتر القوى الفكرية وشطحات المخيلة التى غذت على نحو جامح مآربه الطموحة التى بقيت امدا طويلا دفينة فى نفس هذا المتحدر من الروملى . انه لمن المناسب ان ندرج هنا سيرة محمد علي ، فمن شانها ان تكون اصدق وصف مميز لتركيا المعاصرة . واعترف بانه جرى من الاحاديث عن هذا الانسان الشهير فى كل الرحلات وفى كل المدونات السياسية المعاصرة ، وصدر من سير محمد علي ما جعلنى اعتبر ان من حقى الامتناع عن ان اقدم للباشا الشيخ هذه الفريضة التى قدمها الكتاب من كل الشعوب الذين زاروا مصر او عكفوا على قضايا الشرق من بعيد فى السنوات العشرين الاخيرة . اقتصر على صفة واحدة نهلتها من حديثى معه ، صفة تعبر بما فيه الكفاية عن ميله الداخلى ورغباته التى كانت تشغله فى تلك الفترة . ان الباشا ، وقد ابلغه قنصلنا العام الكونت ميديم بوصولى ، عين لى موعدا فى احدى حدائق الاسكندرية التى كان من عادته ان يجرى فيها المقابلات . وجدناه بين محبوبيه المعروفين : توسيتسا (القنصل العام اليونانى) والصيرفيين

الاضطرابات واراقة الدماء ، التى كانت ترافق عادة اعتلاء السلاطين العرش فى عهود اخرى ، كان بادرة تبعث على الامل . فى ظل هذا التعبير عن شعور الشعب فى عاصمة الشرق الهائجة سابقا ، استطاعت حكمة الوزارات الاوربية ان تبعد المصائب التى كانت تلك الازمة الكبرى تهدد بها قبائل الامبراطورية العثمانية . بايحاء من الوزارة النمساوية ، قدم ممثلو الدول الخمس الكبرى فى القسطنطينية فى ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) مذكرة اطلعوا فيها الباب العالى

زيزيني وبريغس والكثير من الحاشية . كان الباشا جالسا على الديوان مقابل حوض من الماء ، تحت الاوراق الفاخرة لشجيرات الموز . كان اميراله المسن موتوش باشا ، احد مرافقى شبابه المقحام ، يقف امامه باحترام ويرطب الهواء بمروحة عريضة من ريش النعام ويطرد البعوض والذباب عن شخصه الفائق الوقار . وكان ارتين بيه ، الذى اصبح وزيرا للخارجية فيما بعد ، يعمل مترجما . فى ذلك الحين لم يعد محمد علي يرتدى العمامة ، ولكنه لم يتقبل البدلة التركية الجديدة بعد . كان يغطى رأسه طربوش بسيط بشرابة زرقاء متدلية الى الخلف ، وكانت رقبته مكشوفة على الطراز القديم ، وكان يرتدى دراعة من الجوخ الازرق مطرزة بشرائط حريرية ومفصلة على الطريقة التركية وسروالا عريضا من اللون نفسه وخفين احمرين ، بالاضافة الى سيف برباط احمر ، ويحمل بيديه سبحة من الكهرمان تنتهى بها بدلته التى اعتمدها فى الجيش والاسطول والبلاط والادارة المدنية مع اختلافات حسب الرتبة فى الخياطة ولون السترة ، وفى شارة الصدر التى قد تكون من الذهب او الالماس . تعرب ملامح محمد علي عن الوقار والهدوء اكثر مما تعرب عن روح المراس التى يتسم بها عمله . فلو كانت على رأسه عمامة بيضاء وفى خاصرته غليون عوضا عن السيف لبدا كاحد التجار المعمرين الذين يزدان بهم سوق استنبول احيانا ، وكانهم اخر ممثلى الشعب العثمانى وسط تحولات زمننا المضطربة . وانوه ، انجازا للتشبيه ، ان محمدا عليا لم ينهض لاصدقائه الكفار . لا اعزو هذا الى تعصب التركى الشيخ والشعور الفظ للانفة الشعبية التى كانت قديما تعتبر ان من الاثم ان يبدى الشعب المؤمن تلك المجاملة الاوربى مهما كانت مرتبته ؛ ولكن محمدا عليا كان فى تلك الفترة يحاول قدر ما تسمح به قواه ووسائله ان يضطلع فى المناسبات بدور ملكى ، وكان يدرس مراسم البلاط فى القسطنطينية . بعد التحيات المألوفة اقترح على الباشا ان اتفقد قبل كل شىء مخزن الاسلحة ، وليده المفضل ، وترسانات السفن والمصانع والقصور والحدائق . واضاف قائلا : «اما فى خصوص الاثار الكلاسيكية وعمود بومبايوس والدياميس وغيرها فلم يكن قبلى بقرابة ثلاثين سنة ما يستحق تفقده فى الاسكندرية غير هذه الاثار» . وبهذه المناسبة اخذ يتحدث كيف وجد المدينة فى عام ١٨٠٧ ، زمن انزال الانكليز ، واعاد الى اذهان المعمرين الموجودين هناك انه لم يبق فى المدينة كلها سوى بيت واحد لم يصب بالدمار ، ولم يكن فى ذلك البيت سوى غرفتين للسكن واحدة فى الاعلى اقام فيها هو نفسه بعد طرد الانكليز ، واخرى فى الاسفل وضع فيها جواده . وتباهى الباشا طويلا بكل ما فعله لمدينته ، وكانت عنده مسوغات لهذا ، لانه يمكن اعتباره بحق مؤسس الاسكندرية الجديدة . واذ كنت اعرف كم يحب ذكر انه من مواليد قوله ، المدينة الام لاسكندر المقدونى ، قلت للباشا ان من بين كل ما صنعه العبقرى المقدونى فى العالم الذى

على اجماع الوزارات فى صدد القضية الشرقية وطلبوا عدم اتخاذ اية اجراءات حاسمة بدون مساعدتهم * .

قبل الباب العالى هذه الوساطة بارتياح . كان الحق الى جانبه ، وما ان صار ينبغى حل قضيته الصعبة بنفوذ قضاء الدول ، لا بمحكمة القوة المادية ، حتى اصبح فى وسعه ان ينتظر حكمها بهدوء .

ولكن محمدا عليا ، الذى ابلغ بمضمون مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) ، اعترته الكآبة وانهارت امامه خيالات المستقبل المشرقة وغير فى اليوم نفسه لهجة ادعاءاته واسلوب مراسلاته مع الوزير الاعظم . واخذ ، عوضا عن

اخضعه بقيت الاسكندرية وحدها جديرة بذكراه وان العناية الالهية قدمتها ، وكانما بحق الوراثة ، الى احد مواطنى المقدونى ليجدد هذا الاثر الرائع . دغدغت ملاحظتى غرور الباشا الى اقصى حد ، فاخذ يتحدث برغبة عن مدينته الام قوله ، وعن ينابيعها الصافية ، وعن هوائها الذى يغذى حيوية الطبع فى سكانها الشجعان ، وعن رغبته فى زيارة موطنه الام فى وقت من الاوقات . فى هذه الرغبة ، التى اعرب عنها بشعور من الاخلاص لا يمكن توقعه من حاكم مصر الطموح ، كانت تتجلى فطرة قبائل الروملى التى لا تقهرها فى هؤلاء المتحدرين من البانيا ومقدونيا ذوى المراس المحن الفاجعة ولا حتى النجاحات فى الغربة . اصبح الباشا بعد ذلك اكثر تفكيرا وصمتا وسأل فجاة : «هل بت الحكماء الاوربيون فيما تكمن سعادة الانسان الحقيقية ؟ يكتبون الكثير ويتحدثون اكثر عن كيفية ادارة الجماهير الشعبية وعن كيفية منحها افضل نمط للحكم ، ولكنهم يغفلون رفاهية الانسان الفردية خارج كل الظروف السياسية ، وهذا ، كما يبدو ، ذو وزن كبير فى الرخاء الاجتماعى» . لم اكن اميل ابدا الى الدخول فى مناقشات مفصلة مع الباشا الموقر الذى يحرص جاهدا منذ نصف قرن على مجده ، وعلى عظمته ، ولم يبحث ابدا ، على ما يبدو ، فى رفاهية ملايين الفلاحين الذين لم تكن الاعتبارات الفلسفية ابدا سببا لامتصاص عرقهم ودمهم لاشباع مآربه الطموحة . واخذ بعض الحاضرين هناك يعرض نظرياته الافلاطونية عن النعيم المطلق فى الارض . وكان الباشا يستمع بابتسامة . وفى صدد الرأى القائل بان غبطة الانسان تكمن فى تنفيذ رغباته تماما ، لاحظ محمد علي بصورة معللة جدا : «لنفرض انك غفوت مساء بمتعة مطلقة لانك حققت كل رغباتك ، وفى الصباح حينما تصحو ولا يكون ثمة ما ترغب فيه او تحلم به او تطمح اليه ، فاية حياة هذه ؟ كلا ، السعادة ليست هنا ، بالنسبة الي على الاقل !»

هذه الملاحظة ، التى لم يأخذها الباشا الشيخ من الكتب ، لانه لم يكن حتى الاربعين من العمر يعرف القراءة والكتابة اصلا ، وبعد ذلك كان فى شغل شاغل عن القراءات الفلسفية ، بل اخذها من التجارب الخاصة لروحه المتخمة ، حينما بدا وكانما تتحقق فى الواقع مآربه الجريئه ، حينما فاق انتصاره كل آماله ، انما تعبر بما فيه الكفاية عن طبع هذا الرجل البارز .

* ساهمت فى هذه الخطوة انكلترا وفرنسا وروسيا والنمسا وبروسيا . وقد بادر الى هذه الخطوة الدبلوماسية مترنيخ الذى كان يسعى الى عدم السماح بتدخل روسيا فى النزاع من جانب واحد وارغام فرنسا على العمل سوية مع الدول الكبرى .
ــ المحرر .

الاتهامات والشتائم القريبة العهد ، يناشد خسرو باسم الصداقة القديمة الشروع فى صفقة سلمية بدون اى تدخل خارجي .

لقد بررت اوربا بشفاعتها المشتركة فى عام ١٨٣٩ المأثرة المنزهة ، الانسانية لروسيا التى منحت وحدها الشرق المضطرب السلام فى عام ١٨٣٣ . ولكن من المستبعد ان يكون مقدمو المذكرة الشهيرة والباب العالى نفسه الذى فرح بها فى غمرة ارتباكه وتعلق بها ، كما يتعلق الغريق بالقشة ، قد ادركوا كل اهمية هذه الوثيقة والتعهدات المرهقة التى وضعوها على عاتق وزاراتهم بهذه الوثيقة . فى عام ١٩٣٣ اعاد الاجراء الحاسم للبلاط الروسى وظهور اسطولنا وجيشنا بسرعة فى القسطنطينية السلام الى الشرق وابعد الخطر الذى يهدد اوربا . وفى عام ١٨٣٩ كان توصل الدول الخمس الى هذا الهدف مرهونا بالتنسيق المسبق لنياتها . وقد ظهرت البوادر الاولى للخلاف بين وزارتى انكلترا وفرنسا . اذ كان لكل منهما نظرتها الخاصة الى شؤون الشرق .

كانت انكلترا منذ عدة سنوات تنظر بقلق الى القوة المتعاظمة لمحمد علي ، حاكم مصر وسورية اللتين يمر فيهما اقرب طريقين لها الى الهند . لقد خمنت مشاريعه ازاء البحر الاحمر وجزر الخليج العربى . وطمحت الى القضاء على الباشا وطرده من سورية . ومن الجهة الاخرى ، كانت فرنسا بتنافسها الدائم مع جارتها المغرضة وبتعاطف شعبها مع محمد علي ، الذى يحيط به الفرنسيون والذى يدغدغ غرورهم ، تبدى ميلا مفرطا الى الباشا لا يتفق ابدا وموقفها من السلطان ، وتحترم مطامعه بلا تبصر .

حينما اقترحت انكلترا ان يرغم اسطولها والاسطول الفرنسى محمدا عليا على ارجاع اسطول السلطان ، لم تشأ فرنسا مجرد سماع اى شىء عن اجراءات قسرية . وفى الواقع كان الرأى العام فى فرنسا مضللا بتأثير اقاويل الصحف عن الباشا المصرى بحيث ان الوزارة لم تستطع ان تفرض اجراءات قسرية ضد مصر خشية اثارة الشعب . واقترحت على انكلترا ان يعلن اسطولاهما الموحدان امام الاسكندرية رغبة الوزارتين فى ارجاع الاسطول . ونوهت انكلترا بان الاعلان وحده والتهديد وحده اللذين لا يدعمهما العمل يوحيان الى الباشا فى حالة الرفض بالاستمرار فى غيه ، وان التهديد الفارغ لا يليق بكرامة الدول العظمى . وفى غضون ذلك كان الاسطولان يقفان امام الدردنيل ويطلبان بالحاح دخول العاصمة لحمايتها على غرار ما فعل اسطولنا فى البحر الاسود الذى دخل هناك فى عام ١٨٣٣ . ولكن الظروف كانت مغايرة بالمرة : لم يكن ابراهيم على مسيرة عدة ايام من البوسفور ، وقد ابقته معاهدة اونكيار اسكيليسى على مسافة بعيدة ، ولم يكن اى خطر يهدد العاصمة العثمانية . وبهذا تكون اولى ثمار التعهد المهيب للدول الكبرى باستقلال وحرمة الامبراطورية العثمانية خرق القاعدة القديمة الاساسية حول اغلاق المضائق

المؤدية الى عاصمتها العاجزة والاخلال بالتزامات الباب العالى الدبلوماسية ازاء البلاط الروسى .

لم تكن الوزارات الغربية تستطيع فى طموحها هذا الا التنسيق فيما بينها ، فى حين لم يكن يبرر هذا الطموح شيء الا التلبية الباطلة للانفة الشعبية . وقد رفضت روسيا ادعاءاتها بحزم ، اما الباب العالى فطالب بابتعاد الاسطول الانكلو – فرنسى عن الدردنيل ، مشيرا بحق الى ان افضل خدمة تقدمها السفن الحليفة هى ارغام محمد علي على ترك الاسطول التركى يغادر الاسكندرية .

بيد ان محمدا عليا ، الذى اعترته الكآبة اول الامر عندما اعلنت له وساطة اوربا ، فرح الان بالخلاف بين الوسطاء . ولم يقم باية تنازلات . وفى الخريف اخذ يهدد مجددا بحملة على آسيا الصغرى واهان قومندانى ما بين النهرين وديار بكر اللذين امرهما الباب العالى امرا صارما بتجنب اى نزاع مع القوات المصرية ، وبالانسحاب فى حال ظهورها . كان محمد علي يأمل فى ان ينتزع نتيجة الخلاف بين الدول تلك الشروط التى لم يفلح فى التماسها من السلطان المهزوم والاعزل .

بعد مناقشات عقيمة حول الوسائل التى ينبغي بها احلال السلام فى الشرق ، دخلت الدول الكبرى فى محادثات حول الشروط التى ينبغى وضعها للمصالحة بين السلطان وتابعه . واذ اقامت فرنسا اقتراحاتها على ادعاءات الباشا بلا تبصر ، التمست له الحكم الوراثى لمصر وسورية وحكم اضنة وكاندى وشبه جزيرة العرب مدى الحياة . وكان الباب العالى يميل من اجل انهاء النزاع فى اسرع وقت الى ان يلحق باقتراحه السابق حول الحكم الوراثى لمصر ادارة جزء من سورية مدى الحياة .

من الواضح ان الدول الكبرى كانت ملزمة معنويا ، منذ ان عرضت على السلطان وساطتها لانهاء النزاع مع مصر ، بان تضمن للسلطان شروطا اجدى من تلك التى استطاع الباشا المنتصر ان يفرضها سابقا . وعلى اى حال كان ينبغى لقرارات الوزارات ان تقوم بالضرورة على الموافقة الطوعية للباب العالى ، اولا ، لانه لا يجوز ، بعد اعتبار استقلال السلطان وحقوقه المشروعة قاعدة ، ارغامه على تنازلات تبدو له مخالفة لحقوقه المشروعة ، ثانيا ، يمكن التخوف من انه اذا رفض الطرفان المتخاصمان قرارات الوسطاء قد تبرز ضرورة اللجوء الى وسائل قسرية ضد الطرفين واستئناف المهمة العويصة المتعلقة بالقضية البلجيكية . . . *

---

* المقصود المحادثات الدبلوماسية التى بدأت فى اوربا فى مستهل ثلاثينات القرن التاسع عشر بعد الثورة البلجيكية التى ادت الى انفصال بلجيكا عن هولندا . — **المحرر .**

ادرك محمد علي هذا جيدا ، ولذا شغل كل النوابض الظاهرة والخفيــة ليتوصل الى تدبير الامر مع الباب العالى مباشرة . استغاث فى رسائلــه الى خسرو بالوطنية متحدثا عن تطاول الكفار عــلى استقلال الاسلام ، وحاول اقناعه بنسيان كل الامور الشخصية التى جعلتهما «سخرية الصحف جميعـا» واحدثت فتنة كبرى فى الشعب المؤمن ، وحتى انه اقترح اختيار رجال موقرين من علماء الفقه للنظر فى القضية المتنازع عليها ، وارسل ثانية كنته زهرة خانم مبعوثة الى استنبول لتستميل الوزارة الى جانبه وتستنهض الحريــم للوقوف معه ، ووعد بزيادة الاتاوة الى اى حد كان وما شابه ذلك شريطة ابعاد تدخل الدول الاوربية عن خلاف المسلمين العائلى .

ولكن الباب العالى لم يتخل عن افضليات وضعه . كان يشعر بحــرج الوساطة الخارجية ويتذكر انه تم منذ أمد قريب الاعتراف باستقلال اليونان نتيجة بروتوكول اصدرته ثلاث دول كبرى من اصل الدول الخمس . ولكنه كان يتذكر كذلك خطب محمد علي المتعجرفة عشية مذكرة يوليو (تموز) ، وكان مقيدا بوعده ويخاف ان يهين بالمحادثات المباشرة كبرياء حلفائه ويزيد من تعقيد وضعه . كانت اقتراحات محمد علي تغدو اكثر اعتدالا او تطرفا حسب امارات الاتفاق او الخلاف بين الدول . كان على ثقة بانه كلما اعرب بمزيد من الحزم عن نيته ضد اى اكراه اصبح من الاصعب على الوزارات ان تتفق وتعمل سوية . رفضت فرنسا علنا اية اجراءات قسرية ضد الباشــا العنيد ونددت بخطط الدول الاخرى . وحتى انه حينما حلت وزارة تيير مكان وزارة الكونت موليه جرى الحديث عن احتلال بعض النقاط على ساحل سورية وآسيا الصغرى ، كما احتلت انكونا قبل ذلك بثمانى سنوات . ان فرنسا لم تحل ابدا عقدة القضية الشرقية بهذا التطاول على دولة مستقلة وبهذا الاخلال بتعهداتها المهيبة امام الدول الاخرى . ولكن وزارة تيير كانت تقصد الجانب الاوربى لهذه القضية او ، بتعبير ابسط ، كانت تخشى اثارة العقول فــى فرنسا وتسعى الى ارضاء غرورها ولم تر عواقب اعمالها المتهورة .

لم يكن فقدان الجيش والاسطول اكبر مصيبة بالنسبة الى تركيا . اذ ان شفاعة الدول كانت ، رغم كل سلبياتها ، ضمانة كافية لها . ولكن اعظم مصيبة لها كانت فقد ذلك السلطان الذى دعم عقله وارادته الراسخة الدولة المنهكة ، واذا لم يستطيعا ، نظرا لقلة الموارد المادية ، معاقبة التابــع المتمرد ، فقد لجما على الاقل النية الخبيثة لتلك الاوليغاركية العابرة التى كان السلاطين مجبرين على ان يعهدوا اليها بالسلطة .

منذ الايام الاولى من الحكم الجديد قهرت نمائم القصر والصراع على النفوذ بين الوزراء ميول عبد المجيد الفطرية الطيبة . لقد اسبغت الظروف وزنـا خاصا على وزير الخارجية رشيد باشا الذى عاد من لندن مؤخرا . بايعاز منه وبحجة تطوير نظام محمود بشكل جديد ومهيب تمكن الوزراء من ان يحدوا من

حقوق السلطة العليا بخزعبلات دستورية تعرف باسم خطى شريف غولخانة .

لقد بحثنا فى مغزى واتجاه الاصلاح الذى اجراه محمود * . ومن الواضح ان هذا الاصلاح كان ينزع بمعرفة منه الى التغيير الجذرى لقانون الدولة فى تركيا . وسار محمود بنشاط على الطريق الذى تم شقه ، مقتنعا بان العنصر المسيحى سيكتسب تفوقا مشروعا . وحافظ على الاشكال الاستبدادية كاضمن وسيلة للتحكم فى الازمة الداهمة . كانت قوانين الحكم المطلق فى يد العاهل ذى الارادة الصلبة اداة للجم العسف الحكومى قدر ما كانت اداة للجم تعصب الشعب . لجم محمود العسف باوامره المتتابعة ولجمه اكثر بمثاله الشخصى وعمله ، واعد عناصر النظام المدنى القائم على المساواة بين المواطنين امام القانون وعلى مسؤولية الاشخاص المعهود اليهم بالسلطة . لم يعلن اية نظريات ، ولم يقطع على نفسه اية عهود مهيبة ، ولم يربط نفسه باية التزامات ، ولم يصدر قوانين مستحيلة التنفيذ فى تركيا . اقتصر على الاصلاح العملى ، ولم يكن يحب الترهات .

والآن حلت ازمنة اخرى . ومع تغير الاشكال الخارجية تغير الاتجاه الجوهرى لاصلاح الدولة الذى اقدم عليه محمود . ان خلف محمود ، الشاب الذى خدعه وزراؤه ، قد حكم على نفسه بالعجز المطلق ، وقدم الى المحاسيب المجردين من الموهبة والمغرضين وغير المخلصين مصير الدولة والسلالة الحاكمة ، وعوضا عن بعث الامبراطورية على اثر ابيه حث تدميرها .

فى ٢٢ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٣٩ اجتمع فى احد افنية القصر القديم ، عند غولخانة (عريشة الورد) كل الاعيان واعلى الموظفين العسكريين والمدنيين والعلماء والرؤساء الروحيون للشعوب التابعة وممثلو كل الشرائح . ودعى كذلك السلك الدبلوماسى الى هذا الاحتفال ليكون شاهدا على الالتزامات التى وضعها السلطان على عاتقه طوعا . جلس السلطان فى كشك مكشوف على مرأى الحضور المبرقشين . اخذ منه رضا باشا ، وزير البلاط ، الخطى شريف وسلمه الى رشيد باشا المكلف بتلاوته على الملأ .

وعد السلطان شعبه بتحويل جذرى لقانون الدولة وباستئصال تلك الشرور التى اكتسبت قوة القانون بحكم القدم والعنف . منع بيع المناصب والامتيازات ، وكذلك الربا الذى يشكل باسم الرشوة ميزة كبيرة للسلطة ويمتد حتى الى العرش . وتخلى عن الحق فى الاعدامات والتنكيلات التعسفية ، وكذلك عن الحق فى مصادرة الممتلكات وعن كل الرسوم والضرائب التعسفية . ومنح كل المواطنين بلا استثناء حرمة حياتهم وشرفهم وممتلكاتهم . ومنع استخدام السم والخنجر والتعذيب . وامر بمحاكمة المذنبين علانية وعدم اعدام اى كان بلا محاكمة . والغى احتكار المنتجات الغذائية وتلزيم

---

* راجع نهاية الفصل السادس .

الضرائب الحكومية وبنود الدخل . وامر بالتوزيع الصحيح للاتاوات والفروض بما يتفق وموارد كل فرد . واذ اشار السلطان الى القروح المتأصلة في الامبراطورية وعزا اليها تدهور التجارة والصناعة وافقار الشعب ووهن الدولة ، واشار في الوقت نفسه الى افضليات الموقع الجغرافي للمنطقة ، والى غنى تربتها ، والى قدرات السكان ، وعد بان يتوصل في سنوات قليلة بقوة هذا الخطى شريف الى الرفاه المبتغى ، ولهذا الغرض امر الحكومة بوضع قوانين جديدة واصدار مراسيم جديدة على الاسس الجديدة الواردة في الخطى شريف ، وعلى المبادئ الاساسية للشريعة الدينية التي تبرر الامتيازات التي منحها السلطان . لقد منحت ارادة السلطان هذه الامتيازات والحقوق كل المواطنين بغض النظر عن ديانتهم ، اى انه لم يجر اعلان التسامح الديني ، بل المساواة الصارمة بين المسيحيين والمسلمين . واضاف السلطان في بيانه : «عربونا لوعودنا هذه نقسم بالله امام السنجق الشريف ، راية النبي المقدسة ، على تنفذها بدقة ونستقسم على هذا العلماء واكابر اعياننا» .

ثم تليت الصلاة ، وقال الحضور جميعا امين ، وقدمت ضحايا كثيرة ، ودخل السلطان يحمل الخطى شريف في الغرفة التي يحفظ فيها السنجق الشريف واقسم واضعا يده على قدس الاسلام هذا ، واقسم خلفه كل الاعيان ، وكل الوزراء ، وكبار رجال الدين المسلمين .

يصعب ايجاد اشكال اكثر مهابة واكثر جدارة لتكريس نظام جديد للامور . لو كان مصير الشعوب والدول يتوقف على التشدق ومهابة المراسيم لفتحت وثيقة غولخانة عصرا جديدا من الرخاء لتركيا ، كما وعد السلطان . لقد ارست هذه الوثيقة اساس نظام التعهدات المهيبة السائد حاليا في الحكومة التركية . منذ ذلك الحين يضع المسؤولون عن مصائب الشعب ستار النظريات الانسانية والليبرالية وزهور البلاغة على جوهر الحقائق المريع .

لم يمض محرر البيان رشيد باشا عبثا كل تلك السنوات وهو يراقب القانون الدستوري في باريس ولندن . لقد ادرك جيدا اى تطبيق يمكن ان يكون له في تركيا . والاثر العملي الوحيد لهذه الخزعبلات الدستورية هو تقوية السلطة الوزارية على حساب سلطة العاهل التي تحولت الى اداة للوزير الذي يستطيع بقدراته ومكره السيطرة على نوابض الحكم واصحاب النفوذ المحيطين بالسلطان . لقد اقسم السلطان على التخلي عن الحق في الاعدامات والتنكيلات التعسفية ، وعن الحق في مصادرة الممتلكات . فمن كان يتعرض لنقمة السلطان غير الوزراء والاعيان ؟ وكان الحق في المصادرة يستخدم في تركيا للجم الانانية المفرطة للباشوات والاعيان . بعد ان اباد السلطان محمود الدريبهوات الوراثيين لم تبق في تركيا ارستقراطية غير

ارستقراطية الموظفين ، ولم تبق بين الاتراك ثروات على الاطلاق غير تلك التى يجنيها من الوظيفة كل وما تمكنه وسائله * .

حسب قانون الدولة القديم ، كان يمكن للثروة التى تجنى فى الوظيفة الحكومية ان تصادر ، بناء على ارادة السلطان ، وتحول الى الخزنية ، وحتى ان السلطان كان يعتبر وريثا شرعيا للموظفين . فى ظل هذا النظام للامور كان الموظفون يحاولون الايثيروا حولهم الشبهة فى الاثراء المفرط . وقسم السلطان فى غولخانة خلص محاسيب السلطة من الخطر المخيم على رؤوسهم باستمرار . ويستطيعون الان التمتع فى هدوء بالخيرات التى يجنونها بمختلف الاساليب غير القانونية . صحيح ان سلطة الوزراء صارت تخضع الان لتقييدات قانونية ، ولكن عهد الى الوزراء بوضع قوانين جديدة من اجل تنفيذ النظريات الرائعة لبيان السلطان ، وكل شيء باستثناء تقييدات سلطة السلطان المشار اليها كان وسيبقى مجرد نظرية . غُيرت الازياء ، وجردت سلطة البوليس من الحق فى الاعدام الذى كانت تنفذه وفق مشيئتها ، ومنع التعذيب . ولكن القضاء لم يتحسن ابدا من حيث الجوهر . وجرد من سرعة اعماله التى كانت تشكل فى نظام الامور السابق افضليته العملية الوحيدة فى تركيا . ولم يعد استبداد السلطة يتجلى فى شكله الفظ السابق ، بالخنجر والمشنقة ، بل فى الملاحقات الغادرة التى حلت بالنسبة الى الشعب منذ ذلك الحين مكان التعذيب القضائى فى العهد السابق .

ان اقتناع الانسان بقوته يرتقى به بشكل من الاشكال ، وعجز السلطة ، التى نمت فى جو من الاستبداد ، يفسد المجتمع الذى لم تتخلله قدسية القانون . حينما تبرز لانقاذ الدولة ضرورة انقلاب جذرى فى الافكار والشعور والاخلاق والقوانين ، فان الوسيلة الوحيدة لذلك هى السلطة الاستبدادية مهما كان تجليها ملكيا او جمهوريا ؛ اما وزراء عبد المجيد فانهم ، اذ حلموا فقط بمصالحهم وبامنهم وامن الثروات التى جنوها ، استغلوا فى تلك الفترة ضعف عاهلهم ليحدوا بوثيقة علنية من السلطة الوحيدة فى الامبراطورية التى كانت تستطيع ان تسعى الى الخير . كان بيان غولخانة يشبه غطاء مخاطا من الاسمال تطل من خلاله سلطة اضعفت عمدا فى شخص ممثلها الاعلى . وفى الوقت نفسه حد الاتجاه التمركزى للبيان من دائرة عمل كل ادارات المناطق فى مصلحة الوزارة المحكوم عليها بدورها بالصراع بين المؤثرات الخفية الداخلية والخارجية وبالانقلابات العادية .

---

* غاب عن انظار بازيلى التجار والملاك الاتراك الذين لم تكن ممتلكاتهم مرتبطة باداء الخدمة العسكرية او بوظيفة فى الدولة (الغى النظام العسكرى ــ الاقطاعى منذ عهد محمود الثانى) . كان الغاء المصادرة (او ، بتعبير آخر ، ضمان حق الملكية) يتجاوب بالدرجة الاولى مع مصالح التجار والملاك المرتبطين بالتجارة ، ولذا كان الخطى شريف غولخانة تقدميا فى تلك الظروف . ــ **المحرر** .

ان المحاولات الاولى لتنفيذ الاصلاحات الايجابية المقررة اظهرت تماما عجز الحكومة . لقد الغى الخطى شريف بمهابة النظام المروع لالتزامات الضرائب والاتاوات الذى سبق الحديث عنه . كان ملتزمو الجمارك وضريبة العشر على الاراضى والرسوم الحكومية الاخرى ينهبون الشعب ، ولكنهم كانوا يقدمون الى الخزينة المبالغ المتفق عليها بانتظام . وصار الموظفون ، الذين حلوا مكانهم ، ينهبون الشعب بدرجة لا تقل عنهم ، ولكنهم كانوا ينهبون الخزينة فى الوقت نفسه دون ان يشعروا بالخوف السابق من التنكيلات والمصادرات غير المقيدة ، حيث كانوا يعرفون ان لابد من مستمسكات قضائية لمعاقبتهم . لقد حرمت الخزينة من اضمن دخولها فى تلك الفترة بالذات حينما ازدادت نفقات الدولة كثيرا بادراج رواتب ضخمة فى الميزانية صار يُنعم بها ، حسب فكرة الخطى شريف ، على الوزراء والمحافظين والادارة كلها . بعد هذه المحاولة الفاشلة توجهت الحكومة بالضرورة الى نظام الالتزامات السابق الذى انتشر وقوى منذ تلك الفترة رغم الخطى شريف .

حلت الرواتب المدفوعة من الخزينة ، حسب فكرة الخطى شريف ، مكان الدخول التى يجنيها اصحاب مختلف الوظائف ، وقد خصصت ، ولاسيما لكبار الاعيان ، رواتب عالية لا نظير لها فى اى بلد اوربى . وصار ، مثلا ، الوزراء وباشوات الدرجة الاولى الذين يديرون منطقة يبلغ عدد سكانها ٣٠٠ او ٤٠٠ الف نسمة يتقاضون ١٢٠ الف روبل فضة فى السنة عوضا عن الدخول التى كانوا يتمتعون بها سابقا . واهم هذه الدخول كانت تنجم دوما عن بيع وظائف الادارة والرشوة والغرامات التى كانت تفرض من حين الى اخر حسبما تراه السلطات المحلية على المدن والمناطق . لقد الغى الخطى شريف بنود الدخل هذه ، ولكن الغرامات وحدها هى التى الغيت بالفعل . ويجرى بيع الوظائف والرشوات على قدم وساق فى كل ارجاء الامبراطورية ، ولاسيما فى العاصمة ، ولكن بشكل جديد ، اكثر تفننا . ان الرشوة والهدية ، هاتين السمتين الازليتين للسلطة ، تأصلتا فى العادات الادارية للمنطقة من مختار القرية الى الوزير الاعظم ، تأصلتا فى مفهوم الشعب نفسه للسلطة . ولا يمكن الشروع فى ازالتهما الا باجراءات قاسية لا هوادة فيها ، ولكن الاشكال الانسانية الجديدة التى امر بها الخطى شريف منعت الاجراءات القاسية .

لقد لوحظ منذ زمن بعيد انه يمكن العثور فى الشعب التركى على اناس يتحلون بالشرف فى كل الفئات باستثناء فئة الناس الموظفين فى الدولة . وهذه البديهية يؤكدها ايضا واقع ان المواطن المحترم ، مثلا ،او التاجر او الحرفى المعروف بخلقه الحسن ، الذى يصبح حاكما لمنطقة او مجرد عضوا فى المجلس البلدى ، قد يبقى كالسابق فى شؤونه ومعاملاته الخاصة ، ولكنه فى شؤون الوظيفة المكلف بها ينهب الشعب والخزينة دون وازع من

ضمير . من اين يستطيع الوزراء فى ظل هذا الاتجاه للمجتمع باكمله ، حتى ولو حلموا بالقضاء على هذه العادة المربحة لكل الموظفين ، ان ينتقوا الادوات لتحقيق النظريات الواردة فى الخطى شريف ؟ لقد بقيت الوظائف الحكومية ، شأنها سابقا ، وقفا على الاتراك وحدهم .

اما فى خصوص مساواة المسيحيين بالمسلمين امام القانون ، فان هذا الحق الذى لا يتفق ووجود حكومة اسلامية وسط العنصر المسيحى الغالب كان مجرد برنامج لنظام جديد من الملاحقات والاضطهادات . لقد اثار الاجهزة الحكومية والقضائية على حد سواء ضد المسيحيين فى كل ارجاء الامبراطورية . امر الخطى شريف بان تنبع التشريعات الجديدة من القانون الدينى الذى يقوم عليه المجتمع المدنى الاسلامى . وهذا القانون يحكم على المسيحيين بالعبودية . وفى ظل تناقض كهذا يستحيل التطبيق العملى للنظرية المجردة عن المساواة . كيف يمكن التوفيق بين فكرة المساواة وتحريم شهادة المسيحى فى المحكمة ؟ هذا التحريم لا يزال ساريا فى تركيا . وهو تحريم لم يضعه ، والحق يقال ، القرآن ولا الخلفاء الاربعة الاوائل الذين لقوانينهم قوة الزامية شأن القرآن . ان القانون الذى يحرم شهادة المسيحيين صدر بعد ذلك بامد طويل ، فى عهد الخليفة الدمشقى عمر الثانى ، وبالتالى يستطيع عبد المجيد ، كخليفة ، ان يلغى بدوره هذا القانون الفظيع ، دون ان يتهم بالمروق . واذا كان السلطان يخشى اثارة شريحة الفقهاء ،الذين ادرجوا في تشريعهم هذا القانون الفظيع الذى وضعه عمر الثانى من تشريعهم ، فان فى وسع السلطان ان يأمر ، على غرار محمد علي وابراهيم ، بان تخضع القضايا المدنية الجنائية بين المسيحيين والمسلمين لصلاحية المجالس البلدية بدون اى تدخل فى هذه المجالس من المفتيين والقضاة الملزمين باسناد آرائهم الحقوقية الى الشريعة . لقد استخدم ابراهيم باشا هذه الوسيلة بنجاح حتى فى سورية ، حيث الغلبة للعنصر الاسلامى . ومن شأن قرار كهذا ألا يلقى اية مقاومة فى تركيا الاوربية .

ولكن وزراء عبد المجيد اقتصروا على التشدقات والتجريدات . هل كان فى وسع حكومة مكونة من القبيلة التركية ذات الامتياز ان تفكر فى تحسين قسمة الاغلبية الساحقة من اتباع السلطان اذا كان من الواضح ان المساواة تؤدى الى تفوق العنصر المسيحى والى الاطاحة بالاوليغاركية الحكومية التى اختر'ع البيان لترسيخها ؟ فى وسع سلطان ذى عقل وارادة صلبة ،كما كان شأن محمود ، ان يقيم العظمة المقبلة لامبراطوريته وسلالته على انتصار العنصر المسيحى ، وان يطمح الى هذا . لقد ذكر ابنه المسيحيين فى بيانه ، بايعاز من وزرائه ، لينجز سحر الخزعبلات الدستورية امام الوزارات وامام الرأى العام فى اوربا . ونجح رشيد واضع الخطي شريف فى هذا تماما ، وضمن لنفسه منذ ذلك الحين انشط تعاطف من الحكومة الانكليزية .

ارسل المفوضون الى كل ارجاء الامبراطورية لاعلان النظريات الجديدة المعروفة الان فى تركيا باسم التنظيمات الخيرية . وعين كامل باشا مفوضا فى مصر . لقد شرع الباب العالى فى تنفيذ الاجراء المدنى ، او على الاصح ، الطقس الذى اخترعه رغم كل انشغاله بمواقفه العدائية ازاء الباشا المصرى . وتوجه اليه ، كما لو كان يبدى الطاعة اللازمة ، ولم يكن هناك حديث عن معركة نصيبين ، ولا عن الاسطول . واتخذ الباشا من جانبه مظهر خادم امين محترم ، وردا على رسالة الوزير ابتهل الى الله ان يطيل فى عمر السلطان واكد ان القواعد الواردة فى البيان الجديد تراعى منذ زمن بعيد فى المناطق التى يديرها .

مع تملص الباب العالى من المحادثات المباشرة معه ، صار يصغى بمزيد من الانتباه الى اختلاف الاراء بين الوزارات التى وقع ممثلوها فى القسطنطينية ، بايحاء من الامير مترنيخ ، مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) المشهودة عن اجماعها فى صدد القضية الشرقية مع الاصرار على ألا يقرر الباب العالى شيئا بدون مساعدتها . كان الخلاف بين الوزارات يتضح يوما اثر يوم ، وعليه عقد محمد علي آماله .

تشابكت القضية . تطلع نسطور الدبلوماسية الاوربية بمذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) الى ان يبعد الوساطة الروسية القائمة على معاهدة اونكيار اسكيليسى ، وان يرغم فرنسا فى الوقت نفسه ، رغم تعاطفها مع محمد علي ، على العمل سوية مع الدول الاخرى . وقدم لروسيا خدمة جوهرية من غير ان يريد ذلك . لقد تحدثنا عن مغزى معاهدة اونكيار اسكيليسى بالنسبة الى مصلحة الدولة الروسية * . فى ظل الاتجاه الذى اتخذته شؤون تركيا بعد موت محمود وفى ظل الخطر الجلى للحرب الاوربية ، هل كان فى وسع روسيا ان ترغب فى التدخل وحيدة فى حل القضية الشرقية لمصلحة تركيا حسب فكرة المعاهدة التى كان مفعولها ، ومدته ثمانى سنوات ، يوشك على الانتهاء ؟ ولكن وضع فرنسا ، من الجهة الاخرى ، كان يغدو فى غاية الصعوبة بعد التعهد الذى اتخذته وفق المذكرة الجماعية بالتنسيق مع الدول الاخرى ، فى حين كان الرأى العام يقف بقوة متزايدة يوما اثر يوم ضد اتجاهات الحماية لدى الوزارات الاخرى .

وبقيت هناك وسيلة واحدة ، وهى حل القضية التمهيدى بين الباب العالى ومصر بدون وساطة الدول التى احتفظت بالحق فى الاعتراف بالشروط واقرارها . ولتحقيق هذا الهدف نصحت الوزارات الباب العالى بان يدخل ثانية فى محادثات مع الباشا . اقترح الباب العالى على محمد علي الحكم الوراثى لمصر وفلسطين حتى عكا دون ان تدخل هذه القلعة ضمن حدوده ، او الحكم

---

* راجع الفصل السادس .

الوراثى لمصر وحكم جنوب سورية كله مع عكا مدى الحياة . وقد رد على هذا الاقتراح بالمطالبة العنيدة بالحكم الوراثى لكل سورية حتى حلب ، وتنازل للباب العالى عن شبه جزيرة العرب الذى استنزف خزينته وجيشه على امتداد سنوات عديدة .

ودعما لهذه المطامع اخذ يستعد للحرب ، مؤكدا انه يستطيع الذود عن سورية ضد الجميع . استدعى قواته من شبه جزيرة العرب وعزز جيشه فى سورية وسلح العاملين فى الترسانة والمعامل وطلب من انكلترا دفعة كبيرة من المدافع لعكا وجند عدة الاف من الالبانيين فى مناطق السلطان نفسها وشكل قوات شعبية من سكان المدن المصريين للدفاع الداخلى عن المنطقة . وفى كل هذه الاعمال حاول ان يصور نفسه امام الشعوب التابعة ، ولا سيما امام الجيش ، مدافعا عن الاسلام ضد خيانة الوزراء وضد ما تكنه الوزارات الاوربية من نية سيئة ازاء استقلال الدولة العثمانية . كان احيانا يقذف بكل اقنعة الخضوع ، فيعيد قيادة الاسطول الى الخائن فوزى باشا الذى جُرد من رتبته بفرمان من السلطان ، ويلبس الطواقم التركية بزات مصرية . وكان فى احيان اخرى يتخذ مجددا مظهر الخادم المطيع والمخلص للسلطان ويوعز بامر الى الاسطول والجيش بعدم التحدث عن السلطان الا بما يليق به من اجلال .

مر الزمن واتخذت المحادثات لهجة حادة ، وكان الباب العالى يتمسك بمذكرة تموز (يوليو) ويشكو بمرارة التباطؤ فى تقديم المساعدة التى وعد بها .

الفصل الثالث عشر

افتتاح مؤتمر لندن . — نية امير لبنان وشعور القبائل السورية . — تمرد الجبليين . — سليل غدفريد البولوني ومحاكاة الحملات الصليبية . — مبعوث محمد علي فى العاصمة والحملة اللبنانية . — ظهور الاسطول الانكليزى فى بيروت . — آخر انتصارات محمد علي وامير لبنان . — معاهدة ٣ (١٥) تموز (يوليو) . — ظهور الاسطول الانكليزى ثانية . — اخفاقات الكومّودور نيبير . — خطة حماية الشواطئ السورية . — وصول الاميرال ستوبفورد وحملة الحلفاء .

فى ربيع عام ١٨٤٠ افتتح مؤتمر فى لندن بين مفوضى روسيا والنمسا وانكلترا وفرنسا وبروسيا . ودعي ممثلو الباب العالى . وقد استأنفوا شكوات حكومتهم التباطؤ فى حل القضية ، عارضين وطأة هذا الوضع سواء بالنسبة الى الحكومة ، او بالنسبة الى السكان الذين اضناهم غموض مصيرهم وعبء الاستعداد الدائم للحرب .

لا شك فى انه كان من السهل فرض قرار الدول الكبرى على الشرق ، ولكن كان من الصعب اتخاذ قرار اجمالى فى قضية دولية لا تحل باغلبية الاصوات . لقد عاندت فرنسا فى تحيزها الى الباشا .

حث تمرد الجبليين اللبنانيين فى ايار (مايو) عام ١٨٤٠ حل هذه العقدة المتشابكة . لقد رأينا موقف الامير بشير الغامض ازاء محمد علي وتخوفاته على حقوقه الاقطاعية وحقوق عائلته فى حالة بقاء سورية لمحمد علي نهائيا ومحاولته تصوير نفسه مدافعا عن الجبليين ضد الاضطهاد ، والايحاء الى الشعب بالشك فى السلطة المصرية .

كان محمد علي يدرك ميول الامير جيدا ، وتابع يعيره الالتفات الحسن كالسابق ، ولكنه كان فى الوقت نفسه يبدى اللطف للشيخ الشاب نعمان جنبلاط الذى كان يسعى حاملا فرمان السلطان الى استعادة عقارات ابيه التى صادرها الامير بعد قتل ابيه الشيخ الشهير بشير جنبلاط * .

اقترح نعمان على الباشا زيادة اتاوة لبنان ، اذا سمح له بان يقوم ، على غرار ابيه ، بدعوة الشيوخ والشروع فى انتخـــاب امير اخر من بين افراد عائلة الشهابيين حسب ما هو مرعي فى لبنان منذ القدم .

كان الامير المسن يعرف كـــل هذا ، ولكن شعوره بالذنب ازاء الباب العالى بسبب مساهمته فى تمرد عبد الله الطائش وتحالفه الدائم مع محمد علي كان يحول دون رغبته فى عودة حكم السلطان الى سورية . ومن الجهـــة الاخرى ، كانت القواعد التى تسترشد بها الحكومة المصرية فى هذه المنطقة وتطلعها الى الاطاحة بكل السلطات الاقطاعيـــة تشكل تهديدا كبيرا للامير الحذر . كانت ثمة اسباب تجعله يرى فى تسلط المصريين بلا منازع قضاء مبرما بسقوطه . ان موت محمود ومعركة نصيبين وخيانة القبودان باشا ، هذا الانتصار الثلاثى للباشا المصرى ، بدت للامير الشيخ حلا اكيدا لذلك الخلاف الطويل الذى نمت فى ظله بسلام سلطته على لبنان واغتنت خزينته . استغرق فى التفكير واصبح متجهما ورغب فى اضطرابات داخلية جديدة فى سورية ، بحيث لا يستطيع المصريون الاستغناء عن مساعدته ، وبحيث يحترمون حقوقه القديمة .

يبدو ان الظروف ساعدته فى هذه المقامرة التى راهن فيها على مستقبل اسرة الشهابيين الحاكمـــة . فى كانون الثانى (يناير) اقلق سورية خبر الاستعدادات العسكرية لمحمد علي الذى كان فى تلك الفترة من الدرامـــا الشرقية غارقا فى تمثيل دور دون كيشوت امـــام اوربا . حينما وصل الى بيروت نبأ تشكيل القوات الشعبية فى مصر ، اجتاح الذعر المدينة ، وكأن العدو يقف خلف اسوارها . اختبأ الجميع من دفعة التجنيد الجديدة وتحدثوا لاول مرة عن مشروع الباشـــا لاخذ مجندين من المسيحيين . واقلقت هذه الشائعة الجبليين . انهم ، وقد ملوا من البحبوحة والسلام ، اللذين تمتعوا بهما مرغمين منذ سنوات عديدة ، صاروا يتذمرون من المصريين بدون اى سبب وجيه ** .

---

* فى الفصل الخامس عرض مفصل لظروف موت الشيخ بشير .

** يقع بازيلى فى تناقض لما اورده هو نفسه من وقائع ملازمة لنظام الاضطهاد الذى مارسته السلطات المصرية فى سورية ، والذى كان سببا للانتفاضة . فقد كتب عام ١٨٤٠ فى تقرير سرى الى بوتينيف : «يمكن القول بكل ثقة ان سبب التمرد هو الضرائب المرهقة ومختلف انواع الواجبات التى فرضها الحكم المصرى ، وبالدرجة الاولى خوف الجبليين من التجنيد» . **المحرر** .

على بعد ست ساعات عن بيروت كان يستخرج فحم حجرى على نفقة الحكومة . وهذا الفحم اكثر كلفة واسوأ نوعا من الفحم الذى كان يجلب من انكلترا . ولكن محمدا عليا تحمل خسارة خزينته لمجرد ان تبقى النقود فى المنطقة وان يتطور هذا الفرع الجديد من الصناعة . كانت فريضة استخراج الفحم تقع على عاتق المناطق المجاورة ، وكانت الحكومة تطالب المناطق الاخرى بحجّارة من اجل اعمال التحصين فى عكا . كانت الخزينة تدفع لقاء كل هذا ، ولكن الجبليين صاروا يدفعون بحقد بغالهم الى المهاوى من اجل التخلص من نقل الفحم . كان الامير يراقب من قصره فى بيت الدين بوادر العاصفة الداهمة ويلهب شعور الشعب باحاديثه الغادرة .

على امتداد الشتاء بطوله نشبت تمردات على التوالى بين النصيرية قرب انطاكية ، وفى منطقة عكار فى منحدرات لبنان الشمالية ، ولدى قبائل المتاولة فى بعلبك واعالى القاسمية بين صيدا وصور ، وفى حوران وسط فلول الدروز الذين هزموا فى اللجاة ، وفى اللخيل ، فى جبال اليهودية . بقى ابراهيم مع القيادة العامة فى مرعش ، لكى يلوح بالحملة على آسيا الصغرى دعما لمطامع ابيه . وكان من حين الى اخر يجهز قوات الى سورية لمساعدة السلطات المدنية على جبى الاتاوات . وكذلك اتت من مصر الى سورية افواج لتعزيز جيش ابراهيم . ونقلت كميات كبيرة من الاعتدة والذخائر العسكرية الى عكا واللاذقية عبر البحر .

لم يستطع الباشا بنشاطه هذا ، الذى اثر فى مخيلة القبائل السورية ، ان يبقيها فى حالة من الخضوع الا بشق النفس . كان يكفى ان يرفع الامير راية التمرد مع القبائل اللبنانية حتى تقتدى به سورية باسرها وحتى ينهار الحكم المصرى فى هذه المنطقة باسرع من قيامه فيها ، ولكن الامير لم يرغب فى هذا الانقلاب للاسباب التى نوهنا بها ، اى لعدم ثقته بالاتراك . لم يكن يحلم الا بان يطيل قدر الامكان تلك الشكوك المدين لها بحصانة سلطته ، ولعله كان يستطيع على غرار محمد علي ان يعلل نفسه بانقلابات مقبلة اخرى تحصل فى غمارها امارة لبنان ، التى يقطن فيها سكان غالبيتهم من المسيحيين ، على استقلالها السياسى .

فى ابريل (نيسان) عام ١٨٤٠ ، فى فترة حر الربيع ، التى تحقن فى هذا المناخ الدم فى الاضطراب القلق وتثير الانسان الجنوبى ، غدت بوادر التذمر لدى الجبليين اكثر تأججا * .

* كانت هناك اسباب للتذمر اوجه من «حر الربيع» . قبل ذلك بامد قصير جند فى الجيش فلاحون لبنانيون من تلاميذ المدرسة الطبية المصرية . وكان هذا سببا لانتشار الشائعات حول تجنيد المسيحيين فى الجيش لاحقا . وازدادت الاضطرابات بسبب وصول باخرة الى بيروت محملة بملابس عسكرية افترض انها

قبل ذلك بسنتين قدم لامير لبنان بامر من محمد علي ١٥ الف بندقية لاجل قوات الجبليين الشعبيــــة المدعوة الى مساعدة الجيش المصرى ضد دروز حوران . وقد طالب الباشـــا باعادة هذه الاسلحة من اجل قواته الشعبية المصرية . لعل هذا كان مجرد ذريعة لنزع السلاح من القبائل التى لم يعد يستطيع ان يعول على تعاطفها . وحينما ابلغ الامير بشير بامر ابراهيم هذا ، اخذ يتذمر جهاراً ، قائلا انه لن يجرؤ على اجــراء كهذا ، وان الجبليين لن يصبروا على هذه الاهانة وغير ذلك . وجدير بالذكر انه لم يوزع من هذه البنادق سوى النصف ، اما النصف الاخر فحفظ فى قصر الامير . كان جوابه لابراهيم جافاً ، حاداً ، مفعماً بالشكوات باسم الشعب والتخوفات من انتفاضة الجبليين . هذه الرسالة ، التى كان ينبغى من حيث مضمونها ان تبقى طى الكتمان ، اعلنت على الملأ فى كل لبنان . بدأ الطاعون فى دمشق . وفرض محافظ بيروت محمود بيه الحجز الصحى على المدينة . كانت الكرنتينا تشكل فى ذلك الوقت تهديدا للجبليين الذين كانــوا فى ذلك الحين يتزودون بالحبوب من بيروت .

فى ١٩ ايار (مايو) نشب التمرد * بتحطيم مخفر الكرنتينا ونهب البريد . كان من عادة السلطات التركيـــة فى حالات كهذه ان تخوض محادثات مع المتمردين وتهدئتهم بالملاطفات والوعود الكاذبة وبث الفرقة . اما السلطات المصرية فاعتادت ، على العكس من ذلك ، ان تتصرف فى سورية بالصلابة الملازمة للحكم العسكرى . كانت فى بيروت قوة لا تتجاوز نصف كتيبة . واخذت تجتمع هناك مختلف الفصائل على الفور ، ومنع ارسال الحبوب الى الجبال . ونفذت الباخرة الحربية الراسية فى المرفأ الاجراء نفسه ازاء النقاط الساحلية القريبة . وهذا ما أدى الى اشتداد العصيان وانتشاره . وبعد عدة ايام اتى من صيدا رئيس الاركان سليمان باشا ، واتت اوامر ابراهيــم المتوعدة الى الامير بشير . ولكن الامير بقى يتأمــل مكتوف اليدين ، اما عملاؤه السريون وحتى ابناؤه فكانــوا يؤججون اللهيب بذريعة الوساطة للجبليين . وانتشرت شائعة تزعم ان الحكومة لم تطلب السلاح الا لتباشر التجنيد فيما بعد .

اقسم ابراهيم برأسه ورأس ابيه انهما لم ينويا دعوة المجندين ، ولكن التمرد اجتاح كل ارجاء مناطق لبنان المسيحية . ان الدروز ، الذين كانت

مخصصة للمجندين اللبنانيين المقبلين . وردا على هذه الاضطرابات اصدر ابراهيــم باشا امرا بنزع الاسلحة من اللبنانيين . — **المحرر** .

* فى ١ حزيران (يونيو) ظهرت بؤرة ثالثة للانتفاضة . قبل هــذه الاحداث بشهر ابدى سكان دير القمر مقاومة مسلحة لجامعى الاسلحـــة وارغموا على الفرار جنود الحاميات المصرية المرابطة على الحدود مع لبنان فى منطقة صيدا ، وفى بداية ايار (مايو) جرت فى المتن اصطدامات مسلحة مع الفصائل المصرية . — **المحرر** .

عندهم اسباب اقوى للتبرم ، بقـــوا هادئين مع ذلك * . وقد قدم الى بيروت بضعة الاف من الجبليين يحمل نصفهم الاسلحة ونصفهـــم الفؤوس والهراوات وحاولوا الاستيلاء على المدينة . واطلقت الحصون نيرانها بضجيج ، بيد انها لم تسبب اى اذى للجبليين الذين احتمـــوا بتضاريس الارض . انهم ، وقد احتلوا كل الضواحى ، قتلوا الجنود الذين صادفوهم فى الميدان ونهبوا كل الممتلكات الحكومية ، بيد انهـــم لم يمسوا الاشخاص الامنين وابدوا احترامـــا خاصا لمطالب القنصليات على امل نيل عطف الدول الكبرى التى علموا من الشائعات بنفورها من محمد علي . وفى ذلك الوقت كانوا يقسمون فى تصريحاتهـــم على الاخلاص للسلطان ويعرضون شكواتهم من المصريين ويصورون محمدا عليا وابراهيم بعبارات من الكتاب المقدس خلفين حقيقيين للفراعنة الذين اضطهدوا شعب الله .

فى اوربا عزي تمرد لبنان الى عملاء الباب العالى وتأثير الانكليز الذين كانوا يميلون الى العمل بكل السبل لطرد المصريين من سورية . وهذا لا يقوم على اساس . وحتى اننا نستطيع القول ان الفرنسيين ، الذين وقفت حكومتهم بحمية الى جانب محمد علي ، قدموا وحدهم ، من بين كل الاوربيين هناك ، مساعدة عمليـــة الى المتمردين واعطوهم بارودا ووجهوا اعمالهـــم وحضروا اجتماعاتهم . ان الميل الفطرى الى كل تمرد قد تغلب فى هذه الحالة على التعاطف الشعبى الذى ابدته فرنسا لمحمد علي . وكانت القنصليـــة الفرنسية نفسها ، خلافا لاتجاه حكومتها ، تغذى التمرد على افتراض ان الباشا سيضطر ، لعجزه عن قمع الجبليين ، الى اللجوء الى وساطة فرنسا ، وبهذا تكتسب فرنسا حقوقا جديدة ونفوذا اكثر فى القبائل اللبنانية التى يتغلب فيها العنصر الكاثوليكى ، هذا النابض الاساسى للسياسة الفرنسيـــة فى الشرق . وبسبب اهانة الحقها جندى مصرى باحد الفرنسيين ، قطع القنصل العلاقات بالسلطات المحلية وانزل علمه . واعتبر الجبليون هذا اعلانـــا للحرب .

كان يتجول فى سورية آنذاك الكونت الفرنسى الشاب اونفروا . هذا الشاب ، الذى يتمتع بمخيلة جريئة اكثر ممـــا يتمتع بتفكير سليم ، كان يتعطش الى المغامرات ، بعد ان مل من الجلوس مكتوف اليدين فى وطنه حيث كانت كل المجالات مغلقـــة فى وجهه نظرا لارائه السياسية . وبدا له تمرد الجبليين ، الامر المألوف جدا فى تركيا ، انتفاضة مسيحيين . مـــع

---

* بازيلى مخطىء فى هذا . اذ لم يساهم فى انتفاضـــة عام ١٨٤٠ المسيحيون وحدهم ، بل كذلك الدروز والمسلمون السنة والمتاولة ، وهذا ما تشهد علية تواقيع ممثلى كل هذه الطوائف على اتفاق الوحدة فى النضال من اجل الحرية الذى عقد فـى قرية انطلياس بتاريخ ٨ حزيران (يونيو) عام ١٨٤٠ . **المحرر** .

العلم ان كل ذلك كان يجرى فى سورية ، فى مهد ديننا ، فى جوار القدس ، فى مقدمة مسرح المآثر الصليبية لاوربا الفتية ؛ وكان الكونت يرجع بنسبه الى الصليبيين - انصار واقرباء غدفريد البولونى - وكان يمكنه ، عند سنوح الفرصة ، ان يتباهر بحقه فى وراثة القدس . ان الكونت اونفروا ، الذى لم يكن يعرف كلمة عربية واحدة ، وكان فهمه للقضايا الشرقية والسياسة المعاصرة اقل من ذلك ، والذى لم يدرك روح القبائل السورية ، مثل امام المتمردين داعيا ملهما الى المأثرة المسيحية وزعيما لطليعة قوات شعبية ستسير اوربا على اثرها الى مجموعة جديدة من المآثر الرومنسية التى اتسم بها القرنان الحادى عشر والثانى عشر . كان فى حوزة حفيد الصليبيين المتقد هذا بضعة الاف من الفرنكات لنفقات رحلته الى الديار المقدسة . وايمانا منه برسالته الحالمة اقترح على الجبليين تشكيل ميليشيا يكون زعيمها . وقد قبل اقتراحه بطيبة خاطر ، ولا سيما انه كان يدفع لكل فرد قرشين فى اليوم (١٠ كوبيكات فضة) من خزينته (ولن نقول من جيبه حتى لا يفقد الكلام وقعه الشاعرى) ، ولما لم يكن بين الاعيان المحليين شخص محترم واحد يوافق على ان يكون زعيما للتمرد ، فقد افلح هذا الضيف الاجنبى فى ان يجمع تحت راياته قرابة الفى شخص او ثلاثة الاف .

كانت على الرايات صورة صلبان القدس . وفى احد الايام ، فى خلال خطبة بليغة لم يفهم المستمعون شيئا من ترجمتها العربية ، قام القائد الملتهب ، وقد وضع نصب عينيه طوباويته حول الحملات الصليبية ، بتمزيق معطفه الى قطع واقنع الجبليين بان يخيطوا من المزق صلبانا من الجوخ على ملابسهم . هذه المحاكاة للاعمال الملهمة التى قام بها بطرس الناسك والقديس برنار ، الاعمال التى تعود الى عصر اخر وبلاد اخرى ، دعمت بقسم ينص على الموت فى معمعان القتال او طرد المصريين من سورية . نصب الكونت اونفروا نفسه قائدا عاما وعين لديه رئيسا للاركان وضباطا مناوبين ومرافقين من عداد الاوربيين العابرين * .

ان المبشرين اليسوعيين ، الذين قدموا الى لبنان قبل ذلك بامد قصير وكانوا يميلون بدورهم الى تعكير كل المياه ، دعوا الى التمرد ونشروه على امل اقامة امارة كاثوليكية مستقلة فى لبنان . وقد ظهرت بايحاء منهم مناشير حماسية اقتدى الجبليون فيها بمثال الفرنسيين وقارنوا انفسهم بالمكابيين وتحدثوا عن الحرية ودعوا الى مجلس شعبى واشاروا الى اليونانيين الذين

---

* يبالغ بازيلى فى تأثير عملاء فرنسا فى المتمردين . ان كل حادثة الكونت اونفروا ذات طابع اقرب الى النكتة . لقد كان للمتمردين قادتهم ، ومن بينهم ابن الحجار ابو سمرا غانم ، مدير املاك احد الاقطاعيين السوريين ، والفلاح احمد ظهير ، والاقطاعى الشيخ فرنسيس الخازن . **المحرر** .

اطاحوا بالحكومة التركية بعون اللـــه . ان مقارنة هذه الفورات بنداءات الجبليين باسم عاهلهم الشرعي ستكون معيارا لاتجاه كل عصيان .

اقتصرت اعمال المتمردين على الاجتماعات الصاخبة فى ضواحى بيروت وتبادل اطلاق النار مع الحامية الذى لم يحدث اى ضرر * . وهاجموا الكرنتينا التى يحتفظ فيها بالكثير من البنادق المصرية . وشن ٥٠ البانيا هجوما من هناك . وطهر الالبانيون بسهولة كل الميدان من الجبليين الذين كانوا يهددون بابادة الجيش المصرى . وكان هذا كافيـــا لتحديد قوة العصيان . ولكن اصداءه اثارت القبائل الاخرى . فقد نهض الامير خنجر المقدام ، من عائلة حرفوش العريقة ، بمتاولة بعلبك ، وثار الشيخ خضر فى ضواحى طرابلس مع جبليى ناحية الضنية . وفى جبـــال حوران لاحت بوادر العاصفـــة بين الدروز . وتوافد الساخطون من مختلف اماكن اليهودية والسامرة الى الكرك شرقى الاردن ، حيث يوجد الوكر الدائم للتمرد . وتوجهت انظار كل سكان سورية الى لبنان ليحملوا السلاح فى اللحظة المناسبة . ومن الجهة الاخرى ، استعد لعبور الفرات قرابة ٢٠ الفا من بدو ما بين النهرين كان باشا الموصل قد جندهم قبل معركة نصيبين لاقتحام سوريـــة ، وكان يرابط فى ملاطية فيلق قوامه ١٥ الفا يشكل احتياطى حافظ . ولكن لم يكن بين المتمردين فى سورية اتجاه مشترك ولا اجماع فى الرأى . واستنفـد الجنراليسم اللبنانى المدعى اونفروا كل خزينتـــه فى غضون اسبوعين ، وبتبدد النقود تبدد الجيش ايضا تحت راياته الخيالية .

وفى غضون ذلك اتخذ محمد علي اجراءات عملية لقمع التمرد واستأنف فى الوقت نفسه محاولاته للدخول فى محادثات مع الباب العالى بمعزل عن الدول الكبرى . وكان خسرو المقيت لديه قد عزل من منصب الوزير الاعظم وحلت عليه النقمة . وكان النفوذ الغالب فى الوزارة الجديدة لرشيد باشا ، وزير الخارجية . واذ اعتبر الباشا ، المهدد بعصيان سورية وبموقف البلاط الانكليزى المعادى ، هذا التغيير ملائما لمآربه ، ارسل الى القسطنطنيـــة مرافقه سامى بيه ، الانسان الذكى ، اللبق ، الجذاب ، محملا بالهدايـا الى السلطان بمناسبة ميلاد ابنته ، وكلفه بان يقترح تسليم الاسطول والسماح بان يوصله الى العاصمة ابن محمد علي الشاب سعيد بيه ، قبطان الاسطول

---

* لم يكن بازيلى وقت الانتفاضة يميل الى مثل هذا التهكم . ابلغ بوتينيف من بيروت فى ٣ تموز (يوليو) عام ١٨٤٠ : «وقعت اصطدامات كثيرة بين الجبليين المنتفضين والقوات المصرية . وهذه الاخيرة كانت تستفز وتهان فى كل مكان وتهزم وتطرد باستمرار . ولا تزال ضواحى مدينتنا مسرحـا للاعمال العدائية ، وعلى مرأى منا صد خمسون جبليا غير مرة كتائب نظامية كاملة» . ان قلق الحكومة المصريـــة الذى اثارته الانتفاضة ، والاجراءات التى اتخذتها لقمعها تشهد على طابع الانتفاضة الخطير . **المحرر** .

المصرى . وفى صدد هذا الاقتراح المعبر عن الولاء ، كلف سامى بيه بان يدخل فى محادثات حول صفقة سرية على اساس اعادة اضنة الى الباب العالى وزيادة اتاوة سورية شريطة الا تتدخل الدول الكبرى فى قضية المسلمين العائلية هذه . كان الباب العالى ، من جهته ، ضليعا جدا من اساليب تابعه . وقد استقبل المبعوث بلطف ، ولكنــه اشار ببرودة اعصاب الى ان اعادة الاسطول امر ثانوى اذا لم تحل مسألة سورية . وتملص من كل المحادثات بذريعة ان عليه ان يعمل بالاتفاق مع حلفائه .

فى يوليو (تموز) رجع سامى بيه خائبا الى محمد علي . كان من شأن تمرد لبنان ان يضع حدا لخلافات الدول الكبرى ، وبهذا تنهار الامال الاخيرة . وعد الباشا الجبليين بالا يأخذ منهم السلاح ، اذا خضعــوا طوعا . وفى الوقت نفسه قدمت القوات العسكرية من كل الجهات لتطوق الجبال . احتل لواء من الجيش النظامى مدينة زحلة عند السفح الشرقى من لبنان ، ووصل ٣ الاف لبانى عبر البحر الى بيروت من باشالــك اضنة ، ثم اتت مــن الاسكندرية سفينتا صف و١٢ فرقاطة و٨ قطع اخرى . وكانت هذه العمارة مكونة من القطع التركية والمصرية بالتساوى ، وتحمل نصف لواء من جنود الانزال تابعا لاسطول السلطان . بهذا اراد محمد علي ان يوهم الجبليين الساخطين باسم السلطان انه يعمل بالتحالف معه .

احتفل فى بيروت احتفالا مهيبا بولادة السلطانة قرابة سبعة ايام على التوالى وسط الاستعدادات للحملة . الا ان شعور الطواقم التركية تجلى بما فيه الكفاية على امتداد الرحلة من الاسكندريــة الى بيروت ، فقد اكتشفت مؤامرات هدفها الابحار الى شواطئ ممتلكات السلطان . وبعد الوصول الى بيروت اغرق ليلا فى الخفاء عدة ضباط اتراك .

انيطت بسليمان باشا صلاحيات سواء للعمليات الحربية او للمحادثات مع المتمردين . وكان تحت امرته عباس باشا الشاب ، حفيد محمد علي . وأُمِر ابراهيم ، الذى كان اسمه يثير الرعب لدى الجبليين ، بالا يساهم ابدا فى هذا الاجراء . ولما كان محمد علي يعرف طبع ابنه العنيد والقاسى ، لم يجرؤ على استئناف صراع حوران فى لبنــان . من شأن الاخفاق واراقة الدماء فى هذه النقطة الساحلية ان تسبغ على محادثات الدول العظمى حول سورية طابعا غير ملائم بالمرة .

بعد نبأ التمرد اللبنانى وصلت فرقاطة انكليزية الى بيروت . ولكن فى غضون ثلاثة اسابيع بلغ تعداد القوات ، التى تجمعت حول الجبال الساخطة ، ٣٠ الفا . ان وجود السفينة الانكليزيــة ومواصلات الانكليز البحرية بين القسطنطينية وبيروت ومالطا اثارت تخوفات شديدة لدى سليمان باشا على الاسطول الراسى فى بيروت بانتظار الحملات على الجبال . وهرع الى اعادة عمارته بعد الانزال . وفى الواقع ما ان ابحرت الى الاسكندرية حتى ظهرت

الفرقة الانكليزية في بيروت تحت قيـــادة الكومودور نيبير * الذى اشتهر بجرأته على نهـــر تاخو فى الحرب بين دون بيدرو ودون ميغيل . لو ان الكومودور وصل قبل ذلك بعدة ايام لتمكن ، رغم التباين فى القوى ، من الاستيلاء على السفن الحربية المصرية واعطاء القضية اللبنانية مجرى اخر . كان ذلك فى اوائل تموز (يوليو) . وكانت الحملة تستعد للتوغل فى الجبال ، فبقى الكومودور متفرجا على العمليات العسكرية لا حول له ولا قوة ، وعبثا حاول ان يبعث الشجاعة فى المتمردين الذين دب الخوف فيهم .

رأى الامير بشير تطور خطة سليمان باشا ولم يشك فى قمع الانتفاضة قريبا . وهرع الى ارسال ابنائه اليه يعرضون عليه خدماتهم . كان سليمان باشا وحفيد محمد علي على حد سواء يدركان جيدا السياسة الغادرة للامير المسن ، ولكنهما ، اذ اجّلا الانتقام الى ظروف انسب اقاما علاقات معه بطيبة خاطر ، ليسحقا القبائل الساخطة سحقا اكيدا بضربـــة واحدة . عندئذ تجلى مشهد لا يصدق فقد كانت الانفعالات الشعبية فى لبنان فى اشد احتدامها ، وحتى الجبليون الذين لم يساهموا فى العصيان استعدوا لحماية ذراهـــم المنيعة من غزو القوات باصرار زاد من شدته كون هذه القوات ابدت ، وهى فى بيروت ، قبل الشروع فى الحملة ، تعصبها بارتكاب مختلف الفظائع ضد المسيحيين .

تمكن الامير بشير فى ثلاثة ايام من ان يبث الشقاق بين رؤساء التمرد ويوحى للشعب بالشك فى القادة وينشر فى كل مكان ذعرا مصطنعا ، بحيث طهرت كل الممرات من تلقاء ذاتها يوم دخول القوات ، وهرب المتمردون ، الذين لم يطلقوا عيارا واحدا ، او مثلوا لتقديـم ايات الولاء . وفى الوقت نفسه ظهر فرسان الامير بفصائـــل صغيرة فى المناطق التى كان فيهـــا العصيان اقوى ما يكون ، وطلبوا اسلحة وغرامات عقابا على العصيان . هذه الدوريات ، التى كان قوام كل منها فارسين او ثلاثة ، جردت مئات الجبليين من اسلحتهم ، ثم عاقبتهم بالجلد بلا شفقة الى ان سلموا الاسلحة ودفعوا الغرامة . ثم ظهر الالبانيون او جيش الانزال التابع للسلطان الذى كان يكن الحقد على محمد علي ، فصبه على الجبليين المساكين . نهبت القرى والكنائس والاديرة ثـــم احرقت . وجدير بالذكر ان الجيش المصرى عامل السكـــان بانسانية اشد مما ابداه الاتراك بما لا يقاس ، فهل كان هذا لان الانضباط قد روعى فعلا بمزيد من الصرامـــة فى الجيش المصرى ، او لان الباشوات تغاضوا عمدا عن فظاعات الجندى التركى لينسفوا السحر الذى يربط القبائل

---

* تشارلز نيبير (١٧٨٦-١٨٦٠) - اميرال انكليزى . قاد فى عام ١٨٣٣ الاسطول فى الحرب الاهلية فى البرتغال الى جانب الدستوريين . وفـــى عام ١٨٤٠ ساهم فى العمليات العسكرية فى سورية . **المحرر .**

السورية بعاهلهـــا الشرعى . لقد سبق ونوهنا بان حملة جيش السلطان نفسها على السكان المنتفضين باسم السلطان كانت تدحض الشائعات السيئة حول مواقف الباشا المحظوظ ازاء خلف محمود .

فى عدة ايام خضعت الجبال خضوعا مطلقا . وغادر الكومودور الانكليزى والحسرة فى قلبه الشواطئ السورية ، مبديا ايات الاعجاب بالباشا الشيخ الذى حرك فى عدة اسابيع كل هذه القوى الجبارة واطفأ الحريق الذى كان يهدد بالتهام سورية باسرها . كان الامير بشير ، حسب القواعد الاساسية لسياسته ، يستطيع ان يجنى لنفسه فوائد سياسية من كل ازمة سياسية . وبحجة درء تمردات جديدة ومعاقبة المسؤولين عن العصيان قبض على كل الذين كان نفوذهم لا يتفق ومآربـه بمن فى ذلك عدة امراء من اقربائه ، وارسلهم الى مصر . ومن هناك نفوا الى سنار حيث امضوا صيف عام ١٨٤٠ اللاهب تحت الشمس الاستوائية ، متلهفين على جبالهـــم المنعشة ، وعلى الينابيع الباردة وذرى لبنـان المغطاة بالثلج . وقد انقذت احداث خريف وشتاء السنة نفسها هؤلاء الطريدين من المنفى .

اصيبت سورية كلها بالذعر حينما علمت بقمع تمرد لبنان . ان الحكم المصرى لم يوح يوما بمثل ذلك الرعب الذى بعثه فى تلك الفترة من انتصاره الاخير . ولكن قلوب السوريين لم تكن فى يوم من الايام تغلى بمثل تلك العداوة للباشا المنتصر ، ولم تكن الانفعالات الشعبية متأججة على هذا النحو فى يوم من الايام تحت قشرة الهدوء القسرى . هذا بالاضافة الى ان التعاطف الذي ابدته القنصليات فى بيروت والسفن الحربية الانكليزية ازاء القبائل اللبنانية احدث ، رغم انه لم يحل دون نجاحات محمد علي ، انطباعا معنويا كبيرا كسمة لاعراض الدول الكبرى عن الباشا المتمرد . ان سورية ، التى خابت امالها عام ١٨٣٩ بعد معركة نصيبين ، اخذت منذ ذلك الحين تنتظر من الدول الكبرى تحريرها . وانتشرت شائعة تزعم ان فيلقا روسيا قوامه ٥٠ الفا يسير عبر ارضروم لطرد المصريين بمساعدة الاسطول الانكليزى من البحر . كان تجلى مثل هذا الشعور فى كل جمهور السكان ينطوى على مغزى خاص ، حينما كان على الدول الكبرى ان تشرع نهائيا فى حل مهمة القضايا الشرقية .

فى تلك الظروف وقعت فى لندن معاهدة ٣ (١٥) تموز (يوليـو) عام ١٨٤٠ الشهيرة بين روسيا والنمســا وانكلترا وبروسيـــا والباب العالى العثمانى . وعلى الرغم من مقاومة فرنسا قررت الدول الاخرى كبح محمد علي بالقوة ووضع حدود مشروعة لطموحه المفرط . وكانت هذه المعاهدة تقوم على التعهد الذى اتخذته الدول الكبري قبل ذلك بسنة فى مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) عام ١٨٣٩ . اذا كانت الخلافات وسوء التفاهم قد عرقلت تنفيذ الاقتراحات التى قدمت حينذاك الى الباب العالى ، فقد اصبح من المقرر بحكم

المعاهدة العمل بلا اى ابطاء . وكانت سرعة الاعمال هذه افضل ضمانة لنجاح الاجراء نفسه ولدرء الحرب الاوروبية التى يهدد بها ابتعاد فرنسا عن القضية المشتركة .

على اساس معاهدة لندن اقترح على محمد علي من الباب العالى ان يحكم مصر وراثيا ويدير مدى الحياة جنوب سورية (فلسطين) وفق خط يمتد من الرأس الابيض (رأس الناقورة) على البحر الابيض المتوسط الى بحيرة طبرية على ان يوافق الباشا على هذا الاقتراح ، الذى ايده ممثلو الدول الكبرى ، فى غضون عشرة ايام وان يوجه فى خلال العشرة ايام هذه الاوامر الى جيشه باخلاء بقية سورية واضنة وكاندى وشبه جزيرة العرب مع تسليم اسطول السلطان فورا .

وفى حال رفض الباشا لهذا الاقتراح يقتصر الباب العالى على تقديم مصر حكما وراثيا ويمنح الباشا مدة عشرة ايام اخرى لقبول هذا الشرط ، تاركا لنفسه فى حال رفض الباشا ثانية حرية العمل بالشكل الذى يراه بعد مباحثات تمهيدية مع الحلفاء . وبما ان سورية الشمالية ستعاد الى الباب العالى على اى حال ، فقد كان يمكن فى خلال المحادثات مع الباشا وقبل انقضاء المواعيد المقررة ان تبدأ العمليات الحربية عند الشواطئ اللبنانية وتنقطع المواصلات البحرية بين سورية ومصر . اما فى خصوص تهديد محمد علي المألوف بحملة ابراهيم على آسيا الصغرى ، فقد اتفقت الدول المتحالفة على ان تحتل اساطيلها ، فى حالة تنفيذ هذا التهديد ، البوسفور والدردنيل لحماية العاصمة العثمانية ، وكان فيلق من القوات الروسية مستعدا لعبور البحر الاسود من اوديسا وسيباستوبول والتقدم لملاقاة ابراهيم .

اوصل خبر معاهدة لندن الى سورية الكومودور الانكليزى نيبير الذى ظهر فى ١ آب (اغسطس) مقابل بيروت فجأة مع اربع سفن صف وفرقاطة . كان الكومودور يأمل ان يشعل ، بظهوره وباعلان رغبة الدول الكبرى وبالتوجه الى السكان باسم السلطان ، لهيب تمرد جديد فى لبنان ويبعث الوجل فى القوات المصرية ويجر اليه نصف لواء الانزال التابع للسلطان الذى ساهم فى الحملة على لبنان ، كما سبق ورأينا ، والذى استدعاه سليمان باشا بسبب فظائعه فى الجبال وجعله يرابط فى معسكر قرب بيروت على شاطئ البحر . رست القطع البحرية الانكليزية على جانبى هذا المعسكر واعلنت ان جيش السلطان موجود تحت حمايتها وانه منع الجنرالات المصريين من اجلاء الجنود الاتراك عن هذه النقطة .

استخدمت التهديدات والايحاءات والمناشير على مرأى من الجيش والسكان ايذانا ببدء العمليات الحربية قريبا . ولكن كل ذلك كان عبثا . لا بد فى هذه الحالة من لوم نيبير على جهده الارعن والمندفع للاسراع فى تنفيذ معاهدة لندن . اولا ، اراد ان يؤثر فى قبائل تابعة للسلطان وفى جيش السلطان

دون ان تكون برفقته اية شخصية من اعيان الباب العالى ، ودون ان يبرز حتى فرمانا من السلطان لجعل خطبه واعماله مبررة ومشروعة . ثانيا ، دعا اعتباطا الى الانتفاضة قبائل عوقبت قبل امد قصير على تمردها وجردت من اسلحتها ، ناسيا ان ٣٠ الفا من الجيش المصرى يحتلون الجبال او كانوا على استعداد لدخولها ، ودون ان تكون عنده اية وسائل مادية ليقدم الى الجبليين من البحر اقل مساعدة واقل حماية . اما فى خصوص قوات السلطان ، فان كلمات الكومودور وتصرفاته لم تكن سوى تبرير للدور الذى اضطلع به محمد علي فى ذلك الوقت ازاء طواقم الاسطول الذى حجزه غدرا ، دور حامى الاسلام من نيات الكفار الشريرة . ان حسن باشـــا ، الذى كان يقود هذا الجيش رفض مع ضباطه بكبرياء خدمات الانكليز وابى اية علاقات بهم .

كان يستحيل لوعوده او تهديداته ان تحظى بالدعم . وبعـــد عدة ايام غادر الجيش التركى المعسكر الساحلى على مرأى منه . ولما كان الجنرالات المصريون لا يستطيعون ان يعولوا على اخلاص هذا الجيش ، فقد ارسل عبر جبال لبنان الى بعلبك . ولكن اكثر مـــا اضر بنجاح الكومودور خطأ بلاغى بسيط فى استخدام الصفات الملازمة لعبقرية اللغـــة العربية : فى احد مناشيره ، التى دعا فيها السكان الى الانتفاض على المصريين ، وعد بان يكون رؤوفا بمدينة بيروت . فى الترجمة العربية الفاشلة عبر عن رأفة الكومودور باحدى الصفات التسع التى تطلق على الله دون غيره . هذا الادعاء بدا تجديفا للسكان المسلمين ، ومع كل كراهيتهم للمصريين اخذوا بتعصب مكثف يتنكرون للمسيحيين حتى حينما كانوا يعدونهم بالتحرير .

على امتداد آب (اغسطس) باسره استمرت عبثـــا محاولات الكومودور وتحدياته المهينة للسلطات المصرية . وقد استدعى حفيد محمد علي الى مصر مع ورود اول خبر عمـــا جرى فى بيروت . ووجه سليمان باشا كل نشاطه نحو لجم الفورات التعصبية لسواد المسلمين ، وحتى للجيش المصرى الحاقد على المسيحيين بسبب انتفاضة الجبليين ، والذى اهين بعد ذلك فى شعوره الدينى نتيجة لسلوك الانكليز . لحقت بالكومودور سفينتـــا صف اخريان . بناء على مضمون المعاهدة قطعت المواصلات بيـــن سورية ومصر ، واصبحت وسائل النقل التى ارسلها محمد علي الى الجيش السورى غنائم .

فى ظل استحالـــة العمليـــات الحربية بين الاسطول والجيش حاول الكومودور ، فى ضجره من بقائه بلا عمل ، رشوة سليمان باشا ، ووعده باسم السلطان بالملايين وبحكم اى باشالك مدى الحياة * . ولكن ضابط نابليون القديم رفض كل هذه الاقتراحات . وفـــــى احساسه بدنو الصراع

---

* قدم القنصل الانكليزى مور اقتراحا رسميا من هـــــذا القبيل فى ٥ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٠ . **المحرر** .

انبعثت فيه كراهيته الشديدة لاسم الانكليز وذكريات شبابه الحافل بالاقدام الذى امضاه فى الحملات الفرنسية . لقد اضرت تصرفات الكومودور بنجاح المشروع . لاشك فى ان تيير يتمتع بمواهب عسكرية كبرى ، ولكنه لم يتغلغل فى وضع الناحية ، ولا فى روح سكانها ، ولا فى طبع الاشخاص ؛ ولم يدرك الاعتبارات السياسية والدوافع الانسانية التى اتخذت تحت راياتها قرارات مؤتمرى لندن ، والتى من شأن غيابها ان يعكر حتما اى نجاح مهما كانت الرغبة فى تحقيقه عارمة . وعوضا عن الهدوء الجدير باجراء قائم على قرارات الدول الاربع الكبرى ، تجلى فى محاولاته الفاشلة المتلاحقة ضجره الداخلى لانه لم يترك له ، وله وحده تقرير المسألة الكبرى للقضية الشرقية ، كما قرر على تاخو بجرأة ناجحة مصير البرتغال قبل ذلك بعدة سنوات .
ردا على تهديدات الكومودور ابلغ سليمان باشا قناصل الدول المتحالفة رفض الباشا الشيخ رفضا قاطعا للاقتراحات التى قدمت اليه وعزمه على الذود بالسيف عما أخذ بالسيف وصد كل اعتداء من الاسطول على النقاط الساحلية فى سورية . واذ نفذ سليمان باشا ارادة زعيمه ، شعر حينذاك بان الامور ستتخذ مجرى قاتلا .

كان النظام الذى اتخذ للدفاع متهورا ، لانه لا يوجد اى امكان مادى حتى لاضخم الجيوش لتغطية ساحل يمكن ان يكون فى كل مكان على امتداد اكثر من ٨٠٠ كيلومتر مسرحا لعمليات الاسطول المعادى الذى يستطيع ان يختار كما يشاء زمان الهجوم ومكانه . مع العلم انه فى كل جيش اسيوى ينبغى اكثر من اى شىء الحرص على الانطباعة الاولى وصيانة الجندى من رهبة الاخفاق الاول . كان رأى سليمان يتلخص فى الاجلاء عن كل الساحل السورى باستثناء عكا ، وحشد الجيش على الخط الداخلى بين حلب وحماة وحمص ودمشق ونابلس والقدس مع مخفرين اماميين للمراقبة فى الموقعين العسكريين الممتازين لبعلبك وانطاكية . الا ان الخطأ الرئيسى لمحمد علي لا يكمن فى تصوراته الستراتيجية ، بل فى كونه عول كثيرا على نفوذ الامير بشير بين القبائل اللبنانية وآمن بشفاعة فرنسا ، آمن بالصحف وباحاديث تيير وانتظر من ساعة الى اخرى العون ضد الدول المتحالفة واشتعال الحرب فى اوربا .

كان جيشه فى سورية يبلغ حينذاك ٧٥ الفا ، وقد زود بكل ما يلزمه لمدة سنة واحدة . عوضا عن ان يصون محمد علي ، حسب رأى سليمان باشا ، جيشه ويتخلص من العبء الثقيل لابقاء الجبليين الحاقدين فى طاعته ويستدرج العدو الى داخل المنطقة ويجرده بهذا من كل فوائد المساعدة من البحر ويطيل امد حرب كل الافضليات المادية فيها الى جانبه ويجعل سكان الساحل يشعرون بكل عبء مسرح العمليات العسكرية مع ضرورة جلب الذخائر وتقديم وسائل النقل الى جيش السلطان ، وبهذا يخفف من ولاء

الشعب للاتراك الذين لن يلبثوا ان يثيروا بسلوكهم سخط القبائل السورية ويجعلونها تترحم على المصريين ، عوضا عن هذه الفوائد الجلية التى يمكن ان يضاف اليها ايضا احتمال الخلافات العاجلة بين الضباط الانكليز والاتراك ، فضل توزيع قواته على نقاط الساحل من طرسوس الى غزة . كان الجناح الايمن لخط العمليات هذا المفرط فى طوله يستند الى انطاكية ، حيث حشد لواءان ، ويستند الجناح الايسر الى الفرسان المرابطين فى السهول بين عسقلان ويافا . وكان الفرسان غير النظاميين (الباشى بزق) يحرسون منطقة طوروس من هجوم جيش آسيا الصغرى التابع للسلطان . ورابطت ثلاث كتائب مشاة وست كتائب خيالة وفوج مدفعية فى عكا ، وكانت بيروت مركز العمليات الحربية ، حيث احتشد فيها ١٢ الفا من المشاة و٥ الاف الباني وقوات مدنية يصل عددها الى ٤ الاف من جبليي نابلس ودروز الامير اللبناني . واعلن كل الساحل السورى من طرسوس الى خان يونس ، اخر نقطة لسورية فى صحراء السويس ، فى حالة حصار * . وضعت السلطات المدنية فى تبعية للقيادة العسكرية ، واصبحت كل جريمة سياسية تخضع لمحاكمة عسكرية . وسارت قوافل الابل من مصر عبر الصحراء محملة بالعتاد العسكرى والملابس الشتوية للجيش .

قرر محمد علي بالفعل الدفاع الى النهاية وكان يعلل نفسه بالامل فى النجاح او على الاقل فى شروط مؤاتية فى حالة اطالة امد الحرب . ولكنه تخلى ، على الاقل ، عن الفكرة الجريئة فى حملة جديدة على آسيا الصغرى ، الامر الذى كان يجب ان يهدد به على امتداد المحادثات ، وكأنه مشعل جاهز فى يده لاشعال الحرب فى اوربا . وتراجع ابراهيم عن مرعش الى مركز العمليات الحربية ، حيث كانت السلطة قبل قدومه فى يد رئيس الاركان سليمان باشا .

فى اواخر آب (اغسطس) عمل ابراهيم على وضع جيشه فى بعلبك التى دعى اليها الامير بشير لاجل المشاورة . وفى الوقت نفسه ، كان الاميرال الانكليزى السير روبيرت ستوبفورد ** واللواء البحرى النمساوى البارون باندييرا ، اللذان كلفا بان يدعما بظهورهما فى الاسكندرية اقتراح السلطان ، قد قابلا فى المياه السورية بعد انقضاء المواعيد المحددة البعثة التركية التى ابحرت على عجل من القسطنطينية . وقد عهد الى الاميرال ستوبفورد بالقيادة العامة لكل القوات البحرية والبرية للحملة على سورية .

---

* فى ٦٢ آب (اغسطس) عام ١٨٤٠ . **المحرر** .

** ستوبفورد روبيرت (١٧٦٨-١٨٤٧) — اميرال انكليزى خدم امدا طويلا فى الاسطول (من عام ١٧٨٠) ، وفى عام ١٨٣٧ عين قائدا للاسطول الانكليزى فى البحر الابيض المتوسط ، وفى عام ١٨٤١ استدعى الى انكلترا . **المحرر** .

كانت هذه القوات مكونة من ١١ سفينة صف و٦ فرقاطات و٥ شراعيات و٥ بواخر تابعة لانكلترا * مع بطاريتى مدفعية انزال ، ومـن فرقاطتين و٣ حراقات تابعة للنمسا ومن سفينة وفرقاطة ومركبتين صغيرتين تابعة لتركيا سلحت كيفما اتفق فى ترسانة القسطنطينية بعد فقدان الاسطول ووضعـت تحت امرة القبطان الانكليزى ووكر الذى التحق قبل ذلك بسنة بالخدمـة التركية مستشارا للاميرالية واطلق عليه فيما بعد اسم ياور بيه ومنـح رتبة لواء بحرى . ورافق ٥ الاف من جيش الانزال التركـى الاسطول فى مراكب تجارية .

هذه القوى تبدو ، ولا شك ، اقل بكثير ممـا تقتضيه اهمية الاجراء المقرر . اذ كان ينبغى تحطيم جيش قوامه ٧٠ الفا وطرده من سوريـة والاستيلاء على الكثير من التحصينات . ولكن كانـت الى جانب الحلفاء القوة المعنوية لارادة اربع دول كبرى وتعاطف القبائل السورية . لقد عرضنا مرارا فى حديثنا السابق تلك العناصر الداخلية للمنطقة التى كانت منذ القدم تمهد هناك لنجاح الغزو وتشكل فى الوقت نفسه عقبة فى وجه اى نجاح وتوطـد للسلطة .

على الرغم من كل حجج فرنسا حول نقص الوسائل لانتزاع سورية مـن السلطة المصرية ، حسبت وزارات الدول الكبرى باتقان شديد الوسائـل المادية الضرورية لهذا . ان ابراهيـم باشا ، الذى كان احيانا يقارن نفسه باسكندر المقدونى ويضع نفسه فوق بونابرت لانه احتل سورية وتوغل فى قلب آسيا الصغرى بحملتين مع جيش قوامه ٢٠ الفا ، ادرك بالتجربة تداعى مأثرته ، حينما لم يستطع بجيش من ٧٠ الفا الذود عن غنيمته امام حفنـة من القوات المتحالفة وامام فيض الكراهية الشعبية .

---

* سفن الصف : «Princess Charlotte» (تحت علم الاميرال ستوبفورد) وفيها ١٠٤ مدافع ، «Ganges» — ٤٨ مدفعا ، «Powerful» (تحت بريد الكومودور نيبير) — ٨٤ ، «Thunderer» — ٨٤ ، «Bellerophon» — ٨٠ ، «Implacable» — ٧٤ ، «Hastings» — ٧٢ ، «Edinbourgh» — ٧٢ ، «Belleisle» — ٧٢ ، «Revenge» — ٧٢ ؛ الفرقاطات : «Dido» — ١٨ مدفعا ، «Carysfort» — ٢٦ ، «Talbot» — ٢٦ ، «Tyne» — ٢٦ ، «Daphne» — ٢٦ ، «Magicienne» — ٢٤ ؛ الشراعيـات : «Hazard» — ١٨ مدفعا ، «Wasp» — ١٦ ، «Zebra» — ١٦ ، «Scorpion» — ١٠ ، «Weazle» — ١٠ ؛ البواخر : «Gorgon» — ٦ مدافـع ، «Cyclops» — ٦ ، «Rhadamanthus» — ٤ ، «Hydra» — ٤ ، «Pnœnix» — ٤ مدافع .

الفصل الرابع عشر

العلاقات المتبادلة بين الـــدول الكبرى . — اخطاء الوزارة الفرنسية . — هتافات وعجــز . — انفجار الانفعالات الشعبية فى فرنسا . — تهديدات المانيا . — الاستعدادات للحرب فـــى اوربا . — تعهدات الدول الكبرى . — اعلام محمد علي بقراراتهـــا . — مذكرة القناصل العامين . — رفـــض محمد علي وتباهيه وشكواته الى الباب العالى واتكاله عـــلى فرنسا .

قبل الشروع فى وصف الحملة التى استمرت اربعة اشهر وحلت فـــى اواخر عام ١٨٤٠ القضية المتنازع عليها بين السلطـــان والباشا المصرى ، نعود بانظارنا الى حالة اوربا فى صدد هذه المسألة والى المحادثات التـــى سبقت بدء العمليات الحربية فى سورية .

ان القضية البلجيكية اولا ، ومن ثم الحلف الرباعى فى صدد الاضطرابات الطويلة فى شبه جزيرة البيرينه ، وربما اكثر من اى شىء آخر الضجر العام من تغلب نفوذ روسيا فى تركيا منذ عام ١٨٢٩ قربت كثيرا فى غضون عقد واحد بين وزارتى انكلترا وفرنسا . كان يبـــدو ان الكراهية الشعبيـــة القديمة ، التى استنفدت فى الفترة المضطربة لحروب نابليون ، قد تركت مكانها ، اخيرا ، للشعور السلمى بين الشعبين . فى عهد وزارة الويغيين فى انكلترا ، وتحت تأثير تيير ، الذى اشتهر فى ذلك الحيـــن كمناصر متحمس للانكليز فى فرنسا ، وفى ظل العلاقات الودية بين الملكة الشابـة فيكتوريا والشيخ المحنك الذى يحكم فرنسا منذ عام ١٨٣٠ كان كل شىء يساعد عـلى عقد حلف بالتدريج بين الدولتين الغربيتين . ويمكـــن القول ان الشعور المتبادل بين الشعبين والحكومتين قد كرسهما عربونا للسلام المقبل الدفن المهيب لرفات نابليون الذى حرر فى عام ١٨٤٠ من الاسر بعد الموت . كـل هذه البوادر الطيبة انهارت بضجيج نتيجة معاهـــدة ١٥ (١٣) تموز (يوليو) عام ١٨٤٠ وابعاد فرنسا عن المسألة الشرقيـــة بسبب معارضتها النيات المشتركة للدول الكبرى .

هل كان يحق لحكومة ان تتذمر من هذا الابعاد اذا كانت شكوكها وترددها وتخوفاتها الداخلية قد اطالت على امتداد سنة كاملة الغموض في قضية تتوقف عليها بوضوح صيانة السلام الاوربي ؟ خلافا للتعهدات المهيبة التي قطعتها [الحكومة الفرنسية] على نفسها بالمذكرة الجماعية ذات الفترات الخمس في صدد ازمة عام ١٨٣٩ ، اخضعت الوزارة الفرنسية حل القضية العادل لنزوة وموافقة الباشا المصري . ان وزارة تيير ، التي اقتنعت باستحالة جر الدول الاخرى الى مآربها ومنح محمد علي الحكم الوراثي لسورية ، وجهت كل جهودها لتصلح ، متجنبة وساطة اوربا وبشكل يخالف مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) عام ١٨٣٩ ، بين الباب العالي والباشا ولتسبغ تحت تأثير الظروف الحرجة التي كانت ترهق الامبراطورية العثمانية الصفة الشرعية على مطامع التابع المحظوظ . وبغض النظر عن ان هذه النتيجة لا تليق ابدا بكرامة وانفة الدول الكبرى ، فما هي الضمانات التي تقدمها في المستقبل ؟ هل من المعقول بعد تجربة سبع عشرة سنة من القلق الدائم الذي انتهى بازمة عام ١٨٣٩ جعل مسألة الحرب والسلام رهنا بالطموح النهم للباشا المصري وابنه ، او بنزوة سلطان في السابعة عشرة من العمر وبدسائس الحريم والاعيان ، او باول انفجار للانفعالات الشعبية في سورية والاناضول ؟ . .

ان الوزارة الفرنسية ، التي تعهدت بضمان وحدة وحرمة الامبراطورية العثمانية ، اعلنت الان على نحو كيفي ان وحدة الامبراطورية وحرمتها لن تبقيا منيعتين فحسب ، بل ستتوطدان ايضا بنزع اراض شاسعة منها الى الابد تلبية لنزوات محمد علي . وفي تعليلها لهذه النظرية اعتبرت محمدا عليا اضمن سند لحكم السلطان و«حارسا للعرش من كل المصائب الداخلية والخارجية» . هل رفض الباشا المصري اية مساهمة في صراع السلطان المستميت ضد روسيا ، ومن ثم حملات عام ١٨٣٢ ونداءاته الى اوربا في صدد الاستقلال وتهديداته الدائمة بحملة جديدة على آسيا الصغرى وتحصين غولق بوغاز والحجز الخياني للاسطول في الاسكندرية والرسائل الغادرة الى الباشوات والتهديدات الانكشارية بالاطاحة بالوزير الاعظم ، هل كل تطاولات التابع العدائية هذه قد بررت حقا الفرضية الكيفية التي اعتمدت عليها شفاعة البلاط الفرنسي له ؟

ومن الجهة الاخرى ، اشارت فرنسا الى امارات الدانوب ، التي منحت حقوقا سياسية خاصة ، وحتى الى المملكة اليونانية التي سلخت عن تركيا . ولكن اغفل في غضون ذلك ما كان اساسا وتبريرا لحرص روسيا السمح على مصير الشعوب ابناء الملة الواحدة والعشيرة الواحدة ، وكذلك لموافقة اوربا على استقلال اليونان ، الا وهو تطور العنصر الاصيل الداخلي للشعب ، العنصر المسيحي المقترن بالحياة السياسية للقبائل والذي صار يتنافر مع

الحكم المتعصب للهلال الذى فقد القه . اما فى خصوص العنصر الشعبى العربى وتجسده السياسى فى اسرة التركى الروملى ، فقد سبق ونوهنا بان الكتاب والرحالة الذين وجهت نظرياتهم الرأى العام فى فرنسا كانوا يؤمنون بسراب خادع .

فى ظل هذا الميل للافكار بعد مقاومة الوزارة الفرنسية الطائشة لمقاصد الدول الكبرى بدت معاهدة ١٣ (١٥) تموز (يوليو) مهينة لكبرياء الفرنسيين الشعبية ، واثارت الانفعالات وادت الى حيرة الحكومة التى قدر لها ان تخضع اعمالها السياسية لانطباعات الجمهور . ان الصحف المستعدة دوما لاشعال لهيب الانفعالات الشعبية اطلقت بصوت واحد صراخ الشكوى على اوربا كلها ، ولا سيما على روسيا وانكلترا اللتين اضطلعتا بالدور الاول فى حل القضية الشرقية ، واللتين جعل اجماعهما كل الهتافات عاجزة . ان الصراخ الموجه ضد روسيا اصبح منذ عشر سنين على التوالى النغمة المألوفة لكل الحان الصحف فى باريس ؛ ولكن انكلترا ، هذه الصديقة على امتداد عشر سنين ، الرفيقة السمحاء لثورة تموز (يوليو) ، اصبحت من جديد ألبيون الغادرة كما كانت فى العصر الكلاسيكى للحروب الثورية وحروب نابليون . كانت الصحف تطالب بالحرب ، ولكن كان واضحا ان فرنسا لا تستطيع ان تهدد انكلترا ولا روسيا بالحرب . كانت تستطيع ان تقتنع ، اذ تنظر حولها ، بان لا حلفاء عندها . لكى تساهم فى الحرب التى اشتعلت فى الشرق وتبحث عن حليف هناك فى شخص التابع المصرى ، كان عليها ان تقبض على زمام البحر . . . فى حين ان منافسة انكلترا فى البحر الابيض المتوسط ، حينما كان اسطول البحر الاسود مستعدا للاقتراب واسطول البلطيق باقيا يحمى المؤخرة ، امر هو الجنون بعينه .

وبحكم الضرورة توجهت الفورات الحربية للصحف الى المانيا المجاورة . فقد تحدثت عن الحدود المنشودة على الرين ، عن بلجيكا ، عن الفتوحات فى اوربا ، عن النداء الثورى الى الشعوب ، اى ، باختصار ، عن استئناف الصراع الذى اتسمت به السنوات الاخيرة من القرن الثامن عشر . ووجدت هذه الصحيات صدى لها فى المناقشات السياسية فى مجلسى البرلمان . وعوضا عن ان تهدئ الحكومة ، من جهتها ، الاندفاع الشعبى برباطة جأش سديدة ، ردت على معاهدة لندن باوامر ملكية بتاريخ ٢٩ يوليو تم بموجبها تجنيد ١٤٠ الفا من الاحتياط وفتح اعتمادات لتقوية الاسطول بعشرة الاف بحار و٥ سفن و١٣ فرقاطة و١٠ بواخر كبيرة .

اثارت اقوال الصحف فى ظل الاوامر المفعمة بالروح القتالية للوزارة اهتمام اوربا الشديد . اهتزت المانيا من اقصاها الى اقصاها كرجل واحد وتذكرت بسخط المصائب التى عانتها فى عهد نابليون ، حينما اصبحت هدفا للطموح الفرنسى وميدانا للحروب الاوربية . وردت المانيا الشاعرية

على تحديات الفرنسيين الحربجية باغان وطنية كانـت صدى لعام ١٨١٥ . وتنتهى مقاطعها بمخاطبة الفرنسيين : «كلا ، لن تشربوا نبيذ الرين ، ولن تعانقوا فتياتنا الشقراوات» ، وعبأت الكونفيدرالية جيشا قوامه المليلون .

ان فرنســا ، وقد صرخت ١٠ سنوات على التوالى ضـد معاهدات عام ١٨١٥ التى هدّأت الشعـوب بعد اضطرابات استمرت عشريـن سنة ، اقتنعت بانها لا تستطيع ان ترفع يدها بلا عقاب على اية دولة ضمنـت المعاهدات وجودها . ومن الجهة الاخرى ، فان الشعور الذى ابدتـه فى عام ١٨٤٠ كل القبائل الجرمانية والحماسة المشتركة عند اول نداء من الحكومـة الى الدفاع عن الوطن المهدد برهنا لفرنسا ان تعاطف الشعوب لن يكون الى جانبها فى حالة نشوب حرب فـى اوربا ، وان نداءهـا الثورى لن ينهض الجماهير من زوند الى مسينا ، ومن نيمان الى سافوا ، كما كان يثق بـه بواقو الصحف ومجلسى البرلمان .

ان الدول المتحالفة ، اذ حرصت على صيانة السلام الاوربى ورغبت فـى ازالة كل سوء تفاهم فى صدد الحل المقبل للمسألة الشرقية ، اعطت اوربـا عربونا جديدا لنزاهتها . ما ان تم تبادل وثائق ابرام معاهدة ٣ (١٥) تموز (يوليو) حتى وقع ممثلو روسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا فى لندن مـع السفير العثمانى بروتوكول ٥ (١٧) ايلول (سبتمبر) الذى تعهدوا بمهابـة فيه بعدم التطلع فى تنفيذ المعاهدة الى اى نفوذ استثنائى واية مكاسب واية افضليات تجارية .

ننتقل الى الشرق . على اساس المعاهدة عرضت على محمد علي اقتراحات من الباب العالى بواسطة مبعوثـه رفعت بيه * . وكُلف القناصل العامون للدول الكبرى بدعم هذه الاقتراحات . وفى المذكرة التالية ، التى قدمهـا القناصل العامون الى محمد علي ، عرض جوهر القضية بوضوح وجلاء :

«بمعاهدة ٣ (١٥) تموز (يوليو) تغير وضع محمد علي تماما ؛ كان حتى الان فى قطيعة مع الباب العالى وحده ، وسيكـون الان ، اذا رفض الشروط المعروضة عليه ، فى عداء صريح مع عاهله ومع الدول الكبرى التى وقعت المعاهدة . ان نظام اوربا السياسى باسره يقـوم على التنفيذ الصحيـح للمعاهدات . وهكذا ، فرغم الصعوبات الجمة التى اعترضت حل مسائـل اليونان وبلجيكا واسبانيا ، نفذت تماما المعاهدات الموقعة فى شأنها ، مـع ان مقاصد كل الدول الاوربية ازاء هذه المسائل لم تكن واحدة .

لا يجوز بعد الان تعليل النفس بامل باطل فى اى تغيير لاحكام المعاهدة . فالمواعيد المعينة للقبول بالشروط المعروضة تبعد ايـة فكرة فى هذا

---

* منح فيما بعد لقب باشا وصار وزيرا للخارجية .

الخصوص . فلنمعن التفكير فى نتائج قبول او رفض المعاهدة المشار اليها .
سيبرهن سعادة الباشا بقبوله الشروط المعروضة على انه لم يكـــن مجرد فاتح محظوظ مثل الكثير من سابقيه الذين لم يستطيعـوا ان يتوقفوا فى الوقت المناسب ويوطدوا مأثرتهم ، بل كان فى الوقت نفسه رجل دولة وسياسيا عميق التفكير . وهل ثمة ما هو افضل من سمعة تأسيس عائلـــة مالكة جديدة يعترف بها العاهل الشرعى واوربا باسرها ؟ وهل ثمة على حافة الحياة المجيدة ما هو اكثر مدعاة للطمأنينة من الاقتناع الشخصى بان مـــا شيده الانسان سينتقل الى اولاده ولن ينتزعه احد منهم ؟
ليست الحدود الشاسعة ولا القوة المادية هى ما تشكل فى عصرنا عربونا لرخاء الدول ، فالدول تضمنها معاهدات تقوم عليها حرمتها وحقوقها ضمـــن نظام اوربا السياسى . لننظر الى الخارطة : ممتلكات صغيرة محرومة مـــن اية موارد ، تطوقها دول جبارة ؛ انها لاتهاب المضايقات ولا الظلم ؛ فكـــل اوربا تسهر على شرفها وامنها . ونظرا لهذه الضمانات هل يستطيع محمد علي او اخلافه ان يشكوا فقدان مناطق لم تقدم الى الان اية فائدة ولم تلتهـــم مواردها الخاصة فحسب ، بل كذلك جزءا كبيرا من دخول مصر ؟ والباشـــا يعرف جيدا اية تضحيات بالارواح والنقود يكلفـــــه احتلال سورية وشبه جزيرة العرب .
وهذا ليس كل شيء : فعوضا عن الخلافات الفاجعة بين الباب العثمانى وسعادته ستتوطد الصداقة المخلصة والوحدة القائمتان عـــلى تطابق الاراء السياسية والعقيدة . وسينال الشعـــــب الاسلامى مجددا جبروته ورخاءه السالفين . وفى حالة وقوع خطر خارجى تستطيع تركيا ان تعتمد على مصر ، ومصر على تركيا لحماية الوطن المشترك .
ان المصير المقبل لمحمد علي واسرتـــــه ورخاء مصر وتركيا والفوائد السياسية للامبراطوريـــــة العثمانية التى يسمى محمد علي نفســه اخلص المدافعين عنها تملى عليه جميعا القبول بشروط اشرف واجدى بما لا يقاس من اقتناء مناطق كثيرة الكلفة وسريعة الانهيار . ولا يزال امامه مجال رائع : انه يستطيع ، وقد ضمنت له ممتلكاته ، ان يكرس كل نشاطه لتوطيـــد وتطوير تلك المؤسسات الرائعة التى منحها مصر . وتشكل مناطق النوبـــة والسودان وسنار مجالا رحبا لنجاحات العلـــــم والحياة المدنية . وسيكون محمد علي اهلا للقب باعث مصر ، مهد العلوم القديم .
لننظر الان فى عواقب رفض سعادته : سيكون امامـــه استخدام القوة العسكرية قبل كل شيء . ان الباشا يعرف جيدا الوسائل التى تملكها الدول الاربع الكبرى ، ولا يمكنه ان يعلـــــل نفسه بحلم مقاومة حتى اية واحدة منها .
سيكون من الضلال المميت فى الظروف الحالية ان يتكـــل على مساعدة

خارجية من اى كان . من يستطيع وقف قرار الدول الاربع الكبرى ، ومن يستطيع مقاومتها ؟ من سيقدم على التضحية بمصالحه الخاصة وبامنه من اجل التعاطف مع محمد علي ؟ وهل ستكون فى هذا فائدة تذكر ؟ فى الصراع العام الذى قد يحصل سيكون محمد علي اول ضحية وسيهلك لا محالة . وكل حماية له من الخارج لن تعجل الا فى سقوطه عوضا عن فائدته .

ستحرك الدول الاربع الكبرى قوى كافية لتقهر اية مقاومة فى تحقيق الهدف الذى وضعته . وسيتحمل الباشا كل المسؤولية عن الحرب ، وسيكون سبب ظهور القوات الاوربية فى مصر وآسيا . وستحمله الشعوب المسلمة جريرة شرور الحرب التى شنها من اجل مآربه الخاصة وحدها . لقد اعلن محمد علي انه سيسفك الكثير من الدماء قبل ان يتنازل . اما الدول الاوربية ، فعلى العكس من ذلك تتطلع الى ان تتجنب قدر الامكان اراقة دماء المسلمين والمسيحيين الذين يخدمون راية الباب العالى . وسوف تحشد ، حيث ينبغي ، ما يكفى من القوى لتبدد اية مقاومة بضربة واحدة .

لا شك فى ان محمد علي سيسقط ، ولكن هل سيسقط بمجده ؟.. كلا ، لانه لا مجد البتة فى السقوط نتيجة خطئه ، داخلا بتهور اعمى فى صراع ميؤوس منه . هذا فى حين ان المجد والحكمة على السواء يأمران بالخضوع لقانون الضرورة وقوة الظروف . وحينما يسقط محمد علي هل جنكيز خان وتيمور واسكندر ونابليون . وسيقتصر التاريخ على القول : فى ينتقل اسمه الى ذريته ؟ كلا ، لان فتوحاته لم تهز العالم شأن فتوحات عهد حكم السلطان محمود حكم مصر باشا موهوب وذو مراس . وخاض الحرب ضد عاهله بنجاح . وقد مد اليه خلف محمود الشاب ، عند ارتقائه العرش ، يده عارضا عليه السلام وارفع المقامات فى الامبراطورية . رفض الباشا هذه الاقتراحات ، وعندئذ عاقبته اوربا . وضاع اسمه بين اسماء الكثير من الباشوات الاخرين الذين تمردوا .

واذ يرفض محمد علي الشروط المقترحة ، ربما يتخيل ان الدول لن تقدم على اجراءات عملية لتنفيذ معاهدة ٣(١٥) تموز (يوليو) . اذا سلمنا بهذا الافتراض الباطل ، فهل يأمل الباشا ان يطيل على هذا النحو الامر الواقع (status quo) الحالى ؟ ولكن اية دولة تستطيع البقاء اذا كان سيف الدول العظمى مسلطا عليها باستمرار ، واذا كان قد قضى على تجارتها وقطعت مواصلاتها ؟

يستطيع محمد علي ان يضحى بمصالحه وبمصالح اسرته من اجل طموحه ، من اجل مآربه المجرمة . يستطيع ان يقتحم آسيا الصغرى بالنار والسيف دون ان يرأف بالشعب المسلم ، مهددا الامبراطورية ، وبهذا يعطى ذريعة لدعوة القوات الاجنبية ؛ ولكن هذا الاعتداء لن يبقى بلا عقاب . اذا تحرك ابراهيم باشا قدما ، فسيقطع عليه الى الابد طريق العودة . تنتظره

فى الاناضول الهزيمة الاكيدة ، وربما القبر ؛ وهلاكه سيجر هلاك محمد علي واسرته .

ستلجأ اوربا الى الحرب باسى اذا اقتضت الضرورة ذلك . ان الدول التى عقدت معاهدة لندن لا تعرف شعور الكراهية والانتقام . المعاهدة تقوم على العدل ، على اللياقة السياسية ، على الطمأنينة فى المستقبل ؛ وهدفها الوحيد هو توطيد الامبراطورية العثمانية . انها توعز الى محمد علي بما تقتضيه مصالحه الخاصة وشرفه ، ولكنها فى الوقت نفسه ، وقبل كل شيء ، مكيفة بالضرورة لظروف السلام الاوربى العام . وعلى الباشا ان يدرك هذه الحقيقة جيدا .

وهكذا ، فليخضع لقانون الضرورة ، وليقبل بامتنان من يد عاهله الشاب والكريم ، ومن اوربا باسرها ، الهدية المجيدة ، الا وهى تأسيس بيت حاكم جديد تحت رعايتهما الامينة .

وبهذا يعطى عمله لذريته ويباركه ورثته ويكتب اسمه فى سجل التاريخ .

الاسكندرية ، ٧ (١٩) آب (اغسطس)» .

هكذا كانت ايعازات الدول الكبرى ، ولكن لم تستطع الحجج المنطقية ، ولا الاعتبارات السياسية الواضحة القائمة على التجربة والتفكير السليم ان ترجع الشيخ المتعصب الى رشده . كان يتكل اتكالا اعمى على فرنسا ، منتظرا من ساعة الى اخرى نبأ نشوب حرب اوربية . حينما سألته الوزارة الفرنسية كم يستطيع الصمود فى سورية ضد الحلفاء ، اجاب الباشا انه يستطيع الاستمرار بالحرب خمس سنوات على الاقل . هل كان الباشا صادقا فى قناعته الجريئة هذه او انه كان يأمل فى ان تساعده الاحاديث المتباهية على ان ينتزع مساعدة الحكومة الفرنسية بشكل اضمن ؟ فى هذه الحالة لم يكن يحق له ، على الاقل ، ان يتهم فرنسا فيما بعد ، فهو نفسه المسؤول عن المبالغة المتعمدة فى وسائله امام دولة تعطف عليه باخلاص . وفى غضون ذلك كتب الباشا الى امير لبنان ، لضمان اخلاصه ، ان فرنسا سترسل اليه فى اقرب وقت جيشا قوامه ١٠٠ الف فرد ، و٢٤ سفينة صف و٧٠ الف كيس (٢٠ مليون روبل فضة) لصد الحلفاء .

عند وصول اول خبر عن معاهدة لندن شكا فى تقرير الى الباب العالى «ان الاقتراحات التى تقدم بها عبر سامى بيه قد رفضت» – لنتذكر ان هذه الاقتراحات كانت غير مباشرة ومشروطة ، وكانت مجرد محاولة للمحادثات ، وانه لم يقدم على اى تنازل يذكر ، – «وان الدول الاوربية تطاولت على استقلال الامبراطورية ، وانه ، اذ يبقى مخلصا لسلطانه ويبتهل الى الله ليلا ونهارا ان يحمى قوته ، مستعد للدفاع ضد اعداء الاسلام ؛ وانه يتكل على الله الذى صان ببركته الشعب المسلم من كل المصائب على امتداد اكثر من اثنى عشر قرنا ، وان شاء الله سينقذه الان

يضا من نية الكفار الشريرة» .

ان هتافات الايمان والطاعة هذه على مسمع من الاسلام لم تكن تهدف الا الى اثارة التعصب فى الشعب ووصم تحالف الباب العالى مع الدول المسيحية بالارتداد ونيل عطف الشعب . وفى الوقت نفسه استنفدت السفارة الفرنسية فى القسطنطينية ترسانة التهديدات لتثنى الحكومة التركية عن ابرام المعاهدة . ان السفارة ، اذ انتهكت الاسس المقدسة لحق الشعب والقواعد الدبلوماسية ، كانت تسعى الى ان تثير السخط فى الشعب وتطيح بالوزارة التى فضلت مصالح الامبراطورية على نزوات فرنسا .

فى انتظار وصول القوات المتحالفة الى الساحل السورى وبدء العمليات الحربية انقضت المواعيد التى قدمتها المعاهدة الى محمد علي . فى احدى مداولاته مع رفعت بيه والقناصل العامين حسب الباشا بطيش وعلى عجل ان عنده جيشا قوامه ٢٠٠ الف ، ولا بد من ضعف هذا الجيش لقهره ، وان الدول المتحالفة لا تستطيع ان ترسل ضده كل هذه القوات ، وانه سيندفع قدما لا يلوى على شيء ، «كتركى قديم مفعم ايمانا بالقدر» ، وسيثير الاناضول والاكراد وداغستان والقبائل الشركسية ، وانه لن تكون للحروب نهاية سواء فى آسيا او فى اوربا وما شابه ذلك .

واضح انه لا يمكن الظن بان محمد علي نفسه كان يصدق هذا الهذيان ، ولكنه ، وقد قرر يوما رفض اقتراحات الدول المتحالفة متوقعا الحرب فى اوربا ، اضطلع عمدا بدور المقدام ليربك ، من جهة ، ممثلى الدول العظمى ، وليشيع ، من الجهة الاخرى ، الاقاويل الملائمة لمآربه . كان واثقا بمساعدة فرنسا . ان الحكومة الفرنسية لم تعطه فى ذلك الحين وعدا قاطعا ببدء الحرب ، ولكن الفرنسيين المحيطين بمحمد علي اقنعوه بان فرنسا ستنجر الى الحرب بحكم الظروف وبمزاج الشعور الشعبى الذى هيجته الصحف . ومع كل ذلك لم يتحمل الباشا الشيخ دوره البطولى الى النهاية : فى مداولة ١٧ (٢٩) آب (اغسطس) ، قبل انتهاء الموعد الثانى ، اقلقه نبأ الاعمال الحاسمة للكومودور نيبير امام بيروت واعلن بخضوع انه يقبل اقتراح الحكم الوراثى لمصر تاركا لنفسه ان يلتمس من عاهله حكم سورية كمنحة خاصة . واجيب بانه ينبغى قبل كل شيء تنفيذ ما ورد فى المعاهدة ، اى تسليم الاسطول والجلاء عن سورية ، وبعد ذلك يمكن التماس العطف . هذا التشدد اثار اعصاب الباشا الشيخ . صاح بالقناصل العامين : «لا تعذبونى ، اتركونى» ، ولم يشأ ان يسمع اية نصائح واية تصورات . فى يوم انتهاء الموعد الاخير كانت اعصابه منهارة بحيث انه استلقى واعلن رفضه خطيا ، ليتجنب مداولات جديدة .

بهذا عاد رفعت بيه الى القسطنطينية ، واستدعي القناصل العامون ، وبدأت العمليات الحربية عند الشواطىء السورية .

الفصل الخامس عشر

بدء العمليات الحربية قرب بيروت . — ابراهيم يدخل الجبال . — معسكر للحلفاء في جونية . — الكومودور نيبير . — شعور الشعب في لبنان . — نجاحات الحلفاء . — احتلال الساحل السوري . — قضية بكفيا . — تراجع ابراهيم . — تسليح الجبليين . — سقوط الامير بشير . — اخطاء الحلفاء . — الاستيلاء على عكا . — الانتفاضة المتلاحقة للقبائل السورية . — الفوضى في فلسطين . — حشد الجيش المصرى في دمشق . — مصائبه . — خروج ابراهيم من دمشق .

فى مساء ٢٨ آب (اغسطس) انزلت الاعلام التى كانت ترفرف فوق قنصليات روسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا فى بيروت . وفى الصباح التالى قبل الشروق استقلت قوات الانزال قوارب التجديف ، وقد قطرتها البواخر اولا الى الرأس على الجهة الجنوبية من المدينة . ما ان اندفعت القوات المصرية الى هذه النقطة ، حتى فتحت عليها السفن نيران بطارياتها ، اما البواخر فاندفعت مسرعة بقوات الانزال نحو الشمال ، الى خليج جونية ، عند سفح لبنان ، على بعد قرابة ٦٠ كيلومترا عن بيروت ، حيث عثر الكومودور على موقع ممتاز للانزال . وفى غضون ذلك تقدم عدد من السفن على الاشرعة واحتل اماكن للرسو على امتداد الطريق المؤدى من بيروت الى جونية لعرقلة تحرك القوات الى تلك النقطة . وفى ساعة واحدة وصلت قوات الانزال الى هناك ونزلت مع المدفعية تغطيها البواخر والسفن التى هرعت على اثرها ، واجتاحت مخفر الالبانيين المرابط هناك تحت قيادة الامير مسعود ، نجل امير لبنان ، واخذت تتحصن على الرأس الملتف على الخليج قبل ان يستطيع

سليمان باشا ، الذى كان يراقب مسيرة الانزال من بيروت ، تمييز حركة العدو .

مهما كان الامر لن يكون فى وسع القوات المصرية قبـل اليوم التالى ، حينما تكون البطاريات والتحصينات قد اقيمت فى معسكر الحلفـاء ، القدوم الى هذه النقطة بمحاذاة البحر ، تحت نيـران السفن ، بـل غبر شعـاب لبنان الداخلية الصعبة . ولكن ابراهيم كان قد امر سليمان باشا بالذود عن بيروت الى النهاية . فمن شأن الاستيلاء على هذه المدينة ان يحدث فى الجبال انطباعا سيئا جدا بالنسبة الى المصريين . ان ابراهيم ، وقـد استلم القيادة العامة ، اقام ايضا مخازن للذخيرة فى بعلبك ، ثم انتقل مع احدى الفرق الى مدينة زحلة ، عند السفح الشرقى للبنان ، ومن هناك دخل الشعاب ببطء . كان يقود فى سورية جيشا قوامه ٧٥ الفا ، ولكنـه اضطر الى بعثرة قواه واحتلال كل النقاط التى كان يتوقع نشوب تمرد فيها بين ساعة واخـرى ، وقد سار فى هذه الحملة الصعبة كمن يتلمس طريقه ولم يتمكن من الظهور فى جونية فى الوقت المناسب ومهاجمة هذه الحفنة من جيش الحلفاء وقذفهـا الى البحر قبل ان تتحصن ، وقبل ان تشمل روح العصيان الجبال . ولا شك فى ان ابراهيم لو شن شخصيا هجوما سريعـا وقويا فى غضون الاسبوع الاول لقذف بجيش الحلفاء الى البحر ، ولاطال نجاحـه الصراع الذى كان يتوقف ، لظروف ذكرناها ، على انطباعات الشعب اكثر مـن اى شىء اخر . عوضا عن ذلك تباطأ ابراهيم وترك للحلفـاء مجالا ليحصنوا معسكرهم ، واعطى الاتراك وقتا ليبلوا من دوار البحر ويقفوا باقدام صلبة على التربة السورية التى بدت لهم سبع سنين على التوالى مسحورة تحت تأثير ابراهيم المخيف .

فى غضون ذلك صار الجبليون العزل فى القرى القريبة ، الذين لـم يجرؤوا فى الايام الاولى على ان يوجهوا انظارهم الى معسكر الحلفاء خشيـة المصريين ، يعرفون بانه توجد هناك ٢٠ الف بندقية لتوزيعها عـلى السكان السوريين تحت رايات عاهلهم الشرعى .. ان مماطلة ابراهيم التى لا تغتفر ، بل وغير المفهومة ، قد ساعدت على نجاح الحلفاء اكثر من كل التوقعات . اذ ان حفنة من جيش الحلفاء ، واثقة بتعاطف الشعب ، دخلت الشعاب بجرأة . وقبل حلول الليل بعد الانزال اندفعت سريتان الى قرية الزوق الواقعة عنـد سفح الجبل الذى كانت ترابط قربه الكتيبة المصرية مع ٦٠٠ البانى ، وفى اليوم الثانى اوغلت الدوريات المتقدمة تحـت امرة عمر بيه المقدام الى عنطورة ، على بعد قرابة ٥ كيلومترات عن المعسكر ، واحتلت المبنى المتين للدير الكاثوليكى ونصبت البطارية على مرتفع مجاور لثلاثة شعاب يمكـن للمصريين مهاجمة الساحل عبرها .

عند اول تحرك للمصريين ضد قوة الانزال رمت سريتان من سراياهـم

السلاح او انتقلتا الى الاتراك . ولكن الجيش التركى نفسه كان فى تلك الفترة قليل الثقة بنفسه حتى ان اومباشيا حاول مع ١٢ نفرا الانتقال الى العدو فى خلال المعركة . بدأت المعركة من الجانبين بالتعبير عن ذلك الشعور الذى بقى منذ قضية قونية الى نصيبين مستوليا على قبائل سورية واسيا الصغرى . ان قرب الاسطول وتعاطف المنطقة الهما فى هذه المرة الضباط الاتراك مزيدا من العزم ، فى حين ان المصريين ، الذين لم يكن عندهم سند سوى جيشهم ، حرصوا على تجنب كل ما من شأنه ان يزعج الجندى . فى غضون المعركة نفسها اعدم الفارون الاتراك بامر من عمر بيه ، وبعد ذلك ما لبث نجاح اول اشتباك مع العدو ان شجع الجيش وبعث فى الجندى التعلق والثقة براياته . وفى غضون ذلك فان الجبليين ، الذين كانوا قد فروا من غضب الامير الى جزيرة قبرص بعد تمرد الربيع ثم عادوا الآن مع جيش الانزال التركى ، اندفعوا الى الشعاب الشمالية فى كسروان واثاروا القرويين واقتربوا من موقع بزمار الذى يحتله المصريون . وحينما ارسل خلفهم للاستطلاع ضابط تركى مع دورية من النظاميين ، بعث اقترابه فى الجبليين من الجرأة ما جعلهم يهاجمون المصريين دون انتظار امر بذلك وازاحوهم وساقوا ٦٠٠ اسير الى المعسكر .

كانت قوات الحلفاء البرية تتكون من لواء تركى (٥٤٠٠ شخص) والفى انكليزى مع الاسطول وسرية نمساوية واحدة . وكان اللواء سليم باشا يقود الجيش التركى . وما لبث ان وصل من القسطنطينية عزت محمد ، الذى عينه الباب العالى باشا على عكا وصيدا ومنحه لقب سرعسكر سورية . وقد عهد الى الاميرال ستوبفورد بسلطة القائد العام لكل القوات البرية والبحرية للحملة السورية . وبسبب مرض آمر فصيلة الانزال السير تشارل سميث شغل مكانه فى تلك الفترة من الحملة الكومودور نيبير الذى كان يقود كل اعمال الحلفاء فى المعسكر .

كان هذا البحار الاعرج ، البدين والقصير ، ينطلق قبل الشروق حاملا عصاه ، والمسدس متدل من جيبه ، فيتسلق الصخور على بعد اربعة او خمسة كيلومترات عن المعسكر لتفقد المخافر الامامية ، وكان له من حيوية الطبع ، ومن النشاط والخلق القوى والمرح ما يتنافر تنافرا عجيبا مع عادة الكسل الوقور للقادة الاتراك . كان تصرفه الخشن المشوب بالمزاح مع الاتراك يهدف الى بعث النشاط فى جيش لم يعتد على الاعمال الشاقة لتحصينات المعسكر السريعة فى الارض السورية الحارقة ابان الحر المدارى الشديد .

باستثناء القرى التى احتلها جيش الحلفاء ، انتظرت الجبال بصمت عدة ايام على التوالى . ونادرا ما كان يتسلل قروى خفية الى معسكر الحلفاء ، وحينما يُسأل عن السبب الذى يمنع السكان من الهبوط حشدا الى هناك يتحدث

يهلع عن وجود ابراهيم فى الجبال ، عن التهديد الذى اطلقه باحراق القرى التى يختلس سكانها النظر الى جونية . كان يستحيل الشك فى كراهية الجبليين للحكم المصرى ، فى استعدادهم للانتفاض كتلة واحدة ، ولكن كان لترددهم ووجلهم مبررات كافية نتيجة لمحاولات الكومودور الفاشلة جدا امام بيروت ، قبل وصول الاميرال . عوضا عن ان يأتى الجبليون بانفسهم الى المعسكر ويشكلوا قوات شعبية تحت رايات السلطان ، دعوا جيش الحلفاء لطرد المصريين المرابطين فى منطقة القطاع المجاورة . وصارت ترسل الاسلحة الى القرى القريبة خلسة . ونفذ ابراهيم تهديده الرهيب فسلم بلدة بيت شباب الواسعة للنهب والنيران . كان ينبغى من اجل بعث النشاط فى الجبليين اما نشر دائرة عمليات القوات المتحالفة ، او تحطيم ابراهيم . ولكن ابراهيم بقى فى وضع المترقب ، وكان من الجنون دخول الجبال التى يحتلها قبل ان ينتفض الجبليون ، وكانت الموارد محدودة بحيث يستحيل الانتشار على مراى من الجيش المصرى .

ولكن البحر والبواخر منحت الحلفاء افضليات لا تقدر بثمن . لقد كيف الاميرال ستوبفورد لظروف المكان نظاما رائعا من الهجمات المتلاحقة السريعة والمفاجئة ، وبرر تماما توقعات سليمان باشا الذى كان مقتنعا باستحالة حماية ساحل شاسع من هجوم يأتى من البحر على اساس القانون الستراتيجى القائل باستحالة منع العدو ، حتى فى حالة التفوق فى القوى ، من عبور النهر حينما يستطيع ان يختار المكان على هواه ويتحين اللحظة للعملية الهجومية .

دمرت الحصون القديمة والبطاريات الرديئة فى بيروت دون ان ترد على السفن بطلقة واحدة ، ولكن الحامية بقيت فى الجزء الداخلى من المدينة تحت قناطر متينة ، وكانت المتاريس والخنادق تقطع الشوارع . وكان يستحيل على الجيش الاستيلاء على المدينة بدون خسائر كبيرة . وتابعت السفن قذفها ببطء ، وفى غضون ذلك جهزت حملات الى نقاط ساحلية اخرى فى سورية .

ان الحصن الرومانى فى جبيل (بيبلوس قديما) عند سفوح لبنان ، على بعد قرابة ٥٠ كيلومترا عن بيروت ، لم يصمد امام القنابل من عيار ٣٠ كيلوغراما التى كانت تقذفها الباخرة «سيكلوب» واجتاح الانكليز ، فاقدين ٢٠ شخصا بين قتيل وجريح ، الحامية الالبانية التى كانت تطلق من خلف الجدران المنهارة ، وسلموا الحصن للمتاولة المجاورين الذين كانوا يبحثون عن مجرد مناسبة ليتخلصوا من المصريين . واستولى الجبليون المنتفضون بمساعدة السفن على بلدة ساحلية اخرى ، وهى البترون (فوتريس قديما) . ولم تصمد الحامية المصرية فى طرابلس الا لان بُعد القلعة عن الشاطئ جعل الهجوم من البحر صعبا . ولكن دوى المدافع شجع مناطق لبنان الشمالية التى استمرت الاضطرابات فيها الصيف بطوله . وقاد الكومودور نفسه الحملة على صيدا . وبعد فتح ثغرة من البحر استولى على المدينة والقلعة

بالانقضاض (١٤ ايلول /سبتمبر) رغم دفاع الحامية العنيد . اما الارشيدوق الشاب فريدريك ، الذى كان يخدم فى الاسطـول النمساوى ، فقاد بنفسه الرتل فى الثغرة ، مذكرا رفاقه بان اسلافه قاتلوا الكفار تحت راية الصليب على الشواطئ السورية . ان صور ، تير قديما ، ملكـــة البحار ، المشهورة بدفاعها العنيد ضد البطل المقدونى ، لم تصمد ساعة امام السفن ، واستولى عليها ملازم انكليزى . . . ورفع الحلفاء راية السلطان فى حيفا ، عند سفح الكرمل ، على الالتواء الجنوبى لخليج عكا . وهكذا ، فان الساحل السورى ، باستثناء نقاط قليلة ، اعترف بحكم السلطان ، واخذت القبائل الداخليـــة تنحدر الى الشاطئ وتتصل بالسفـــن وتأخذ منها السلاح برغبـــة لنشر العصيان .

وجهت باسم السلطان الى اميـــــر لبنان الاوامر مرارا بترك المصريين والمساعدة على طردهم . ودعى الى المعسكر بوسائل اللطف والاقناع والوعود بالاعتراف بكل حقوقه ومنح الجبليين شتى التسهيلات ، ولكنه كان لا يزال يؤمن بطالع ابراهيم وبوعد الفرنسيين الذين كان عملاؤهـم يطوفون الجبال مؤكدين ان فرنسا قد اعلنت الحرب ، على حد زعمهم ، وسيهرع بين ساعة واخرى اسطولها وجيشها وملايينها الى مساعدة ابراهيم . فى تلك الفترة كان نفوذ الامير شديد القوة فى الجبال ، وكان يعتمد على الذكرى الحديثة العهـد للنقمات التى حلت بالشعب بعد عصيان الربيع . كان شيوخ الدروز ، مـع كل كراهيتهم للمصريين ، يذعنون للامير ، فى حين كان نظام القبائل الاقطاعى يضمن خضوع جمهور الشعب . وقد قادوا قواتهم الشعبية مع ابناء الاميـــر واحفاده الى رايات ابراهيم . ولكن القبائل المسيحية الحاقـدة على المصريين رغم انها كانت مدينة برخائها للحكم المصرى ، او ربما على وجه التحديد لان تلك الفترة من الرخاء ساعدت على ان تتطور فيها قبل الاوان الحياة السياسية غير الناضجة ، قد شملها التطلع الى العصيان فى كل ارجاء الجبال .

رأى الحلفاء فى هذا المزاج المضطرب للجبليين سمات حب الشعـــب للسلطان . ان اتجاه عصيان لبنان فى الربيع ، شأن الفتن والاضطرابات فى الجبال التى اعقبت اعادة حكم السلطان ، لا تكشف فى استعداد المسيحيين اللبنانيين نفسه للتسلح من اجل السلطان اخلاصا للسلطان ، بل تكشـف بصورة كافية وفرة المنابع الفوضوية ووهن النظام الاقطاعى – التيوقراطى فى الجبال تحت التأثير القديم للشهابيين والباشوات .

فى تلك الفترة ارسلت الحكومة الفرنسية الى سواحـــل سورية جنرال اخوّة العازيين للتأثير فى الجماهير بنفوذ رجـــال الدين . بعد ان اخفقت فرنسا فى حملتها الدبلوماسية لم ترسـل الى الشرق جيشا ، ولا اساطيل ، ولا خزينة ، كما كان ينتظر الباشا والامير المخدوعان بهتافاتها ، بل ارسلت جنرالا دينيا ، محولة الحق الذى منحتها المعاهدات اياه فـــى حماية الكنيسة

كاثوليكية الى اداة لسياستها ضد السلطان . ولكن هذه المهمة الدينية — السياسية لم يكن لها من نتيجة غير ترسيخ ايمان الامير الشيخ بالباشا المصرى . اما فى خصوص الجماهير الشعبية ، فان رجال الدين الكاثوليك كانوا مرغمين على ادراك عجزهم امام شعور الشعب .

كان اقرباء الامير انفسهم يأتون الى المعسكر الواحد اثر الآخر . وقد عُين ابن عمه الامير بشير القاسم بفرمان من السلطان اميرا * مكان الامير بشير الذى عزل لخيانته .

كانت عناصر التدمير تتجمع من كل مكان فوق الجيش المصرى . ومع انتشار التمرد تزايدت حالات الفرار ايضا : كان يأتى الى معسكر الحلفاء يوميا المئات من المجندين السوريين الفارين الذين لم يكن يربطهم برايات ابراهيم غير الخوف ، ومئات النظاميين الاتراك من لواء الانزال التابع للاسطول الذى حجزه محمد على . وحتى انه اكتشفت خيانة بين اكبر الضباط المصريين .

بعد حرق ونهب بيت شباب بقى ابراهيم فى وضع المترقب فى مرتفعات بكفيا ، على بعد قرابة ١٠ كيلومترات عن معسكر الحلفاء ليرغم الخوف من وجوده الجبال على طاعته . اقترب فصل الخريف ، ولم يعد ابراهيم يفكر فى العمليات الهجومية ، بل كان يرغب فقط فى اطالة الصراع عدة اسابيع وينتظر اول عاصفة تطرد الاسطول من هذه الشواطئ الخطرة . عندئذ يستطيع ان ينهك بدوره جيش الحلفاء غير المحمى من جهة البحر ويعاقب القبائل السورية على تمردها . وفى الواقع ، طلبت الحكومة الفرنسية ان يذود عن سورية ٦ اشهر فقط ، وتعهدت بالنتائج . ولكى يدرأ ابراهيم حالات الهرب ويبعث فى جيشه الحب له والثقة به ويبدد كآبة الجندى المصرى الذى تعود ان يعتبر قائده انسانا لا يقهر ، كان يتهكم بصوت مسموع على القوات التركية ويجعل انصاره القدامى يتحدثون عن وقائع حملة عام ١٨٣٢ ، حينما اباد ثلاثة جيوش على التوالى . وكان هو نفسه يعيش حياة المعسكر وينام على اللباد ويتغدى مع مرؤوسيه ، ولكى يبقى فى ذاته تلك الحالة المتوترة من المرح المصطنع ، كان يشرب الخمر بافراط . . .

ولكن الحلفاء ، الذين شجعهم النجاح وشعور السكان ، دخلوا الجبال وهاجموا موقع ابراهيم فى ٢٨ ايلول (سبتمبر) . وقد دعمهم العديد من فصائل الجبليين الذين سلحوا فى المعسكر ، ومع ان هذه الفصائل لم تساهم مساهمة فعالة فى المعركة ، الا انها ساعدت الحلفاء لكونها زادت من صعوبة

---

* بناء على ما ذكره عادل اسماعيل (Adel Ismail, Histoire du Liban du XVII-e siècle à nos jours, t. IV, Beyrouth, 1958, p. 105). اعلن هذا الفرمان فى ٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٠ . **المحرر** .

تحرك الجيش المصرى . وهذا الهجوم قـاده الكومودور نيبير وسليم باشا شخصيا . لقد رابطا بجيشهما على مرتفعات مقابل الموقع نفسه الذى يشغله ابراهيم ، وتحصنا بالمتاريس ونصبا بطاريـة مدفعية الجبال . وفى غضون ذلك دخلت الشعاب من جهة اخرى فصيلة ثانية تحت امرة العقيد عمر بيه وميليشيات جبليى الامير بشير القاسم ، والتفت حول موقع ابراهيم واستعدت لاحتلال مرتفعات هذه المؤخرة . ان جهل هـذه المناطق لم يمكن الضباط الاتراك من ان يدركوا على نحو افضل تحركاتهم سوية مـع الجبليين ، والا لاستطاعوا ان يأسروا هناك ابراهيم نفسه .

لم يصمد ابراهيم طويلا ، فقد فرت الميليشيا الدرزية التى كانت معه ، وشغل ألبانيوه بلا جدوى عمق الشعب الذى يفصل بين مواقـع الجيشين ، وتعرض هو نفسه مع الجيش النظامى لكل نيران المدفعية التركية ، فى حين ان المنطقة نفسها لم تمكنه من استخدام المدفعية . استولت الكآبـة على جيشه الذى يكتنفه من كل الجهات التمرد والشعاب الوعرة ، حيث يمكن ان يظهر الاعداء الخفيون بين ساعة واخرى من خلف الشجيرات او الصخور . ان الحركة الالتفافية للرتل التركى الذى بدأ يظهر فى المرتفعات من جهة مؤخرة ابراهيم ارغمته على الانسحاب على عجل قبل ان يتم احتلال الشعاب حوله . مع غروب الشمس امتطى عابسا جواده الذى رباه بنفسه ، فكان يطيع صوته ويتبعه بسهولة فى كل مكان فى حملاته ، وكأنه كلب . انحدر ابراهيم مع سائسه الزنجى عبر الممرات الصعبة الاجتياز الى منطقة المتن التى لم يتسرب فيها العصيان بعد . واذ مر عبر احدى القرى ، توقف عند نبع ليروى ظمأه . سأل القرويين : «ما الجديد عندكم ؟» اجابـه قروى ربما كان قد عرفه ، قائلا بابتسامة شامتة : «سمعنا ان ابراهيم انهزم وهرب» . ان ابراهيم الذى تعود سنوات طويلة التأثير فى مخيلة العرب بالرعب وحده لم يغير طبعه ، وامر السائس بان يقطع رأس الجبلى الوقح وشرب فى غضون ذلـك ببرودة اعصاب من الابريق الذى كان قد تناوله من ضحية غضبه .

تبعثر نصف الجيش الذى تركه ، ورمى النصف الآخر باسلحته . وفى الوقت نفسه انسحب سليمان باشا من بيروت * دون ان ينفذ تهديده بتفجير المدينة . وقد قصت القوة التى تم انزالها من السفن الانكليزية الفتائـل الموصولة بالسراديب المعدة للتفجير . وهبط الجيش التركى الى هناك على اثر اشتباك بكفيا . وضع احتلال بيروت ، التى انتقلت اليها قيادة الحلفاء العامة من جونية ، حدا لتردد الجبليين وخوفهم من اسم المصريين . وقد وزع من معسكر الحلفاء قرابة ٢٠ الف بندقية . وشكل امير لبنان الجديد قوات شعبية لحماية المدينة من هجوم معاكس قد يشنه المصريون ومساعدة الجيش

* فى ٩ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٤٠ . ــ **المحرر** .

حليف فى اعمالـــه الهجومية . كان ابراهيم لا يزال يشغل كل سوريـــة الداخلية ، ورغم المصائب التى حلت بـه كان لا يزال يقود جيشا جرارا . ولكن كان ينبغى استغلال الانطباعة الاولى للنجاح والعمل على نحو سريـــع وهجومى . اقترب الخريف ، وفى تلك الفترة اصبحت المساعدة من الاسطول امرا مشكوكا فيه اذا قام ابراهيم بعمليات هجومية ضد النقط الساحلية التى تبعثرت فيها قوات الحلفاء . ان حالة اوربا وتأجج الانفعالات فى فرنسا ، حيث لم تكن الحكومة لتستطيع كبح اندفاع الشعب الا بشق النفس ، امليا عـــلى الحلفاء الاسراع فى حل المسألة الشرقية مهما كلف الامر .

كان تسليح الشعب يدخل فى خطة الحملة على سورية التى شنها مدبروها معولين بالذات على ان قبائل سورية كانت تنتظر مجرد دعوة الى الانتفاضة . وقد دخل هذا الاجراء كذلك فى خطط السلطان محمود فى حملة عام ١٨٣٩ البائسة . ولكن فى بلد مثل سورية ، وفى عهد انتفض فيه العنصر الفوضوى على نحو جامح مع سقوط السلطة التى كانت تلجمه ، واستعدت فيه القبائل واحدة اثر اخرى لتحتفل بالعيد التهتكى لتحررها مـــن السلطة التى تمقتها ، ومتذرعة بحجة لائقة ، وهى الحماسة المخلصة لسلطانها ، كان خطر الدعوة الى العصيان امرا واضحا .

منح نظام المنطقة الاقطاعى الحلفاء وسيلة اكيدة لتشكيل قوات شعبية على اساس قانونى وفق روح وتقاليد القبائل السورية . بهذا فقط كان يمكن درء اراقة الدماء فى لبنان ونابلس بعد طرد المصريين والبلبلة العامة عند عودة السلطات التركية الى كل ارجاء سورية . عوضا عن تسليم كل شيـخ على مسؤوليته كمية من الاسلحة تناسب عدد الاشخاص الذين يستطيـــع تقديمهم الى الحملة ، وزعت الاسلحة من المعسكر بـــلا تمييز ، وحتى بلا جرد ، على كل من كان يأتى . وفى الوقت نفسه كانت السفن التـى تتجول للاتصال بالقرويين ترسل الى الشاطىء فى كل النقاط المؤاتية ضباطا شبابا لتسليم القرويين العابرين صناديق البنادق . لـو امكن عزو هذا الخطأ الى الباشوات الاتراك وحدهم لما كان ثمة ما يدعو الى الدهشـــة ، فالباشوات ، ولاسيما فى السنوات الاولى من الاستيلاء على سورية لم يفعلوا شيئا غيـــر الحماقات ، ولكن ما يدهش هو ان الانكليز انفسهم ، الذين كان ينبغى لهم ان يتوقعوا عواقب مثل هذا التسليح الاعتباطى للجماهير ، قد ساعدوا على ذلك بالدرجة الاولى – حينما ابلغ ابراهيم بهذا لم يخـــف سروره . وقال : «لقد قدمتُ خدمة كبرى الى السلطان بنزع سلاح القبائل السورية ، والآن يُحكم باسمه على السلطة فى هذه البلاد بالعجز» .

ان ابراهيم ، وقد اجتاز الجبال وحيدا مع سائسه يهدده خطر مزدوج من الممرات الزلقة المعلقة فوق الهاوية ، ومن سخط الشعب الذى تعقبه بعـد هربه وكان يمكن ان يدركه ، انحدر الى زحلة على الجانب الآخر من لبنان .

وهناك امرت بالتحشد كل الفصائل المصرية التـــى انسحبت من الجبال وخد الساحل ، وما لبث ان تشكل فى الموقع الحربى معسكر مروع بالنسبة الى لبنان يضم ١٥ الف شخص مع ٣٠ مدفعا . وتلقت الحامية القوية التى كانت تشغل طرابلس حتى ذلك الحين ، امرا بالجلاء عن المدينة والقلعة والتراجع الى بعلبك على الجانب الآخر من الجبل (٦ تشرين الاول /اكتوبر) . وكذلك استدعيت الحاميتان من اللاذقية واسكندرون او ازاحهمـــا هجوم من البحر . وهكذا تحققت توقعات سليمان باشا ؛ لم يستطع المصريون الصمود فى اى مكان من الساحل عند بدء الحملة مباشرة ، باستثناء عكا وحدها التى استعدت لأعند دفاع .

فى غضون الاسابيع الاربعة الاولى اصبح فى معسكر الحلفاء ١٠ آلاف من الاسرى والفارين المصريين ، اما نصف لواء الاسطول ، الذى تحدثنـــا عنه ، فقد دخل باكملــــه تقريبا تحت رايات عاهله . وفـــر المجندون السوريون ، الذين كانوا فى الجيش المصرى ، ما ان سنحت لهم الفرصـــة لذلك . وبامر من الباب العالى ، وعدوا بان تدفع لهم مـــن خزينة السلطان الرواتب التى لم يقبضوها ، وينبغى التنويه بان محمد علي الذى شرع فى امر لا يتفق وموارده ، كان يترك فى تلك الظروف المعقدة ســـــواء جيشه او ادارته المدنية بلا رواتب ١٠ اشهر و١٢ شهرا على التوالى . وجد ابراهيم نفسه فى خلال الحرب محكوما عليه بان يطوق افواجه النظامية بالالبانيين والبدو درءا لفرارها . فى ذلك الوقت كانت قواته فى سورية موزعة عـــلى النحو التالى : كان فيلق من ١٥ الفا مرابطا فى اورفا ومستعدا لتنفيذ تهديد محمد علي لآسيا الصغرى ، وكان ٧ آلاف يحتلون مناطق طوروس ويحمون شعاب غولق بوغاز من جيش السلطان الــــذى كان احتياطيا للفيلدمارشال حافظ . وكان يوجد فى انطاكية التى انسحبت منها حاميات الساحل عدد يصل الى ٧ آلاف . وكانت حاميات حلب وحماة وحمص تضم حتى ٦ آلاف . وكان ثلاثة آلاف يحتلون دمشق ، وكانت فى عكا حاميـــــة تضم قرابة ٤ آلاف ، وكان هناك ما يصل عدده الى ٤ آلاف فى يافا وعسقلان وغزة والقدس .

لقد سبق واشرنا الى المعسكرين فى زحلة وبعلبـــــك ، والى الاسرى والفارين . ان ابراهيم المضطر الى تفتيت جيشه الجرار درءا للتمردات لـــم يتخل بعد عن تهديده الباطل بالحملة على آسيا الصغرى ولم يستدع فيلقه الامامى المرابط فى اورفا . كان ذلك خطأ ستراتيجيا خطيرا ، لانه كان مـــن الجنون التفكير فى حملة على آسيا الصغرى ، اذ كانت كل سورية تغلى خلفه بالعصيان والحرب ، وكان لا بد فـــى حال تقدمه مـــن ان يصطدم بالحراب الروسية .

بعد اشتباك بكفيا ادرك الامير بشيـــــر ان المصريين فقدوا كل شيء .

حدر مع اسرته وخزينته الى صيدا ليلتمس العفـــو عنه * . ولكن فات الاوان ، ونقل بامر من الاميرال الانكليزى الى مالطا لوقايـــة الادارة الجديدة فى لبنان من مساعيه ونفوذه . لم يشك احد فى عدالة هذا التدبير ، فقـــد خان امير لبنان عاهله الشرعى منذ امد بعيـــد بتحالفه مع الباشا المتمرد ، ولم تكن صيحاته الزاعمة انه كان مع اسرته فى قبضة ابراهيم تستحق اى اهتمام . والاصح هو ان ابراهيم وجيشه فى الجبال كانا فى سلطة الامير . ولكن هل كان عزله وطرده يقومان على اعتبارات سياسية مجردة ، وعـــلى معرفة صحيحة بالاشخاص والطباع والاحداث والمؤثرات ؟ لقد نوهنا بالعلاقات المتبادلة بين الامير ومحمد علي . كان التعاطف والاخلاص والميل وكل شيء بين هاتين الشخصيتين يخضع للمصلحة الشخصية . تكفى دراســـة ظروف انتفاضة الجبليين الاخيرة لتقدير اخلاص الامير للباشا . واذا كان قد ساعد ابراهيم بحمية ضد الاتراك ، فذلك لمجرد شعـــوره بان ابراهيم لا يقهر ، ولاسيما حينما رأى اية وسائل اعدها الحلفـــاء لانتزاع سورية منه . هذا بالاضافة الى انه صدق هتافات الفرنسيين المحيطين به ، وحيث انه شهـــد حملة بونابرت على سورية ، فقد توقع حملة فرنسية جديدة . ولكن منذ ان اقتنع بخطأ حساباته وغادر رايات ابراهيم ، صار يمكن الركون الى غيرتـــه على السلطة الجديدة وتوجيه نفوذه وخبرته اللذين اكتسبهما على مدى نصف قرن فى مصلحة ارساء دعائم حكومة السلطان فى سورية . ومما زاد مـــن ضرورة ابداء كل تسامح مع الامير انه ظهرت سمات للفوضى وان الانكليـــز كانوا فى ذلك الوقت على قناعة بالعجز الكامل للسلطات التركية الجديدة ، وبانعدام التجربة لديها ، وبتجردها المؤسف من الاخلاق . ان سلطة الامير فى الجبال النابعة من نظام الامبراطورية القديم لم تعد ، والحق يقال ، تتفق والقواعد الجديدة التى يسترشد الباب العالى بها . ولكـــن ما الداعى الى ان يدمر قبل الاوان وبالعنف الصرح المتداعى من تلقاء ذاته ؟ لا شك ، انطلاقا من روح الشعب التى تجلت فى لبنان لدى انحطاط الحكـــم المصرى ، فى ان هذه القبائل ، التى شكت من طرد اميرها الشيخ بمرارة فيما بعد وطلبـــت عودته باصرار ، كانت ستطيع به من تلقاء نفسها قبل مضى سنة واحدة .

وهكذا ، فى اروع فتـــرة من الحملة السوريـــة ، وسط النجاحات المتتابعة لسلاح الحلفاء ارسى منفذو معاهدة لندن الاسس المشؤومة لكـــل الشرور التى اجتاحت سورية فيما بعد واعطوا فرنسا ذريعة لتقوم بتهجمات جديدة على اهداف المعاهدة ووسائلها وبرروا حجتها حول عجز الاتراك عـــن ادارة سورية وارغموا الدول المتحالفة عـــلى التدخل مجددا فى شؤون هذه المنطقة .

---

* فى ١٢ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٤٠ . ــ **المحرر** .

وفى غضون ذلك هرع الشيوخ مع وفود الشعب من المناطق الداخلية الى معسكر الحلفاء للاعراب عن طاعتهم للسلطان واستعدادهم لحمل راياته وبقى انجاز مأثرة الاسطول بالاستيلاء على عكا لتدمير آخر حصن معنوى للسلطة المصرية فى سورية .

فى ٢١ تشرين الاول (اكتوبر) بعد الظهر ظهر امام هذه القلعة كل اسطول الحلفاء تحت امرة الاميرال ستوبفورد . وكان فيه ٣ آلاف من جيش الانزال التركى التابع لسليم باشا . وفى غضون ذلك احتلت فصيلة من الفى شخص كانت قد انحدرت من صيدا وصور الممرات الجبلية للرأس الابيض الى الشمال من عكا مع ميليشيا المتاولة المجاورين . ورسا الاسطول الانكلو - نمساوى مع هبوب ريح مواتية على شكل خط منحن بمحاذاة بطارية الساحل . وقبل ذلك باسبوع تمكنت باخرة انكليزية من قياس عمق المياه بحيث استطاعت السفن الاقتراب الى مسافة ٨٠ مترا تقريبا من القلعة . ووقفت مجموعة سفن اللواء البحرى ووكر التركية على مسافة اقرب الى القلعة ، ضمن مدى طلقات البنادق ، ولم يكن الماء تحتها يتجاوز القدم عمقا . لم يكن المصريون ينتظرون هجوما جريئا كهذا . وكانت كل مدافعهم مسددة الى مسافة ابعد بما لا يقاس . ولم يتمكنوا من تقويم خطئهم فى غمرة الاضطراب ، حينما فتحت السفن نيرانها .

كانت عكا مسلحة بمئتين وتسع وعشرين مدفعا بينها ١٠٠ او ١٠٥ فقط من جهة البحر . ضد هذه المدافع المئة المصوبة بشكل ردىء ، صب اسطول الحلفاء المزود بالف مدفع نيران احد جانبيه ، اى نيران ٥٠٠ مدفع يبلغ عيار بعضها ٩٦ رطلا . جرى اطلاق النار بسرعة خارقة وبلا توقف ، وكأنها فى التدريب ، بحيث لم يبق فى النهاية متسع من الوقت لصب الماء على المدافع المتوهجة من العمل . فى غضون ثلاث ساعات اطلق على المدينة ٥٠ الف قذيفة وقنبلة ، فى حين ان تسعة اعشار الطلقات من القلعة كانت تطير عاليا فوق السفن دون ان تسبب لها اى اذى تقريبا . وقد سمعت الطلقات فى بيروت التى تبعد اكثر من ١٣٠ كيلومترا على خط مستقيم . فى خلال العملية انفجر مستودع البارود الذى كانت حمايته من القنابل تتسم باستهتار شديد . كان المنظر مروعا ، ففى خلال عشر دقائق تقريبا طغى الظلام على المدينة والساحل والاسطول ، وصمتت المدافع . وقتل فى الانفجار قرابة الف شخص من الحامية . ثم فتح الاسطول النار من جديد . وقد حطم العدد الاكبر من البطاريات ، وانتاب الذعر المدفعيين . ومع غروب الشمس صمتت القلعة تماما ، وتوقفت السفن كذلك عن اطلاق النار . فى منتصف الليل اتاها قارب بنبأ مفاده ان القومندان محمد بيه مع ٥٠٠ شخص من الحامية ومع الخزينة غادروا المدينة فى اتجاه يافا . فى الصباح احتل الحلفاء عكا ، حيث عثر على كمية ضخمة من الذخيرة من مختلف الانواع ، وعلى قذائف وبنادق وكل مدفعية

السلطان التى استولى عليها ابراهيم فى نصيبين . ان القلعة التى تعرضت للحصار مرارا منذ ان اسسها ضاهر ، شيـــخ الجليل ، لم تصمد فى هذه المرة سوى ثلاث ساعات ضد الهجوم الصائب ، الامر الذى ينبغى توقعه . ووصلت خسائر الحامية الى ١٧٠٠ شخص . وبلغ عدد القتلى والجرحى فـــى الاسطول اقل من ١٠٠ ، ولم تصب السفن باى عطل جدى . ولكن فى اليوم التالى بعد احتلال المدينة ، حيث كان يشتعل بشكل خفى تحت اكوام الانقاض والجثث حريق مخزن البارود المتفجر ، وصلت النار الى مستودع آخر تحت الارض وحدث انفجار جديد اودى بحياة ما يربو عـــلى ١٥٠ شخصا من جيش الحلفاء .

عند وقوع هذه الكارثة اصيب بجرح خفيف الجنرال تشارل سميث الذى قاد الحملة البرية بعد الاستيلاء على بيروت والذى لم يفعل فى خلال الحملـة كلها شيئا غير المشاريع الحمقاء . وكان السرعسكر التركى عزت محمد قد جرح ايضا عند دخول قوات السلطات فى بيروت . انه لم يساهم فـــــى المعركة ، وابتهاجا بالنصر اطلق عيارا من مسدسه فـــى الجو ، ويبدو ان المسدس امتنع عن الاطلاق ، ولكن حينما وضعه ثانية فى القراب اخترقت الرصاصة عظمه . واستلقى عزت محمد منذ ذلك الحين . ان شراستـــــه الفطرية ، التى كانت مجاملته للحلفاء تلجمها حتى ذلك الحين ، تجاوزت كل لياقة تحت تأثير الالام الجسدية والضجر الداخلى لانه كان فى خلال الحملـة كلها يحمل لقب سرعسكر من غير ان يتمتع باية سلطة .

كان اختيار الجنرالين ، الانكليزى والتركى ، فاشلا للغاية من كـــــل الجوانب . وتجلى هذا اكثر ما يكون حينما ابتعدت الحملة البرية عن الاسطول ولم يعد الاميرال ستوبفورد يستطيع تسيير اعمالها مباشرة . لقد غرقت فى الفوضى ، بدون خطة مشتركة ، وحتى بدون ارادة وبدون فكرة واحدة ، هذا فى حين كانت قوة الظروف جبارة للغاية ، والصاعقة التى تجمعت على امتداد سبع سنوات فى سورية انقضت على الجيش المصرى بحنق تكلل معه سلاح السلطان بنجاح كامل لم يكن يستحقه .

وفى الواقع ، ما ان تم الاستيلاء على عكا حتى اطاحت قبائل جبليـــــى نابلس المحاربة ، وكل الجليل حتى الاردن ، وكـــــل بلاد المتاولة ولبنان الشرقى بالسلطات المصرية وهرعت الى تقديم ولائها للباشوات الاتراك حتى بدون اية محاولة من جانب الحلفاء . وانتفض فى كل مكان الشيوخ الذيـــن اذلهم او طردهم الحكم المصرى ، ووجدوا الجماهير الشعبية مستعدة للاستجابة لندائهم . وعلاوة على الاسلحة التى وزعها الحلفاء ، حصل الشعب عـــلى بنادق كثيرة من الفضائل المصرية الهاربة او المحطمة ، وكل من اخفى بندقية فـــى زمن الملاحقات المصرية اخرج دفينته من الارض . واحتل الشيخ سعيد عبد الله باسم السلطان الناصرة وطبرية وصفد ورابط مع ميليشيا من السكان

المحليين على الاردن عند جسر يعقوب على طريق مواصلات ابراهيم مع مصر . وشيوخ طوقان الفارون من المصريين الذين ساعدوا منافسيم آل عبد الهادى اثاروا نابلس بسهولة ، وما لبث آل عبد الهادى انفسهم خانوا ابراهيم لكى لا يفقدوا نفوذهم المحلى ووسائل استئناف الصراع المتوارث ضد الطوقانيين . واثار الشيخ عبد الرحمن عمرو ، الذى حكم عليه ابراهيم بالموت منذ امد بعيد ، جبليى اليهودية واحتل حبرون معهم .

هكذا كان التأثير المباشر لسقوط قلعة عكا . واقتنع ابراهيم باستحالة متابعة خوض الصراع على سورية واخذ يفكر فى انقاذ جيشه . وصدرت على الفور اوامر الى كل الفصائل والحاميات المصرية المرابطة فى سورية الشمالية بالتحشد فى دمشق من اجل العودة الى مصر . واندفعت كل هذه الفصائل الى هناك لا تلوى على شيء وقد استولى عليها الذعر ، وكان العدو يلهث فى اعقابها . دمرت المستودعات الحربية على عجل ، ودفنت مدافع تحصينات غولق بوغاز او اسقطت فى الهاوية ، ولدرء حالات الفرار فى اثناء المسيرات السريعة قطع الضباط بايديهم رؤوس الجنود الذين كانوا يتخلفون عن الارتال بسبب المرض او التعب .

استفاد البدو والتركمان والاكراد المتنقلون فى هذه المنطقة من الغنيمة المصرية ، كما استفادوا قبل ذلك بسنة ونصف من الغنيمة التركية بعد معركة نصيبين . فى ذلك الوقت طلب شيوخ مناطق لبنان الشمالية من السرعسكر كتيبة من المشاة النظاميين و٦ مدافع ليتوغلوا مع الميليشيا فى الوادى الممتد من البحر الى حمص بين لبنان وجبال النصيرية ويقطعوا الطريق الى دمشق على الفصائل المتجهة الى ابراهيم ويرغموهما على رمى السلاح . صحيح ان هذه الفصائل كانت تشكل بمجموعها قرابة ٢٥ الف شخص ، ولكن نظرا للذعر الذى يتملكها لم يكن اقتراح الشيوخ يخلو من الاساس . وهذا الاقتراح لم ينفذ بسبب الخلافات بين الجنرال سميث وعزت محمد باشا .

فى غضون ذلك لجأت حاميتا يافا والقدس ، اللتان اكتنفهما عصيان القرويين وخشيتا انتفاضة المدينتين نفسيهما ، الى غزة التى تمكن محمود بيه قومندان عكا من الاحتماء بها . تسلم اللواءان ابراهيم بيه واسماعيل بيه قيادة فلول الفيلق المكون من ٩ آلاف شخص الذى كان عند بدء الحرب يحتل فلسطين والذى بقى منه الآن فى غزة ما لا يتجاوز الثلث . وطوق اكثر من ١٠ آلاف قروى مسلح هذه المدينة على امل الانتقام وطمعا بالغنيمة . ولحسن حظ المحاصَرين ، كان معهم فوج فرسان ممتاز ، فاستطاعوا الحصول على المؤونة بغارات على القرى المجاورة .

وكادت يافا والقدس ان تصبحا غنيمة للقرويين الثائرين ، وكانت فلسطين كلها فى فوضى مطلقة . ان ثروة اديرة القدس تثير فى كل ازمة

سياسية جشع سكان الجبال المجاورة . حينما تنهار فى تركيا السلطة التنفيذية للباشوات والمتسلمين ، تحل مكانها حتما السلطة القضائية النابعة من سلطة السلطان الروحية . وقد انقذ المنلا ، كبير قضاة القدس ، باوامر حكيمة المدينة المقدسة من خطر اكيد . اما يافا ، التى انهال عليها سيل من القرويين عقب انسحاب الحامية المصرية ، فقد انقذها نفوذ نائب قنصلنا الذى توجه اليه السكان بالاجماع ، مسلمين ومسيحيين ، فى انتظار سلطات السلطان وجيشه . ان الجيش التركى ، الذى عزز فى ذلك الوقت بفصائل من ١٢ الفا وصلت بالتتابع من القسطنطينية عبر البحر ، لم يكد يسعفه الوقت ليحتل النقاط العسكرية المهمة التى كانت تستسلم له من تلقاء ذاتها . وفى غضون ذلك عاث الفلاحون فسادا فى فلسطين مدة شهر كامل ، وبعد ان نهبوا كل ما وجدوه بعد انسحاب القوات المصرية ، اخذوا ينهبون ويذبحون بعضهم البعض ويصفون حسابات الثأر والدم القديمة التى اجلت فى عهد الحكم المصرى .

مع انسحاب الفصائل المصرية من المناطق الشمالية الى دمشق ، انحدر جيش تركى قوامه ١٥ الفا عبر شعاب طوروس الخالية الى سورية تحت قيادة احمد زكريا باشا الذى عين مكان عزت محمد . وعزل كذلك الجنرال سميث لعدم كفاءته واتى مكانه الجنرال ميتشيل . سُلم الانكليز المحور الرئيسى للعمليات الحربية فى الحملة كلها مع انه لم يكن يساهم فى الحملات البرية بعد اعادة جيش الانزال الانكليزك الى الاسطول سوى ٤٠٠ جندى انكليزى . اقنعت تجربة الماضى الباب العالى بان تشكيل كتائب من الميليشيات القديمة اسهل بكثير من جعل الباشوات جنرالات ، وكان واضحا ان النجاح فى هذه الحملة التى تهدف الى تطهير بلاد تقطعها الجبال فى كل الاتجاهات وتكتنفها الصحراء والبحر على الجانبين من الجيش المعادى القوى يتوقف على المناورات الصائبة اكثر مما يتوقف على تعداد الجيش . وعين رئيسا لاركان الجيش التركى الجنرال يوخموس ، من مواليد هامبورغ ، الذى كان قد خدم فى فرقة المتطوعين فى اسبانيا ، ثم قبل فى الجيش التركى مع منحه لقب باشا بالتماس من الانكليز . فى منتصف تشرين الثانى (نوفمبر) انسحب ابراهيم باشا من سهل البقاع الى دمشق وسارع الى احتلال موقع متقدم فى مزيريب على الطريق الى مكة . وقد حطم تجمعا للدروز وبدو حوران الذين كانوا يضايقون اجنحته ، واخذ منهم مؤونة وإبلا للحملة واجرى محادثات مع بدو البادية الكبرى لتزويد نقاط معينة بالمؤونة . وعمل قرابة شهر لاعادة تشكيل جيشه الذى كان لا يزال ، رغم كل المصائب التى تعرض لها ، يضم حتى ٦٠ الف جندى * . فى حين كانت الفصائل التركية التى

---

* ثمة اقوال كثيرة عن الخسائر الفعلية لجيش ابراهيم سواء قبل الانسحاب

دخلت سورية على اثر السرعسكر الجديد ، ولاسيما الالبانيون والباشي بزق ، يعيثون فسادا فى الطريق وينهبون القرويين الذين استقبلوا رايات السلطان بحماسة ، قوى ابراهيم ، وهو يستعد لمغادرة سورية ، الانضباط في جيشه وعامل الشعب بالحسنى . وعوضا عن ان يصب غضبه على سكان دمشق الذين كان يعرف جيدا ميولهم المعادية له ، صانهم على نحو ابوى من اية اساءة يرتكبها الجنود . لم تكن عنده خيم ، والقوات التى لم تجد لها مكانا فى الثكن والمساجد كانت ترابط بالدور فى معسكرات فى ضواحي المدينة ، محتمية على نحو ما تحت الاشجار من امطار الخريف المنهمر . فى كانون الاول (ديسمبر) حل برد غير مألوف ونزل الثلج واشتد الصقيع فى الليل ، وضنى الجنود فى المعسكرات بملابسهم الخفيفة واحذيتهم الرديئة ومعاطفهم الممزقة ، ولكن ابراهيم لم يقدم على انزالهم فى بيوت الافراد ، اذ ان مبيت العسكريين فى بيوت الناس لا يتفق ابدا والاخلاق الشرقية ، وقد امرهم بتمضية الليالى فى الشوارع المسقوفة لاسواق دمشق . واضيفت الخيانة الى كل هذه المصائب ، فقد انتقل الى الاتراك الكثير من الضباط الذين تمتعوا باحسانه واحسان ابيه . وقد عاقب الخونة في دمشق . وفى فترة حفلاته التهتكية المسائية تدحرجت عدة رؤوس على رخام فناء البيت الذى كان يشغله . اما شريف باشا نفسه ، الذى كان حاكم سورية والذى رفع محمد علي من قدره واغناه ، فقد اقتصر ابراهيم على اعتقاله عندما انفضح اتصاله السرى بالاتراك .

بعد انقضاء النهار الحافل بالمشاغل ، كان ابراهيم يقضى ليله فى تهتك وعربدة ، ثملا بالنبيذ والحقد . وبناء على اوامر من سليمان باشا كانت هذه المناظر تخفى بعناية عن الجيش . وتحت تأثير النبيذ تأجج قلب ابراهيم غير مرة رغبة فى الانتقام من السوريين لخيانتهم ، فكان يأمر باباحة المدينة للنهب ، ولكن سليمان باشا كان يرقده فى السرير ويحرسه ليلا خشية ان تتكرر الاوامر ذاتها فى غيابه .

قسم الجيش الى ثلاثة ارتال ، وقد تحرك الرتل الاول فى مستهل كانون الاول (ديسمبر) تحت امرة سليمان باشا . وكانت هذه الفصيلة بمثابة خفر لزوجات الجنود واطفالهم وللمدفعية الثقيلة ، ولم تكن تضم اكثر من ٥ آلاف شخص من الجيش . وقد توجهت الى الجنوب مباشرة ، على الطريق الى مكة ، وحينما اصبحت بموازاة السويس انعطفت الى الغرب ووصلت الى مصر

من سورية او فى خلال هذا التراجع القاتل . من المميز انه كانت توزع فى دمشق حينذاك . حسب قول المفوضية ، ٦٥ الف وجبة طعام . يمكن ان نفرز من هذا الرقم ٦ او ٧ آلاف من زوجات الجنود واطفالهم الذين كانوا يتبعون الجيش وينال الواحد منهم وجبة او نصف وجبة . هذا بالاضافة الى ٣ آلاف شخص كانوا فى غزة .

بسلام ، ولم تفقد فى الطريق سوى نصف دواب النقل وجزء من المدفعيـــة وبضع مئات مـــن الزوجات والاطفال والجنود الذيـــن ماتوا من الاعياء . وبعد ذلك ، فى ١٧ كانون الاول (ديسمبـــر) ، انطلق الرتلان الآخـــران تحت قيـــادة الفريق احمـــد المنيكلى باشـــا وابراهيم نفسه . فـــى الساحة ودع ابراهيم سكان دمشق واوصاهـــم بان يبقوا هادئين وينتظروا السلطات الجديدة والا يثوروا والا يسيؤوا الى المسيحيين . واضاف وهـــو يمتطى جواده ويهدد باصبعه : «والا عدت من منتصف الطريق وحاسبـــت العصاة» .

الفصل السادس عشر

نية الباب العالى القضاء على محمد علي . — رعونة تصرفاته . — تغير اتجاه فرنسا السياسى وبيانها . — لعبة تيير وتقريـــر الاميرال الفرنسى . — وزارة غيزو . — تحصين باريس . — خوف محمد علي . — معاهدة الكومودور نيبيـــر . — خطلهـا . — رضوخ محمد علي . — عناد الباب المالى والحديث المميـز للوزير الاعظم . — فرمان العفو . — حيل الاتراك والحل النهائـــى للقضية المصريـــة . — معاهدة المضائق . اهمية هذه الوثيقة بالنسبة الى روسيا . — هفوة الاتراك الدبلوماسية ورد الامير مترنيخ .

كان تحرير سورية من محمد علي واعادة السلام الى الشرق هدف معاهدة لندن . وكانت لمحمد علي ، علاوة على مآثره الحربية التى تجلت فى جرأته ونجاحاته ، خدمات مدنية كبرى ، وقد اتسم وسط فوضى التحولات فـــى الشرق باتجاه تدابيره الاساسى والراسخ . واذا وجدت الدول الكبرى مـــن الضرورى فى عام ١٨٤٠ وضع حدود عادلة لنيات الباشا المصرى الطموحة ، فانها لم تقصد ابدا القضاء على محمد علي . لم يفهم الديوان القضية على هذا النحو . ان الديوان ، اذ تشبث بنظام محمود الممركـــز ، ولكن من غير ان يعمل ابدا وفق اساليبه ووفق درجة قدراته لتطبيق المركزة والوحدة فى كل ارجاء الامبراطورية ، رأى فى معاهدة ١٥ تموز (يوليو) مناسبة مؤاتية من اجل التدمير النهائى للصرح الـــذى شيده هذا المتحدر مـــن الروملى فى مصر البعيدة ، خارج اطار استنبول السياسى . وقد ادرجت سورية الآن فى هذا الاطار وفق قرار الدول الكبرى . كان على الباب العالى قبل فتح عملية جديدة فى مصر ان يبرر القرار الذى اتخذ فى صالحه ، ولم يكن يستطيع تبرير هذا القرار الا بتطبيق ادارة جيدة فى سورية . وقد اعربت الحكومة الروسية عن شكها فى هذا منذ عـــام ١٨٣٩ ، حينما اجرى ممثلو الدول الكبرى فـــى القسطنطينية محادثات مع الباب العالى حول ظروف الاقتسام السلمى مع محمد

علي . والآن ، بعد مرور ثماني سنوات ، هل تمكن الباب العالى من تبديد تلك الشكوك التى بدت حينذاك مهينة لكبريائه ؟

لقد رد على الرفض الثانى لمحمد علي بعد انقضاء فترة الاثنى عشر يوما بفرمان حول عزله من باشالك مصر ، واذ شرع فى غزو سورية ، اضاف على الفور الى القاب السرعسكر عزت محمد لقب والى السلطان المفوض فى مصر . جاء فى الفقرة السابعة من الوثيقة المنفصلة التى ادرجت فى اتفاقية ٣ (١٥) تموز (يوليو) انه اذا لم يوافق محمد علي بعد انقضاء فترة اثنى عشر يوما على اقتراح الحكم الوراثى لمصر ، يستطيع السلطان اتخاذ التدابير التى يراها «وفق مصالحه الخاصة وبالتشاور مع حلفائه» . ولكن الاجراء الذى اتخذه الباب العالى لم يقم على المصالح الحقيقية للامبرطورية ، ولا على رأى الحلفاء. لعل نزواته هذه قد وجدت تغاضيا فى الانفعالات الزهيدة للدبلوماسى الذى كان فى تلك الفترة يسيّر سياسة استنبول * . ادانت كل الوزارات هذا الاجراء بالاجماع ، اما فرنسا فاستعدت بنشاط للحرب واعلنت ان تنفيذ تهديد الباب العالى هذا ضد محمد علي سيكون بالنسبة اليها casus belli.

مهما كان خطأ الباب العالى شنيعا ، فقد ساعد على حل القضية تدريجيا ، لان فرنسا ، وقد تخلت عن ادعاءاتها فى مصلحة محمد علي بالنسبة الى سورية ، اقتصرت على مصر ، وكان هذا يتفق تماما ومقاصد الدول الاخرى . وغطت الحكومة الفرنسية بخطاب حاسم ، صاخب ، وكأنما لارضاء غرور الشعب الذى اهانته معاهدة لندن ، الاعتدال السديد لاتجاهها السياسى ** . وانطوى على اهمية اكبر بهذا الخصوص تغيير الوزارة التى ظهرت فى ايار (مايو) عام ١٨٤٠ وسط غليان الانفعالات الشعبية فى الربيع ، اى وزارة تيير الجامحة التى صخبت الصيف بطوله وسقطت فى تشرين الاول (اكتوبر) على اصداء اطلاق النيران فى السواحل السورية . واذ اقامت الحكومة التى سقطت حساباتها على وهم القوة المادية لمحمد علي واسقطت من اعتبارها تزعزع حكمه القسرى فى سورية ، كانت على قناعة بان الصراع فى الشرق سيستمر ، وبان قرارات الدول المتحالفة ستلقى عوائق هناك ، وارادت تحين الوقت لتتدخل فى القضية بالحرب او المفاوضات . وعند بدء العمليات الحربية هرعت الى استدعاء اسطولها الى طولون بعد ان مخر المياه العثمانية مدة سنة ونصف .

كان الاميرال لالاند يرغب فى الحرب ويأمل فى غسل عار الاهانات التى

---

* المقصود بونسوبى ، سفير انكلترا فى القسطنطينية . ـ **المحرر** .

** بمناسبة البيان الوزارى حول ضمان فرنسا الوجود السياسى لمحمد علي ، جوبهت حكومة تيير عام ١٨٤١ فى مجلسي البرلمان بهذا الصراخ : « لقد اندفعتم بجرأة ، ايها السادة لتحطموا بوابة مفتوحة على مصراعيها » ، انطلاقا من ان الدول المتحالفة لم تكن من جانبها ترغب ابدا فى طرد محمد علي من مصر .

ظلت الراية الفرنسية تنالها من الراية الانكليزية على امتداد نصف قرن . فى تقرير كتبه تحت انطباع النيران التى اطلقت عند السواحل السورية ، طلب الذهاب الى هناك ليبيد الاسطول الانكليزى وتعهد بالنجاح . اضاف قائلا : «اما اذا اصرت الحكومة على صيانة السلام ، فينبغى دعوة الاسطول فورا والحرص على تجنب لقاء السفن الفرنسية والانكليزية خشية ان تطلق المدافع الملقمة من الجانبين من تلقاء نفسها» .

كانت تخوفات الاميرال الفرنسى اكثر وجاهة من ثقته بالنصر . وفى الواقع كانت الكراهية الشعبية فى تلك الفترة تهدد باشعال الحرب رغم ارادة الحكومتين . لم يكن ثمة مجال للشك فى ان الملك والوزارة على حد سواء كانا يريان ضرورة السلام خشية ان يجرا على فرنسا جملة من المصائب الداخلية والخارجية الجديدة ويوقعا فيما بعد معاهدات اكثر اذلالا من معاهدات عام ١٨١٥ التى كانت تصرخ ضدها فى ذلك الوقت انفعالات الجمهور العمياء . ولكن المبادىء الاساسية للحكم الدستورى لم تمكن من الاسترشاد بالفكر السليم وبمصالح الدولة فقط . لقد تمكن تيير من ان يلعب قبل سقوطه اكثر اللعب الدستورية اجراما : لكى يتملق الانفعالات الشعبية صور نفسه نصيرا للحرب مع قناعته الراسخة بان الملك الحكيم لن يوافق ابدا على اشعال الحرب . لقد اراد بهذا ان يضمن لنفسه تعاطف الجمهور ويضع على الملك وعلى خلفه المسؤولية عن صيانة السلام ويكتسب سمعة وطنى فى الصحف ويصنع لنفسه سلاح المعارضة فى اوج الانفعالات الشعبية ويمهد لذاته على هذا النحو طريق العودة الى السلطة .

حل غيزو المتزن مكان تيير المندفع وباشر العمل الشاق لحل كل ما عقده سلفه . وفى الوقت نفسه كان نجاح حل المسألة الشرقية بدون فرنسا وعلى الرغم منها وصلابة الوزارات والشعور الذى ابدته الشعوب فى صدد تهديد السلام الاوربى قد نسفت احلام عام ١٨٣٠ واقنعت فرنسا بانها لم تعد تملك كهف ايولوس وتتحكم بالرياح كما تشاء وبان تجربة الماضى علمت اوربا الحذر من دعواتها الثورية . وعوضا عن ان تهدد اوربا بالحرب ، اخذت تفكر فى حماية نفسها . وخصص المجلسان ٦٠٠ مليون فرنك لبناء تحصينات حول العاصمة التى استولت عليها القوات المتحالفة مرتين فى عامى ١٨١٤ و١٨١٥ . هذا الاجراء الدفاعى ، الذى دعمته فى مناقشات المجلسين بلاغة تيير ، نصير الحرب ، نفسه قد ساعد كثيرا على تهدئة استياء العقول وتبديد الاشباح التى كانت تعمى الرأى العام .

بعد بدء العمليات الحربية عند السواحل السورية علل محمد علي نفسه بالامل فى ان يتمكن ابراهيم وعكا من اطالة امد الصراع فى سورية الى ان تتشابك الامور فى اوربا وتشتعل حرب عامة . ان النجاحات السهلة للجيوش الحليفة والشعور الذى ابدته القبائل السورية ، من جهة ، وسقوط تيير ،

من الجهة الاخرى ، اعادت الشيخ العنيد الى صوابه واقنعته بان عبء الحرب يقع على عاتقه وحده . لم يعد يجوز التفكير فى الحملة على آسيا الصغرى ، حينما صار ينبغى له ان يدافع عن نفسه فى مصر وينتشل ابنه من سورية . وشرع بنشاط فى تحصين الاسكندرية من البحر ، وكذلك النقاط الساحلية الاخرى فى مصر . استخدم فى هذه الاعمال الطواقم الموحدة لاسطولـه واسطول السلطان ، واعد للحرب قوات شعبية شكلت على نحو ما فى القاهرة والاسكندرية وجهز حملة جديدة على سورية . وفى خلال هذه الاستعدادات بعث برسالة شكر الى الملك الفرنسى على البيان الذى اصدره حول الوجود السياسى لمحمد علي ، وتعهد متباهيا بانه قادر على الذود عن سورية كلها ، والتمس ان يبقى له بوساطة فرنسا باشالك عكا وجزيرة كاندى على الاقل . وكانت هذه الرسالة كلها تعبق بالاخلاص لفرنسا والاستعداد لاتباع نصائحها .

بعد عدة ايام وصل خبر سقوط عكا . وبحضور حاشيته والكثير من الاجانب صب غضبه على القنصل العام الفرنسى ، واتهم فرنسا بمرارة بكل مصائبه وبكل اخطائه . وارسل اربعة سعاة الى سورية بطرق مختلفة يحملون امرا الى ابراهيم بالانسحاب من هناك دون اضاعة دقيقة واحدة ، قبل ان يقطع طريق العودة .

كانت السفن الانكليزية قد حاصرت الاسكندرية منذ بعض الوقت ، الا انها اقتصرت على منع وصول الاعتدة الحربية مع السماح باخراج الاغذية من مصر . بعد الاستيلاء على عكا توجه الكومودور نيبير ، الذى يعد لنشاطه مجال عند الشواطئ السورية ، الى مصر لتعزيز الحصار . وما ان ظهر امـام الاسكندرية حتى دخل بمبادرته الخاصة فى محادثات مع الحكومة المصريـة بحجة الالتماس لاطلاق سراح الشيوخ اللبنانيين الذين جرى نفيهم الى سنّار بعد انتفاضة الجبليين فى الربيع . وبعد عدة ايام عقد الكومودور بدون اى تفويض من حكومته ولا حتى من الاميرال معاهدة وقعها فى ١٥ (٢٧) تشرين الثانى (نوفمبر) هو نفسه وبوغوس بيه ، وزير خارجية محمد علي . وبناء على هذه المعاهدة القائمة على النصيحة التى قدمتها الدول الكبرى الى الباب العالى بمنح محمد علي حقوقا وراثية فى مصر وبالغاء الفرمان الخاطئ حول عزله ، تعهد الباشا ، اولا ، بان يستدعى قواته من سورية فورا ، ثانيا ، بان يسلم اسطول السلطان ما ان يعترف الباب العالى له بالحكم الوراثى لمصر ، ولكن على ان تضمن الدول الكبرى حقوقه وحقوق اسرته . ووعد الكومودور بدوره ان يوقف باسم الاميرال العمليات الحربية ويسمح بانتقال جيش ابراهيم من سورية الى مصر عبر البحر .

هذه المعاهدة الخاطئة باسسها وشكلها رفضتها الحكومة الانكليزيـة واحتج عليها الباب العالى العثمانى . وفى الواقع ، اعطى الكومودور نيبير فى هذه الحالة برهانا جديدا على رعونته فى قضية تتجاوز نطاق مواهبه الحربية .

لقد قامت معاهدة لندن على تعهد الدول المهيب بالحفاظ على وحدة واستقلال حقوق السلطان العليا ، فى حين ان ضمان الدول الاوربية لحقوق التابـــع المصرى دون اعتبار للسلطان كان بحكم المعاهدة التى وقعها نيبير انتهاكا لحقوق السلطان العليا . وعلاوة على ذلك ، فان تقليعة كهذه فى القانون الدولى يمكن ان تؤدى الى مضايقات خطيرة حتى بالنسبة للدول الاوربية حيث تفرض عليها فى المستقبل واجب السهر الدائم على الشؤون الداخلية للامبرطورية العثمانية .

بقى على محمد علي ان يخضع بلا قيد او شرط لعاهله الشرعى وينتظر منه الرحمة ، ومن وساطة الدول الكبرى تدبير الشؤون المقبلة لحياته وحياة اسرته . وكلفت وزارات الحلفـــاء ستوبفور بتبليغ محمد عـــلي بهذه النصيحة . وفى اواخر تشرين الثانى (نوفمبر) اعرب الباشا اخيرا عن طاعته برسالة الى الوزير الاعظم . لم يقترح محمد علي اية شروط ، ولم يطلب كفالة احد ولم يستشهد الا بوعد نيبور بان تتواسط الدول الكبرى له ، واعلن بخضوع ان ابنه بدأ الانسحاب من سورية ، وان اسطول السلطان معـــد للتسليم الى من يُؤمر لنقله الى العاصمة ، وطلب الصفح من عاهله . من المميز على اى حال ان هذه الرسالة التى تعبر عن خضوع محمد علي الفعلى لم تتضمن حتى نصف عبارات الاخلاص الشديد المألوفة التى كانت تزخرف ، كزهور بيانية ، رسائله السابقة لتغطية اطماعه المتغطرسة بمجاملات الاسلوب الشرقى .

اذا كانت نجاحات سلاح الحلفاء قد ارغمت التابع المصرى على الخضوع ، فان كل جهودهم الدبلوماسية ، من الجهة الاخرى ، كانت ضرورية لاقنـــاع الباب العالى بقبول خضوعه كما تقتضى معاهدة لندن . انه ، وقد ارغم على التخلى عن حلمه المفضل بالقضاء التام على التابع المصرى ، تحايل عدة اشهـــر على التوالى لتقييد تنازلاته باصرم شروط واعداد ذرائع لائقة لتحقيق هدفه فى المستقبل حينما سلم القبطان الانكليزى فانشار رسالة محمد علي الى الباب العالى اجابه الوزير الاعظم رؤوف باشا ببرودة اعصاب مألوفة : «باكالوم» ، وهى الكلمة التى تشكل عتلة عظيمة لمناورات استنبول السياسية ، ونوه بان تسلم الرسالة من يد القبطان لا يعنى ان الباب العالى قبل طلب محمد علي . واعلن القبطان بعد ذلك ان الباشا تعهد بكلمة شرف بان يسلم الاسطول لمن يأمر به الباب العالى لنقله الى العاصمة . ورد عليه الوزير : «الاسطول اسطولنا ، والاسكندرية منطقتنا ، وسيعود الاسطول الى هنا حينما تريد ، ولا ضرورة للحديث عن هذا» . ان القبطان ، الذى كان يعرف جيدا ان الحرب لا تزال مستمرة فى سورية ، نوه ، اخيرا ، بان ليس من الردىء التعجيل فى عقد الصلح . استاء الوزير من هذا التعبير واضاف بديماغوجية ان «الصلح يعقد بين حكومتين ، لا بين عاهل وتابع متمرد» .

هذا هو شأن الاتراك ، او ، بالاحرى ، هذا هو شأن الانسان . هل مضى زمن طويل منذ ان كانت الحكومات الاوربية تسعى جاهدة الى تشجيع حكومة ترتعد فرائصها عند كل شائعة كاذبة عن تحركات جيش ابراهيم ، حكومة مستعدة لان تمرغ وجهها بالتراب امام التابع المنتصر ؟ . ما ان ابتسم القدر للحكومة التركية بايماءة من الدول الكبرى ، وما ان حرر ساحل سورية ، على الرغم من ان كل المنطقة الداخلية كانت لا تزال فى سلطة ابراهيم ، وعلى الرغم من ان جيشا قوامه ٦٠ الفا كان لا يزال يحتل دمشق (كان ذلك فى الايام الاول من كانون الاول/ ديسمبر) وكان يسهل عليه فى خضم مفاجآت الحرب ان يجتاح جيش السلطان الذى لا يجاوز ٢٠ الفا ، حتى استغرقت الحكومة التركية فى احلامها وكأنها فى ازمنة جبروتها ولم تعد تريد حتى مجرد الحديث عن السلام .

وبالحاح من ممثلي الدول الكبرى وافق الباب العالى على خضوع محمد علي وارسل الى مصر مظلوم بيه يحمل فرمان العفو ، وياور باشا (القبطان ووكر) لاستلام الاسطول . بيد ان الباب العالى ، فى اصراره على رأيه ، حاول اطالة الخلاف وصمت عن الحق فى الحكم الوراثى . وفيما بعد حينما ارغمته الدول الكبرى بكلمتها الصارمة على الافصاح ، بقى امدا طويلا يساوم على تقييد الحقوق الممنوحة . كان الاسطول قد نقل الى القسطنطينية * ، وسلمت كاندى ، وطهرت سورية وشبه جزيرة العرب من القوات المصرية ودخلت تحت سلطة السلطان ، ولكن المحادثات لم تنته . واذ غاب عن انظار الباب العالى ان اكثر مصالح الدولة جوهرية تملى عليه ان ينهى خلاف المسلمين العائلى هذا ويزيل على هذا النحو مضايقات تدخل الدول الاوربية فى شؤونه السياسية الداخلية ولو جزئيا ، اطال بادعاءاته الخاطئة حكم الدول الاوربية عليه واثار عطفها العادل على محمد علي .

وفى الواقع ، هل كان يستطيع الموافقة على مطالب الباب العالى بان يعين فى كل مرة بالشكل الذى يراه ويختاره الباب العالى خلفا للحاكم المصرى من بين افراد اسرته ، وبالا ترد الى خزينة السلطان اتاوة معينة ، وبل ربع كل دخول مصر التى يريد الباب العالى ان يراقب موظفوه جبايتها ومحصلتها ميدانيا ؟ لقد رفض محمد علي رفضا قاطعا القبول بهذه الشروط التى تغدو مصر بتأثيرها مسرحا لدسائس الديوان المقبلة واسرته ضحية لها . اخذ مجددا

* ابقى الخائن فوزى باشا فى مصر بامر من الباب العالى . وبعد ثلاث سنوات قتل بالسم خلافا لوعود غولخان شريف المدعمة بالقسم حول الغاء الاعدامات السرية . كان الخائن قد ادرك منذ زمن طويل ، انطلاقا من المعاملة القاسية التى كان يبديها له محمد علي ، الذى صالح الباب العالى باخلاص ، ان مصيره محتوم ، ويؤكدون انه حينما قدم الخادم اليه السم فى الشراب ، ذاقه وعرفه من طعمه وسأل عما اذا كانت الجرعة كافية حتى لا يتعذب طويلا .

يشكل جيشه ويتحصن فى الاسكندرية ،مستعدا فى هـــذه المرة للدفاع المستميت .

ان تفاصيل المحادثات ، التى اضطلعت فيها بدور هام الانفعالات الشخصية لبعض الوزراء العثمانيين والدبلوماسيين الاوربيين ، لا علاقة لها بموضوعنا . وسنذكر بايجاز القرارات النهائية للباب العالى التى وافق عليها فى ايـــار (مايو) عام ١٨٤١ ممثلو الدول الكبرى .

تم التنازل لمحمد علي عن الحق فى الحكم الوراثى لمصر والنوبة ودارفور وكردوفان وسنّار بمثابة والى مفوض للسلطان مع منع متابعة الغارات على هذه المناطق الاخيرة لجلب الارقاء ومنع تحويل هؤلاء الارقاء الى طواشية .

وحددت الوراثة لاكبر الذكور فى سلالة الابن البكر مع استبعاد الاناث تماما فى حال انقطاع ذرية الذكور .

اصبح باشا مصر مساويا مـــن حيث المرتبة للوزراء الاخرين فـــى الامبراطورية ، ومنح الالقاب الفخرية نفسها والنيشان نفسه (شعار مـــن الالماس) .

تشمل قواعد خطى شريف غولخانى مصر ، اما فى خصوص التشريعـات الاخرى فقد ترك للباشا ان يكيفها لمناطقه قدر الامكان .

تسرى كل معاهدات الامبراطورية العثمانية مع الدول الاخـرى على مصر حتما . وننوه هنا بان هذا الشرط ينطبق فى الغالب على المعاهدة التجاريـة الجديدة التى الغت الاحتكارات والالتزامات فى كل ارجاء الامبراطورية . هذه المعاهدة ، التى املتها انكلترا فى عام ١٨٣٨ ، كانت موجهة فى الغالب ضد باشا مصر لان كل دخوله كانت تقوم على نظام احتكارات لا حصر لها .

حددت الاتاوة التى تدفع الى خزينة السلطان بثمانين الف كيس (قرابة ٢١٥٠ الف روبل فضة) . ومنح الباشا الحق فى ان يسكّ العملـــة باسم السلطان .

يشكل جيشا قوامه ١٨ الفا القوة البرية لمصر ، وينبغى الحصول على اذن مـن السلطان عند بناء سفن عسكرية جديدة . وهذه القوات تخضع فـــى الخدمة للسلطان ، ولا يسمح باى تغيير فى الاعلام وشارات الرتب . ويترك للباشا الترفيع الى رتبة عقيد .

وهكذا انتهى فى الشرق بتأثير الدول الكبرى النزاع الطويل بين السلطان وتابعه الذى اقلق كل العقول فى عام ١٨٤٠ . لقد استبعدت الدول الكبرى محاولات فرنسا للوساطة ، ونفذت احكام معاهدة ١٣ (١٥) تموز (يوليـو) عام ١٨٤٠ .

ان فرنسا المضطرة الى التخفيف من صيحاتها مع نجاح الحملة على سورية ونجاح المحادثات بين السلطان والباشا اعترفت على نحو سديد بحقائق الشرق التى تمت بدون مساهمتها واستوعبت لاول مرة درسا سياسيا كبيرا بعـــد

انقلاب عام ١٨٣٠ . وهكذا ، فان فرنسا ، التى رأت نفسها ، نتيجة اخطائها وبلاغة الثرثارين الجوفاء فى المجلسين والصحف ، بلا حلفاء وبلا تعاطف شعبى على المستوى السياسى كله ، والتى اهانت اسبانيا ذاتها باعلان الوزير الذى سقط نيته احتلال جزر باليارس ، والتى حكم عليها منذ بدء اشتعال الحرب بفقد ممتلكاتها الافريقية ، والتى لم تثق بنفسها عند التدهور المدمر لديون الدولة ، بحثت عن حجة وجيهة لوقف النزاع العقيم فى صدد قضية محمد علي الذى اذعن لمصيره * . وباقتراح من الوزارة الروسية دعت الدول المتحالفة فرنسا الى المساهمة فى عقد معاهدة لاغلاق مضيقى بحر مرمرة .

وقعت هذه الوثيقة فى لندن [١٣/١ تموز/يوليو] عام ١٨٤١ بين روسيا والنمسا وانكلترا وبروسيا وفرنسا والباب العالى العثمانى . وهى تشكل اكثر النتائج ايجابية لكل احداث الشرق السياسية والمحادثات اللاحقة فى صددها بين الدول الاوربية . وساعدت تعابير المعاهدة نفسها على تهدئة الخواطر بعد تهديدات عام ١٨٤٠ . وقد جاء فيها ان الدول الكبرى ، نظرا لقناعتها بان اتفاقها يشكل بالنسبة الى اوربا افضل عربون للسلام - هذا الهدف المنشود لجهودها الدائمة - واعرابا عن اتفاقها ، اعترفت بالقانون القديم للامبراطورية العثمانية حول اغلاق الدردنيل من جهة والبوسفور من الجهة الاخرى فى وجه الاساطيل الحربية ؛ وتعهدت بالتقيد بهذه القاعدة التى دخلت القانون الاوربى العام .

بمعاهدة عام ١٨٤١ اعترفت اوربا كلها بان البحر الاسود بحر داخلى بين روسيا وتركيا . وبمناسبة الحرب السورية الاولى ارست روسيا عام ١٨٣٣ فى معاهدة اونكيار اسكيليسى اساسا جيدا لهذا القانون الذى الزم تركيا باغلاق الدردنيل فى وجه الاساطيل الحربية لكل الامم ** . عقدت هذه المعاهدة لمدة ثمانى سنوات ، وما كادت تنتهى حتى اتت الحرب السورية الثانية والظروف السياسية فى الشرق واوربا لتجر من تلقاء نفسها الدول الكبرى الاخرى الى الاعتراف بالاساس الذى ارسته روسيا وادخاله فى القانون الاوربى العام ، وهو اساس يلائم سواء السياسة السديدة او القوانين الازلية

* ان سعر سندات الدولة ، التى تقدم بفائدة خمسة فى المئة ، قد هبط فى عدة ايام فى ظل التخوفات من الحرب من ١٢٠ و١٢١ الى ١٠٠ ، كما فى عهد الكوارث الوطنية تماما . ومشروع احتلال جزر باليارس ، التى سمحت اسبانيا للفرنسيين بان يقيموا فيها مشفى عسكريا لجيشهم فى افريقيا ، لم يكن له وجود على الاطلاق . ويؤكدون ان احد الوزراء من رفاق تيير اخترع هذه الحجة فى كلمة ارتجلها فى مجلس النواب عام ١٨٤١ ليبرر استدعاء الاسطول من الشام .

** نشير الى ان الاتراك ارغموا الانكليز ، بعد المحاولة الفاشلة للاميرال ديوكوورت (عام ١٨٠٨) ، على ان يعترفوا باغلاق المضيقين فى وجه السفن الحربية ويوقعوا بهذا المعنى معاهدة القسطنطينية فى ٥ كانون الثانى (يناير) عام ١٨٠٩ . (يقصد بازيلى بالمحاولة الفاشلة للاميرال ديوكوورت العمليات الحربية للاسطول

للطبيعة . ان الطبيعة نفسها ترشد كل دولة وكل شعب الى حدود وطرق نشاطهما بمجرى الانهار احيانا ، وبسلاسل الجبال احيانا اخرى ، وبموقع الشواطئ والبحار فى احيان ثالثة . لم تخمد بعد صيحات الغرب الحسودة ضد وثيقة اونكيار اسكيليسى ، فى حين ان مكسب روسيا السلمى والمنزه ساعد على وضع حد للاضطرابات التى اجتاحت الغرب وكادت ان تقذف بكل اوربا فى هاوية مصائب لا تحصى .

ننوه ايضا بظرف آخر يمكن ان يعزى على اساس راسخ للغاية الى الآثار الطيبة لازمة عام ١٨٤٠ السياسية وللوثيقة الاوربية التى انهت هذه الازمة . يتذكر الجميع وضع فرنسا الداخلى من عام ١٨٣٠ الى عام ١٨٤٠ واضطراباتها على امتداد هذا العقد وصراع الاحزاب وجملة المؤامرات والتمردات والاعتداء على حياة الملك الذى لم يتجاوز السابعة عشرة من العمر وجملة الوزارات العاجزة التى كانت تتعاقب بسرعة الديكورات المسرحية وتضنى فى حمأة الانفعالات الشعبية . ولا شك فى انه لو لم تكن لدى فرنسا فى ذلك العقد ميادين فى افريقيا لاراقة فائض دمها المتقد لما انقذتها حكمة الملك ، ولا وطنية الطبقة المتنورة والفاضلة من الغزوات على الرين وايطاليا ، ومن الحكم الذى ستطلقه نيميزيدا الشعب بعد ذلك . لم تكن دروس عام ١٨٤٠ منقذة بالنسبة الى الحكومة الفرنسية فحسب ، بل كانت منقذة بدرجة اكبر بالنسبة الى غريزة الشعب ، فقد عززت هذه الدروس وزارة غيزو ومبادئها الواقية ومنحت بعد عهد نابليون وال بوربون برهة ثالثة من البحبوحة والسلام لجيل حكم عليه بان يُكفر باقسى المحن عن فترة الكفر والاهوال التى دنست مهد ومسيرة ابائه فى اواخر القرن الثامن عشر .

تلكم هى النتائج المباشرة للدراما التى مثلت منذ عام ١٨٣٢ امام اوربا اليقظة على الشواطئ الشرقية للبحر الابيض المتوسط . وقد انتهى فصلها الاول بمعاهدة اونكيار اسكيليسى ، وفصلها الثانى بتعهدات الدول الاوربية المتبادلة التى اعربت عنها فى مذكرة ١٥ (٢٧) تموز (يوليو) ، وفصلها الثالث بتنفيذ المعاهدة المتعلقة بسورية . ويمكن اعتبار معاهدة المضيقين خاتمة لهذه الدراما السياسية . واذا كنا قد رأينا فى بعض مشاهدها

الانكليزى ضد تركيا فى شباط (فبراير) عام ١٨٠٧ (وهو يضع تاريخ عام ١٨٠٨ خطأ) ، حينما عبرت عمارة انكليزية تحت امرة الاميرال ديوكوورت الدردنيل واقتربت من القسطنطينية . وطلبت انكلترا من الحكومة التركية ان تقطع علاقاتها بفرنسا وتعقد معاهدة تحالف معها وتضع تحت تصرفها طوابى الدردنيل (كانت الحكومة الانكليزية تخشى ان تحتل روسيا ، التى تحارب تركيا ، منطقة المضيقين) . واذ اطالت الحكومة التركية امر المحادثات ، حصنت طوابى الدردنيل على عجل . ولما لم يحقق الاميرال ديوكوورت نجاحا ، عاد بعمارته الى البحر الابيض المتوسط . المحرر .

الاسطولين الانكليزى والنمساوى فى مقدمة مسرحنا ، فانه لا يخفى على انظار اى مراقب متمعن المغزى العظيم الذى اكتنف عقدة الاحداث هذه من اولها الى اخرها ، المغزى الذى تجلى فى الخاتمة .

قصرت روسيا عملها المادى على ظهور اسطول البحر الاسود وفرقة الانزال فى البوسفور عام ١٨٣٣ . ولكن فيما بعد خضعت كل احداث الشرق بالضرورة لمعاهدة اونكيار اسكيليسى ؛ واقتصرت الاعمال الحربية فى عامى ١٨٣٩ و١٨٤٠ تحت تهديد هذه المعاهدة على سورية ؛ ولم ترق قطرة دم روسى واحدة ولم تنفق اية مصاريف ، وحينما كان الغرب فى عام ١٨٤٠ يغلى بالاستعدادات العسكرية ، وحينما كانت تنفق المليارات ، لا الملايين ، وتعقد القروض ويتدهور قرض الدولة فى كل مكان ، كانت روسيا تراقب من عليائها المطمئنة مسيرة الاحداث واستقرار كفة الميزان التى وضعت عليها سيفها الثقيل ، وفى الساعة المحددة عززت حقوقها المشروعة فى البحر الاسود بوثيقة اوربية . وهذا المكسب سوف يُقدر حق التقدير حينما يحول اخضاع القفقاس وتطوير المواطنية فى مناطق ما وراء القفقاس تلك السواحل الخيرة الى سوق ملائمة للتجارة الاوربية والآسيوية التى ستأخذ مجددا ، بناء على القوانين المجهولة لحركتها الدورية ، طريقها القديم عبر البحر الاسود وبحر قزوين لا تصالات الشمال والغرب بآسيا الداخلية .

نختتم ملاحظاتنا هذه بحادثة طريفة عن هفوة دبلوماسية للوزارة العثمانية اضافة الى كل اخطائها التى اتسمت بها فترة انخراط تركيا فى مجال النظام السياسى الاوربى . فى غمار المذكرات والبروتوكولات والمعاهدات التى كان وزراء السلطان البالغ ثمانى عشرة سنة من العمر يتبادلونها مع اوربا حينذاك ، قاموا بمحاولة اقتراح ينص على ان تضمن الدول الاوربية الكبرى الامبراطورية العثمانية بتعهد مشترك . وهذا ما كتبه الامير مترنيخ ردا عليهم فى ٢٠ نيسان (ابريل) [حسب التقويم الجديد] عام ١٨٤١ :

«فكرة الديوان القائمة على اساس خاطئ غير قابلة للتحقيق من الناحيتين المعنوية والمادية على حد سواء . وهى خاطئة لانه لا ينبغى لدولة ابدا ان تقبل ، ومن باب اولى ان تطلب من دول اخرى خدمة كهذه لا تستطيع بدورها ان تقدمها على اساس المعاملة بالمثل . والدولة التى تقبل خلافا لهذه القاعدة خدمة من هذا النوع تفقد افضل ما فى استقلالها . الدولة الموضوعة تحت كفالة غيرها تخضع ارادتها لمن يتعهد بمسؤولية الحماية . لان الكفالة لا تكون فعلية الا اذا اقترنت بالحق فى الحماية ، واذا كان الحامى الواحد مرهقا ، فان الكثيرين يشكلون بمجموعهم عبئا لا يطاق . ثمة شكل واحد معروف لتحقيق هدف الكفالة مع تجنب مضايقاتها ، وهو الحلف الدفاعى . فهل هذا ما يريده الديوان ؟ فليتقدم باقتراحاته ، ولكن من المستبعد ان يمكن عقد الامل على قبول اقتراحات من هذا النوع . . .»

الفصل السابع عشر

انسحاب الجيش المصرى من سورية والتصرفات الغريبة للجنرالات الاتراك . — عناد ابراهيم ومحن جيشه الرهيبة . — اعتداؤه على القدس . — تنبؤاته للاتراك . — مرضه وانتقاله الى مصر .

سبقت القضايا السياسية وآثار الاحداث السورية فى حديثنا الفترة الاخيرة من حملة عام ١٨٤٠ وانسحاب الجيش المصرى من سورية . الا ان كل العمليات الستراتيجية فى تلك الفترة ، ولاسيما الاعمال الهجومية لجيش السلطان ، غرقت فى فوضى يكاد من المتعذر معها تتبع هذه العمليات باهتمام . يجب ان نختصر هذا الحديث ، متجنبين اى عرض انتقادى للاحداث . ننوه فقط بان كل جهود الجنرالات الاتراك كان يجب فى ظل اتجاه الحرب والمحادثات حينذاك ان تنصب على حماية مواقعهم الساحلية من جيش يتخبط كيفما اتفق ، وكأنما اصيب بالشلل ، على امتداد الشريط الداخلى الصحراوى ، منسحبا من دمشق الى مصر . كان ينبغى حسب التفكير السليم والقوانين المقدسة للبشرية ، عوضا عن مقاومة مسيرة المصريين ، ان يخلى لهم الطريق للتوصل بمزيد من السرعة وبدون الامعان فى اراقة الدماء الى السلام المنشود والاقلال قدر الامكان من اضطراب القبائل السورية التى ظهرت ميولها الفوضوية على نحو جامح فى فلسطين .

ولكن القيادة العامة استجابت للإنفعالات نفسها وللآمال نفسها التى اعمت ديوان القسطنطينية الذى كان يحلم حينذاك ، كما رأينا فى الفصل السابق ، بالقضاء التام على باشا مصر . كانت ارادة الدول المتحالفة ، التى شُنت الحملة على سورية تحت رايتها ، ونظرتها الى العلاقات المتبادلة بين الباب العالى ومحمد علي معروفتين للجميع ، فى حين ان العمليات الهجومية للجيش التركى كانت تزداد نشاطا وشراسة مع نجاح المحادثات السلمية .

عهد بفرمان صدر فى الايام الاولى من رمضان (فى اواخر تشرين الاول/

اكتوبر عام ١٨٤٠) الى الجنرال يوخموس ، الذى كان حتى ذلك الحين رئيسا للاركان ، بقيادة الجيش العامل ان نجاحات الحملة على سورية تحت قيادة الضباط الاوربيين بعثت فى الباب العالى نشاطا جديدا لمقارعة اوهام شعبه الدينية وشعبه نفسه . ولاول مرة انطلقت قوات الاسلام المظفرة ، المنصورة ، تحت قيادة مسيحى الى الحرب المقدسة ، لان الحرب تحت رايات الخليفة تعتبر مقدسة على الدوام ، وكانها طقس دينى على اساس وصية مشرّع الاسلام ذى الروح القتالية ومما اثار ذعر المتزمتين الشديد ان التطاول على الدعائم الدينية القديمة وعلى الشعب قد جرى فى ليالى رمضان المباركة . . . لقد رأينا كيف ان مصائب الامبرطورية بعثت فى السلطان والاعيان العزم على ان يصموا بالمروق من خلال تحالفهم مع المسيحيين صراعهم ضد الباشا المؤمن الذى اتهم بالمروق لتمرده على خليفة النبى . وحينما برر النجاح هذا التحالف فى نظر الشعب ، اخذ الخلف الشاب للسلطان المصلح ينفض بمزيد من الجرأة الاوهام الاساسية التى لم يجرؤ ابوه على مسها . ومن الجهة الاخرى ، فان الجيش ، اذ عزا انتصاراته الى وجود الضباط الاوربيين الذين قادوا تحركاته ، صار يخضع لهذه البدعة برغبة اشد ، ولاسيما ان سرعسكر سورية احمد زكاريا باشا لم يكن يفقه فى الستراتيجية شيئا .

قبل انسحاب ابراهيم من دمشق انتقل الجنرال يوخموس مع اركانه الى حاصبيا فى كانون الاول (ديسمبر) ليراقب من ذرى لبنان الشرقى تحركات الجيش المعادى . وقد بنى خططه على افتراض ان ابراهيم باشا استمر باحتلال سورية بهدف دعم مطامع ابيه فى المحادثات مع الباب العالى وضمان شروط افضل بالنسبة الى مصر . على اساس هذا الافتراض ، الذى لم تؤكده ، بالمناسبة ، اية وقائع ، اخذ الجنرال التركى يهدد بقطع طريق العودة على الجيش المصرى . وقامت فصائل خفيفة من الاكراد والبدو ، الذين هرعوا بطيبة خاطر الى الانضواء الى رايات السلطان لينتفعوا بالغنيمة المصرية ، بغارة على مزيرب ، حيث كان يوجد مستودع مؤونة وعلف جيش ابراهيم ، فهبوا وابادوا جزءا منه الى ان طردهم الخيالة المصريون . كان ذلك قبل انسحاب ابراهيم من دمشق بيومين . وفى غضون ذلك تحركت القبائل الحورانية المعادية له ، واخذ الانسحاب يزداد صعوبة من ساعة الى اخرى . وطرح ابراهيم هذا السؤال على المجلس العسكرى : ما هو الطريق الافضل للانسحاب — عبر سورية وسط فصائل العدو والسكان المعادين الى غزة او عبر الصحراء . ان ضباطه جميعا ، الذين يعرفون جيدا شعور الجيش الذى انهارت معنوياته والمستعد للفرار او الانتقال الى الاتراك عند اول لقاء ، نصحوه باختيار الطريق الصعب والاكثر امنا عبر الصحراء . بيد ان ابراهيم ، الذى اضناه المرض والضجر ، اراد لقاء الاتراك فى ميدان المعركة مهما كلف الامر . لقد قرر اختراق سورية ، ولام الضباط على وجلهم وهدد بقطع رؤوس

المتذمرين . تزعزع عزمه بشدة على الطريق من دمشق الى مزيريب . عند بدء تحرك الجيش تمكن من مغادرة راياته الفا فار رغم كل الرقابة الصارمة . ومع ذلك حاول ان ينعطف من مزيريب الى اليمين ليصل عبر ميدان الجليل الى الساحل الفلسطيني . وانتقل يوخموس فى غضون ذلك من حاصبيا عبر اعالى الاردن الى مرتفعات صفد ، اما الجيش التركى ، فقد ترك حامية كافية فى عكا تحسبا لتحرك الجيش المصرى الى هذه النقطة ، وانحدر ببطء على امتداد الكرمل بمحاذاة العدو ، مستعدا للقائه فى شعاب جنين ، عند سفوح جبال السامرة فى حال عبوره الاردن . وحينما وصلت طليعة ابراهيم الى ضفاف الاردن ، كان جسر المجعان ، الذى ينبغى عبوره ، قد دمر نصفه بامر من الجنرال التركى ، وفى المقابل ، فى وادى ازدريلون كانت ترابط ميليشيا الجبليين البالغ عددها ٧ آلاف شخص تحت قيادة امير لبنان . غير ابراهيم خطة تراجعه . عندئذ انطلق النسق الثانى ، المكون من كل الفرسان تقريبا تحت امرة احمد المينيكلي باشا ، عبر الصحراء للالتفاف حول البحر الميت والوصول الى غزة . وانتظر ابراهيم نفسه عدة ايام اخرى فى مزيريب مع مؤخرته ، ثم سار ببطء فى الاتجاه نفسه .

حينما كان يقوم بمسيرته الشاقة ، قام الجيش التركى ، الذى كان يضم فى تلك الفترة ١٥ الفا من المشاة النظاميين وثلاث سرايا من الفرسان و٣٠ مدفعا و٧ آلاف من افراد الميليشيا غير النظامية والفين من الخيالة السوريين ، باحتلال فلسطين بين يافا وغزة والقدس ، وجعل قيادته العامة فى الرملة . بدأت المحادثات مع الضباط المصريين الذين احتلوا غزة وكادوا ان يبددوا كل الجيش التركى بهجوم مفاجئ من الفرسان . عندئذ فقط تعهد الاتراك بوقف العمليات المعادية ، وذلك بكفالة الضباط الانكليز الموجودين فى المعسكر . وعين محمد علي غزة بموافقة الاميرال الانكليزى ومفوضى الباب العالى مكانا لالتقاء الجيش المصرى ليستطيع من هناك الانتقال برا وبحرا الى مصر . وحتى انه ارسلت الى هناك مؤونة من مصر .

كان الصلح قد عقد بين السلطان والباشا ، ولكن الجنرالات الاتراك فى سورية تابعوا بعمى قاتل دعوة السكان الى السلاح لارهاق ابراهيم فى طريق عودته الى مصر . وبعد انسحابه من جسر المجعان انتقل يوخموس باشا ، الذى فقد اثر ابراهيم ، من جنين الى القدس وجهز قبائل اليهودية على الجانب الجنوبى الغربى من البحر الميت والبدو الرحل لتدمير احتياطيات المؤونة المخزنة فى معان وسط الصحراء .

مضى قرابة اسبوعين ، ولم يسمع عن ابراهيم اى خبر . وفجأة عم القلق فى معسكر الحلفاء بنبأ مفاجئ عن عبور ابراهيم فى ٤ كانون الثانى (يناير) الاردن خوضا مقابل اريحا ، وعن تحركه الى القدس . كانت كتيبة واحدة تحتل هذه المدينة التى من شأن المصريين ان يستولوا عليها حتما قبل إن

تتمكن القوات التركية من دعم الحامية . ولكن ابراهيم كان خائفا من شعور السكان العدائى الذى تجلى فى كل مكان . حتى القرية البائسة اريحا ، اريحون قديما ، استقبلته كعدو ، اما قرويو جبال اليهودية الخبثاء فكانوا ، حينما يقعون فى ايدى الفصائل المصرية التى تبحث عن المعلومات ، يؤكدون ، وكأنهم على اتفاق مسبق فيما بينهم ، ان فى القدس ، على حد زعمهم ، جيشا نظاميا من ١٥ الف شخص ، وفى الجوار عدد لا يحصى من الناس المسلحين . هذه السمات غير المواتية ارغمت ابراهيم على التخلى ثانية عن محاولة شق طريقه الى الرملة وغزة عبر الجيش التركى . حرق اريحا وقفل عائدا عبر الاردن . كان العبور صعبا بفعل الامطار الغزيرة ، وقد غرق فى النهر قرابة ٥٠٠ شخص وعدة مدافع وجزء من الامتعة والخزينة . واذ اوغل فى الصحراء ، عاقب ايضا سكان الكرك الذين رفضوا تقديم المؤونة اليه . كان النسق الثانى قد تمكن تحت قيادة احمد المينيكلى من الالتفاف حول الطرف الجنوبى للبحر الميت ؛ ولما لم يجد مؤونة فى معان اصبح فى احرج وضع وسط الصحراء ، حينما طوقته من كل الجهات عصابات القرويين المسلحين . شق طريقه بصعوبة الى الامام ، مقتاتا بلحم الخيل والابل . ولكن فى تلك الفترة وصلت الى المعسكر التركى نتيجة لاصرار ممثلى الدول المتحالفة اوامر مشددة بوقف كل العمليات الحربية . ارسل ضابط تركى يحمل بيده منديلا ابيض علامة السلام للقاء الجنرال المصرى واوصله بصعوبة الى غزة وسط القرويين الغاضبين . وارسل ايضا ضباط اتراك وانكليز فى شتى الاتجاهات للبحث عن ابراهيم الذى كان لا يزال تائها فى الصحراء ، وقد ارغم البدو على ان يكونوا ادلاءه ، واعدم منهم كثيرون فيما بعد بسبب الخيانة او جهل الطريق ليكونوا عبرة للآخرين الذين حلوا مكانهم . واضطر الى ترك جزء كبير من مدفعيته بسبب موتان دواب النقل . وتناثرت على الطريق جثث الجنود الذين ماتوا من الاعياء او ضربوا بالسيف عند محاولتهم الفرار . كان البدو المصريون من قبيلة هنيدى مخلصين لابراهيم بسبب عداوتهم لبدو عنزة السوريين ، واحاطوا جيشه بنطاق من الحرس وكانت المعسكرات فى الغالب اشبه بميدان معركة بسبب جثث الناس والخيل والابل .

ان المصائب التى حلت بهذا الجيش فى الطريق عبر الصحراء تفوق كل وصف . وقد انقذته من الفناء الكامل صرامة الانضباط العسكرى الذى اوصله ابراهيم الى حدوده القصوى والخلق الصبور للجندى المصرى . وعانى ابراهيم نفسه مرضا شديد الوطأة ، ولم يكن ليستطيع الجلوس على السرج الا بشق النفس وبمساعدة خدمه . ومع كل ذلك لم يكتئب ، وكان يقود كل شىء بنفسه ، متابعا البحث فى النبيذ عن قوى وهمية لتحمل صعاب والام لا تصدق دفعها هو وجيشه لقاء التعنت الطائش لمحمد علي الشيخ ازاء ارادة الدول الكبرى .

فى هذه الحالة كان ابراهيم باشا حينما ادركه فى الصحراء العقيـــد الانكليزى روزى ، الذى ارسل باقتراح لنقله الى غزة . بعد مسيرة استمرت ٣٤ يوما وصل [ابراهيم باشا] الى غزة ووقع طريح الفراش . وحينما مثـــل امامه عمر باشا بصفته مبعوث الحكومة التركية لحضور نقل الجيش المعذب الى مصر ، هنأه ابراهيم على نحو فاتر بالاستيلاء على سورية واضاف متنبئا : سنرى الآن كيف ستديرون المنطقة بعد ان اختلط حابلها بنابلها . ثم اخذ يتحدث مازحا عن مدى الجهد الذى كلفته تهدئة جموح القبائل السورية وتطبيق ذلك النظام الداخلى الذى هرع الآن ممثلو الباب العالى الى تدميره من الاساس .

ان الجيش المصرى ، الذى تقلص الى النصف بسبب فرار كل المجندين السوريين وبسبب معاناته فى الصحراء ، دخل مصر وهو يضم فى صفوفه ٣٦ الف شخص . وننوه بان عدد القتلى فى خلال الحملة كلها وعند فقد عكـــا والمدن الساحلية الاخرى يكاد لا يبلغ ٣٥٠٠ شخص . اما فى خصوص الظاهرة الغريبة لجيش يضم ٧٥ الف شخص ، جيش حسن التنظيم تحت قيادة جنرالات موهوبين وشجعان انهار فى حملة استمرت اربعة اشهر وكأنما بتأثير ساحر وكتب عليه ان يخط بعظامه معالم طريقه عبر الصحراء ، لكى ينجو بالفرار من سورية امام حفنة من الاعداء ، فينبغى الا نبحث عن حل هذه المسألة فى الفن العسكرى ولا فى المآثر الحربية لجيش الحلفاء ، بل فى عداوة الشعب وحدها . فى آذار (مارس) عام ١٨٤١ ، ابحر ابراهيم وحيدا الى مصر بعد ان ابل من علته بمساعدة الاطباء الانكليز ، وكان ، كقائد باخرة محطمة ، آخر من غادر غنيمته المشؤومة ، سورية ، التى ارتوت عبثا بدماء المصريين .

الفصل الثامن عشر

نظرة الى الفتوحات التركيـــة . — متانتها تعادل مشقها . — المهمة التاريخية فى صدد سورية . — مصيرها التاريخي السياسى والروحى . — اليهودية والمسيحية والاسلام . — تدهـــور سورية . — محاولة الانكليزى تشيسنيه بعث الطرق التجاريـــة القديمة .

نفذت قرارات الدول العظمى ؛ والقلق الذى اجتاح الشرق واوربا عنـد وقوع المصائب الثلاث المتلاحقة التى حلت بالامبراطورية العثمانية فى خلال اسبوعين من حزيران (يونيو) عام ١٨٣٩ — موت السلطان ، فقدان الجيش ، خيانة الاسطول — هذا القلق مر بسلام ، واسترد خلف سليم الرهيب (ياؤوز سلطان سليم) حقوقه المشروعة .

ان العناصر الداخلية فى المنطقة ، التى كرسنا لدراستها الدقيقة جل هذا المؤلف التاريخى ، تفسر بما فيه الكفاية النجاح السريع والسهل لاى غزو فى سورية . ذلكم هو الطابع السياسى لهذه المنطقة منذ القدم . وما صراع صور العنيد ضد اسكندر وصراع العبريين ضد روما الا حادثتان منفردتان ، شأن صراع الضيوف السلجوقيين ضد الصليبيين . ولكن يخلو التاريخ من مثل يشير الى ان سورية فكرت فى استقلالها حتى فى عصر جبروتها ، حينما كان سكانها اكثر مما هم الآن بعشرة اضعاف ، وحينما ازدهرت المدنية فيها . بعد النصر الذى احرزه بطليموس على انطيوخوس عند الحدود الجنوبيـــة لسورية ، قرب مدينة رافيا ، هرعت القبائل السورية الواحدة اثر الاخـرى لتقدم ايات الولاء الى الملك المصرى . يقول بوليبيوس : «تلكم هى عادة الناس ، ولكن لا يوجد بلد واحد يخضع من حيث ميوله الفطرية وسرعـــة انطباعاته للمنتصر بتلك الرغبة التى تخضع بها سورية» * .

والظاهرة نفسها تكررت عند غزوة العثمانيين فى عام ١٥١٦ ، وعنـد

* سترابون ، الكتاب الخامس ، الفقرة ٨٦ .

غزوة المصريين فى عام ١٨٣٢ ، وفى الفترة التى نحن فى صددها . هل تقع جريرة ذلك على القبائل السورية او على الحكومات التى كانت دوما من نصيب هذه القبائل ؟ ان عنصرين جذريين – عادة الفوضى والتجزئة الاقطاعية – قد توطدا ولا شك تحت حكم السلاطين الفاسد على امتداد ثلاثة قرون ، ولكنهما يتجليان منذ السنوات الاولى من الفتح التركى . وكان فى وسع الباشوات المعينين فى سورية ان يتمردوا منذ عهد سليم الاول ، واصبحت سورية منذ ذلك الحين عبئا دائما على الامبراطورية العثمانية .

ان سليم ، على غرار كل اسلافه واخلافه فى المأثرة العظيمة لتأسيس الامبراطورية التى تضم افضل جزء من تراث الرومان العالمى ، لم يحرص الا على الق فتوحاته المادى ، على المدى المفرط للسيف العثمانى ، ولم يفكر الا قليلا فى المأثرة المدنية التى ينبغى لها ان تعزز عمل السيف .

اذا تتبعنا بامعان كل هذا السجل العثمانى المكتوب بالدم والنار منذ المؤسس عثمان الى عبد المجيد ، نقتنع بان كلا من الفتوحات ، التى اتسمت بها الايام الباهرة للتاريخ العثمانى ، قد تدعم فيما بعد بما يتناسب والجهد الذى بذل لحيازته اول مرة . ان المناطق الداخلية لآسيا الصغرى والروملى ، التى كان النصر ثمن كل خطوة فيها ، لا تزال الى الآن بوتقة للقوى العثمانية . اذا كانت حفنة من الهلينيين قد طردت العثمانيين فى العامين الاولين من الحرب اليونانية من بيلوبونيز وشمال اليونان واستولت على الحصون المنيعة فى هذه المنطقة ، فان الاتراك بدورهم كانوا قبل ذلك باكثر من قرن قد طردوا البندقيين من هناك بحملتين . وفى حين ان جزر الارخبيل ، هذه الزهور التى جمعها الاسطول العثمانى يوما فى جولاته فى عرض البحر ، سقطت بلا نزاع من تاج محمود الواحدة اثر الاخرى ، فان كاندى ، التى رويت بدم الانكشارية ، صمدت ضد الجهود البطولية لسكانها المسيحيين وحملات الهلينيين العنيدة . وتتأكد ملاحظتنا هذه اكثر واكثر اذا تمعنا فى درجة نفوذ سلطة السلطان فى كل منطقة من شبه جزيرة العرب والبحرين الى امارات الدانوب . ليس قدر الحرب ولا مصادفات المحاولات الحكومية هى ما يقرر مصير الشعوب والممالك ، بل القوانين السياسية التى تسرى على العالم بتأثير ثابت لا يتزعزع شأن القوانين الفيزيائية . اذا كانت تركيا فى القرن السادس عشر ، فى فترة ازدهار جبروتها ومدنيتها ، حينما انجبت قبيلة العثمانيين رعيلا من السلاطنة ورجالات الدولة العباقرة ، لم تتكمن من ربط سورية بها ومن استخلاص اية فائدة منها ، فهل تستطيع الآن ان تكفر بالعمل المدنى عن خلل ثلاثة قرون من حكمها لسورية اذا كانت تركيا نفسها قد ترهلت ، والمنطقة التى استردتها بارادة الدول الكبرى قد توحشت واملقت ؟

لن تحمل تركيا امام محكمة التاريخ كل المسؤولية عن املاق المنطقة

الدائم وانهيار تجارتها وصناعتها فى غضون القرون الثلاثة الاخيرة . ولكن لا شك فى ان النظام الحكومى التركى ساعد اكثر من اى شىء آخر على التدمير السياسى للمنطقة وعود سورية على التهيج الداخلى المستمر وخرب تلك العناصر التى كمنت فيها الفى سنة من الفينيقيين الى الاتراك ، والتى كانت فى كل مرة تتجلى بعد اشد المحن ببعث سريع لرخائها الداخلى فى فترة الهدوء والسلام .

وصلت سورية فى عهد السلوقيين الى قمة ازدهارها . ولعلها كانت ابهى اشلاء امبراطورية الاسكندر العابرة . ان الصراع مع مصر ومع القبائل الشمالية – الارمن والفرثيين – لم يتوقف عن اقلاق المنطقة التى كانت تهزها فى الوقت نفسه العداوة الداخلية بين سلالة سلوقس نيكاتور . وبعد ذلك ما كادت تستريح فى ظل النسور الرومان ، وقبل انقضاء نصف قرن اصبحت سورية افضل ولايات الامبراطورية الرومانية واغناها بذخا وصارت تنازع اليونان نفسها على قصب الثقافة الهلينية التى غرسها انصار الاسكندر فى تربتها بنجاح . وفى عهد اخلاف قسطنطين انطيوخوس غدت عاصمة الشرق الثانية ومدرسة الفلسفة المسيحية . وحلت عليها مصائب جديدة زمن غزوات الفرس ، ثم ما لبثت ان اصبحت غنيمة للعرب انصاف المتوحشين . وقد ابلت ، وهى المغطاة برماد مدنها ، فى غضون نصف قرن ومنحت العرب كنوز الثقافة اليونانية وادهشت العالم بفيض رخائها والق الخلافة وانبعاث العلوم . وحتى فى عهد الصليبيين ، بعد الصراعات الداخلية للارث الروحى والمدنى المنفصم الذى خلفه هارون الرشيد وبعد غزوات السلجوقيين المتوحشين ، بقيت سورية ، وقد حرمت من سراج العلم الذى توهج فيها مرارا من قديم الازل ، تزدهر بتجارتها وصناعتها الفاخرة فى فترات السلام القصيرة .

مع كل اضطرابات الفترة القاتمة التى اعقبت ذلك واستمرت ثلاثة قرون لم تتوقف التجارة والصناعة عن الازدهار فى تلك المنطقة التى اغدقت عليها الطبيعة بسخاء ، والبرهان على ذلك تلك الثروات التى نهلتها منها الجمهوريات البحرية فى ايطاليا . ثم ادرج الفتح العثمانى سورية فى قوام الامبراطورية التى تحرر هذا البلد المعذب تحت حمايتها من الهجمات الخارجية والصراعات الداخلية .

كان على الغزو العثمانى ، شأن نظيره الرومانى ، ان يمنح سورية عهدا جديدا من الرخاء ويساعد على تطور قواها الحيوية بواسطة الاستبداد الحكومى القوى القادر على لجم استبداد الامراء الصغير وحزازاتهم الاقطاعية . ولكن منذ ذلك الحين اخذت سورية تزداد ذبولا وفقرا ، ووصلت صناعتها وتجارتها الى عياء مطلق ، وصار سكانها يتناقصون باستمرار .

مهما كان الحكم التركى وخيما سواء من حيث بداياته او من حيث نتائجه

التى رأيناها فى الحياة السياسية لسورية ، فلا بد لنا من ان ندرك بلا تحيز انه افضل من اى حكم سبقه منذ زمن عصر الخلافة المزدهر [. . .] . لقد دخلت سورية فى قوام الامبراطورية العثمانية فى تلك الفترة بالذات ، حينما فتحت عبقرية البحارة الغربيين طرقا جديدة وانتزعت من الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط ذلك الاحتكار الذى لا يقدر بثمن للاتصالات بين الغرب وبين بلدان الشرق الداخلية والهند وفارس . ليس سيف سليم بل بوصلة فاسكو دى غاما هى التى وضعت حدا لرخاء سورية القديم . انها وقد تركت لوحدها وحرمت من تلك الثروات التى كانت تصب فى شرايينها من الخارج ، صارت تذوى وتتوحش منذ ثلاثة قرون . وفى ايامنا هذه وُجهت الضربة الاخيرة الى صناعتها نتيجة منافسة الغرب المسلح بالماكينات البخارية لاشغال الشرق اليدوية ، لانوال النسيج التى خلفتها صيدا وصور للذرية البعيدة ، للانوال البسيطة فى البلد الكلاسيكى التى ترتبط هذه الذرية بها ، لانها كانت على مدى ثلاثة آلاف سنة تجمع بها الاتاوة من الشرق ومن الغرب .

ولكن اذا كان قد حكم على صناعة المنطقة بالموت السريع ، واذا كانت تربتها قد جفت بهبوب العواصف السياسية التى تطارد السكان منذ قرون الى الجبال احيانا والى الصحراء احيانا اخرى ، فانه يمكن التعويض من كل هذه المصائب واكثر بافضليات موقع سورية الجغرافى شريطة ان تعود التجارة والملاحة من جديد الى طريقهما القديم ، الامر الذى بذلت له محاولات فى زمننا .

فى عصر الملك سليمان وهوميروس اصبحت جمهورية صور وصيدا المحرومة من الاراضى مركزا للتجارة العالمية ، وغطت البحار باساطيلها ، واقامت على سواحل البحر الابيض المتوسط المستوطنات المزدهرة التى كانت تسكب فيها فيض حياتها . تفوقت صيدا وصور على مصر بنشاط عبقريتهما وسبقتا اليونان فى نجاحات مدنيتهما . ولا ينبغى ان نعزو هذه الظاهرة الرائعة لشىء غير موقع سورية الجغرافى . ولما كانت تشغل الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط ، رحم حياة العالم القديم ، فقد خصصت لها العناية الآلهية المأثرة العظيمة ، مأثرة التأثير المعنوى والمادى للشرق ، بكر الجنس البشرى ، فى القبائل الاصغر التائهة فى الغرب المتوحش التى قدر لها ان ترث الشعاع الثلاثى للدين والعلم والمدنية التى تعهدها الشرق اول الامر .

فى حين كان وسط آسيا يقذف الى اوربا عبر القفقاس والسهوب الشمالية الجاليات المتوحشة للبيلازغيين والاتروسكيين والاسقوثيين كان الدين يتغلغل فيها من الجنوب عبر سورية ومصر . لقد حققت مصر مقدما تطورها الاصيل فى ظل وحدة دينية وسياسية . وكان وادى النيل موطن تطور وحيد ، غامض لقبائل مزارعة بددت كل قواها الحيوية فى غضون الوف كاملة من السنين على معيشتها الداخلية ؛ وعناصرها مدفونة فى باطن الارض ، فى الكرنك وابى

سنبل . اما سورية ، فعلى العكس من ذلك ، فهى ، من حيث تكوّن ارضها التى تخترقها الجبال على هواها ويكتنفها البحر والصحارى من ثلاث جهات ، كانت ، على ما يبدو ، مرتعا لحركة القبائل الدائمة ولحياتها الطليقة ولتشتتها المستمر ، لا لاندماجها فى وحدة مدنية او دينية . كانت منذ القدم بمثابة ملتقى طرق لكل الاديان . لقد انفضحت الثيوغونيا الهندية وفقدت سِترها الصوفى فى سورية ؛ وانتعشت رموز الشرق وتعاليم الكلدانيين والمجوس والحكايات المبهمة لعمر البشرية الاول بنفحة من نسائم الغرب ، وانتقلت الى اليونان ، فاغرمت بعبقرية تلك البلاء ، وتجلت فى وطنها الجديد باساطير مرحة احيانا ، وباستعارات شاعرية احيانا اخرى ، وكأنها نتاج اصيل للقبائل الهلينية .

وفى حين كانت الاساطير الشرقية لفاكهوس الهندى وهرقل الفينيقى وابولو الكلدانى وفينوس اللبنانية تتآخى فى الاولمب اليونانى مع الاساطير الاغريقية-المصرية ، فان قبيلة اسرائيل ، التى حافظت فى تنقلها من اعالى الفرات الى ضفاف النيل على الحكايات عن الاله الحقيقى الواحد ، هرعت الى القذف بنير الفراعنة والانعتاق من حياة التنقل فى مصر . وتحت امرة قائدها الملهم ، الذى سماه اليونانيون بالكاهن المصرى * ، رجعت فى ذلك الحين الى اخلاق الرحل ، فتاهت اربعين سنة فى صحراء شبه جزيرة العرب ، واذا بجيلها الجديد ، وقد تطهر من ادران مصر الوثنية واصغى الى كلمة الوحى القديم يدخل بمهابة مع تابوت العهد فى سورية ، فى ارثه الذى وعد به .

وهناك تابعت على مدى عشرة قرون صراعا دينيا عنيدا ضد القبائل المحيطة بها ، وحذر عدد من الانبياء قبيلة يهوى المختارة من عدوى الوسط الوثنى ، وسط التأثير الثلاثى لتعاليم مصر والهند وما بين النهرين التى كانت تكتنف سورية هذه التعاليم لتتغلغل بعد ذلك فى العالم الغربى مع جالياتها التجارية . كانت هداية الناس غريبة عن تقاليد الشعب الاسرائيلى . واذ بقى امينا على القانون الجذرى لاقربائه العرب حول نقاء النسب ، كان يتجنب اى اختلاط بالمهزومين ويغلق دونهم بوابة هيكله بحرص . وفى هذا الصدد اذا كانت شريعة موسى ، من جهة ، لم تنتشر فى سورية حتى فى عهد جبروت الشعب العبرى ، شان الديانات الاخرى ، فانه قد حافظ فى المقابل على نقائه وبقى منيعا فى وجه اى تأثير خارجى .

ولكن كلمة موسى التى قالها فى مصر منذ القدم تغلغلت من خلال ضباب النيل فى اليونان واضاءت مدرستى فيثاغورس وافلاطون وبثت حياة جديدة فى الفلسفة التى اسماها اباء الكنيسة فيما بعد شعورا مسبقا بالمسيحية . وحينما نضجت الازمنة وصارت اليونان نفسها تعكس على الشرق تعاليمها

---

* سترابون ، الكتاب السادس عشر ، الفقرة ٣٩ .

الفلسفية التى اضرمت اول الامر عند هياكل الشرق الخفية ، حينما صارت اصداء نظريات افلاطون تتردد فى البيعة نفسها التى تسيطر عليها طائفتا الفريسيين والصدوقيين ، حينما حلت الساعة التى تحدثت بها النبوءات ، تم فى سورية ، وسط جبال اليهودية وعلى صخرة الجلجلة تغيير العالم القديم .

على امتداد ثلاثة قرون ، الى حين انتصار المسيحية فى العاصمة الجديدة للامبراطورية العالمية ، كانت سورية عاصمة روحية للعالم المتجدد تتعمد بدم الشهداء القديسين وتعلن للمشرق الغامض تحقق نبوءات العهد القديم . لقد اسكنت النسال القديسين فى ثيبية المصرية ودعت ببلاغة الى حكمة الرب فى اليونان التى تركزت فيها حينذاك القوى الفكرية للعالمين الغربى والشمالى . وعوضا عن الصراع الدينى الحاد بين الشعب الاسرائيلى والقبائل الصغيرة فى سورية اصغى العالم القديم كله بتبجيل الى الموعظة التى تتدفق تيارا حيا من السواحل السورية الى كل الجهات . وحل مكان تقاليد العهد القديم والاعدامات بلا رحمة لقبائل بأسرها الصبر المضنى للمبشرين بالعهد الجديد الذين لم يدعوا الى كلمة الخلاص بالسيف ، بل قدموا انفسهم بخضوع الى سيف مضطهديهم اقتداء بالمخلص نفسه .

غمرت اشعة ضوء اورشليم الغرب والشمال ، فاستعدا لمصيرهما العظيم المقبل «بمأثرة التحويل الروحية ، اما الشرق ، الذى اجتاحه الاحساس القاتم بسقوطه الروحى ، فاغرق سورية بآخر سيل من الوثنية . خطف خسرو الرمز المقدس لهيكل اورشليم ، واصبحت سورية مسرحا لاول حرب صليبية ، ولانتصار الامبراطور هرقل على الكفار . ولكن فى ذلك الوقت لاح نيزك رهيب على افق سورية ، وسط الرمال اللاهبة لشبه جزيرة العرب .

ان التعاليم التى صاغها داعية مكة العبقرى من عناصر متعارضة من العهد القديم وتعاليم زرداشت والخلق الانجيلى والميول الحساسة للانسان الجنوبى قد انصبت على نحو عاصف فى الملتقى المنشود لطرق الاديان جميعا ، واختارت سورية مجالا لمآثرها ، والسيف رمزا واداة لدعوتها ، تاركة للشعوب المهزومة خيارا لا مفر منه بين اعتناقها وبين الموت او العبودية السياسية التى تفتدى فيها حياة من يعتنق دينا آخر بجزية سنوية . ووقعت سورية ، المنطقة النائية فى الامبراطورية المتداعية ، غنيمة عاجزة فى ايدى الفاتحين العرب ، وما لبثت ان اصبحت بوتقة لحياة الشرق الدينية الجديدة ومعسكرا لقوات متعصبة انطلقت منها الى الهند ووسط آسيا والبيرينه .

ما ان هدئت عاصفة القرن السابع فى سورية حتى اخذت عناصر المدنية التى خلفتها عبقرية اليونان لهذه البلاد تتغلب على غرائز فاتحيها المتوحشة . وضربت سورية للعالم مثالا لا نظير له على التطور الفكرى السريع . وفى القرنين الثامن والتاسع اصبحت الخلافة ، بعد ان شيدتها قبائل الرحل فى شبه جزيرة العرب ، مركز عمل فكرى للجنس البشرى واكتشافات عظيمة فى

العلوم والفنون ، واعدت العناصر المقبلة لتربية الغرب الذى كان فى تلك الفترة يعانى كل اوصاب الطفولة السياسية . وقد انتهت المأثرة الروحية والمدنية لسورية بثلاثة قرون من الخلافة السورية . وتحولت القبائل الشمالية فى آسيا مع اعتناقها لشريعة محمد ذات النزعة القتالية الى قبائل من الغزاة . اهتز شمال آسيا فى القرن الرابع الهجرى ، كما اهتز شمال اوربا فى القرن الرابع الميلادى ، وانهالت قبائل السلاجقة المتوحشة على سورية . فى ذلك العهد من الاضطراب العام قامت الشعوب الاوربية بحملاتها الصليبية ، وقتل الملايين فى آسيا ، مروين الحقول السورية بفيض دمهم الشاب ، وارسلت السهوب الداخلية فى آسيا الى هنا الملايين من مغولييها . وفيما بعد اصبحت سورية المدمرة ضحية لكل الغزاة الى ان اخضعها سليم .

ومنذ ذلك الحين اخذت سورية ، متسربلة بمجدها القديم وجراحها القاتلة ، تغادر الميدان السياسى وتعيش عيشة الم تتخللها فى بعض المناطق مشاهد عاصفة للحياة الداخلية ، تلك البواكير او النذر ، شأن فخر الدين وضاهر العمر . وتغدو فى زمننا تحت تأثير الشخصيات الخارجية مسرحا لمنافسات جديدة بين الشرق والغرب . فما الذى يعد المستقبل لهذه المنطقة بين تلك الطوباويات التى ظهرت فى صدد احداث سورية ؟ فى تلك الارجاء التى كان يتزاحم فيها يوما ١٥ مليونا من السكان يعيش بخمول مليون ونصف المليون من الناس الذين تفتتهم التقاليد والروح المحلية والدين الى العديد من القبائل والمجتمعات الصغيرة المفعمة بالكراهية المتبادلة والمستعدة دوما لتكون اداة للاضطهاد المتبادل فى ايدى ولاة الباب العالى . تعيش الصناعة بكسل فترة نزاعها الاخير ، وتقتصر التجارة على تصريف منتجات الصناعة الاوربية مقابل القليل من المنتجات الخام لاغنى تربة فى العالم وما خلفه الاجداء من فضة وذهب اكتسبوهما فى عهد النشاط المانيفاتورى . ونسى اخلاف بحارة صور وصيدا الملاحة منذ امد بعيد ، اما المواصلات الداخلية فمقترنة بانفاق للوقت والنقود وبمخاطر من المستبعد معها ان تستطيع سورية السعى الى استعادة تلك الافضليات العظيمة التى يعدها به الآن مجددا موقعها الجغرافى . وفى الواقع ، فان التجارة الاوربية ، التى اضناها الابحار حول رأس الرجاء الصالح ، تتوجه الآن الى طريقها الكلاسيكى القديم عبر الساحل الشرقى للبحر الابيض المتوسط . واثر هذا الطريق يمر الى الآن عبر الاطلال العجيبة لبعلبك وتدمر وبصرى وجرش والبتراء التى كانت يوما مدنا مزدهرة ورائعة ، والتى يعزو العرب تأسيسها الى الملك سليمان والعباقرة الذين كانوا تحت سلطته . ونستطيع ان نعزو تأسيسها الى عبقرى التجارة ، هرمس القديم الذى كان صولجانه المجنح يعمر المدن فى الصحراء ، وكأنها خانات للقوافل السائرة تحت رايته من سواحل البحر الابيض المتوسط الى الفرات والخليج العربى .

فى عشرينات القرن التاسـع عشر باشر الملازم فى الجيش الانكليزى تشيسنيه * حل مهمة الملاحة فى الفرات . فقد بنى على هذا النهر ، فى بيريجيك ، معبرا تحمله على الماء ازقاق منفوخة من جلد المعز ** ، ونصب فى الوسط خيمة حولها حزم البضائع ، واقلع مع طاقم صغير من العاملين العرب منحدرا مع التيار الى بغداد . كان عليه فى خلال هذه الرحلة كلها ان يتغلب على شتى انواع العقبات : احيانا كانت مركبته البدائية تجنح الى مكان ضحل ، واحيانا اخرى كان البدو الهائمون على الضفاف يطلقون عليه النار . ولكن تشيسنيه وصل الى هدفه وابلغ الحكومة الانكليزية بتلك الفوائد التى لا تقدر بثمن ، والتى يمكن عقد الامل عليها نتيجة الملاحـة على الفرات للمواصلات مع الهند .

وفى الواقع ، فان قرابة ١٧٠ كيلومترا هى المسافة التى تفصل على خط مستقيم النهر عن خليج اسكندرون ، شمالى حلب ، حيث تمكن تضاريس المنطقة بسهولة من شق طريق او حتى مد خط حديدى . ثم تستطيع ، فى رأى تشيسنيه ، بواخر مسطحة القعر ان تصل بسهولة الى بغداد او البصرة ، ومن هناك تنقل بواخر كبيرة او سفن شراعية البضائع الى بومباى وكلكتا فى عدة ايام . واتضح ان هذا المشروع افضل من الاتصال بالهند عبر مصر ، لان الملاحة فى البحر الاحمر مقترنة دوما بالاخطار ، وفى نصف السنة تكاد اقوى السفن لا تستطيع مصارعة هبات الرياح الدورية فيه .

ولكن تشيسنيه ، الذى اسكره نجاح مشروعه الجرىء ، غابت عن نظره اهم العقبات التى ينبغى تذليلها على الفرات . اولا ، مجرى النهر غير دائم ويغير الطمى مجراه ، بحيث ينبغى فى كل مرة الانطلاق قدمـا مع تلمس الطريق خشية التوقف فى مكان ضحل . ثانيا ، حتى فى موسم وفرة المياه لا يتجاوز عمق النهر خمسة اقدام فى مواقع كثيرة للغاية من مجراه ، وهذا قليل جدا للبواخر المخصصة لنقل البضائع ، اما فى شهور الخريف فيغدو غير صالح للملاحة بالمرة . ثالثا ، يتضاعف طوله بسبب مجراه المتعرج ،

---

* فرنسيس تشيسنيه (١٧٨٩-١٨٧٢) - ضابـط انكليزى . قام فى عام ١٨٢٩ برحلة الى تركيا ومصر وسورية . وقاد فى عام ١٨٣٦ بعثة انكليزية تدرس ظروف الملاحة فى الفرات ، وفى الخمسينات ذهب مجددا الى سورية على راس بعثة تدرس وادى الفرات بهدف مد خط حديدى . وقد اصدر تشيسنيه مؤلفات عن جولاته فى سورية والعراق: «Expedition for the survey of the rivers Euphrates and Tigris», London, 1850, «Narrative of the Euphrates expedition 1835-37», London, 1854 وغيرهما . يخطئ بازيلى فى تاريخ جولات تشيسنيه فى العراق . — **المحرر** .

** هذه الوسيلة للملاحة النهرية ، التى ذكرها تسينوقون ، لا تزال مستخدمة الى الان على دجلة ، وحتى عندنا على نهر أراكس ، على حدود بلاد فارس.

وضفتاه على امتداد هذه المسافة كلها مرتع للقبائل الرحل ، ولا يوجد ما يمكن اللجوء اليه لاقامة اماكن لتخزين الفحم .

هذه العقبات ادركتها الشركة الهندية بعد التجربة التى اجرتها فى عام ١٨٤١ بباخرتين صغيرتين (٥ او ١٠ احصنة) ، سارتا عكس التيار من البصرة الى بيريجيك ، حيث كانت احداهما تساعد الاخرى ، لانه كان ينبغى انتزاعهما من الاماكن الضحلة بالتناوب . وحتى ان احداهما تحطمت فى طريق العودة . بعد هذه التجربة الفاشلة تخلت الشركة عن الطريق التجارى الى الهند عبر سوريا ، وشرعت بنشاط فى اقامة اتصالات منتظمة عبر مصر . وهكذا صرمت سورية من آخر امل فى عصر صناعى جديد . ربما لم تكن العوائق الطبيعية هى ما جعل الشركة تفضل مصر ، ربما بدت العواصف السياسية المخيمة ابدا فوق افق سورية اخطر على التجارة من عواصف البحر الاحمر . وقد اشترى الانكليز نقطة هامة فى شبه جزيرة العرب ، وهى رأس عدن الذى يغلق البحر الاحمر مقابل القارة الافريقية ويشكل مكانا لتخزين الفحم ونافذة على سكان شبه جزيرة العرب لتصريف الاقمشة .

ان الاضطرابات التى ظهرت فى سورية فى عهد حكومة السلطان جردت المنطقة من افضل هبة للمصريين ، من امن المواصلات الداخلية . بفضل جهود ابراهيم كانت القوافل تستطيع التوجه من بغداد الى دمشق عبر الصحراء محملة بالبضائع الهندية والفارسية ، والعودة ومعها الاقمشة الانكليزية التى تصرف فى ما بين النهرين والبحرين وجنوب فارس . فى عام ١٨٤٥ هاجم البدو قافلة كبيرة من ٣ آلاف جمل فى طريقها من دمشق الى بغداد ، ونهبوا بضائع بعدة ملايين وافلسوا تجارة دمشق وارغموا التجار على حصر الاتصالات ببغداد عبر حلب والموصل على طريق اطول بثلاثة اضعاف ، ولكنه اقل خطرا من الطريق المباشر من دمشق عبر الصحراء .

الفصل التاسع عشر

عودة سلطات السلطان الى سورية . - اضطهاد المسيحيين . - تقسيم سورية الى باشالكات . - اخطاء الاتراك المتلاحقة . - دخول ومصاريف . - تطبيق المعاهدة التجارية لعام ١٨٣٨ . - عرض تاريخى لنظام تركيا التجارى وتطبيق نظرية التجارة الحرة . - تصفية الاحتكارات . - نظام الادارة الجديد واتجاهه . - تأثير الاصلاح والغزو فى التطور المعنوى للقبائل السورية .

لقد اشرنا الى تلك الاخطاء المهمة التى اتسمت بها اعمال الحلفاء الاولى على الساحل السورى . ومع الدعوة الى التمرد وتوزيع السلاح على الشعب اخذ الباشوات الاتراك والضباط الانكليز يعدون القبائل السورية جزافا بمختلف التسهيلات التى يستحيل تحقيقها . وهكذا فبمجرد عودة حكم السلطان الى سورية تفجرت فيها الانفعالات الفوضوية التى لجمت بصعوبة على امتداد سبع سنوات من الحكم المصرى .

وتجسدت هذه الانفعالات قبل كل شيء فى ملاحقة المسيحيين من كل المناطق ذات البيئة الاسلامية الغالبة . لقد سبق ونوهنا بان تسامح المصريين الدينى هيج التعصب فى جمهور السكان المسلمين . ورأينا المصائب التى هددت المسيحيين فى سورية باسرها ابان معركة نصيبين . وحتى الآن ، مع ظهور رايات السلطان ، ومع ان هذه الرايات كانت لا تزال تستظل بفيء الاعلام المسيحية ، رحب المسلمون بها باضطهاد للمسيحيين ولكل من من يخالفهم فى الدين . كان الوقت وقت التقاء الحجاج المسلمين فى دمشق فى طريقهم الى مكة . وفجر رعاع دمشق فى غمرة حماستهم لتخلصهم من ابراهيم الرهيب حقدهم المؤمن الى درجة ان الحجاج الفرس ، الذين قدموا الى هناك فى مجموعة تضم الفى حاج ، لم يستطيعوا الظهور بملابسهم القومية

خشية تلقى الاهانات على الملأ والاساءات الدامية بسبب انشقاقهم الاسلامى . ان سورية ، اذ احتفلت بعودة حريتها القديمة ، اعربت عن اخلاصها للسلطان بصب لعناتها على ابراهيم وعلى النظام المدنى الذى طبقه وعلى التسامح الدينى الذى امر به .

لجأ المسيحيون من كل مكان الى القنصليات ، ولا سيما القنصليات الروسية . ان تقصير وعجز الحكام الجدد وحتى رغبتهم جزئيا فى جذب عطف ابناء عقيدتهم بالمساهمة فى الانفعالات المضطرمة فى الشعب بررت تماما تدخل ممثلى الدول المتحالفة فى شؤون الادارة الداخلية ، حينما برزت ضرورة درء المصائب التى تهدد المسيحيين . والتدابير الجريئة والحاسمة ، التى اتخذتها القنصليات فى حالات كثيرة ، كانت تخل بحقوق السلطة الشرعية ، ولكن السلوك الاجرامى لممثلى هذه السلطة بررها تماما . فى كانون الثانى (يناير) عام ١٨٤١ صدرت بالحاح من البعثة الروسية فى القسطنطينية فرمانات تنص على حماية ورعاية المسيحيين السوريين مع تأكيد تلك الامتيازات التى تمتعت بها الكنيسة تحت الحكم المصرى ، ولا سيما فى القدس ، ومنعت اية غرامة تفرض على الاديرة والحجاج . وفهم الباشوات من اسلوب الفرمانات البليغ ، المزوق ، والغامض فى الوقت نفسه ، ان الباب لم يحرمهم من افضل مادة دخل للمنطقة المستولى عليها الا ارضاء لحلفائه . وكانوا على ثقة ، وثمة مسوغات لهذا ، بان تفجر التعصب الدينى يعجب حكومة الخليفة ، لانه يشكل عربونا لكراهية المسلمين السوريين للمصريين . لم يستطع الباب العالى ولا ممثلوه فى سورية فهم الحقيقة التى ادركها ابراهيم ، وهى ان تعصب الرعاع وان كان موجها ، فى الظاهر ، ضد ابناء الاديان الاخرى ، الا انه يغرس فيهم العادات الفوضوية القديمة ويشكل عقبة فى وجه توطيد اية سلطة . واذ كان القناصلة ، بدورهم ، يتمسكون بالمعنى المباشر للفرمانات ، اخذوا يقارعون سلطات السلطان بمزيد من الحزم ، ومنذ ذلك الحين لم يتوقف فى سورية تدخل الدول الكبرى فى شؤون الادارة مهما كان معارضا لنفوذ السلطان .

ان الباب العالى ، اذ قضى على نظام الادارة المصرى الذى كان مكيفا على نحو ممتاز للمناطق ولحالة الاقليم السياسية ، قسم سورية كما فى الماضى الى عدة باشالكات او ايالات رجعت حلب الى حدودها السابقة ، وضم باشالك اضنة مناطق طوروس ، ودخلت طرابلس قوام ايالة صيدا التى اصبحت بيروت عاصمة لها . وشكلت القدس وفلسطين كلها سنجقا خاصا يديره ميرميران (فريق او باشا بنجقين) تحت اشراف مشير صيدا (باشا بثلاثة بناجق) .

ان الصفات الشخصية لاسعد باشا الحلبى ، الذى اباد سابقا انكشارية ادريانوبولوس ، انقذت من الهزات هذا الجزء من سورية . وفى دمشق عين

اول الامر الحاج علي باشا وما لبث ان تم نقله الى جدة لادارة مكة والمدينة ، واتى مكانه نجيب باشا ، احد اكثر افندية الرعيل القديم ثقافة ولطفا ، وهو محب للادب وشاعر ، وكان قبل ذلك يخدم فى الوزارات ، ولم يستطع ان يكتسب فيها اية مواهب عملية فى علم الادارة . وبالاضافة الى ذلك كانت تبعث فيه الرعب ذكرى آخر باشوات دمشق سليم الذى مزقه الرعاع قبل دخول المصريين بامد قصير ، وكان يسمع من كل الجهات لعنات الشعب المؤمن على ابراهيم بسبب تفكيره الحر الذى كانت تعزى اليه كل قسوته ازاء المسلمين . كان نجيب مشهورا فى العاصمة بتفكيره المتحرر ، وفى دمشق لجأ الى النفاق على امل ان يكتسب القلوب ويقوى نفوذه . ولكن كل ما استطاع فعله هو بعث الجرأة والغطرسة فى رعاع دمشق . وحينما انصرف الغوغاء فى خريف عام ١٨٤١ الى الفظائع ردا على الفتن فى لبنان ، ادرك الباشا خطأه واقتنع بالحقيقة التى فهمها ابراهيم ، وهى ان التسامح الدينى ولجم التعصب يشكلان فى سورية افضل ضمانة لتأثير السلطة الشرعية فى عقول الشعب * .

ان شريط سورية الساحلى – من اللاذقية الى غزة ، مع لبنان وجبال الجليل واليهودية – ينطوى منذ القدم على بذرة اضطرابات داخلية مع تقاليد النزاعات الموروثة بين القبائل القاطنة فى هذه المنطقة . لقد تأججت الانفعالات الشعبية هناك اكثر مـــا يكون فى الحرب الاخيرة تحت تأثير الشخصيات الداخلية والخارجية . واثرت هناك فى الغالب اخطاء السلطات الجديدة التى شقت طريقها بلا حذر ، فاثارت اعصار الفوضى ولم تهتم كثيرا بالنتائج . هذا بالاضافة الى ان اختيار الباشوات الذين عهد اليهم الباب العالى بايالة صيدا

* فى تلك الفترة ، وقد كنت فى دمشق ، حادثـــت نجيب فى هذا الخصوص ، مطالبا بلجم الرعاع المؤمنين الذين كانوا يهددون باحراق الكنائس فى دمشق نفسها . وقد احدثت نظرية ابراهيم حول التسامح الدينى انطباعا كبيرا فى تفكيره . وفـــى خلال حديثنا سيق الى الباشا مسيحى ضربه المسلمون حتى اشرف على الموت لانـــه ظهر فى السوق بعمامة بيضاء فى حين كانوا يريدون العودة الى منع المسيحيين مـــن ارتداء الملابس الزاهية . وكان ضحية التعصب المسكين قـــد نزع العمامة المحظورة ولف رأسه الجريح بمنديل اسود . وحينما استعلم الباشا عن سبب مصيبته امره فـى حضور كل حاشيته ان ينزع المنديل الاسود عـــلى الفور ويرتدى العمامة البيضاء ، وعاقب المذنبين . واخذ احدهم يصرخ بحنق تعصبى قائلا انه يعجب لرؤية الباشا ، والي السلطان ، يحمى الكفار . امر نجيب بان يؤخذ الى مشفى المجانين ويكبل هناك بالقيود ويضرب بعد شفائه من الهيجان ٣٠٠ عصا على عقبيه . ثم قيد الباشـــا بالاصفاد ، بطلب منى ، مختارى قريتين احـــرق رعاعهما المسلمون كنيستيهما ، وابقاهما فى السجن الى ان رمم المذنبون الكنيستين بعملهم وعــلى نفقتهم . كان لهذه الامثلة مفعولها المنقذ فى دمشق وخلصت المسيحيين من الاهانات وقوت السلطـــة الحكومية ، وحتى انها ساعدت على جمع الاتاوات بنجاح . لم تكن عند نجيب تجربة ، ولكن كان عنده تفكير مرهق .

وبفلسطين لم يكن موفقا بالمرة . ففى غضون سبع سنوات تعاقب ثمانية باشوات فى بيروت والعدد نفسه فى القدس .

لم يكن الاتراك يملكون المعلومات ولا الخبرة ولا القدرة الكافية ليقيموا ادارة جديدة لسورية وفق ايحاءاتهم الخاصة او حسب تقاليد البلد الحزين . كان فى وسعهم ان يستخلصوا فوائد كثيرة من التجربة التى كدسها المصريون لو انهم صانوا تلك القرارات المدنية التى تلائم قواعد ومآرب حكم السلطان . ولكنهم ، على العكس من ذلك ، هرعوا الى تدمير كل شيء والقضاء على كل شيء باسم التنظيمات الخيرية ، اى الحقوق التى منحهـــا السلطان فى بيان غولخانة ، رغم ان هذه الحقوق لم توجد الا نظريا ، او بالاحرى كانت مجرد وعود . لقد قضوا على النظام الاقتصادى المصرى قبل ان يكوّنوا اى مفهوم عن الموارد المالية للمنطقة التى اكتسبوها من جديد . لن نتحدث عن فساد الموظفين الاتراك منذ احتلال سورية . لقـــد كان الجيش المصرى بافراده السبعين الفا ممونا لسنة كاملة ، واستولى المنتصرون على مستودعاته ، ولكن الجيش التركى بافراده الخمسة عشر الفا لم يجد فيها من المؤونة ما يكفيه لنصف سنة . ونهبت العزبة الرائعة فى انطاكية . ولم يبق من كل مشروعات المصريين الاقتصادية سوى المبانى العارية . واقفرت اراضى ابراهيم المستوطنة حديثا .

عند الغاء كل قرارات المصريين المدنية كان الشعب على قناعة بانه لن يدفع اية اتاوات باستثناء ضريبة الارض التى كانت مفروضة على كل منطقة منذ القدم والتى صارت فى ظل تدهور العملة تعادل نسبة واحد على اثنى عشر من قيمتها الاولى . اراد الباب العالى كسب الشعب بهذه الاجراءات المتهورة وتعزيز غزوه لسورية بتعاطف قبائلها مع حكم السلطان . كان من الافضل تحقيق هذا الهدف عن طريق الغاء المستحقات او الاعفاء من دفـــع الاتاوات عن نصف سنة او سنة ، دون التخلى عن الحقوق المشروعة للسلطة .

وحينما لم يبق عند الاتراك نقود ، بدأوا ، خلافا لوعودهم ، باللجــوء تدريجيا الى نظام الضرائب المصرى وتلزيم الكثير من الاتاوات على النمط القديم . وضريبة الفرد ، التى تحدثنا عنها (الفصل السابع) ، اعيدت باسم «فيغرى» مع تنازل من الخزينة بنسبة الثلث مقارنة بقوائم الضريبة المصرية . تذمر الشعب ، بيد ان الحكومة لم تستطع رغم زيادة الضرائب خلق توازن بين الواردات وبين نفقات الادارة السوريـــة ومصاريف الفيلق الذى كان يبلغ عدد افراده فى المنطقة المستولى عليها ١٥ او ٢٠ الفا . وقد التهمت سورية فى سبع سنوات ٣٠٠ الف كيس (قرابة ٩٠ مليون روبل فضة) من خزينة الدولة . هذا بالاضافة الى ان مبلغ المستحقات فى ظل ضعف الادارة يتزايد سنة اثر اخرى ، وهو يبلغ فى العام الحالى (١٨٤٧) مقدار ١٤٠ مليون كيس ، والجمارك وحدها هى التى قدمت فى ظل النظام المالى الجديد

موارد كبيرة مقارنة بالعهد المصرى ، ولكن لا ينبغى ان يعزى هذا الى تنشط تجارة المنطقة وصناعتها – على العكس ، فالتجارة والصناعة على حد سواء ضعفتا كثيرا – بل ينبغى ان يعزى فقط الى تطبيق التعريفة الجديدة على اساس المعاهدة التجارية لعام ١٨٣٨ التى الغت كل احتكارات تجارة الجملة وكل الرسوم الداخلية على البضائع المستوردة .

تشكل هذه المعاهدة فاتحة عهد جديد لتجارة الامبراطورية العثمانية مع الدول الاوربية ، وهى ايضا من اهم التحولات فى الدولة ، ولهذا يجب علينا ان نشرح هنا اسسها .

فرضت تركيا على التجارة الخارجية فى فترة معاهداتها التجارية الاولى مع الدول الاوربية ضريبة عامة بنسبة ثلاثة فى المئة سواء للبضائع المستوردة او للبضائع المصدرة بدون اية تقييدات . وهكذا نفذت فى الشرق مقدما اجرأ واحدث نظريات حرية التجارة التى تطورت الآن فى المجتمع الانكليزى باسم free trade . ان الاملاق العام للدولة ، التى حبيت بسخاء بكل ثروات التربة والمناخ ، وانهاك وتدمير صناعتها القديمة ، التى جعلت اوربا منذ اقدم الازمنة دافعة اتاوة لتركيا ، ترد ببلاغة على كل هذه النظريات المزيفة ، شأن كل النظريات غير المقيدة التى يغفل انصارها ودعاتها ظروف المنطقة والعصر ، ومستوى واتجاه التطور الصناعى للمجتمع .

لن نعزو الى نظام التجارة الحرة تدهور الزراعة فى تركيا وتناقص السكان والاغذية وكل العواقب الحتمية للنظام الحكومى التركى . ولكن الى اى شيء آخر نعزو التدهور التام لصناعة النسيج التى كانت تشجعها الحكومة دوما ، والتى ، وقد استقرت فى المدن ، تعانى اقل من غيرها او لا تعانى تقريبا الاضطرابات السياسية فى المنطقة ؟ كان فى المدن السورية منذ اربعين سنة ما مجموعه ٥٠ الف نول للاقمشة الحريرية ونصف الحريرية والديباج . والآن لا يكاد يبلغ عددها ٢٥٠٠ نول . واستعيض فى كل تركيا عن الاقمشة المتينة والجميلة للصناعة الشعبية باردأ اصناف شيت منشستر التى تكيف بالرسوم للذوق المحلى . اذا كان كل نول يعطى ربحا صافيا فى يوم العمل ٧٠ كوبيكا فضة على الاقل ، فان سورية تخسر بفقدان هذه الصناعة ما يربو على ٣٣ الف روبل فضة من الدخل الصافى فى اليوم ، وهذا المبلغ يتضاعف اذا اخذت فى الحسبان الدورة التجارية للبضاعة المحلية وتحضير المواد الخام والاصبغة وغيرها . كان يحضَر فى جبال اليهودية ونابلس ولبنان الكثير من الغزل القطنى ، وكان يصدر فى اواخر القرن الماضى من يافا وعكا سنويا ثلاث او اربع حمولات من الخيش القطنى الذى كان يستخدم فى المستعمرات لصنع قمصان للزنوج . والآن يبيع الفلاحون قطنهم ، الذى يمكن ان يبلغ كل محصوله قيمة نصف مليون روبل ، فى حين تستورد سورية سنويا مصنوعات قطنية انكليزية من الغزل والخيش والشيت

بقيمة ثلاثة ملايين روبل . هذه الارقام البسيطة تبدو لنا ابلغ واوضح من اية تفسيرات نظرية حول التكافؤ الاكيد فى النتائج بين انتاج واستهلاك كل بلد وحول الازمات الموقتة فى كل صناعة . وتغدو اكثر تعبيرا عند رؤيـــة الاملاق المتزايد سنة اثر اخرى لاسر اصحاب المعامـــل السابقين فى حلب ودمشق . ان دعاة التجارة الحرة بلا تبصر ينصحون اصحاب المعامل المفلسين بتحطيم الانوال التى ورثوها عن ابائهم والتوجه الى المحراث ؛ ولكن هل هذا قابل للتحقيق فى الممارسة ؟ فهلا ضربوا لنا مثلا واحدا على سكان ترعرعوا فى صناعة النسيج ثم تحولوا الى مزارعين ، الا اذا املق جيلان او ثلاثة مسبقا ؟

انطلاقا من الاساس الثابت للرسم العام الذى يبلغ ثلاثة فى المئة ، كانت تركيا تتفق مع كل دولة على تعريفات لاجال معينة تتغير مع تغير سعر البضاعة وقيمة العملة . هذا فى حين ان الدولة كانت تحتاج الى النقود مع نفاد دخول الدولة فى البلاد المصابة بالاملاق المطرد ، ومع المصائب الداخلية والخارجية المتعاظمة . فى البداية كثرت جمارك التجارة الداخلية ، وخلافا لمغزى المعاهدات صار يفرض رسم على البضائع الاوربية حتى عند نقلها من ميناء الى آخر . احتجت السفارات ، ولكن الباب العالى كان يصر على ادعاءاته ويفسر المعاهدات على هواه . وصار ، من الجهة الاخرى ، يطبق احتكار بعض المنتجات ، وبالتدريج انتشر هذا النظام بحيث ان الحكومة كانت تشترى فى السنوات الاخيرة من حكم محمود كل مواد تجارة الجملة تقريبـــا من المنتجين باسعار تحددها الحكومة بشكل يلحق الضرر بالانتاج . كان يسمح احيانا للتجارة بشراء هذه المنتجات من المنتجين انفسهم ، ولكن بناء على فرمانات خاصة مع دفع رسوم تفوق سعر البضاعـــة بالاضافة الى الرسوم الجمركية المفروضة وفق التعريفة . وعلى هذا الاساس كان كل باشا يفرض رسما على تجارة الجملة لمنطقة . املقت الدولة ، وكان المزارع ، المضطر الى التخلى عن منتجاته للملتزم او الباشا لقاء ثمن بخس دون ان يتلقى فى الغالب مكافأة على عمله ، يترك حقوله غير مزروعة ويقنع بخبز يومه . وكما ان الحرية الممنوحة لتجارة الجملة بلا تبصر قوضت صناعة النسيج ، فان اجراءات الحظر والالتزامات واحتكار المنتجات البسيطـــة قضت على الانتاج نفسه .

لم ينل نظام الاحتكارات فى اية منطقة عثمانية مثل ذلك التطبيق الشامل والصارم الذى ناله فى مصر . كان الباشا يستطيع ان يرغم الفلاحين بالقوة على زراعة وادى النيل الخصيب . لقد زاد انتاجيته عشرة اضعاف وزاد مسبقا من دخوله الى مبلغ طائل يبلغ ٨٠٠ الف كيس مصرى (قرابة ٢٧ مليون روبل فضة) .

ضجت التجارة الاوربية منذ امد بعيد بالصراخ ضد الاحتكارات والجمارك

الداخلية . وبدأت الحكومة تدرك العلة الجذرية للنظام المميت بالنسبة للصناعة الشعبية الذى يحول الحقول الخصبة الى قفار ، وان كان يشكل مصدر ارباح موقتة للخزينة . وبالمناسبة ، فان اكثر الحجج اقناعا ضد الاحتكارات واقع انه نفد بالغائها المصدر الرئيسى لثروات وقوة محمد علي . حدث ذلك فى عام ١٨٣٨ ، حينما كانت كل افكار محمود منصبة على سورية . عقدت اول الامر معاهدة مع انكلترا (٥ (١٧) آب/اغسطس) فى صدد تجديد تعريفتها دوريا ، ثم مع الدول الاخرى . وقد الغت هذه المعاهدة كل الاحتكارات وكل الجمارك الداخلية فى الامبرطورية ، وعوضا عن ذلك اضيفت رسوم جمركية بنسبة ٩٪ على البضائع المصدرة و٢٪ على البضائع المستوردة ، ولكن بحيث يمكن للبضائع التى اخذ منها هذا الرسم الاضافى ان تنتقل بحرية من سوق الى اخرى او تصدر الى الخارج . وهكذا ، فعوضا عن الرسم الاساسى بنسبة ثلاثة فى المئة ، فرض رسم بنسبة خمسة فى المئة على البضائع المستوردة ، واثنى عشر فى المئة على البضائع المصدرة .

هذا التناسب يبدو غريبا ، ولا شك ، فكل دولة تجهد لان تساعد قدر الامكان على تصريف منتجاتها وتثقل فى الغالب البضائع المستوردة بالرسوم . ويغدو اكثر غرابة اذا تذكرنا ان تركيا لا تزود الآن الدول الاخرى الا بالمنتجات الخام وتتلقى بالمقابل مصنوعات نسيجية . ولكن للاتراك مفاهيم اقتصادية مغايرة ، وتتجلى فى معاهدة عام ١٨٣٨ اكثر من اى شيء آخر الفكرة السياسية المعادية لمحمد علي ، ويتغلب التأثير الاجنبى الذى حاول الاتراك ارضاءه اكثر ما يكون ليكتسبوا عطف اوربا ويزيدوا من غضبها على التابع المصرى . وننوه بان محمد علي فى تلك الفترة لم يستطع ، خشية الافلاس ، الاذعان لفرمان تصفية الاحتكارات .

لقد ذكرنا ان محمد علي لم يطبق الاحتكارات فى سورية ، وحتى انه منح التجارة السورية حرية اكثر بالغاء اجراءات الحظر السابقة . كان يستحيل هناك تطبيق العمل القسرى على الفلاحين لزيادة الانتاج ، على غرار مصر ، لاسباب سياسية ونتيجة لخاصية الارض السورية نفسها . ولم يبق سوى جذب الشعب الى الزراعة بالتسهيلات . ولهذا السبب نفسه لم يلق تطبيق النظام التجارى الجديد عقبات هناك . وقد وفر للاتراك دخلا جمركيا يربو اربعة اضعاف على نظيره فى عهد الحكم المصرى (قرابة ٢٠ الف كيس) .

فى صدد بناء السلطة المدنى شرحنا فى الفصل الاول من هذا الكتاب بالتفصيل نظام تلزيم ادارة المناطق والنواحى نفسها . ويتلخص الاصلاح العملى الاساسى للحكم الحالى فى كون الباشوات والمتسلمين لا يديرون الآن الجانب الاقتصادى ولا القوة العسكرية . وهم يتقاضون مرتبات عوضا عن استخدام دخول الدولة لقاء دفع مبلغ يتفق عليه الى الخزينة . ويعين فى كل باشالك موظف خاص ، دفتر دار ، عن وزارة المالية لادارة الدخول

والمصاريف . ويقيم فى كل ناحية محصل للشؤون الحسابية . ولكن لا يزال هناك الكثير من النواحى التى يستمر فيها بحكم الضرورة نظام الالتزامات القديم . ومما جعل محاولات الباب العالى الغاء الالتزامات اقل نجاحا كون اعيانه ، من الوزراء الى مدراء النواحى ، ما زالوا يجنون منها/من الالتزامات/ ارباحا كبيرة ، حيث يعقدون صفقات مع الملتزمين ويقاسمونهم الارباح . واحيانا يأخذ الباشوات انفسهم الالتزام باسماء غيرهم . يسهل تصور مدى المضايقات الرهيبة التى يعانيها الشعب حينما يساهم حاكم المنطقة نفسه فى التزام ضريبة العشر ، عن منتجات الحقول مثلا ، التى توفر فى تركيا مناسبة للفساد اكثر من اى شيء آخر من حيث جوهرها واسلوب تحصيلها .

يشكل القوة العسكرية فى سورية فيلق عربى خاص (عربستان اوردوسو) ، احد فيالق الامبراطورية الخمسة ، ويقع تحت قيادة سرعسكره ويتبع وزارة الحربية مباشرة . تتوجه السلطات المدنية الى العسكريين حينما تحتاج الى مساعدة القوة العسكرية ، ووُضعت تحت تصرفها من اجل بوليس المدينة والريف قوة غير نظامية او مستخدمون مسلحون من المشاة والخيالة . وسورية وحدها من بين كل المناطق العثمانية معفاة من التجنيد ، وكأنما تترك لها الحكومة المجال لتتمالك نفسها من التجنيد المصرى الشاق ، او كأنها تحاول بهذا التنازل ان تكفر عن ذنب ممثليها فى سورية * .

مع كل تطلع الباب العالى المركزة ، لم تلغ الى الآن القاعدة الغربية التى تترك بحكمها كل مراتب الادارة المدنية فى المناطق لاختيار الباشا وتصرفه الخاصين . وفى كل مرة عند تغيير الباشا يعين خلفه اشخاصا جددا من حاشيته او من السكان الاصليين فى كل النواحى التابعة له . تضم ايالة صيدا من ٣٠ الى ٤٠ ناحية . وقد منح عدد كبير منها ، ولا سيما المناطق الجبلية ، للعائلات المحلية التى تطمع فى حقوقها السابقة ونفوذها السابق الذى كبحه الحكم المصرى . ومهما كانت مطامعها ذميمة بالنسبة الى التنظيم الحكومى والى سلطة السلطان الساعية الى لجم الاستبداد الاقطاعى ، فان عجز وفساد الموظفين الاتراك المنتخبين من بين حشم الباشوات يوفران من نواح كثيرة المبرر لاعيان سورية ويساعدان على انتصارهم فى الصراع الصريح احيانا والخفى احيانا اخرى والعنيد والنشيط فى كل الاحوال ضد المستحدثات التى يمقتونها . ويعين فى المدن متسلمون اتراك من حاشية الباشوات . ويمكن تصور الفوضى الدائمة لكل الادارة عند التغيير الدورى ، السنوى تقريبا ، لكل هؤلاء الحكام المتنقلين من منطقة الى اخرى مع كل باشا جديد . وتحت راية الاصلاح السياسى حل الربا مكان الالتزامات القديمة للادارة ، اما مكائد الاعيان والخصومات العائلية والصراع بين الاحزاب فتتجلى بالشكل

---

* بدأ التجنيد فى سورية عام ١٨٥١ .

نفسه تقريبا الذى رأيناه مرارا فى عهد سورية السابق . ومهما كان الامر ، فان تجربة وتقاليد الحكم المصرى ، واكثر من ذلك اتجاه السلطة الحكومية المركزية والحد من حقوق ولاة السلطان فى المناطق تنطوى على تأثير منقذ فى هذا البلد الفوضوى رغم كل الاخفاقات وكل الهفوات التى اتسمت بها محاولات الاتراك فى سورية الى الآن . لم تعد السلطة الحكومية تتجلى فى شكلها الشرس السابق . لا يوجد تنكيل جماعى ، ولا اعدامات تعسفية ، ولا ضرائب وغرامات تؤخذ بلا رقيب او حسيب . واذا كان الاستبداد الاقطاعى فى اقترانه بالعادات الشعبية لا يزال مصرا على اساءاته ، فان نظرية حقوق الاهالى على الاقل ، تنتشر فى كل سنة ويتغلغل الشعور بها فى كل الشرائح بالتدريج .

لعل المبادئ الانسانية ، التى يسترشد بها الآن الباب العالى فى ادارة سورية ، لا تتفق ابدا والحياة الخلقية للمنطقة ، ولعلها سببت من الضرر لفكرة جبروته وحكمته فى رأى الشعب قدر ما سببته اخطاء ممثليه ؛ ولكن مهما كان الامر لا يسعنا الا ان نرى فيها نجاحا يبعث على سرور البشرية . والادارة التركية الجديدة فى سورية هى من هذه الناحية افضل من حكم المصريين الصارم . ولنتذكر ايضا ان عبقرية التحولات ، حتى حينما تصل الى حدودها الطبيعية ، تتجاوز دوما من حيث اتجاهها نفسه هذه الحدود فى اندفاعة نجاحها الاول او خشية ان يحكم عليها اى توقف برد فعل قاتل .

وجه الباب العالى منذ عام ١٨٣٩ كل جهوده نحو لجم سلطة ولاته اكثر واكثر . واذ عزا الى استبداد الباشوات وهن الامبراطورية وتخريب اكثر المناطق ازدهارا ، تخلى نفسه عن العسف بحكم النظرية المرنة لوثيقة غولخانة ، وعوضا عن ذلك اخضع ولاة السلطان فى المناطق والسلطة التنفيذية عموما لتقييدات تحكم على هذه السلطة بالعجز التام ، ولا سيما حينما لا يولى الباب العالى الولاة عطفه .

ادى هذا النظام بدوره الى شر جديد ، الى اضعاف الاساس الذى تقوم عليه السلطة فى الدولة غالبا . يمكن القول ان الخوف كان منذ تأسيس الامبراطورية العثمانية المحاربة الى ايامنا العنصر الاساسى لقوتها الداخلية وحرفتها الحكومية . ان الخوف من اسم السلطان ، لا القانون ولا الثقة ولا حب الشعب ، هو وحده الذى يربط فى كل واحد هذه الانقاض المتنافرة التى تتكون منها الامبرطورية بالعنف . وعلى هذا الاساس كان والى السلطان فى كل منطقة حتى ايامنا هذه يرغم الشعب على الطاعة بالخوف وحده ، اما الدم المراق وتأوهات الشعب فكانت لارهاب الجمهور اكثر مما هى لارضاء عنف الباشوات الفطرى . لقد وجهت الحراب الروسية طعنات قاتلة الى هذا العنصر الرهيب منذ زمن يكاترينا . واضعفته بدرجة اكبر المصائب الداخلية التى اتسم بها حكم محمود . كان من الضرورى للسلطان الشاب ان يبحث عن عنصر

جديد من القوة الداخلية لدولته المهددة بالدمار ويستميل القلوب لكى يكفر بالحكم الابوى عن القسوة القديمة التى ارهق اسلافه الشعب باسمها . ولا شك فى ان هذا الاصلاح ارشد واصعب من كل ما انجزه ابوه .

بهذا المعنى فهمت اوربا وثيقة غولخانة . لقد شرحنا اهمية هذا الاصلاح المجيد والفكرة الاساسية التى استرشد بهـا صانعوه على حساب سلطـة السلطان . ان آثار الاصلاح فى كل ارجاء الامبراطورية وازمات سورية السياسية ، التى سنتحدث عنها ، تبرر نظرتنا تماما . نحن لا نخاف ان نتهم بالتشاؤم ، وذلك على الاقل من قبل المراقبين الذين لا يقدرون الاصلاحات الحكوميـة انطلاقا من العبارات ، ولا من النظريات والوعود المعلنة على مسمع المواطنين والعالم الخارجى ، بل انطلاقا من الوسائل المتوفرة ، من النوابض الخفية للنشاط الحكومى ، من المصالح السائدة ، من مزاج المجتمع ، من العناصر والظروف المحلية ، من جانب القضية العملى ، لا من اخراجها المسرحى .

هذه الملاحظات لا تنحو ابدا نحو الادانة المطلقة للاتجاه الذى اتخذه اصلاح عام ١٨٣٩ . فهذا الاتجاه مضر للغايـة بالنسبة الى مصالح سلالة الدولة العثمانية . ولا شك فى انه يساعد على نجاحات المبدأ المدمر الذى اكتشف منذ امد بعيد . وقد حكم بالعجز على سلطة السلاطين المطلقة التى كان فى وسعها ان تبعث الدولة بالسير على الطريق الذى اختاره العقـل الراجح والارادة الحديدية لمحمود . ولكن بالنسبة الى القبائل الشرقية ، فان الطريق الذى يسير عليه الاصلاح قد يقودها الى مستقبل افضل ، مهما كان الافق المقبل لمحنها الجديدة قاتما .

حينما يخص الامر تركيا والاجراءات الحكومية لهذه الدولة ، فان عدم التحيز يفرض علينا واجب التمييز الصارم بين مصالح الدولـة والمصالح الاجتماعية . لا يوجد فى تركيا شعب بالمعنى الذى نفهم به كلمة الشعب بالنسبة الى الدولة . فى تركيا قبائل قيدت فى دولة بالقوة المادية وحدها . وقلدت حق الحكم من بينها القبيلة الاكثر فظاظة وتخلفا وكسلا . ان اربعة قرون من العنف الاهوج المنتظم والتهتك الدامى ضد دين وقومية الشعوب المقهورة لم تتمكن من ان تسبغ على القبيلة الحاكمة افضلية غير عادة بعث الخوف وتكريس الحق الذى اكتسبته بالسيف فى اعين العالم الخارجى . لقد بقيت الحكومة تركية او ، بالاحرى ، مسلمة على وجه الحصر ، اما القبائل الخاضعة التى حافظت على دين آبائها ، فبقيت فى حالة العبودية .

حل القرن التاسع عشر . واخذ العنصر الشعبى ، الذى ايقظته فى اسرة الدول المسيحية الحروب الشعبية واصداء الافكار التى انتصرت فى فرنسا ، يكتشف فى كل مكان قوى جديدة ومطالب جديدة ، وكان ينبعث من القبر احيانا . وفى ظل اشتداد الصلات التجارية والسياسية بين الشرق والغرب وبعد الصراع الطويل بين روسيا وتركيا اخذ مفهوم حقوق الناس والشعوب

يتغلغل فى القبائل المعذبة للشرق العثمانى . وتحركت هذه القبائل . ولما لم تدرك الحكومة مغزى العصر الذى حل والعنصر الجديد الذى تجلى ، تابعت فى الربع الاول من هذا القرن صراعها العنيف كالسابق ضد قوة الشعوب التى لا تقهر . ولكن على اثر ابادة الانكشارية اخذ محمود ، الذى حنكه الصراع ضد قبيلته وضد اليونانيين والصربيين ، يفهم على نحو افضل مغزى العصر والاتجاه الجديد الذى اسبغته الظروف الداخلية والخارجية على حيـــاة الامبراطورية العثمانية . واخذ يستعد بصورة استبدادية للاصلاح الجذرى ، الذى تحدثنا عنه ، الاصلاح الوحيد القادر على انقاذ الدولة والسلالة بتجديد الصرح السياسى للشرق على اساس مسيحى .

وبموت محمود انهارت الخطط التى وضعها ، واحاطت مؤامرة الوزراء فى غولخانة خلفه الضعيف بشباكها . ومع اعلان التسامح الدينى بدأ عهد جديد من الملاحقات ضد المسيحيين وضد الاقوام ، عهد من الملاحقات الغادرة . ومنذ ذلك الحين ابتعدت فى تركيا اكثر من اى وقت مضى مصلحة الدولة عن المصلحة الاجتماعية ، واذ اصبحت ملكا للقبيلة والفئة الحاكمتين على وجه الحصر ، اثارت التناحر القائم بالضرورة بين السيد والعبد . وبقى للقبائل التابعة الامل فى التطور الداخلى على الرغم من مآرب السلطة المعادية . من يحق له فى هذا الوضع للعناصر المتعارضة ان يلـــوم القبائل التابعة من اليونانيين والالبانيين والصربيين والبلغار والفلاشيين والمولدافيين والارمن والكلدانيين والاكراد والبدو والدروز والنصيرية حينمـا تفرح سوية باية مصيبة تحل على الدولة العثمانية والقبيلة الحاكمة ؟ فى تركيا الاوربية اطلعت القبائل التابعة منذ امد بعيد تحت تأثير العوامل الخارجية وبفضل طاقتهــا وتجربتها فى العصيان على مفهوم الحقوق الانسانية التى تنتهك فى الشرق بلا تبصر . لقد احتفظت بذكرى استقلالها السابق وبالامل فى المستقبل . ولكن فى سورية ، كما فى آسيا الصغرى ومصر ، تعودت القبائل التابعة ، ولاسيما المسيحيون ، فى فترة من العبودية استمرت اثنى عشر قرنا ، فكرة ان حياة العبد وشرفه وثروته مرتهنة باهواء الحاكم ، وان العدالة ليست من واجبات صاحب السلطة ، وان القبيلة العثمانية تملك بحكم افضليات اصلها المنطقة وقبائل المنطقة ، وان الباشا او المتسلم او الدريبيه وكل خدم الحكومة او الاقطاعيين لم يُخلقوا الا لينهبوا ويفسدوا ، كالجراد يولد من الارض ليلتهم الزرع .

فى هذا المزاج وجد ابراهيم القبائل فى عام ١٨٣٢ . وتحت حكمه كان كل تصرف عادل مـــع الاتباع يثير فى الشعب الدهشة اكثر ممـــا يثير السرور . واخذت الفكرة الجديدة حول الحقوق الانسانية تتغلغل فى المفاهيم الشعبية . لقد طرد الاتراك من سورية وهم يرتدون العمائـــم والاخفاف . وعادوا بعد ثمانى سنوات مرتدين الطرابيش والستر الضيقة والجزمـــات

الملمعة ، وبرفقة حلفاء من الكفار . ومع ذلك رأت القبائل السورية فيهم العادات الجذرية لحكامها . لقد رأينا كيف تميز لواء الانزال التركى الذى جهزه محمد علي عمدا فى الحملة على الجبليين المتمردين . ولكن الآن ، بعد استقرار السلطات العثمانية ، اخذ السكان الاصليون يرون التدخل الجرىء لممثلى الدول الكبرى فى الشؤون الحكومية والادارية ، وادركوا ان الباشوات يدعون ، خلافا لشعورهم الخاص ونتيجة لاشراف القناصل المفروض عليهم ، الى التسامح الدينى ويجهدون فى اظهار انفسهم عادلين مع الاتباع .

ثم صدرت فرمانات باصرار من السفارات اوضح فيها السلطان لباشواته ببلاغة ان القانون يضمن حياة وشرف وممتلكات المواطن ، بغض النظر عن دينه . كل هذا احدث انطباعا عميقا فى الجماهير . من جهة ، اخذت تتطور باكورة مفهوم الحقوق الانسانية ، ومن الجهة الاخرى اخذت تضعف فكرة جبروت الباب العالى وعملائه وخدم تركيا عموما . اذا اهان موظف تركى او سائس او شبوقجى من حاشية الباشوات مسيحيا عابرا ، كان المهان يستطيع ان يشكو الى الباشا نفسه او يلجأ الى حماية القنصل ويسعى الى انصافه . فى الماضى كانت جرأة كهذه تكلف المرء حياته . وهذا ما يجعلنا نقول ان الاوامر الجديدة للباب العالى كانت تنطوى بمساعدة الظروف المحلية على تأثير منقذ بالنسبة الى مصير القبائل ، حيث تساعد على تطوير مفهوم الحقوق الانسانية ، حجر الزاوية لكل نجاح مدنى . نحن نتحدث عن الحقوق الانسانية ، لا الحقوق المدنية البعيدة جدا الى الآن عن متناول قبائل الشرق التى تبلد حسها فى العبودية والاذلال .

ننوه بان معاملة الضباط الانكليز للاتراك سواء فى خلال الحملة كلها ، او بشكل خاص بعد انتهاء العمليات الحربية ساعدت على اقتناع القبائل السورية بتدهور الجبروت التركى . فى معسكر الحلفاء فى جونية كانت خيمة الكومودور نيبير تشغل موقعا مركزيا على مرتفع وفوقها يرفرف العلم الانكليزى . وادنى منه بكثير ، وعلى جانبيه يرفرف العلمان التركى والنمساوى . وتذكر السكان الاصليون انه منذ قرابة عشر سنوات ، حينما اقام الانكليز قنصليتهم فى بيروت ، ادعى سواد المدينة ان العلم ، الذى صور عليه الصليب ، يلقى بظله على اقرب مسجد مما ادى الى هرب الملائكة الراقدين على القبة ، وارغموا القنصل على انزال علمه والبحث عن مقر بعيدا عن الحى الاسلامى وعن المسجد . والآن اصبح السرعسكر العثمانى تحت امرة الكومودور وصار يتحمل شتى الاهانات . وكان نقباء وملازمو الفصيلة الانكليزية يوجهون اوامرهم الى الباشوات دون اية رأفة بالغطرسة التركية ، احد اقوى نوابض الجبروت التركى .

واخذ ممثلو فرنسا ، الذين حقدوا بدورهم على الاتراك بسبب تحالفهم مع الانكليز ، يعاملونهم بازدراء ويبحثون عن مبررات للشجار معهم ، فى

حين ان الباب العالى كان قد امر الباشوات امرا صارما بتجنب كل ما من شأنه ان يعطى فرنسا ذريعة للشكوات .

كانت مواقف القنصلية الروسية من السلطات المحلية ودية اكثر . ولكن المسيحيين ، اتباع السلطان ، كانوا يلجأون بجماعات كبيرة الى حماية العلم الروسى ، وكان الباشوات يتحملون الرقابة التى فرضها تهاونهم والتى كانت شيئا متينا بالنسبة الى السلطة التى عهد بها اليهم . ان الاوامر التى اصدرها السرعسكر الى كل المناطق والتى يهدد فيها بالعقاب الصارم على الاساءات التى توجه الى المسيحيين والكنائس قد وزعت على الرؤساء المحليين عبر القنصلية الروسية ، وفيها تذكير على الملأ بشكوات القنصلية . هذا ما فعله الباشا ذو التفكير البليد ليبرر امام ابناء ملته مقاومته لتعصبهم . وغاب عن انظاره انه اسبغ بهذا صفة شرعية على تدخل ممثل الدولة المسيحية التى تعود اتباع السلطان الاتكال عليها . كانت اوامر الباشا مليئة باستشهادات من القرآن فى مصلحة التسامح الدينى . من المعروف ان القرآن يحتوى على كل شيء تماما ، على السياسة والقضاء من الفهما الى يائهما (. . .)

يكفى تفسيره بنية حسنة ، كما يفعل كتبة استنبول وفريسيوها حينما تأمرهم الحكومة باخلاص وحزم . وهذا ما حدث فى عهد محمود . لم تجرؤ الوزارة حينذاك على ان تعارض بمساعدة العلماء ارادة السلطان بمكائد فقهية وتحتال على السفارات متذرعـــة بقوانين الاسلام الجذرية . ولكن الوزراء والعلماء يبرهنون فى عهد عبد المجيد على استحالة الغاء حكم الاعدام على المرتد ، المسيحى الذى يتهم عن طريق شهادات كاذبة بانه اعتنق الاسلام ثم تبرأ من محمد ، واستحالة قبول شهادة المسيحى فى قضية شهد فيهـــا مسلم . بيد انه لا يوجد فى القرآن حتى مجرد تلميح الى هذا او ذاك من القرارين المروعين . وارغم تهديد الدول المسيحية بالحرب الباب العالى على تخفيف القانون المتعلق بالمرتدين ، ولكن القانون الآخر ، الذى ينطوى على تأثير أوخم بما لا يقاس بالنسبة الى المسيحيين وتنظيم الدولة ، لا يزال ساريا الى الآن بكل قوته . منذ دخول السلطات التركية فى المنطقة المستولى عليها كانت هفواتها وعجزها من جهة ، والعواقب الحتمية للتحالف مع الدول الاوربية وتأثير وثيقة غولخانة وتعصب شعب سورية المسلـــم من الجهة الاخرى ، عامل خير بعون الارادة الالهية ، حيث ساعدت على تطور افكار جديدة وشعور جديد فى الجماهير الشعبية . هذا الاتجـــاه ادى الى ازمات دامية سنتحدث عنها ، وعرض المسيحيين السوريين لمحن مريرة . ان استئناف ازمات كهذه فى وقت قصير امر لا شك فيه . ومع ذلك ينفتح الآن اماالقبائل السورية افق جديد ، اما الحكم التركى الذى يشكل عقبة للمدينة ، فيبدأ بالاهتزاز فى هذه المنطقة المعذبة ، كمـــا يهتز فى المناطق الاوربيـــة من الامبرطورية .

الفصل العشرون

نبذة تاريخية عن مآثر كوجوك علي اوغلو فـى بياس وعن ابنيه دده بيك ومستيك بيك .

عند دراستنا لحياة القبائل السورية وجهنا اهتمامنا الى احداث لبنان فى الغالب . لقد تتبعنـــا فى تلك الاحداث وفى اجراءات ضاهر العمر العنصر الشعبى فى مختلف تجلياته ومراحله . ويحق لجبليى لبنان من كل النواحى ان يشغلوا مكان الصدارة فى هذه اللوحة التاريخية ، ويتراءى خلفهم مختلف قبائل الجبال والسهول السورية الاخرى ذات التقاليد الباهتة والمستقبـــل الكالح ، وفى عمق اللوحة ، فى ابعادها الرملية يتنقل البدو فى ايامنا ايضا ، كما كانوا فى اقدم العصور .

سنضيف الى ذلك حادثة تاريخية تشكل اسطع تعبير عن درجة التأثير الحكومى ومعيشة الشعب من الزاوية الشماليـــة الغربية من سورية ، حيث يتغلب فى جوار طوروس العنصر التركمانى ، لا العربى .

من بين الحكايات الحديثة ، التى تحفل بها مناطق سورية ، تختار قصة مآثر كوجوك علي اوغلو فى ثيرموبيل السورية ، فى ايسوس القديمة ، التى ترمز الى احد الانتصارات الثلاثة التى قرر بها البطل المقدونى مصير الشرق فى حملته المظفرة من تراقيا الى الهند والى الحدود القصوى للعالم المعروف . هذا الموضع الكلاسيكى يسمى الآن بياس * . يشكل طوروس نتوءا يمتد من آسيا الصغرى ويتوقف عموديا عند البحر ، معانقا بسلسلة من الصخور الجرداء المكللة بالثلوج خليجا واسعا اطلق عليه اسم اسكندرون نسبة الى بلدة اسكندرون ، الاسكندرونة قديمـــا التى اسسهـــا الاسكندر الكبير (المقدونى) فى سورية عوضا عن صور التى دمرهـــا . وتحت تأثير الحمى

---

* لعلها تحريف للكلمة التركية « بياظ » — بياض ، بسبب القمم القريبة المغطاة بالثلج لطوروس الذى تتاخم اطرافه النهائية سورية من هذا الجانب .

المستوطنة الخبيثة ، رفيقة كل تدمير ، اقفرت هذه السواحل منذ امد بعيد ، واخذ عدد السكان يتناقص باستمرار .

ويضيق الطريق بين الصخور والبحر بحيث يمكن بسهولـــة فى بعض الاماكن اغلاقه بحاجز . ويستطيـــع هنا عشرة قناصة شجعان ايقاف جيش كامل . بيد ان هذا الطريق هو اضمن واقصر طريق بين الاناضول وسورية ، وفى حال قطعه يضطر المسافر الى الالتفاف حول طوروس عبر فروعه الشرقية والقيام بمسيرة اكثر من عشرة ايام عبر اصعب الممرات الجبلية . وتقع بلدة بياس على الجانب الداخلى لخليج اسكندرون ، حيث يوفر الممر انسب الظروف للدفاع .

امضى خليل بيه ، الذى انعم عليه سليم الثالث بلقب باشا والمعروف باسم كوجول علي اوغلو ، شبابه فى اواسط القرن الثامن عشر فى عهدة ابيه علي بمثابة قاطع طريق تركمانى بسيط فى الجبال المطلة على بياس . فى تلك الفترة كانت هذه المدينة لا تزال تقوم بالتجارة مع مصر ، وكانت تصدر اليها قرابة ٢٠٠ رحل حرير من غزلها . وقد اقلق خليل الشاب المدينة بغاراته الجريئة ومارس النهب فى الضواحى واجتاح البساتين والمزارع . وصار اصحابها يفتدونها بالهدايا ، واصبحت هذه العادة قانونـا ، وفرض قاطع الطرق على المدينة وسكانها ضريبة معينة كان البعض يقدمها عينا والبعض نقدا . وقوى النجاح من وسائل هذا المقدام . وحينما وصل عدد افراد عصابته الى خمسين شخصا ، فكر فى احتلال المدينة نفسها . وقتل غدرا كل سكان المدينة واحدا اثر الآخر ممن يتسمون بالعقل او الثروة او النفوذ . وبقى واحد من كبار المسلمين يحرسه خدمه لم يستطع قتله بالوسائل العادية . عقد خليل معه حلفا وزوجه ابنته واوحى اليه بالثقة ، وبعد شهرين دعاه الى وليمة فى جباله وذبحه بيده . وبقيت ارملته حاملا . وحينما ولدت نصح خليل ابنيه بخنق الطفل فى المهد . وقال : «لم تطاوعنى نفسى ان اقتل فى احشاء ابنتى تمساحا يمكن ان يتحول الى منتقم مع الزمن» .

هكذا اصبح كوجوك على اوغلو حاكما لبياس وللجبل الذى كان حتى ذلك الحين يتنقل فى ارجائه للسلب . كان الحاكم يعنى فى عهد ادارة الامبراطورية التركية حينذاك ان يكون السيد المفوض ، المطلق للارض والشعب ، ولشرف وحياة وممتلكات كل من كان فى متناول يده . كـان هؤلاء الحكام يشكلون طبقة جبارة من الدريبيين ، الذين تلقـوا حقوقهم اول الامر من السلاطين لحماية الممرات الجبلية ثـــم تحولت هذه الحقوق مع الزمن فى ظل الوهن المطرد للسلطة المركزية الحكومية الى طغيان جامح يقوم على السيف والجرأة ومناعة المنطقة التى كان الدريبى يبنى وكره فيها عادة . لم يكن عندهم حد لارغام الشعب التابع غير الابقـــاء على صبر الطبقة الصناعيـــة (الفلاحين والحرفيين) حتى لا يهربوا سرا ، والا نفد مصدر الدخل . ولكن لما كانت

الامبراطورية كلها ترزح تحت وطأة العلة نفسها ، ولم يكن الباشوات افضل من الدريبهوات ، ان لم يكونوا انفسهم قد نالوا هذا اللقب حينما كانوا من فئة الدريبهوات ، فان الشعب كان يعانى ويضنى بلا امل ، عارفا ان تحسين قسمته بتغيير المكان والمستبد امر مشكوك فيه جدا .

بقى كوجوك علي اوغلو قرابة نصف قرن يرتكب فظائعه هناك ، باثا الذعر فى السكان والقوافل التى كانت فى طريقها من الاناضول الى سورية ، والتى كانت تشكل مادة دخله الرئيسية . كان الباب العالى يغضب عليه احيانا ويطلب رأسه من الباشوات المجاورين ، وكان رأس الدريبى فى ايديهم ، ويعلن احيانا العفو عنه وينعم عليه بالبنجقات ، مسبغا باسم السلطان الصفة الشرعية على الفظائع التى لم يستطع ردعها . وفى الواقع ، كانت المصالح المشتركة سواء للباب العالى او للدريبى تتطلب الوئام الحسن بينهما . ولما لم تكن عند الباب العالى وسائل لمعاقبة ، فـــان الضرر الوحيد الذى كان يستطيع ان يسببه له هو منع كل القوافل من سلوك الساحل الى سورية عبر بياس . وبهذا سبب فى افلاس الدريبيـــه ، حيث حرمه من مادة دخلـــه الرئيسية ، عوائد القوافل . ولكن حينما حل موسم الحج الى مكة ، وحينما كان على موظفى الباب العالى والحجاج من كل ارجاء الامبراطورية ان يلفوا حول طوروس ، عم التذمر فى كل مكان . على هذا الاساس طلب الدريبى العفو ، فاعترف به الباب العالى عن طيب خاطر تابعا غيورا له .

لم يتجاوز عدد جيشه يوما ٢٠٠ من الافاقين والقتلة ، ولكنه كان يحسن ان يتباهى بهم ويشيع فى الشعب ان قوات جرارة تعمل فى خدمته . ولا جل هذا درب اشقياءه على السير بخطوات استعراضية على امتداد الطرق وبين الشعاب والشجيرات الى الامام والخلف ، كما تفعل القوات على المسرح بين الديكورات ، وذلك على مرأى من القوافل العابرة التى لا تفطن الخداع ، فتعد المئات من الفصائل الصغيرة . وعلى القمم المطلة على بياس بنى من الطين والقش اسوارا خيالية وصفا من الابراج والكوى . ولما كان كل هذا مطليا بالكلس بعناية على غرار التحصينات التركية ، فقد كان يخيف القادمين من بعيد ، وكأنه صف من الحصون المنيعة . كان المطر المنهمر يجرف كل شيء احيانـــا ، ولكن حتى ضعف الديكورات كان يدخل فى حساب الدريبى . ان الخمول حسب مفاهيم الانضباط الاساسية يؤدى الى العصيان ، وبالتالى كان ينبغى عدم ترك مجال للراحة سواء للحرس او للسكان ، بل ارغام هؤلاء واولئك على العمل فى اعادة بناء التحصينات الخيالية احيانا ، وفى التصليحات بعد الامطار والعواصف احيانا اخرى .

كان كوجوك علي اوغلو يتبع قاعدة اخرى لزيادة الخوف واحاطة اسمه بالشهرة ؛ فى كل مرة عند مرور القوافل الكبيرة ، ولاسيما قوافل الحجاج الذاهبين الى مكة تحت امرة الصرة امنيى ، كان لا بد وان يعرض بمحاذاة

الطريق عدة اشخاص علقوا على حبال المشنقة او اجلسوا على عوازيق . كان الدريبيه يؤكد للوجيه القادم من استنبول انه لـم يعاقب قطاع الطرق الا لغيرته على تنفيذ واجباته كحام لامن الطرق . كان حشد الحجاج المؤمنين ، الذى تعود منذ القدم ، شأن كل الشعوب الشرقية ، ان يرى فى الفظائع سمة الجبروت والسلطة ، يخضع باذعان لدفع الضريبة التعسفية التى يفرضهـا الدريبيه الرهيب على الناس والماشية والرحل لقاء المرور عبر الشعاب التى يحرسها بمثل هذه العناية ؛ ومن الجهة الاخرى ، فى حالة اعداده هو نفسه للنهب والابتزاز بالعنف علاوة على المبلغ المفروض ، كانت الضحايا الجديدة على المشانق تكفى لتلبية كل الشكوات نهائيا .

حدث مرة ، كما يؤكدون ، انه لم تكن فى سجن الدريبيه ضحايا كافية من اجل منظر الاعدامات المألوف عند قدوم القافلة . فى تلك الفترة اختبأ بحرص كل من كان سخط الدريبيه يهدد بان يقع اختياره عليه . حل يوم وصول الحجاج ، واكتأب الدريبى فى حيرته خشيـة ان يعكر المجد الذى اكتسبه بالاعدامات على امتداد سنوات عديدة ويحط من تأثير طريق بياس فى مخيلةالحجاج بسبب النقص فى ديكوراته الكلاسيكية . قال لمقربيه : «سنضطر الى اعدام واحد او اثنين من باشي بزقى (خيالتى) ، مثلا ، من اولئك الذين نهبوا التجار بلا اذن فى الاسبوع الماضى» . اجاب مستشاروه : «ذنبهم مضاعف ، لانهم نهبوا بلا اذن ولم يقدموا الى خزينة سعادتكم الا الزهيد ، ولكن المصيبة انهم تقاسموا مع رفاقهم ، ولذا سيثير اعدامهم التذمر لدى المقاديم» . فكر كوجوك علي اوغلو ، واخيرا قال متنهدا : «ما فى اليد حيلة» مهما حز فى قلبى ان اسىء الى الصيرفى الشيخ ، المسيحى يعقوب ، ولكن من الواضح انها قسمته ، فقد كتب عليه منذ خلق ان يدفع حساب الآخرين . صحيح ان المسكين يخدمنى باخلاص منذ سنوات عديدة ، ولكنى بالمقابل كنت اغدق عليه الكثير من عطفى ، ولم اكن امد يدى الى صناديقه الا عند الضرورة القصوى ، وها هو يستلقى محموما منذ شهرين ، وقد نحل حتى لم تعد حياته حيـاة ، بل عذاب ، ولا فرق ان يموت على المخدة او فى الهواء الطلق» . وفى اليوم نفسه شنق الصيرفى المريض لارهاب المارين .

كان على صرة امينى نفسه ، وهو وجيه من المقام الاول يؤتمن على هبات السلطان للكعبة ، ان يشترى حرية مروره فى كل مرة بهدايا كثيرة ، واذا لم ترق الهدايا للدريبيه اعيدت مع رجاء مبجل باهداء شىء اثمن مكافأة على الغيرة وعلى الخراف التى قدمت الى الضيف الموقر باسم سيد المنطقة .

حينما انعم على كوجوك علي اوغلو بلقب باشا ، بقيت اساليبه هى هى ، وحتى انه لم يغير فى حياته البيتية بساطة اخلاق الراعى التركمانى الموروثة عن ابيه . لم يرتد بذلة الباشا التركى لسبب بسيط ، وهو انه لم يعثر فى

كل اسواق استنبول على قاووق * بمقاس رأسه الضخم . لم يكن عنده حريم ، بل قنع بزوجتين شرعيتين ، وعوضا عن ان يقفل عليهما الابواب تحت حراسة الطواشية ، جعلهما تديران كل الشؤون المنزلية على عادة القبيلة التركمانية . كان يشرب الخمر فى الليل بافراط ، ولكنه كان دائما ينهض باكرا مع طلوع الشمس ليبنى ديكوراته ويعيد بناءها ، او ليراقب الاعمال الزراعية . كان يحب التباهى باعتداله واتقانه ، ويضع نفسه قدوة لكل الدريبيين . وفى الواقع ، لم يكن يسمح لاوباشه ان ينهبوا خارج نطاق ناحيته ويتنازعوا مع الجيران وكان يأمرهم بالقناعة بما يرسله الله الرحيم اليهم فى بياس . وبالمقابل كان كل شيء مباحا فى داخل المنطقة .

فى عام ١٧٨٩ ابحرت سفينة انكليزية من ميناء اسكندروف بعد ان افرغت حمولتها هناك الى مكان يسمى اعمدة النبى يوحنا لتتزود بالماء . وعلى الفور قبض بأمر من خليل باشا كوجوك علي اوغلو على القبطان قوولس الذى كان يقودها (السفينة) وكل الطاقم وزج بهم فى البرج . طلب الدريبى فدية بحجة المقاضاة الشرعية لقاء الحق فى المساس بممتلكاته ، ومما زاد من اصراره على طلب الفدية كونه لم يجد فى السفينة بضائع ولا نقودا . ان القبطان المسكين الذى لم يكن فى زمن السلم ، على شواطئ دولة صديقة وبضمانة المعاهدات يتوقع استقبالا كهذا ، وكأنه فى جزيرة تائهة من جزر الارخبيل الهندى ، خاف من منظر واحاديث وأساليب خليل باشا بحيث خامره على الارجح ، الظن بانه من اكلة لحوم البشر فالقى بنفسه من اعلى البرج . اقتدى به احد رجاله ، ومات الآخرون فى محبسهم ، لم ينج الا صبى صغير اشفق عليه الوحش ، فارسله هدية الى القنصل الهولندى فى حلب ماسيه الذى كان صديقا له منذ امد بعيد .

بعد سنتين رست سفينة فرنسية تنقل حمولة غنية من مرسيليا الى حلب فى بياس نفسها نتيجة خطأ من القبطان الذى كان يبحث عن ميناء اسكندرون . هبط القبطان الى الساحل مع اوراقه ليذهب الى القنصلية . قادوه مباشرة الى الدريبى الذى تنبه الى الامر ، فاستقبل الضيوف بترحاب ، وحينما كان يقدم اليهم القهوة والشراب نقل رجاله الحمولة الى القصر . ثم اغرقت السفينة ، ولكن لم يسيؤوا الى القبطان على اساس قوانين الضيافة الشرقية . وقد سمح له الدريبى بالذهاب مع طاقمه الى القنصل الفرنسى فى حلب ، وحتى انه زودهما بمؤونة الطريق . كانت الحمولة تتكون من بالات جوخ ومخمل ، ومن ساعات وخردوات مما يلقى رواجا فى الشرق . وكانت تقدر بعدة ملايين . وقد منى كل اوربيى حلب بخسائر كبيرة .

تواسط القنصل الهولندى ماسيه ، الذى سبق واشرنا اليه ، لدى

* قبعة تلف عليها العمامة كان يرتديها الباشوات الاتراك قديما .

الدريبى على امل استرداد ولو جزء من البضائع المستولى عليها ، احتراما للصداقة القديمة . وتلقى من خليل باشا رسالة جوابية هذا مضمونها : «يا انبل صديق لنا واجل من فى الشعب المسيحى قاطبة ! تلقينا زهرة بيانكم ، وافعم مضمونها نفسنا باحلى السرور لدى علمنا بسلامة صحتكم المنشودة . اما فى خصوص طلبكم باعادة بالات كانت فى سفينة قذفها البحر الى شاطئنا ، فانكم تعلمون بان كل خيرات الدنيا وحتى الحياة نفسها امر ثانوى اذا قيست بالاخلاص المتبادل بيننا . اقسم لك بالله اننى مستعد لان اضحى من اجلك حتى بنجلى الكريم دده بيك ، ولكن اسألك بأشد الالحاح الا تطلب منى المستحيل . احكم بنفسك : انا فى خلاف مع سلطانى (فليحفظه الله الى ابد الآبدين) ؛ يبدو انهم افتروا على فى استنبول ، وتهددنى مصائب كبرى من كل مكان ، وفى هذه الظروف تتجلى رحمة الله التى ارسلت الي عمدا السفية وحمولتها ، اذ لم يسمع ابدا ان سفينة بحمولة عرجت على شاطئى . اليس من الاثم ان يرفض الانسان هبات الصيد الحلال ؟ انا اعرف ان الافرنج سيطلبون من الباب العالى انصافهم وتعويضهم . وهذا ما ارغب فيه ، اذ سيسعدنى الحظ لكى انتهز الفرصة واطلب العفو عنى . ومهما كان الامر ، تصرف معى بلا اية كلفة ، وليحفظك الله عز وجل» .

بعد هذا الرد فقد التجار كل امل فى استرداد ملكهم بالحسنى ، فتوجهوا بشكواتهم الى القسطنطينية . جهز الباب العالى حملة من عدة سفن حربية لكى تعاقب الدريبى فى هذه المرة على كل الاعيبه . وحينما ظهر الاسطول امام بياس ، ابتعد خليل الى جباله ، واخذ الاتراك يقذفون البيوت الخالية وينهبون السكان . مضى اسبوعان وثلاثة ، ونفدت المؤونة ، فتطوع المتمرد بحمية لتزويد السفن بكل ما هو ضرورى ، واهدى القادة الاتراك بسخاء ساعات واشياء شتى من الحمولة الفرنسية ، وكلفهم بايصال هداياه وعدة اكياس من الذهب الى القبودان باشا ، واخذ منهم عهدا بان يلتمس القبودان باشا نفسه العفو عنه من السلطان . وبالفعل ، فقد انعم عليه بهذه المناسبة ببنجق ثالث وبفرمان عفو كرر فيه بلا جدوى الامر باعادة البضائع المستولى عليها . لقد جهزت حملات مماثلة مرارا من قبل ومن بعد ، بحرا وبرا ، لردع خليل ، ولكنها كانت تسفر عن النتيجة نفسها دائما .

فى عام ١٨٠٠ عاد القنصل الهولندى ماسيه من القسطنطينية الى حلب مزودا بفرمان من السلطان . فى تلك الفترة كان الدريبى فى خلاف مع الباب العالى من جديد ، ولكن ماسيه لم يخش ان يطلّ على وكره فى بياس . قبل ان يتمكن من المثول امام صديقه ، الذى تبادل معه الهدايا مرارا حسب العادة الشرقية ، قُبض عليه وزُج به فى البرج . اعتقد الاسير اول الامر انهم لم يعرفوه ، وان كل هذا خطأ وسوء تفاهم ، ولكن ما لبث ان مثل امامه ابن الدريبى دده بيك ، وقال باسم ابيه ساكبا الدموع ان القدر يمتحنه ، ففى

تلك اللحظة بالذات ، حينما نفدت الخزينـــة ، يسوق الى ممتلكاته افضل اصدقائه ويجبره رغما عنه على ابقاء صديقه رهين السجن الى حين تقديـــم فدية تليق بمرتبتهما معا .

بعد كل هذه الاحترامات لم يكن فى الوسع تحديد الفدية بأقل من ٢٥ الف قرش ، اى ما يعادل حسب سعر العملة التركية حينذاك اكثر من ٢٠ الف روبل فضة . الا انه نصحه بالايكتئب وبان يتكل على الله ويتحمل بصلابة المحن الملازمة لمعترك السياسة . وقال الدريبى لاسيره من خلال ابنه (فقد تجنب مقابلته شخصيا) : «انا نفسى جلست مرة تسعة اشهر فى سجن عبد الرحمن باشا البيلانى ، ولكن الله رحمنى بعد ذلك ورفع من شأنى» . توسل ماسيه مرارا انقاص قيمة الفدية على الاقل ، الا ان صديقه الحميم كان يرد على كل طلباته بان هذا لن يليق بمركز القنصل ، وبان واجب الصداقة يلزمه بان يصون شرفه ، ولهذا لا يستطيع ان ينقص ولو قرشا واحدا .

باع الاسير ممتلكاته فى حلب وقدم ثلث الفدية . وفى كل مرة كان يعذب فيها احد او يشنق تحت نوافذ البرج ، كان الباشـــا يرسل اليه من يبلغه ان هؤلاء اسرى مثله كانوا غير قادرين على دفع الفدية المفروضة . واخيرا ، اشفق عليه ، فسلمه الى قافلة عابرة اخذ منها قسرا ثلثى الفدية الباقيين على ان يصفى التجار حسابهم معه فى حلب .

بعد عدة سنوات (فى عام ١٨٠٨) مات قاطع الطريق هذا فى مجد كبير وبرتبة وزير * ، مخلفا خلقه الجشع وممتلكاته لابنه دده بيك . وتذكـــر القنصل الهولندى ان البيك الشاب ابدى له عطفا شديدا فى فترة اسره ، فتوجه اليه بطلب اعادة النقود البالغة ٢٥ الف قرش التى انتزعت منه ظلما وعدوانا . ورد عليه دده بيك ان هذا مستحيل لسببين : اولا ، ان اعادة ما اخذه ابوه يعنى الاعتراف بتصرفه الظالم ؛ حسابه عند ربه ، ولكن لا يليق بالابن ان يدين والده المتوفى . ثانيا ، اذا اخذ كل الذين لهم ادعاءات على المرحوم يطالبون بالتعويض ، فان جبل بياس بأسره لن يكفى لارضائهم ولو كان من ذهب .

ورث دده بيك عن ابيه خلقه الجشع وجرأته ، ولكنه لم يرث فنه فى تسيير الشؤون مع الباب العالى ، ومع القبائل المجاورة ، ومع الاتباع الآخرين امثاله . بقى خليل قرابة نصف قرن ينهب ويسلب الشعب ويهين الحكومة بصفة دريبيه وباشا ، ومات محاطا بآيات التبجيل . اما اعمال ابنه دده بيك فلم تستمر اكثر من ثمانى سنوات ، وانتهت بموت مشين .

لم يقنع بالنهب فى الطريق العـــام ، فاخذ يمارس القرصنة واقتنى

---

* يمنح هذا اللقب لكل الباشوات ذوى البناجق الثلاثـــة الذين يسمون الآن بالمشيرين .

حراقات مسلحة وقام بحملات على ميناء اسكندرون ، حيث كان يختطف السفن منها ، وحتى على مرسيىء ، ميناء مدينة طرسوس التجارية . واكبر ضرر سببه لنفسه انه لم يتبع قاعدة ابيه الحكيمة : القناعة بما يرسله الله الى منطقتهم وعدم المساس بالجيران . فى عام ١٨١١ شن ١٢ او ١٥ الفا من قبائل مناطق طوروس تحت قيادة امين تشابان اوغلو باشا اليوزكاتى هجوما عليه بأمر من الباب العالى ، ولكنه صد الهجوم . وبعد خمس سنوات تطوع مصطفى باشا الاضنى ، ابن الدريبى البيلانى عبد الرحمن ، لدى الباب العالى بمعاقبة دده بيك ، بسبب عدائه الموروث له . وقد نجح فى اجرائه هذا ، لان كل القبائل المجاورة انضمت اليه بطيبة خاطر لنقمتها على الدريبى . هُزم المتمرد وارسل اسيرا الى اضنه . وبعد ان وجه اليه مصطفى شتى الاهانات والشتائم ارسل رأسه الى استنبول وحرق جثته .

سنتحدث ببضع كلمات عن مصطفى باشا اياه ، الذى بلغ شأوا رفيعا فى الامبراطورية العثمانية واضطلع بدور معين فى الحرب ضد روسيا (اعوام ١٨٢٨-١٨٢٩) . كان مصطفى من حيث منشؤه ونمط حياة ابيه عبد الرحمن ندا لدده بيك ، وقد اشتهرت عائلته فى بيلان بالفظائع نفسها التى اشتهرت بها عائلة كوجوك علي اوغلو فى بياس . بعد موت الاب قتل مصطفى شقيقه الاكبر ملا بيك ليحكم المنطقة ، ولكن الاخ الثالث استمال السكان اليه ، فهرب قاتل اخيه الى القسطنطينية ومعه الخزينة . وهنـــاك اشترى باشالك اضنه ، ليرعب اخاه الصغير وهـــو فى جواره ، الامر الذى تسنى لـه . ومكافأة له على اخضاع بيلان وبياس ومعاقبة الدريبهوات انعم عليه بباشالك ارضروم . ثم نقل الى حلب وساهم فى الحملة ، التى وصفناهـا فى الفصل الخامس من هذا الكتاب ، على عبد الله باشا العكاوى بأمر من محمود . ثم صار يتنقل باستمرار من باشالك الى آخر ، فى اضنة احيانا ،وفى الروملي احيانا اخرى ، الى ان غضب عليه محمود بشكوى من قنصلنا بسبب الاعيبه فى عهد صلح ادريانوبول ، فنفى الى بورسه وسجن هناك .

بعد موت دده بيك فى عام ١٨١٧ بقى شقيقـــه البالغ من العمر عشر سنوات ميستك-بيك الذى لاذ من انتقـــام مصطفى بالفرار الى عدوه وجاره كاليندر ، باشا مرعش . ثم عاد ، بعد ان غادر مصطفى اضنة ، الى بياس وحكم المنطقة وكأنه الوريث الشرعى بعد ابيه واخيه . حكم عدة سنوات بلا منازع بتوجيه من عمه زيتون اوغلو ، وفى عـام ١٨٢٧ هاجمه افاق يدعى الحاج علي بيك كان قد استولى على اضنة وشعاب بولق يوغاز بدون اية فرمانات ، ولم يسمح بمرور الباشوات الذين كانوا يُرسلون من القسطنطينية الى سورية . ما ان نشب النزاع بين الحاج على بيك ومستيك بيك حتى صعد على المسرح نفسه افاق آخر ، وهو تركمانى اسمه كال اغـــا ، استولى على طرسوس ، ثم انتهز فرصة غياب حاكم اضنة المشغول بالحرب فى بياس ،

فزحف الى اضنة . عندما علم الحاج على بيك بالامر عقد على عجل صلحا مع مستيك بيك وعاد الى ممتلكاته . وقرب اضنة هاجم كال اغا فى الليل بغتة ، حينما كان وافراد عصابته مستلقين كالموتى بعد سكرة المساء ، وقطع رأسه على الفور وارسله الى القسطنطينية مع اعلام ، شهادة من القاضى الشرعى ، بانه تمرد على سلطة السلطان ، امـــا الحاج علي نفسه فكان خادما غيورا للسلطان .

فى تلك الفترة كان ابراهيم يحاصر عكا . ولم يكن الباب العالى يفكر الا فى تطهير طريق سورية لجيشه ، ولما كان الحاج علي يقبض على غولق بوغاز بيديه ، فقد وافقه الباب العالى بطيبـــــة خاطر على انه تابع غيور ومخلص بالفعل . ومالبث بعد ذلك ان انطلق السردار اكرم حسين باشا مع فيلق يضم ٥٠ الفا فى حملة ضد ابراهيم المشغول بحصار عكـــا . واذ استند الحاج علي بيك الى مجاملات الباب العالى ، سمح لجيش السلطان بالمرور فى شعابه وقدم له دواب النقل من اجل الحملة على سورية . لاطف حسين باشا دريبى طوروس ، واهداه فروات وعدد خيل ، وحينما اجتاز الشعاب دعاه اليه وبعد تحيات الوداع اراه فرمانا يأمر بارساله مخفورا الى استنبول . وهناك استقبل بلطف . لم يشأ الباب العالى فى غمـــار ازمة الشؤون السورية ان يبعث الشك فى امثاله من الاشقياء وعصاباتهم . ومالبث بعد ذلك ان مات فجأة بعد ان شرب فنجانا من القهوة عند وزير الحربية .

اختبأ مستيك بيك من حسين ، وبعد عدة اشهر حينما شقت فلول الجيش الذى لا يقهر ، بعد ان تحطم فى بيلان ، طريقهـــا بشكل من الاشكال عبر بياس ، انضم مستيك الى المصريين وجنى من الغنيمة التركية ، ثبته ابراهيم اول الامر فى حكم بياس ، وعلى الاساس العام للنظام الحكومى فى كل سورية خصص له مرتبا عوضا عن الابتزازات التعسفية من الشعب ومن العابرين . هذه التحولات المصرية لم ترق للبيك الشاب ، فتلاعب كالسابق ومن ثانية الى مرعش ، معلنا ولاءه للسلطان . واذ كان ابراهيم يحتاج الى نفوذه للجم ثلاثين بيكا آخرين يعيثون فسادا فى الجبال المجاورة ، استدعاه بلطف مجددا وغفر له ذنوبه القديمة وصار يتغاضى عن ذنوبه الجديدة .

وحينما جلت الفصائل المصرية عن منـــاطق طوروس فى عام ١٨٤٠ ، منسحبة الى مقر القيادة ، لم يفوت مستيك بيك الفرصة ليغتنى بالغنيمة المصرية ، ونال حظوة عند الاتراك وتزين بوسام نيشان الافتخار . منذ ذلك الحين ومستيك بيك يتمتع احيانا بحظوة كبيرة لدى باشوات اضنه الذين تعود منطقته اليهم ، ويخاصمهم احيانا اخرى . وحتى انه جُهزت فى عام ١٨٤٣ حملة ضده شكلت على نحو مـــا من افاقين فى الباشالك نفسه . وقد غادر بياس ودخل فى خدمة باشا حلب .

ان منطقته ، شأن الاماكن المجاورة الاخرى ، ترسف الى وقتنا هذا فى

صراع مشوش بين نظامها الاقطاعى القديم ومحاولات المركزة . وسيستمر هذا الصراع الى ان ينقرض بالتدريج ذلك الصنف من الناس والعائلات الذين تحدثنا عنهم . وهم ، فى الواقع ، سينقرضون ان لم يكن . بتأثير الاصلاح ، فبفعل القانون الفيزيائى لاعمار كل قبيلـــة . من الواضح ، على الاقل ، ان القبيلة التركية ، التى انجبت فى فترة ازدهار حياتها الكثير من الناس العباقرة وانجبت فى الفترة اللاحقة الكثير من الوحوش العباقرة ، قد استنفدت الآن . فى الجيل الحالى تضاءل الافراد وتساوت الطباع وامحت الملامح وحل الموظفون مكان الدريبهوات . ان الشعب ، والحق يقال ، يعانى احيانا من الموظفين قدر ما كان يعانى قد يما من الدريبهوات ، وان كان بشكـــل آخر ، ويحن الى الدريبهوات . بيد ان الشعب مخطئ بسبب قصر النظر الملازم للجماهير فى الشؤون التى تتعلق بتطورها الداخلى .

الفصل الحادى والعشرون

حالة المنطقة فى ظل تنظيم السلطة الجديد . امير لبنان بشير القاسم . — دسائس الاعيان اللبنانيين وتطلعات الشعب . — مآرب رجال الدين الكاثوليك ومساعى المبشرين البروتستانت وغدر الباشوات . — مجلس فى لبنان . — طلب جرئ . — حسنات من اوربا . — هراء الجبليين . — الاسقفية البروتستانتية فى القدس . — ظهور الاميرال الفرنسى . — اسباب النزاعات اللبنانية .

ان اراقة الدماء ، التى اعقبت دخول حكم السلطان سورية ، قد اطالت وقوت وبررت تدخل الوزارات الاوربية فى الشؤون الداخلية للامبرطورية العثمانية . والآراء الكاذبة والمتحيزة المسيطرة فى اوربا حول هذه الاحداث واتجاهها وعواقبها تلزمنا بعرض الوقائع نفسها .

كان الامير اللبنانى الجديد نقيضا مدهشا لسلفه . اذ كان الامير بشير القاسم يتسم من بين كل افراد عائلة الشهابيين ، بميول سلمية وخلق بطريركى وقلب طيب . وكان يتمتع بحب الشعب وبالاحترام الشامل فى فترة انتخابه حاكما على لبنان * . ولكن لاشك ابدا فى انهم لو كانوا يعرفون فى معسكر الحلفاء فى جونية شؤون لبنان الداخلية المتعاقبة ودرجة نفوذ الاشخاص والعائلات معرفة ادق ، لاجلوا الاطاحة بالامير القديم او لوقع ، على الاقل ، اختيار خلفه على ابنه الامير أمين .

كان الامير اللبنانى الجديد انسانا موقرا وفاضلا ، وكان شجاعا على الرغم من كبر سنه ، ولكنه لم يكن يتمتع بأية صفة تليق بحاكم للشعب ، فلم يكن عنده ذهن ثاقب ، ولا خلق مرن ، ولا تجربة فى الادارة ، ولا حديث عذب ، ولا يد سخية ، ولا عظمة خارجية . لم يكن يتمتع باية من هذه الافضليات التى تحظى بالتقدير بين القبائل العربية اكثر مما فى اى مكان

---

* عين الامير بشير القاسم حاكما على لبنان فى ٣ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٠ . **المحرر .**

آخر ، والتى قامت عليها عظمة سلفه اكثر من اى شىء آخر . كان مسيحيا غيورا ، وكذلك كان سابقه يعتنق المسيحية ، ولكنا رأينا كيف كان يحسن اخفاء دينه عن المسلمين الى النهاية ، وكان يصوم رمضان ويقسم بسلفه محمد . وفض الامير الجديد هذه الخدعة بازدراء واخذ يمارس دينه علنا . وبهذا جلب على نفسه السخط الخفى من جانب الحكومة التى بدا لها ارتداد الشهابين ، الذين كانوا من سلالة النبى الموقرين ، وكانوا فى الوقت نفسه حكاما متوارثين لاقوى القبائل الجبلية فى سورية ، انتهاكا دينيا وخسارة سياسية على حد سواء .

ومن الجهة الاخرى ، كانت قبائل الدروز جميعا قد نقمت منذ امد بعيد على مطامع الموارنة المتزايدة منذ ان اعتنقت دينهم العائلة الاسلامية الحاكمة وامراء ابى اللمع الذين كانوا يشغلون المقام الاول فى قبيلة الدروز الارستقراطية . ان نفوذ الامير القديم بشير ، والاسم الرهيب لابراهيم ، وغياب الزعماء بالدرجة الاولى ، بعد ان تمكن امير لبنان من التخلص مسبقا من اتباعه الاقوياء بالاعدام والنفى ، ابقتهم حتى ذلك الحين فى خوف وطاعة . ولم يحسن الامير الجديد استمالتهم . انه ، وقد لاحظ فى الحملة على فلسطين اولى سمات الروح المتمردة فى الدروز الذين كانوا فى القوات الجبلية ، اهان الشيوخ بالشتائم والسباب واضاف الى هذا التهديد قوله : انشاء اللـه ، وبعون الرب ، ساقطع يوما رؤوسكم المتمردة !

وفى غضون ذلك اخذ الشيوخ الدروز ، الذين كانوا حتى ذلك الحين طريدين او مضطرين الى الخدمة تحت رايات ابراهيم ، يعودون الواحد اثر الاخر الى جبالهم . ان الاخوة جنبلاط ، ابناء الشيخ بشير الشهير الذين نالوا فرمانا من السلطان باستعادة ضياع ابيهم واقطاعاته التى صادرها الامير بعد قتل ابيهم ، والاخوة ارسلان الذين فروا بعد مقتل امهم ، والاخوة ابى نكد وعماد — كل هؤلاء الممثلين لتقاليد لبنان الاقطاعة ، ضحايا ملاحقات الامير بشير العنيفة والمغرضة فى مختلف عهود حكمه الذى استمر خمسين سنة ، ضحايا فكرته الدائمة فى ابادة الارستقراطية اللبنانية ، عادوا الان جميعا وصاروا يتطلعون الى حقوقهم واقطاعاتهم الموروثة . واستقبلهم بحماسة الاتباع من قبيلتهم الذين كانوا فى كل فترة الحكم المصرى ، يحنون تحت سوط التجنيد والضرائب ، الى زعمائهم ويعزون الى غيابهم مصائب قبيلتهم وابادتها . كان السكان المسيحيون لهذه النواحى ، التى تشكل اقطاعات الدروز الاهلة ، يكوّنون الاغلبية ، ولكنهم كانوا خاضعين لهم منذ القدم . ان الفترة الاخيرة من حكم الامير بشير وميله الى المسيحيين وابادته للارستقراطية ولكل قبيلة الدروز ، وبالدرجة الاولى مساهمة ابناء ملته المسيحيين فى حملة عام ١٨٤٠ تحت رايات السلطان والعواهل المسيحيين بعثت جميعها نشاطا جديدا

فى السكان المسيحيين . فرفضـــوا بسخط الاطماع الاقطاعية لحكامهـــم السابقين .

هكذا كانت حالة الاطراف [الذيول] الجنوبية لجبل لبنان . وكانت العقول تختمر ايضا فى النواحى الشمالية حيث كان يتغلب العنصر الكاثوليكى وتأثير رجال الدين . حينما فترت الحماسة الاولى للتحرر من المصريين ، وحينمـــا لطخت الفصائل التركية دخولها سورية وانتقالها من طرابلس الى بيروت على امتداد الساحل اللبنانى بشتى الفظائع ، وحينمـا رأى الجبليون المساهمون فى الحملة ضد ابراهيم الباشوات الاتراك عن كثب ، اخذ يتجلى فـى الشعب مكان شعور الاخلاص والامتنان للسلطان الذى حرر سورية من المصرييـــن المقيتين شعورا واحد ، هو السخط .

اخذت قبيلة الموارنة التى تمارس الزراعـــة والمجردة من اية مواهب قتالية تعزو هزيمة ابراهيم الى شجاعتها وتتطلع الى الامتيازات والتعويضات لقاء مآثرها وتتمختر بالسلاح الذى وزعه الخلفاء او الذى استولت عليه من المصريين الفارين . وصار الانصار الكثيرون للاميـــر المخلوع يؤججون الانفعالات الشعبية فى كل مكان وبكل الوسائل . ان رجال الدين الكاثوليك ، الذين اخافهم النفوذ الذى اكتسبه الانكليز فى لبنان والذين عزوا اليهم نوايا لنشر دينهم ، اضافوا قلقهم وتذمرهم الى كل عناصر العاصفة التى خيمت على الافق السياسى فى لبنان .

عرف الباب العالى لاول مرة بوجود الشعب المارونى ورجال الديـــن الموارنة فى حملة عام ١٨٤٠ . ولا يبدو هذا غريبا الا لغير المطلع على نظام الاتراك المألوف ازاء الشعوب التابعة . واشعارا باحترامه للقبيلة المارونية قلد السلطان البطريرك شارة من الماس عـــلى قدم المساواة مع الرؤساء الروحيين للشعوب التابعة الاخرى ، ومنحه الحق فى ان يكون له وكيل لدى الباب العالى للوساطة فى قضاياه لم يستطـــع الباب العالى بهذه الالتفاتة ان يربط اليه رجال الدين الموارنة ، لا بل الهمهم المزيد من الجرأة فى مساعيهم والطمع بالمساهمة الخاصة فى شؤون ادارة الجبليين . واخذوا يناقشون فى السينورس المارونى ما اذا كان من الاثم ان يأخذ الشعب الكاثوليكى سلاحـا من ايدى الهراطقـــة ، وما اذا كان ينبغى طلب اذن من روما فى هـــذا الخصوص * .

---

* قال بازيلى فى تقرير ارسله الى تيتوف بتاريـــخ ١٨ اذار (مارس) عام ١٨٤١ : «اصدر البطريرك المارونى ، الذى قابل قنصل فرنسا على بعد مسيرة ١٢ ساعة عن بيروت ، امرا باعادة البنادق الانكليزية تحت طائلة الحرمان . ولكن احدا لم يفكر فى اعادة سلاحه» . يفسر بازيلى طلب البطريرك بالمساعى الفرنسية الموجهة نحو اضعاف النفوذ الانكليزى (فالضباط الانكليز هم الذين وزعوا الاسلحة) . يمكـــن افتراض ان البطريرك المارونى استرشد ايضا باعتبارات اخرى : بخطر وقوع انتفاضة

اوحت بهذه التخوفات الورعة الى الكاثوليك مساعى المبشرين الاميركيين بالدرجة الاولى الذين استقروا فى بيروت قبل ذلك بقرابة خمس عشرة سنة * ، وعوضا عن ان يدعوا الكفار الى المسيحية ، كما يليق بالمبشرين ، زرعوا الشقاق فقط فى الكنائس المسيحية ليضعفوا نفوذها ، وجذبوا فى غضون ذلك الشبيبة المسيحية الى مدارسهم . فى الشرق حيث تميز القومية بدينها فى الغالب ، كان يجرى دائما خلط بين الاميركيين والانكليز . واستغل المبشرون هذا الامر لينالوا وزنا جديدا فى اعين الشعب نتيجة لمساهمة انكلترا فى شؤون سورية . بعد رحيل الاسطول الانكليزى ، بقيت سرية من جيش الانزال فى بيروت تضم قرابة ثلاثين ضابطا تنقلوا فى كل ارجاء سورية للقيام بادق دراسة للمنطقة . واخذ الكثيرون منهم ، عوضا عن الاقتصار على رسم الخرائط والمخططات ، يتدخللون فى كل شؤون الادارة ويضايقون الاتراك على هذا النحو . وصار الاخرون ، بباعث الغيرة على الدين وبدافع الامل فى تقويض نفوذ فرنسا السياسى القائم على اخلاص ابناء ملتها الموارنيين لها ، يتنقلون فى الجبال مع المبشرين الاميركيين ويدعمون جهود هؤلاء السادة فى الدعوة الى دينهم .

تتبع ممثلو فرنسا بدورهم هذه الممارسات واججوا التعصب فى الشعب ورجال الدين الكاثوليك . امر البطريرك المارونى باجراء عدد من افعال auto-da-fe على الملاء ، وبان يحرق ان لم يكن الهراطقة انفسهم ، فعلى الاقل الكتب ذات المضمون الدينى التى اصدرها المبشرون فى بيروت باللغة العربية . ومما زاد من سخطه الورع ان الرهبان التابعين له ، الذين سرقوا خزنة الكنيسة او ارتكبوا ذنوبا اخرى ، قد وجدوا الملجأ والحماية عند المبشرين .

واسعة مناهضة للاقطاعية . ونذكر بان الكنيسة المارونية كانت ذات ممتلكات اقطاعية شاسعة . وقد توجه البطريرك بنداء الى السكان يدعوهم فيه الى الخضوع لاسيادهم : فليس كل واحد فى طريق الحب والطاعة وفق متطلبات الدين . . . وليخضع كل واحد للسلطان ولمن ينصبه عليه (راجع طنوس الشدياق . كتاب اخبار الاعيان فى جبل لبنان ، ص ٦١٧) . ـ **المحرر** .

* قدم المبشرون الاميركيون الى فلسطين فى عام ١٨١٩ ، واستقروا فى بيروت عام ١٨٢١ . وكان المجلس الاميركى للبعثات الاجنبية يدير نشاط المبشرين . وقد انفقت هذه المنظمة موارد كثيرة على اعداد كوادر المبشرين ، وكان يجرى فى البعثات تدريس اللغات الشرقية على نحو جيد ، وفى اواسط القرن التاسع عشر اصبح فى حوزة المجلس ٣٠ مطبعة تطبع الادبيات بمختلف اللغات ، وفى عام ١٨٤٢ ، انشئت لمساعدة النشاط التبشيرى جمعية الاستشراق الاميركية . فى عام ١٨٢٢ انشأت البعثة البروتستانتية مطبعة عربية فى جزيرة مالطا لطبع الادبيات الدينية ـ الدعائية ، وفى عام ١٨٣٤ نقلت المطبعة الى بيروت . فى عام ١٨٤٠ كانت للبعثة الاميركية البروتستانتية ، علاوة على بيروت ، فروع فى صيدا وحمص وطرابلس ودير القمر وعبية . **المحرر** .

في مستهل عام ١٨٤١ فُقد الخبز فى لبنان * . واخذ سكان القرى ، التى عاقبها ابراهيم ابان العمليات الحربية ، يموتون من الجوع وقسوة الشتاء . وقد وزعت القنصلية الفرنسية مساعدات من خلال رجال الدين وجلبت حمولات من الحبوب مجانا . ومع اكتساب فرنسا مجددا عطف الشعب الذى فقدته بسبب تحيزها الى محمد علي ، اخذ السكان الموارنة يبدون تذمرهم من الاتراك والانكليز . وصاروا ينتظرون ظهور الاسطول الفرنسى بين ساعة واخرى لتحرير القبائل اللبنانية ، رغم ان هذه القبائل لم يكن يرهق كاهلها نير غير نير انفعالاتها الخاصة التى كان كل حزب يتطلع تحت تأثيرها الى مصالحه : الشيوخ الى بعث القوانين الاقطاعية المقيتة جدا عند مسيحيى النواحى الجنوبية ، انصار الامير بشير الى عودته اما رجال الدين الموارنة فالى اقامة ادارة تيوقراطية فى جبال لبنان على انقاض كل السلطات العلمانية.

هل كان فى وسع الامير الجديد وسط هذا التهيج للمؤثرات الداخلية والخارجية ان يصمد ويوطد مواقعه في ظل قدراته وموارده المحدودة ، وفى ظل عداوة السلطات التركية الصريحة له ؟ . .

كان والى الباب العالى فى ذلك الوقت هو سليم باشا ، الذى كوفىء بلقب سرعسكر سورية لقاء نجاح الحملة التى قاد فيها لواء السلطان . ان سليم باشا ، الذى رفعت حكومته من شأنه واحاطته بعطفها والذى ابدى له حتى عواهل الحلفاء التفاتة كريمة ، آمن هو نفسه بمواهبه وعزا الى ذاته الانتصار على ابراهيم فى مرتفعات بكفيا ، حينما كان تحت وصاية الانكليز والجنرال يوخموس ، واتهم امير لبنان بالخيانة لان الميليشيا التى كان على رأسها لم تهرع حينذاك الى الاستيلاء على الشعاب فى مؤخرة ابراهيم وتضاعف على هذا النحو ظفر المنتصر باسر القائد المصرى . هذا الباشا المجرد من الموهبة والامى ، الحاقد والبليد وجه اضطهاده السرى وكل المساعى المألوفة للسياسة التركية ضد امير لبنان التعيس وعجل بهذا فى ازمة عام ١٨٤١ المشؤومة .

فى الربيع صدر امر الباب العالى بالا تفرض اتاوة القبائل اللبنانية على الاساس العام للنظام المالى الذى اعلن قبل ذلك بامد قصير فى كل ارجاء الامبراطورية بل بمبلغ دائم على اساس العادة القديمة ، كما اراد الجبليون . كانت مطالب الباب العالى معتدلة جدا مقارنة بما كانت تدفعه هذه القبائل فى عهد الحكم المصرى ، فقد طلب من لبنان اتاوة سنوية بقيمة ٤ الاف كيس

* فى النصف الاول من القرن التاسع عشر كانت زراعة لبنان متخصصة فى انتاج الحرير الخام والكرمة . ولم تكن الحبوب المنتجة فى البلاد تلبى استهلاك السكان اللبنانيين الا لمدة ثلاثة او اربعة اشهر فى السنة . وكانت الحبوب تستورد الى لبنان عادة من سورية الداخلية ومصر . وقد جعلت العمليات الحربية فى عامى ١٨٤٠ــ١٨٤١ نقل الحبوب صعبا . ــ **المحرر** .

(قرابة ١١٠ الاف روبل فضة) . وقد منح الامير ثلثى هذا المبلغ لنفقات الادارة وقنع بالثلث الباقى كدخل للحكومة . ودعى مندوبون من كل النواحى الى اجتماع فى هذا الصدد فى قرية عين عنوب ، على بعد قرابة ١٥ كيلومترا عن بيروت * . ان العناصر الفوضوية التى عكرت صفو الجبال منذ طرد المصريين ، اجتمعت ونزعت قناعها فى هذا المجلس . ولم يكتف الاسقف المارونى طوبي ، المفوض من بطريركه والمدعوم بتعاطف ممثلى فرنسا ، باقتراح رفض دفع الاتاوات ، بل طالب الحكومة علاوة على ذلك بمكافأة وتعويضات لقاء الخدمات التى قدمها الجبليون فى الحرب ضد ابراهيم ، ولقاء كل الخسائر التى منيوا بها . واخيرا ، طالب بالغاء كل الرسوم الجمركية للتعريفة الجديدة ، واقترح ، فى حالة رفض الباب العالى لكل هذا ، طلب وساطة الدولتين الكاثوليكيتين – فرنسا والنمسا .

هذه الكلمات كانت فى تلك الفترة تعبر فعلا عن شعور جمهور سكان لبنان الكاثوليك . وعلى الفور انفصل الجبليون الارثوذكسى والدروز عن الموارنة . الاولون تحت تأثير رجال الدين اليونانيين الاذكياء ادركوا بسهولة النوابض الخفية لهذه الاحابيل الخطرة وهوفها . والاخرون حرضوا منافسيهم السذج ، ووعدوهم بمساعدتهم سرا ، واثاروا العاصفة جاهدين على امل ان يحققوا فيها هدفهم ، اى بعث القوانين الاقطاعية ، بيد انهم لم يريدوا ان يجلبوا سخط الحكومة عليهم .

وقدم الموارنة بدورهم طلبا عرضوا فيه رغباتهم واضافوا ان الاتاوات يقدمها الشعب الى الخزينة من اجل الحماية التى تقدمها السلطات الى الشعب ، اما هم فلا يحتاجون الى اية حماية ، لا بل يستطيعون انفسهم ان يدافعوا عن الاخرين ويصونوهم . . .

هذه الذرائع اوصى بها الى الجبليين المحسنون الاوربيون انفسهم الذين ملأوا الصحف فيما بعد باللعنات على الاتراك ، لانهم سمحوا بالمصائب واراقة الدماء التى ما لبثت قبيلة الموارنة ان دفعتها ثمن طيشها . ان ذنب الجبليين لا يبرر بحال من الاحوال استهتار السلطات التركية المجرم بمصائبهم . انها توضح فقط الميل الداخلى لممثلى الباب العالى .

ان امير لبنان ، الذى كان يعود اليه الحق فى ترؤس هذا الاجتماع الفوضوى ، عوضا عن ان يلجم هذا الاجتماع لم يفلح الا فى اظهار ضالته على مرأى من الشعب والحكومة . عرض عليه شيوخ الدروز مساعدتهم الغادرة ، ولكن شريطة ان يخضع لحماية احد الجنبلاطيين ، كما كان سلفه يوما تحت حماية الشيخ بشير جنبلاط . ولم تكن الارستقراطية المارونية تحترمه ولا وتطيعه ، بل كانت تسعى الى استعادة نفوذها الفوضوى القديم

* عقد اجتماع عين عنوب فى صيف عام ١٨٤١ . **المحرر** .

الذى كبحه الامير بشير . وكان اقرباؤه المقربون المخلصون لتقاليد الشهابيين الكلاسيكية ألد اعدائه . وحاول الامير الحاكم ، المحاط فى كل مكان بالدسائس الصريحة والخفية ان يستميل اليه الجماهير الشعبية . واذ اعتمد على اوامر الباب العالى بالمساواة بين كل المواطنين امام القانون وبجبى الاتاوات حسب موارد كل فرد ، وعد الشعب بشتى التسهيلات وكان لطيفا ومتسامحا ، وسعى بصراحة الى تخليص القبائل اللبنانية من النير الاقطاعى للشيوخ والامراء . ولكن كان رجال الدين ونفوذ فرنسا يحركون الانفعالات الشعبية . وما لبث الامير ، الذى كان يحبه الجميع ويحترمونه فى فترة انتخابه ، ان اصبح سخرية لشعبه الذى عزا لطفه ووعوده الى عجزه فقط .

بمناسبة حملة عام ١٨٤٠ التى يساهم فيها الارشيدوق النمساوى ، وبمناسبة الاحاديث المبالغ فيها عن المصائب التى حلت بالقبائل اللبنانية ، فتحت النمسا باب التبرعات فى مصلحة ابناء ملتها اللبنانيين . ومن الجهة الاخرى ، ارسلت فرنسا كذلك وفرة من الاعانات لاستعادة نفوذها السياسى فى سورية الذى زعزعته احداث عام ١٨٤٠ . واستخدم رجال الدين الموارنة هذه المبالغ وفق مآربهم ، اما الشعب فكان يزداد غيا ، مفسرا على طريقته مساهمة الدول الاوربية فى مصيره . كان الشعب يقرأ الترجمة العربية لاسخف المقالات التى كانت تضج بها الصحف الفرنسية فى ذلك الحين ، وينتظر حملة صليبية جديدة لاوربا الكاثوليكية . وصار القرويون اللبنانيون يتحدثون فى اجتماعاتهم عن منطقة فى فرنكستان اسمها سويسرا ، منطقة جبلية مثل لبنان لا تدفع اتاوات الى احد . واصبح البطريرك المارونى الاحمق العوبة فى ايدى اصحاب النفوذ المحيطين به ، وسمح بنشر شائعة تشير الى اتصالاته بالدول الكاثوليكية ، والى ان الاسطول الفرنسى لن يتوانى عند طلبه عن الظهور لدعم مطالب قبيلته . وقد حدث ان ظهرت فى اواخر الصيف فى ميناء بيروت عمارة فرنسية كانت تتجول فى البحر الابيض المتوسط تحت علم اللواء البحرى لاسوس . وهناك قابلت السفن الانكليزية التى لم تكن تتوقف عن زيارة الشاطئ السورى . وانتظر الموارنة الذين كانوا يراقبون ذلك من مرتفعاتهم ، ان يقوم الفرنسيون بين ساعة واخرى بطرد الانكليز الذين صاروا ، بعد حماسة السنة السابقة ، يلقون كراهية متزايدة تحت تأثير المواعظ المتعصبة لرجال الدين فى روما .

ونضجت فى غضون ذلك مآرب الدروز ايضا . صارت الاسلحة والذخائر ، التى وزعها الحلفاء او خلفتها الفصائل المصرية ، تباع بابخس الاسعار . واقتناها الدروز بوفرة . واخذوا على غرار منافسيهم يتطلعون الى دعم خارجى . فى ذلك الحين اسست انكلترا وبروسيا فى القدس معبدا بروتستانتيا ، واقامتا هناك اسقفية انكليكانية هدفها الرئيسى دعوة اليهود الى المسيحية . وبهذا تأكدت فى اعين القبائل اللبنانية مآرب انكلترا لادخال

الناس فى دينها . واذ كـــان الدروز الدهاة يسعون الى نيل عطف ممثـــلى انكلترا ، اخذوا يبدون ميلا خاصا الى المبشرين البروتستانـت ويدعونهم الى الوعظ بدينهم فـــى الجبال ، وفى الوقت نفسه استقـــــل اصغر الاخوة الجنبلاطيين الفرقاطة الانكليزية بمهابة ، ودعاه اشخاص موقرون من جمعيات الكتاب المقدس الى الدراسة فى لندن . وهكـــــذا ، اضيف الى كل العناصر الداخلية للخلافات بين اهم قبيلتين فى لبنان عنصر خارجى يقوم على التنافس الدائم بين الدولتين الغربيتين .

لم تكن زيارة الاساطيل تؤدى الا الى تأجيج الانفعالات فى الجبليين . وفى وسط الفوضى وعدم المعاقبة على الجرائم اريقـــت دماء كثيرة فى حالات الثأر الشخصى والخلافات العائلية . وجرى فى آب (اغسطس) اشتباك بيـــن السكان – الدروز والموارنة – فى جوار دير القمر بسبب حجلة صادهـــا احدهم فى حاكورة غيره . واسفر الاشتباك عن قتل وجرح ما يربو على ستيـــن شخصا من الطرفين . وغضت الحكومة النظر عن كل هذا ، وصار الجميـــع ينتظرون انفجارا عاما بين لحظة واخرى . ان الاميرال الفرنسى ، وهو الوحيد بين مواطنيه فى سورية الذى بقى بعيدا عن النمائم فى لبنان ، ابحر باسى ، مدركا ان ظهور اسطوله لم يؤد الا الى المزيد من اثارة الانفعالات .

تلكم هى الظروف التى وفرت الذريعـــة للحرب الداخلية عام ١٨٤١ . وقد بدت لاوربا حربا دينية . لم يكن العداء الدينى بين القبيلتين سببـــا للحرب ، بل نتيجة لها . فى الشرق ، وفى سورية خاصة ، يشكل الدين فى هذه المنطقة المباركة لدى كل الملل وكل الطوائف العنصر الاول للمعيشـــة المدنية ، ولهذا بالذات يتجلى تأثيره سواء فى الحياة الخاصة ، او فى الحياة الاجتماعية ، او فى المصير التاريخى ، او فى شعور كل قبيلة . ولكن فـــى لبنان ، وفى ظل الاضطرابات الازلية لقبائله تحت رايات اليمنيين والقيسيين احيانا ، وتحت تأثير حزبى اليزبكيين والجنبلاطيين احيانا اخرى ، وفـــى الصراعات بين الامراء الحكام ضد مطامع الاتباع الاقطاعية فى احيان ثالثة لم تبد يوما القبائل المزارعة القاطنة فى هذه الجبال التى بحثت فيها عن مأوى طليق من تعصب المسلمين ، شعور العداوة الدينية المتبادلة . ولم تتمتع شتى المعتقدات المسيحية والطوائف الاسلامية فى مكان من الشرق كله بمثل هذا التسامح الدينى والسلام الداخلى .

ومن هذه الناحية يشكـــــل اعتناق اسرة الشهابيين الحاكمة للمسيحية والمآرب الطموحة لرجال الدين الكاثوليك ومساعى المبشرين البروتستانت عهدا مشؤوما فى لبنان . منذ ذلك الحين حــــل هنا ، مكان صراع الاحزاب القديمة العابرة وصراع الاتجاهات السياسية التى يستطيع اول حاكم موهوب ان يلجمها بسهولة ، صراع حاقد للشعور الدينى الـــــذى يخلق الانفعالات السياسية ويكتسب فيها غذاء جديدا لتعصبه .

الفصل الثانى والعشرون

قلاقل فى نابلس واليهودية . — اول حرب داخلية بين الموارنة والدروز . — انتصار الدروز . — عزل امير لبنان . — قدوم وزير الحربية واخطاؤه . — عمر باشا اللبنانى . — مكائد الشهابيين . الدسائس الدينية الداخلية والخارجية . — مساهمة الوزارات الاوربية فى شؤون لبنان . — اعتقال الشيوخ . — مبعوث جديد للباب العالى واخطاء جديدة . — الاضطراب فى لبنان . — عصيان الدروز . — انتصار عمر باشا .

حينما كانت تتكدس فى لبنان المواد المؤدية الى اشتعال اللهيب ، اجتاحت حرب داخلية جبال نابلس . ان الشيخ محمود عبد الهادى ، الذى قوى وعلا شأنهَ تحت الحكم المصرى ، ثبته الاتراك حاكما على نابلس مكافأة له على خيانته لابراهيم . ولكن كان قد ظهر فى تلك المنطقة شيوخ افلحوا قبل ذلك بخمس سنوات فى الهرب والنجاة من ابراهيم فى فترة الاعدامات التى جرت فى نابلس . وكان الشعب مزودا بالاسلحة التى وزعها معسكر الحلفاء او التى غُنمت من المصريين فى خلال البلبلة ابان فرارهم او التى اشتريت فى لبنان . ان جبليى نابلس هم اكثر القبائل السورية جميعا ضراوة ونزوعا الى القتال ، وقد استؤنفت النعرات العائلية بعودة الفارين . واذ اعلن الشيوخ ، حسب عادة الشرق الكلاسيكية ، طاعتهم المخلصة للباب العالى واسموا انفسهم عبيدا لولاته ، شكلوا كونفيدرالية ضد عائلة عبد الهادى وتقاتلوا خمس سنوات على التوالى . وكان الباشوات فى ذلك الوقت يعينون الحكام من هذا الحزب احيانا ومن ذاك احيانا اخرى ، مختارين الاقدر على تقديم الاتاوات الحكومية والهدايا الافضل . ولم يقدموا على التدخل فى الشؤون الداخلية للمنطقة ، رغم ان الحامية التركية كانت تحتل المدينة باستمرار .

وكانت جبال اليهودية كذلك ترزح بالفوض . ان ارث العداء بين اليمنيين والقيسيين الذى امتد اثنى عشر قرنا تحافظ عليه بتبجيل القبائل المنهكة الى جانب القوانين والتقاليد الاقطاعية للعالم العربى . واستغل الشيوخ الانقلاب السياسى فى تلك الفترة ليصفوا فيما بينهم الثأر القديم بعد السلام الاضطرارى الذى ضاقت فلسطين به ذرعا تحت الحكم المصرى . وكان البدو الرحل من جانبهم يتدفقون من البادية موجات مدمرة على امتداد كل الشريط الشرقى لسورية المأهولة وينهبون القوافل والقرى بلا عقاب . فى كل مكان وفى كل فروع الادارة لم تفلح سلطات السلطان ، وراء الادعاءات الكاذبة بالاعتدال والعدل وخلف الالق الظاهرى للعظمة والاستقبالات المهيبة ، الا فى شيء واحد ، فى ان تظهر للقبائل السورية عجزها وتجردها من الاخلاق وعيوبها الشائنة الملازمة لها .

كل هذا ساعد المآرب الخفية للشيوخ اللبنانين الذين زاد من بغضهم لخلف الامير بشير الضعيف كونه سعى على غرار سلفه الى انتهاك الحقوق الاقطاعية ، وان كان ذلك باساليب اخرى * .

بعد محاولة المجلس الشعبى الفاشلة لم يقبل الباشا المطالب التى تقدم بها الموارنة ، ولكن رفعت الى الباب العالى سرا نسخة من هذا الاعتراف الجرىء بشعور الشعب . فى السابق كان الباب العالى يأمر بحرق عدة قرى الى ان يرعوى الشعب . ولكنه ، وقد علمته المحن القاسية الصبر والتنازل ، امر الباشا بان يدبر الامر بالحسنى مهما كلف ذلك . واستدعى الى بيروت الاشخاص المعروفون بين الجبليين بميلولهم السلمية وباخلاصهم للحكومة . ووزعت عليهم نقود وهدايا وخلع سنية مكافأة لهم على خدماتهم فى الحرب الاخيرة . وعينت فى غضون ذلك اتاوة لبنان بقيمة ٣٥٠٠ كيس (١٠٠ الف روبل فضة) ، بحيث يرد الى الخزينة ١٢٠٠ كيس والمبلغ الباقى الى الامير ، من اجل نفقات الادارة . وبعد ذلك ** امر الامير ، رغم ان الجبليين لم يكونوا يميلون ابدا الى الدفع ، بان يشرع فى جباية الاتاوات *** التى تشكل السمة الرئيسية للسلطة فى الشرق . واذ تنبأ

---

* سعى الامير بشير القاسم الى نيل موافقة الحكومة التركية على تشكيل مجلس برئاسته يراقب جباية الضرائب وينظر فى القضايا القضائية التى كانت سابقا من اختصاص المقاطعجية وحاول مصادرة اراضى خصومه الاقطاعيين . — **المحرر** .

** فى ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤١ . — **المحرر** .

*** يمكن الحكم على المزاج الذى احدثه امر الباب العالى فى السكان اللبنانيين من رسالة الامير بشير القاسم الى سليم باشا بتاريخ ١٦ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤١ . كتب امير لبنان : «استأذن دولتكم لاخبركم ان المواد التى اتفق عليها فى الجلسة المنعقدة فى بيروت بحضوركم ووقع وثائقها جميع الامراء والمشايخ

الامير بالخطر ، طلب من الباشا كتيبة او كتيبتين من الجيش النظامى ، ولكن طلبه رفض مع توجيه اللوم اليه على عجزه وتغافله . قرر الامير ان يطلب الاتاوات من الدروز اول الامر يصب على رأسهم غضب الحكومة فى حالة مقاومتهم . بالاضافة الى انه كان يأمل فى ان يجد سندا لدى السكان المسيحيين المعادين للدروز فى النواحى الجنوبية .

حينما وصل الى دير القمر كان الدروز قد استعدوا من جهتهم للاطاحة به بايحاء وتأثير من الاخوة ابى نكد الذين كانوا حكاما للمنطقة قبل ذلك بقرابة ثلاثين سنة * . وقدم السكان المسلمون الى المدينة وبقوا عدة ليال مختبئين فى بيوت ابناء ملتهم . وحينما اصبح كل شيء جاهزا ، كانت اشارة الانطلاق عبارة عن عراك فى الساحة بين مارونى ودرزى . اندفع الدروز يقتلون المسيحيين وينهبون بيوتهم ويحرقونها ** . لفت المؤامرة بشباكها كل المناطق الجنوبية التى رفض سكانها المسيحيون الاذعان للشيوخ ، وبدأت فى كل مكان وفى اليوم نفسه ملاحقات المسيحيين والقتل والحرائق والنهب ، وجردوا من اسلحتهم بعناية .

اهتز موارنة المناطق الشمالية لهذا الخبر *** . وانحدرت قوتهم التى

وقبلولها لقد ساء وقعها لدى اهالى الجبل فاعلنوا انهم لا يرضون بها نظرا لايجابها عليهم ضريبة . ولهذا حصلت عدة اجتماعات بين المسيحيين والدروز فارسلنا فى الحال الى اصدقائنا زعمائهم نحذرهم من الاعتداد بهذه الاشاعات موعزين اليهم اقناع الشعب . ولقد وجهنا ايضا رسلا الى جميع الانحاء فافادونا ان بذر الشقاق هم بعض المشايخ بتحريضهم الشعب على رفض مقترحات الباب العالى واطاعة اوامره . بيد ان بعض مندوبى الاهلين قد توفقوا الى اقناع كثيرين منهم بالانقياد لاوامركم . اما غاية المحركين فهى انقاص التعريفة على الحرير واعادتها الى ما كانت عليه فى السابق . وقد شوهد كثيرون من الذين وقعوا الاتفاقية المبرمة فى ديوانكم فى بيروت منضمين الى المستائين ومتفقين معهم خوفا من ان يلومهم سائر اهالى الجبل» . ثم يتوجه بشير القاسم الى سليم باشا بطلب ارسال فصائل مسلحة الى لبنان لدعم السلطة الحكومية . ــ **المحرر** .

* كان شيوخ ابى نكد يحكمون مقطع المناصف (ومركزه دير القمر) . وقد جردهم الامير بشير من حقوقهم فى المقطع وصادر ضياعهم . وبعد سقوط سلطة بشير عاد شيوخ ابى نكد الى لبنان وحاولوا استعادة حقوقهم فى مقطع المناصف ، بيد انهم اصطدموا بمقاومة سكان دير القمر . وقد كتب الشدياق ان شعب دير القمر كان ينظر باستعلاء الى شيوخه النكديين ورفض تنفيذ اوامرهم . وكان هذا سببا لاعمال شيوخ نكد العدائية ضد سكان دير القمر . واستمر فى السنوات اللاحقة ايضا الصراع بين الشيوخ والمدينة . ــ **المحرر** .

** بدأت الاصطدامات فى ١٣ تشرين الاول (اكتوبر) عام ١٨٤١ . ــ **المحرر** .

*** جر رجال الدين والاقطاعيون الفلاحين الموارنة الى الاصطدامات . فقد امر

تضم ٥ الاف شخص الى وادى بيروت ، ولكن عوضا عن ان تهرع الى مساعدة الامير المحاصر فى قصره بدير القمر ، والذى كان يدافع دفاع المستميت ، فضلوا ان يهاجموا بدورهم مدينة الشويفات التى يقطن فيها الدروز والارثوذكس الذين اتفقوا منذ بدء الحرب على الا يساهموا اية مساهمة فيها . واقسم الموارنة فى اندفاعهم التعصبى ان يبيحوا للنهب معبد السيدة فى الشويفات الذى لا يكربه فى لبنان المسيحيون وحدهم ، بل الدروز ايضا .ومن المميز ان الموارنة حينما ينتصرون لاحدود لعتوهم ازاء القبائل المسيحية الاخرى ، اما فى فترة المصائب الشعبية فيخاطبونها باعتبارها قبائل شقيقة . والارثوذكس ، الذين يعتبرون اشجع القبائل المسيحية فى هذه الجبال ، يعانون تعصبهم الكاثوليكى بشكل خاص .

هذه الخلافات المتبادلة تزيد من ضعف المسيحيين بميلولهم الفطرية الى الزراعة اكثر مما الى القتال ، بتكوينهم الداخلى الابوى اكثر مما هو اقطاعى ، وبطبعهم المضطرب والطائش والثرثار ، وباوهام الطائفة والقبيلة والعشيرة التى يقوض تأثيرها القائل وسط الازمات السياسية كل طموح شعبى . كل هذا يشكل طابع تربيتهم الشعبية ، فقد ترعرعوا على الذل ، اما السلطة والقوة العسكرية فكانتا منذ القدم من نصيب الدروز على وجه الحصر .

تتسم قبيلة الدروز بصلابة الطبع بين كل الشعوب الاسيوية . ولما كانوا لايرون فى الدين سوى قومية وعربونا للوحدة السياسية ، فانهم لا يحرصون ابدا على طقوسه الخفية ، ولكنهم ينتظرون على غرار اليهود السيطرة العالمية ارثا شرعيا لهم ويبغضون كل الشعوب الاخرى . ويلهمهم الايمان بتناسخ الارواح وخلود الجوهر نشاطا شديدا فى المعارك . وقد اوحت اليهم الامتيازات التى تمتع بها المسيحيون ولا سيما تحت الحكم المصرى بالحسد ازاء القبائل السورية الاخرى . ويحظى الدروز بعطف كبير لا من قبائل لبنان الشرقى وحوران التى تعتنق دينهم فحسب ، بل كذلك من جمهور السكان المسلمين الذين اساء اليهم ميل الحكم المصرى الى المسيحيين والذين عانوا مع الدروز القانون الصارم للتجنيد المصرى . واخيرا ، لا يمحض المسيحيون اللبنانيون ارستقراطيتهم سوى خضوع ظاهرى ، عبودى ، ولكنهم لا يعرفون ذلك الشعور الجبار من الثقة بالاعيان والاخلاص لهم . ويرى الدروز فى اخلاف العائلات الحاكمة حماة عباقرة لقبيلتهم . وكل جمهور السكان مفعم بمفاهيم القانون الاقطاعى . حينما اراق آل ابى نكد دماء المسيحيين فى دير

البطريرك المارونى يوسف جيش (من عائلة شيوخ جيش) كلل الموارنة بان يأتوا باسلحتهم لمساعدة بشير القاسم . وارسل الى معسكر المسيحيين نقودا لاقتناء الاغذية والبارود . — **المحرر** .

القمر ، تعجبت حتى النساء الدرزيات اللواتى كن فى بيروت من شكاوى قناصل الدول الكبرى على عدم مبالاة السلطات التركية ، مؤكدات ان الشيوخ لا يتحملون المسؤولية امام احد عن تصرفاتهم فى حدود اقطاعتهم الموروثة . هذه الافضليات منحت الدروز مزايا اكثر مما لدى المسيحيين الذين يفوقونهم عددا .

ان شبلي العريان الذى يعرفه القراء * ، والذى التحق بخدمة ابراهيم بعد مآثره الدامية فى اللجاة وغادر راياته قبيل انسحاب القوات المصرية من دمشق ، اصبح ذلك الحين فى خدمة السلطان وقاد فصيلة من الخيالة غير النظاميين فى باشالك دمشق . وما ان بدأت الحرب الداخلية فى لبنان حتى انضمت اليه زمرة من دروز جبال لبنان الشرقية . تقدم الى مدينة زحلة المسيحية مخلفا وراءه فى دروب سهل البقاع جثث المسيحيين المقطوعة الرؤوس .

تتاخم زحلة شعاب لبنان الشرقية . ومن هنا كان الدروز يستطيعون التغلغل فى قلب المناطق المسيحية . وفى ذلك الحين كان القنصل الروسى ** فى دمشق لاجراء محادثات مع الباشا حول حماية المسيحيين . وقد توجه اليه سكان زحلة باستغاثة مرّة . فاجتاز القنصل مع فصيلة فرسان خفيفة شعاب جبال لبنان الشرقية ووصل فجأة الى معسكر الدروز الذى كان قد طوق المدينة من جهة سهل البقاع . وارغم تهديد الاسم الروسى شبلي العريان على عقد الهدنة والانسحاب . وفى غضون ذلك ارسل لحماية المدينة ، تحت اصرار القنصل ، الامير الشجاع خنجر حرفوش من بعلبك مع مفرزة من المتاولة .

استمرت الحرب الداخلية ستة اسابيع فى كل ارجاء مناطق لبنان الجنوبية *** . وقد جرد المسيحيون هناك من اسلحتهم واخضعوا للشيوخ . وفى غضون ذلك ارتكبت فصيلة الموارنة الكبيرة الفظائع عند الشويفات دون ان تجرؤ على دخول الشعاب لنجدة ابناء ملتها ، اما الامير الحاكم الذى تركه حتى المقربون اليه فبقى وحيدا مع قلة من الحراس الالبانيين واستنفد ذخيرته فى دير القمر . وانقذته وساطة ممثلى اوربا من ايدى الدروز وقد نهب الدروز بيته ، واستولوا حتى على المسدسين الثمينين اللذين انعمت بهما الملكة فيكتوريا على الامير .

---

* راجع الفصل الثامن .

** يقصد بازيلى سفره الى دمشق . — **المحرر** .

*** يمكن الحكم على مقاييس هذه الاصطدامات من المعطيات التالية : دُمر كليا او جزئيا اكثر من ٧٠ قرية ومدينتان (زحلة ودير القمر) ، وقتل من الطرفين الف وخمسمئة شخص وحرق حتى ٤٤٠٠ بيت ، ونهبت ممتلكات بقيمة ١١٧ الف كيس من المسيحيين و٢٥٥٠ كيسا من الدروز . — **المحرر** .

فى الوقت الذى فر فيه الامير الى بيروت مجللا بالخزى ، حطم ٧٠٠ شخص من الدروز واليونانيين الشويفاتيين القوة المارونية المكونة من خمسة آلاف شخص فى سهل بيروت . واستولى الرعب على المناطق الشمالية . ولو لم يذد الامير خنجر حرفوش فى ذلك الوقت عن شعاب زحلة لاجتاح الدروز كل لبنان . وانحدر البطريرك المارونى ، الذى ورط طيشه ومساعيه الطموحة القبائل الجبلية فى هذه المصائب ، الى القرى الساحلية ، مستعدا للاحتماء بالفرنسيين فى حالة هجوم الدروز .

كان والى السلطان يراقب بمنظاره من بيروت الحرائق التى تشير الى العمليات الحربية فى سفوح الجبال . كانت الريح تحمل دخان حرائق لبنان وسط الدخان العطر للغلايين والنراجيل التى كان الباشوات والضباط العسكريون الاتراك يزجون بها وقت فراغهم فى ليالى رمضان المباركة .

منذ بدء الفتن ابلغ قناصلة روسيا وانكلترا وفرنسا الباشا بضرورة ذهابه مع كتيبتين الى الجبال * . وكان صراع القبائل الجبلية يشكل افضل ضمانة لان يطيعوا الاتراك . ولكن الباشا لم يقرر العمل الا حينما هزم المسيحيون وشتتوا ونزع سلاحهم فى كل مكان ، وحينما اتخم الدروز بالنهب واخضعوا كل المناطق الجنوبية لسلطتهم . احتلت الفصائل التركية زحلة ودير القمر واستقبلهم السكان المسيحيون كمنقذين . ولنتذكر انه قبل ذلك بشهرين تقريبا كان ظهور الجيش التركى فى الجبال يشكل ايذانا بالعصيان .

بقى فى بيروت امير لبنان الذى اطاح به التمرد قبل ان يطلق الباب العالى حكمه ، وارسل الى دير القمر وجيه مسلم لحماية سكان المناطق الجنوبية المسيحيين الذين دفعوا سيولا من الدم لقاء محاولاتهم غير الناضجة . وفى غمرة السرور بالنجاح رفع الدروز عقيرتهم ضد اعتناق الشهابيين للمسيحية واقسموا ألا يعترفوا بسلطتهم بعد ذلك .

هكذا احتفل فى الجبال فى خريف عام ١٨٤١ بالذكرى الاولى لسقوط الحكم المصرى . ان عدم انزال العقاب بمثيرى فتن نابلس ، التى نشبت قبل ذلك ، اوحى الى القبائل اللبنانية بفكرة الاحتكام الى السلاح لحل القضية الشعبية التى انهت حكم الشهابيين . كان الحقد المتبادل بين هاتين القبيلتين ثمرة لحكم بشير الشهابى على امتداد خمسين سنة . مكان التنافس القديم بين اليمنيين والقيسيين حل فى القرن الثامن عشر الصراع بين حزبى اليزبكيين والجنبلاطيين . وقد رأينا كيف ان صراع هذين الحزبين ساعد

---

* فى ٨ تشرين الثانى (نوفمبر) ، بعد ان عاد بازيلى من دمشق ، بعث الى القسطنطينية : «عند وصولى الى بيروت ، وكنت لا ازال مضطربا لاهوال الحرب التى اجتزت مسرحها لتوى ، بعثت بنداء شديد اللهجة الى سليم باشا فى صدد عدم قيامه باى عمل ، الامر الذى يشهر بكرامة الحكومة . وقد انضم الى العقيد روزيه وقنصل فرنسا ممثلا النمسا وبروسيا» . — **المحرر** .

على الاشتداد السريع لنفوذ الشهابيين . وبعد قتل ونفي اليزبكيين اولا ، ومن ثم الشهابيين ، لم يغير الامير بشير ، وقد اعتنق المسيحية ، قاعدة اسلافه الاساسية ، وهي غرس الخلافات بين القبائل الجبلية . واستخدم الدين نفسه اداة للشقاق . وهكذا ، فان اعتناق الامير الحاكي ، سليل محمد ، للمسيحية كان باكورة للكراهية الدينية التي نمت باستمرار بين القبائل الجبلية . ويستخدم الباب العالي بدوره العنصر الجاهز للشقاق من اجل تقوية نفوذه . وقد تحين الزمن والظروف لتطبيق نظامه المفضل ، نظام الوحدة الحكومية ، ولعزل العناصر المحلية للسلطة القائمة على القانون الاقطاعي القديم . حينما كان سليم باشا يدعو الدروز والموارنة الى بيروت لعقد الصلح وصل في البواخر (١٢ كانون الاول /ديسمبر) وزير حربية الباب العالي السرعسكر مصطفى نوري باشا مع جيش وصلاحيات من الديوان لاعادة النظام الى الجبال وللتنظيم الحكومي . وقد استقبل امير لبنان بلطف وتقدير . ان مصطفى نوري ، الذي كان يوما محبوب وسركاتب محمود ، بقي مخلصا لتقاليد السياسة العثمانية . ولم يكن لطفه هذا بادرة خير . ونصح الامير بالتنازل طوعا عن الحكم الذي اصبح مستحيلا بالنسبة اليه بعد حوادث لبنان ، وعرض عليه بالمقابل ناحية جبيل المسيحية حكما وراثيا لعائلته . لم يوافق الامير وطلب المحاكمة . وفي ٢ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٤٢ اعتقل وارسل الى القسطنطينية . هكذا انتهى حكم الشهابيين في لبنان ، الذي انشئ قبل ذلك بمدة ١٤٧ سنة ، والذي ادى في تلك الفترة من الدسائس والفتن على امتداد قرن ونصف الى تقوية نفوذ الاتراك في الجبال تدريجيا .

عين عمر باشا المرتد ، الذي كان ضابطا في الجيش النمساوي ، حاكما موقتا على لبنان * . وهلل الدروز . كانوا في غمار كل هذه الانقلابات يخافون اكثر من اي شيء عودة الامير القديم بشير الذي انتقل قبل ذلك بعدة اشهر مع اسرته وخزينته من مالطا الى القسطنطينية . وحينما كان يعرض الملايين على الوزراء الاتراك وتقديم اتاوة مضاعفة عن لبنان الى الخزينة ، كان انصاره يهيجون الجبال مستغلين الانطباعات الحديثة لمصائب سكان لبنان الكاثوليك ، تلك المصائب التي كانت تعزى الى سقوط الحاكم القديم . حاولوا استمالة القلوب اليه والحيلولة دون نجاح اية سلطة اخرى في لبنان وانهاك الحكومة واعادة الامير المخلوع او احد ابنائه عاجلا او اجلا .

وكان رجال الدين الكاثوليك اداة دؤوبة لهذه المساعي التي شغلت القبائل اللبنانية عدة سنوات على التوالي واراقت سيولا جديدة من الدماء وانسدت الاخلاق الاجتماعية في الجبال . ان الحكومة الفرنسية ، المستاءة من

* في ١٦ كانون الثاني (يناير) عام ١٨٤٢ . — **المحرر** .

كل ما حدث فى الشرق عام ١٨٤٠ خلافا لارادتها ، كانتـــا ترى فى مصائب القبائل اللبنانية مصادقا لتنبؤاتها وتبحث عن مناسبة لاستعادة نفوذها . وكان ممثلوها يدعمون بنشاط جهود الحزب الذى كان يقوى من يوم الــى اخر مع تزايد اخطاء الادارة واخفاقاتها ، اما فى القسطنطينية فكانت السفارة تتواسط جاهدة لدى الباب العالى فى مصلحة مطامع الامير المسن" .

دبجت فى لبنان عرائض استرحام الى السلطان باسم كل المسيحيين «حول اعادة الحاكم المسيحى من عائلة الشهابيين» . وللمزيد من النجاح فى تغطية هذه العرائض بالوف التواقيع والاختام ، طالب اصحابها بتعوضات من الدروز لقاء النهب والحرائق ابان الحرب الداخلية بقيمة ٦٠ مليون قرش (٣٥٠٠الف روبل فضة) . وعلى العكس من ذلك عرض الدروز فى مطالبهم انه اذا عين امير مسيحى على لبنان مجددا ، فلن يبقى امامهم سوى مغادرة جبالهم والبحث عن ملجأ فى حوران المقفرة .

وبالمناسبة ، فان الدروز ، اذ قلدوا انصار الامير بشير الذين كـانت اعمالهم تعتمد على الشعور الدينى للشعب ، توجهوا من جهتهم الى الحكومة ، واعدين باعتناق الاسلام وطالبين من السرعسكـــر الائمة لاعلان اســـلام قبيلتهـــم .وقد طرد المبشرون البروتستانت وتوقفت اتصالات الشيوخ بالانكليز فى كل الفترة التى مثلت فيها مأساة لبنان الدينية — السياسية .

ننوه هنا بان مصطفى نورى ، محبوب محمـــــود وبطل حفلات السراى التهتكية القديمة ، اشتهر فى تلك الفترة بالغيرة على الاسلام ، وحاول ان يكفر بالنفاق عن حرية شبابه الفكرية ، وعن الشمبانيا والروم فى الفتــرة الاولى من التحولات التى جرت فى استنبول . وقد انصاع للخداع بسهولة ، ولم يدرك ان قانون الدروز نفسه ، اذ يضع الواجبات الدينية للشعب كله على طبقة العقّال وحدها ، يسمح للجماهير الشعبية بان تتخذ موقتا الاشكال الخارجية لاى دين كان ، وفق ما تقتضيه الظروف . وارسل الائمة الـــى الجبال . وتحت اشرافهم اخذ الشعب يتعلم الصلاة على مرأى من الضبـاط الاتراك . الا ان العقّال ، اذ رأوا حمية الاتراك فى الدعوة الى القرآن ، صاروا يخشون ألا تعلن هذه القبيلة المجردة من كل شعور وكل طقس دينى اسلامها بحق ، فى حين ان شيوخها ورجال الدين فيها لم يفكروا الا فى خدع السرعسكر . ولدرء اى سوء تفاهم فى الشعب ، اجتمع العقّال مع الشيوخ فى قصر الجنبلاطيين فى المختارة ، وهناك فى خلوة ، وفق طقوسهم القديمة ، عينوا الشيخ نعمان ، كبير عائلة الجنبلاطيين ، فى اعلى درجات سلمهم .

ومن المميز ان هذا الشاب كان قد اشتهر قبل ذلك بانه اكثر شيوخ قبيلته دهاء ومراسا . وبعد ان كرس نفسه للدين تخلى عن اية مساهمة فى الشؤون الاجتماعية ، حتى عن ادارة ممتلكات ابيه واقطاعاته ، واستغرق فى كسل تأملى وتبلد ذهنه ، ولم يخرج الى الآن عن خموله المألوف الا فـــى

احيان نادرة بنميمة من الوشاة لكى يثير خلافا مع اخيه الذى كان يكن له الود فى السابق . اذا كان ينبغى ان نعزو هذا التغير الى تأثير الدين ، فمن المستبعد ان نكتشف رغم كل بحثنا فيه سر قانونه الغريب .

فى تلك اللحظة بالذات ، حينما ارسل مصطفى باشا الائمة الى الدروز فىالجبال ، وصل الى بيروت الاسقف الانكليكانى اليكسندر ، وهو حاخام معمّد عين حديثا فى القدس . وبهذا ترسخت فى الشعب فكرة مارب انكلترا لادخال الدروز فى دينها وتعمق النصر المزيف للسرعسكر .

كان كل سلوك مصطفى وافكاره واساليبه وكلماته تميل الى اثـارة التعصب الدينى فى المسلمين السوريين الذى يحل فى القبائل الشرقية مكان الشعور بالقومية والاخلاص للدولـة وحب الوطن . واذ نقم السرعسكر على القبائل المسيحية فى سورية ، التى تتطلع بحب واتكال الى الـدول الاوربية التى تعتنق دينها ، اراد ان يعارض هذا الشعـور بتعصب السكان المسلمين الذين يشكلون الاغلبية فى سوريـة والحاقدين على المسيحيين اصلا . ولما كان السرعسكر ساخطا على الثقة التى توحى بها الى المسيحيين الدول التى تعتنق دينهم على حساب النفوذ التركـى ، فكر فى ان يعيد الى الشعب رأيه السابق فى الباب العالى والباشوات بابهة الاستقبالات والعظمة وكثرة الحاشية والخطب الفخمة . عند وصوله الى دمشق القى على وجهـاء المسلمين والمجتمعين لتحيته كلمة اراد ان يبرهن فيها على ان المصريين لم يُطردوا ابدا بقرار الدول المسيحية واسلحتها ، كما تقول الشائعات ، بل بتأثير الطالع المظفر للسلطان وحده .

وفى غضون ذلك كان يدعو سواء بخطبه او بمثاله الشخصى الى الغيرة على الاسلام ويلوم ابراهيم على تحيزه الى الكفار ، ورغم انه لم يتخذ نفسه اية اجراءات ضد المسيحيين ، الا انه كان يعاملهم بازدراء ، ولكى ينتقم من القناصل العامين ، بسبب تدخلهم فى شؤون الادارة ، اصبح على غـرار الباشوات السابقين ، لا يقف لهم ولا يرد زياراتهم ولا يعير شكواتهم اى اهتمام . لم يكن مصطفى يخمن ان سلوكه فى سورية يلقى اعباء مرهقة على حكومته.وفىالواقع ، كان الدروز قبل قدومه يخافون عاقبة جرائمهم . وفيما بعد شجعهم سلوك مصطفى ، فاستأنفوا اضطهاد المسيحيين وازدادت مطامعهم الاقطاعية ، وارادوا ان يفرضوا قانونهم على عمر باشا ، مستّرين فظائعهم وعصيانهم بعبارات معجوجة عن الاخلاص للباب العالى والباشوات .

وجد انين السكان المسيحيين ، الذين خابت آمالهم ، صدى فى كـل اوربا . وذكّرت حكومات الحلفاء الباب العالى بالوعـد الذى قطعه للقبائل السورية بعدم المساس بالامتيازات والحقوق التى كرسها الزمن . ونصحته بالتخلى عن المحاولة الفاشلة لتطبيق الادارة التركية المباشرة فى جبال لبنان . وفى الواقع ، كان بعث سلطة الشيوخ على الشعب الذى تعـرض للنهب

والحرائق هو النتيجة الاولى لهذه المحاولة . واصر الباب العالى على موقفه . وارسل لكسب الوقت مفوضا الى بيروت ، وهو سليم بيه ، حفيد على باشا اليانينى الشهير ، وكلفه بالبحث فى حاجات ورغبات القبائل اللبنانية ولارضاء السفارات اوعز الى السرعسكر وعمر باشا بتقديم كل حماية الى القبائل المسيحية وبعث الثقة فيهم . كانت الظروف مؤاتية لمساعى انصار الامير بشير . وكانت فرنسا فى ذلك الحين تتوسط بحمية للامير المسن . بيد ان الباب العالى كان ، رغم اغراء زيادة الدخل ، يخاف كثيرا اتجاه عائلة الشهابيين ، بالاضافة الى انه لم يكن يستطيع بسبب الشعور الدينى ان يغفر لهم اعتناقهم للمسيحية .

ومن الجهة الاخرى ، هل كان فى وسع حكومات الحلفاء ، التى تم بتأثيرها انقلاب عام ١٨٤٠ ، ان توافق على عودة الامير المخلوع اذا كانت الاطاحة به اول عمل علنى للحملة على الساحل السورى ؟ وهل كانت تستطيع ان تطالب بعودة خلفه الامير قاسم الذى اعطى عجزه ذريعة لفتنة عام ١٨٤١ ؟ ولكن الدول الاخرى مع فرنسا اذ اصغت الى توجع المسيحيين ، اصرت على ابعاد الباشا وعلى ارجاع العناصر المحلية للادارة الداخلية . وكانت المهمة تتلخص فى البحث عن شكل للارجاع يلبى المصالح المتعارضة للقبائل اللبنانية والباب العالى واصحاب النفوذ المحيطين به . وساعدت آثار اخطاء السرعسكر المشار اليها على تطوير هذه المهمة العويصة . لقد تجاوزت سلاطة الدروز كل الحدود . واختبأ فلول سكان دير القمر المسيحيين فى بيروت وصيدا ، بعد ان غادروا المدينة التى تابع فيها الشيخ ناصيف ابو نكد فظائعه على مرأى من الباشا والحامية التى احتلت قصر الامير بشير فى بيت الدين على بعد قرابة الكيلومترين عن هناك . واوعز الباب العالى بكبح الدروز ان لم يكن حرصا على مصير المسيحيين ، فاحتراما لممثلى الدول الكبرى.

فى اواخر آذار (عام ١٨٤٢) اعتقل فى بيت الدين باشارة متفق عليها ثمانية شيوخ كان عمر باشا قد دعاهم الى هناك للاجتماع ، وهم الاخوان جنبلاط وخطار عماد والامير احمد ارسلان وحسين تلحوق وناصيف ابو نكد وحسين الدين ومحمد القاضى . ومن بين الشيوخ ، الذين كان لهم نفوذ فى الجبال لغناهم او حسبهم او صفاتهم الشخصية ، لم ينج من الاسر الا ثلاثة : الامير امين ارسلان ، والشيخ حمرد ابو نكد ، الذى اوقف اخوته والشيخ يوسف عبد المالك .

اهتزت قبيلة الدروز كلها لخبر اعتقال الشيوخ ، ولكنها رأت انها عاجزة بدون زعمائها . اتخذ عمر باشا الاحتياطات اللازمة ، حيث حشدت فى القصر فصائل قوات من كل الضواحى وعززت الحامية فصارت تضم ٤ آلاف

فرد وامنت المواصلات مع الساحل باحتلال الشعاب على الطريق الى صيدا . وسيق الاسرى الى هناك تحت الحراسة المشددة ونقلوا فى باخرة الى بيروت .

كانت حزازات الجبليين الداخلية فى هذه المرة ايضا ، شأنها دائما ، ضمانة لقوة الباشوات فى الجبال ووسيلة للجم احزاب باخرى . كان المسيحيون اللبنانيون مستعدين للنهوض كتلة واحدة والانتقام من الدروز . وهكذا ادت الكراهية الدينية ، التى بنت عليها عائلة الشهابيين نفوذها المقبل ، الى تحقيق الهدف الذى وضعه الباب العالى ، وهو نسف العناصر المحلية وتقوية النفوذ التركى رغم كل اخطاء الباب العالى والباشوات .

اخذ المسيحيون الذين نالوا حظوة الباب العالى يتمالكون انفسهم . وعاد سكان دير القمر الى مدينتهم ووضعوا ايديهم تحت حماية الباشوات على البيوت والبساتين التى استولى عليها الدروز . وجرى الامر نفسه فى كل جنوب لبنان . والتحقت ميليشيا من المسيحيين بخدمة عمر باشا .

قام مفوض الباب العالى عمر بيه صيفا بجولة فى الجبال ، عارضا على السكان الافصاح عن شعورهم بلا وجل . وقد شدد انصار الشهابيين من مساعى حزبهم وجهوده . وبعث فيهم ظهور الاسطول الفرنسى ثانية تحت علم اللواء البحرى لاسوس نشاطا جديدا . وعرضت الارستقراطية المارونية على الاسطول مشهدا من تقاليدها العائلية باقتتال الاخوة بين الشهابيين فى مدينة غزير * . طلب الدروز والكثير من الطوائف المسيحية ، التى كان الانطباع الذى احدثها بينها اضطهاد الامير بشير الطويل العهد اقوى من الجراح الحديثة التى سببتها الفتن ، الادارة التركية المباشرة ، ولكن اغلب الكاثوليك جددوا المطالبة بحاكم مسيحى من عائلة الشهابيين . وقدم كل من الجانبين بضعة آلاف من التواقيع والاختام من بينها العديد من الاسماء المختلقة والاختام المزورة . وهكذا فان القبائل العربية ، التى يثقل كاهلها النير المزدوج للشيوخ الاقطاعيين والاستبداد التركى ، قد منحت الاشكال النيابية عبثا .

كان ينبغى للعرائض التى قدمها الجبليون الى سليم بيه او الى الباب العالى مباشرة ان تشكل وثائق حقوقية لعملية بناء السلطة الحكومية فى الجبال ؛ وللحكومات الاوربية فى هذه العملية صوت استشارى فى صدد الشكل الذى تتخذه . لقد اسبغت الظروف صفة الشرعية على التدخل الدائم

---

* ابلغ بازيلى فى ٣٠ آب (اغسطس) عام ١٨٤٢ تيتوف بما يلى عن اسباب وطابع هذا الصدام : «نتيجة نزاع فى غزير ، على بعد اربع ساعات عن بيروت ، بسبب فلاح غادر سيده لينتقل الى العمل عند آخر ، قتل اربعة شيوخ من العائلات المارونية الرئيسية وجرح كثيرون غيرهم ، فنوه بان السكان لم يساهموا اية مساهمة فى هذا العمل وحتى انهم لم يريدوا ان ياخذوا على عاتقهم مهمة دفن الجثث» . — **المحرر** .

للحكومات الاوربية فى الشؤون الداخلية لدولة اصبح استقلالها وحرمتها منذ عام ١٨٣٩ نصا ضروريا للبروتوكولات والمعاهدات .

حينما كانت تجرى فى القسطنطينية المحادثات بين الحكومة العثمانية والسفارات ، كان الدروز يستعدون للاطاحة بعمر باشا الذى ازداد نفوذه منذ يوم اعتقال الشيوخ . صاروا يلجأون الى الشعور الذى افصح عنه الموارنة فى اجتماع عين عنوب ، ووافقوا على الخضوع لامير مسيحى والتعويض عن كل اضرار الحرب الداخلية ، وتملقوا فى وقت واحد شعور العصبية وشعور المنفعة ، هذين النابضين الجبارين للعالم الشرقى ، وذلك فقط لكى يجذبوا القبائل المسيحية الى جانبهم . حذرت تجربة الماضى الموارنة ، اذ كانوا يتذكرون جيدا ان منافسيهم الدهاة كانوا قبل ذلك بسنة قد شجعوهم بهذا الشكل تماما على رفض دفع الاتاوة لكى يجلبوا عليهم غضب الحكومة ، ثم اعدموهم بلا شفقة . واذ توقعت الحكومة انتفاضة الدروز ، لاطفت المسيحيين من جانبها ووعدتهم بالتعويض عن اضرار عام ١٨٤١ ولم تطالبهم بالاتاوات وتركت كل ذنوبهم بلا عقاب وحاولت بكل السبل ابقاءهم فى هدوء الى ان يتسنى هزم الدروز .

تعتبر ناحية اهدن ، فى الطرف الشمالى من لبنان ، والتى يسكنها الموارنة وحدهم ، مكانا مقدسا. هنا تنتصب اشجار الارز اللبنانى الشهير الذى اخذ منه سليمان الخشب لبناء معبد اورشليم . وتعزو الابحاث الفيزيولوجية الى هذه الاشجار عمرا يبلغ بضعة آلاف من السنين . وتختبئ فى ظلالها ، على القمة المغطاة بالثلج ، صوامع النساك الصالحين . هنا ، حسب الاعتقاد الشعبى ، كانت جنة الارض . واسم اهدن نفسه ، او ايديم كما تلفظه الشعوب الاوربية ، يثير ذكريات تبعث على الاجلال .

دعا الامير عبد الله شهاب ، قريب الامير بشير ، الموارنة الى وقت ظهور الاسطول الفرنسى ، ثم فر الى اهدن . وارسلت خلفه مفرزة لمطاردته . وقد تمكن من اقناع السكان بان الجيش التركى يدخل الشعاب ليجردهم من سلاحهم ويأخذ منهم الاتاوات والغرامات . وفى ١ تشرين الاول (اكتوبر) استولى الجبليون على شِعب دخلته ليلا بلا حيطة فصيلة من المشاة النظاميين ، فقتلوا من مكمنهم قرابةَ خمسة عشر شخصا وارغموا الآخرين على الانسحاب الى طَرابلس .

حرق الجبليون الحاقدون جثث المشاة النظاميين .

ان خبر انتفاضة نواحى لبنان الشمالية جعل الدروز يهرعون الى بدء العمليات العسكرية . حاولوا اولَ الامر قطع انبوب المياه عن قصر بيت الدين ، ولكن عمر باشا تقدم بالمدفعية وطردهم . اخذت زمر المتمردين تجوب الطريق الكبير الواصل بين بيروت ودمشق عبر الجبال ، وصاروا دون ان يمسوا القوافل التجارية والاشخاص العاديين ، يأسرون كل حرس

الحكومة . فى تلك الظروف كان من المستحيل التفكير فى معاقبة اهدن . وقدم السرعسكر الى المحكمة العسكرية الضابط الذى قاد الفصيلة بتهمة ان فظائع جنوده اوصلت الجبليين الاوفياء والمخلصين للحكومة الى حالة اليأس . وفى الوقت نفسه تقدمت الميليشيا الالبانية الى المنطقة المذنبة من جهة ، ومن الجهة الاخرى انحدرت الى هناك من سلاسل لبنان الداخلية فصيلة نظامية قوية . ولكن محمد باشا ، الذى كان يقود هذه الحملة ، امر بان يكتفى بالتهديد ويقنع باى تبرير من الجبليين ، متجنبا الاعمال العدائية بحذر . اعترف المسيحيون الآثمون بذنبهم واستقبلوا الباشا فى جبالهم واستضافوه بلا جيش ، واعربوا بهذا عن خضوعهم ، فصدقهم السرعسكر بطيبة خاطر . بهذا التكتيك المألوف لفن الاتراك الحكومى اخمدت العاصفة فى المنطقة الشمالية من لبنان ، حينما اشتعل التمرد فى كل النواحى الجنوبية .

فى هذه الحالة غادر مصطفى نوري سورية وما لبث ان ابعد عن الوزارة . واستلم اسعد باشا الحلبي ، الذى نقل الى ولاية صيدا ، ارث المشاغل التى خلفتها له سياسة السرعسكر الرعناء . وفى الواقع فان وزير الحربية ، الذى ارسل الى سورية بمهمة تدبير شؤون لبنان ، عقد كل شيء اكثر من السابق وانصاع للخداع ونوى نشر دينه فى الجبال وايقظ تعصب المسلمين وخدع الاحزاب وتملق الانفعالات وحط من سمعة حكومته ، فى حين كان عليه ان يبرز حكما مجردا للحزازات الشعبية ويعيد النظام الشرعى الى نصابه .

بدعوة من الدروز اللبنانيين قام الشيخ شبلي العريان فى اواخر تشرين الاول (اكتوبر) مع ٣ آلاف من ابناء ملته من جبال لبنان الشرقية وحوران بدخول جبال لبنان واحتل قصر الجنبلاطيين فى المختارة ، على بعد قرابة ١٢ كيلومترا عن بيت الدين . وطلب من الباشوات باسم قبيلة الدروز كلها باطلاق سراح الشيوخ الذين مضت عليهم شهور عديدة وهم يرسفون فى السجن فى بيروت . واستنفد اسعد باشا كل الجهود ليهدئ العاصفة بالمعروف والحسنى ، ووعد بان يعزل على الفور عمر باشا الذى كان يتذمر منه الدروز بالدرجة الاولى . وارسل الباشا الى الجبال ثلاثة من الشيوخ المعتقلين فى بيروت لكى يقنعوا ابناء ملتهم ، ولكنهم انضموا الى المتمردين . ولم يبق من سبيل سوى حل القضية بالسلاح . غدا وضع عمر باشا والحامية التركية فى بيت الدين حرجا . اذ تمكن الدروز من قطع الاتصالات بالساحل ، فى حين لم تكن هناك مؤونة . وفى غضون ذلك علم عمر باشا جيشه المناورات وسط الصخور والشعاب المحيطة بالقصر . وكان قد رأى فى عام ١٨٣٣ فى المعسكر الروسى على البوسفور تحركات جنودنا وقناصتنا وفق اشارات موسيقية من البوق . وقرر تطبيق هذا التكتيك على مناطق يقترن فيها كل تحرك للجيش النظامى بصعوبات جمة . اعتقد الدروز اول الامر ان الملل دفعه الى تسلية جنوده النظاميين . اتوا يتفرجون على الجنود الذين

كانوا بايعاز من صوت الابواق التى تتناقل نغمة واحدة من جبل الى جبل يركضون فى شتى الاتجاهات احيانا ، وينبطحون ارضا احيانا اخرى ، ويختفون بين الصخور فى بعض الاحيان ، او يظهرون من مكان ما لينتظموا ثانية فى صفوف وينطلقوا بخطى منتظمة . كان المتمردون ينظرون الى المناورات من الصخور العالية ، قافزين عبر الاحجار والممرات ومنحدرين الى الوهاد على افراسهم الجبلية العجيبة ، ويسخرون من الباشا وجيشه النظامى .

واخيرا ، احاطت الزمر بالقصر واخذت تدعو اطراف المناطق الى القتال . قبل عمر باشا دعوتها ، وفى الوقت نفسه دخلت فى الشعاب وفى خطة متفق عليها مع اسعد باشا كتيبتان تحت امرة رشيد باشا نقلتهمـــا البواخر من بيروت الى صيدا ، ففرقتا بقنابل الشظايا مكامن الجبليين على الطريق الى دير القمر . ما ان سمع عمر باشا الطلقات حتى هجم على المتمردين الذين ادركوا حينذاك فقط معنى تدريبات الجنود وصوت البوق . قاتلوا ببسالة ، ولكنهم لم يستطيعوا الصمود . واذ تراجعوا وهم يطلقـــون النار محتمين بتضاريس المنطقة ، رأوا خلفهم فجأة رتل رشيد باشا الذى اجتاز الشعاب مع الذخائر والمدفعية ، ومع فصيلة صغيرة من الالبانيين . وكانت هزيمة المتمردين شاملة . وقتل منهم ما يربو على الالف . ولاحقهم عمر باشا فى مختلف الاتجاهات حتى ساعة متأخرة من الليل ، وفى الليلة التالية حرق
مختلف الاتجاهات حتى ساعة متأخرة من الليل ، وفى الليلة التالية حرق
قصر المختارة عقابا على خيانة سعيد جنبلاط ، احد الشيوخ الذين اطلـــق سراحهم اسعد باشا الى الجبال لمفاوضة المتمردين .

هكذا انتهت بضربة حاسمة انتفاضة الدروز فى تلك الاماكن نفسها التى نكلوا فيها بالمسيحيين قبل ذلك بسنة على وجه التحديد . وبهذا النجاح للسلاح التركى انتهت السنة الثانية لبعث سلطة السلطان فى سورية . ان الازمنة فى هذه المنطقة ، التى قلدتها ارادة الدول الكبرى للباب العالى ، لا تحدد معالمها تطور الرخاء المدنى والقانون ، بل فتن القبائل فى مصلحة الباشوات والتمردات ضد الباشوات واستمرار اراقة الدماء . ويعزو الاتراك كل هذا الى عادة القبائل والتأثير الخارجى . لا شك فى ان تلك الاحداث ، التى كرسنا فصول كتابنا الاولى لدراستها فى الاسفار والتقاليد الشعبية ، تؤثر كل ساعة فى وضع المنطقة الحالى . والاحداث الداخلية والخارجيـــة نفسها ، التى اتسمت بها عودة سلطة السلطان فى عام ١٨٤٠ ، كانت تنذر الباب العالى بطريق طويل ودام فى هذه المنطقة وبتضحيات صعبة عوضا عن الفوائد التى كان يأمل فى جنيها من هذا المكسب .

ولكن يجب على الاتراك قبل كل شىء ان يتهموا انفسهم وباشواتهـــم وترددهم بين التقاليد القديمة والليبرالية المسرحية لنظريات لا تلائم العناصر الشعبية ولا الحكومية للمنطقة . ونضيف الى هذا ان الباب العالى نفسه لا

يملك اية معلومات عن الحالة الداخلية للمناطق البعيدة والقبائل المتنوعة التابعة له . كان هذا التهاون مقبولا اكثر فى تلك الفترة ، حينما كانت الصلاحيات المعهود بها الى ولاة السلطان تعفى السلطة المركزية من اية مشاغل لادارة المناطق . ولكن هل يلائم الادعاءات الحالية للباب العالى الذى جمع فى يده كل السلطات ، والذى يملى على باشواته اعتباطا وبدون اية معطيات احصائية عن المنطقة والقبائل ما يستحيل تنفيذه من التوصيات او «القوانين» ، حسب تعبير الديوان التركى ؟

ومهما كان الامر ، فان معاقبة المتمردين اوحت الى الشعب برأى مفيد فى الجيش النظامى للسلطان . ففى وسط الجبال ، حيث كان الدروز يأملون فى اطالة امد عصيانهم بلا عقاب ، كما حدث فى اللجـــاة ، شتت الاتراك بانتصار رائع واحد جحافل الجبليين وحطموا شبلي العريان نفسه ، بطل حرب حوران ، أخيل الملحمة السورية ، الملقب عند الشعب بسيف الدين ، سيف دين قبيلته .

ان شبلي العريان ، الذى لم يدرك النظام الحكومى الجديد والذى كان يأمل فى ان المتمرد فى احد الباشالكات سيجد كالسابق ملجأ عند الباشا المجاور ، ظهر فى دمشق بعد مغامراته فى لبنان . اطال احمد باشا الدمشقى امد هذا الحلم عدة ايام اخرى ، وعلى امل استدراج كل شركاء المتمرد اليه استقبله بلطف وخلع عليه شالا وحلة . وبعد ذلك ارسل شبلي العريان الى القسطنطينية وزج به فى سجن الاميرالية * . اختبأ شريكاه الشيخ يوسف عبد المالك والامير امين ارسلان فى بيت القنصل الانكليزى فى دمشق ، واعفى عنهما فيما بعد . اما خيانة سعيد جنبلاط الشاب ، الذى التحق بشريحة العقّال نظرا لعجز اخيه الاكبر وكان فى ذلك الوقت رئيس عائلة الجنبلاطيين القوية ، فبدت لا سعد باشا طيش اطفال ، وقد اعفى عنه كذلك وباشر من جديد ادارة اقطاعاته الشاسعة .

---

* فى حديثى مع شبلي العريان قرب زحلة فى معسكره فى عام ١٨٤١ . بحضور كل مستشاريه وانصاره الرئيسيين ، تنبأت له بهـــذا المصير . وقد خاف ترجمانى نقل كلماتى الى العربية حتى لا يخرج الشيخ عن طوره . اخذت اشرح لــه قولى بالتركية (وكان يفهم هذه اللغة) وطلبت منه ان ينقله نفسه الى الحاضريـــن بالعربية . ولبى شبلي طلبى بابتسامة وغضب وتنهد . انطبعت هذه اللوحة فى ذاكرتى طويلا . فقد بدا كل وجه من وجوه الشيوخ الستين او السبعين المحيطين بى نموذجا مأخوذا من لوحات رمبراندت او سلفاتور روزا .

الفصل الثالث والعشرون

نظام الادارة الجديد فى لبنان . — سقوط الشهابيين . القائم مقامان . — ادعاءاتهما المتبادلة . — مسألة النواحى المختلطة . — الاتجاه الدينى لعملية لبنان السياسية . — قدوم القبودان باشا مع الاسطول . — ضلال الرأى العام وتأثيره فى شؤون لبنان . — مؤامرة شعبية . — نهب وقتل . — ذهاب اسعد باشا الى الجبال . — عزله . ابحار القبودان باشا والحرب الداخلية الثانية فى لبنان . — ميول السلطات التركية والجيش . — مصائب مسيحيى جبال لبنان الشرقية . — عواقب التوسع الدينى فى حاصبيا . — ادعاءات الدول الكاثوليكية . — نفى الامير المسن وارتداد اولاده واحفاده . — اضطرابات جديدة بين الموارنة فى صدد انتخاب البطريرك . — علي باشا الدمشقى وديوكه الرومية . — فظائع ابى غوش فى اليهودية . — شؤون البدو .

ما ان قمع التمرد فى لبنان حتى اتت من القسطنطينية اوامر الباب العالى الجديدة حول الادارة الداخلية لهذه الجبال * . ان اصرار الدول الكبرى واخفاقات المحاولة الاخيرة ارغمت الباب العالى على التخلى عن فكرته المحبوبة ، اى [تعيين] باشا على لبنان . وعهد الى العناصر المحلية بادارة الجبال . واذ عزا الباب العالى فى الوقت نفسه كل القلاقل والتمردات الى الحزازات المتبادلة بين الدروز والموارنة قرر ان يعهد بادارة القبائل الجبلية الى قائم

---

* فى ٧ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٤٢ . — **المحرر** .

مقامين من السكان الاصليين ، والبين لباشا صيدا ، درزى على الدروز ، ومسيحى على الموارنة . وابعدت عائلة الشهابيين عن الحكم الى الابد . واقرت الحكومات الاوربية بالاجماع هذا التدابير ، كما اقرت حكم الباب العالى على العائلة الحاكمة التى سقطت . ووافقت مذكرة السفارة الفرنسية بمهابــة حينذاك على «les droits imprescriptibles de la Porte» * فى صــدد هــذا الاجراء . وسنرى لاحاقا مدى تطابق اعمال السفارة الفرنسية مع هذا التعهد . وامر اسعد باشا بان يشرع على الفور فى انتخاب القائم مقامين . عين قائم مقاما على المسيحيين الامير حيدر ، رئيس آل ابى اللمع ، اقرباء الشهابيين ، والذين اعتنقوا المسيحية مع الشهابيين وكانوا يشغلون بعدهم المقام الاول فى اوليغاركية لبنان المسيحية . وكان انتخاب قائم مقام على الدروز اكثر صعوبة . فقد حلت النقمة على كل الشيوخ ، فبعضهــم كان رهن الاعتقال وبعضهم ساهم فى العصيان القريب العهد . ومن بين هاتين الفئتين فضــل الباشا المتمردين المعتقلين . ووقع اختياره ، بعد الاجتماع بالمرشحين ، على الامير احمد ارسلان الذى حارب شقيقه امين ضد عمر باشا قبل ذلك بامد قصير .

كان يمكن عقد الامل على ان يستقبل الدروز بحماسة هذا القرار المرضى لقومهم الذى اثقل كاهله حتى ذلك الحين نير كراهية الشهابيين والاهوال التركية . ولكنهم ، على العكس من ذلك ، فضلــــوا نظرا للبناء الداخلى لمجتمعهم ، ونظرا للتنافس بين الاشخاص والعائلات ، ونظرا لانقسام جمهور الشعب الى حزبين – اليزبكيين والجنبلاطيين – الحكم الخارجى الذى يحتفظ كل حزب فى ظله بحقوقه ونفوذه على سلطة شخص ينتخب من وسطهم ويضيف الى الدعم الخارجى من جانب السلطات العثمانيـــة نفوذه الشخصى ، وبهذا يستطيع ، على غرار الشهابيين ، ان يسعى الى دوس ارتسقراطية قبيلته .

نذكر بانه بعد القضاء على عائلة المعنيين الحاكمة القديمة فى اواخر القرن السابع عشر ، فضل الشيوخ ان يدعوا اميرا لهم من جبال لبنان الشرقية المجاورة على ان ينتخبوا واحدا من وسطهم . ولكن الانطباع الحديث لمصيبة الشعب والسجن الذى يرسفون فيه منذ ثمانية اشهر والنقمة المخيمة على الاقرباء الفارين ارغمتهم جميعها على الرضوخ بلا قيد او شرط لارادة الحكومة والقبول مرغمين بالامتياز الذى منحته . ولكنهم اتفقوا لضمان مطامعهــم الاقطاعية مع القائم مقام الجديد وهم لا يزالون بين جدران السجن على شروط سرية تعهد بموجبها ان يسبغ بقناع سلطته فقط امام انظار الحكومة صفة القانون على كل عسف الشيوخ الداخلى وان يمنحهم علاوة على الحقوق المشروعة المعطاة له جزءا من راتبه . ننوه بانه الغيت فى غضون ذلك الحقوق القديمة

---

* «حقوق الباب العالى الثابتة» . ـ المحرر .

لامراء لبنان الحاكمين ، وعين راتب للقائم مقامين اللذين ادخلا فى فئـــة السلطات الحكومية .

كان على القائم مقام المارونى كذلك ان يخوض الصراع ضد مساعى حزب الشهابيين الذى تابع طويلا ، رغم الحكم الذى اطلقه الباب العالى واعترفت به فرنسا التى كان هذا الحزب يعقد عليها كل آماله ، اقلاق المنطقة وتسعير الانفعالات الشعبية ومعارضة كل نجاح للسلطة الحكومية فى الجبال بالدهاء الملازم للاسيويين ، وذلك فقط لاطالـــة امد الفوضى واثارة تذمر الشعب وارهاق الباب العالى والدول الكاثوليكية بالشكوات واقناع الجميع بان التنظيم المدنى فى لبنان مستحيل بدون الشهابيين .

بهذه السمات بدأ نظام عام ١٨٤٢ القائم على النظرية القائلة بانه لوقف النزاعات الدامية بين الدروز والموارنة ينبغى قبل كل شىء شطر ادارتهـم الداخلية . ولكن غاب عن النظر فى غضون ذلك ظرف مهم ، وهو ان السكان فى كل نواحى لبنان الجنوبية الخاضعة للشيوخ الدروز مكونون مناصفة من الدروز والمسيحيين ، وحتى ان الاخيرين يشكلون الاغلبية . فى هذه النواحى نفسها كان العداء الشعبى فى الغالب يستعـر بين القبيلتين ، وهناك كان مسرح الفتن القريبة العهد ، وكانت فتنة عام ١٨٤١ نفسها نتيجة لمحاولة السكان المسيحيين الاطاحة بنير الشيوخ . وبحكم النظام الجديد جعل القائم مقام المارونى مطامعه تشمل كل النواحى اللبنانية ، لانه كان يوجد مسيحيون فى كل مكان ، وترك للقائم مقام الدرزى ادارة قبيلة الدروز وحدها . كان السكان المسيحيون فى النواحى الجنوبية ، التى اطلق عليها منذ ظهور هذه المسألة اسم النواحى المختلطـــة (districts mixtes) يعرضون جراحهـــم ويتظلمون من الشيوخ ويبتهلون مطالبين بالقضاء على كل الحقوق الاقطاعية . بعد التقييدات التى طبقها الباب العالى فى كل ارجاء الامبراطورية ، انحصرت هذه الحقوق فى السلطتين التنفيذية والبوليسية . وقد علل الشيوخ مطامعهم بالوعد الذى اعطاه الباب العالى فى عام ١٨٤٠ باحترام حقوقهم القديمة ، شأنها فى ذلك شأن الامتيازات المحلية . اما فى خصوص طلب القائم مقام المارونى ، فقد اعترض زميله الدرزى على نحو معلل جدا بان ادارتين فى ناحية واحدة وقرية واحدة امر مستحيل تماما ، ولهذا فانه ، اذ ترك للقائم مقام المارونى الدروز المقيمين فى المتن ، الاقطاعة المتوارثة لامراء ابى اللمع ، طلب ادارة النواحى الجنوبية بلا منازع .

هذه الادعاءات المتعارضة والمسائل المعلقة شكلت جميعهـــا قضية شعبية جديدة وفى غاية التعقيد تابعت الدول الكبرى ، مما سبب اسف الباب العالى الشديد ، المساهمة فيها بهذا النشاط او ذاك ، وعلى اساس الرأى الخاص لكل منها بهذه الدرجة او تلك ، وبشكل مهين للكبرياء التركية بهذا المقدار او ذاك . وهذا ما ساعد على ان يبذل الشهابيون مساعى لا تكل سواء

فى لبنان او فى القسطنطينية او فى اوربا . وكان عملاؤهم يستجدون باسم سكان لبنان الكاثوليك العطف فى روما وفيينا وباريس على التوالى ، ويملأون الصحف الكاثوليكية المتطرفة باختلاقات مؤثرة عما يعانونه من اضطهادات بسبب الدين ، على حد زعمهم ، ويسترون بقناع الدين مساعيهم السياسية ويحاولون بكل السبل ان يسبغوا على النزاعات فى لبنان صبغة دينية صارخة .

مضى عاما ١٨٤٣ و١٨٤٤ فى محاولات عقيمة للبناء الداخلى فى لبنان . كانت متاعب النظام الثنائى تظهر عند كل خطوة ، اما وضع حدود جغرافية لنواحى القائم مقامين فامر كانت تدينه فكرة النظام الاساسية نفسها . الا ان الباب العالى املى بموافقة السفارات اجراءات خاصة اخرى لازالة اهم العواقب . فقد منح مسيحيو النواحى المختلطة الحق فى ان يكون لهم وكلاؤهم المنتخبون من وسطهم والمستقلون عن شيوخ النواحى ذوى الدين المغاير (المقاطعجية) والمتمتعون بسلطة السهر على النظام . وفى حالة تضييق الشيوخ على الشعب يستطيع الوكلاء التوجه الى القائم مقام المسيحى وطلب شفاعته او وساطته لدى الباشا . ان مدينة دير القمر ، التى كانت حتى ذلك الحين ضمن اقطاعة شيوخ ابى نكد وكانت مسرحا لفظائعهم فى عام ١٨٤١ ، انتزعت من اقطاعتهم ونالت الحقوق البلدية ، وبقيت الحامية التركية تشغل قصر بيت الدين المجاور لحماية سكانها فى حال وقوع هجمات جديدة . واخيرا ، بعد النظر القضائى فى مطالب المسيحيين المالية لقاء النهب الذى جرى فى عام ١٨٤١ ، وعدوا بتعويض قدره ١٣ الف كيس . لم يكن الدروز قادرين على دفع هذا المبلغ ، ولهذا تعهد الباب العالى بان يدفع من الخزينة ١٠ آلاف كيس (قرابة ٢٨٥ الف روبل فضة) ويحصّل من النهابين ٣ آلاف كيس فقط .

لم يكن الباب العالى يتلقى اية اتاوات من لبنان ، بل كان يصرف مبالغ طائلة على نفقات قواته فى الجبال ، وعلى ارسال المفوضين ، وعلى الهدايا للجبليين وغير ذلك ، ويدفع بصبر حتى لقاء ما ينهبه اتباعه ، وذلك فقط لينتهى بشكل من الاشكال من القضية اللبنانية المزعجة . ان خليل باشا ، الذى كان سرعسكرا فى بداية حكم عبد المجيد ثم اصبح قبودان باشا ، قد ارسل مع الاسطول الى بيروت فى عام ١٨٤٤ لبحث حل القضية بظهوره .

ولكن الانفعالات الشعبية اخذت تغلى بقوة جديدة * . ولم تر قبائل

---

* بدأ تصاعد الحركة الفلاحية فى عام ١٨٤٣ ، حينما اعلنت السلطات التركية جبى الضرائب عن ثلاث سنوات خلت (بعد عام ١٨٤١ لم يقدم الباب العالى على جبى الضرائب) . وردا على هذا وقعت فى ايار (مايو) عام ١٨٤٣ اضطرابات بين سكان كسروان ، وفى ربيع عام ١٨٤٤ رفض فلاحو منطقة جبة بشرى دفع الضرائب . وفى وادى البقاع طرد الفلاحون بعد صدامات مسلحة متعهد الضرائب التركى . واثارت

لبنان المسيحية فى صبر الباب العالى الطويل غير الوجل والضعف . ما كادت تلتئم جراح الحرب الداخلية الاولى حتى ارادت ان تجرب حظها وتحل قضيتها الشعبية مع الدروز بقوة السلاح . وامضت شتاء عامى ١٨٤٤-١٨٤٥ باسره فى الاستعدادات للحرب . واذ عزا المسيحيون المصائب التى عانوها فى عام ١٨٤١ الى انعدام تنظيمهم الداخلى ، اخذوا يشكلون قوات شعبية تضم العشرات والمئات وغير ذلك . ولكن لم يقدم اى شيخ او امير على التعهد بقيادة هذه القوات . من جهة ، لم تكن عند الشعب اية ثقة بارستقراطيته ، ومن الجهة الاخرى كانت الارستقراطية المارونية ، التى تعرف الامر معرفة اوثق واصح مما يعرفه الرأى العام الاوربى المخدوع بالصبغة الدينية للقضية ، ترى بوضوح الاتجاه الفوضوى لابناء ملتها وتدرك جيدا انه بعد اسقاط سلطة الشيوخ الدروز سيطيح هذا السيل نفسه حتما بكل الارستقراطية المارونية كذلك . ان الشعب الذى يمثل نفسه بنفسه اطلق على القادة المعينين من وسطه لقبا غريبا ، وهو شيوخ الشباب .

كانت دير القمر مركزا للاستعدادات العسكرية . ان مسيحيى هذه البلدة ، المدينين للامير بشير برخائهم السابق وتطورهم الصناعى ، شرعوا فى العمل بحمية زاد منها اعتقادهم ان الاضطرابات السياسية الجديدة عربون لعودة الشهابيين . استقرت فى دير القمر لجنة سرية تمارس حقوقا قاسية على كل مجموعات المؤامرة الشعبية التى نشرت فروعها فى النواحى الجنوبية . كانت تطلق الاحكام بالاعدام وتستخدم بالاجرة منفذين لاحكامها ، على غرار موظفى محاكم التفتيش فى جمهورية البندقية .

رأى شيوخ الدروز ، من جانبهم ، استعدادات المسيحيين ، فالتقوا فى اجتماع سرى عند الجنبلاطيين فى المختارة وتعاهدوا على نسيان حزازاتهم العائلية موقتا والعمل سوية عند اول انتفاضة للمسيحيين * .

فى ظل الازمة التى خيمت كان يمكن لصرح الادارة اللبنانية المتزعزع

الشائعات حول نية الحكومة التركية دعوة المجندين فى سورية اضطرابات فى طرابلس اقترنت برفض السكان دفع الضرائب . وفى تموز (يوليو) عام ١٨٤٤ ارسلت السلطات التركية قوات الى طرابلس وجبة بشرى . بيد ان النقمة الداخلية لم تهدأ فى البلاد . وقد كتب بازيلى عن ذلك فى ايلول (سبتمبر) من السنة نفسها ان الاضطرابات تعم لبنان ، ومع ان الانتفاضة لم تنشب ، فان «التحلل الشامل لسكان لبنان باسره يتزايد بصورة مروعة ، ويغدو من الاصعب يوما اثر يوم اقامة اية ادارة منتظمة هناك» . وجرى فى كسروان اجتماع شعبى كبير اعلن الاحتجاج على التعريفة الجمركية القائمة التى تبلغ نسبتها ١٢ فى المئة . وعقدت فى لبنان الجنوبى اجتماعات وضع فيها الفلاحون المسيحيون عرائض تطالب بتحريرهم من سلطة الاقطاعيين الدروز . — **المحرر** .

* عقد الاجتماع فى ٢ شباط (فبراير) عام ١٨٤٥ . — **المحرر** .

الذى لم يكتمل بناؤه ان ينهار على رأسى القائم مقامين . ولكنهما عوضا عن ان يوحدا جهودهما لمجم السيل الشعبى ، اظهرا للقبائل الجبلية تنافسا دائما وطموحا تافها ، وكان كل منهما يفترى على الآخر عند الباشوات . وقد امر الباب العالى الباشوات بتفادى اى اجراء حاد ، ولما لم يروا وهم ينتظرون الاوامر النهائية لحكومتهم اى امكان لصفقة سلمية بين القبائل ، استنفدوا كل جهودهم وذلك فقط ليطيلوا قدر الامكان امد الهدوء الظاهرى الذى يغلى البركان تحته . ابحر الاسطول مع قدوم الشتاء ، اما القبودان باشا فبقى فى بيروت بصفة مفوض مطلق الصلاحية . ولكن لم تكن عنده اية صلاحية . كانت المهمة التى كلف بها ذريعة مواتية للسرعسكر رضا باشا الكلى القدرة فى ذلك الحين ، ليبعد عن العاصمة الوجيه الذى كان نفوذه وقرابته من السلطان يحبطان خططه .

فى الاشهر الاولى من عام ١٨٤٥ ازداد النهب والقتل ومختلف انواع الجرائم فى نواحى لبنان الجنوبية . وكان الجانبان يستعدان للحرب ويتهم كل منهما الآخر بهذا ويتقدمان بالشكاوى الى الباشوات على التوالى . حاول الدروز ان يجذبوا الاتراك اليهم بنداءات حول خضوعهم واخلاصهم ويضمنوا بهذا مساعدتهم ، ولكنهم لم يوافقوا على التنازلات التى امرهم بها الباب العالى لتلبية مطالب المسيحيين . واراد المسيحيون ان يخدروا يقظة الحكومة ، مصورين انفسهم ضحايا لاستبداد الشيوخ وانانيتهم .

فى شباط (فبراير) وزعت على المسيحيين صدقات جديدة (قرابة ٣٠ الف روبل فضة) جمعت فى النمسا لصالح ضحايا فتن عام ١٨٤١ . وجرى التوزيع من خلال رجال الدين الموارنة ، واستخدم المبلغ كله لشراء الاسلحة والذخيرة . كانت لجنة دير القمر تدبج ، من ناحية ، عرائض متباكية الى الباشوات وممثلى الدول الكبرى باسم المسيحيين الذين تهددهم نيات الدروز الخبيثة وتحرض ، من الجهة الاخرى ، على تفجير فتن جديدة تبريرا لشكواتها . وكانت النفوس معبئة الى درجة ان كاهنا مارونيا فى السبعين من العمر خنقه اقرباؤه على الطريق العام لانه ، خلافا للامر الذى اصدرته اللجنة بقطع اى اتصال بالدروز ، زار احد الشيوخ الذى قدم اليه معروفا فى يوم مضى . وكان عدم انزال العقوبة على مختلف الجرائم اكثر ما ساعد على مآرب المتآمرين ، اذ كانت سلطة القائم مقامين عاجزة تماما فى حين لم تقدم الحكومة على استخدام اجراءات صارمة .

باقتراح من قناصل الدول الكبرى ، زار اسعد باشا بنفسه على امتداد شباط (فبراير) دير القمر ليدرس شخصيا الامزجة فى لبنان ويدرأ الانفجار . واستقبل فى كل مكان بآيات الخضوع والاحترام المنافق . كان الشعب يحسن من خلال تهيجه تقدير الصفات الشخصية والتفكير الراجح والخلق الصارم والانصاف المجرد والمنزه لاسعد الفائق النبل الذى يكاد

يكون آخر نموذج للوجيه التركى من النمط القديم . خرج كل سكان دير القمر المسيحيين لاستقباله باسلحتهم الكاملة ، وعند دخوله المدينة غنى النساء والاطفال على شرفات البيوت الاغانـي على شرفه ونثروا الزهور على طريقه ورشوا عليه مـاء الزهر . وضع الشيوخ اسلحتهم عند قدميه ، موضحين انهم جرؤوا على استقباله مسلحين اشارة الى القلق الدائم الذى رافق حياتهم فى الجبال خوفا من نيات الدروز الشريرة .

كان كل هذا مدروسا . لقد حاول المسيحيون ان يظهروا انفسهم عبيدا غيورين ومخلصين ليجعلوا كفة العدالة التركية تميل الى جانبهم . ولم يتمكن الباب العالى من انتهاز هذه الظروف المواتية لتأكيد نفوذه فى الجبال . ان زيارة اسعد باشا لدير القمر ونصائحه ووعده باعارة اهتمام عادل لشكوات المسيحيين والدروز المتبادلة احدثت انطباعا منقذا . ولكن فى ذلك الحين عزل الباب العالى اسعد باشا وامره بالذهاب فورا الى البصرة ، المكان المعين لنفيـه .

منذ امد بعيد والصعاب السياسية والماليـة لباشالك صيدا ، وحتى القضايا اللبنانية نفسها تغدو بصورة متزايدة من يوم الى آخر شيئا لا يطاق بالنسبة الى اسعد . كان يلاحقـه وزير المالية موسى ساوفيتي باشا الذى كان فى ذلك الحين يتقاسم ورضا باشا النفوذ فى الوزارة * . ينبغى القول

---

* هذه الكراهية ، التى انطوت على تلك العواقب الوخيمة ، تعود الى كون اسعد باشا ، وقد اهانته يوما اللهجة الآمرة لرسالة وزير المالية اليه ، تحدث عنـه بحدة كبيرة فى حضور احد مرؤوسيه الذى طُرد من وظيفته لاحقا ، فهرع بوشاية الى العاصمة . ومما زاد من وقع الاساءة على كبرياء الوزير ان اباه كان يوما موظفا عند اسعد الذى كان له فضل على كل عائلته . وينتمى اسعد الى عدد ضئيل جدا مـن الاعيان الاتراك ذوى الحسب والنسب . وهو متحدر من عائلة عريقة من دَريبهوات اسيا الصغرى الذى رافقوا فتوحات السلاطين الاوائل . وفى زمن ابادة الانكشارية نفذ بغيرة ، ولكن بانسانية ، حكم السلطان فى باشالكه فى أدرنـة (أدريانوبول) ، وكان يعتبر من افضل خدم السلطان بعقله وخبرته واخلاصه . وفى عام ١٨٢٧ ، بمناسبـة انذار الوزارة الروسية سأل محمود برسالة سرية اسعد عن رأيه : الموافقة على طلب روسيا او الاقدام على الحرب ؟ واعرب اسعد بصراحة عن رأيه فى صيانة السلام ، وحتى انه عرض على سلطانه كل ثروته للمساعدة على دفع التعويضات التى تطالـب روسيا بتقديمها الى تجارنا الذين افلسهم عسف الباب العالى فى عام ١٨٢١ ، وذلـك فقط لحفظ السلام الضرورى لتدعيم اصلاحات محمود . ولكن السلطان ، الذى خدعه المتملقون والاحبة الذين قالوا عن قواتـه دون اللجوء الى الاستعارات انها قوات لا تقهر ، عزا نصيحة اسعد الى وجله . ولم يقبل سوى اقتراحه بالتبرع بكل ثروته ، ولكن لا لدفع الدين الى روسيا كما كان يقصد اسعد بـل للانفاق على الحرب ضد روسيا . وبررت النتائج تماما توقعات الشيخ المحنك ، ولكن امواله لم ترجع اليه ابدا . وفى عام ١٨٢٦ ، حينما ساهم جلالة الامبراطور فـى حملة ما وراء البلقان دافع اسعد عن شوملا . وبعد تسع سنوات ، ابان جولـة العاهل فى منطقة ما وراء

ان العاصفة التى تجمعت فى الجبال كان لا بد وان تهب بوجود اسعد ايضا ، ولكن لا شك فى ان الباشا الذكى والعادل ، الذى تمكن منذ استلام منصبه ان يبعث الذعر فى الجبليين بمعاقبة التمرد ، ثم اوحى بالثقة وتمكن من ان يدرس المنطقة بنفسه ويطلع على الامور ويتعرف بالاشخاص ، لا شك فى انه كان سيتمكن من لجم الجبليين فى الوقت المناسب بعد اول بادرة للتمرد ويدرأ بهذا مصائب الحرب الداخلية الثانية . كل هذا غاب عن انظار الباب العالى ، فحكم اكراما للانفعالات الشخصية السائدة فى مجالسه على قبائل لبنان المعذبة بمحن جديدة ومروعة وزعزع نفوذه فى سورية .

كان ذهاب اسعد وقدوم خلفه وجيهي ، الذى حكم باشالك حلب حتى ذلك الحين ، بمثابة اشارة لبدء الحرب . وفى غضون ذلك ، فان القبودان باشا ، الذى اصابه الملل فى بيروت منذ امد بعيد وكانت عنده مسوغات ليخمن انه يجرى اعداد خلف له فى منصب الاميرال الاكبر ، تمكن من التماس السماح له بالعودة الى العاصمة ، واستقل الباخرة فى اليوم نفسه الذى اشتعلت فيه اولى حرائق القرى اللبنانية على مشارف بيروت .

لا يستطيع احد اتهام خليل باشا الطيب واللطيف بالمساعدة المتعمدة على التوصل الى نتيجة كهذه . كان يأنف من كل الدسائس ، وكان الملل يقتله فى بيروت ، فلم يجد لنفسه تسلية وعملا ، كما يقال ، غير اطلاق

القفقاس ، وكان اسعد فى ذلك الحين باشا على ازمير المجاورة ، ذهب الى الكسندروبوليس لتحية جلالته باسم عاهله . خلف مظهر وتصرف واحاديث القيصر الروسى انطباعا عميقا فى تفكيره ، وكان مرارا ، اذ ينظر الى صورة الامبراطور فى بيتى فى بيروت ، يحدثنى عن ادق تفاصيل هذا اللقاء . تذكر جلالته ان المدافع المقدام عن الحصن البلقانى كان يسمى اسق باشا ، وسأل ضيفه عما اذا كان هو نفسه قد ذاد عن القلعة حينذاك . ان اسعد ، الذى ربى على مفاهيم السلوك التركية ، فكر فى ان الرد بالايجاب لا يليق ، فقول «نعم» يعنى التباهى بكونه قاتل الجيش الذى كان يوجد فيه الامبراطور نفسه . ولكنه كان يعرف كذلك ان الكذب معيب امام القيصر ، فغض بصره ، كالمجرم ، ولم يجرؤ على الجواب . فهمه العاهل ، فلاطفه واثنى على خدمته الشريفة للسلطان . اغرورقت عينا الشيخ المندهش بدموع الامتنان . اثار التقرير الذى قدمه الباشا عن احاديثه مع الامبراطور حماسة السلطان محمود ، وكاد اسعد ان يصبح المحبوب الاول لذلك العهد . ولكن كما يحدث دائما فى تركيا ، بعثت خطوته عند السلطان تخوفات محاسيب السلطة . وقد افترى على اسعد وعزل من الباشالك . ثم شفعت له سفارتنا ، فنال حظوة من جديد وقبل فى المجلس العالى . لم تمكنه استقامة خلقه من البقاء فى العاصمة طويلا . فصار ينقل من باشالك الى آخر بعيدا عن استنبول . وفى عام ١٨٤٧ حكم كردستان وعاقب المتمرد الشهير بدر خان بيه . وهو الان يشارف على التسعين ، ولكنه يعتبر افضل شاعر فى تركيا .

[بدر خان بيه ، امير كردى ، حاكم ناحية الجزيرة ، ترأس انتفاضة ضد السلطات التركية قمعت فى عام ١٨٤٧ . — **المحرر** .]

النار من البندقية ، ولم تكن عنده متعة غير تحطيم الاباريق على بعد ١٢٠٠ خطوة * . تقع المسؤولية على الوزارة . لقد حطت وكأنما عمدا من عظمة الحكومة فى رأى الشعب بالقدوم الغامض للاميرال الاكبر الى بيروت وبرحيله الاكثر غموضا ، وجلبت على نفسها لوما منصفا من المواطنين والرأى العام الاوربى على رغبتها الخفية فى انهاك القبائل الجبلية بالفتن وتقويض كل العناصر المحلية للسلطة والنفوذ بالدسائس التركية الى ان يتسنى لها تعيين باشا فى الجبال خلافا للتعهدات التى قطعتها للدول المسيحية .

بدأت العمليات القتالية على نهر الدامور ، على الطريق العام من بيروت الى صيدا ** . حدث هناك شجار عادى بين سائقين دروز وموارنة . جعلت اصداء اطلاق النار كل النواحى الجنوبية تهب متوفزة متأهبة . فى هذه المرة كان المسيحيون مستعدين للعمليات الهجومية . اقتحم سكان جزين ، الناحية الغنية والجميلة التى يقطن فيها الموارنة على وجه الحصر تقريبا ، ناحية الشوف المجاورة واحرقوا الكثير من القرى وحطموا وشتتوا الدروز ووصلوا الى قصر المختارة الذى كان يدافع عنه الشيخ سعيد جنبلاط الذى يمقتونه . وفى الوقت نفسه هب مسيحيو المتن ، الناحية الحدودية بين الدروز والموارنة ، وانقضوا جماعات على الدروز القاطنين بينهم ، واحرقوا وقتلوا ونهبوا بلا اية رحمة .

وفى اليوم ذاته اجتاحت كل الفظائع وكل اهوال الحرب الداخلية المشؤومة نواحى لبنان الجنوبية . ونشب فى كل قرية قتال بين المسيحيين والدروز ، وكان المنتصرون يحرقون بيوت المهزومين . كان الوقت موسم محصول دود القز . ولكى يشغل الشيوخ الدروز اتباعهم عن العمل فى استثماراتهم ويرغموهم على الذهاب للدفاع عن قبيلتهم ، اخذوا يحرقون بانفسهم دود القز والشرانق على حد سواء . ومن الجهة الاخرى ، طلبوا الحماية من الباشوات والقوة التركية المرابطة فى بيت الدين .

استمر انتصار المسيحيين قرابة الاسبوع . ولم يبق درزى واحد فى كل المتن وجزين ونصف قرى ناحية الشوف ، فقد قتل البعض والتجأ الاخرون الى النواحى المجاورة ، ونهبت ممتلكاتهم وحرقت بيوتهم . ثم تغلب الدروز ، فاخذوا بدورهم يقتلون المسيحيين وينهبون ويحرقون ، بحيث انه لم يبق فى غضون اسبوعين من هذه الفظائع الجامحة اى بيت فى سبعين قرية من قرى لبنان الجميلة ، المزدهرة ، الغنية . كان فى وسع المرء ان يتتبع بنظره من بيروت مسيرة الحرب ، نهارا من خلال سحب الدخان المنعقدة فوق قمم

---

* وزع ١٠ آلاف قرش بقشيشا على الحاشية حينما حطمت طلقة من معاليه لاول مرة ابريقا على هذه المسافة .

** فى مستهل ايار (مايو) عام ١٨٤٥ . **المحرر** .

الجبال على التوالى ، وليلا من خلال اللهيب المنطلق من قرية الى اخرى على منحدرات الجبال . وكان ذلك ابان احتفال طبيعة الجنوب بعيد الربيع . ان ماء حياة مملكة النبات ، الذى لوحته شمس ايار (مايو) ، قد غطى الحقول والسفوح بزمرد المزارع وبذهب المحاصيل الدانية القطاف ، امـــا الانسان فتأججت فيه الانفعالات واندفع وحشا مفترسا وسط الخيرات التى منحته اياها الطبيعة المعطاء ، اندفع متعطشا الى الدم والابادة فى يده مشعل حارق وفى قلبه سعار .

للتفريق بين القبيلتين الحاقدتين دخلت الجبال حامية بيت الدين من جهة ، ووجيهي باشا مع الجيش والمدفعية من الجهة الاخرى . ولكن الاتراك ساروا متلمسين طريقهم فى الجبال خشية ان تنتفض كلتا القبيلتين ضدهما فجأة وان تتحول فتنة الجبليين الى عصيان شامل . هذه التخوفات كانت مبررة اقل مما فى الحرب الداخلية الاولى ، نظرا للحقد الشديد الذى يكنه هذه المرة كل من الطرفين للآخر . كان يمكن التخوف من انـه اذا انتصر الموارنة ، فستتوجه تطلعاتهم الفوضوية فيما بعد ضد الحكومة ، على غرار ما فعل الدروز حينما رفعوا السلاح ضد الباشا فى عام ١٨٤٢ عقب انتصارهم على الموارنة . كان ينبغى للاتراك بناء على قوانين الانسانية والسياسة السليمة ، ووفقا لاعتبارات كل الظروف الداخلية والخارجية ان يكونوا فى غاية التجرد بين القبيلتين المتحاربتين . كان يكفى اصدار امر بتفرق كل الزمر الى قراها تحت طائلة معاقبة كل جبلى يشاهد حاملا السلاح خارج قريتـــه . كان فى وسع دوريات القوات النظامية ان تطوف الجبال فى كل الاتجاهات وتفرق الحزبين بلا صعوبة . ولكن الاتراك كانوا يخشون على جيشهم اكثر من اى شىء آخر . وكانت هذه التخوفات قناعا لحسابات غادرة . كانـــوا حاقدين على الدروز والمسيحيين سواء بسواء . وكانت القبيلتان ، فى رايهم ، قد انهكتا بافراط عربونا لطاعتهما .

اعلن الفريق داود باشا انه لن يبعثر ارتاله فى الجبال ، حيث الخيانة تكمن فى كل مكان ، فى الممـــرات والشعاب وشعور السكان . وقرر فى المجلس العسكرى الا يقل كل رتل عن نصف كتيبة كاملة التجهيز وان يشكل معسكران مع المدفعية نقطتين مركزيتين احتياطيتين فى المتن ودير القمر تستند اليهما الارتاك المتحركة . هذه الاحتياطات الستراتيجية كشفت تخوفات الاتراك للقبائل الجبلية فبعثت فيهم المزيد من الجرأة .

عوضا عن ان يتقيد الباشوات بالتجـــرد المطلق ، قرروا البحث عن مرتكزات فى احد الحزبين المتحاربين . ومن الواضح ان كفة الميزان مالت من جديد الى جانب الدروز . كان نظامهم الاوليغاركى الجذرى وحتى خلقهم الشعبى يوفران ضمانات امتن من الانفعالات الجامحة السائدة فى المعسكر المسيحى . لم يكن الشيوخ والامراء يعرفون ذلك التطلع الشعبى للمسيحيين

الذى يهدد كل الاعيان الاقطاعيين بالغرق والذى تقوده المساعى الخفية لرجال الدين الموارنة وانصار اسرة الامراء المعزولة . اما فى خصوص المحاولة غير الناضجة لشيوخ الشباب المسيحيين ، فقد انهار كل هذا النظام عند اول اضطراب عسكرى وكانت لجنة دير القمر تستطيع قيادة الدسائس لا العمليات الحربية . هذا بالاضافة الى ان الموارنة مالبثوا تحت تأثير الفوضى القاتل ان جلبوا على انفسهم غضب الباشوات . وفى حين كانوا يسألون الاتراك الحماية ، استولوا على مؤونة كانت موجهة تحت الحراسة من بيروت الى معسكر وجيهي باشا ، وقتلوا فى قرية قرنايل ابان تبادل اطلاق النار مع الدروز الرقيب الاول لفصيلة تركية هرعت الى هناك للفصل بين الحزبين . هذه الجريمة ، او ربما هذه المصادفة ، اثارت غيظ كل الجيش التركى على المسيحيين وضمنت للدروز خطوة كبرى لدى الباشا تقوم على الحسابات السياسية ، وتعاطفا كبيرا من جانب الجيش يقوم على السخط الدينى ازاء الكفار بسبب خيانتهم لجيش ارسل فى مهمة سلمية .

استغل الشيوخ الدروز اخطاء خصومهم . وقد دعا الباشا الى المعسكر كل الشيوخ والامراء من القبيلتين المتخاصمتين لم يحضر الموارنة ، البعض لعدم ثقتهم بالاتراك ، والآخرون لشعورهم بعجزهم عن التأثير فى جماهير ابناء ملتهم . اما الدروز ، فعلى العكس ، مثلوا امام الباشا واخذوا بذريعة لائقة ، وهى المساعدة على وقف الفتن ، يوجهون تحركات قبيلتهم من المعسكر التركى .

هذه الظروف تفسر ظاهرة العصر الغريبة ، وهى التحالف المشؤوم بالنسبة الى المسيحيين بين السلطات التركية وقوات الدروز ، الذين كانوا قبل ذلك بامد قصير ينتفضون بتمرد عام فى الجبال ضد السلطة العثمانية ، فى حين يمكن القول ان المسيحيين ، الذين ابدوا غيرة على السلطان فى عام ١٨٤٠ ، لم يرتكبوا اى ذنب ازاء الحكومة باستثناء خطبهم الساذجة واما لهم الساذجة فى تعاطف اوربا . مع العلم ان الفكرة الاساسية التى الهمت جماهير السكان المسيحيين ، فكرة القضاء على الحقوق الاقطاعية ، كانت تتفق تماما ومقاصد الحكومة العثمانية . اما فى خصوص المساعى لاعادة اسرة الامراء المخلوعة ، فان كل مراقب غير متحيز يستطيع الاقتناع بان اسم الشهابيين ، هذا السوط فى يد الاوليغاركية اللبنانية ، كان بالنسبة الى جمهور الشعب ، الذى لا يعرف مراوغات الاحزاب ، راية لطموحه اكثر مما كان هدفا .

ان الدروز ، الذين يتلقون العون من الاتراك ، تابعوا فى كل مكان التنكيل بالمسيحيين التعساء . وامتلأت صيدا وبيروت بضحايا الفتن اللبنانية . ومات البطريرك المارونى من الخوف اذ علم ان زمرة من الدروز تقترب من كسروان . وفى غضون ذلك امر الباشا علامة على عدم تحيزه وتلبية لشكوات قنصليات الدول الكبرى بان يعدم فى يوم واحد درزى فى بيروت قبض عليه

متلبسا بحرق بيوت المسيحيين ، ومسيحى فى معسكر فى الجبال اتهم بقتل الرقيب الاول التركى فى الحادثة التى اشرنا اليها . كان يستحيل العثور على المذنب فى جموع المقاتلين ، ولكن منظر الاعدام كان ضروريا لارضاء الجيش الغاضب . فاعدم اول من وقعت اليد عليه .

كانت لاراقة الدماء فى لبنان صداها فى جبال لبنان الشرقية ايضا . ان ناحيتى راشيا وحاصبيا ، اللتين يسكنهما المسيحيون الارثوذكس والدروز ، لا تزالان الى الان ، شأنهما قديما ، تحت حكم الفخذ الاصغر للشهابيين الذين بقوا على الدين الاسلامى . ان الامير سعد الدين فى حاصبيا والامير افندي فى راشيا ، اللذين جردا من حقوقهما الاقطاعية تحت الحكم المصرى ، قلدا منذ ذلك الحين سلطة متسلمين او مديرى ناحية ، وقد ثبتهم الاتراك فى هذا المنصب مكافأة لهما على الانتفاض ضد المصريين . فى عام ١٨٤٣ عزل علي باشا الدمشقى ذو العقل الضعيف حاكم حاصبيا وسلم الناحية على اساس الالتزام لاحد الاكراد . وبمناسبة التوزيع الجديد للاتاوات وقع شقاق بين مسيحيى حاصبيا . ان الشيوخ الدروز من عائلتى شمس وقيس ، الذين لم يكن لهم هناك يوما اى وزن سياسى ، كما هو شأن الشيوخ فى لبنان ، اثاروا كلا الحزبين على امل ان يخضعوا لسلطتهم ، على غرار الشيوخ اللبنانيين ، هذه الناحية المسيحية المزدهرة ، المدينة برخائها لرعاية الامير سعد الدين الابوية ، وان كانت قد اهتزت نتيجة لتغيير السلطة . ودعوا الى مساعدتهم المبشرين البروتستانت الاميركيين الذين ينصب تكتيكهم لنشر دينهم فى سورية على اطالة امد الخلافات فى الطوائف والعائلات وتعكير الماء للصيد فيه ، كما يقول المثل .

لقد سبق ورأينا قسط المبشرين فى تأجيج الانفعالات الشعبية فى لبنان . واذ اعتمدوا على نفوذ الانكليز وعطف ممثلى انكلترا ووعدوا اتباعهم بشتى الخيرات وبالتسهيلات فى دفع الاتاوات وبالاعانات النقدية ، تمكنوا من ان يجروا اليهم ٥٠٠ شخص من الناقمين وفتحوا المدارس واخذوا يعظون بتعاليمهم . فى تركيا تساهم القيادة الدينية للقبائل التابعة فى شؤون الادارة . والخلاف على توزيع الاتاوات تحول بسهولة فائقة نتيجة لدسائس الدروز والمبشرين الى خلاف مع الكنيسة . حدثت قلاقل ، اما الانفعالات الشعبية التى ادت الى الانشقاق فاحتدمت تحت تأثيره بمزيد من الحقد . ان المبشرين ، الذين يعملون منذ خمس وعشرين سنة فى الشرق باسره ولم يحرزوا اى نجاح غير الحزازات فى قبائل وعائلات الطوائف المسيحية الاخرى ، احتفلوا بادخال زائف لما ينوف على مئة اسرة ارثوذكسية فى ملتهم . صحيح ان هذه الاسر توقفت عن زيارة كنيستها ، ولكن كان على المبشرين ان يضعوا معتنقى الدين الجدد تحت رقابة مشددة حتى لا يشتعل المصباح امام الايقونات المنزلية وحتى لا يتقيدوا بالصيام ، فى حين كان معتنقو الدين الجدد يؤدون

خفية عن معلميهم كل طقوس دين ابائهم . لقد تمكن بطريرك انطاكية المسن ميفوديوس ان يلتمس من الحكومة الغاء الاجراءات المالية التى ولدت الشقاق فى رعيته ، واعادة الحكم الى الامير محبوب الشعب . اما الحاكم المسن فقدم عبر سلسلة جبال لبنان الشرقية المغطاة بالثلـــوج وتمكن ، اخيرا ، من المصالحة بين الحزبين اللذين اخذ يضغط عليهما النفوذ المغرض للشيوخ الدروز . وغادر حاصبيا المبشرون البروتستانت ، المضطرون الى الاختفاء من غضب الشعب . هذا الاستطراد ضرورى لتفسير المصائب التى حلت بحاصبيا السيئة الطالع بسبب الفتن فى لبنان . ان الشيخ ناصيف ابى نكد الذى يعرفه القارئ ، والذى كان جلاد مسيحيى دير القمر ، وفر من الاعتقال فيها بعد ، قد استثنى باصرار من قنصليات الدول الكبرى من العفو الذى منحه اسعد باشا للدروز . وبقى منذ ذلك الحين يجوب حوران ومضارب البدو . وما ان بدأت الفتن الجديدة فى لبنان ، حتى استدعى دروز سلسلة جبال لبنـان الشرقية المجرم الشهير ووعدوه بمساعدته فى لبنان شريطة ان يساعدهم مقدما على معاقبة مسيحيى حاصبيا واخضاعهم لسلطة الشيوخ . جمع ابو نكد المسعور عصابة تضم مـا يربو على ٣ آلاف من دروز حوران ومن الاكراد والبدو ومختلف الاوباش . واذاع فرمانا سلطانيا مزيفا يأمر كل المؤمنين بان يهبوا لسحق المسيحيين . وانقض كالحدأة على حاصبيا يسبقه الهول الذى احدثه اسمه . نصح الامير سعد الدين المسيحيين بان ينجـــوا بالفرار . توجهوا مع اسرهم على الطريق الى دمشق ليطلبوا الحماية من الباشا ، لكن دروز حاصبيا ، الذين انضموا الى زمرة ابـى نكد ، طوقوا المسيحيين فى احد اودية جبال لبنان الشرقية الذى توزعوا فيه للمبيت ، وقطعوا عليهم الطريق الى دمشق وانقضوا عليهم . بعث اليأس الشجاعة فى هؤلاء التعساء ، فدافعوا عن انفسهم طويلا وقتل منهم بضع مئات ، وفر الآخرون الى زحلة . وغير بعيد عن هناك كان يقع معسكر وجيهي باشا . بعد ان تخم ابو نكد مع زمرته ودروز حاصبيا نهبا فى المدينة التى غادرها المسيحيون وفى الناحية كلها ، دنسوا الكنائس وذبحوا الكهنة عند الهياكل ، وتفوقوا بفظائعهم على ابناء ملتهم اللبنانيين .

ولكن بعد كل هذه الفظائع استقبل وجيهي باشا ابا نكد بلطف وخلـــع عليه حلة سنية ، وكأنه محا بجرائمه الجديدة تلك الجرائم التى لم يسمح له اسعد باشا بسببها ان يطأ ارض لبنان ، فتلقى العفو من خلف اسعد باشا العادل . هل يعزى هذا الى عمى الباشا او الى اقتسام صيد حاصبيا ؟ لقد برر والى الباب العالى بكل سلوكـــه فى فتن القبائل اللبنانية اردأ توقعات الشائعات الشعبية ، وبعث ، وهذا هو الاسوأ ، على القناعة بان الباب العالى فرح بمصائب الجبليين . تبرأ الباب العالى من المسؤولية امام سفارات الدول الكبرى ، واضعا كل الذنب على مساعى الشهابيين . ولتحطيم نفوذ الامير بشير

المسن ، الذى كان يعقد القضايا اللبنانية من العاصمة ويسبب مشاغل جديدة للحكومة ، نفى مع اسرته كلها الى كاستان بولى فى آسيا الصغرى . وعندئذ اخذ ابناء الامير واحفاده ، ولاسيما الامير امين الذى كان انصار العائلة الشهابية يتكلون عليه بالدرجة الاولى ، يتبرأون الواحد اثر الاخر من دينهم الجديد الذى كان بعضهم قد ولد عليه اصلا . لقد عاد الشهابيون الى دين اجدادهم ليرضوا الحكومة بهذا ، وذلك تماما كما فعلوا قبل قرابة ثلاثين سنة فى الجبال ، حينما تعمدوا ليكتسبوا فى قبائل لبنان المسيحية سندا ضد اتباعهم الجامحين . ومما يشرف الامير بشير انه لم يدنس شيبته بالارتداد . ولا يزال الى الآن على الشريعة المسيحية ويعيش بوداعة فى بورسة التى نقل اليها فيما بعد لتغيير المناخ * .

فى غضون ذلك تابع الدروز فى لبنان قتل المسيحيين على مرأى من الباشوات والجيش ، اما وجيهى فاجرى فى معسكره تدريبات مدفعية ليفرق حجافلهم بهزيم الطلق الخلب . وكان يرد على اللوم المر والشكوات اللجوجة من القناصل العامين بموعظة مزوقة عن تجرده ، وعن انسانيته ، وعن طهارة نياته . واتهم الشيوخ المسيحيين والقائم مقام نفسه بانهم لم يوافقوا على المثول امامه فى المعسكر للمحادثات مع الدروز ، ولهذا اقترح على قناصل الدول الكبرى بان يكونوا وسطاء ويكفلوا امن وسلامة الشيوخ المسيحيين والدروز من اجل مؤتمر لهم فى بيروت لعقد الهدنة .

وهكذا افتتحت المحادثات فى بيروت بكفالة ممثلى الدول الكبرى فى اواخر ايار (مايو) ، واخمد العنف فى الجبال بالتدريج . ولكن لم يكن فى الوسع حل المسألة الاساسية حول ادارة ما يسمى النواحى المختلطة التى كانت مرتين مسرحا للفتن . وقبل الجميع على الاقل البقاء فى هدوء وانتظار اوامر جديدة من الباب العالى .

ما ان توقفت الفتن بين الدروز والموارنة فى نواحى لبنان الجنوبية حتى وقعت اضطرابات فى النواحى الشمالية بمناسبة انتخاب البطريرك المارونى الجديد . وكانت هذه الاضطرابات تعبيرا عن الصراع الداخلى بين ادعاءات الشيوخ الاوليغاركية وميول الشعب الجديدة .

حرصت الارستقراطية على فوز مرشحها لرتبة البطريرك المارونى ، لكى تصبح فيما بعد كل المناصب المربحة فى ادارة الممتلكات الكنسية من نصيب رجال الدين الوجهاء وتشكل مصدرا لاثراء الشيوخ الكسالى . ان الكنيسة المارونية غنية ، ولكن جمهور رجال الدين يعيش فى فاقة ، وهو ،

---

* مات الامير بشير على الدين المسيحى فى بورسة [٢٩ كانون الاول (ديسمبر) عام ١٨٥٠] .

اذ يزرع اراضى الاديرة بايديه ، لا يكاد يكسب خبز يومه * . لقد وجد هذا الفساد دائما ، ولكنه اصبح ملموسا اكثر مع النفوذ السياسى الذى ناله رجال الدين فى الانقلابات المتتالية للقبائل الجبلية . اضطرب الموارنة ، رجال الدين والعلمانيون ، الصيف كله . وتحمل مجمع الاساقفة حصار العلمانيين والرهبان المسلحين بالهراوات ، الى ان تمكنت الاوليغاركية ، اخيرا ، من اعلان مرشح لها من شيوخ الى الخازن بمساعدة عملاء فرنسا ورسائل روما . ومع ذلك وجه هذا الصراع ضربة قرية الى تقاليد الموارنة البطريركية-الارستقراطية ، كما ان فتن المناطق الجنوبية تشكل ، رغم انتصار الشيوخ الدروز فى عامى ١٨٤١ و١٨٤٥ ، بادرة لسقوطهم الاكيد .

بعد تهدئة لبنان بامد قصير توفى علي باشا الدمشقى . ويؤكدون ان مصائب مسيحيى حاصبيا سممت ايامه الاخيرة وعجلت فى موته . كان علي باشا ذا قلب طيب رغم كل عيوبه ورغم كسله البليد . ومهما كان الامر ، بقى حتى النهاية حريصا على مطبخه اكثر من حرصه على الباشالك باسره ، وكان يناقش طباخه عن بهارات برغبة اشد من رغبته فى النقاش مع موظفيه حول تنظيم الشؤون المهملة فى الادارة . كان والى الباب العالى فى دمشق مولعا بالنبيذ والديوك الرومية اكثر من اى شيء آخر . كان يكرس لياليه للنبيذ ، مع ما يبعثه هذا من وساوس شديدة للسكان المؤمنين فى المدينة المباركة ، الشام الشريف ، باب وعبير جنة محمد ؛ ويمضى الصباح وسط ديوكه الرومية المنتقاة الثلاثمئة ، ولا يعهد الى احد غير رئيس اركانه برعاية هذا السرب المحبوب . وفى غضون ذلك هام مسيحيو حاصبيا على وجوههم بلا خبز ولا مأوى ، وفى حمص ، احدى مدن باشالك دمشق ، عذب المتسلم الشرس على الصليب خازن الناحية المسيحى الذى نهبه جيش الباشا غير النظامى ، واستجوب المطران ليتحدث عن الآلام الاخرى ، غير الصليب ، التى عاناها المسيح من اليهود . هكذا كان ولاة السلطان فى المناطق يتقيدون بالتعهدات المهيبة لبيان غولخانة ازاء القبائل التابعة وازاء اوربا .

كانت سورية باسرها ، باستثناء باشالك حلب الذى كان يرابض فيه

---

* فى تقرير بتاريخ ٢ ايلول (سبتمبر) عام ١٨٤٥ يصف بازيلى وضع رجال الدين الموارنة الصغار فى لبنان : « . . . كان استهتار الاوليغاركية المارونية بالاديرة وممتلكات الكنيسة صارخا . . . كان الرهبان الموارنة كادحين ، وقد انشأوا بعرق جبينهم الكروم وتعهدوا اشجار التوت والزيتون . وارغموا بايديهم الاراضى التى لم تزرع سابقا على توفير الدخول . لقد زادت التبرعات من ثروات الكنيسة . ولكن كان يبذر هذه الثروات عدد صغير من الاساقفة والقساوسة ، اما رجال الدين الصغار الذين يزرعون الارض فكانوا يرتدون قماشا صوفيا خشنا ويقتاتون بخبز الشعير وحده . ان جمهور رجال الدين الموارنة يعيش فى فقر فى حين ان الكنيسة المارونية هى بلا مبالغة اغنى كنيسة مسيحية فى سورية » . — **المحرر** .

حينذاك الفيلق العسكرى العربى ، غارقـة فى مستنقع الفوضى تحت تأثير العاصفة اللبنانية . فقد كانت قبائل المتاولة فى وادى بعلبك يمزقا العداء العائلى لاسرة الامراء حرفوش الحاكمة العريقة . كـــان خضوعهم للباشوات يقتصر على دفع الاتاوة ، والشىء الوحيد الذى كان يضمن هذا الدفع هـو ان الامراء كانوا منقسمين الى حزبين متنازعين ، فكانوا يظهرون فى دمشق بالدور ليبحثوا لدى الباشا عن حماية ضد بعضهم البعض . اما قبائل المتاولـــة الاخرى ، التى تسكن الوديان الجميلة ومنحدرات المناطق (الاطراف) النهائية من لبنان بين صيدا وصور فقد انعدت بروح جيرانها اللبنانيين وشكلـت كونفيدرالية فيما بينها واتفقت على دفع الاتاوة اللازمة الى الباشوات مع عدم السماح باى تدخل فى شؤونهم الداخلية . ان شيوخها ، اخلاف ناصيف نصار الشهير ، الذى اشرنا اليه لدى الحديث عن عهد الجزار ، لم يكونوا يظهرون فى المدن ، ولم يدعوا يوما الى ناحيتهــم موظفى الباب العالى ولا الجيش التركى . كان يطوف الجليل العديد من عصابات قطع الطرق . وارغم تعصب المسلمين كل سكان الناصرة المسيحيين على الفرار الى عكا . لقد حط محمد باشا قبرصلي ، قومندان القلعة ، الذى تربى فى باريس ، من شأن السلطة الحكومية الى درجة ان خيالته ، عوضا عن قمع السلب فى الناحية التابعـة له ، رفضوا الخدمة وصاروا ينهبون القرى ، وحينما تمكن الباشا من القبض على بعضهم والزج بهم فى السجن ، اندفع الآخرون فى رابعة النهار الى القلعة وانقذوهم .

وفى السامرة (فى جبال نابلوس استمرت الحرب الداخلية بين آل عبد الهادى والطوقانيين منذ عام ١٨٤١ ، وكانت تغدو فى كل سنة اكثر شراسة واراقة للدماء . وكان للعداء الكلاسيكى بين القيسيين واليمنيين فـى جبال اليهودية ممثلاه فى الشيخين سمحان وابى غوش . ان الشيخ مصطفى ابـى غوش ، حارس الشعاب المؤديـة الى القدس الذى يعرفـه كل حجاجنا [الروس] ، تمرد وقتل متسلمين عينهما باشا القدس . وقد حدث جفاف فى البادية الكبرى ، فزحفت جحافل جرارة من البدو تبحث عن مراع عند الاطراف الجنوبية لفلسطين ، وهناك كانت تتقاتل فيما بينها وتقطع المواصلات البرية بين سورية ومصر ، الى ان اتخذ محمد علي المصرى ، اخيرا ، اجراءات لابعادهم . ومن الجانب الشرقى لسورية على امتداد البادية الكبرى من حمص الى الجليل رحلت الى تخوم النواحى الماهولة قبائل اخرى من البدو ازاحها الجفاف عن ضفاف الفرات وعن سهوب شبه جزيرة العرب . وقبل ذلك بسنتين انتهك الباشا التركى ، الذى كان يقود القافلة الى مكة ، قوانين الضيافة وقتل غدرا فى مخيمه احد شيوخ الرحل . ومنذ ذلك الحين غلت الصحراء نقمة عـلى الاتراك وهددت بقطع المواصلات بين دمشق ومكة . ثم تمكن الاتراك مـن بذر الشقاق بين القبائل الرحل واستخدام الشيخ الشاب وذى المراسى محمد

دحي وفيدرالية الكثير من القبائل التى اعترفت بـــه رئيسا لها ضد شيخ اخر ، وهو ناصيف شلعان البالغ من العمر مئة وســت عشرة سنة ، والذى كان حتى ذلك الحين يتمتع بحق حراسة قافلة مكة . واستقرت القبائــــل المتخاصمة ، التى ربما كانت تضم نصف مليون شخص ، فى جوار دمشق ، وهناك صارت تتحارب وتنهب القرى وتقتات هى وقطعانها بالمحاصيل التى لم تنضج بعد .

هكذا كانت الحالة فى سورية فى عهد الباشوات الاتراك بعد حكمها خمس سنوات بلا منازع . وتجلى فى كل مكان التأثير الوخيـــم للقلاقل اللبنانية ومحاولات الباب العالى العاجزة او الغادرة لتنظيم ادارة القبائل الجبلية .

الفصل الرابع والعشرون

تخوفات الباب العالى . — قدوم شكيب افندي وزير الخارجية الى بيروت . — دخـــول الفيلق العسكرى الجبال . — اعتقـــال الشيــوخ . —نزع ســلاح الجبليين . — التشابه بين سورية وبين اوربا فى القرون الوسطى ومنطقة ما وراء القفقاس . — عزل قائـــم مقام الدروز . — التنظيــم النهائى للادارة اللبنانية . — تشكيـل المجالس . — مأثرة شكيب افندي . — اعـادة الهدوء الى سورية . — اهميـــة القضية اللبنانية بالنسبـــة الى القانون الدولى . — الخاتمة .

كان لارتداد عائلة الامير المسن بشير تأثير حاسم فى لبنان . قبل ذلك كانت كلتا الدولتين الكاثوليكيتين تثير عند كل ازمة خلافات جديدة بيــــن الحلفاء احيانا بالتماس علنى لاعادة الشهابيين ، واحيانا بمقاومة خفية لنجاح المبدأ الثنائى لادارة لبنان . وكانت انكلترا مـــــن جانبها تتواسط جاهدة للدروز ، اما الباب العالى فانه ، اذ اقام حساباته على هــذه الاصطدامات ، لم يتخل عن الامل فى تعيين باشا على لبنان رغم مقاومة الدول التى كانت على اجماع فى هذا الخصوص . أرغم ارتداد الشهابيين فرنسا والنمسا على التخلى عن فكرة الامارة الكاثوليكية فى سورية . وعلى هذا النحو عاد الاتفاق بيـــن حلفاء الباب العالى ، وحيث ان القضية اللبنانية اضجرت الجميع وكان الجميع يدركون حسابات الباب العالى جيدا ، فقد تكلمت السفارات فى القسطنطينية على نحو حاسم وجعلت الباب العالى يشعر بان القضية قد تحل بدون موافقته . وكانت تتخذ من يوم الى آخر مقاييس مسألة سياسيـــة اوربية تحت ضغط الرأى العام الذى ضايقه تذمر المسيحيين السوريين .

لم يكن تدخل الدول قائما على الحقوق المقدسة للبشرية ، والا كان عليه

ان يشمل الادارة الداخلية لكل قبائل الشرق المسيحية . كانت تمليه ضرورة ازالة اللوم والمسؤولية عن المصائب التى حلت بالمسيحيين السوريين بعد بعث حكومة السلطان فى هذه المنطقة بناء على قرار الـــــدول المسيحية . وطلبت السفارات باصرار ان يطبق باخلاص المبدأ الثنائى الذى اقترحـــه الباب العالى واعترف به الحلفاء فى عام ١٨٤٢ . هذا فى حين ان الباب العالى نفسه وكل ممثليه فى سورية كانوا يحاولون بشتى الحيل البرهان عـــلى استحالة تطبيق المبدأ الثنائى ويملأون لبنان دوريا بالدم واللهيب على امل ادخال الادارة التركية المباشرة فى الجبال .

كانت ميول الوزارات تنذر بوضع بروتوكولات فى صدد قضية لبنان . وتردد الباب العالى . كان يكره البروتوكولات جدا بعـــد الدرس الذى تلقاه فى نافارين على اساس البروتوكولات . وحـــل الوقت لوضع حد للتحفظات والحيل التى اصبحت مبتذلة وخطرة والشروع فى تنفيذ التعهدات المتخذة فى عام ١٨٤٢ .

ولهذا الغرض قرر الباب العالى الا يرسل الى سورية وجيها او محبوبـــا يكون ابعاده عن العاصمة ضروريا لوجيه ومحبوب آخر ، كما جرت العادة فى تركيا ، وكمـــا جرى مع السرعسكر نوري مصطفى والاميرال الاكبر خليل باشا ، بل انسانا عمليا يتمتع بالتجربة والمعارف . ووقع الخيار على شكيب افندى ، وزير الخارجية . كانت القضية اللبنانيـــة ، نظرا لمساهمة الدول
افندي ، وزير الخارجية . كانت القضية اللبنانيـــة ، نظرا لمساهمة الدول
التى زود بها المفوض الجديد للباب العالى عـــلى شكل مذكرة دبلوماسيـــة (بتاريخ ٢٣ رجب) الى سفارات الدول الكبرى ، فاقرتها .

ولما كانت الخلافات كلها تتركز على مسألة حقوق الشيـــوخ الدروز ازاء سكان اقطاعاتهم المسيحيين ، فـــان الحد من حقوق شيـــوخ الاقطاعات (المقاطعجية) وتعيين حقوق ممثلى السكان المسيحيين (الوكلاء) فى كل اقطاع كانا المادة الرئيسية لهذه المذكرة . وفى الوقت نفســـه اعلن الباب العالى نيته ان يحتل الجيش لبنان لصيانة الهدوء عند تطبيق نظام الادارة الجديد .

استدعى شكيب افندي كل الامراء والشيوخ ذوى السلطة من الدروز والموارنة مع قائم مقامى القبيلتين الى قصر بيت الدين ليعلن لهم مشيئـــة السلطان ان ينسوا الحزازات الدامية بين القبائل اللبنانية ويطبقوا بـــلا اعتراض التقييدات التى امرت بها الحكومة لحقوق شيوخ الاقطاعات الدروز ازاء المسيحيين ، وان يعترف الدروز بحقوق ممثـــلى المسيحيين . ووجه الى جانب ذلك امر بان ينزع من الجبليين الســـلاح الذى وزع عليهم فى عام ١٨٤٠ والذى لم يؤد الا الى الفتن الداميـــة . ولهذا الغرض دخل الجبال الفيلق العربى تحت امرة نامك باشا قبيل قـــدوم المبعوث المفوض مباشرة واحتل اهم النقاط الستراتيجية على التوالى . ولما لم تلق الفصائل المسلحة

اية مقاومة ، اخذت تطوف الجبال فى مختلف الاتجاهات وتصادر الاسلحة . وفى غضون ذلك كان الامراء والشيوخ ، الذين دعيوا الى بيت الدين ، قد احتجزوا فى الاعتقال مكرمين ، او ، حسب تعبير شكيب افندي ، كانوا ضيوفه . كان الاتراك يدركون جيدا ان الجماهير ، اذ تركت وشأنها بدون زعماء ، تستطيع ان تضج ، وان تقاوم فى بعض الاماكن ، ولكنها لا تستطيع الانتفاض .

اننا نشارف على انجاز مؤلفنا ، وقد استعرضنا الاحداث السورية في القرون الثلاثة الاخيرة وبحثنا بالتفصيل فى بداية وتطور المجتمع الاقطاعى للقبائل الجبلية التى اطالت الوجود السياسى للعنصر العربى تحت الحكم التركى فى هذه المنطقة . وراقبنا كذلك السمات الاولى للاتجاه البلدى للجماهير الشعبية وتأثير التحولات الحكومية للامبراطورية العثمانية فى هذا الاتجاه الخاضع فى كل مكان على حد سواء لقوانين التطور الطبيعى للمجتمعات المدنية . ورأينا الصراع بين هذين المبدأين والانتصارات التى تكاد ان تكون الاخيرة للقانون الاقطاعى فى المجتمع اللبنانى الذى يسبق بمدنيته القبائل الاخرى فى الاسرة العربية الكبرى . واذ درسنا الوقائع المعاصرة ، انتقلنا بفكرنا مرارا الى الحياة المدنية الداخلية للمجتمعات الاوربية فى القرن الخامس عشر واستوضحنا اسفار المانيا وشمال ايطاليا من خلال الاخلاق السياسية والحياة الخاصة للموارنة والدروز . يكفى تحطيم موشور الحديث التاريخى المهم ، الموشور السحرى للشعر والرواية ، لنتعرف عن كثب باسحف البارونات والكونتات الغربيين الذين حلوا ضيوفا على الشيوخ والامراء اللبنانيين ودرسوا معيشتهم البيتية وتقاليدهم العائلية واتجاه ونوابض نفوذهم السياسى * .

---

* ان البحث المفصل فى هذه المادة الطريفة لا يدخل فى نطاق هذا المؤلف . وانوه على الماشى بان افضل مدرسة لاستيضاح التاريخ المظلم والغامض للعصر الوسيط فى اوربا هى ، فى رأيى ، منطقة ما وراء القفقاس وسورية . سوف ينهار من الاساس الكثير من الاوهام التاريخية حول القرون الوسطى اذا اخذنا فى الاعتبار عند البحث فى احداث العالم الغربى من القرن التاسع الى القرن السادس عشر الحياة الاجتماعية والخاصة المعاصرة لنا لدى قبائل ما وراء القفقاس وسورية . ان كل قبيلة على حدة يمكن ان تشكل من حيث الدرجة الحالية لتطورها المدنى انعكاسا لحقبة معينة من تلك الفترة العظيمة التى يكمن فيها اساس احدث مجتمع اوربى . ومما يزيد من طرافة هذا البحث انه يكشف اكثر من اى شيء عن الفرق الجوهرى بين التطور السياسى للقبائل السلافية والتطور السياسى فى بقية اوربا . وفى الواقع ، فان القانون الاقطاعى غريب تماما عن كل القبائل السلافية ، ولم يكن يستطيع الا بالعنف ولوقت قصير ان يستقر احيانا عند بعضها ، كما حدث فى بولندا ، مثلا . ان احدا لن يخلط فى التاريخ الروسى بين اقطاعات الامراء من ياروسلاف الى ايفان الثالث او نظام القنانة الذى استقر فيما بعد وبين النظام الاقطاعى فى اوربا الغربية . ان القانون

كان شكيب افندي الوحيد بين اسلافه واخلافه فى سورية الذى دارك ان اطماع الباب العالى فى ان يطيح باوليغاركية لبنان الاقطاعية ويعرقل فى الوقت نفسه تطور الحقوق البلدية ويستعيض عن كل العناصر المحلية للسلطة ببيروقراطية حكومية هى امر يستحيل تحقيقه . ووجه جهوده بشكل سديد نحو جعل الحق البلدى المنبثق يخضع للنظام القانونى لدى الحد من الحقوق الاقطاعية .

تشكل مأثرة شكيب عهدا هاما فى التطور المدنى المطرد للقبائل اللبنانية ويمكن لها ان تكون معيارا لانتقال مجتمعات شرقية كثيرة من النظام الاقطاعى الى النظام البلدى .

لم يلق عوائق كبيرة عند الجماهير الشعبية ولا عند الاعيان لان الاصلاح الذى قام به جاء فى اوانه وكان يتفق والحاجة الجوهرية . ولكن فى صدد نزع سلاح الجبليين جلب شكيب على نفسه شكوات بعض ممثلى الدول الكبرى ، رغم ان هذا الاجراء كان بالنسبة الى كل مراقب غير متحيز شرطا للنجاح .

لنعد بانظارنا الى الحالة الداخلية للقبائل اللبنانية . لا شك فى ان المصريين ادركوا علم الادارة فى سورية خيرا من الاتراك . وفى عهدهم عرفت المنطقة لاول مرة التنظيم الصحيح للسلطة المدنية . بعد اضطرابات داخلية ازلية ، هدأ الجبليون تحت الاستبداد البطريركى لاميرهم وصاروا يدفعون اتاوات ضخمة ، ولكنهم عاشوا فى بحبوبة . وتمكن الامير ، كما رأينا ، من لجم عسف الشيوخ . بيد اننا نشير الى ان هذه البوادر الطيبة تزامنت مع نزع ابراهيم لسلاح الجبليين . ومنذ تلك الفترة فقط توطدت سلطة الامير وتخلت عن الوسائل غير الانسانية ، وعن التعذيب ، وعن النقمة الجماعية ، وعن اتلاف المحاصيل والمزارع ، وعن تلك الاجراءات الرهيبة التى كان هو واسلافه يبقون الشعب بواسطتها فى حالة امتثال ، ويعاقبون بها اقرباءهم على خيانتهم .

كانت دعوة الجبليين الى السلاح فى عام ١٨٤٠ ضرورية نظرا لقلة تعداد جيش السلطان ، واحدثت تأثيرا معنويا كبيرا بنشر التمرد باسم العاهل الشرعى ضد المغتصب . الا ان قوات الجبليين لم تقم باية مأثرة عملية فى الحرب . لقد دحضت احداث الحملة فى جبال لبنان وفلسطين ، شأن حربى الجبليين الداخليتين ، الوهم القائل بالشجاعة القتالية للمسيحيين اللبنانيين .

المشاعى او البلدى الذى نجد اساسه الجذرى ، وان كان قد شوهه ادخال العبودية ، من جهة ، والمركزية الادارية المفرطة ، من الجهة الاخرى ، قد بقى مع ذلك فى تشريعنا من ادارة الناحية الى انتخابات النبلاء ، وهو فى تناسق تام مع الشعور الشعبى بالسلطة الحكومية الواحدة . وهذا المبدأ يشكل ثروة قيمة لكل القبائل السلافية من الادرياتيك الى الفولغا ، ومن البلطيق الى البلقان ، فيصونها فى المستقبل من الهزات التى تتعرض لها عادة الشعوب التى فطمت على المبدأ الاقطاعى .

ليست بسالة الجبليين ، بل صخورهم وحدها هى التى جعلتهم فى الماضى بمنأى عن الحكم التركى المباشر . هذا فى حين ان الباشوات لم يكونوا يلقون اية مقاومة فى كل مرة ارادوا فيها التغلغل فى الجبال . ولان هذه القبائل لى تكن مقاتلة ادى السلاح الذى حصلت عليه الى الاضرار بها ، وقد حصلت على السلاح بكميات جعلتها تزود به جبال نابلس مقابل الحبوب التى كانت تأتيها من هناك ابان مجاعة عام ١٨٤١ . كان الصبيان فى الثامنة من العمر يرعون القطعان وعلى اكتافهم اسلحة الجنود الثقيلة .

ومنذ ذلك الحين لم يعد بوسع اية سلطة ان تتوطد فى لبنان ونابلس . وكل خلاف بين القرويين كان يتحول الى خلاف بين العائلات والطوائف والقبائل والاديان . ان اختلاف القبائل والاديان فى لبنان والحقوق الخاصة الممنوحة للقبائل الجبلية كانت تسبغ على هذه النزاعات مقاييس صراع سياسى ودينى وصراع بين مبدأين ، اقطاعى وبلدى . وفى جبال نابلس نرى ، على العكس من ذلك ، سكان متجانسين فى ظل وحدة دينية . لا يوجد بين ٢٥ الف عائلة مسلمة تقطن فى هذه الناحية الا سكان مسيحيون قلائل (قرابة الف عائلة) ، وهم لا يشتركون فى الحياة السياسية ؛ ويعانون فقط فتن المسلمين رغم انهم لا يساهمون اية مساهمة فى هذه الفتن . ولا يزال الاساس الاقطاعى يحتفظ هناك بكل قوته .

خاضت نابلس صراعا دؤوبا ضد الاصلاحات المصرية . انها ، وقد اخضعت وجردت من سلاحها وحرمت من ارستقراطيتها الجامحة ، تمتعت بالسلم الاضطرارى الى ان انتفضت مجددا احزاب عبد العادي والجرار وطوقان وبركوي كهيدرا بمئة رأس فى انقلاب عام ١٨٤٠ ، وتسلحت بفائض الاسلحة اللبنانية وخاضت اشرس حرب داخلية سنوات كثيرة على التوالى فى ظل رقابة الباشوات الضعيفة . ولما كان الاساس الاقطاعى هناك اقوى مما فى لبنان ، فان الصراع يتجلى فى صورة اخرى : الاحزاب تتقاتل ويحاصر احدها الآخر فى حصونه ويراق دم كثير ، ولكنها لا تحرق القرى ، ولا تتلف المحاصيل ، ولا تمس النساء والشيوخ والاطفال ، واذ لا تتوقع اى عون من الخارج ، لا تظهر اية نزوات ثورية .

فى نابلس ، كما فى لبنان ، احدثت الشخصيات نفسها النتائج نفسها مع فارق تأثير العناصر المحلية الحتمى فى تجليها . قبل ان تتخذ الاضطرابات فى لبنان طابع صراع سياسى ، انتشر العنف والقتل فى الجبال وتسللا الى احضان الاسر . وبعد الهدوء الذى فرضه على لبنان استبداد الامير بشير والحكم المصرى ، احتفلت هذه القبائل باعيادها الدامية خمس سنوات على التوالى ، اما الحزازات الدينية والاقطاعية فلم تؤد الا الى انفجارات لسيل فوضوى اجتاح الجبال . وكان كل من هذه الانفجارات يهز على نحو متزايد الاسس المعنوية للادارة المدنية ويثير الانفعالات ويفسد الشعب . ما ان

هدأت الحرب الداخلية عام ١٨٤٥ حتى فقد الموارنة ، الذين عانوا الكثير فيها ، اى احترام للسلطة ، واخذ الجبليون ، الامر الذى لم يعهد له نظير فى لبنان ، يهينون علنا عقيلة اميرهم ، وهى ابنة امير من آل شهاب ، باغان مقذعة فى مدينة الزوق ، تحت نوافذ البيت الذى اختبأت فيه من هجمة الدروز . ثم تغلغلت عدوى الفوضى فى رجال الدين الموارنة ، وبمناسبة انتخاب البطريرك هاج عدة اشهر على التوالى اكثر من ٣ آلاف راهب و١٠ آلاف قروى ، فى نواحى لبنان الشمالية .

فى ظل هذه السمات للحالة الداخلية فى الجبال كان لا بـد لمباشرة البناء الحكومى فيها بنجاح من نزع سلاح الجبليين مقدما . ومن الجهة الاخرى كانت مساهمة الدول الكبرى فى البناء الحكومى للجبال وتعهد الباب العالى بمنح لبنان الادارة الشعبية بعد المحاولة الفاشلة لادارته مباشرة تشيران الى ضرورة ان تصان فى المستقبل الامتيازات الممنوحة من نية الباشوات الشريرة ومن قيام الباب العالى بمحاولات جديدة للاخلال بالتعهدات التى اتخذها .

لقد رأينا كيف ان السرعسكر العديم المواهب سليم باشا وجه فتن عام ١٨٤١ على هواه وقضى على اخر امراء الشهابيين فى زوبعة الانفعالات الشعبية بسبب عدائه الشخصى له . كان لا بد من تقوية السلطة القائمة قدر الامكان لتخليص القبائل الجبلية من الفوضى التى عذبتها خمس سنوات كاملة . وكان على القوة المادية للسلطة الحكومية ان تكون ندا لتلك الوسائل التى يمكن للاحزاب ان تتمتع بها . ولا يمكن الا للطغيان العسكرى ان يضمن السلطة الشرعية وسط شعب مسلح . وهذه الوسيلة خطرة فى لبنان اكثر من اى مكان آخر ، وذلك انطلاقا من العلاقات المتبادلة بين القائم مقامين ، علاوة على انها لا تتناسب ابدا دخول المنطقة .

صادر اللواء التركى الاسلحة فى ناحية كسروان المسيحية . وفى صدد شجار بين آمر اللواء والقنصل الفرنسى بسبب اساءة وجهت الى عربى كان تحت حماية القنصلية تقدمت الفرقاطة الفرنسية «Belle-Poule» الى المعسكر التركى ، فبعثت التهديدات المهينة للكرامة التركيـة الجرأة فى الجبليين واثارت تعصب الجيش التركى . قبل ذلك كانت الاسلحة تصادر بلا اجراءات صارمة ، وبلا عنف تقريبا . ثم صب الاتراك حقدهم على الموارنـة بسبب الاساءة التى لحقتهم من ابناء ملتهم الفرنسيين . نهبت الكنائس واهين الكهنة وجلد الناس بلا شفقة الى ان هرع السرعسكر بنفسه الى هناك من قصر بيت الدين ليكبح جيشه ويعاقب الضباط المذنبين . الا ان كل محاولات الجبليين للمقاومة كانت عبثا . ففى ناحية جبة بشرى التى يمكن اعتبارها منيعـة بموقعها ، احتل بضع مئات من الموارنة الشعب لكى لا يسمحـوا للجيش التركى بدخول قراهم ، ولكن فى حال ظهوره وعند اول اطلاق للنار وبعد

ان جرح شخصان او ثلاثة فر الباقون ، وسلم تيرمويبيل اللبنانى هذا ، كما كان يسميه الفرنسيون ، سلاحه بخضوع .

نزع من القبائل اللبنانية على هذا النحو ٢٠ الف بندقية فى خلال تشرين الاول (اكتوبر) وتشرين الثانى (نوفمبر) . ولا شك فى ان الكثير من الاسلحة - ربما العدد نفسه - قد اخفى عن الباحثين ، ولكن هذا الاجراء كان مع ذلك منقذا سواء من حيث الانطباع الذى احدثه فى تفكير الشعب فى ارجاء سورية باسرها او لان الحق فى حمل السلاح صار يخضع فى المستقبل لبعض التقييدات البوليسية .

اطلق سراح ضيوف شكيب افندي فى بيت الدين وانتقلوا على اثره الى بيروت وهم مفعمون امتنانا له بسبب لطفه وعدله ، وجرى على الفور الشروع فى حل الكثير من المسائل فى صدد ادارة لبنان الداخلية . ان التأثير المجدى المنجاح فى نزع السلاح ازال كل العقبات التى بدت حتى ذلك الحين مستحيلة الاجتياز فى التطبيق العملى لنظام عام ١٨٤٢ . كانت هناك منذ زمن بعيد تذمرات من قائم مقام الدروز الامير احمد ارسلان بسبب خلقه الصعب وشحة ومعاملته الفظة . وقد عزله شكيب افندي ، وعين مكانه شقيقه الامير امين ، وهو انسان ذو تفكير مرهف وخلق رضى .

تم انتخاب وكلاء السكان المسيحيين فى المناطق التى يديرها الشيوخ الدروز باتفاق مشترك من الجانبين ، وثبتت حقوقهم وقررت علاقاتهم بالشعب والشيوخ وبالقائم مقامين . وعينت كل نفقات ادارة لبنان الداخليــة دون تجاوز حدود مبلغ الضريبة الذى فرضه الباب العالى ، وهو ٣٥٠٠ كيس يرد منها الى الخزينة ١٢٠٠ كيس فقط . واقرت قاعدة جبى الضرائب بالتساوى بدون اية امتيازات شخصية او عائلية او محلية ، وحددت نواحى كلا القائم مقامين . واخيرا ، انجز شكيب افندى الاصلاح بانشاء مجلس لدى كل من القائم مقامين تمثل فيه كل الاديان ويخول بالسلطة القضائية وتوزيع الضريبة ومراقبة جبايتها . وهذا القرار لجم ، من جهة ، الاستبداد الاقطاعى ، وسوى ، من الجهة الاخرى ، بين كل الطوائف والقبائل التى كانت ترهقها منذ القدم اولوية قبيلتى الدروز والموارنة الحاكمتين .

ولكن اهم هذه القرارات هو ما يقوم عليه قوامها جميعا ، اى ابعـاد الباشوات عن الشؤون الداخلية للقبائل الجبلية . فى حالة الخلافات بين القائم مقامين وفى حالة انتهاكهمــا للنظام المرسوم فقط يمنح والى الباب العالى حق النظر فى القضية او الشكوى ، ولكن لا كما يحلو له او وفـق ارشادات الباب العالى ، بل بمعنى تطبيق القانون المحلى فقط .

وننوه بان هذه القرارات من حيث مساهمة الدول المتحالفة فيها لا يمكن نقضها بدون موافقتها ومساعدتها . ومن هنا ينبع حق الدول فى المعارضة فى حالة التفسيرات الكيفية للامتيازات المحلية ، وبالتالى واجب المراقبة والتدخل

الدائمين . وهذه الضمانة تدرج الامتيازات اللبنانية فى ميدان القانون الاوربى الدولى . الا انه لم يعبر عنها فى اية وثيقة رسمية ، لانها تتنافر ، ولا شك ، مع الكفالة القريبة العهد لوحدة واستقلال الامبراطورية العثمانية .

نترك للزمن ان يبين الفوائد والاضرار العملية لضمانة الدول الخمس فى قضية تتعرض لشتى المصادفات : لتفجر الحزازات وانتفاضات الشعب الجديدة ضد الاعيان الاقطاعيين احيانا ، ولمساعى الباب العالى وتقلبات الباشوات وانانيتهم احيانا اخرى . من يضمن اجماع الدول القائم او المستمر ؟ فى حالة اختلافها يستطيع الباب العالى ان يرد على طلبات كل منها بانه يفترض فى قضية دولية ان يكون الوكلاء والمستشارون عن اتفاق فيما بينهم قبل كل شىء . ومسألة القانون تلقت على الاقل حلا مواتيا بالنسبة الى تطور اصالة القبائل العاجزة عن النضال من اجل اصالتها ضد الوسائل الحالية للحكومة العثمانية التى استعاضت عن اساليب الفظائع والتنكيل السابقـــة بالغدر المنتظم . وفى هذا الخصوص تنطوى القضية اللبنانية على مغزى سياسى اهم وانبل بما لا يقارن من مسألة مصر التى حلت قبل ذلك بخمس سنوات . فى مصر ضمنت الدول الكبرى حقوق عائلة واحدة ، وفى لبنان حقوق الشعب ، على غرار روسيا التى ضمنت قبل ذلك بامد طويل حقوق الشعب فى امارات الدانوب الثلاث ، لا حقوق العائلات الحاكمة . ومهما كان الامر ، فان حقوق السلاطين السلطوية سواء فى مصر او فى لبنان خضعت ، كما على الدانوب ، لتقييدات شكلية فى مصلحة البشرية .

فى ربيع عام ١٩٤٦ ودعت كل الفئات شكيبا بالامتنان والتبجيل حينما استقل الباخرة عائدا الى القسطنطينية . وحسب الطقس الدينى لدى المسلمين نحرت الخراف ضحية فى ميناء بيروت وصلى الحشد بمبادرة منه ، متمنيا له سفرا ميمونا . وكان هذا الشعور صادقا . اذ كان الجميع يعرفون ان النقمة حلت على شكيب وجرد من حقيبته الوزارية . ولكن القبائل السورية كانت تقدر خدماته .

كان للنهاية الموفقة للقضية اللبنانية افضل تأثير فى المنطقة كلها . فقد توقفت فتن نابلس فى حال ظهور محمد باشا القبرصلي اياه الذى نقل من عكا الى القدس ، والذى لم يستطع ابان ادارة سنجق عكا ان يدبر امره مع باشى بزقه ، لان السلطة الحكومية فى ذلك الحين لم تكن توحى باى خوف تحت تأثير البلبلة اللبنانية ، واخذ محمد باشا مع كتيبتين ، وبحضور حزبى عبد الهادى وطوقان المتخاصمين ، يحطم حصن عراب الذى كان وكرا للتمرد منذ زمن الجزار . اما مدينة خليل الرحمن (الوارد ذكرها فى العهد القديم باسم يفرون او حبرون) ، التى يجلها على حد سواء اليهود والمسيحيون والمسلمون لوجود مدافن للبطاركة القدماء فيها ، فكانت منذ انسحاب المصريين فى سلطة شيوخ عمرو الذين عاثوا فسادا فى جنوب فلسطين دون ان ينالهم اى عقاب

وابتزوا الاتاوات من الشعب وعقدوا صلات بقبائل البادية الكبرى . انقض محمد باشا على خليل الرحمن واستولى عليها وعاقب المتمردين ، وباعادة سلطة السلطان الى هذا التخم من الصحراء الكبرى صان فلسطين من البدو الجشعين . وما لبث ان تم اعتقـــال ال غوش الشهيرين ، هؤلاء الحراس الجامحين لشعاب فلسطين ، وزج بهم فى السجن . واخذت الحكومة تجمع بنجاح فى كل مكان متأخرات الضرائب الحكومية التى تراكمت على امتداد ست سنوات .

هكذا كان التأثير المباشر لنجاح القضية اللبنانية . ولكن الباب العالى كان حاقدا على مبعوثه فعينه رغم ارادته سفيرا فى فيينا ليحرمه من اية مساهمة فى المسيرة اللاحقة للنظام الذى فرضه بالاتفاق والمشاورة مع ممثلى الدول الكبرى . لقد حط ، فى رأى الباب العالى ، من كرامة الحكومة العثمانيـــة وضحى بمصالح الدولة لارضاء الدول المساهمة فى حل القضية . ومما زاد فى نقمة الباب العالى ان مبعوثها عرض المشروع الذى وضعه على القناصل العامين فى بيروت لمناقشته ، حيث كان على قناعة تامة بان القبائل الجبلية ، التى تعودت على ان تثق بممثلى الدول المتحالفـــة اكثر من ثقتهـــا بالباشوات وبالمبعوثين الاتراك ، سوف تقاومه من جانبها حتما فى حالة مقاومة الممثلين الاجانب له . كان الباب العالى يميل جدا الى ادخال تعديلات كبيرة فى المشروع ليترك للباشوات مجالا ارحب للتدخـــل فى شؤون لبنان الداخلية . ولكن القناصل فى بيروت والسفراء فى القسطنطينية وافقوا على المشروع بكامله ، فاضطر الباب العالى بدوره الى اقراره مرغما .

ومع ذلك فانه لم يفقد الامل بعد فى ان يعقد القضية مجددا وينسف بمساعيه المعهودة الامتيازات الممنوحة للقبائل الجبلية . ولهذا الهدف عين كامل باشا ، العدو الشخصى لشكيب * ، واليها للسلطان فى بيروت مع تكليفه بمراقبة مسيرة الادارة الجديدة ونظام الامور الجديد فى لبنان . لم يتوان كامل بعد تعيينه عن الاعراب عن ميوله . وصار يبحث ، على غرار سابقيه ، ذريعة للتدخل فى شؤون لبنان ، وبحجة سوء التفاهـــم فى النظام المقرر او الصعوبات التى تظهر فى تطبيقه العملى اخذ يبرهن على ضرورة التفسيرات والتعديلات . ولكن ممثلى الدول الكبرى حرصوا بصرامة على حرمة الامتيازات اللبنانية وارغمت شكواتهم الباب العالى على عزل كامل .

---

* نشبت العداوة بينهما للسبب التالى : فى عام ١٨٤٣ عقد كامل ، حينما كان باشا على بلغراد ، القضايا فى الصرب وجلب نقمـــة البلاط الروسى على الباب العالى . وقد فضح شكيب افندي ، الذى ارسل مبعوثا الى الصرب ، كل سلوك كامل الذى لم يستطع ، مع انه كان يعمل بوحى من الباب العالى ، ان يخفى مساعيه بمهارة كافية . وعزل نتيجة لاتهام شكيب له ، وبرد الباب العالى نفسه ، واضعا الذنب كله عـــلى كامل .

في عام ١٨٤٧ حل مكانه مصطفى باشا الاسكداري الشهير ، الذي كان يوما متمردا مقداما ضد محمود واخر تابع تغلب عليـــه محمود في الصراع الطويل الذي خاضه الحكم الاوحد للسلطان ضد الاقطاعية الحكومية . وحرصا من السلطان على مبادئ حكمه السياسية الجديدة ، لم يطالب بتعليق رأسه على بوابة السراي وعفا عنه ، بل محضه عطفه ، مكتفيا بمصادرة ممتلكاته . برهن اختيار الوالي الجديد على ان الباب العالي تخلى ، لفترة قصيرة على الاقل ، عن الفكرة التي استرشد بها حتى ذلك الحين ، واجل مآربه لتخطي الامتيازات اللبنانية الى ظروف انسب . ليس مصطفى اهلا للدسائس . وهو لا ينتمي الى فئة رجالات الدولة الحاليين في الامبراطورية العثمانية ويحافظ على الخلق المستقل لاصله الالباني . انه يسير بصرامة على هدى القواعد التي وضعها شكيب حول عدم تدخل الباشوات في شؤون لبنان ، وهو مقتنع ضمنا بان المصلحة الوطنية للامبراطورية العثمانية تملي التنفيذ المنزه للالتزامـــات المتخذة لتجنب اعطاء الدول ذريعة جديدة للتدخل في الشؤون الداخليـــة للامبراطورية .

ان المتمرد الالباني ، الذي عفا عنه محمود واغدق عليه من لطفه ، قدم في هذه الحالة خدمة جوهرية لابن محمود . وحسب حديثـــه هو عن ظروف التمرد الذي قام به في البانيا ، حينما كان يتمتع بحكم اسكدار وراثيا ، كانت انانية ودسائس محبوبي ذلك العهد الاسباب الرئيسية لذلك ، واذا كانت بيروقراطية استنبول في ذلك العهد ، حينما كان اسم السلطان يبعث الهلع في الحكومة ، تتمتع بذلك التأثير الوخيم في المناطق ، فهل ثمة ما يثير الدهشة في مساعي الحكومة التي تمكنت من ان تحمي نفسها بقسم غولخانة من تعسف عاهلها ؟

لقد مضى عهد تمردات الباشوات بلا رجعة . وكانت تدابير الباشا المصري التي اتينا على وصفها اخر فصل في هذه الدراما التي استمرت قرنين . وانهار التنظيم الاقطاعي الحكومي في ايامنا . وبقـــى على الباب العالي ان يخوض الصراع ضد القبائل التابعة ونظامها الاقطاعي ، ضد محاولاتها الناضجة او غير الناضجة للوجود المستقل وعدم التبعية ، ضد تطلعها الى المساواة مع القبيلة الحاكمة على الاقل . ولكن ليس من المتوقع حدوث صراع مع ولاة السلطان . ان ضعفهم يشكل ضمانة لاخلاصهم . والطبيعة نفسها تساعد الباب العالي في هذا الخصوص . ويبدو ان الوهن يدب في القبيلة العثمانية في عصرنا . انها لم تعد تنجب امثال علي باشا تيبيرليني ، ولا الجزار ، ولا محمد علي ، ولا كوجول علي اوغلو حتى ولا من يضارعهم الدريبهوات النهابين . والظاهرة نفسها تنطبق ايضا على رجالات الدولة في تركيا . لقد مضى عهد الوزراء على غرار ال كوبرولو ، ومن المستبعد ان يعطي الجيل الحالي الدولة حتى رجالا مثل برتيف وخسرو في عهد محمود .

بعد عام ١٨٤٠ ضمنت وجود الامبراطورية العثمانية تعهدات متبادلة من الدول الكبرى فى حالة صراع السلطان ضد اخر التابعين المتمردين . فهل تشمل هذه الضمانة الصراعات المقبلة حتما ضد القبائل الخاضعة ؟ ان الباب العالى واثق بهذا ، وذلك على الاقل لانه يتحمل بصبر جلود كل المطالب وكل الاهانات التى تصيبه من تدخل الدول المتواصل فى شؤونه الداخلية ، فى هذه العملية التى لا نهاية لها بين الحكومة واتباعها . ان مجرى القضيـــة اللبنانية من عام ١٨٤١ الى عام ١٨٤٦ الذى عرضناه بالتفصيل وتصرفات ومطامع الباب العالى ، وسلوك باشواته ومبعوثيه فى سورية ، والميل الذى اعربت عنه القبائل الجبلية ، وعادة توجهها بالشكوات على حكومتها الى ممثلى الدول الكبرى ، ومساهمة الوزارات العملية فى تطور وحل مسألة تخص على وجه الحصر الادارة الداخلية لدولة كانت الدول الكبرى قد ضمنت استقلالها قبل ذلك تشكل بمجملها مهمة معقدة فى غاية التعقيد للقانون الدولى ومهمة اعقد بالنسبة الى قانون الدولة الذى يتكون حاليا فى الامبراطورية العثمانية .

لقد قدرنا بلا تحيز الافضليات التى منحت او ستمنح للقبائل الخاضعة للسلطان فى ظل النظام الحكومى الحالى مقارنة بمعيشتها السابقة . ان التطور الداخلى لهذه القبائل العريقة فى الشرق العثمانى يدهش المراقب منذ عدة سنوات . وجديرة بالذكر ايضا تلك الظاهرة الطريفة ، وهى ان الحكومة العثمانية نفسها مع كل جهودها لعرقلة تطور الاقوام قد حكم عليها بناء على الاتجاه السياسى الذى اقر فى عام ١٨٣٩ ان تساعد على تطورها التقدمى .

هذا هو ، فى رأينا ، تأثير التضييقات والاضطهادات التى عانتها القبائل الخاضعة منذ ان حل مكان الاستبداد القديم القضاء والتنكيـــل المجردان من الاخلاق والاخرقان والمنحازان دوما الى القبيلة الحاكمة . منذ عام ١٨٣٩ وضعت الحكومة العثمانية نفسها امام ضرورة ان تعلن على مسمع اوربا والقبائـــل الخاضعة نظريات لا تتحقق حول المساواة ووعودا يعادل تنفيذها التنازل عن الحكم ، لان المساواة فى الحقوق بين القبائل ، كما هى بين الشرائح ، تتنافر مع منح السلطة لقبيلة واحدة او لشريحة واحدة . وعلاوة على ذلك فان الدعوة الى القانون تنشر بجهود الحكومة نفسها ، التى تعاند فى الصراع ضد القبائل الخاضعة ، بين هذه القبائل وتطور فى الجماهير شعورا جديدا . ان وجود مفهوم مسبق عن القانون يشكل اهم شرط لتحقيق القانون .

ومهما كان الامر ، فان هذا الطريق تعترضه محن مرة . واذا حسبنا كل المصائب التى عانتها القبائل اللبنانية من عام ١٨٤١ الى عام ١٨٤٥ تحت راية الانسانية الرسمية للحكومة ومعاملة الباشوات الحسنة للجبليين ، فاننا نجد ، ولا شك ، انه فى هذه السنوات الخمس اريق فى لبنان من الدماء وابيد من الناس وارتكب من الشرور اكثر مما جرى فى عهد الجزار العاتى على امتداد ثلاثين سنة .

محتويات

تنويه

نعتذر عن وقوع اخطاء فى الكتاب نشير الى اهمها

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٣٥	١٢	عى	على
٤٠	٣٣	حرا ابنه ، رجلا	حرا ، رجلا
٥١	١٦	ضاهرا	ضاهر
٥٥	٥	يكفران	يفكران
٦٣	١	ذكره	ذكرى
٦٥	٢٦	لخياله	طغيانه
٧٠	٨	حظ التباهى	التباهى
٧٢	١٠	بامبى	بامد
٧٧	١	جبال	جبال نابلس
٩٢	٣١	لا اكثر	لاكثر
١٠٣	١٧	من قيادة	حق قيادة
١١٣	١٧	الجرية	الجريئة
١١٩	١٦	المسجاة	المسماة
١٢٤	٨	الديون	الديوان
١٢٦	٣٠	والقماط	والقماطر
١٤٠	٣	يؤمن	لم يؤمن
١٧٦	٢٥	ودودا	ردودا
١٨٥	٢	للتجارة	للنجاة
١٩٣	١	ويعيد	ويعهد
٢٠١	٣٥	ومتميز	ومتحيزة
٢٢٦	٤	يتباهر	يتباهى
٢٤١	١٨		يقرأ بعد السطر ١٩
٢٥	١٨	من قرره	من قدره
٢٧٥	٣	مشقها	مشقتها
٢٨٠	٨	النسال	النساك
٢٩١	١٨	الغربية	الغريبة
٣٠٠	١	عوازيق	خوازيق
٣٠٥	٢٤	ومن ثانية	وفر ثانية
٣٠٨	٤	وفض	رفض
٣١٨	٦	يكربه	يكرمه

٣١٨	٣٢	جيش	حبيش
٣٢١	٤	الحاكى	الحاكم
٣٢٦	٢٣	الى وقت	الى التمرد وقت
٣٣٣	٢٩	لبحث	ليحث
٣٣٧	٢٢	اسق	اسعد
٣٤٥	٢٣	ممثلاه	ممثلا
٣٤٨	١٩	يقرأ على الشكل التالى : الكبرى فيها ، تخضع لوزارة الخارجية . وقد وردت التعليمات والصلاحيات	
٣٥١	١٣	سكان	سكانا
٣٥٥	٢٣	واليها	واليا
٣٥٥	٣٤	وبرد	وبرر

SYRIA AND PALESTINE UNDER OTTOMAN RULE

سورية وفلسطين

تحت الحكم العثماني



في هذا الكتاب الذي بين أيدينا يكتب قسطنطين بازيلي، وهو مراقب وشاهد عيان كما يقال، بقلم المؤرخ عادة، عن أحداث وقعت في سوريا الكبرى زمن حكم السلطان محمود، وهي فترة النصف الأول من القرن التاسع عشر، فيتطرق الحديث عن أحداث عظيمة، ولكنه بلا شك يمارس أحياناً أخرى دور الباحث الأنثروبولوجي، وهو يعلل سبب سلوك القبائل وتقلبات ولاءاتها وانحيازاتها وتعصباتها، وسنجد الكتاب حافلاً بالحديث عن أزمة الخلافة العثمانية مع الوالي محمد علي الذي تمرد على السلطان، وأراد أن يقتطع من الأراضي له ولعائلته الكثير. فاحتل سوريا وبلغ أن يقترب من أسطنبول، لولا ظروف حالت دون ذلك، ليس التدخل الأوروبي إلا أحد أسبابها.


ISBN: 978-6589-09-960-4
9 786589 095604



الأردن، عمان، وسط البلد، بناية 2، وبناية 34
ص. ب 7855 هاتف 0096264638688
فاكس 0096264657445 منشورات 2018